أنا مدينة العلم وعلي بابها

في ظلال

نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الخامس

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

سامي الغريري

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

www.haydarya.com

في ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الخامس

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

سامي الغريري

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ٦٦٧٢
التاريخ:

BP
۳۸/۰
۱۴/
۹ف
۱۲ق
۵۰

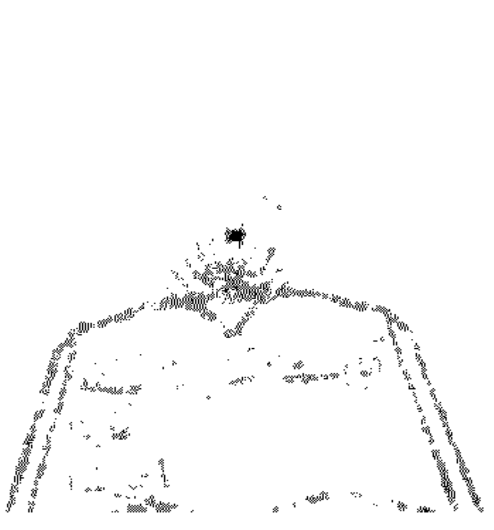

النجف الاشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع مسجله و محفوظه للناشر

الكتاب .... فى ظلال نهج البلاغة (ج ٥)

المؤلف .... العلامه محمدجواد مغنية رحمه الله

الناشر............................ دارالكتاب الاسلامي

الطبعه .... الاولى ١٤٢٥ ه‍. ق / ٢٠٠٥ م

المطبعه............................ مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي للمجموعة: ٦ - ١٠٠ - ٤٦٥ - ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 100 - 6

الترقيم الدولي (ج ٥): ٧ - ١٠٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 105 - 7

فهرس الموضوعات

اَلْرِّسَالَة ـ ١ ـ ١٩

إلىٰ أَهْل الْكُوفَة: ١٩

اَلْرِّسَالَة ـ ٢ ـ ٢٧

أَيضَـاً أَهْل الْكُوفَة: ٢٧

اَلْرِّسَالَة ـ ٣ ـ ٢٩

شُرَيْحُ وَالدَّار: ٢٩

اَلْرِّسَالَة ـ ٤ ـ ٣٧

جِهَاد أَهْل الْبَغْي: ٣٧

اَلْرِّسَالَة ـ ٥ ـ ٤١

الوَظِيفَة أَمَانَة لاَ طُعْمَة: ٤١

اَلْرِّسَالَة ـ ٦ ـ ٤٥

الْبَيْعَة لأَهْل الْحَل والْعَقد: ٤٥

اَلْرِّسَالَة ـ ٧ ـ ٥١

جوَاب الإِمَام لِمُعَاوِيَة: ٥١

ٱلْرِّسَالَة ـ ٨ ـ ٥٥
إلىٰ جَرِير البَجَليّ: ٥٥
ٱلْرِّسَالَة ـ ٩ ـ ٥٨
النَّبِيّ وَقُرَيْش: ٥٨
نَحْنُ وُحُوشٌ: ٦٣
ٱلْرِّسَالَة ـ ١٠ ـ ٧١
ٱلدُّنْيا ومُعَاوِيَة: ٧١
ٱلْرِّسَالَة ـ ١١ ـ ٧٧
فَنُّ ٱلْحَرْب: ٧٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ١٢ ـ ٨١
لاٰ تُقَاتِلَنَّ إلاَّ مَنْ قَاتَلَكَ: ٨١
ٱلْرِّسَالَة ـ ١٣ ـ ٨٥
حَوْلَ مَالِكَ الأَشْتَر: ٨٥
أَبُو ذَرّ وَشِيعَة جَبَل عَامِل: ٨٨
ٱلْرِّسَالَة ـ ١٤ ـ ٩١
لاٰ تَقْتُلُوا مُدْبِراً: ٩١
ٱلْرِّسَالَة ـ ١٥ و ١٦ ـ ٩٥
مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا: ٩٥
ٱلْرِّسَالَة ـ ١٧ ـ ١٠١
مُعَاوِيَة يُسَاوِم عَلِيّاً: ١٠١

ٱلْرِّسَالَة ـ ١٨ ـ ١٠٩
الْبَصْرَة مَهْبِطُ إِبْلِيس: ١٠٩
مَنْ هُو العَالِم؟ ١١١
المُوظَف: ١١٢
ٱلْرِّسَالَة ـ ١٩ ـ ١١٥
المُعَاهدُون: ١١٥
ٱلْرِّسَالَة ـ ٢٠ ـ ١١٧
تَهْدِيد زِيَاد ٱبن أَبِيه: ١١٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ٢١ ـ ١١٩
مَوْعِظَة زِيَاد ٱبن أَبِيه: ١١٩
ٱلْرِّسَالَة ـ ٢٢ ـ ١٢١
حَوْلَ السُّرُور وَالْأَسَف: ١٢١
ٱلْرِّسَالَة ـ ٢٣ ـ ١٢٣
وَصِيَّة الإِمَام بِٱبن مُلْجَم: ١٢٣
الإِمَام يُوْصِي بِقَاتِلِهِ: ١٢٥
ٱلْرِّسَالَة ـ ٢٤ ـ ١٢٩
وَصِيَّة الإِمَام فِي أَموَالِه: ١٢٩
شِعَار عَلِيّ سَيْفٌ وَمِغْوَلٌ: ١٣٠
ٱلْرِّسَالَة ـ ٢٥ ـ ١٣٩
الْعُمَّال: ١٣٩

ٱلرِّسَالَة ـ ٢٦ ـ ١٤٥
أَعْظَمُ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ: ١٤٥
ٱلرِّسَالَة ـ ٢٧ ـ ١٤٩
إِلىٰ مُحَمَّدِ بْنَ أَبِي بَكْر..فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٤٩
الصَّبْر مَصْدَر السَّعَادَة: ١٥٢
لاَ تُسْخِط الْخَالِق بِرِضَىٰ الْمَخْلُوق..فِقْرَة ٣ ـ ٦: ١٥٤
لاَ تَدَع الإِلْحَاح عَلىٰ اللهِ: ١٥٨
بَاعُوا دِينهُم لِلشَّيْطَانِ: ١٥٩
ٱلرِّسَالَة ـ ٢٨ ـ ١٦١
إِلىٰ مُعَاوِيَة..فِقْرَة ١ ـ ٣: ١٦١
لَسْتُمْ هُنَاكَ..فِقْرَة ٤ ـ ٧: ١٦٦
أَوْلَىٰ ٱلنَّاسِ بِالنَّبِيِّ: ١٧٣
شَجَاعَة الإِمَام٧: ١٧٧
ٱلرِّسَالَة ـ ٢٩ ـ ١٧٩
إِلىٰ أَهْل الْبَصْرَة: ١٧٩
ٱلرِّسَالَة ـ ٣٠ ـ ١٨٣
إِلىٰ مُعَاوِيَة غَايَة الْخُسْر: ١٨٣
ٱلرِّسَالَة ـ ٣١ ـ ١٨٧
وَصِيَّتِهُ لِلإِمَام الْحَسَن٨: ١٨٧
صُلْح الْحَسَن وَٱستِشْهَاد الْحُسَيْن: ١٨٨

لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ..فِقْرَة ٣ ـ ٥: ١٩٤
وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ: ١٩٨
قَلْبُ الْحَدَثِ..فِقْرَة ٦ ـ ٧: ١٩٩
مَا أَكْثَر مَا نَجْهَل؟ فِقْرَة ٨ ـ ١٠: ٢٠٤
لاَ يَأْمُرْ الله إِلاَّ بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلاَّ عَنْ قَبِيحٍ..فِقْرَة ١١ ـ ١٢: ٢٠٩
الْحُبّ..فِقْرَة ١٣ ـ ١٤: ٢١٢
اَلْدُّعَاء..فِقْرَة ١٥ ـ ١٦: ٢١٧
لِمَاذَا اَلْدُّعَاء؟ ٢١٩
هَل اَلْدُّعَاء مِفْتَاح اَلْرِّزْق؟ ٢٢٠
خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا..فِقْرَة ١٧ ـ ١٨: ٢٢١
لمَاذَا خُلِق الإِنْسَان؟ ٢٢٣
الإِمَام يُقْسِم النَّاس إِلىٰ قَوّي وضَعِيف: ٢٢٥
أَكْرِمْ نَفْسَكَ..فِقْرَة ١٩ ـ ٢٠: ٢٢٧
رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً..فِقْرَة ٢١ ـ ٢٢: ٢٣٣
الصَّدَاقَة وَالصَّدِيق..فِقْرَة ٢٣ ـ ٢٤: ٢٣٧
حَقّ الصَّدِيق: ٢٣٨
اَلْرِّزْق..فِقْرَة ٢٥ ـ ٢٦: ٢٤٤
السُّلْطَانُ وَالزَّمَانُ..فِقْرَة ٢٧ ـ ٢٨: ٢٤٩
الْمَرْأَة وَالْمَشُورَة: ٢٥٢
اَلْرِّسَالَة ـ ٣٢ ـ ٢٥٧

إِلىٰ مُعَاوِيَة: ٢٥٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ٣٣ ـ ٢٥٩
إِلىٰ قُثَم بن الْعَبَّاس: ٢٥٩
ٱلْرِّسَالَة ـ ٣٤ ـ ٢٦٣
إِلَىٰ مُحَمَّدِ بْنَ أَبِي بَكْر: ٢٦٣
ٱلْرِّسَالَة ـ ٣٥ ـ ٢٦٧
إِلَىٰ عَبدالله بن الْعَبَّاس: ٢٦٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ٣٦ ـ ٢٧١
إِلىٰ أَخِيه عَقِيل: ٢٧١
الْإِمَام وَالنَّاس: ٢٧٤
ٱلْرِّسَالَة ـ ٣٧ ـ ٢٧٧
إِلىٰ مُعَاوِيَة: ٢٧٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ٣٨ ـ ٢٧٩
إِلىٰ مَالِك الْأَشْتَر: ٢٧٩
ٱلْرِّسَالَة ـ ٣٩ ـ ٢٨٧
إِلىٰ أبن العَاص: ٢٨٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ٤٠ ـ ٢٩١
إِلىٰ بَعْضَ عُمَّالِهِ: ٢٩١
ٱلْرِّسَالَة ـ ٤١ ـ ٢٩٣
قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٩٣

يُنَادِي الظَّالِمُ بِالْحَسْرَةِ...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٢٩٧
آلرِّسَالَة ـ ٤٢ ـ ٣٠١
إِلىٰ عُمَرَ المَخْزُومِيِّ: ٣٠١
آلرِّسَالَة ـ ٤٣ ـ ٣٠٣
إِلىٰ مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة: ٣٠٣
آلرِّسَالَة ـ ٤٤ ـ ٣٠٧
إِلىٰ زِيَاد أبن أَبِيه: ٣٠٧
الْعَقَّاد وَدُهَاة الْعَرَب: ٣٠٩
آلرِّسَالَة ـ ٤٥ ـ ٣١٣
إِلىٰ عُثْمَانَ بن حُنَيْف الأَنْصَاري...فِقْرَة ١ ـ ٤: ٣١٣
الشَّجَرَة الْبَرِّيَّة...٥ ـ ٩: ٣٢١
الإِمَام فِي جِهَاد دَائِم: ٣٢٨
آلرِّسَالَة ـ ٤٦ ـ ٣٣١
الرِّفْقُ بِالرَّعِيَّة: ٣٣١
آلرِّسَالَة ـ ٤٧ ـ ٣٣٥
حِين ضَرَبَهُ أبنُ مُلْجَم: ٣٣٥
آلرِّسَالَة ـ ٤٨ ـ ٣٤٩
أَيضاً إِلىٰ مُعَاوِيَة: ٣٤٩
آلرِّسَالَة ـ ٤٩ ـ ٣٥٣
الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ: ٣٥٣

ٱلرِّسَالَة ـ ٥٠ ـ ٣٥٥
لَا سِرَّ دُونكُمْ إِلَّا فِي حَرْبٍ: ٣٥٥
ٱلرِّسَالَة ـ ٥١ ـ ٣٥٩
إِلَىٰ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ: ٣٥٩
ٱلرِّسَالَة ـ ٥٢ ـ ٣٦٣
أَوْقَات الصَّلَاة: ٣٦٣
ٱلرِّسَالَة ـ ٥٣ ـ ٣٦٩
عَهْد الأَشْتَر...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٦٩
كُلّ النَّاس مِن تُرَاب...فِقْرَة ٣ ـ ٥: ٣٧٣
مَحَبَّة الْحَاكِم لِلرَّعِيَّة: ٣٧٤
الْمُسْلِم وَالدُّوَل الإِسْلَامِيَّة: ٣٧٥
رِضَا الرَّعِيَّة...فِقْرَة ٦ ـ ٧: ٣٧٨
الدِّيمُقْرَاطِيَّة: ٣٨٠
التَّسَلُّط الطَّبَقِي: ٣٨١
الإِسْلَام دِين الجَمَاهِير: ٣٨٢
كُن مَّعَ ٱلصَّادِقِينَ...فِقْرَة ٨ ـ ٩: ٣٨٥
الْمَشُورَة: ٣٨٦
النَّاس طَبَقَات...فِقْرَة ١٠: ٣٩١
الْعُرْفُ وَالْعَادَةُ: ٣٩٢
مُدَارَسَة الْعُلَمَاء: ٣٩٤

تَصْنِيف الْمجْتَمع: ٣٩٥
الجُنُود حُصُونُ الرَّعِيَّةِ...فِقْرَة ١١: ٣٩٨
القُوَّة وَالعَدَالة: ٣٩٩
الضَّرَائِب: ٤٠٠
رُؤسَاء الجَيْش...فِقْرَة ١٢ ـ ١٤: ٤٠٢
قَادَة الجَيْش: ٤٠٤
الْقُضَاة...فِقْرَة ١٥: ٤٠٨
الْقَضَاء: ٤١٠
الْعُمَّال....فِقْرَة ١٦: ٤١٧
الدَّوْلَة وَالشَّخْصِيَة الاِعْتِبَارِيَة: ٤١٨
الْإمَام وَمطَالِب الْعُمَّال: ٤٢١
الْخَرَاج...فِقْرَة ١٧: ٤٢٣
الضَّرَائِب: ٤٢٤
الْكُتَّاب...فِقْرَة ١٨: ٤٣٠
شُرُوط الوَزِير: ٤٣١
مِقْيَاس الْحَقِيقَة: ٤٣٤
تَوْزِيع الأَعْمَال: ٤٣٥
التُّجَّار وَأَرْبَاب الصِّنَاعَة...فِقْرَة ١٩: ٤٣٦
الصِّنَاعَة وَالتِّجَارَة بَيْنَ الْقَدِيم وَالْجَدِيد: ٤٣٧
الطَّبَقَة السُّفْلَىٰ...فِقْرَة ٢٠ ـ ٢١: ٤٤٢

فَلْسَفَة الْمَسَاكِين: ٤٤٤
حَاجَات النَّاس وَفَرَائِض الله...فِقْرَة ٢٢ ـ ٢٣: ٤٥٠
مِنْ أَقْسَام الْحَقّ: ٤٥٤
بِطَانَة الْوَالِي وَحَوَاشِيه...فِقْرَة ٢٤ ـ ٢٥: ٤٥٧
الدِّيمُقْرَاطِيَّة عِنْدَ الإِمَام: ٤٦١
الشَّرط الأَسَاسِي فِي الصُّلح: ٤٦٢
لاَ مُجْتَمع بِلا نِظَام: ٤٦٤
إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ...فِقْرَة ٢٦: ٤٦٥
لِلحَقِّ سِلاحٌ لاَ تَرَاهُ الْعُيُون: ٤٦٩
مِن شُرُوط الْقِيَادَة.. فِقْرَة ٢٧: ٤٧١
الْقُدْوَة الصَّالِحَة...فِقْرَة ٢٨: ٤٧٤
ٱلْرِّسَالَة ـ ٥٤ ـ ٤٧٩
إِلىٰ طَلْحَة وَالزُّبَيْر: ٤٧٩
ٱلْرِّسَالَة ـ ٥٥ ـ ٤٨٧
أَيضاً إِلىٰ مُعَاوِيَة: ٤٨٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ٥٦ ـ ٤٩٥
إِلىٰ شُرَيْح بن هَانِيء: ٤٩٥
ٱلْرِّسَالَة ـ ٥٧ ـ ٤٩٧
إِلىٰ أَهْل الْكُوفَة: ٤٩٧
ٱلْرِّسَالَة ـ ٥٨ ـ ٤٩٩

إلىٰ أَهْل الأَمْصَار: ٤٩٩
الإِمَام وَالْقِصَاص مِنْ قَتَلَة عُثْمانَ: ٥٠١
اَلْرِّسَالَة ـ ٥٩ ـ ٥٠٥
إلىٰ الأَسوِد بِن قُطْبَة: ٥٠٥
الْعَدْل، وَالمُسَاوَاة، وَالْعَمَل: ٥٠٦
اَلْرِّسَالَة ـ ٦٠ ـ ٥٠٩
الْجَيْش وَالْمُوَاطنُون: ٥٠٩
اَلْرِّسَالَة ـ ٦١ ـ ٥١١
إلىٰ كُمَيْل بن زِيَاد: ٥١١
اَلْرِّسَالَة ـ ٦٢ ـ ٥١٥
إلىٰ أَهْل مِصْر: ٥١٥
لَوْلاَ عُمَرَ مَا حَكَمْ أبُو بَكْر: ٥١٧
اَلْرِّسَالَة ـ ٦٣ ـ ٥٢١
إلىٰ أبِي مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ: ٥٢١
اَلْرِّسَالَة ـ ٦٤ ـ ٥٣٩
أيضاً إلىٰ مُعَاوِيَة: ٥٣٩
اَلْرِّسَالَة ـ ٦٥ ـ ٥٤٩
أَيضَاً إلىٰ مُعَاوِيَة: ٥٤٩
اَلْرِّسَالَة ـ ٦٦ ـ ٥٥٧
إلىٰ عَبد الله بن عَبَّاس: ٥٥٧

ٱلرِّسَالَة ـ ٦٧ ـ ٥٥٩
إلىٰ قُثَم بن الْعَبَّاس: ٥٥٩
بُيُوت مَكَّة وَبَيْعها وَإيجَارها: ٥٦٢
ٱلرِّسَالَة ـ ٦٨ ـ ٥٦٥
إلىٰ سَلْمَان الْفَارِسْي: ٥٦٥
هَذِه ٱلرِّسَالَة: ٥٦٦
نَسَبَه: ٥٦٦
مَكَانَتهُ: ٥٦٧
زُهْدهُ: ٥٦٩
زَوْجَتهُ وَأَوْلاَدَهُ: ٥٦٩
وَفَاتهُ: ٥٧٠
ٱلرِّسَالَة ـ ٦٩ ـ ٥٧٣
إلىٰ الحَارِث الهَمَدانيّ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٥٧٣
الصَّاحِبُ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ..فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٥٧٦
مِقْيَاس العِظَمَة عِند الإِمَام: ٥٧٨
التَّعْطِيل يَوْم ٱلْجُمُعَة: ٥٧٩
ٱلرِّسَالَة ـ ٧٠ ـ ٥٨٣
إلىٰ سَهْل بِن حُنَيْف: ٥٨٣
ٱلرِّسَالَة ـ ٧١ ـ ٥٨٧
إلىٰ الْمُنْذِر بن الْجَارُود: ٥٨٧

آلرِّسَالَة ـ ٧٢ ـ ٥٩٣

أيضاً أبن عَبَّاس: ٥٩٣

آلرِّسَالَة ـ ٧٣ ـ ٥٩٥

أيضاً إلىٰ مُعَاوِيَة: ٥٩٥

آلرِّسَالَة ـ ٧٤ ـ ٥٩٩

بَيْنَ رَبِيعَةُ والْيمَن: ٥٩٩

آلرِّسَالَة ـ ٧٥ ـ ٦٠٣

أيضاً إلىٰ مُعَاوِيَة: ٦٠٣

آلرِّسَالَة ـ ٧٦ ـ ٦٠٧

أيضاً لِابْن عَبَّاس: ٦٠٧

آلرِّسَالَة ـ ٧٧ ـ ٦٠٩

آلرِّسَالَة ـ ٧٨ ـ ٦٢١

إلىٰ أبِي مُوسىٰ الأشْعَرِيّ: ٦٢١

آلرِّسَالَة ـ ٧٩ ـ ٦٢٧

إلىٰ أمَرَاء الْجُنْد: ٦٢٧

فَهْرَس الْمُوضُوعَات ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الرسالة

-١-

إِلىٰ أَهْلِ الْكُوفَة:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ، وَ سَنَامِ الْعَرَبِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّىٰ يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ. إِنَّ النَّاس يَقْسِمَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ ٱسْتِعْتَابَهُ، وَ أُقِلُّ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَ الزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَ أَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ. وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَ بَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَ لاَ مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَ قَلَعُوا بِهَا، وَ جَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ، وَ قَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَىٰ الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَىٰ أَمِيرِكُمْ، وَ بَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ.

اللُّغَة:

جَبْهَةِ الأَنْصارِ: جَمَاعَتهم، والْمُرَاد هُنا الأَعوَان، لاَ الْصَّحَابَة الأَنْصَار. والْمُرَاد بِالسَّنَامِ الرِّفْعَة. وٱسْتِعْتَابَهُ: ٱسْتِرْضَاؤه. والْوَجِيفُ: العَدْو بِسُرْعَة. والفَلْتَةُ: الهَفْوَة والْبَغْتَة. أُتِيحَ لَهُ: قُدِّر لَهُ. ودَارَ الْهِجْرَةِ: الْمَدِينَة. وقَلَعَتْ بِهِم الدَّار: أَخْرَجَتهُم. وَقَلَعُوا بِهَا: خَرَجُوا مِنْهَا. وَجَاشَتْ: غَلَت. والْمِرْجَلِ: الْقِدْر. الْقُطْبِ: الَّذي عَلَيْهِ المَدَار.

الإِعْرَاب:

مِنْ عَبْدِ اللهِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً لِمُبْتَدَأ مَحذُوف، أي هَذِه كَائِنَة أو تَأتِيكُم مِنْ عَبْدِ اللهِ، عَطف بيَان مِن هَذَه. كَعِيَانِهِ الكَاف بِمَعْنَىٰ مِثل خَبَر يَكُون، وأَهْوَن مُبْتَدَأ، والْوَجِيفُ خَبَر، والجُملَة خَبَر كَانَ.

الْمَعْنَىٰ:

خَرَجَ الإِمَامُ عليه السلام مِن الْمَدِينَة لِحَرب النَّاكِثِينَ والْقَاسِطِينَ بَعد أَرْبَعَة أَشهر مِن خِلاَفَته، ولمَّا ٱنْتَهىٰ إِلىٰ الرَّبَذَة ـ مَكَان بَيْنَ مَكَّة والْكُوفَة ـ كَتَب إِلىٰ أَهْلها هَذِه، ٱلرِّسَالَة، وَكَان أَبو مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ وإِلَيْهَا، وشُرَيْح الكِنْدِي قَاضِيها مِن قِبَل عُثْمَانَ، فَثَبَّط الأَشْعَرِيّ النَّاس، وَحَثهم شُرَيْح عَلىٰ المَسِير مَع الإِمَام، وَقَالَ مِن جُمْلة مَا قَالَ: «واللهِ لَوْ لَمْ يَسْتَنصر بِنا لنَصرنَاه سَمْعاً وَطَاعةً»[1]. وفِي تَأرِيخ ٱبن الأَثِير: «إِنّ

(١) أنظر، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١/٨٦، تَحقِيق الشِّيرِي.

عَدد الَّذين ٱستجَابوا لِلإِمَام مِن أَهْل الكُوفَة ٱثنَا عَشر أَلف رَجُل وَرَجُل»[١].

وَنَقل ٱبن الأَثِير عَن أَبِي الطُّفِيل أَنّه قَالَ: «سَمِعتُ عَلِيًّا يَقول: «يَأتِيكُم مِن أَهْل الْكُوفَة ٱثنَا عَشَر أَلف رَجُل وَرَجُل، فَأحْصِيتهُم، فَمَا زَادُوا رَجُلاً، ولاَ نَقصُوا رَجُلاً»[٢]. وأَيضاً نَقل هَذَا بِالحَرف عَبد الكَرِيم الخَطِيب[٣].

(إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ ٱسْتِعْتَابَهُ... إلخ). أي عَلىٰ عُثْمَانَ، وذَكرنَا طَرَفاً مِن هَذِه المطَاعن فِي شَرح ٱلْخُطْبَة (٣)، وَنَعطف عَلىٰ مَا سَبق هَذِه الحكَايَة رَواها ٱبن الأثِير، وٱستَغرقَت أَكْثَر مِن صَفحتِين بِالقَطع الْكَبِير، وَمُلخصها: «أنّ عُثْمَانَ حِين أَيقَن بِالْقَتْل ذَهب إِلىٰ بَيْت الإِمَام وَقَالَ لهُ: يَا ٱبن عَمّ، قَد جَاء مِن الْقَوْم مَا تَرىٰ، وَلَك عِندهُم قَدَر، فَردهُم عَني. فقَال الإِمَام: وعَلىٰ أي شَيء أَردهُم عَنْك؟. قَالَ عَلىٰ أَنْ أَعمَل بمَا تُشِير. قَالَ الإِمَام: كَلّمتُك المَرَّة بَعد المَرَّة، وَتَعُد وتَرجع وتَعمل بِرأي مَرْوَان وَغَيْره. قَالَ عُثْمَانَ: أَنَا أَعصِيهم وأَطِيعك. فَرَكب عَليّ وَمَعه ثَلاثُون مِن المُهَاجِرينَ والأَنْصَار، وَرَدوا النَّاس عَن عُثْمَانَ. ولكنْ سُرعَان مَا جَاء مَرْوَان وَأَصْحَابه وَأَفسَدُوا مَا أَصْلح الإِمَام، فَغَضِبت زَوْجَة عُثْمَانَ وَأَسْمَعت مَرْوَان مَا يَكْرَه، فَرَدّ عَلَيْهَا بمَا هُو آلَم وَأَوْجع»[٤].

---

(١) أُنظر، الكَامِل لِابْن الأَثِير حوَادث سَنَة (٣٦). (مِنهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، تَأريخ الطَّبَري: ٣/٥١٣ و: ٥/١٩٩ طَبعة أُخرىٰ، والبدَاية والنّهاية: ٧/٢٦٤، كتَاب الجَمَل للشّيخ المُفيد: ١٥٨، شَرح نَهج البَلاغَة لِابْن أَبِي الحَدِيد: ١٤/٢١، نَهج السَّعادة: ١/٢٧٥، مناقب أَهْل البَيْت لحيدر الشّيروَاني: ٢٠٤، المُسترشد فِي الإِمَامَة: ٦٧٠.

(٣) أُنظر، كِتَابه عَليّ بن أَبِي طَالب بَقية النُّبوّة، وخَاتَم الخِلاَفَة: ٢٥٤ ومَا بَعدها طَبعة سَنَة ١٩٦٧م، عن تَأرِيخ الطبري: ٥/١٩٩. (مِنهُ ﷺ).

(٤) أُنظر، هَذِه الحكَايَة الَّتي رَواها ٱبن الأَثِير فِي حوَادث سَنَة (٣٥)، وٱستَغرقَت أَكْثَر مِن صَفحتِين بِالقَطع
↔

(وَ كَانَ طَلْحَةُ وَ الزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَ أَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ.. إلخ). نَقل الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه فِي تَعْلِيقه عَلىٰ هَذِه الجُملة: «إنّ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ أَخرَجَت نَعلِي رَسُول الله ﷺ، وَقَمِيصه مِن تَحت ستَارها، وعُثْمَان يَخْطُب عَلىٰ المِنبَر، وقَالت لهُ: هَذَان نَعلا رَسُول الله وَقَمِيصه لَم تُبلَ، وَلَقد بَدلتَ مِن دِينه، وغَيّرت مِن سُنَّته. وَجَرىٰ بَيْنَهُما كَلاِم المُخَاشنَة»[1].

فقَالت عَائِشَةَ: ٱقتُلوا نَعْثَلاً[2]. تَشبهه بِرَجُلٍ مَعرُوف، «فأُتِيح لَهُ أي قَدر لَهُ قَوْم فَقَتلُوه» أي أنّ الْقَوْم ٱستجَابوا بِقصدٍ أو غَيْر قَصد لأَمر أُمّ الْمُؤْمِنِينَ بِقتْل عُثْمَانَ. وَتَقدَّم الكلاَم عمّا كَان مِنْها، ومِن طَلْحَة، وَالزُّبَيْرَ ضِدّ عُثْمَانَ[3].

(وَ بَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَ لاَ مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ). تَقَدَّم مَع

⇐ الكَبِير. (مِنْهُ). وتَأرِيخ الطَّبَري: ٣/٣٩٤، أَنسَاب الأَشْرَاف للبَلاذُري: ٥/٧٤، شطرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/١٤٤، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١/٤٢، الإِسْتِيعَاب فِي تَرجَمة عُثْمَان. تَأرِيخ ٱبن كَثِير: ٧/١٧٠، الكَامِل لِابن الأَثِير: ٣/٦٨، الفَائِق للزَّمخشري: ٢/٢٩٦، النّهَاية لِابْن الأَثِير: ٤/١٩٦، تَأرِيخ ٱبن خَلدون: ٢/٣٩٦.

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٣/٣، بِحَار الأَنْوَار: ٣١/٢٩٦، كِتَاب الجَمَل للشّيخ المُفِيد: ٧٦.

(٢) أُنظر، وَقْعَة الجَمَل لضَامر بن شَدقم المَدني: ٢٤ و ١٢٩، الْفِتْنَة ووَقْعَة الجَمَل: ١١٥، تَأرِيخ الْفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ١/٦٤ و: ٢/٤١٩، النّهَايَة لِابن الأَثِير: ٥/٨٠، شرح النَّهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد الْمُعْتَزِلِي: ٦/٢١٥ و: ٢٠/١٧٠، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٣/١٢ و: ٤/٤٥٩، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لعَبْدَه: ٣/٣، تَاج العروس: ٨/١٤١، لِسَان الْعَرَب: ١١/٦٧٠ و: ١٤/١٩٣، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٣/٢٠٦، تَذكرة الخَواص: ٦١ و ٦٤، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٤٩، ولكن بلفظ (فَجر)، السِّيرَة الحَلبِية: ٣/٢٨٦، تَرجمة الإِمَام الْحَسَن لِابْن عسَاكر: ١٩٧ ح ٣٢٥، المحصُول للرَّازي: ٤/٣٤٣، شَيخ المُضِيرة أَبُو هُرَيرة لمحمود أبو ريّه: ١٧٠ و ١٨١، مَنَاقب أَهْل الْبَيْت للشَّيروَاني: ٣٧٢، الإِسْتغَاثة: ٢/٩، كَشف الغُمة: ١/٢٣٩ و: ٢/١٠٨.

(٣) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٢٢ و ١٣٧). (مِنْهُ).

الشَّرح[١]. (وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَ قَلَعُوا بِهَا) . خَرج الإِمَام مِن الْمَدِينَة مُتوجِهاً إِلىٰ الْعِرَاق ، وَمَعهُ الْكَثِير مِن أَهْل الْمَدِينَة ، وَفِيهِمْ العَدِيد مِن الْمُهَاجِرِينَ ، والأَنْصَار (وَ قَامَتِ الْفِتْنَةُ) الّتي أثارهَا الزُّبيْرَ ، وطَلْحَة ، وأُمّ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَىٰ الْقُطْبِ) أي بَلَغت الْفِتْنَة أَشُدها .

ومِن المُفِيد أنْ نُشِير هُنا إِلىٰ مَا قَاله ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد فِي شَرح هَذِه ٱلْخُطْبَة ، وَيَتَلخص بِأنّ أَصْحَابه الْمُعْتَزِلَة حَكَمُوا بِهلاَك أَهْل الْجَمَل بِكَامِلهم إلّا مَن تَابَ ، وإِنّ عَائِشَةَ تَابت ، وٱعترَفَت لِلإِمَام بِخَطئها ، وسَألته الْمَعْذِرَة ، وأَنَّهَا قَالت : لَيتَنِي مُتُّ قَبل الْجَمَل ، ووَدَتُ أنّ لِي مِن رَسُول الله عَشرَة بَنِين ثكلتَهُم كُلّهم ، ولَمْ يَكُن الْجَمَل ، أمّا الزُّبَيْرَ فَقَد رَجع عَن الْحَرْب تَائِباً ، وأمّا طَلْحَة فإِنّه قَبل أنْ تَخرج الرُّوح مِنْهُ مَرَّ بِهِ فَارس ، فقَال لَهُ طَلْحَة : مِن أي الفَرِيقِين أَنْت ؟

قَالَ مِن أَصْحَاب عَليّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فقَال لَهُ طَلْحَة : ٱمدُد يَدَك أُبَايعُك لِعَليّ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ ، فَمَدَهَا وَبَايَعَهُ[٢] .

وَنَحنُ لاَ نُنَاقش هَذِه الرّوَايَة ، لِأَنَّهَا ٱعترَاف صَرِيح بِالخَطَأ ، وأَيضاً لاَ نُنَاقش هَذِه ٱلتَّوْبَةِ ونَردُها بِقوْله تَعَالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٣] . لاَ نَرد ولاَ نُنَاقش بَعد الاِعْترَاف بِالخَطَأ[٤] .

---

(١) أنظر ، شَرح ٱلْخُطْبَة : (٣ و ٩٢). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر ، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد : ١٤/ ٢٤.

(٣) ٱلنِّسَاء : ١٨.

(٤) أنظر ، تَأرِيخ الطَّبَرِي : ٣/ ٥٤٧ ، وذكر العَلاّمة الْمَجْلسي فِي البحَار طَبعة القَدِيم : ٨/ ٤١٩ نقلاً عن كِتَاب
↤

⇜ إبْطَال توْبَة الخَاطِئة عَن إبرَاهِيم بن عُرْوَة عَن ثَابت عَن أبيه عَن حبَّة العَرني أنّ أمير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بَعث إلىٰ عَائِشَة مُحَمَّداً أخاها، وعمَّار بن ياسر؛ إنْ إرْتحلي والحقي بيتك الَّذي تَركك فِيهِ رَسُول الله صلى الله عليه وآله فقَالت: والله لاَ أرِيم هَذَا ٱلبَلَد أبداً. فَرجعَا إلىٰ أمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وأخبرَاه بقولها فَغَضب، ثُمَّ رَدَّهُما إلَيْهَا وَبعث مَعهُما مَالك الأشْتَر فقَال: والله لتَخرجنّ أو لتَحملنّ إحتمالاً. ثُمَّ قَالَ أمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَا معشر عَبد القَيْس، أُندبُوا إلىٰ الحرَّة الخَيّرَة مِن نِسائِكم، فإنّ هَذِه المَرْأة مِن نسَائكُم فإنّها قَد أبت أنْ تَخرج لتَحملوها إحتمالاً، فلمّا عَلمت بِذَلِكَ قَالت لهُم: قولوا لهُ فليجهّزني. فأتوا أمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فذكروا لهُ ذَلِكَ، فجهزّها، وَبعث مَعَهَا بِالنِّسَاء.. الفصُول المُخْتَارة للمُفيد: ١٤١، الإقْتصَاد الطّوسي: ٢٢٩، بحَار الأنْوَار: ٣٣٦/٣٢.

وعن زِياد الضَّبي قَالَ: سَمعت الأحنَف بن قَيْس يقول: بَعث عَليّ عليه السلام إلىٰ عَائِشَة أنْ ٱرجَعي إلىٰ الحجَاز، فقَالت: لاَ أفعل. فقَال لها: لِئن لَم تَفعلي لأرسلنّ إلَيْك نُسوة من بَكْر بن وائل بِشفار حدَاد يَأخذنك بها، قَالَ: فخَرجت حِينئذٍ.

وعن إسْحَاق بن إبرَاهِيم عن عبدالجَليل إنّ أمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بَعث عَمَّار بن يَاسر إلىٰ عَائِشَة أنْ ٱرتحلي، فَأبت عَلَيْهِ. فَبعث إلَيْهَا بِٱمرأتين وأمرأة مِن رَبِيعَة مَعهنّ الإبِل، فلما رَأتهنّ ٱرتحلت.

وعن مُحَمَّد بن عَليّ بن نَصر عن عُمَرَ بن سعد أنّ أمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام دَخل علىٰ عَائِشَة لمَّا أبت الخرُوج، فقَال لها: يَا حُميراء إرْتحلي وإلاّ تكلّمت بمَا تعلمِين. قَالت: نَعم أرْتحل. فَجهّزها وأرسَلها وَمَعَهَا أرْبَعِين ٱمرأة مِن عَبد قَيْس...

وذكر العلاّمة سِبط ٱبن الجوزي فِي تذكرة الخواصّ: ٧٩ مِثل ذَلِكَ مع ٱختلاف يَسير حَيْث قَالَ: لمَّا بَعث عليّ عليه السلام عبدالله بن عَبَّاس يَأمرها بالمَسِير إلىٰ المَدِينَة فَدخل عَلَيْهَا ٱبن عَبَّاس بِغير إذْنٍ فَقَالت لهُ: أخطأت السُّنَّة دَخَلْت عَلينا بَغير إذْنٍ. فقَال لها: لو كُنت فِي ٱلبَيْت الَّذي خلّفك رَسول الله صلى الله عليه وآله مَا دَخلنا عَلَيْكَ بغير إذْنك...

وَقَالَ هُشام بن مُحَمَّد: فجهّزها عَليّ عليه السلام أحسن الجهَاز ودَفع لهَا مَالاً كَثيراً وَبعث مَعهَا أخَاها عبدالرَّحمن بثلاثِين رَجُلاً وَعشرين ٱمرأة مِن أشرَاف ٱلبَصْرَة وذوات الدِّين مِن هَمَدان وعَبد القَيْس، وألبسهنّ العمَائِم وقلّدهنّ السّيوف بزيّ الرِّجَال وَقَالَ: لهنّ: لا تعلمِنَها أنكنّ نُسوة، وتلثّمن وكنّ حولها ولاَيقربنها رَجُل وسُرن مَعَهَا عَلىٰ هَذَا الوَصف، فلمّا وَصلت إلىٰ المَدِينَة قِيل لها: كَيف كَان مَسِيرك؟ فقَالت: بخَير، والله لَقد أعطىٰ فَأكْثَر ولكنّه بَعث رِجالاً مَعي أنكرتهم، فَبلغ ذَلِكَ النِّسوة فجِئن إلَيْهَا وَعرفنها أنّهنّ
⇜

↔ نَسوة فَسجَدت وقَالت: والله يَا ابن أبي طَالِب مَا إزددت إلاّ كَرماً، وودت أنّي لَم أخرج هَذَا المَخرج وأنْ أصَابني كَيت وكَيت...(وأنظر، مقاتل الطّالبِيين: ٤٢ و٤٣).

وَقَالَ ابن عبد رَبّه فِي العقد الفَريد: ٤ /٣٢٨ طَبْعَة لِجنة التَّأْلِيف: فجهّزها بَأحسن الجِهاز، وَبعث مَعَهَا أرْبَعين امرأةً، وقيل: سَبعِين حَتَّىٰ قَدَمت المَدِينَة.

وذكر ابن أعْثَمْ فِي الفُتُوح: ١ / ٤٩٤ انصراف عَائِشَة من البَصْرَة إِلىٰ المَدِينَة مثل ذَلِكَ بأختلاف يُسِير فِي اللَّفظ بإضَافة فَكَانَتْ عَائِشَة إذَا ذَكرت يَوْم الجَمَل تَبكي لذَلِكَ بُكاء شَديداً ثُمّ تقول: يَاليتني لَم أشهد ذَلِكَ المَشهد، يَالِيتني مُتّ قَبل هَذَا بعشرين سَنَة...وذكر الطَّبَرِيّ فِي: ٥ / ٢٠٤ والعقد الفريد: ٤ / ٣٢٩ والمَسعودي في المروج: ٥ / ١٩٧ بهَامش ابن الأثِير قريب من هَذَا اللَّفظ لكن الطَّبَرِي قَالَ فَسرّحها عَليٌّ وأرسَل مَعَهَا جماعةً من رِجَال ونساء، وجَهّزها وأمر لهَا بأثنىٰ عَشر ألفاً من المَال، فأستقلّ ذَلِكَ عبدالله بن جَعْفَر فأخرج لها مَالاً عَظيماً وَقَالَ: إنْ لَم يُجهزه أمير المُؤْمِنِينَ فَهُوَ عَليٌّ.

الرسالة ٢

- ٢ -

أَيضاً أَهْل الْكُوفَة:

وَ جَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَ الشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَ أَطَعْتُمْ، وَ دُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

الْمَعْنىٰ:

(وَ جَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ... إلخ). الخِطَاب لأَهْل الْكُوفَة، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، لأنّه جَاء بَعد الانْتهَاء مِن حَرب الْجَمَل، وَفَتح الْبَصْرَة. قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: «مِن كتَابٍ لَهُ عليه السلام إِلَيْهِمْ بَعد فَتْح الْبَصْرَة». وضَمِير «إِلَيْهِمْ» إِلىٰ أَهْل الْكُوفَة، لأنّه ذكَر بَعد إِلَيْهِمْ بِلا فَاصل، ولاَ سَبِيل إِلىٰ التَّوَهُم بأنّه يَعُود لأَهْل الْبَصْرَة.

أَوّلاً: لأَنّهم أَعْلنُوا عَلَيْهِ الْحَرْب، وَانْضَمُّوا مَع خصُومه، فكَيف يَقول لهُم: (جَزَاكُم الله أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَ الشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ)؟.

ثَانِياً: إنّ الشَّرِيف الرَّضِي نَفْسَه قَالَ عِند ٱلْخُطْبَة: «بَعد وَقْعَة الْجَمَل قَالَ الْإِمَام لأَهْل الْبَصْرَة: كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ؛ وَ أَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ، رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَ عُقِرَ فَهَرَبْتُمْ»[1]. وَقَالَ المَسْعُودِي فِي «مرُوج الذَّهب»: «دَخَل الإِمَام الْبَصْرَة بَعد وَقْعَة الْجَمَل، وَقَد خَطَب خُطْبَة طَوِيلَة، قَالَ فِيها: يَا أَهْل السَّبخَة، يَا أَهْل المُؤتَفكَة... يَا جُنْدَ الْمَرْأَةِ... إلخ. ثُمّ قَالَ المَسْعُودِي: وذَمَّ الإِمَام أَهْل الْبَصْرَة بَعد هَذَا المَوقف مِرَاراً كَثِيرة[2].

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٣). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابن مِيثَم البَحرَانِي: ١/٢٨٩، شَرح أُصول الكَافِي: ١٢/٢٣٥، بِحَار الأَنْوَار: ٣٢/٢٢٥، نَهج السَّعادة: ١/٣٤٥، كِتَاب الْجَمَل للشَّيخ المُفِيد: ٢١٧، مَجْمَع البَحرين: ١/٨١، مُعجم البُلدان: ١/٤٣٦ و: ٥/٢١٩، الإِحْتِجَاج: ١/٢٥٠، عُيُون الأَخبَار: ١/٢١٧، الغَارات: ٢/٤١٢، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ١/٦٠، المَنَاقب للخَوَارزمِي: ١٨٩.

الرسائل

- ٣ -

شُرَيْحٌ وَالدَّار:

بَلَغَنِي أَنَّكَ ٱبْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً.

فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: قَدْ كَانَ ذٰلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لاٰ يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلاٰ يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّىٰ يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَىٰ قَبْرِكَ خَالِصاً. فَٱنْظُرْ يَا شُرَيْحُ لاٰ تَكُونُ ٱبْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلاٰلِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ! أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا ٱشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَىٰ هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ.

وَالنُّسْخَةُ هَذِهِ: «هَذَا مَا ٱشْتَرَىٰ عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، ٱشْتَرَىٰ مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ، وَخِطَّةِ الْهَالِكِينَ. وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي الْآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَىٰ الْهَوَىٰ الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي

إِلَىٰ الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي ، وَ فِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ . ٱشْتَرَىٰ هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ ، مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ ، وَ الدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ ، وَ الضَّرَاعَةِ ، فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا ٱشْتَرَىٰ مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ ، فَعَلَىٰ مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ ، وَ سَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ ، وَ مُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ ، مِثْلِ كِسْرَىٰ وَ قَيْصَرَ ، وَ تُبَّعٍ وَ حِمْيَرَ ، وَ مَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَىٰ الْمَالِ فَأَكْثَرَ ، وَ مَنْ بَنَىٰ وَ شَيَّدَ ، وَ زَخْرَفَ وَ نَجَّدَ ، وَ ٱدَّخَرَ وَ ٱعْتَقَدَ ، وَ نَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ ، إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَىٰ مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَ الْحِسَابِ ، وَ مَوْضِعِ الثَّوَابِ وَ الْعِقَابِ : إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَ خَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1] شَهِدَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَىٰ وَ سَلِمَ مِنْ عَلاَئِقِ الدُّنْيَا » .

اللُّغَة:

ٱبْتَعْتَ : ٱشْتَرِيتُ . وشَاخِصاً : ذَاهِباً . وخَالِصاً : مُجَرَداً . وأُزْعِجَ : سِيقَ .

والخِطَّة : الشَّأن أو تَخطِيط الأَرْض المُعدَة لِلبنَاء . والضَّرَاعَـة : الذِّلَّـة . ودَرَكٍ ـ بِفَتح الرَّاء ـ التَّبعَة . ومُبَلْبِلِ الأَجْسَامِ : المُثِير والمُهِيج لأدوئـها وأَسـقَامهَا . وتُـبَّعٍ وَحِمْيَرَ : مِن مُلوك اليَمِين .

الإِعْرَاب:

أَمَا للتَّنْبِيه وٱفْتتَاح الكلاَم ، وشَاخِصاً حَال مِن كَاف الخِطَاب ، وَمِثله خَالِصاً .

---

(١) غَـافِر : ٧٨.

فَمَا أَدْرَكَ «مَا» شَرطِية بِدَلِيل دخُول الفَاء عَلَىٰ جوَابها وهُو «فَعَلَىٰ مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ»، وفِيمَا ٱشْتَرَىٰ «مَا» ٱسم مَوْصُول و «مِنْهُ» الضَّمِير يَعُود عَلَىٰ «مَا» ومِنْ دَرَكٍ «مِنْ» بَيَان لاِسم المَوْصُول أي مِن ضَمَان الَّذي ٱشْترَاه، وعَلَىٰ مُبَلْبِلِ خَبَر مُقَدم، وإِشْخَاصُهُمْ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، وجَمِيعاً حَال مِن الضَّمِير فِي إِشْخَاصُهُمْ، وإِلَىٰ مَوْقِفِ مُتعَلِّق بِإِشْخَاصُهُمْ.

الْمَعْنَىٰ:

شُرَيْح تَابعِي، وَلَيْسَ بِصحَابِي، أَدْرَكَ عَصر النَّبِيّ ﷺ ومَا رَآه، وٱستَعمَله الخَلِيفَة الثَّانِي قَاضِياً عَلَىٰ الْكُوفَة، وٱستَمَر فِي هَذَا المَنْصَب أَكْثَر مِن ستِين سَنَة حَيْث عَاش مِئة أو تَزيد سِتاً، ومَات فِي خِلاَفَة عَبد الملك، وكَان ذَا بَدِيهَة وذَكَاء[1]، وَتَخَاصم لَدِيه رَجُلاَن، فَتَكَلَّم المُدعىٰ عَلَيْهِ بِمَا يُشكل ٱعترَافاً بِدعوىٰ خَصمَه مِن حَيْث لاَ يَشعر، فأدَانه شُرَيْح، وَلَمَّا سَأله: مَن الَّذي شَهد عَلَيْهِ؟ قَالَ لهُ

(١) هُو شُرَيْح بن الحَارث بن قَيْس الكُوفِي النَّخعِيّ القَاضِي، أَبُو أُمَيَّة، تَابعي، مَات قَبل الثَّمانِين أو بَعدهَا، وَلَه من العُمُر مِئة وثَمان سِنِين، أو أَكْثَر. ٱستقضَاه عُمَرَ عَلَىٰ الْكُوفَة ولَم يَزل بَعد ذَلِكَ قَاضِياً خَمساً وسبعِين سَنَة إلا ثَلاث سِنِين ٱمتنع فِيها من القَضَاء فِي فِتْنَة الحجَاج فِي حَقّ ٱبن الزُّبَيْر حَيْث ٱستعفىٰ الحجَاج من القَضَاء فأعفَاه، ولَم يَقض إِلَىٰ أَنْ مَات الحجَاج وكَان خَفيف الرّوح مزَاحاً. وأَقر عَلِيّ ﵇ شُرَيْحاً عَلَىٰ القَضَاء مع مُخَالفته لهُ فِي مَسائل كَثِيرة من الفِقْه وسَخِط عَلِيّ ﵇ مَرّة فطَرده عن الْكُوفَة ولَم يَعزله عَن القَضَاء، وأَمره بِالمقام (ببانقيا) وكَانَتْ قَرية قَريبة من الْكُوفَة أَكْثَر سَاكِنِيها اليَهود. أُنظر، حَاشية رَد المحتار: ١/٥٣١، بحَار الأَنْوَار: ٤٢/١٧٦، تَأْرِيخ دمشق: ٢٣/٦١، الطَّبقَات الكُبْرَىٰ: ٦/١٣١، تَأْرِيخ خَلِيفَة بن خياط: ٢٣٣، سِير أعلام النُّبلاء: ٤/١٠٠، تَأْرِيخ البُخَارِيّ: ٤/٢٢٨، المعارف: ٤٣٣، المَعْرِفَة والتَّأْرِيخ: ٢/٥٨٦، أخبَار القُضَاة لوكيع: ٢/١٨٩، أُسد الغَابَة: ٢/٣٩٤، وفيات الأَعْيَان: ٢/٤٦٠، تهذيب الكَمَال: ٥٧٦، تَأْرِيخ الإِسْلاَم: ٣/١٦٠، الإِصَابة: رقم التَّرجمة (٣٨٨٠)، العِبر: ١/٨٩.

شُرَيْح: شَهِد عَلَيْكَ ٱبن أُخت خَالَتك... وجَاءَته ٱمرَأة تَبكِي وَتَتَظَلم، فَمَا رَقّ لهَا، ولمَا عُوتِب قَالَ: إنّ إِخْوَة يُوسُفَ جَآءُوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ(١).

وفِي «الأَغَانِي»: إنّ الإِمَام فَقَد دِرْعاً، ثُم رَآها مَع اليَهودِي، فَقَال لهُ هَذِه دِرْعِي سَقَطت مِني يَوْم كَذا وكَذا. فَقَال اليَهودِي: مَا أَدرِي مَا تَقول، وبِيني وبَيْنَكَ قَاضِي المُسْلِمِين، فٱنْطَلقَ مَعه الإِمَام إِلىٰ قَاضِيه شُرَيْح، ولمّا رَآه قَام لهُ مِن مَجلِسه، فقَال لهُ الإِمَام: مَكَانك، فَجَلس وَقَالَ لِليَهُودي: مَا تَقول؟. قَالَ دِرْعِي فِي يَدِي، فَطَلب القَاضِي الْبَيِّنَة مِن الإِمَام، ٱسْتَشْهِدَ بوَلده الْحَسَن ومَوْلاَه قَنبر. فَقَبل شُرَيْح شهَادة المَوْلىٰ لِسيده، ورَد الْوَلَد لوَالده. قَالَ لهُ الإِمَام: أَمَا سَمِعت حَدِيث رَسُول الله ﷺ «الْحَسَن والحُسَيْن سيِّدا شَبَاب أَهْل الْجَنَّة»(٢)؟. قَالَ شُرَيْح: أَللَّهُمَّ نَعم. وبِالرَّغم

---

(١) ٱقتبَاساً مِن قَوْله تَعالىٰ: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ يُوسُفَ: ١٦.

(٢) أنظر، كَنز الْعُمّال: ٦/ ٢٢٠ و ٢٢١ و٢١٧، و: ٧/ ١٠٧ و ١١١ و١٠٨، و: ١٢/ ٩٦ و: ٣٤٢٤٦/١٢، و: ٣٧٦٨٢/١٣، صَحِيح التِّرمِذي: ٢/ ٣٠٦ و ٣٠٧، مُسْنَد أحمد: ٣/ ٣ و ٦٢ و ٨٢، حلية الأَوْليَاء: ٥/ ٧١ و ١٣٩، و: ٤/ ١٣٩ و ١٩٠، مَجْمَع الزّوائد: ٩/ ١٨٢ ـ ١٨٤ و ١٨٧، تَأرِيخ بَغداد: ٩/ ٢٣١ و٢٣٢، و: ١٠/ ٩٠ و ٢٣٠، و: ١/ ١٤٠، و: ٢/ ١٨٥، و: ١٢/ ٤، و: ٦/ ٣٧٢، الإِصَابَة: ١/ق ١/ ٢٦٦، و: ٦/ق ٤/ ١٨٦، مناقب أَمِير الْمُؤمِنِين مُحَمَّد بن سُليمان الكوفي: ٣/ ٢٥٩، الجَامِع الْصَّغِير للسّيوطي: ١/ ١٩.

وأُنظر، ذَخَائِر الْعُقبَىٰ: ١٣٥ و ١٣٠ و ١٢٩، كنوز الحقائق: ١١٨ و ٨١ و ٣٦، خصائص النّسائي: ٣٤ و ٣٦، سُنَن ٱبن ماجه: ١/ ٤٤/ ١١٨، بَاب فَضَائِل أَصحاب رسول الله ﷺ: وأَورده الحَاكِم في المُسْتَدرَك: ٣/ ١٦٧ و ٣٨١، تَأرِيخ دمشق: ٧/ ١٠٣، أُسد الغَابَة: ٥/ ٥٧٤، ٱبن حبّان في صحيحه: ٢١٨، تَهذِيب التّهذيب: ٣/في تَرجمة زياد بن جبير، سُنَن التِّرمِذي: ٥/ ٣٢١/ ٣٨٥٦ و: ٣٢٦/ ٣٨٧٠، الفضائل لأَحْمَد: ٢/ ٧٧٩/ ١٣٨٤، الصَّوَاعِق: ١٨٧ و ١٩١ ب ١١ فصل ٢، الجَامِع الْصَّغِير: ١/ ٥٨٩/ ٣٨٢٠ و ٣٨٢١ و ٣٨٢٢، إحقاق الْحَقّ: ٩/ ٢٢٩ ـ ٢٤١، و: ١٠/ ٥٤٤ ـ ٥٨٧ مِنْهَاج ⟵

مِن ذَلِكَ تنَازل الْإِمَام عَن الدِّرع تنفِيذاً لِحُكم قَاضِيه.

فَأكبَرَ اليَهودِي مَا رَأىٰ، وَقَالَ: أَمِير الْمُؤْمِنِينَ مَشىٰ مَعِي إِلىٰ قَاضِيه، فَقَضىٰ عَلَيْهِ وَرَضِي، ثُمّ قَالَ اليَهُودِي لِلإِمَام: صَدَقتَ، أَنَّهَا دِرْعَك، سَقَطت مِنك فِي اليَوْم الَّذي ذَكرتَ عَن جَمَلٍ أورَق ـ أي رَمَادِي اللَّون ـ فَٱلتقطتها، وأَنَا أَشهد أنْ لاَ إِله إِلّا الله وأنّ مُحَمَّداً رَسُول الله. فسُّر الْإِمَام بِإِسْلاَمه وَقَالَ: الدّرع لَك وَمَعَهَا هَذَا الفَرس، وَقَد فَرضتُ لَكَ (٩٠٠) درهم. ولَم يَزل مَع الْإِمَام حَتَّىٰ قُتل يَوْم صِفِّين... وقَد كفَانا اليَهودِي الْمُسْلِم عَن الكَلاَم حَوْلَ هَذِه الْمَنْقَبة والفَضِيلة[1].

وَقَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: إِنّ شُرَيْحاً قَاضِي أَمِير الْمُؤْمِنِينَ﷣ ٱشترىٰ عَلىٰ عَهْدِه دَارَاً بِثَمانِين دِينَاراً، فَبَلغه ذَلِكَ فَٱستدعَاه وَقَالَ: (بَلَغنِي أَنَّكَ ٱبْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَ كَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً... إلخ). وَكَانَ الْإِمَام شَدِيداً عَلىٰ عُمّالِه وقُضَاته، وَعَلىٰ كلّ مَن يَأتمنه عَلىٰ عَمَلٍ، وكَانَتْ موَاعظه اللاَفحَة تَلهب قُلُوبهمْ وأروَاحهم خِشيَة الْخِيَانَة أو التَّقْصِير... ومن هُنا قَالَ مَن لاَ يَفهم إِلاّ بِلُغَة صكُوك البَيع، والشَّراء، قَالَ: عَلِيّ لا يُحسن السِّيَاسَة... أجل، إِنّه لاَ يُحسن، بل لاَ يَسْتَطِيع إطلاَقاً أنْ يَخُون أَمَانة الله وعِيال الله. ويَأتِي قَوْله لِبَعض عُمَّالِهِ: «إِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ، وَ لَكِنَّهُ

⇐ السُّنَّة: ٤ / ٢٠٩، إثبات الهُداة: ٥ / ١٢٩ و ١٣٢، فرائد السِّمطين: ٢ / ٣٥ و ١٤٠ و ١٣٤ و ١٥٣ و ٢٥٩، كفاية الأثر المَطبوع في آخر الخرَائج والجرائح: ٢٨٩، ينَابيع المَوَدَّة: ٣٦٩ و ٣٧٢.

(١) أُنظر، المُغني لِابْن قُدَامَة: ٤٤٤/١١، سُبل السَّلاَم: ١٢٥/٤، فِقه السُّنَّة: ٤١٦/٣، كَنز العُمَّال: ٢٦/٧ ح ١٧٧٨٩ و ١٧٧٩٥، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ١٣٩/١٠ ح ٢٠٢٥٢، مِيزان الإعْتِدَال في نقد الرّجال: ٣٥٣/٢ ح ٢٢١، العِلَل المُتناهية: ٨٧١/٢ ح ١٤٦٠، حلية الأَوْلِيَاء: ١٣٩/٤، الإقنَاع: ٢٦٥/٢، مُغني المُحتاج: ٤٠٠/٤، الغَارات: ٧٢٢/٢، تَأرِيخ دِمشق: ٢٣/٢٣، أخبَار القُضَاة: ١٩٤/٢، تَرجمة الإِمَام الحَسَن في تَأرِيخ ٱبن عَساكر: ٧٧، وفِي تَرجمة الإِمَام عَليّ: ١٩٧/٣، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ٧١.

فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ »[١].

(فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لاَ تَكُونُ ٱبْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ... إلخ). لاَ بَأس عَلَيْكَ أَبداً أَنْ تَشْتَرِي أو تَبْتَنِي بِكَد اليَمِين، أمّا أنْ تَسكُن، أو تَأكُل، أو تَلبس عَلَىٰ حِسَاب الآخرِين فإنّك تَلهو بِهِ قَلِيلاً، وفِي النّهايَة وبَالٌ عَلَيْكَ وخُسرَان (أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا ٱشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَىٰ هَذِهِ النُّسْخَةِ... إلخ). وَهَذِه الْحُدُود الّتِي ذكرها الإِمَام هِي حَقِيقِيَّةٌ للدُّنْيَا لاَ لدَار شُرَيْح وَكَفَىٰ، وَقَد أَخذهَا الإِمَام مِن الْقُرْآن الْكَرِيم الَّذي قَالَ عَن ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا: أَنَّهَا لَعِبٌ، وَلَهْوٌ، وَزِينَةٌ، وَتَفَاخُرُ، وزُخْرُف، وَفَناء، ومَتاعُ ٱلْغُرُورِ، وأنَّ الآخِرَة هِي دَار البَقَاء، وأنّ النَّاجح الرَّابح مَن فَاز بِها لاَ مَن فَرِح يَسِيراً، وَحَزن طَوِيلاً.

(فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا ٱشْتَرَىٰ مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ... إلخ). المُبَلْبِل، وَالسَّالِب، وَالمُزِيلِ هُو مَلَك الْمَوْت، ونَجَّدَ: مِن التَّنْجِيد أي النَّقش، والتَّزيين، والمُراد بِالاعْتِقَاد هُنا ٱدّخَار الْمَال لِمُجرد الكَنز والتَّكدِيس، وَنَظَرَ لِلْوَلَدِ أي جَمع لهُ لِيحيَا مِن بَعده بِرَاحَة وهَنَاء، والْمَعْنَىٰ أنّ كلّ مِن بَنىٰ جِدَاراً مِن حَرَام، واكتَسَب دِرهماً مِن غَيْر حِلّ ـ فَقَد أَقَام حِجَاباً بَيْنَه وَبَيْنَ الله، ثُمّ يُجَرِده الْمَوْت مِن كلّ شَيء، يَسُوقه عُريَاناً إلَىٰ الْعَرْضِ عَلَىٰ الله لِلْحِسَابِ والْجَزَاء تَمَاماً كَمَا فَعل مِن قَبل ويَفعل مِن بَعد بِالجَبَابِرة والقيَاصِرة.

(إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ... إلخ). الْمُرَاد بالأَمْر أَمْرُ الله تَعَالَىٰ، وبِفَصْلِ الْقَضَاءِ حُكْمَه الَّذي لاَ يُرَد، وعِندَئذٍ يَربح وَيَفُوز الأَمِين المُخلِص، ويَخسر ويَهلك

(١) أنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٥).

الخَائِن الْمُنَافِق (شَهِدَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَىٰ وَ سَلِمَ مِـنْ عَـلاَئِقِ الدُّنْـيَا). لِحُـكمه بِـالْعَدْل الإلٰهـي الَّـذي لاَ يَسـتوِي عِـنده والفَـاجِر، والْمُـؤْمِن والْكَافِر... وهَل مِن عَاقِل عَلىٰ وَجه الأَرْض يَشك فِي هَذَا المَـبدأ: ﴿فَـمَن يَـعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]؟.

---

(١) ٱلزَّلْزَلَة: ٧ ـ ٨.

الرسالة
- ٤ -

جِهَاد أَهْل الْبَغْي:

فَإِنْ عَادُوا إِلَىٰ ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ ، وَ إِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَىٰ الشِّقَاقِ وَ الْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَىٰ مَنْ عَصَاكَ ، وَ اسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ ، فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ ، وَ قُعُودُهُ أَغْنَىٰ مِنْ نُهُوضِهِ .

اللُّغَة:

تَوَافَتِ : أَدَت ، وقِيل : تَتَابَعت وَتَمَّت ، والأَوَّل أَنسَبُ بِالسِّياق . وانْهَدْ : انْهَضْ . وتَقَاعَسَ : أَبْطَأَ . والمُتَكَارِهَ : الكَارِهَ : وَقِيل : المُتَثَاقِل ، والمَغْنَىٰ قَرِيب مِن الأَوَّل .

الْمَعْنَىٰ:

وَصَل أَصْحَاب الجَمَل إِلَىٰ البَصْرَة ، وعَلَيْهَا عَامل الإِمَام عُثْمَانَ بن حُنَيْف[1] ،

---

(١) هو عُثْمَانَ بن حُنَيْف بن وَاهب بن الحَكِيم الأَنْصَاري الأَوسِي أبو عَمْرو، وأبو عَبدالله. شَهد أُحُداً ومَا ↩

فَكَتب إِلَيْهِ فَأَجَابه بقَوْله: (فَإِنْ عَادُوا إِلَىٰ ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُـحِبُّ). ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] (وَ إِنْ تَـوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَىٰ الشِّقَاقِ وَ الْعِصْيَانِ ... إلخ). فإنْ أَبُوا إلاّ الْعُنْف والْفِتْنَة فَاْقْـضِ عَلَيْهَا بِالْجِهَاد، ولاَ تُكرِه عَلَيْهِ (فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ) ذَلِكَ إنّ الْجِهَاد

⇐ بَعدها، اَسْتَعمَله عُمَرَ بن الخَطَّاب عَلىٰ مسَاحة الْعِرَاق، وأستعمله عليّ على الْبَصْرَة. (أنـظر، التَّأريخ الْكَبِير: ١/ ٢٠٩، الجَرح والتَّعديل: ١٤٦/٦، الإسْتِيعَاب: ٨٩/٣، الإِصَابَة: ٤٥٩/٢، تَهذيب التَّهذيب: ١٠٣/٧، أُسد الغَابَة: ٣٧١/٣، وتَأرِيخ الطَّبَرِي: ٤٦٥/٣). وَكَانَتْ فِتْنَة الْجَمَل الأصْغَر فِي الْبَصْرَةِ لِخَمس بَقِين مِن رَبِيع الثَّانِي سَنَة (٣٦ هـ) قَبل وصُول الإِمَام عَليّ عليه السلام إِلَيْهَا، وكَان عَاملها عُثْمَان بن حُنَيْف الأَنْصَاري الَّذي أَسَرَه جِيش أُمّ ٱلْمُؤمِنِين، وطَلْحَة، والزُّبَيْر، والَّذي قُتل مَن فِي الْمَسْجِدِ (٤٠) رَجُلاً من شِيعَة الإِمَام عَليّ عليه السلام، وَقُتل أيضاً (٧٠) آخرين فِي مكَانٍ آخر. وكَان عُثْمَان من الصَّحَابَة الأجْلاَء. وأرَادوا قَتله لَكِنَّهُمْ خَافوا مِن أنْ يَثأر لهُ أخُوه سَهل، والأنْصَار جَمِيعاً فَعَمَدُوا عَلىٰ نَتف لِحيَته، وشَارِبيه، وحَاجِبيه، وشَعر رَأسه، وضَرَبُوه ضَرباً مُبرحاً، وطَرَدُوه مِن الْبَصْرَةِ. وقَابَلهُم بَعد ذَلِكَ حَكِيم بن جِبلة مَع جَمَاعَة مِن بَنِي عَبدالقَيس، ومِن رَبِيعَة فَاقتَتلوا مَعهُم حَتَّىٰ اَسْتُشهِدَ مِنهُم جَمَاعَة، ومِنْهُم الأشرَف بن حَكِيم، وأخُوه الرَّعل، وفُتحت الْبَصْرَة كَمَا ذَكر صَاحب أُسد الغَابَة: ٣٨/٢، وشَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: لِاِبْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٤٨١/٢ طَبْعَة بيروت أفست، وأنْسَاب الأَشْرَاف للبَلاذُري: ٢٢٨/٢، ومرُوج الذَّهب للمَسعُودي: ٣٥٨/٢، كتَاب الجَمَل للشَّيخ المُفيد طَبْعَة الحِيدرِية، كـتَاب أحَـاديث عَـائِشَةَ أُمّ ٱلمُؤمِنِين للعلاّمة العَسكري: ١٢١/١ ـ ٢٠٠ طَبْعَة الحِيدرِية فِي طَهران و ١٧٢ ـ ٢٧٠ طَبْعَة ٥ مطبعة صَدر نَشر دَار التَّوحِيد، وتَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ١٧٨/٥.

أمّا وَقْعَة الجَمَل الأكْبَر فَكَانَتْ فِي جُمَادَىٰ الثَّانِيَة مِن نَفس السَّنَة أي سَنَة (٣٦ هـ) بَعد سِتة أشهر مِن خِلاَفَة أَمِير ٱلْمُؤمِنِين عليه السلام كمَا ذَكر صَاحب أعيَان الشِّيعة: ٤٤٧/١، والكَامِل لِاِبْن الأثِير: ٢٠٥/٣، وتَأرِيخ آبن أَعْثَمْ: ١٧٦. ولَسْنَا بصدد بَيَان ذَلِكَ، وكَانَ اللِّوَاء بيد مُحَمَّد ٱبن الحَنَفِيَّة. أُنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤٦٥/٣، و: ٢٠٧/٥ طَبْعَة أُخرىٰ، وتَأرِيخ الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٤٧٨/١ ومرُوج الذَّهب: ١٣/٢، المسترشد فِي الإِمَامَة: ٤٢٠، كتَاب الجَمَل: ٣٣.

(١) ٱلأَنفَال: ٦١.

الْحَقّ لاَ يَكُون وَلَنْ يَكُون إلّا بِالْإِيمَان والْعَقِيدَة، فَقوَّة الْإِيمَان وَحدَها تَسوق الْإنْسَان إلىٰ الْجِهَاد والاِستِشْهَاد...وَهل تَأرِيخ الشُّهدَاء إلّا تَأرِيخ الْعَقِيدَة؟ أمّا الْجِهَاد مَع الْمُشَكِك والْمُتَثَاقِل فإنَّه يُفرق الآرَاء، وَيُصدِع الصّفُوف، والنَّتِيجَة الفَشَل والخُسرَان... وإذَنْ فَعَدم الكَاره أو الْمُتَقَاعِس خَير مِن وجُوده، وغِيَابه خَير مِن حضُوره.

الرسالة

-٥-

الوَظِيفَة أَمَانَة لاَ طُعْمَة:

وَ إِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَ لَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَ أَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَ لاَ تُخَاطِرَ إِلاَّ بِوَثِيقَةٍ، وَ فِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ، وَ أَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَ لَعَلِّي أَلاَّ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ، وَ السَّلاَمُ.

اللُّغَة:

الطُّعْمَة: المَأْكَلَة والاِرْتزَاق. تَفْتَاتَ: تَسْتَبد. وَ لاَ تُخَاطِرَ: لاَ تُقْدِم.

الإِعْرَاب:

بِطُعْمَةٍ خَبَر لَيْسَ، والبَاء زَائِدَة واسمها ضَمِير مُستتر يَعُود إِلىٰ عَمَلَكَ و«لَكَ» مُتَعَلِّق بِطُعْمَةٍ، والمَصْدَر مِن أَنْ تَفْتَاتَ اسم لَيْسَ الثَّانِيَة، وخَبَرها «لَكَ» وَلَعَلِّي أَلاَّ أَكُونَ «أَلاَّ» كَلِمَتَان «أَنَّ» و«لاَ» والمَصْدَر المُنسبك خَبَر لَعَلَّ.

الْمَعْنَىٰ:

كَان الْأَشْعَث بِن قَيْس عَامِلاً عَلىٰ أذربيجَان مِن قِبل عُثْمَانَ[1]، ولمّا تَولّىٰ الْإمَام الْخِلَافَة كتب إِلَيْهِ بِمَا فِي يَدَه مِن أَمْوَال الْمُسْلِمِين، وَقَالَ لَهُ مِن جُمْلَة مَا قَالَ: (وَ إِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ... إلخ). أَنْتَ مُوظَف، والوَظِيفَة أَمَانَة فِي عُنُقِكَ للهِ والْمُسْلِمِين، وَلَيْسَت مَزْرَعَة لَكَ وَمَتجَراً (وَ أَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ).

إنّ عَلَيْكَ لحَسِيباً وَرَقِيبَاً، وهُو الْخَلِيفَة، يُحصِي عَلَيْكَ جَمِيع أَعْمَالُك، ويَأخذك بِها إنْ خُنت وخَالَفت (لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ) أي تَسْتَبد وتَسْتَغل والرَّعِيَّة

(١) أنظر، تَرجَمته فِي المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ١٦٨، أسد الغَابَة: ١ /٩٨، الأَخْبَار الطّوال: ١٥٦، الْفُتُوح لِابْن أعْثَم: ٢ /٣٦٧، العقد الفريد: ٤ /٣٣٠، الشّافِي: ٤ /١٢٩ ـ ١٣٥ المَطْبُوع و: ١٩٣ رَقم ١٢٨٢ المخطوط فِي مكتبة السَّيِّد المَرعشي النّجفي، وتَلخِيص الشّافِي للشّيخ الطّوسي: ١٦٢/٣ ـ ١٦٧، شرح النّهج لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢ /٣٠ ـ ٣٣ طَبْعَة القدِيم، بحَار الأَنْوَار: ٨ /٢٤٨ ـ ٢٥٠، المُسترشد فِي الإِمَامَة للطّبري: ٣٥٣ تحقيق الشّيخ المَحمُودي.

وعَن آبن سِيرِين أنّ الأَشعَث بن قَيْس صَحب رَجُلاً فرأىٰ آمرآته فأعجَبته. قَالَ فتوفىٰ فِي الطَّرِيق فخَطبها الأَشعَث بن قَيْس، فَأبت أنْ تَتَزوجه إلا عَلىٰ حكمها فَتزوجها عَلىٰ حكمها، ثُمّ طَلقها قَبل أنْ تحكم، فقَال: آحكمي! فقَالت: أحكم فُلاناً وفُلاناً رَقِيقِين، كَانوا لأبِيه مِن بِلاده فقَال: آحكمي غَيْر هَؤلآء؟ فأتىٰ عُمَر، فقَال يَا أَمِير الْمُؤمِنِين عَجزت ثَلاث مَرّات، فقَال مَا هنّ؟ قَالَ: عَشقت آمرأة... أُنظر، فِي كتَاب الأُم للإِمَام الشّافعي: ٧٧/٥.

وقد نَزَل فِيهِ قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَايُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَايَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَايُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آلِ عِمْرَان: ٧٧. لأنّه خَاصم رَجُلاً فِي بئر.

أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٥٩/٣ و: ١٦٧/٥، صَحِيح مُسْلِم: ٨٦/١، سُنَن آبن مَاجه: ٧٧٨/٢، سُنَن التّرمذي: ٣٧٠/٢ و: ٢٩٢/٤، المَجموع: ٤٣/١٤، المُغني لِابْن قُدَامَة: ١١٤/١٢ و ١٢١، بَدايَة المُجْتَهِد: ٣٨٣/٢، نَيل الأَوطار: ٢١٦/٩، دَعائِم الإِسْلاَم: ٣٦٩/١.

ٱلّتي أَنْتَ لهَا خَادِم وأَجِير .

(وَ لا تُخَاطِرَ إلاّ بِوَثِيقَةٍ) . لاَ تُقدِّم عَلىٰ أي عَمَل إلّا أَنْتَ عَلىٰ يَقِين مِن مكَـانِه ، وصحَتِه ، وفَائِدته ، وَلَدَيك الحُجّة الكَافِية الوَافِية عَـلىٰ ذَلِك (وَ فِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ) والنَّاس عِيَال الله ، وإذَنْ فالمَال لهُم وَلسَد حَاجَتهم ، ولَيْسَ لَكَ ولاَ لِلخَلِيفَة الَّذي هُو عَلَيْكَ حَسِيب ورَقِيب (وَ لَعَلّي أَلاّ أَكُونَ شَرَّ وُلاتِكَ لَكَ ، وَ السَّلامُ) . لَقَد أَثْنيتَ عَلىٰ عُثْمَانَ الَّذي وَلاّك ، وأرجُو أَنْ تُثنِي عَليَّ أيـضاً . . . وفِـيهِ إيمَاء إلىٰ أنّه عَلىٰ الأَشْعَث أنْ يَستَقِيم عَلىٰ الطَّرِيقَة وإلّا رَأىٰ مِن الإمَام مَـا يَكْـرَه . وَتَكَلمنَا عَن هَذَا الأَشْعَث سَابقاً[1] .

---

(١) أُنظر ، فِي شَرح ٱلخُطْبَة : (١٩) . (مِنْهُ). إذَنْ الأَشْعَث شَرَك فِي دَم أَمِير المُؤْمِنِين ، وأَبـنَته جـعدة سَمّت الحَسَن ، وآبْنِهِ شَرك فِي دَم الحُسَيْن . وقَـرِيب مِـن هَـذَا وذَاكَ فِي الاِسْـتِيعَاب : ١ / ٣٨٩ ، تَأرِيخ الخُـلَفَاء للسّيوطي : ٧٤ ، مُسْـتَدرَك الحَـاكِـم : ٣ / ١٧٦ ، الإِرْشَـاد للشَّـيخ المُفِيد : ٣ / ١٥ ، البـحَار : ٤٤ / ١٥٧ و١٤٩ / ٢٦ و١٨ ، العدد القَوِيّة (مخطوط) : ٧٣ ، المنَاقب لِابْـن شهـرآشـوب : ٣ / ١٩١ ، كَشـفه الغُـمّة : ١ / ٥٨٤ ، روضَة الوَاعظِين : ٢٠٠ ، الإِحْـتِجَاج للـطَّبرسي : ٢ / ١١ ، الكَـافِي : ١ / ٤٦٢ ح ٣ ، الخَـرَائـج والجرَائح (مخطوط ١٢٥) : ح ٧ .

الرسالة
-٦-

الْبَيْعَة لأَهْل الْحَل والْعَقد:

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ ، وَ عُمَرَ ، وَ عُثْمَانَ عَلَىٰ مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ ، وَ لاٰ لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ ، وَ إِنَّمَا الشُّورَىٰ لِلْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ وَ سَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ للهِ رِضىً ، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ ، أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ مَا خَرَجَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَبَىٰ قَاتَلُوهُ عَلَىٰ اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَ وَلَّاهُ اللهُ مَا تَوَلَّىٰ .

وَ لَعَمْرِي ، يَا مُعَاوِيَةَ ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلاّٰ أَنْ تَتَجَنَّىٰ ، فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ ، وَ السَّلاٰمُ .

اللُّغَة:

تَتَجَنَّىٰ : تَفْتَرِي .

الإِعْرَاب:

إِنَّهُ الضَّمِير لِلشَّأن ، وَلَعَمْرِي اللاَّم للإِبْتدَاء ، وَعَمْرِي مُبْتَدَأ ، والخَبَر مَحذُوف

وجُوبَاً أي قَسَمِي، ولَئِنْ اللاَّم تَوطِئة لِلقَسم، ولَتجِدَنِّي اللاَّم فِي جوَاب القَسَم السَّاد مَسد جوَاب الشَّرط.

الْمَعْنَىٰ:

بَعد أنْ تَمت الْبَيْعَة لِلْإِمَام كَتَب لمُعَاوِيَة رِسَالَة مَع جَرِير بن عَبدالله البَجَلِيّ[1]، ومِنْهَا (إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ، وَ عُمَرَ، وَ عُثْمَانَ عَلَىٰ مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ). فِي شَرح ٱلْخُطْبَة[2]. نَقَلنا عَن الْمُؤَرخِين، مِنْهُم الطَّبرِي، «إنّ الْمُهَاجِرِينَ والْأَنْصَار وَكَثِيراً غَيْرهمْ بَايعُوا الْإِمَام بَعد ٱمْتِنَاعَه، وقَوْله: «أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[3]، وإنّه مَا مَدّ يَده إِلَىٰ الْبَيْعَة إلّا بَعد إلحَاح الْجَمَاعَة، والْصَّحَابَة فِي

(١) جَرِير بن عبدالله بن جَابر، يُكنىٰ أَبَا عَمْرُو من قَبِيلة «بُجَيْلَة» قَدِم إِلىٰ النَّبِيّ ﷺ سَنَة عَشر فِي رَمضَان، وبَايعه، وأَسلم. وكَان عُمَرَ بن الخَطَّاب يَقول: جَرِير يُوسُفَ هَذِهِ الأُمَّة، لحُسنه، وٱشتَرك فِي الْفُتُوح زمن عُمَرَ، توفِّي بالشَّراة بِقِرْقِيسِيَا سَنَة إِحدىٰ وخمسِين، أو أَرْبَع وخمسِين، فِي وِلاَيَة الضَّحَّاك بن قَيْس عَلىٰ الْكُوفَة. (أُنظر الإِصَابَة: ١ / ٢٣٣، أُسد الغَابَة: ١ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠، المَعَارف لاِبْن قُتَيْبَة: ٢٩٢).

(٢) أُنظر، فِي شَرح ٱلْخُطْبَة: (٣ و ٩٢). (مِنْهُ ﷺ). وهَذَا لاَ يَعنِي أنّ الإِمَام عَلِيّاً ﷺ أَقر مَبدأ الْعَمَل بِنظَرِية عَمَل الصَّحَابَة، لأنّ عَمَل بَعضهُم يُخَالف بَعضهُم الآخر... ولا يَعنِي أيضاً أنّه أَقَر مَبدأ الشُّورَىٰ الّذي أنتهىٰ إِلىٰ السُّلطة الْفَرْدية وعقَابِيلها بِيد عَبد الرّحمن... ولاَ يَعنِي هَذَا أنّه ﷺ أَقر صِحَة إِمَارة أَبِي بَكْر، وعُمَرَ، وعُثْمَان مِن خِلال بِيْعَة بَعْض المُهَاجرِين والأَنْصَار؛ لِأَنَّهَا أُخذت بِالقَهر والسَّيْف، وبِالعَهد، والْفَرْدية، ولَم يَدخُل فِيها المَعْصُوم ﷺ، بل أَرَاد ﷺ أنْ يُذكر مُعَاوِية بأنَه لَو كَانَتْ الإِمَامَة تَنْعَقد بِبَيْعَة الْمُهَاجِرِين والأَنْصَار كَمَا تَدعون فَقَد بَايَعُونِي كُلّهم طَوْعَاً وإخْتِياراً، ولَم يَتحقق الإجْمَاع مِن قِبل الْمُهَاجِرِين والأَنْصَار عَلىٰ وَاحد مِن هَؤُلآء الثَلاثة مِثل مَاتَحقق فِي بَيْعَته ﷺ..

(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٩٢). وتَأْرِيخ الطَّبَرِي: ٥/١٥٢ المَطبعة الحُسَيْنِية و: ٣/٤٥٦ طَبعة أُخرىٰ: أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥/٧، الفِتْنَة وَوَقْعَة الجَمَل: ٩٣، وَقْعَة صِفِّين: ٢١، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١/١١٢، تَحقِيق الشِّيرِي.

الطَّلِيعَة، وَمَعَهُم الزُّبَيْر، وطَلْحَة، ومَا كَتَبَ الْإِمَام لمُعَاوِيَة إلّا تَجَنُّباً لِلْفِتْنَة.

قَالَ عَبد الكَرِيم الخَطِيب: «لَمْ يَكُن مِن طَبِيعَة عَليّ أَنْ يَبدأ أَحداً بِالْقِتَال قَبل أنْ يَبدأه، وَلَم يَكُن يَلجَأ إِلىٰ الْقِتَال إلّا بَعد أنْ يُنذر ويُعذر.. كَان يُقَاتل تَحتَ هَذَا الشَّرط الَّذي أَخذ بِه نَفْسَه... أمّا مُقَاتلوه فإنّما هِي الْحَرْب عِندهُم يُطلب فِيها الغَلب والنَّصر بكلِّ أُسلوب مُمكن، وبِكُلِّ وَسِيلة مُسْعِفة، قَالَ آبن حَزم «فِي أَيَّام عَليّ كَانَتْ وَقْعَة الْجَمَل وَصِفِّين، وَعَلم النَّاس مِنْهُ كَيْف كَان قِتَال أَهْل الْبَغْي»[1].

(فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ) إذَا تَمت الْبَيْعَة مِن أَكْثَرِية الْصَّحَابَة، وَحَضرهَا غَيْرهمْ ـ فَقَد لزَمَته وَلَيْسَ لهُ أَنْ يَرفض وَيَعتَرض (وَ لا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ) بَيْعَةَ الْإِمَام الَّذي بَايَعَه الْصَّحَابَة. وهَذِه الحُجَّة تَدمغ مُعَاوِيَة وَأَصْحَاب الْجَمَل، وَتُلقمهُم حَجَراً.. أنّهم يَعْتَرِفُون بِخلاَفة الثَّلاَثَة لِأَنَّهَا تَمت بِبَيْعَة الْمُهَاجِرينَ والْأَنْصَار، وكذَلِكَ بَيْعَة الْإِمَام... فكَيْف نَقَضُوا مَا أَبرمُوه هُنَاك؟. وَقَالَ كَثِير مِن أَرْبَاب التَّأرِيخ، والسِّيَر: إنّ بَيْعَة أَبِي بَكْر لَم يُجمع الْصَّحَابَة عَلَيْهَا، فَسَعد بن عَبَادة لَم يُبَايع، ولاَ وَاحد مِن أَهْله، وَكذَلِكَ بَنُو هَاشم وأَنْصَارهم[2]، ومَا تَوقف مُعَاوِيَة وأَضْرَابه

(١) أُنظر، كِتَابه عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِية النُّبوَّة، وخَاتَم ٱلخِلاَفَة: ٣٧٥ و ٣٧٧، ومَا بَعدها طَبعة سَنَة ١٩٦٧م، (مِنْهُ ﷺ). أُنظر، الْجموع: ٢١٢/٢٠، مُغني الْمُحتاج: ١١١/٤، حُلية الْأَوْلِيَاء: ٢٣١/٨، السِّرَاج الوَهاج: ٥١٢، سُبل السَّلام: ٢٥٧/٣، دَعَائم الإِسْلام: ٣٩٤/١، مَجْمع الزَّوائد: ٨/١، أَحْكَام الْقُرآن: ٥٣١/٣، كَنز الْعُمَّال: ٧٢/٧، مُسْتَدرَك الْحَاكِم: ١٤٨/٢.

(٢) أين الاجماع عَلىٰ الثّلاثة ـ أَبِي بَكْر، وعُمَرَ، وعُثْمَان ـ فهَذَا بَاطِل بالأدلة لِغِيَاب أَهْل الحَل والعَقد، وحَتّىٰ فِي دَاخل السَّقِيفَة خَرج سَعد بن عَبادة عَلىٰ الْإِجْمَاع. أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٢٠/٤، كتَاب الْحُدُود بَاب رَجم الحُبلىٰ من الزّنا، الطَّبَقَات الْكُبْرىٰ: ٢٦٣/٢، كنز الْعُمَّال: ٥٦/٤ و ٦٠، العقد الفريد: ٦١/٣، مروج

⇐ الذهب: ٤١٤/١، الإمامة والسّيَاسَة: ١٢/١ و١٤. فَقَد لَقِيه عُمَرَ بن الخَطَّاب فِي بَعْض طُرق المَدِينَة فقَال لهُ: «أيه سَعدا!؟ فقَال لَهُ: أيه عُمَرَا!؟ فقَال لهُ عُمَرَ: أَنْت صَاحب المقَالة؟ قَالَ سَعد: نَعم، أنَا ذَلِكَ، وَقَد مَضىٰ إِلَيْك هَذَا الأَمْر، كَان والله صَاحبك أَحبّ إلينَا مِنك، وقَد أَصْبَحت والله كَارِهاً لجوَارك. فقَال عُمَرَ بن الخَطَّاب: من كَره جوَار جَارٍ تحول عنْه، فقَال سَعد: مَا أنَا غَيْر مُستَسر بِذَلك، وأنَا مُتحول إِلىٰ جوَار مَن هو خَير مِنك... فلَم يَلبث إلاّ قَليلاً حَتَّىٰ خَرج إِلىٰ الشَام فِي أوّل خِلاَفة عُـمَرَ بـن الخَـطَّاب...» أنظر، الطَّبَقات لِابْن سعد: ٣/ق٢: ١٤٥، تَأرِيخ أبن عسَاكر: ٩٠/٦، كنز الْعُمَّال: ١٣٤/٣، السِّـيرَة الحَـلبية: ٣٩٧/٣.

وَقَد أَشَار عُمَرَ ٱبن الخَطَّاب، عَلىٰ أَبِي بَكْر بِقَتْل سَعد وَقَالَ: لاَ تَدع سَعداً حَتَّىٰ يُبايع وإلاّ فليُقتل، لكن أبن بَشير قَالَ لعُمَرَ: «أنَه قَد لجّ وأبىٰ، ولَيْس بِمُبايعكُم حَتَّىٰ يُقتل، ولَيْس بِمقتُول حَتَّىٰ يُقتل مَعه وَلده وأَهْل بَيْتِه وطَائِفَة مِن عَشِيرته، فأتركُوه فَلِيس تَركه بضَاركُم إنَّمَا هُو رَجُل وَاحد»، وَبقي عَلىٰ هَـذَا الحَـال إِلىٰ خِلاَفة عُمَرَ، وهُنا جَاء نَسج الأسَاطِير بأنّ سَعداً قَتَلته الجِن: «بِأنّه جَلس ـ يَبول فِي نَفقٍ فأقتتل فَمَات مِن سَاعته، ووَجَدُوه قَد أخضَّر جِلده»، الله أكبر كَبيرا؟ هَل حَدثنا التَّأرِيخ الإِسْلاَمي أو تَأرِيخ الأَدْيَان عَـن رَجُل قَتَلَه الجِن غَيْر سَعد بن عَبَادة وَكَذلِك أَخبر الجِن عَنْه، ولَم يَخفِ الجِن جَرِيمته؟ ولا نَدري مَا نَـوْع القِتَال الَّذي دَار بَيْنَ سَعد وبَيْنَ الجِن؟ ولاَ نَدري أيضاً أهُو قِتال مَادي بِالسّيوف والرّمَاح أَم قتَال رُوحي؟ ولاَ نَدري أيضاً مَنْ الَّذي صَور لنا هَذَا الفِلم الكَارِيكتِيرِيّ؟ ومَنْ الَّذي أخرجه بهَذا الشّكل المَسرحـيّ؟ أنظر، تَأرِيخ الطَّبَريّ: ٢٢٢/٣، تَأرِيخ أبن الأثير: ٣٣١/٢، طَبقَات أبن سَـعد: ٦١٧/٣، مُختصر تَأرِيخ دِمشق: ٢٤٦/٩، الإسْتِيعَاب: ٥٩٩/٢، العقد الفَرِيد: ٢٥٩/٤، شَرح نهج البَـلاَغَة لِابْـن أَبِي ٱلْحَـدِيد: ١١١/١٠ و١٧: ٢٢٣، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٥٨٩/١.

الجَوَاب عَلىٰ كلّ هَذِه التّساؤلات والألغَاز تَظهر من أَقْوَال المُؤرخِين والكُتّاب المُنصفِين. وعَلىٰ سبِيل المثَال يَقول البَلاذريّ فِي أَنسَاب الأَشْرَاف: «إنّ سَعد بن عَبَادة لَم يُبايع أبَا بَكْر وخَرج إِلىٰ الشّام فَبَعث عُمَرَ بن الخَطَّاب رَجُلاً وَقَالَ: أدعُهُ إِلىٰ البَيْعَة وأحتَل لهُ، فإنْ أبىٰ فأستَعن الله عَلَيْهِ. فَقَدِم الرّجُل الشّام فَوجد سَعداً فِي حَائِط بحوَارِين ـ قَرية فِي حَلب ـ فدعَاه إِلىٰ البَيْعَة، فقَال: لاَ أُبَايع قُرشِياً أبداً. قَالَ: فإنّي أُقاتلك. قَالَ: وإنْ قَاتلتني، قَالَ: أفخَارج أنْتَ مِمَّا دَخَلَت فِيهِ الأُمَّة؟ قَالَ: أمّا مِن البَيْعَة فإنّي خَارج، فرَمَاه بِسَهمٍ فَقَتَلَه». وفِي تَبصرة العوَام: «إنّهم أرسلوا مُحَمَّد بن مَسْلَمَة الأَنْصَاريّ فرمَاه بِسَهمٍ. وقِيل: إنّ خَالداً كَان فِي ⇐

عَن تَصحِيح بَيْعَة أَبِي بَكْر لامتناع مَن ٱمتَنع عَنْهَا[١].

(فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ، أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ مَا خَرَجَ مِنْهُ). الضَّمِير فِي أَمْرِهِمْ لِلصَّحَابَة الَّذِين بَايعُوا الإِمَام ومَن قَبله، والخَارِج بِطَعْنٍ مُعَاوِيَة، والخَارِج بِبِدْعَة أصحَابُ الجَمَل النَّاكِثُون، وَوَلَّاهُ الله مَا تَوَلَّىٰ إشَارة إلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٢] أي مَن تَرك وٱتبع البَاطِل أوكَلَه سُبْحَانَهُ إِلَيْهِ وعَامَله بِمَا يَسْتَحق.

(وَ لَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةَ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي... إلخ). أَنْتَ تَعْلَم بَرَاءَتِي مِنْ دَمِ عُثْمَانَ وَبِدفَاعِي عَنْهُ، وَلَكنَّك تَكذِب مَع نَفْسَك، وَتفْتَرِي عَلَيَّ لِمَآرب شَيطَانِية، وَلَو كُنْتَ مِن المُتَّقِين لِمَنَعَتك التَّقْوَىٰ مِن أَسَالِيب المَكر والخِدَاع... فٱفعَل مَا شَاء لَكَ الهَوَىٰ فإنَّ الله بِالمرصَاد لكلِّ ظَالِمٍ وآثِم.

وَقَالَ العَقَّاد: كَان مُعَاوِيَة أَقْدر مِن الإِمَام عَلَىٰ الدِّفَاع عَن عُثْمَانَ، لأنَّه كَان وَالِياً عَلَىٰ الشَّام عَزِيز الجُنْد، يَسْتَطِيع أنْ يَرسله إِلَيْهِ لِيَحمِيه مِن الشِّدَّةِ اللاَزمَة حَتَّىٰ ولَو أَبَىٰ عُثْمَانَ ذَلِكَ... أمّا عَليٌّ فَقد كَان مَوقفه أَصْعَب مَوقف يَتخيلهُ العَقْل فِي تِلك الأزْمَة المحفُوفة بِالمصَاعِب مِن كلِّ جَانب كَان الثّوَار يَحسبُونه أَوّل مَسْئُول عَن

⟸ الشَّام يومذَاك، فأعَانه عَلَىٰ ذَلِكَ». وهَذَا يُذكرنا بقول مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفيَانَ فِي قَتله للأخيَار والأبرَار والأَصْحَاب من أَمثال مَالِك الأَشْتَر، حِين قَالَ ـ أي مُعَاوِيَة ـ إنّ لله جُنوداً مِن عَسل!؟ أنظر، أنسَاب الأَشرَاف: ١/٥٨٩، العقد الفَريد: ٣/٦٤، بإختلاف بَسِيط فِي بَعْض الأَلفَاظ، تبصرة العوَام: ٣٢.

(١) أنظر، مَا كَتبَه الشَّيخ ﷺ حَولَ التَّسَنُّن والتَّشيع فِي كتَابه: فَلْسَفَة التَّوحِيد والوِلاَية.

(٢) ٱلنِّسَاء: ١١٥.

السّعي فِي الإصْلاَح، وكَان الخَليفَة يحسبهُ أوّل مَسْئُول عَن كَفّ الثّوار، ولَم يَكُن فِي العَالم الإسْلاَمي كلّه رَجُل آخر يُعانِي مِثل هَذِه المُعضلة الّتي تَلقَاه مِن جَانبِيه كلّما حَاوَل الخَلاص مِنْهَا ولاَ خَلاص»[١].

ثُمَّ قَالَ الْعقّاد: «مَع هَذَا صَنع الإمَام غَايَة مَا يَصْنَعه رَجُل مُتعَلّق بالنَّقِيضِين... جَاءَه الثّوَار وَعَرضُوا عَلَيْهِ الْبَيْعَة. فَلَقِيهُم أَسوأ لِقَاء، وأَنذَرهُم إنْ عَادوا ليَكُونَن جَزَاؤهُم عِنده جَزَاء المُفسدِين فِي الأَرْض»[٢]. ومُعَاوِيَة يَعْرِف ذَلِكَ أَكْثَر مِمَّا يَعرفَه الْعَقّاد، ولكنّه يَأبىٰ إلّا التَّجَنِي والافْتِرَاء عَلىٰ الْإِمَام.

(١) أُنظر، عَبقَرية الإمَام: فَصل «الْبَيْعَة». (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أُنظر، الْمَصْدَر السَّابق.

الرسالة ٧٣

-٧-

جوَاب الْإِمَام لِمُعَاوِيَة:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَ رِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَهَا بِضَلَالِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَ لاَ قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَىٰ فَأَجَابَهُ، وَ قَادَهُ الضَّلاَلُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لاَغِطاً، وَ ضَلَّ خَابِطاً.

وَ مِنْهُ: لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لاَ يُثَنَّىٰ فِيهَا النَّظَرُ، وَ لاَ يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ. الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَ الْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ.

اللُّغَة:

مَوْصُولَةٌ: مَجْمُوعة مِن كلِّ وَادٍ عَصَا. ومُحَبَّرَةٌ: مُزَيَّنَة. وأَمْضَيْتَهَا: أَجَزْتَهَا وأَنْفَذْتَهَا. وهَجَرَ: هَذَىٰ. ولاَغِطاً: مُصَوتاً. وخَابِطاً: سَائِراً بِغَير هُدىٰ. والمُرَوِّي: المُفكِر. والمُدَاهِن: المُصَانِع.

الإِعْرَاب:

لاَغِطاً حَال مِن الضَّمِير فِي هَجَرَ، وَمِثله ضَلَّ خَابِطاً، والهَاء فِي «لِأَنَّهَا» لِلقِصَّة،

وبَيْعَةٌ خَبَرَ «أَنَّ» وبَيَان تَفْسِير لِلهَاء.

الْمَعْنَى:

(أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَ رِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ... إلخ). ٱتـفَق الشَّارحُون عَلىٰ أنّ الخِطَاب لِمُعَاوِيَة، وأنّه جوَاب عَن رِسَالَة بَعث بِها إِلىٰ الإِمَام، كمَا هُو صَرِيح قَوْله: «أَتَتْنِي مِنْكَ» وٱخْتَلفُوا فِي تَحدِيد ٱلرِّسَالَة الّتي أجَاب عَنهَا الإِمَام بهَذا الجَوَاب، لأنَّ مُعَاوِيَة بَعَثَ إِلىٰ الإِمَام أَكْثَر مِن رِسَالَة[1]... وأنَا كشَارح لا أُكْثِرث وَأهتَم إلّا بِبَيَان مَا قَصَد الإِمَام وأرَاد مِن كَلمَاته، وَيَتلَخَص مُرَاده هُنَا أنّ مُعَاوِيَة تَعَسّف وَتَكَلّف، وحَاوَل أنْ يُقَلد أَهْل ٱلبَلاَغَة والفَصَاحَة فِي رَسَائِلهم، فَجَاء كَلاَمه مَزِيجاً مِن أقوَالٍ شَتىٰ، ومُعَبراً عَن غَيِّه وضَلاَله.

(لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ) لاَ تَتجزَأ بِطَبِيعتهَا إِلىٰ رِضا الصَّحَابَة بِهَا، ورَفض مِن عدَاهُم لهَا (لاَ يُثَنَّىٰ فِيهَا النَّظَرُ) لا يُقْبَل الشَّك والمُرَاجعَة، لِأَنَّهَا مُحْكَمَة مُبرَمَة (وَ لاَ يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ) لِأَنَّهَا تَأبَاه بِطَبعهَا كَالوفَاء بِالعَهد، والصِّدْق فِي الشَّهَادة، فمَا لأحدٍ أنْ يَقول: لِي الخيَار فِي أنْ أَفِي بمَا عَليَّ، وأَشْهَد بمَا أُرِيد[2]. (الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ) مَن

---

(١) أُنظر، العَقد الفَرِيد: ٥/٧٦، بحَار الأَنْوَار: ٣٣/٧٩، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١/٧٧، الكَامِل للمُبرد: ١/١٥٧، وَقْعَة صِفّين: ٥٨، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٣/٩١، جوَاهر المطالب فِي مَناقب الإِمام عَليّ لِابْن الدِّمَشْقي: ١/٣٧٠.

(٢) وَمَن بَايَعَ إِمَاماً فَأعطَاه صَفقَة يَدِه، وَثَمَرة قَلبه... فَلِيطعَه إنْ أستطَاع... ولا ندري هل أنّ البَيْعَة كمَا قَـالَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أحدهما للآخر فِي بَيْعَتهما لِلإِمَام بَايَعتهُ أَيْدِينَا، ولَم تُبَايعه قُلوبنا، أو مَا بَايعتهُ قُلوبنا، وإنّمَا بَايعته أيْدِينَا... فَقِيل للإِمَام عَليّ عليه السلام ذَلِكَ فقَال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ

↔

رَفَضَ مَا عَقَده الْصَّحَابَة مِن الْبَيْعَة فَقَد عَصىٰ وتَمَرد عَلىٰ الْحَقّ، وَطَعن عَلىٰ أَهْله (وَ الْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ) ومَن تَردَد وأَبْطَأ عَن الْبَيْعَة الّتي عَقَدهَا الْصَّحَابَة فَقَد دَاهَن ونَافَق، ومَا قَصَد إلّا التَّشوِيش والتَّخرِيب.

↔ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الآيَة: ١٠ من سُورة ٱلْفَتح. أنظر، كَنْز الْعُمَّال: ٢٣٥/١١ ح ٣١٦٧٤، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٢٥٨/٧ ح ٦١ و: ٧٠٩/٨ ح ٢٠، كتَاب الجَمَل: ٢٣٣، شَرح الأَخْبَار: ٣٩٦/١ ح ٣٣٦، فَرَائد السِّمطِين: ٢٧٩/١ طَبعة بيروت، مناقب أمِير المُؤمِنين لمُحَمَّد بن سُليمان الكُوفي: ٣٤٢/٢ ح ٨١٩.

الرسالة

-٨-

إلىٰ جَرِير البَجَليّ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱحْمِلْ مُعَاوِيَة عَلَىٰ الْفَصْلِ، وَ خُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ فَإِنِ ٱخْتَارَ الْحَرْبَ فَٱنْبِذْ إِلَيْهِ، وَ إِنِ ٱخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

الْفَصْلِ: الْحُكْم القَاطع لكلِّ قَوْل. وحَرْبٍ مُجْلِيَةٍ: تَجْلِي الْعَدُوّ عَن مواقِفه، وتُلجِئه إِلىٰ العِدُول عَنْه. وسِلْمٍ مُخْزِيَةٍ: تُفرَض عَلَيْهِ شُرُوط الْعَدْل فيَستَسلم لَها مُرغماً. فَٱنْبِذْ إِلَيْهِ: ٱرْمِ إِلَيْهِ عَهد السِّلْم والأَمَان وأَعْلن عَلَيْهِ الْحَرْب.

الإِعْرَاب:

وَالسَّلَامُ مُبْتَدأ والْخَبَر مَحذُوف أي عَلَيْكَ.

الْمَعْنَىٰ:

فِي شَرح ٱلرِّسَالَة السَّادِسَة قُلنا: إنّ الإِمَام أَرْسَلها لِمُعَاوِيَة مَع جَرِير بن عَبد الله البَجَلِيّ، وأيضَاً تَقدَّمَ: (إنّ أصْحَاب الإِمَام أشَاروا عَلَيْهِ بالاِسْتعدَاد لحَرْب مُعَاوِيَة بَعد إرْسَاله جَرِيراً إِلىٰ الشَّام. وإنّه أجَاب بقَوْله: «إِنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّام، وَ جَرِيرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلاَقٌ لِلشَّامِ، وَ صَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ. وَ لَكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لاَ يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلاَّ مَخْدُوعاً، أَوْ عَاصِياً»)(١). ولمَّا مَضىٰ الأَمْر الْمَضْرُوب كَتَب الإِمَام إِلىٰ جَرِير هَذِه، ومُلخَّصها: لاَ مُوجب للتَّأخِير والتَّطوِيل، وعَلَيْكَ أنْ تَنْهِي الأَمْر مَع مُعَاوِيَة بِكَلِمَة وَاحدة: الْبَيْعَة أو الْحَرْب(٢).

---

(١) أنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٤٣). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) ذَكر صَاحب وَقْعَة صِفِّين نَصر بن مزاحم تَحقِيق وشَرح عبدالسَّلام هَارون: ٥٢ الطَّبعة الثَّانِيَة القَاهِرة: ٥٢، تَحت عنوَان كتَاب عَليّ إِلىٰ جَرير جَاء فِيهِ: وإنّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ قَد كَان أَشَار عَلَيَّ أنْ أَستَعمل مُعَاوِيَة عَلىٰ الشَّام وأنَا بِالْمَدِينَة. فَأبَيْت ذَلِكَ عَلَيْهِ، ولَم يَكُن الله لِيَرانِي أَتّخذ الْمُضلِّين عَضداً. فإنْ بَايعك الرَّجُل، وإلاّ فأقْبِل. أنظر، الْفُتُوح لِابن أعْثَم: ١/ ٤٤٦.

أمّا شَرَحْبِيل بن السّمط الكندِي، كَان سيّد قَوْمه، وهُو عدوٌ لجَرِير بن عبدالله البَجَليّ كَمَا يقول ٱبن أعْثَمْ فِي الْفُتُوح: ١/ ٥٣٠، وهو الّذي كَتَب إِلَيْهِ مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ ـ وكَان شَرَحْبِيل يَوْمَئِذٍ بِمَدِينة حِمص ـ: أمّا بَعد، فإنّ جَرِيراً قَدِم عَلينا مِن عِند عَليّ بن أبِي طَالب بأمرٍ فَظِيع، فأقدِم إلينَا يَرحمك الله... ثُمّ قَالَ: فَلمّا ورَد إِلَيْهِ كتَاب مُعَاوِيَة وقَرأه أقْبَلَ عَلىٰ عبدالرّحمن بن غَنم الأزدِيّ. (كمَا فِي التَّجرِيد: ١/ ٣٨١). وهو صَاحب مَعاذ بن جَبل، وكَان أفقه أهْل الشَّام فاْستشَاره فِي الْمَسِير إِلىٰ مُعَاوِيَة فقَال لَهُ عبدالرّحمن: وَيحَك يَاشَرَحْبِيل، إنّ الله لَم يَزل يُرِيد بِك خَيراً مُذ هَاجرت إِلىٰ وَقتك هَذَا... ثُمّ قَالَ شِعراً:

أيَا شَرحُ يَا ٱبن السّمط إنّك بَالِغٌ بأخذ عَليّ مَا تُرِيد مِن الأَمْر

إِلىٰ آخر الأبيَات، أنظر فِي الْفُتُوح: ١/ ٥٣١ هَامش رقم (٢).

قَالَ: فلمّا سَمع شَرَحْبِيل بن السّمط هَذَا الشّعر كأنّه وقَع فِي قَلبه، ثُمّ أقْبَل عَلىٰ عبدالرّحمن بن غَنم

⇔

⇐ فقال: إنّي سَمعتُ مَا قُلت وقَد أحببتُ أنْ أسمع كلاَم مُعَاوِيَة فِي نَفرٍ مِن بَنِي عَمّه.
وكَتب إلَيْهِ الأسود بن عبدالله أبيَاتاً من الشّعر:

أبَا شَرحُ يا ٱبن السّمط لاتَتبَّع الْهَوىٰ ... فَـالك فِي الدُّنْيَا مِـن الدِّين بِالبَدل

إلىٰ آخرها، أوردها أيضاً ٱبن أعْثَمْ في الْفُتُوح أيضاً: ١ /٥٣٢ هَامش رقم (١).
قَالَ: فَلمّا تَفهّم شَرَحْبِيل هَذَا الشّعر ذَعر مِنْهُ ذُعراً شَدِيداً وفكّر فِي أمره ثُمّ قَالَ: هَذِه والله نَصِيحة لِي فِي دِينِي ودُنيَاي، لا والله لا عَجّلت فِي هَذَا الأَمْر بشيء، وفِي نَفسِي منهُ حَاجَة. قَالَ: ثُمّ سَار إلىٰ مُعَاوِيَة ودَخل عَلَيْهِ ـ إلىٰ أنْ قَالَ: ـ إنْ شَهدا عِنْدِي رَجُلان مِن سَادات أهْل الشّام أنّ عَلِيّاً قَتل عُثْمان صَدقتك وقَاتلت بَيْنَ يَدِيك أنَا وجَمِيع مَن أطاعني من قَوْمِي... ثُمّ ٱنصرف... فلمّا أصبَح وجّه إلَيْهِ مُعَاوِيَة بِالْقَوْم الّذِين أعدّهم له. فشَهدوا عِنده أنّ عَلِيّاً قَتل عُثْمان. قَالَ: فعندها أقبل شَرَحْبِيل حَتّىٰ دَخل عَلىٰ مُعَاوِيَة فَقَالَ: يَا هَذَا لقَد شَهد عِنْدِي العدُول... قَالَ: فَجَعل ٱبن أُخت لشَرَحْبِيل يقول أبيَاتاً مَطلعها:

رمَىٰ شَرَحْبِيل بِالدوَاهِي وقَد رَمىٰ ... هُنالك بِالسَّهم الّذي هُو قَاتله

إلىٰ آخرها، وقَد ذكرها أيضاً ٱبن أعْثَمْ: ١ /٥٣٣ هامش رقم (١).
قَالَ: فَهمّ مُعَاوِيَة بِقَتْل قَائِل هَذَا الشّعر، فهَرب حَتّىٰ صَار إلىٰ عَليّ عليه السلام وحَدّثه بِالحَدِيث من أوّله إلىٰ آخره. قَالَ: وبَعَث النَّجاشي شَاعر عَليّ إلىٰ شَرَحْبِيل بن السّمط الكندي أبيَاتاً مَطلعها:

أيَـا شَرحُ مَـا لـلدِّين فَارقْت أمرنا ... ولكـن لِـبغض المَـالكيّ جَـرير

إلىٰ آخرها، كما أوردها ٱبن أعْثَمْ فِي الْفُتُوح: ١ /٥٣٣ هَامش رقم (٢).
وهُنالك رَسَائل ومُسَاجلات أوردها ٱبن أعْثَمْ في الْفُتُوح: ١ /١٩ ومَا بَعدها بَيْنَ سَعيد بن قَيس الهَمَذانيّ وشَرَحْبِيل أعرضنا عَنْها للإخْتِصَار، وكَذَلك أنظر، تَأريخ الطَّبَري: ٣ /٥٧١، ووَقْعَة صِفّين: ٤٤ و ٥٢ و ٨١ و ١٨٢ و ١٩٦ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٥٣٦، والعقد الفريد: ٤ /٣٠٣، وٱبن قُتَيْبَة في الإمَامَة والسِّيَاسَة: ١ /٩٩ و ١٠٠ و ١٥٥.

الرسالة

-٩-

النَّبِيّ وَقُرَيْش:

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَ اجْتِيَاحَ أَصْلِنَا، وَ هَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وَ فَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ، وَ مَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَ أَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَ اضْطَرُّونَا إِلَىٰ جَبَلٍ وَعْرٍ، وَ أَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَىٰ الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَ الرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ. مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ، وَ كَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ. وَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ.

وَ كَانَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَ أَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَىٰ بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَ الْأَسِنَّةِ. فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَ قُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَ قُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَ أَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَ لَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَ مَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ. فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَ لَا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ. وَ الْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

وَ أَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ

يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَ لاَ إِلَىٰ غَيْرِكَ ، وَ لَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَ شِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ ، لاَ يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَ لاَ بَحْرٍ ، وَ لاَ جَبَلٍ وَ لاَ سَهْلٍ ، إِلاَّ أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ ، وَ زَوْرٌ لاَ يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ ، وَ السَّلاَمُ لِأَهْلِهِ .

اللُّغَة:

قَوْمُنَا : قُرَيْش . وَٱجْتِيَاحَ : الاِسْتِئصَال . وَهَمُّوا قَصَدُوا . والْهُمُومَ : الأَحـزَان . والأَفَاعِيلَ : الْإِسَاءَات . وَأَحْلَسُونَا : أَلْزَمُونا . عَزَمَ : أَرَادَ .

وحَوْزَةِ الله . دِينَه وَشَرِيعته ، وحَوْزَةِ النَّبِيّ : جَانبه ومَكانَته . وٱحْمَـرَّ ٱلْبَأْسُ : ٱشْتَد الْقِتَال . ومُؤْتَة : مَكَان فِي الشَّام . وسَابِقَتِي : فَضِيلَتِي . ويُدْلِي : يَتَوَسل .

وتَنْزِعْ : تَنْتَهِي . الشِّقَاقِ : الخِلاَف . الزَّوْر : الزَّائِرُون . واللُّقْيَان : اللّقَاء .

الْإِعْرَاب:

الْعَذْبَ صِفَة لِمَفْعُول مَحْذُوف أي العِيش الْعَذْبَ ، وخِلْوٌ خَبَر مَنْ أَسْلَمَ ، ومِثْلَ الَّذِي مَفْعُول أَرَادَ ، فَيَا عَجَباً أي يَا عَجَبِي ٱحْضَر ، وضَمِير أَنَّهُ لِلشَّأن ، وضَمِير لُقْيَانُهُ للزَّوْر ، وأَفرَادَه بٱعْتبَار اللَّفظ دُونَ الْمَعْنَىٰ .

الْمَعْنَىٰ:

(فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا ، وَ ٱجْتِيَاحَ أَصْلِنَا . . . إلخ) . كَانَتْ قُرَيْش ـ قَبِيلَة النَّبِيِّ

وعَليّ - تَعِيش بِمكَّة، وتَسْتَأثِر بِكُلّ الحُقُوق، ومَا لأحدٍ مَعَهَا شَيء، ونَشَأ مُحَمَّد ﷺ فِيهَا يَتِيم الأُمّ والأب[1]، فَكَفَله جَدّه عَبد المُطلب سَبع سِنِين[2]، ثُمّ عَمّه أبُو طَالب[3]، ولمّا بَلغ الأَرْبَعِين مِن عُمره ٱخْتَاره الله لأَمرِه[4]، فَأَنْفَذه فِي نَفْسه وزَوّجَته خَدِيجَة وٱبن عَمّه عَليّ وغُلاَمه زَيد، ثُمّ فِي نَفرٍ قَلِيل.

ثُمّ ٱنْتَشر ذِكر الرَّسُول ﷺ فِي بِلاد الْعَرَب، فَأوجَسَت قُرَيْش خِيفَة مِن رِسَالَته، ونَظَرَت إِلَيْهَا كثَورَة تَجتَاح سيطرَتها، وتَستَأصل ٱمتِيَازها مِن الجذُور... وإذَنْ فَلا بِدَع أَنْ تُحاول قُرَيْش قَتْل النَّبيّ، وتَعتَبره الْعَدُوّ الألد، وإنّه المُعتدي والبَادِي. ومَاذا تَرقب وتَنتظر مِن قُرَيْش وغَيْر قُرَيْش، بل مِني ومِنك أيضاً إذَا حَاول مُرِيد أنْ يَسلبُك كُرسي الحُكْم ومَا لَك مِن أمرٍ ونَهيٍ - إنْ كَانَ لَك شَيء مِنْهُمَا - ويُساوي بَيْنَكَ وبَيْنَ مَن تَستَعبده وتَستَغله، يُسَاوِيك بِهِ فِي جَمِيع الْحُقُوق والوَاجِبَات؟. أمّا

(١) أنظر، البداية والنّهاية لاِبْن كَثير: ٢/٢٥٥، تَأرِيخ الطّبريّ: ٢/٢٧٢، الرّوض الأُنف للسُّهيلي: ١/٨، السِّيرَة لاِبْن هُشام: ١/١٥١، تَأرِيخ اليَعقوبِيّ: ٢/٦.

(٢) أُنظر، حَاشية البجيرميّ: ٢/٢٤٩، السِّيرَة النَّبويَّة لاِبْن هشام: ١/١٦٩، تحقيق: مُصطفىٰ السّقا، وإِبْرَاهِيم الابياري، وعبد الحَفِيظ شَلبي، مَسالك الحُنفا: ٦٣، دَلائِل النُّبوَّة للبِيهقي: ١/١٨٨، المِنحة الشّمسية فِي فَضَائِل خَير البَرية «مخطوط» وَرَق ١٧ ب.

(٣) أُنظر، تَفْسِير أبن كَثِير: ٤/٥٢٤، صَفوة الصَّفوة: ١/٦٥، إعْلاَم الورىٰ: ١/٥٢، شَرح الأَخْبَار: ٣/٢٢١، كَشف الغُمة: ١/١٩، الطَّبَقات الْكُبْرَىٰ: ١/١١٩، مروج الذَّهب: ٣/١٤، تَأرِيخ اليعقوبِي: ٢/١٣، دلائِل النُّبوَّة للإصْبهانِي: ١/٣٥٩، دَلاَئِل النُّبوَّة للبِيهقي: ١/١٨٨، تُحفَة الأَحْوَذي: ١٠/٦٦.

(٤) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٣/٢٤٠ ح ١٣٥٤٣، مُسْنَد أَبِي يعلىٰ: ٦/٣١٩ ح ٣٦٤٣، فتح البَاري: ٧/١٦٤ ح ٣٦٣٨، تُحفَة الأَحْوَذي: ١٠/٦٧، التّمهيد لاِبْن عبد البَر: ٣/١٣، شَرح النّووي علىٰ صَحِيح مُسْلِم: ١٥/٩٩، حلية الأَوْلِيَاء: ٣/٢٦٢، صَفوة الصّفوة: ١/١٥٢، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ١/٥٢٦، مُعجم الشّيوخ: ١/٨١.

الْحَقّ والْعَدْل وصَالِح الجَمَاعَة والإِنْسَانِية والمَسْئُولِية، أمّا هَذِه الْقِيَم وأمثالها فَكَلاَم فَارغ فِي مَفهُوم أَهْل القُوَّة والثَّروة.

هَذَا، إِلىٰ أَنّ قَبِيَله النَّبيّ أَرَادت العِيش مَعه بِسلاَم، فَعَرضت عَلَيْهِ المَال، والسُّلْطَان عَلىٰ أَنْ يَتنَازل عَن دَعْوَة المُسَاوَاة بَيْنَ النَّاس، وإِنْصَاف الضَّعِيف مِن الْقَوِيّ، فَرَفض وَقَالَ: «مَا جِئتكُم لأطلب أَمْوَالِكم والمُلك عَلَيْكُم[(١)]... إِنّمَا أنَا رَحْمَة مُهدَاة[(٢)]... كُلكُم مِن آدمَ وآدَمَ مِن تُرَاب»[(٣)]. وَكَلِمة لاَ إِله إلّا الله لاَ تَنْفَصل عَن كَلِمَة النَّاس كُلّهم إِخوَة وعِيال الله ولا يَعبدُون أَحداً سوَاه... وأفعلوا مَا شِئتُم، فَسأَصْبر عَلىٰ أذاكُم حَتَّىٰ يَحكُم الله بَيْنِي وبَيْنَكُمْ.

ولمّا أستَيأَسُوا مِنْهُ عَمدوا إِلىٰ إِيذَائِه بِالْقَوْل، وبِالفِعْل، فَشنُوا عَلَيْهِ وَعَلىٰ رِسَالَته حَرب الدّعَايَات الكَاذبة والأضَالِيل، ومَن أرَاد التَّفصِيل فليَرجع إِلىٰ كُتب السِّيرَة

---

(١) أقتباساً مِن الحَدِيث المروي: «والله لَو وضعَت الشَّمس فِي يَمِيني والقَمر فِي شمَالي مَا تَركت هَذَا الأَمْر أَبَداً حَتَّىٰ أنفذه أو أَهلك» أنظر، البدَاية والنّهاية: ٣/٥٦، دَلائل النُّبوَّة للأصبهَاني: ١٩٧، مجْمَع البَيَان: ٨/٤٦٥، مناقب آل أَبِي طَالب: ١/٥٣، السِّيرَة النَّبويَّة: ٢/١٠١، تَارِيخ الطَّبرِي: ١/٥٤٥، تَارِيخ البُخَاريّ: ٧/٥٠ ح ٢٣٠، دَار الكُتب العِلمِية، الإِصَابَة: ٧/١٩٧، دَار الكُتب العِلمية، السّلسلة الصَّحِيحة للألبَاني: ١/١٤٧ ح ٩٢.

(٢) أُنظر، كنز العُمّال: ١١/٤٢٥ ح ٣١٩٩٥ و٣٢٠٩٣، البداية والنّهاية: ٦/٢٩٦، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ١/٤٦٤، كتاب أمثال الحَدِيث لِابْن خَلاد الرَّامهرمزي: ٣٤، الجَامع الصَّغِير: ١/٣٩٥ ح ٢٥٨٣، مُسْنَد الشّهاب: ٢/١٨٩ ح ١١٥٩ و ١١٦٠ و ١١٦١، مِيزَان الإِعْتِدَال: ٣/٤٧٨ ح ٧٢١١، تَفْسِير أبن كثير: ٣/٢١١، الدُّر المنثور: ٤/٢٤٢، فَتح القدِير: ٣/٤٣٣، الكَامِل لِابْن عَدِيّ: ٤/٢٣١، تَارِيخ دمشق: ٥/٤٠١، الطَّبقَات الْكُبْرَىٰ: ١/١٩٢، كتَاب نسخة وَكِيع: ٨٨، المُصَنّف لِابْن أَبِي شيبة: ٧/٤٤١ ح ١٤٤، سؤالات حَمْزَة للدَّار قُطني: ١٢٧.

(٣) أُنظر، سنن البَيهقي: ٩/١١٨، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ٥/٢٤٢، شرح نَهج البَلاَغة لِابْن أَبِي الحَدِيد: ١٧/٢٨١، بِحَار الأَنْوَار: ٣١/٣٥.

والتَّأرِيخ... ولَيْس النَّقل مِن دَأْبِي لضَرُورة، أنَا أُقدرهَا... آذوا النَّبيّ ﷺ ونَكْلوا بِالْكَثِيرِ مِن أصْحَابه، ولكنْ لَمْ يَبلغوا مِنْهُ مَا أرَادوا، فَأزمعُوا عَلىٰ الخَلاص مِنْهُ، وخَطَطوا لِقَتله بِأنْ يَضربُوه مُجْتَمِعِين ضَربَة رَجُلٍ وَاحد، ويَذهَب دَمه هَدراً[1]... ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

---

١)دَار النَّدوة: هِي دَار قُصي بن كلاَب الَّذي كَانَتْ لهُ رِئَاسة عَامّة، وزعَامَة مُطلقة عَلىٰ قُرَيْش، فَاتخذُوا دَاره مَركزاً لَهُم، واستمرّوا عَلىٰ ذَلِكَ بَعد وفَاته، وقِيل: إنّها أوّل دَار بُنِيت بِمكّة، وسُمّيت بِالنَّدوة لأنّهم كَانوا يَنتَدُون بِها ـ أي يَجْتمعُون فِيها للخِير والشَّرّ ـ وفِيها تَقضي قُرَيْش أُمُورها، فمَا تُنكح امرأة ولا تُدرع جَارِية ولا يَتزوج رَجُل من قُرَيْش ولا يَتشاورون فِي أمرٍ نَزَل بِهِمْ إلاّ فِيها. (أُنظر، طَبقَات ابن سعد: ١/ ٧٠ و ٧٧، السِّيرَة لِابْن هُشَام: ١/ ١٣٠، فتوح البلدان للبلاذري: ٧٠، تَأرِيخ الطَّبري: ٢/ ٢٥٨).

وقِيل: كَان اجتمَاعهم هُنا أرْبَعِين رَجُلاً، وقَالُوا بِأجْمَعهم: أنْ يَجتمع مِن كلّ بَطن مِن بطون قُرَيْش رَجُل شريف ويَكُون مَعهم مِن بَنِي هَاشم وَاحد فيأخذُون حَديدة أو سَيْفاً ويَدخلون عَلَيْهِ فيضربُونه كُلّهم ضَربةً وَاحدة فَيتفرّق دَمَه فِي قُرَيْش كُلّها فَلا يَستَطِيع بنُو هَاشم أنْ يَطلبوا بِدَمه، فاختاروا خَمْسَة عَشر رَجُلاً فِيهِمْ أبُو لَهَب عَلىٰ أنْ يَدخلوا عَلىٰ رَسُول الله فَيقتلونَه، فَأنزل الله سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ علىٰ رَسُوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الْأنفَال: ٣٠). فَأمر رَسُول الله ﷺ أنْ يُفرش لهُ، وَقَالَ لِعَليّ ؑ: يَا عَليّ أفدِنِي بِنَفْسك، قَالَ: نَعم يَا رَسُول الله، قَالَ لهُ: نَمْ عَلىٰ فرَاشي والتَحف بِبُردي. فنَام عَليّ ؑ عَلىٰ فرَاش رَسُول الله ﷺ والتَحف بِبُردته.

وقِيل: إنّ الله أوحىٰ فِي تِلك اللَّيلَة إلىٰ جِبْرِيل ومِيكَائِيل: إنِّي قَضِيت عَلىٰ أحدكُما بِالمَوْت فَأيكُما يوَاسي صَاحبه فاختَار الحيَاة كِلاهما... وسَاق الحَديث وخَرج رَسُول الله ﷺ عَلَيْهِمْ وهُو يَقرأ «يَس» إلىٰ قَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يَس: ٩). وأخذ تُرَاباً بِكفَّه ونَثَره عَلَيْهِمْ وهُم نِيَام ومَضىٰ. فقَال لهُ جِبْرِيل: يَا مُحَمّد خُذ نَاحِية ثور ـ وهُو جَبل عَلىٰ طَرِيق مِنىٰ لهُ سِنام كَسنَام الثّور ـ فَمرّ رَسُول الله وتَلقّاه أبُو بَكْر فِي الطَّرِيق فَأخذ بِيده ومَرّ بِهِ فَلما انتهىٰ إلىٰ ثور دَخل الغَار. (أُنظر، الدُّر المنثور: ٤ / ٢٠٢ وأخرج عبدالرَّزاق، وابن المُنْذِر عن الزّهري، وأُنظر تَفْسِير المِيزَان للسيّد مُحَمّد حُسين الطَّبَاطبَائي: ٩ / ٣٠٦، إعلام الورىٰ للطَّبرسي: ٦٣ طَبْعَة النَّجف، المُسترشد فِي الإِمَامَة
↔

نَحْنُ وُحُوشٌ:

وَبَعد، فإنّ أَهْل القُوَّة والثَّروة فَعَلوا الأَفَاعِيل ضِدّ رَسُول الله، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، ونَحْنُ نَلْعَنهُم بِعُنف، ونتَقَرَب إِلىٰ الله بِلَعْنِهِم والبَرَاءَة مِنْهُم دُونَ أَنْ نُحَاسب أَنْفسنَا وَنَنْظُر إِلىٰ سلُوكنا... وهَل مِن وَاحد منّا ـ إِذَا كَان لهُ آمتِياز وآستعلاء ـ يَضمن نَفْسه أنْ لاَ يَفعل مَع المَصلَحِيين مَا فَعَله عُتاة قُرَيْش مَع رَسُول الله ﷺ؟ وأي فَرق بَيْنَ أَبِي جَهل، وبَيْنَ مَن يَبيع دِينه لِلشَّيْطَانِ، ولاَ يُقِيم وَزنَاً إلّا لصّكُوك البَيع والشَّراء؟ وهَل يَحق لأحدٍ أنْ يَدعِي الدِّين والإِنْسَانِية، وهُو لاَ يَشعر بِآلاَم مِن حَوْلَه؟ والطَّامة الْكُبْرَىٰ أنْ لاَ ترىٰ إلّا هَمكَ وفَرِيسَتك، وفِي الوَقت نَفْسَه تَجهل دَخِيلتك وصِفَاتك. وبِالتَّالِي فَنَحنُ وحُوش كَاسِرة، ولَكن فِي صُورة إِنْسَان.

(وَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ... إلخ).

كَانَتْ قُرَيْش بِطُونَاً وفرُوعَاً، فِي كُلّ فَرع مِنْهَا فُقَرَاء ومَسْتَضعفُون، فإِنْ أَسلَم وَاحد مِنْهُم كَان فِي أَمن وأَمَان مِن أذىٰ الطُّغَاة بِعَشِيرته، أو حفَائِها، وأَنْصَارها، أمّا آل

⇐ لُمحَمَّد بن جرِير الطَّبَرِي الإِمَامي (ق ٥): ٤٣٤، الغَدير: ٢ / ٤٨، و: ٨ / ٤١، تَذكرة الخواصّ لِسبط آبن الجوزي: ٤٠، والطَّرائِف لِابْن طاووس: ٤٠٧: الشَّافِي للسَّيِّد المُرتضى: ٤ / ٢٥).

وروى آبن الأثِير فِي الكَامِل: ٢/ ٧٣: أنّه سَأل أُولَئِكَ الرَّهط عَلِيّاً عَن النَّبِيّ ﷺ فقَال: لاَ أَدري أمَرتُموه بِالخرُوج فَخَرج، فَضَربوه وأخْرجُوه إِلىٰ المَسجد فَحَبسُوه سَاعة ثُمّ تَركوه، ونَجّىٰ الله رَسُوله مِن مَكرهِم وأمَره بِالهِجْرَة، وقَام عَليّ يؤدّي أَمَانَة النَّبِيّ ﷺ ويَفعل مَا أَمره. ونَحنُ لا نُريد التَّعلِيق عَلىٰ كلاَم آبن الأثِير بل نَقول لهُ: مَاذا تَقول لرواة حَدِيث: أهبطا إِلىٰ الأَرْض فآحفظَاه مِن عدوّه، كَان جِبْرِيل عِند رَأسه ومِيكَائِيل عِند رِجليه يُنادي ويَقول: بَخٍ بَخٍ مَن مِثلك يا آبن أبِي طَالب يُباهِي الله بِك المَلاَئكة؟ وقَد رواه الثَّعلبي فِي الكَشف والْبَيَان. ومَاذا تَقول لِنَفْسك عِندما رويت الحَدِيث فِي أُسد الغَابَة: ٤ / ١٨ و ١٩ و ٢٥ فهَل هُو التَّنَاقض الَّذي وَقعت فِيهِ أَم التَّعصُّب الَّذي أعمَاك؟

(٢) آلتَّوْبَة: ٣٢.

الْبَيْت فَقَد تَظاهَرت عَلَيْهِمْ قوىٰ الشَّر حَتَّىٰ مِن العَشِيرة والأحْلاَف، وفِي طَلِيعَتهم عَمّه أبُو لَهَب الَّذي نَزل فِيهِ وفِي ٱمْرَأَتُهُ سُورَة خَاصَّة[1]، ولَوْلا أنْ يَدفع الله عَن نَبيِّه بِعَمّه أبِي طَالب لقُضي عَلىٰ الإِسْلاَم، وهُو فِي المَهد، وَقَالَ أهْل السِّير والتَّأرِيخ: إنّ أبَا طَالب عَانىٰ الْكَثِير الْكَثِير فِي سَبِيل الإِسْلاَم ونَبِيِّه[2]، وإنّه كَان يَسْتَنجد بِأخِيه أبِي لَهب، ويَستَثِير فِيهِ النَّخْوَة والحَمِية شِعراً ونَثراً، لِيدفَع عَن ٱبن أَخِيه مُحَمّدﷺ فَيرفض، بَل وسَاهم بِقسط وَافر فِي أَذىٰ رَسُول الله ﷺ والكِيد لهُ، والتَّأْلِيف عَلَيْهِ، والسَّبب الأَوّل زَوجَته أم جَمِيل أُخت أبِي سُفيَانَ الّتي وَصَفها الْقُرْآن بحَمَّالة الحَطب، لِأَنَّهَا تُوقد نَار الْفِتْنَة والبغضَاء ضِدّ رَسُول الله ﷺ.

(وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ، وَ أَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ... إلخ). كَانَتْ بَدْر المَعركة الأُولىٰ لِلمُسْلِمِين مَع ٱلْمُشْرِكِين، وإلَيْهَا أشَار سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].
وفِيهَا قُتل ٱبن عَمّ النَّبيّ عُبَيْدَة بن الحَارث بِن عَبد المُطلب[4].

---

(١) ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ سُورَةُ ٱلْمَسَدِ: ١ ـ ٥.

(٢) أُنظر، كتَاب بُلوغ المَآرب فِي نَجَاة آبائهﷺ، وَعمّه أبِي طَالب، تَأليف سُليمان الأَزهري، بِتَحقِيقنَا.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٢٣.

(٤) أُنظر، كَشف القنَاع: ٧٩/٣، المُغني لِابْن قُدَامَة: ٣٩٦/١٠، رسَائِل السَّيّد المُرتضىٰ: ١٢٤/٤، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغة لُمحَمّد عَبْدَه: ٩/٣، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغة لِابْن أبِي الْحَدِيد: ١٣٢/١٤، دعَائم الإِسْلاَم: ٣٥٤/٢، شَرح الأَخْبَار: ٢٦٢/١، الإِرْشَاد للشّيخ المُفيد: ٧٤/١، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١٧٥، سُنَن أبِي داود: ٦٠١/١، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ١٨٧/٣، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٣١/٩، مَجْمَع الزَّوائد: ١٠٣/٦، فَتح البَاري: ٢٣١/٧، كَنْز الْعُمَّال: ٣٩٦/١٠، المُصَنَّف لِابْن أبِي شِيبة: ٤٧٣/٨.

وفي «أعيَان الشِّيعة»: «قتل الإمَام في يَوْم بَدْر عَلىٰ اتفاق الرِّوَايَات خَمسَة وثَلاثِين رَجُلاً مِن ٱلْمُشْرِكِين»[(١)]. وَقَالَ عَبد الكَرِيم الخَطِيب: «حِين نتَفرس فِي وجُوه الْقَتْلىٰ الَّذِين أُضِيفوا إِلىٰ عليّ نرىٰ أنّهم كَان وجُوه قُرَيْش، وأهْل الْعِزَّة والقُوَّة فِيها، كما أنّهم كَانوا رُؤُوساً فِي الكُفر، والمُحادّة لله وَرَسُوله، وإنّه قلَّ أنْ يَكُون بَيْت مِن بُيُوْت قُرَيْش لَم يَنْله سَيْف عَليّ فِي تِلك الوَقْعَة... إنّه بَطلها وفَارسها»[(٢)].

وَقُتل عَمّ النَّبيّ حَمْزَة في مَعركَة أُحد، وإلَيْهَا أَشَار سُبْحَانَهُ بِقَوْله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٣)]. وَقَالَ الخَطِيب أيضاً: «لقَد كَان لِعَليٍّ فِي يَوْم أُحُد مِن الإِطَاحة بِرُؤُوس أَئِمَة الكُفر مِن قُرَيْش مَا كَان فِي يَوْمَ بَدْر»[(٤)]. وٱسْتُشْهِدَ ٱبن عَمّ النَّبيّ جَعْفَر بن أَبِي طَالب بِمُؤتَة، وكَان حَامل الرَّايَة، قُطعت يَدَاه ومَا فَرَّ مِن المَعركة، وَقَالَ رَسُول اللهﷺ: «إنّ الله أَبدَله بِهِمَا

(١) أُنظر، أعيَان الشِّيعة: ٢٧٨/٢، (مِنهُ). وشَرح النَّهج لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢٠٨/١٤ وفي: ٥٥/١٥ قَالَ ماٱتفق عَلَيْهِ وما ٱختلف فِيهِ ٱثنىٰ عشر، عُيُون أخبار الرضا: ٢٠٥/١، مواقف الشِّيعة: ٣٠٠/١، المَغَازي للوَاقدي: ١٤٧/١، كَشف الغمّة: ١٨١/١، البحَار: ٢٤٠/١٩ و: ١٩٦/٤٩ و: ١٤١/٦٩، ذكر المجلسي أنّ قَتلىٰ ٱلْمُشْرِكِين يَوْم بَدْر سَبعون، قَتَل مِنْهُم عَليّ بن أَبِي طالب ٧ سَبعة وعشرين، الإِرْشَاد للشَّيخ المُفِيد: ٤٠، مَجْمَع البَيَان: ٥٥٨/٢، السِّيرَة النَّبويَّة: ٤٣٦/٢.

(٢) أُنظر، كِتَابه عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِية النُّبوَّة، وخَاتَم ٱلْخِلَافَة: ١٣١ ومَا بَعدها طَبعة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنهُ).

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٥٣.

(٤) أُنظر، كِتَابه عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِية النُّبوَّة، وخَاتَم ٱلْخِلَافَة: ١٣٧ ومَا بَعدها طَبعة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنهُ).

جَنَاحَيْنِ يَطِيرِ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ »[1].

---

(١) جَعْفَر بن أَبِي طَالب (عَبد مُناف) بن عَبدالمُطَّلب بن هَاشم (ت ٨ ه) صحَابِي هَاشمي مِن شجعَانهم، يُقَال لهُ جَعْفَر الطَّيار، وهُو أخُو أمِير المُؤمِنِين عَليّ بن أَبِي طَالب عليه السلام وكَان أسنّ مِن الإمَام عَليّ عليه السلام بِعشر سنِين، وهُو من السَّابقِين إِلىٰ الإِسْلام. هَاجر إِلىٰ الحَبشة فِي الهِجرَة الثَّانِيَة، فلَم يَزل هُناك إِلىٰ أنْ هَاجر النَّبيّ صلى الله عليه وآله إِلىٰ المَدِينَة. فقَدِم عَلَيْهِ جَعفَر وهُو بخَيبر سَنَة (٧ ه) فقَال النَّبيّ صلى الله عليه وآله: بِأيهما أنَا أُسرّ بِفتح خَيبر أَم بقدُوم جَعفَر؟ وحضَر وَقْعَة مُؤْتَة بِالبَلقاء مِن أَرض الشَّام، حَمَل الرَّايَة وتَقَدَّم صفُوف المُسْلمِين، فَقُطعت يُمنَاه، فَحَمل الرَّايَة بِاليُسرىٰ فَقُطعت أيضاً، فاَحتَضن الرَّايَة إِلىٰ صَدره وصَبر حَتَّىٰ وَقع شَهِيداً وفِي جِسمَه نَحو تِسعِين طَعنة ورَمِيَة، فقَال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله عَوّضه عَن يَدِيه جنَاحِين يَطِير بِهما فِي الجَنَّة. وقِيل: وُجد فِيهِ يَوْمَئِذٍ أرْبعاً وخَمسِين ضَرْبَة سَيْف، وأَرْبَعِين جُرَاحة مِن طَعنة رُمح ورَمِية سَهم فَذَلِك أرْبَع وتسعُون جُرَاحة.

وَولد جَعْفَر: عبدالله، وعُون، ومُحَمّد وأُمّهم أَسماء بِنت عُمِيس الخَثعمِية، وعَبدالله بن جَعْفَر وُلد بِأرض الحَبشة فِي هِجرة أَبَويه إِلَيْهَا، وهَاجر أبُوه بِهِ إِلىٰ المَدِينَة. وكَان حَلِيماً كَرِيماً يُقَال لهُ: بَحر الجُود، تُوفِّي بِالمَدِينة سَنَة (٨٠ ه) عَام الجِحاف، وهُو عَام جَاء فِيهِ سَيل عَظِيم بِبطن مَكَّة جَحَف الحَاجّ وذَهب بِالإِبل عَلَيْهَا أَحمَالها. وروىٰ عَنْه أَصْحَاب الصِّحاح (٢٥) حَدِيثاً. (أُنظر، تَرجمته فِي جوَامع السِّيرَة: ٢٨٢، والمعَارف: ٢٠٥، أُسد الغَابَة لِابن الأثِير: ١ / ٣٤١ طَبْعَة مِصْر، السِّيرَة لِابن إِسْحَاق: ٢٢٦، صَحِيح البُخَاريّ: ٥ / ٢٤).

وفِي لَفظ آخر: «رَأَيْت جَعْفَر بن أَبي طالب مَلكاً يَطِير فِي الجَنَّة ذَا جنَاحِين يَطِير مِنْهَا حيث يَشَاء مَقْصُوصة قوَادمه بِالدِّمَاء». أُنظر، تَهذيب الكَمَال: ١٤/٣٦٩، الاِسْتِيعَاب: ١/٢٤٢، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٤/٣٩، الإِصَابَة: ١/٤٨٧، تَهذيب الأسمَاء: ١/١٥٥، تَلخِيص الحَبير: ٣/٢١٤ ح ١٦٠٧، خُلاصة البدر المنِير: ٢/٢٢٣ ح ٢٠٦٩، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٢/٢٠٦ ح ٢١١٧، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/٢٧٣، المُعْجَم الكَبِير: ٢/١٠٧ ح ١٤٦٧ و: ١١/٣٦٢ ح ١٢٠٢٠.

وفي صحِيح البُخَاريّ: ٣/١٣٦٠ ح ٣٥٠٦ و: ٤/١٥٥٥ ح ٤٠١٦، أنّ اَبن عُمَرَ كَانَ إِذَا سلَّم عَلىٰ اَبن جَعْفَر قَالَ: السَّلام عَليك ياأبن ذي الجنَاحِين)، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٣/٤٤ ح ٤٣٥٢، السُّنن الكُبْرَىٰ: ٥/٤٧ ح ٨١٥٧، المُعْجَم الكَبِير: ٢/١٠٩ ح ١٤٧٤ و: ١٢/٢٦٣ ح ١٣٠٥٥، فَتح البَاري: ٧/٧٦ ح ٣٥٠٦ و: ١٠/١٨٣، سير أعلاَم النُّبلاء: ١/٢١٥، تَهذيب الكَمَال: ٢/٨٣ ح ١٤٦ و: ٥/٥٥،

↔

(وَ أَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ ٱسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ... إلخ). يُشِير الْإِمَام إِلىٰ نَفْسَه، وإنّه تَمنىٰ الشَّهَادَة، وَتلهف عَلَيْهَا تَمَاماً كَمَا يَتَلَهف مُعَاوِيَة عَلىٰ الْحُكْم والسُّلْطَان، وفِي خُطْبَةٍ: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْم أُحُدٍ حَيْثُ ٱسْتُشْهِدَ مَن ٱسْتُشْهِد مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَ حِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»؟ فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً»؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَىٰ وَالشُّكْرِ»[1].

(فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي). لقَد بَلَغ مِن فِعل الْأَيَّام وَعَجَائِبها أنْ يُقَال: عَليّ ومُعَاوِيَة!. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾[2]؟ قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «يُشِير الْإِمَام إِلىٰ مُعَاوِيَة فِي الظَّاهِر، وإِلىٰ مَن تَقَدَّم مِن الخُلَفاء فِي البَاطن بِدلِيل قَوْله: (لاَ يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا)، فأطلق الْقَوْل إطلاَقاً عاماً مُستَغرقاً لكلّ النَّاس ٱجمعِين[3]. وفِي خُطْبَةٍ قَالَ الْإِمَام بصرَاحَة: «مَتَىٰ ٱعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ إِلىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ!»[4]. وهَذَا هُو الشَّأن فِي كلّ وَضع فَاسد (إِلاّ أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لاَ أَعْرِفُهُ) كِذْباً وزُوراً بِأنَّ لهُ مِثل الْإِمَام فَضِيلة وَجِهَاداً (وَ لاَ

⇐ الإِصَابَة: ١/٤٨٧، خُلاصة البَدر المُنير: ٢/٢٢٣ ح ٢٠٦٩، فَضَائِل الصَّحَابَة لأحْمد بن حَنبل: ٢/٨٨٨ ح ١٦٨٤، فَضَائِل الصَّحَابَة للنَّسائي: ١/١٨ ح ٥٥.

(١) أنظر، شَرح النَّهج الخُطبَة: (١٥٦). (مِنهُ).

(٢) ٱلرَّعْدِ: ١٦.

(٣) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٤/٥٠.

(٤) أنظر، ٱلخُطْبَةُ: (٣)، وَتُعْرَفُ بِالشِّقشِقيَّة. (مِنهُ).

أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ) حَيْث لاَ عَينٌ لهُ ولاَ أَثر، وعَلىٰ حَد مَا قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: لَيْسَ المُرَاد سَلب العِلم، بل العِلم بِالسَّلب، كَذَلِكَ لَيْس مُرَاده ﷺ سَلب الظَّن الَّذي هُـو بِمعنىٰ العِلم، بَل ظَّن السَّلب، أي عِلم السَّلب، أي وٱعلَم أنّ الله سُـبْحَانه يَـعْرِف ٱنْتِفَاءه، وكلّ مَا يَعلَم الله ٱنتفاءه فَلَيْس بثَابِت[1].

(وَ أَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ... إلخ).

مُعَاوِيَة لاَ يَعتَرف بوِلاَيَة الإِمَام عَلىٰ المُسْلِمِين، ومَع هَذَا يُلزمَه بواجِبَات الْوَالِي مِن رَدّ المظَالم والأخذ عَلىٰ أَيْدِي الظَّالمِين تَمَاماً كَمن يَقُول لَكَ: أَنَا لاَ أَعترف بِمعرفَتك بِالفِقْه، ومَع هَذَا عَلَيْكَ أَنْ تُفقه النَّاس!. وقَد نَبَّه الإِمَام إِلىٰ هَذَا التَّنَاقُض فِي بَعْض مَا أَرسَله إِلَيْهِ، وَقَالَ: «وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ، فَٱدْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُـرِيدُ فَـإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ»[2].

هَذَا، إِلىٰ أَنّ جمَاهِير المُسْلِمِين هِي الّتِي قَتَلت عُثْمَانَ لأحدَاثٍ نَقمُوها عَلَيْهِ، بَعد أَنْ ٱستَعتبُوه وأَصَرَّ... وهل فِي مَقدُور أَحد عَلىٰ وَجْه الأَرْض أنْ يُحَاكم الجمَاهِير ويَقتَص مِنْهَا؟ ومُعَاوِيَة يَعْرِف ذَلِكَ، ولكنّه يَكذِب عَلىٰ نَفْسه... وعَلىٰ أيّة حَـال فإنّ الجمَاهِير الّتي يَصر مُعَاوِيَة عَلىٰ ٱلقِصَاص مِنْهَا ستَأتِيه بِنَفسها، وَتَدُور عَـلَيْهِ دَائِرة السُّوء، إنْ لَمْ يَرتَدع عَن غَيِّه وضَلاَله.

وأشرنَا فِيما سَبق إِلىٰ أنّ مُعَاوِيَة تَجَاهل دَم عُثْمَانَ بَعد أَنْ تَمَّ لهُ الْحُكْم والأَمْر حَتَّىٰ كأنّه لَمْ يُحَارِب عَلِيّاً تَحت رَايَة قَمِيص عُثْمَانَ!. قَالَ الْعَقَّاد فِي عَبقرِية الإِمَام: «عَلَل

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٤/ ٥٠.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لهُ ﷺ جوَاباً إِلىٰ مُعَاوِيَة (٦٤).

مُعَاوِيَة ثَورتَه عَلىٰ الإِمَام بِٱتهَامه بِدَم عُثْمَانَ، فمَاذَا صَنع بِقَاتلِيه حِين صَار المُلك إِلَيْهِ، ووَجَب عَلَيْهِ أنْ يُنَفذ العقَاب الَّذي مِن أَجْله ثَار وٱستبَاح الْقِتَال؟. إنّه تَبع عَلِيّاً فِيما صَنع بِقَاتِلي عُثْمَانَ... وقَد ذَكّره بَعْض النَّاس بِدَم الخَلِيفَة، وأَلَحُوا فِي تَذكِيره فمَا زَاده تِلك إلّا إصرَاراً عَلىٰ الإغْضَاء والإغْفَاء»[1].

(١) أُنظر، عَبْقَرِية الإِمَام: فَصل «الْبَيْعَة». (مِنْهُ ﷺ).

الرسالة ٢٨

-١٠-

اَلدُّنْيَا ومُعَاوِيَة:

وَ كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَ خَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا. دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَ قَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَ أَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا. وَ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَىٰ مَا لاَ يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ، فَاقْعَسْ عَنْ هٰذَا الْأَمْرِ، وَ خُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ، وَ شَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَ لاَ تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ. وَ إِلاَّ تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَ بَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَ جَرَىٰ مِنْكَ مَجْرَىٰ الرُّوحِ وَ الدَّمِ.

وَ مَتَىٰ كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَة سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَ وُلاَةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَ لاَ شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَ أُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَ السَّرِيرَةِ.

وَ قَدْ دَعَوْتَ إِلَىٰ الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَ اخْرُجْ إِلَيَّ، وَ أَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَ الْمُغَطَّىٰ عَلَى بَصَرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَ أَخِيكَ، وَ خَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَ ذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَ بِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَىٰ عَدُوِّي،

مَا ٱسْتَبْدَلْتُ دِيناً ، وَ لاَ ٱسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً . وَ إِنِّي لَعَلَىٰ الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ ، وَ دَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ .

وَ زَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ . وَ لَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَٱطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً ، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ ، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ ، وَ الْقَضَاءِ الْوَاقِعِ ، وَ مَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ، إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ ، وَ هِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ .

اللُّغَة:

جَلَابِيبُ : جَمع جِلْبَاب ، ضَرْبٌ مِن اللِّبَاس ، وتَبَهَّجَتْ : صَارت ذَات بَهْجَة وَحُسن . ويَقِفَكَ : يُطْلِعَك أو يَحْبِسَك . والمِجَنّ : التُّرس . وٱقْعَسْ : تَأخَر . والأُهْبَة : العُدَة . وَشَمِّرْ : ٱجْتَهد . والمُتْرَف : المُتَنَعِم . والسَّابِق : الغَالِب . والبَاسِق : العَالِي . ومُتَمَادِياً : مَضَىٰ قُدماً لاَ يَلوِي عَلَىٰ شَيء . والغِرَّةِ ـ بكسر الغِين ـ الغَفْلَة ، وبِضَمها البَيَاض فِي الجَبْهَة . والْمَرِينُ عَلىٰ قَلْبِه : مَن طَغَت الذُّنُوب عَلىٰ قَلْبِه . وشَدْخاً : كَسراً . وٱسْتَحْدَثْتُ : ٱبْتَدع . والمِنْهَاج : الطَّرِيق الوَاضح . والمُرَاد بِالحَائِدَة هُنا النَّاكِثَة .

الإِعْرَاب:

إِنَّهُ الضَّمِير لِلشَّأن ، ووَاقِفُ ٱسم يُوشِكُ ، والمَصْدَر المُنسَبك مِن أَنْ يَقِفَكَ خَبَرها ، وفَاعِل يَقِفَكَ ضَمِير مُستَتر يَعُود عَلىٰ الوَاقِف المُتَأخر لَفظاً والمُتَقدم رُتبَة ،

لأنّ الأصل يُوشِك وَاقِف أَنْ يَقِفَكَ، وألّا كَلمتَان: «أَنْ» الشَّرطِية و «لاَ» النَّافِية، وجَانِباً نُصب عَلىٰ الظَّرفِيَة، ومُكْرَهِينَ حَال، وَكَذا ثَائِراً، وجَزَعاً مَفْعُول مِن أَجْله لِتَدْعُونِي وَلَيْسَ تَمْيِيزاً كَمَا توهم بَعْض الشَّارِحِين، وإِلَىٰ كِتَابِ اللهِ مُتَعَلّق بِتَدْعُونِي.

الْمَعْنَىٰ:

كَتَب الْإِمَام إِلىٰ مُعَاوِيَة مِن جُمْلَة مَا كَتَب: (وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا). لاَ يَخدعك مَا أَنْتَ فِيهِ مِن شَهوَات ومَلذَات، فإِنّ الْمَوْت أَمَامَك، ومَا بَعدَه أَدْهىٰ وأَمرّ، فَبَادر الْعَمَل قَبل الْأَجل إِنْ كُنت حقّاً مِن الْمُؤْمِنِين، ولاَ تَصغِ لِمَن يُغرِيك بمَا يَردِيك... والْإِمَام يَعْلَم أنّ مُعَاوِيَة وَهَب حيَاته لدُنْيَاه، وأَنّه لاَ يَردَعه عَنْهَا أي رَادع، ولكنْ يُقِيم عَلَيْهِ الحُجَّة وَكفىٰ، والدَّلِيل عَلىٰ مَعْرِفَة الإِمَام بِحَقِيقة مُعَاوِيَة ويَأسه مِنْهُ قَوْله: (فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَىٰ مِنْكَ مَجْرَىٰ الرُّوحِ وَالدَّمِ). وكَلِمَة «مُتْرَفٌ» تُشِير إِلىٰ أنّ الْمَرْء كُلّمَا أَسرَف فِي الملَذَات ٱزدَاد بُعداً عَن الرُّوحِيات، وتَحكمَت فِيهِ الْأَهوَاء والشَّهوَات، وكَفىٰ شَاهِداً عَلىٰ ذَلِكَ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (١).

(وَمَتَىٰ كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَة سَاسَةَ الرَّعِيَّة، وَوُلاَةَ أَمْرِ الْأُمَّة؟). لاَ رَيب أَنّ أَبَا سُفْيَانَ كَان زَعِيماً، ولكنّهُ كَان زَعِيم الشُّرك والجَاهِلِيَّة الجهلاَء، ورَئِيس الْبَغْي والْعُدْوَان... قَاد الْجُيُوش ضِدّ الإِسْلاَم، وَضِدّ نَبِي الرَّحْمَة، وَضِدّ كلّ عَدلٍ وخَير،

(١) ٱلْعَلَق: ٦ ـ ٧.

ولمّا قهره الإِسْلاَم ٱستَسلم لِلقوّة... وفِي ذَات يَوْم نَظر أبُو سُفْيَانَ إِلىٰ رَسُول الله ﷺ نَظرَة حَائِرة، وَقَالَ فِي نَفْسَه: لِيت شِعري بَأي شَيء غَلَبنِي مُحَمَّد!. فَأدرَك الرَّسُول مَا يُحاك فِي صَدرَه، وضَرَب بِكَفه بَيْنَ كَتفِيه وَقَالَ لهُ: بِالله غَلبتك يَا أبَا سُفْيَانَ(١).

ولمّا قَامت دولَة الأُمَويين بٱسم الإِسْلاَم، وَسَنَحت الْفُرْصَة عَادوا إِلىٰ طِبيعتهُم وجَاهلِيتهُم الأُولىٰ، وبِنَاءً عَلىٰ هَذَا يَكُون مُرَاد الإِمَام مِن السِّيادَة ونَفِيها عَن أُمَيَّة السِّيادة الحَقّة العَادِلَة لاَ سيَادة الْبَغْي والْعُدْوَان، ويُومِيء إِلىٰ ذَلِكَ قَوْله: (وَ نَـعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ) أي سَوَابِق الأَسوَاء كزعَامَة أُمَيَّة الّتِي هِي شَرٌّ وبَلاء. وإِذَنْ فَعلىٰ مُعَاوِيَة أنْ يَخْجَل مِن زعَامة أَبِيه لاَ أنْ يَفْخر بِها ويَعتَز، وهَل فِي حَرْبِ الرَّسُول الأَعظم ﷺ فَخرٌ وَمجدٌ؟.

(وَ أُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الأُمْنِيِّة، مُخْتَلِفَ الْـعَلاَنِيَةِ وَ السَّـرِيرَةِ). زَعَامتكَ يَا مُعَاوِيَة كزعَامَة أَبِيك فَسَاداً وضَلاَلاً مَع فَارِق وَاحِد، وهُو أنّ أَبَاك كَان حَرْباً عَلىٰ الإِسْلاَم جهرَة وبِلا رِيَاء، وأَنْتَ حَرْب عَلىٰ الإِسْلاَم فِي الوَاقع، وسِلْمٌ فِي الظّاهِر.

(وَ قَدْ دَعَوْتَ إِلىٰ الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَ ٱخْرُجْ إِلَيَّ). فِي كتَاب «الإِمَامَة والسِّيَاسَة»: «قَالَ عَليّ لمُعَاوِيَة: عَلاَمَ يَـقتَتل النَّـاس؟.. أُبـرز إِليَّ ودَع النَّـاس، فَيكُون الأَمْر لِمَن غَلب. قَالَ ٱبن العَاص لمُعَاوِيَة: أَنْصفَك الرَّجُل. فقَال مُـعَاوِيَة: طَمعَت فِيها يَا عَمْرُو. قَالَ ٱبن العَاص: أَتجبُن عَن عَليٍّ وَتَتهمنِي؟. واللهِ لأُبَـارزَن عَلِيّاً ولَو مُتُّ أَلف مُوْتَه. فَبَارزَه عَمْرُو، وطَعَنَه عَليّ فَصَرعَه، فَٱتقَاه عَمْرُو بعَورَته،

(١) أُنظر، شَرح الأَخبَار للقَاضي النّعمان المَغربي: ٢/١٦١، مُسْنَد الحَارث (زوَائِد الهَيْثَمي): ٢/٨٧٤ ح ٩٣٩، بُغيَة البَاحث للحَارث بن أبي أُسامة: ٢٨٤.

فَٱنْصَرف عَنْه عَليّ حَياءً، وَتَكَرُماً، وَتَنَزُهاً»[١].

(فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ) وهُو عُتْبَة بن رَبِيعَة أبُو هِند أُمّ مُعَاوِيَة، بَرز إِلَيْهِ يَوْم بَدْر عُبَيْدَة بن الحَارث بن عَبد المُطلب، وٱشتَرَك الإِمَام فِي قَتْله (وَ أَخِيكَ) وهُو حَنْظَلَة ٱبن أَبِي سُفْيَانَ، بَرز إِلَيْهِ حَمْزَة، وٱشتَرَك الإِمَام فِي قَتَله (وَ خَالِكَ) هُو الوَلِيد بن عُتْبَة بن رَبِيعَة قَتَله الإِمَام (شَدْخاً) كَسرت رُؤُوسهُم، وَفَصَلتها عَن أَجْسَامِهِم (وَ ذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي). أنَا مِن تعْلَم يَا مُعَاوِيَة مَا غَيّرت ولاَ بُدّلت إِيمَاناً وَعَزمَاً وجِهَاداً (وَ إِنِّي لَعَلَىٰ الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَ دَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «المِنْهَاج هُو طَرِيق الدِّين الحَق لَمْ يَدخُل فِيهِ أبُو سُفْيَانَ، ومُعَاوِيَة إلّا بَعد الْفَتح كَرْهَاً»[٢]. وَقَالَ طَه حُسِين: عَند الفَتح قَالَ أبُو سُفْيَانَ: «لاَ إله إلاّ الله، وأَظهر التَّرَدُّد فِي الشَّهادَة بِأَنَّ مُحَمَّداً رَسُول الله، ولكنّه ٱضْطُرَّ آخر الأَمْر أنْ يُعلنها»[٣].

(وَ زَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ. وَ لَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ... إلخ). وكلّ النَّاس يَعرفُون أَنَّك مَا حَملَت قَمِيص عُثّمَانَ، وحَاربتَ تَحتَ رَايتَه إلّا لحَاجَة فِي نَفْسَك، وأَنْتَ جَعَلت هَذَا القَمِيص مَثلاً لكلّ مَكرٍ وخُداع عَلىٰ مَدىٰ الأَيَّام، ولَو كُنتَ حقّاً تَطلب بِدَم عُثّمَانَ لِطَلَبتَه مِن أَصْحَاب الجَمَل ومِن نَفْسك

(١) تمّ التَّعليق عَلىٰ هَذِه القِصَّة سابقاً، وأُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٢٧، وَقْعَة صِفّين: ٤٠٦ و ٤٠٨ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٣٢، ٤٦٢، كشف الْيَقِين: ١٥٧ ـ ١٥٨، الطَّبقَات الْكُبْرَىٰ لِابْن سَعد: ٧ / ١٨٨، أُسد الغَابَة: ٤ / ٤٢٠، الكَامِل فِي التَّارِيخ: ٢ / ٢٣٢، شَرح نَهج الْبَلاَغَة لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ١ / ٢٠، و: ٢ / ٣٠١ و: ٨ / ٥٣، صَوت العَدَالة الإِنْسَانية: ١ / ٨٢: الإِسْتِيعَاب: ٦٤ ـ ٦٧، مناقب الخوارزمي: ٢٤١.

(٢) أُنظر، شَرح النَّهج: ٣/١٢.

(٣) أُنظر، مرآة ٱلإِسْلاَم للدّكتور طَه حُسين: ٢٦٥. (مِنْهُ ﷺ).

أيضاً، لأنّك خَذَلته، وأَنْتَ قَادر عَلىٰ نُصرته.

وقَرَأتُ كَلِمَة فِي جَرِيدة «الجُمهُورِية المِصْرية» ومِمَّا جَاء فِي هَذِه الكَلِمَة: «بَدأ مُعَاوِيَة بِتَعكِير المَاء فِي عَهد عُثْمَانَ حَتَّىٰ يُحَقق أغرَاضه، فَتَقُوم الفُوضىٰ فِي البِلاد، ولا تَجتَمع كَلِمَة المُسْلِمِين، وبذَلِكَ يَقفز إِلىٰ السُّلطة... ويَقضي عَلىٰ الشُّورَىٰ، وَيَجعَل الخِلاَفَة كسرُوِية إرثاً لأوْلاَده، وَلِبَني أُمَيَّة السَّادَة»[1].

(فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ). يُشِير الإِمَام بهَذا إِلىٰ مَا سَيحدث لمُعَاوِيَة وجَيْشَه فِي صِفِّين مِن الضَّعْف واللّجُوء إِلىٰ المَكر والخَدِيعَة بِرفع المَصَاحِف. قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «تَفَرَّس الإِمَام فِيما سَيكُون مِن مُعَاوِيَة وجُندَه، وكَان الأَمْر كَمَا تَفرَّس»[2]. وَقَالَ ابن أَبِي الحَدِيد: «إِمَّا أَنْ يَكُون قَوْله هَذَا فراسة نَبوِّية صَادقة، وهُو عَظِيم، وإمّا أَنْ يَكُون إِخْبَاراً عَن غِيب مُفصل، وهُو أَعْظَم وأَعجب»[3].

(وَ هِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ). هِي تَعُود إِلىٰ جَمَاعَة مُعَاوِيَة، والمَعْنَىٰ أنّ مِنهُم مَن يَضمر الكُفر وَيَظهر الإِسْلاَم، وَمِنْهُم مَن بَايَعَ الإِمَام ونَكَث وحَارَب مَع أَهْل الجَمَل بِالبَصْرَة، ثُمّ مَع مُعَاوِيَة بِصفِّين، وكِلا الفَرِيقِين لاَ يُؤْمِن بِالقُرْآن، ولاَ يَعمل بِهِ، ولكنْ يَتَّخِذ مِنْهُ وَسِيلةً وأَدَاةً لأغرَاضهِ ومَآربه.

---

(١) أنظر، جَرِيدة «الجُمهُورِية المِصْرية» بِتَأريخ: ٢٥ ـ ١١ ـ ١٩٧٠م، لكَاتب مِصْري، اسمه عَلي الدَّالي، تَكَلّم بوحِي التَّأريخ، وبَعِيداً عَن كلّ مِيل وتَعصُّب. (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ١٢/٣.

(٣) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٨٣/١٥.

الرسالة
-١١-

فَنُ الْحَرْب:

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً، وَ دُونَكُمْ مَرَدّاً. وَ لْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ، وَ اجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ، وَ مَنَاكِبِ الْهِضَابِ، لِئَلاَّ يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ، وَ اعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَ عُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلاَئِعُهُمْ. وَ إِيَّاكُمْ وَ التَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً، وَ إِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً، وَ إِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَ لاَ تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلاَّ غِرَاراً، أَوْ مَضْمَضَةً.

اللُّغَة:

المُعَسْكَر: مَوضع العَسْكَر. والأَشْرَافِ: الأَماكن العَالِية. وقُبُلها: مَا استَقبلك مِنْهَا. سِفَاحِ الْجِبَالِ ـ بِكَسر السِّين ـ أسَافلها. أَثْنَاءِ الأَنْهَارِ: مَا انعَطف مِنْهَا. والرِّدء ـ بِكَسر الرَّاء ـ العَون. والمَرَدّ: مِن الرَّد والدَّفع. والصَّيَاصِي: الأَعَالِي. والمَنَاكِبِ:

المُرتفعَات. والهِضَابِ: الجِبَالِ. والكِفَّة ـ بِكَسر الكَاف ـ المُسْتَديرَة. وغِرَاراً: قَلِيلاً أو خَفِيفاً. ونَوْم المَضْمَضَة: أنْ تَنَام ثُمَّ تَسْتيقظ ثُمّ تَنَام، تَمَاماً كما تَأخذ المَاء بِفَمك ثُمَّ تَرميه.

الْإعْرَاب:

إيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّق «إيَّاكُمْ» مَفْعُول لِفعل مَحْذُوف وجُوباً أي إيَّاكُمْ أُحَذِّر، وجَمِيعاً حَال، وغِرَاراً صِفَة لِمَفْعُول مُطلق مَحْذُوف أي ذَوقاً غِرَاراً.

الْمَعْنىٰ:

لَيْسَت الحَرْب مُجرد رِجَال وسِلاح... أَنَّهَا عِدَة وَعَدد، وتَخْطِيط ودهَاء، وتَحصِين وَتمويه، وهجُوم وٱنسحَاب، ومنَاورَات وٱستنزَاف طَاقات.. إلىٰ غَيْر ذَلِكَ مِن الأَسْبَاب الّتي لاَ بُدَّ مِنهَا للإنْتصَار وَكَسب المَعركَة، وقَد أشَار الإمَام فِي وَصِيته هَذِه لِبَعض جُنُوده، أشَار إلىٰ طَرف مِن هَذِه الأَسْبَاب:

١ ـ أنْ يَنْزلُوا فِي مكَان حَصِين يَأمنُون فِيهِ مُبَاغتة الْعَدُوّ، وإلَيْهِ أشَار بِقَوْله: (فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ) أي فِي مَكَان مُرتفع يَحمِي ظهُوركُم، وتَشرفُون مِنْهُ عَلىٰ الْعَدُوّ (أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ) أو فِي مَكَان مُنْخَفض كَسَفح جَبَلٍ، أو مَا يَجرِي مَجرىٰ الخنَادق بِحَيث لاَ يَراكُم الْعَدُوّ، ولاَ تَصل سهَامه إلَيْكُم وضَربَاته لكُم عَن بُعد.

٢ ـ أنْ يُقاتلُوا الْعَدُوّ كفُرقَة وَاحدة أو فُرقتين عَلىٰ الأكثَر حَسْبمَا تَستَدعِيه الظّرُوف، لأنّ تَوزِيع القُوَّة يُعرضَها لِلخَطر، وتوحِيدها أَدعىٰ لِلنَّصر. وأشَار

الْإِمَام إِلىٰ ذَلِكَ بِقَوْله : (وَ لْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ) .

٣ ـ أنْ يُتَابِعُوا أَخْبَار الْعَدُوّ ، ويَتَجَسَّسُوا عَلىٰ قُوَّتِه وتَحرُكَاته ، لأنّ عَمليات الاِسْتطلاَع هِي الَّتي تُقرر نَتِيجَة الْحَرْب ، والَّذي لاَ يَعْرِف شَيْئاً عَن عَدوّه يُقَاتله ، وهُو مُغَمض الْعَيْنِين ، وإِلىٰ هَذَا أَشَار بقَوْله : (وَ اجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ ، وَ مَنَاكِبِ الْهِضَابِ) .

٤ ـ أنْ يَكُونُوا فِي آرَائِهم وأَفْعَالهم ، وفِي حِلّهم وترحَالهم كَرَجُل وَاحد . فإنّ ذَلِكَ يَبعث الْهَيْبَة والرُّعب فِي نَفْس الْعَدُوّ ، ويُجَنِّب العَسكَر الْكَثِير مِن المَخاطر . وهَذَا مَا أَرَادَه بقَوْله : (وَ إِيَّاكُمْ وَ التَّفَرُّقَ) .

٥ ـ أنْ يُقِيمُوا عَلَيْهِمْ فِي اللَّيْل حُرَاسَاً ، وأنْ يَكُون سِلاحهُم مُعَداً ومُهيئاً ، وأنْ لا يَنَاموا إلّا بِقَدر الْحَاجَة ، والضَّرُورة كِيلا يُهاجِمهُم الْعَدُوّ بَغْتَة ، وهُم لاَ يَشعرُون . وإِلَيْهِ أَوْمَأَ بقَوْله : (وَ إِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً) .

وَبَعد فإنّ هَذِه الوصَايَا ، أو التَّعلِيَمات أَفضل مَا يُمكن أنْ يوجّهه قَائِد لِرجَاله وجُنُوده فِي الْعَصْر القَدِيم والحَدِيث .

الرسالة
ومن كتاب له عليه السلام
-١٢-

لاْ تُقَاتِلَنَّ اِلاَّ مَنْ قَاتَلَكَ:

اَتَّقِ اللهَ الَّذِي لاْ بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَ لاْ مُنْتَهَىٰ لَكَ دُونَهُ. وَ لاْ تُقَاتِلَنَّ اِلاَّ مَنْ قَاتَلَكَ. وَ سِرِ الْبَرْدَيْنِ، وَ غَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَ رَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَ لاْ تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَ قَدَّرَهُ مُقَاماً لاْ ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَ رَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَ لاْ تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ. وَ لاْ تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَ لاْ يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَىٰ قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

اللُّغَة:

الْبَرْدَيْنِ: الغَدَاة والعَشِي حَيْث يَكُون الوَقت بَارِداً. وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ: أنزل بِهِم فِي الغَائِرة أي فِي نِصف النَّهَار وَقت الحَر. وَرَفِّهْ: خَفِّف وهَوِّن. والظَّعْنُ: السَّفر. وَرَوِّحْ الْإِبل: رِدّها إِلىٰ المَرَاح. ويَنْبَطِحُ: يَنْبَسط. والشَّنَآنُ البَغْضَاء. وَالْإِعْذَارِ: رَفع

المَلاَمَة.

الإِعْرَاب:

لاَ تُقَاتِلَنَّ مُضَارع عَلَىٰ فَتح لاَ تْصَاله بِنُون التَّوكِيد، وَمَحلهُ الجَزم بِـلا النَّـاهِية، والْبَرْدَيْنِ نَصب عَلَىٰ الظَّرفِيَة: ولاٰ ظَعْناً «لاَ» عَاطِفَة، وَسَـطاً صِـفَة لِمحـذُوف أي مَوقِفاً وَسَطاً، وقَبْلَ مُتَعَلِّق بقِتَاهِمْ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لاٰ تُقَاتِلَنَّ إلاّ مَنْ قَاتَلَكَ) الخِطَاب لقَائِد المُحَـارِبِين، وهُـو مَـعقل بِـن قَـيْس الرِّيَاحِي[1]، وكَان الإمَام قَد أَنْفَذه إلىٰ الشَّام فِي ثَلاَثَة آلاف مُقَاتِل... وهَـذَا هُـو الإِسْلاَم، لاَ عُدْوَان إلّا عَلىٰ مَن أعتَدىٰ، فلكلِّ إنْسَان ـ كَائِناً مَن كَـان ـ حُـرمَته المَحرُومَة حَتَّىٰ يَنْتهك هُو حُرمَته بيده بِعُدْوَانه عَلىٰ حُرمَة غَـيْره (وَ سِرِ الْبَرْدَيْنِ، وَ غَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَ رَفِّهْ فِي السَّيْرِ... إلخ). لاَ تسر فِي الهَاجِرَة، ولاَ تُسرع الخطو وَقت المَسِير، ولاَ تُسافر فِي اللَّيْل لأنّه للرَّاحـة، ولاَ تُـتعِب نَـفْسَك وجُـندك ودوَابك. وَالغَرض الرِّفْق بِالإنْسَان وٱلحيَوَان (فَإِذَا وَقَفْتَ) أي تَهيَأت للسَّـفر فَـسر (حِـينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ) أي يَنْبَسط ويَمْتَد، والسَّحَرُ قُبيل الْفَجْر (أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ) يَطلَع

(١) تَقدَّمت تَرجَمته. أُنظر، الإصَابة: ٢/٢٣٥ و: ٦/٢٤١، أُسد الغَـابة: ٢/١١٠، تَأريخ دِمشـق: ٥٨/٢٧١، إكمَال الكَمَال: ٦/٢٥٩، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٣/١٣٦ و: ١٥/٩٢، بحَار الأَنْـوار: ٣٣/٤١٠، الغَارات: ١/٥٢ و ٣٥٤ و: ٢/٥٠٦ و ٧٨٢، وفِي الإشتقاق لِابْن دُريد: ١٣٦، كَان من قوّاد عَليّ وأنصَاره، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥/٢٣٧ و: ٦/٣١.

ويَنْشَق .

(فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً) إذَا دَارَت رَحىٰ الحَـرْب فَكُـن فِي قَلب الجَيْش لاَ فِي الْمُقَدِّمَةِ ولاَ فِي الْمُؤَخَرَة حَيْث يَكُون المُقَاتلُون جَمِيعَاً بِالنِّسبَة إِلَيْك عَلىٰ سوَاء ، يُمكنك أَنْ تُلقِي إِلَيْهِمْ الأَوَامر ، ويُمكنهُم مُرَاجعتَك فِيما أَهَمهُم (وَ لاٰ تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ) أي جَيش الْعَدُوّ (دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ) عَلىٰ كلّ حَـال (وَ لاٰ تَبَاعَدْ عَنْهُمْ) إِلىٰ حَيْث يَشْعرُون بِأَنَّك خَائِف مِنْهُم... وتَجدر الإِشَارَة إِلىٰ أنّ هَذهِ التَّعالِيم الحَربِيَة تَتَفق مَع أَيَّام زَمَان حَيْث لاَ صوَارِيخ وأَلغَام بَرِيَّة وبَحرِيَّة .

(وَ لاٰ يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَىٰ قِتَالِهِمْ ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَ الْإِعْذَارِ إِلَـيْهِمْ) . لاَ يَجُـوز البَطش وآبْتدَاء الْقِتَال إِطلاَقاً ، وَمَهما تَكُن الأَسْبَاب إلاّ بَعد التَّفَاوض ، والْيأْس مِن السِّلم الْعَادِلُ ، لأَنّ الإِسْلاَم دِين السِّلم لاَ دِين الْحَرْب والْعُدْوَان ، ودِيـن الأُخـوّة والمُسَاوَاة لاَ دِين عَبِيد وسَادَات .

الرسالة
-١٣-

حَوْلَ مَالِكَ الأَشْتَر:

وَ قَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَ عَلَىٰ مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَ أَطِيعَا، وَ اجْعَلَاهُ دِرْعاً وَ مِجَنّاً، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لاٰ يُخَافُ وَهْنُهُ، وَ لاٰ سَقْطَتُهُ، وَ لاٰ بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَ لاٰ إِسْرَاعُهُ إِلَىٰ مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

اللُّغَة:

فِي حَيِّزِكُمَا: فِي إِمْرَتِكُمَا. والمِجَنّ: التُّرس. وَالوَهْنُ: الضَّعف. والسَّقْطَة: الغَلْطَة. وأَحْزَمُ: أَوْلَىٰ، والحَازِم: الْعَاقِل المُجرب، والأَمْثَلُ: الأَفْضَل.

الْمَعْنَىٰ:

قَالُوا: إِنّ الإِمَام بَعَث اثْنِي عَشر أَلف مُقَاتل كَمُقَدمة إِلىٰ أَهْـل الشَّـام، وأَمَّـرَ عَلَيْهِمْ زِيَاد بن النَّضر[١]، وشُرَيْح بن هَـانِي[٢]، ثُمَّ دَعت الأَسْـبَاب إِلىٰ أَنْ يَـرسل

(١) هو زِيَاد بن النَّضر الحَارثي، وكَان من أصْحَاب أَمِير المُؤْمِنينعليه السلام وَقَد وَلاَّهُ مُقَدَّمة جَيْشَه عِند مَسِيرِه إِلىٰ

مَالِك الأَشْتَر أَمِيراً عَلىٰ هَـذَا الجُـنْد، فَكَـتب إِلىٰ زِيَـاد، وشُرَيْح: (وَ قَـدْ أَمَّـرْتُ عَلَيْكُمَا). قَالَ ٱبـن أَبِي ٱلحَـدِيد: «الأَشْـتَر هُـو مَـالِك بـن الحَـارث بـن عَـبد يَغُوث... وكَان فَارساً شُجَاعاً، ومِن عُظَماء الشِّيعة، شَدِيد التَّحقُّق بـولاَء أَمِـير المُؤْمِنِينَ ونَصرَه»[١]، ثُمَّ ذَكر ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد طَرَفاً مِن فَضَائِل الأَشْـتَر، وَقَـالَ: روىٰ المُحدثُون حَدِيثاً يَدل عَلىٰ فَضِيلة عَظِيمة لِلأَشْتَر، وهِي شهَادَة قَـاطِعة مِـن النَّبيّ ﷺ بأَنّه مُؤمن، وروىٰ هَذَا الحَـدِيث ٱبن عبد البر فِي كتَاب «الإِسْـتِيعَاب»، حَرف الجِيم بَاب: جُنْدُب. ثُم ذَكَر ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد الحَدِيث بكَامله، ورَجَعتُ إِلىٰ «الاِسْتِيعَاب» فَوجَدتُ الحَدِيث بِالحرُوف الّتي ذَكرها ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد، وأُلَخـصه فِيما يَلي مَع الحِرْص والمُحافظة عَلىٰ المَعْنَىٰ.

⇐ صِفِّين وكَانَتْ مُقدَّمته ٱثنَىٰ عَشر أَلفاً وأَوصَاه عِند عَزمه عَلىٰ المَسِير بوصِية: «إِتق الله فِي كل ممسىٰ ومصبح...»، فَقَالَ زِيَاد: «أَوصِيت يَا أَمِير المُؤْمِنِين، حَافظاً لوصِيتك، مُؤدباً بَأدبك، يَرىٰ الرُّشد فِي إِنفَاذ أَمرك...». أُنظر، تُحف العُقُول: ١٩١، الغَارات: ٥٢/١، نَهْـج السَّـعادة: ١١٦/٢، سـير أَعـلام النُّـبلاء: ١٠٧/٤، أَنسَـاب الأَشْرَاف: ٢٩٦، تَأرِيخ الطَّـبَري: ٥٦٣/٣، الأَخْـبَار الطّـوال: ١٦٦، تَأرِيخ دِمشْـق: ٦٧/٢٣، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٩١/٣ و: ٢٠٢/٥، البِدَاية والنّهاية: ٢٨٣/٧، تَأرِيخ ٱبن خَلدون: ق٢ /ج٢ ١٦٩، وَقْعَة صِفِّين: ١٢١.

(٢) هُو شُرَيْح بن هَانِي بن يَزِيد الحَارثي المِذحَجي، أَبُو المقدَام الكُوفِي مُخضرم ثِقَة، قُتل مَـع ٱبـن أَبِي بَكـرة بِسْجِستَان، أَدرَك النَّبيّ ﷺ، وَلَم يَره، وروىٰ عن أَبِيه وعُمر وعَليّ، وهُو مِن تَابعي أَهْل الكُوفة، وكَان مِن أَصْحَاب الإِمَام عَليّ، وشَهد مَعهُ المشَاهد كُلّها، وهُو مِن المُخضرمِين، وقَد عَاش عشرين ومِئة سَنَة.

أُنظر، تَرجمته فِي التَّأرِيخ الكَبِير: ٢٢٨/٤ الرَّقم «٢٦١٠»، الجَرح والتَّعدِيل: ٣٣٣/٤ الرَّقم «١٤٥٩»، أُسد الغَابَة: ٣٦٧/٢، تَهـذِيب التَّهـذيب: ٤٩٣/٢، الوَافي بـالوفِيات: ١٣٩/١٦، سِـير أَعْـلَام النُّـبلاء: ١٠٧/٤، الطَّبقات الكُبرىٰ: ١٢٨/٦، الغَارات: ٥٧٠/٢، تَهـذِيب الكَـمَال: ٤٥٢/١٢ الرَّقـم «٢٧٢٩»، الاِسْتِيعَاب: ١٥٠/٢، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٣٧١/١ و: ٤٩٥/٢ و: ٣٦/٣ و: ١٣٨/١٧.

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٩٨/١٥.

ثَلَقت الهمُوم والأَسْقَام عَلىٰ أَبِي ذَرّ فِي مَنفَاه بِالرَّبَذَة ، وظَهرت عَلىٰ وَجْهَه دَلائِل الْمَوْت ، فَبَكت أُم ذَرّ ، فنَاشدها أَنْ تَسْتَودعه الله ، وتُبصر الطَّرِيق ، وتُخبِر مَن يَمر لِيُساعدها عَلىٰ تَجهِيزه ودَفنه ، وتُبصر أُمّ ذَرّ نَفَراً مِن الْمُسْلِمِين ، فَسَأَلتهُم العُون ، وأَسرعُوا ، وهُم يَفدُون أَبَا ذَرّ بِآبَائِهم وأُمّهاتِهم ، ولمَّا دَخلوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُم : أَبْشرُوا فإنّي سَمعت رَسُول الله ﷺ يَقول لِنَفرٍ أنا فِيهِمْ : «لَيَمُوتن رَجُل مِنْكُم بِفلاة مِن الْأَرْض يَشْهَده عُصَابة مِن الْمُؤْمِنِينَ . ولَيْسَ مِن أُولَـئِكَ إلّا وقَد هَلَك فِي قَرية وجَمَاعَة ، والله مَا كَذْبت . ولَو كَان عِنْدِي ثَوب يَسْعنِي كَفَناً لِي ولاِمرَأَتِي لَم أُكَفن إلّا فِي ثَوبٍ هُو لِي أو لهَا ، وإنّي أُنشدكُم الله أنْ لاَ يُكفني رَجُل مِنْكُم كَان أَمِيراً... فَكَفَنه رَجُل من الأَنْصَار»[1] .

وَقَالَ صَاحب الإِسْتِيعَاب : كَان الْأَشْتَر ، وحِجر بن الأبرَد مَع الَّذِين جهزُوا أَبَا ذَرّ ودَفنُوه ، والَّذِين وَصَفَهُم رَسُول الله ﷺ بِالْمُؤْمِنِين . وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد : حِجر بن الأبرَد هُو حِجر بن عَدي الَّذي قَتَله مُعَاوِيَة ، وكَان مِن أَعلاَم الشِّيعة وعُظَمَائِها[2] .

(١) أنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة : ١٥/١٠٠ ، الإِسْتِيعَاب : ٨٣ ، والإِسْتِيعَاب بهَامش الإِصَابَة : ١/٢١٥ ، مُسْنَد أحمد : ٥/١٦٦ ح ٢١٥٠٥ ، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحين : ٣/٣٨٨ ح ٥٤٧٠ ، مَجْمَع الزَّوائِد : ٩/٣٣١ ، الآحَاد والمثانِي : ٢/٢٢٩ ح ٩٨٤ ، صَحِيح ٱبن حبّان : ١٥/٥٧ ح ٦٦٧٠ و ٦٦٧١ ، موارد الظَّمآن : ٥٦١ ح ٢٢٦٠ ، كَنز العُمَّال : ١١/٦٦٩ ح ٣٣٢٢٣ و : ١٣/٣١٢ ، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ : ٤/٢٣٣ ، تَارِيخ دمشق : ٦٦/٢٢٠ ، أُسد الغَابَة : ١/٣٠٢ ، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد : ١٠/١٠٢ ، سير أعلاَم النُّبلاء : ٢/٧٦ ، مُسْنَد البزَار : ٩/٤٤٨ ، صَفوة الصَّفوة : ١/٥٩٧ .

(٢) هُو حِجر بن عديّ الأبْرَد الكِندي المُلقّب بحِجر الخَيْر ، وكَان من فضلاء الصَّحَابَة ، وفد إلىٰ النَّبيّ وشَهد ⇜

أَبُو ذَرّ وَشِيعَة جَبَل عَامِل:

تَكَلَّمت عَن أَبِي ذَرّ سَابقاً[١]، والآنْ أَعْطف عَلىٰ مَا سَبق: إنّ أَدِيباً جَاء إِلىٰ بَيْتِي فِي يَومي هَذَا (١٩/ ١١/ ١٩٧٢م)، وَقَالَ: مَا الدَّلِيل عَلىٰ أنَّ أَبَا ذَرَّ هُو الَّذي بَـذَر التَّشيع فِي جَبَل عَامِل؟ قُلت: لاَ شَيء لَديَّ سوىٰ الشُّهرة والإشَاعَة. قَالَ: أُرِيدُك أنْ تُفكر فِي ذَٰلِكَ، وتُسَجل مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مِن رَأي. وبَعد ٱنْصرَافه رَأيتَنِي أُفكر فِيمَا قَالَ مِن غَيْر قَصد، وٱنْتهيت إِلىٰ مَا يَلي:

مِن الوَاقع الثَّابت بِٱتّفَاق المُؤرخِين، وأَربَاب السِّير أنَّ أَبَا ذَرّ كَان يَتَشيع لِـعَليّ أَمِير المُؤْمِنِينَ، ويَجْتَهد فِي الدَّعْوَة إِلَـيْهِ سِرّاً وجَـهراً، وإنّـه نُـفي إِلىٰ دِمشـق، وإنّ الجَمَاهِير أَقْبلت عَلَيْهِ أَيّمَا إِقْبَال، وتَرَددت أَصدَاء كَـلمَاته وَعِـظَاته فِي جَمِـيع بِـلاد

______

⇐ القَادسِية، وقَد قَتله مُعَاوِيَة صَبراً، ويُقَال: إنّه أوَّل مَن قُتل صَبراً فِي الإِسْلاَم، قُـتل مَـعه بِـستة مـن أَصْحَابه، وهُم: شُرِيك بن شدَّاد الحَضرمي، وصِيفي بن فسِيل الشَّيباني، وقَـبِيصة بـن ضـبِيعة العَـبسي، ومحرز بن شِهاب السَّعدي، وكدَام بن حيّان العَنزي، وعبدالرَّحمن بن حسّان العنزي. وكَان حِجر ثقة عَيناً ولَم يَرو عن غَيْر عَليّ شَيْئاً، وهو الَّذي ٱفتَتح مرج عَذراء، وكَان شرِيفاً فِي قَوْمه مُطاعاً، آمراً بِالْمَعْرُوفِ، صَالحاً عَابداً يُلازم الوضُوء، وبَاراً بأُمّه، كَثِير الصَّلاة والصِّيام.

أُنظر ترجمته في شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١٠٠/١٥، طَـبقَات ٱبـن سـعد: ١٥١/٦ و ١٥٤، المُسْـتَدرَك: ٤٦٨/٣، الاِسْتِيعَاب: ١٣٤/١ الرَّقم ٥٤٨، طَبْعَة حيدرآباد، أُسد الغَابَة: ٣٨٥/١، سير أعْلام النُّـبلاء: ٣٠٥/٣ التَّرجمة رقم ٣١٤، تَأرِيخ الذَّهبي: ٢٧٦/٣، تَأرِيخ ٱبن كَثِير: ٥٠/٨، الإِصَابَة: ٣١٥/١، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ١١١/٢ ـ ١٤٩ و ٢٧٧/٥، تَأرِيخ ٱبن الأثير: ٤٠٣/٣ و ٤٠٤، وَقْعَة صِفّين: ١٠٣، مـروج الذَّهب: ٣/٣ ـ ٤، تَهذِيب الكَـمَال: ٤٨٥/٥ الرَّقـم ١١٤١، المـعارف لِاٌبـن قُـتَيْبَة: ٣٣٤، الأَغَـانِي: ١٠/١٦، تَأرِيخ دمشق: ٣٧٩/٢، مُسْنَد أحمد: ٤٢١/٤، والمُعْجَم الكَبِير للطَّبراني: ٤٢٧/١، والعـقد الفريد: ٢٤٥/٤، وتَهذِيب ٱبن عساكر: ٢٠٦/٧، وصـفوة الصَّـفوة: ٢٣٨/١، وسـيرة ٱبـن هُشَـام: ١٧٩/٤.

(١) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١٣٠). (مِنْهُ ﷺ).

الشَّام، وكَان يَزدَاد عَدد الَّذِين يَحضَرُون مَجلسه يَوْمَاً بَعد يَوْم، وكَـان يَـغرس فِي نفُوسِهم الثّورَة عَلىٰ الطُّغَاة، وحُبَّ آل الرَّسُول منَار العِـلم والْـعَدْل حَـتَّىٰ أَحس مُعَاوِيَة أنّ الأَرْض تَمِيد مِن تَحته.

وكَان أَهْل جَبل عَامِل يَقصدُون دِمشق فِي أَكْثَر أيَّامِهم، يَبِيعُون فِيهَا مَا عِندهُم مِن نَاتج، ويَشترُون مِنْهَا حَاجَاتِهم، لقُـربها مِـن جَـبَلِهم، ولِأَنَّهَـا مَـركز الحُكْـم وعَاصمَة الإقْلِيم، وكَان خَبَر أَبِي ذَرّ ٱنْتَشَر فِي كلِّ نَـاحِية مِـن نـوَاحِـي الشَّـام، وتَقصدَه النَّاس زُرَافات ووحدَاناً: فَمِن الجَائِز القَرِيب جِداً أنّ جَمَاعَة مِن العَامِلِيين الَّذِين كَانوا يُكثِرُون التَّرَدُّد عَلىٰ دِمشق قَد ٱجْتَمعوا إِلَيْهِ، وٱستَمعوا مِنْهُ، وآمـنُوا بِكَلمَاته وعِظَاته، وبَشرُوا بِها بَعد أَنْ عَادوا إِلىٰ بِلادهِم، فٱنْتَشر فِيها التَّشِيع عَـن هَذَا الطَّرِيق[1].

وإِذَنْ فَلَيْس مِن الضَّرُوري ـ فِي إِسْنَاد التَّشِيع بِجَبَل عَامِل إِلىٰ أَبِي ذَرّ ـ أَنْ يَذهَب هُو بِنَفْسه إِلىٰ هَذَا الجبَل، فإنّ أَكْثَر الرِّسَالات والأفْكَار تَنْتَشر عَن طَرِيق النُّقبَاء والسُّفرَاء، كَمَا ٱنْتَشر الإسْلاَم وغَيْر الإِسْلاَم. ثُمَّ تَفرع عَن النُّوَاة الّتي غَرسها أبُـو ذَرّ، أو عَن شَجرتَها بِطَرِيقٍ أو بِآخر ـ ٱثنَا عَشر فَرعَاً أي إِمَامَاً.

وَلَيْس ذَلِكَ مِن قَصدنا فِي هَذَا المقَام، وإِنَّمَا الغَرض الأَوَّل والأخِير هُو أَنْ نُثبت إِمْكَان نِسبَة التَّشِيع مِن حَيْث هُو فِي جَبَل عَامِل إِلىٰ هَذَا الْصَّحَابِي العَظِيم.

---

(١) جَبَل عَامِل: جُزء من بِلاد سورِيا الكُبْرَىٰ، يَقع جنُوب لُبنَان، ويُسمىٰ بعَاملة نِسبَة إِلىٰ عَامِلة أبن سَـبأ الَّذي رَحَل مِن الْيَمَن، وسَكن جِبالاً من لُبنان فأطلق عَلَيْهَا أسم العَامِلة فِيما بَعد. أنظر، تَأرِيخ جَبَل عَامِل، لِمُحَمَّد جَابر آل صَفا: ٢٣٣، أمل الآمل فِي تراجم عُلَمَاء جَبَل عَـامِل: ١٣/١، الصِّراط المُستَقِيم: ٦/٢، مدَارك الأحْكَام: ١٠/١.

الرسالة
- ١٤ -

لا تقتلوا مُدْبِراً:

لاَ تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَءُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَىٰ حُجَّةٍ، وَ تَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلاَ تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَ لاَ تُصِيبُوا مُعْوِراً، وَ لاَ تُجْهِزُوا عَلَىٰ جَرِيحٍ، وَ لاَ تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًىٰ، وَ إِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَ سَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَىٰ، وَ الْأَنْفُسِ، وَ الْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَ إِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ، أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَ عَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

اللُّغَة:

مُعْوِراً: عَاجِزاً عَن الدّفَاع يَسْتَطِيع قَتله كلّ إِنْسَان. وَلاَ تُجْهِزُوا: لاَ تَقْتِلوا. وَلاَ تَهِيجُوا: لاَ تُثِيرُوا. والْفِهْرِ: الحَجَر. والْهِرَاوَةِ: العَصَا.

الإِعْرَاب:

حُجَّةٌ أُخْرَىٰ خَبَر لِتَرْكُكُمْ، وَإِنْ كَانَ «إِنْ» مُخَففة، ومُهمَلة عَن الْعَمَل، واللاَّم فِي لَنُؤْمَرُ فَارِقَة بَيْنَهَا وَبَيْنَ «إِنْ» النَّافِية، ومِثلها وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ.

الْمَعْنَىٰ:

(لاَ تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَءُوكُمْ) تَقَدَّم مِثْلَه قَبل قَلِيل[1]. وفِي شَرح ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد عَن الإِمَام أنّه قَالَ: «مَا نُصرتُ عَلىٰ الأَقرَان الَّذِين قَتلتَهُم إِلاّ لأَنّي ما ٱبْتَدَأتُ أَحَداً بِقتَال ومُبَارزة»[2]. (فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَىٰ حُجَّةٍ) وهِي الآيَة: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3]. (وَ تَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ) لأنّ البَادِي هُو الظَّالم. قَالَ الإِمَام: «لِلظَّالِمِ الْبَادِي غَداً بِكَفِّهِ عَضَّةٌ»[4] كِنَايَة عَن النَّدم، وإِشَارة إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً﴾[5].

(فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلاَ تَقْتُلُوا مُدْبِراً... إلخ). مِن الْعَدُوّ فَدعوا مَن هَرَب وشَأنَه، ولا تَتعرضُوا لهُ بسُوء، وأيضاً لاَ تَتَعرضُوا للعَاجز الَّذي لاَ يَسْتَطِيع

(١) أُنظر، ٱلرِّسالَة: (١٢). (مِنهُ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة: ١٥/١٠٤.

(٣) ٱلْحُجُرات: ٩.

(٤) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغة: ٱلحِكمَة (١٨٦).

(٥) ٱلفُرقَان: ٢٧.

الدِّفَـاع عَـن نَـفْسَه، ولاَ تَـقْتلوا جَـرِيحاً، وإِيَّـاكُـمْ وآلـنِّسَاء وإِنْ أَسَاَنَّ إِلَـيْكُم بِالْقَوْل... وهَذِه هِي تَعَالِيم الإِسْلاَم، ولذَا أَسندهَا الإِمَام إِلىٰ نَبِي الرَّحْمَة بِقَوْله: (إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ ـ أي كَان رَسُول الله يَأمرنَا ـ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَ إِنَّهُنَّ لَـمُشْرِكَاتٌ). عَـلَق الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه عَلىٰ ذَلِكَ بقَوْله: «هَذَا حُكم الشَّرِيعَة الإِسْلاَمِيّة، لاَ مَا يَتوهَمه جَاهلوهَا مِن إِبَاحَة التَّعرض لأَعرَاض الأَعدَاء نَعُوذ بالله»[1]. وَقَالَ الإِمَام جَعْفَر الصَّادقعليه السلام: «نَهىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله أَنْ يُلقىٰ السُّم فِي بِلاد آلْمُشْرِكِين.... وعَن قَـتْل آلنِّسَاء والوِلْدَان فِي دَار الْحَرْب... وعَن الأعمىٰ، والشَّيخ الفَاني... ومَا بيَّت عدوّاً قَطّ فِي لَيل»[2].

وَبِالمُنَاسبة كَانَتْ الطَّائرَات الأمرِيكِية فِي فِيتنَام تُحلق فوق الغِـيُوم والسُّـحب المَاطِرة، وتَبذر فِيها الموَاد السَّامة قَبل أَنْ يَنزل مِـنْهَا الْمَـاء حـتّىٰ إِذَا جَـاء الأَوَان أَمْطَرت سمّاً قَاتلاً... وبِهذه الْعَمَلِيَة ونَحُوها أتلَفت مِليونِي هكتَار مِن الغَابَات بمَـا فِيها عَدَا الحقُول والبسَاتِين... قَالَ، عزّ مَن قَـائِل: ﴿وَتَـرَى ٱلْأَرْضَ هَـامِدَةً فَـإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[3]. وعَلَيْهِ يَحق لنَا أَنْ نُسمِي هَذِه الْحَرْب حَرْباً عَلىٰ الله وَعدْله وحِكْمَته.

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٥/٣.

(٢) أنظر، تَهذِيب الأحْكَام: ١٤٣/٦ ح ٢٤٤، وَسَائِل الشّيعة: ٦٢/١٥ ح ١، الكَافِي: ٢٨/٥ ح ٢ و ٣، مُسْنَد الشَّامِيين: ٣٣٦/٤ ح ٣٤٨٤، شَرح مَعَانِي الآثَار: ٢٢١/٣، سُنَن التِّرمِذي: ١٣٦/٤ ح ١٥٦٩، مُسْنَد أحمد: ٢٣/٢ و ٧٦ و ١٠٠، مَجْمَع الزَّوائِد: ٣١٨/٥، الجَامِع الصَّغِير: ٧٠٢/٢ ح ٩٤٩٦، سُنَن الدَّار قُطْني: ١١٧/٣ ح ١١٨، صَحِيح مُسْلِم: ١٤٤/٥، المبسوط السَّرخسِي: ٢٧١/٧، مُنْتَهىٰ المَطلب: ٩١١/٢.

(٣) ٱلْحَجّ: ٥.

الرسالة ١٥ و١٦

مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا:

أَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَ مُدَّتِ الْأَعْنَاقُ، وَ شَخَصَتِ الْأَبْصَارُ، وَ نُقِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَ أُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ. أَللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَ جَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ. أَللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَ تَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا، ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَـٰتِحِينَ ﴾[1].

لاٰ تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَ لاٰ جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَ أَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَ وَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا، وَ ٱذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ، وَ الضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ، وَ أَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَ لَكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا، وَ أَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.

---

(١) ٱلْأَعْرَاف: ٨٩.

اللُّغَة:

أَفْضَت: وَصَلَت. وشَخَصَت: ٱرتَفَعَت. وَأُنْضِيَت: هَزُلَت. وصَرَّحَ: ٱنْكَشَف. وحَاشَتْ: غَلَت. والمَرَاجِلُ: القُدُور. والأَضْغَان: الأَحْقَاد. ولاَ تَشْتَدَّنَّ: مِن الشِّدَّةِ والصُّعُوبَة. والمُرَاد بِالجَوْلَة هُنا الهَزِيمَة لقَوْلِهِ: «بَعْدَهَا حَمْلَةٌ» تَمَاماً مِثل «فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ». وَٱذْمُرُوا: حَرِّضُوا. والدَّعْسِيّ: يَدْعَس قُلوب الأَعْدَاء. والطِّلَحْفِيّ: الشَّدِيد. والنَّسَمَة: الخَلق.

الإِعْرَاب:

بَعْدَهَا خَبَر مُقدم، وكَرَّةٌ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، ومثلها بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَقَالَ مِيْثَم: اليَاء فِي الطِّلَحْفِيّ لِلمُبَالغة، ومَا أَسْلَمُوا جوَاب القَسم، وهُو فَوَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّة.

المَعْنَى:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: «كَان الإِمَام عليه السلام يَقول إِذَا لقِي العَدُوّ مُحَارباً: (أَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَ مُدَّتِ الأَعْنَاقُ، وَ شَخَصَتِ الأَبْصَارُ... إِلىٰ الأَبْدَانُ). أَبَداً لاَ هَدَف لِلإِمَام مِن الحَرْب إِلّا وَجْه الله وَحده، فلاَ نِيَّة ولاَ خُطوَة ولاَ كَلِمَة ولاَ شَيء من وَرَاء القِتَال إِلّا رَضْوان الله سُبْحَانَهُ، وغِيظ مِن كَفَر بِالله وَعَصَاه: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

(١) ٱلتَّوْبَة: ١٢٠.

ثُمَّ بَيَّن الْإِمَام السَّبب المُوجب لقتَاله، بَيّنَه بقَوْله: (أَللَّـهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَ جَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ) لَكَ وقَارت أحقَاد الجَاهِلِيَّة فِي صدور الْمُنَافقِين عَلىٰ نَبِّيك الكَرِيم، فَأعلنُوا الحَرْب مِن بَعدَه عَلىٰ أَهْل بَيْتِهِ (أَللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَ تَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا). وفِيهِ إِيمَاء إِلىٰ أَنّ المُنَافقِين مِن قُرَيْش لَم يجرأوا فِي عَهد النَّبِيّ ﷺ علىٰ إظهَار أحقَادهم عَلىٰ رَسُول الله ورِسَالَته، فَأضمَرُوها حَتَّىٰ أُتِيحَت لَهُم الْفُرْصَة بِمَوْت الرَّسُول الأعظَم، فَاقتَصوا مِنْهُ بِشَخص أَحبّ الخَلق إِلىٰ قَلبَه، وهُم أَهْل الْبَيْت.

وفِيمَا سَبق أَشرنَا إِلىٰ مَا جَاء فِي كتَاب «عَليّ بن أَبِي طَالب»، وهُو مَا نَصه بِالحَرف: «وبَعد مَوْت النَّبِيّ تَنَاولت قُرَيْش بِسِيُوفها شِيب بَنِي هَاشم، وشَبَابها، وصِبيَانها، وشَرّدَت عقَائِلها، وحرَائِرها، وكَأنّمَا تثأر بهَذا لِقَتلاَها فِي بَدْر وأُحُد، وحَسبُنا أَنْ نَذْكر هُنا مَصرَع الحُسَيْن وآل بَيْتَه فِي كَربَلاء، ومَا تَلا ذَلِكَ من وقَائِع»[(١)].

وَقَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: وكَان الْإِمَام يَقول لأَصْحَابه عِند الْحَرْب: (لاَ تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ). فِيهِ إِيمَاء إِلىٰ أَنّ بَعْض أصحَابه فَرّوا مِن مِيدَان الْقِتَال، ثُمَّ صَعب ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَخفف عَنْهُم الْإِمَام وَقَالَ: لاَ بَأس بِالفرَار إِنْ دَعَت إِلَيْهِ الضَّرُورة عَلىٰ أَنْ يَعُود الفَارّ إِلىٰ مَكَانه فِي مِيدَان، والمُهم أَنْ يَكُون عَلىٰ نِيَّة الجِهَاد والتَّضحِية... وَقَد فَرَّ الْصَّحَابَة عَن رَسُول الله ﷺ فِي أُحُد حَتَّىٰ خَلص إِلَيْهِ المُشركُون، وجَرحُوا وَجْهَه الشَّرِيف، وكَسرُوا رُبَاعِيته، وهَشّموا البَيضَة عَلىٰ

(١) أُنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبُوَّة، وخَاتَم الخِلاَفَة: ١٤٦، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنهُ ﷺ).

رَأسه(١)، وأيضاً فَرّوا عَنْهُ يَوْم حُنين حَتّىٰ قَالَ أبُو سُفْيَانَ شَامتاً: «لاَ تَنْتَهِي هَزِيمَتهم دُونَ البَحر»(٢).

(١) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٣/٢٢٧، صَحِيح مُسْلِم: ٥/١٧٨، مُسْنَد أحمد: ١/٣١، سُنن أبن مَاجه: ٢/١١٤٧، سُنن التّرمِذي: ٤/٢٩٤، تَفْسِير القُرطُبي: ٨/٢٧٣، مَجْمَع الزّوائد: ٦/١١٥، شَرح المواهب للزّرقاني: ٢/٣٧، رسَائل المُرتضىٰ: ٣/٢١٣، الهِدَايَة الكُبْرَىٰ: ٤٢٨، تَأريخ أبن كَثِير: ٤/٢٣ و ٢٩، سيرة أبن هُشام: ٣/٢٧، الخِصَال: ٣٨٩، أمَالي الطّوسي: ١٤٢.

(٢) أنظر، تَأريخ الطَّبَري: ٢/١٦٨، تَأريخ اليعقوبِي: ٢/٤٧، البدَاية والنّهاية: ٤/٣٧٤، عُيُون الأثر: ٢/٢١٦، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ٥/٣١٩، مَع المُصطفىٰ للدّكتورة بِنت الشَّاطىء: ٣٠٣، مُعتصر المُختصر: ١/٢٢٩، السِّيرَة النَّبويَّة لِابْن هُشام: ٥/١١٢، مناقب عَليّ بن أبِي طَالب لِابْن المَغازلِي: ٦٥ ح ٩٣ و ٨٤ ح ١٢٠ و ١٢٥ و ١٠٤ ح ١٤٦ و ١٤٧، المنَاقب للخوَارزمِي الحنَفِي: ٧٢ و ١٠٦ و ١١١ و ٢٣٥، تَأريخ أبن عسَاكر: ١ / ٧٤ و ٧٦ و ١٢١ ح ١٢١ ـ ١٢٤ و ١٢٦، و: ٢/٢٥٧ ح ٧٧٣ و ٧٧٤ و ٤٧٦ ح ٩٩٦ و ٩٩٧، كفَاية الطَّالب للكَنجي الشّافعي: ١٨٧ و ٢٢١ طَبْعَة الحيدرية، ينَابِيع المَوَدَّة للقندُوزي الحنَفي: ٧٢ و ٨١ و ١٨٥ و ٢٣٤ و ٢٥٠ و ٢٨٤ طَبْعَة إسلامبول، فتح المَلك العَلي: ٥٧ طَبْعَة الحيدرية، إسعاف الرّاغبين بهامش نور الأبْصَار: ١٥٨ طَبْعَة السّعيدية، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٣ طَبْعَة الحيدرية.

وأنظر، أيضاً مطَالب السّؤول لِابْن طَلحة الشَّافِعِي: ٣١ طَبْعَة طهران، مِيزان الإعْتِدَال للذّهبِي: ١ / ١١٠، و: ٣ / ٣٢٤ طَبْعَة بيروت، الجَامِع الصَّغِير للسّيوطي الشّافعي: ٢ / ١٤٠ طَبْعَة مصطفىٰ مُحَمَّد، مُنْتَخَب كنْز العُمّال بهامش مُسْنَد أحمد: ٥ / ٢٩ و ٣٠ و ٣٣ و ٣٤، إحقاق الحَقّ: ٤ / ٢٣٤، و: ٦ / ١١ و ٢٩ طَبْعَة طهران، فرَائد السّمطين: ١ / ١٥٧ و ١٤٣ ح ١١٩ و ١٥١، المُعْجَم الصَّغِير للطّبراني: ٢ / ٨٨، نظم دُرر السّمطين للزّرندي الحنَفي: ١١٤، مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٢١، و: ٦ / ١٠٢ و ١٢٥، أسد الغَابَة: ١ / ٦٩، و: ٣ / ١١٦ و: ٥ / ٢٨٧، فَضَائِل الخَمْسَة: ٢ / ١٠٠، الرّياض النّضرة: ٢ / ٢٠٤ و ٢٣٤، ذَخَائِر العُقبَىٰ: ٥٦ و ٦٨ و ٧٠، السّيرَة الحَلبِية لبرهان الدّين الحَلبي الشّافعي: ١ / ٣٨٠، شَرح النّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ٣ / ٢٦١، و: ٧ / ٢١٩ و ١٠ / ١٨٢ و ١٤ / ٢٥٠ و ٢٥٢، و: ١٣ / ٢٢٨ تحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل، الإسْتِيعَاب لِابْن عبد البرّ مطبوع بهامش الإصَابَة: ٤ / ١٧٠، فرَائد السّمطين للحمُويني: ١ / ٣٩ و ٤٠ و ١٥٦ و ٢٣٤.

وأنظر، كذَلِكَ لِسَان المِيزَان لِابْن حَجر العسقلاني الشّافعي: ٢ / ٤١٤، البَيَان والتّعريف لِابْن حَمْزَة

(وَ لاٰ جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ) عَطف تَفْسِير عَلىٰ مَا قَبلها (وَ أَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا) مِن الضَّرْب فِي هَام المُعتَدِين (وَ وَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا) أي هَيئُوا بِضربَاتكُم المُحْكَمَة أَمَاكن لِسقُوط الأَعدَاء صَرعىٰ (وَ آذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَىٰ الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ ، وَ الضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ) حَرِّضُوا أَنفُسَكُمْ عَلىٰ الجِهَاد والعَزم أنْ تَطعَنُوا الطَّعنِ القَاتِل ، وتَضرِبُوا الضَّرْب المُمِيت . (وَ أَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ) لاَ تَرفَعُوهَا ، وتَقَدَّم مِثل هَذَا والَّذي قَبله مَع الشَّرح[١] .

(فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَسْلَمُوا وَ لَكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا . . . إلخ) . قَالَ المُعْتَزِلي ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد : «أَقْسَم الإِمَام أنّ مُعَاوِيَة ، وٱبن العَاص ، ومِن وَالاَهُمَا مِن قُرَيْش مَا أَسْلَمُوا ، وَ لَكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا خَوْفَاً مِن السَّيْف ، ونَافقُوا ، فَلما قَدَرُوا عَلىٰ إظْهَار مَا فِي أَنْفسِهم أَظْهَرُوه ، وهَذَا يَدل عَلىٰ أنّه ﷺ جَعَل مُحَارِبَتهُم لهُ كُفرَاً»[٢] .

وٱتفق المُسْلِمُون كَلِمَة وَاحدة عَلىٰ أنّه كَان بَيْنَ الصَّحَابَة مُنَافقُون ، لأنّ الله سُبْحَانَهُ أَنزَل فِيهِمْ سُورَة خَاصَّة . وَقَالَ المُفسرُون : «إنّ جَمَاعَة مِن المُنَافقِين الَّذِين كَانوا يُصلّون خَلف النَّبيّ ويُحَارِبُون مَعه ـ ٱتَفقُوا عَلىٰ ٱغتِيَاله ، والفَتك بِه ، فَأَخبرَه الله عَنْهُم فَٱحْتَرَز مِنْهُم ، ونَزل فِيهِمْ : ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ

⇐ الحَنفي : ٢ / ١١٠ ، دُرر بَحر المَناقب لإبن حَسنويه الحَنفي : ٩٩ مخطوط ، الأربعُون لأبي الفَوارس : ٤٩ مخطوط ، رِسَالَة النَقض علىٰ العُثمَانِية للإسكافي : ٢٩٠ ، أرجَح المطالب للشَيخ عُبَيدالله الحَنفي : ٤٤٧ ، مِفْتاح النَجا للبدَخشي : ٢١ مخطوط ، ٱنتبَاه الأَفهَام : ٧٤ ، الإِصَابَة : ٤ / ١٧١ ، كشف اليَقِين : ٨٤ ، الإرشَاد للشيخ المُفِيد : ٤١ و ٤٣ و ٥٧ ، مُسْنَد أَحمد بن حنبل : ١ / ١٩٩ ، و : ٣ / ٨٢ .

(١) أنظر ، شَرح ٱلخُطبَة : (١٢٤) . (مِنهُ ﷺ) .

(٢) أنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة : ١٥/١١٤ .

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١).

(١) ٱلتَّوْبَةِ: ٧٤. أنظر، مُسْنَد أحمد: ٥/٣٩٠ـ ٤٥٣، صَحِيح مُسْلِم: ٨/١٣٢، مَجْمَع الزّوائد: ١/١١٠ و: ٦/١٩٥، مغازي الوَاقديّ: ٣/١٠٤٢، إمْتَاع الأَسْمَاع: ٤٧٧، الدُّر المنثور: ٣/٢٥٨، تهذيب الكَمَال: ١٢/٦٠٤، ذكر الحَدِيث فِي شِيبَة الَّذي أسلم بَعد الفَتح.

الرسالة ٢٨

-١٧-

مُعَاوِيَة يُسَاوِم عَلِيًّاً:

وَ أَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ. وَ أَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلاَّ حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلاَ وَ مَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَ مَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ. وَ أَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَ الرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَ لَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ. وَ أَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَ لَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَ لاَ حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَ لاَ أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَ لاَ الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَ لاَ الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَ لاَ الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَ لاَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَ لَبِئْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَ فِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَ نَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ. وَ لَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَ أَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَ كَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَ إِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَ ذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلاَ تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَ لاَ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، وَالسَّلاَمُ.

اللُّغَة:

حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ: بقَايَا أَنْفُسٍ. والطَّلِيقِ: مَن أُطلق بَعد أَسرٍ وإذْلاَل. واللَّصِيقِ: الدَّعِي. والمُدْغِلِ: المُفْتِن المُفْسِد. وَنَعَشْنَا: رَفَعْنَا. وأَفْوَاجاً: جَماعَات.

الإعْرَاب:

خَلْفٌ مُبْتَدَأ، وهُو المُرَاد مِن الذَّمِ، وخَبَره جُملة لَبِئْسَ الخَلْفُ، ويَجُوز أَنْ يَكُون خَبَراً لِمُبْتَدَأ محذُوف أي هُو خَلْفٌ، وجُملَة يَتْبَعُ صِفَة، وأَفْوَاجاً حَال، وطَوْعاً وَكَرْهاً مَصدرَان فِي موَاضع الحَال أي طَائِعَيْن وَكَارِهِين.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ أَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ). كَتَب مُعَاوِيَة إِلىٰ الإِمَام، وَقَالَ فِيمَا قَالَ: كُنتُ سَأَلتُك الشَّام فأَبيت، وأَنَا أَدْعُوك اليَوْمَ إِلىٰ مَا دَعُوتك إِلَيْهِ أَمْس. فقَال الإِمَام: (فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ). قَالَ الشِّيخ مُحَمَّد عَبْدَه مُعلقاً عَلىٰ هَذَا: «كَتَب مُعَاوِيَة إِلىٰ عَليّ يَطْلب مِنْهُ أَنْ يَترك لَهُ الشَّام... فأَجَابه أَمِير المُؤْمِنِينَ بِما تَرىٰ»[1]. وَقَالَ ابن قُتَيْبَة: «طَلَب مُعَاوِيَة مِن عَليّ أَنْ يَجعَل لهُ الشَّام ومِصْر جِبَاية، فإِنْ حَضَرته الوفَاة لَم يَجعل لأحدٍ مِن بَعده بَيْعَة فِي عُنق مُعَاوِيَة»[2]. ونَقَل ذَلِكَ بَعْض الشَّارحِين عَن «مرُوج الذَّهب» لِلمَسْعُودي، وكتَاب «صِفِّين» لنَصر بن مُزَاحم،

---

(١) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ١٦/٣.

(٢) أُنظر، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ٩٥ طَبعَة سَنَة ١٩٥٧م. (مِنهُ ﷺ).

وكتَاب «قَيْس الكُوفِي»(١).

ولاَ عَجَب أنْ يَطلب مُعَاوِيَة، ولاَ يَحتَاج طَلَبهُ هَذَا إلىٰ سَند وإثبَات، لأنّه بِطَبعه يَحمل الدَّلِيل علىٰ صِحته... فإنّ الَّذي يُعطي مِصْر طُعمَة وجِبَاية لِابْن العَاص يَطلب الشَّام وأكْثَر مِن الشَّام لِنَفْسَه طُعمَة وجِبَاية... وأيضاً لاَ عَجَب أنْ يَرفض الإِمَام هَذَا الطَّلب، لأنّ مَن حَرَّم أمْوَال المُسْلِمِين علىٰ نَفْسَه فبالأحرىٰ أنْ يُحرّمهَا عَلىٰ غَيْره. وتَقَدَّم قَوْله: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ، وَ اللهِ لاٰ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَ مَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ، وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ»(٢)؟

وأيضاً قَالَ مُعَاوِيَة فِي كتَابه لِلإِمَام: رَقّت الأَجْنَاد، وذَهَبت الرِّجَال، وأَكَلَت الْحَرْب الْعَرَب إلاّ حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ»(٣). فقَال الإِمَـام: (أَلاٰ وَ مَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَ مَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَىٰ النَّارِ). نَحنُ سِلمٌ لِمَن سَالم الْحَقّ والْعَدْل، وحَـرْبٌ عَلىٰ مَن حَارَبهمَا وعَاندهمَا، ولاَ نُسَاوم أبداً عَلىٰ دِين الله، ولاَ نَسْتَسلم للبَاطِل وأَهْله مَهما كَانَتْ الظّرُوف، ونَستَمِيت دُونَ الْحَقّ، ومَن مَات فِي نُصرته فـهُو مَـع الَّذِين أَنْعَم الله عَلَيْهِمْ مِن النَّبِيين والصّدِيقِين، ومَن مَات فِي نُصرَة الْبَغْي فَصِيره إلىٰ النَّار وبِئس القرَار.

(١) أنظر، مرُوج الذَّهب: ٢/ ٦٠ و ٦١، وَقْعَة صِفّين: ٥٢، كتَاب سُليم بن قَيس الكُوفي: ٣٣٧، الإمَامَة والسِّيَاسَة: ١/ ٨٨ وفي طَبعة أُخرىٰ: ٩٥، شَرح نَهج البَلاَغَة لِابْن أبِي الحَدِيد: ٣/ ٨٤.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطبَة (١٢٦).

(٣) أنظر، كَنْز الفوَائِد للكرَاجكي: ٢٠١، بحَار الأنوَار: ٣٣/ ١٠٤، المنَاقب للخوارزمي: ٢٥٥، وَقْعَة صِفّين: ٤٧٠، ورواه كمَال الدِّين ابن مِيثَم وابن أبِي الحَدِيد فِي شَرح المُختَار: (١٧) فِي شَرحيهما: ٤/ ٣٨٩ و ٥٥٦ طَبعة بَيروت.

وَقَالَ مُعَاوِيَة فِي كتَابه المَذكُور: أنَا وأَنْتَ فِي الْحَرْب والرِّجَال سوَاء. ويُشِير بهذا إِلىٰ أنّه يُفاوض الْإمَام، ويُسَاومه عَلىٰ الشَّام مِن مكَان القُوَّة، لاَ مِن مكَان الضَّعْف.

فقَال الْإِمَام: (فَلَسْتَ بِأَمْضَىٰ عَلَىٰ الشَّكِّ مِنِّي عَلَىٰ الْيَقِينِ... إلخ). أمّا قولَك عِنْدَكَ رِجَال ومُحاربُون فَصَحِيح، وأمّا قولَك نَحْنُ فِي الْحَرْب سوَاء فَبَعِيد عَن الصّوَاب، لِمَكَان الفَرق بَيْنَ مَن يُحَارِب وهُو عَلىٰ بَيِّنَة مِن أمرِه، ويَقِين مِن حقّه، وبَيْنَ مَن يُحَارِب وهُو عَلىٰ يَقِين بِأنّه كَاذب ومُخَادع فِي حَرْبه، أو يَشك ـ عَلىٰ الأَقَل ـ فالْأَوّل يَنْطلق مِن مُوقع الْعَقِيدَة والْإِيمَان، ويَصنع الْإِنْتصَارات بِجُرأته وتَضحِيَاته، كَأهل الْعِرَاق الَّذِين يُحَارِبُون طَلباً لِمَرضاة الله وثَوَابه فِي دَار الخُلود، والثَّانِي يَنْطَلق مِن مُوقع الشَّك، وقَلبَه مُفعم بِالرُّعب، كَأَهل الشَّام الَّذِين يُحَارِبُون مَعك طَمعاً بِحُطام الدُّنْيا... وإذَنْ فَلا مُبرر للمُقَارنَة والمُعَادلة. وإلىٰ مِثل هَذَا أشَار سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَايَرْجُونَ﴾[1]. وضَمِير المُخَاطب فِي الآيَة لِلمُؤْمِنِين، وضَمِير الغَائِب لأعْدَائِهم الْكَافِرين.

وأيضاً قَالَ لِلْإِمَام فِي كتَابه: نَحنُ بَنو عَبد مُنَاف، ولَيْسَ لِبَعضنَا فَضل عَلىٰ بَعْض. فقَال الْإِمَام: (فَكَذَلِكَ نَحْنُ). تَنْقَسم قُرَيْش إِلىٰ بطون: مِنْهَا بَنُو هَاشم بن عَبد مُنَاف، وبنُو أُمَيَّة بن عَبد شَمس بن عَبد مُنَاف، والْإِمَام هُو عَلِيّ بن أَبِي طَالب بن عَبد المُطلب بن هَاشم بن عَبد مُنَاف، ومُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ بن حَرْب بن أُمَيَّة بن عَبد شَمس بن عَبد مُنَاف (وَ لَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَ لاَ حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَ لاَ أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ... إلخ). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه فِي تَعلِيقه: «صفَات الْخَيْر

(١) ٱلنّساء: ١٠٤.

كُلّها لِبَني هَاشم، وصِفَات الشّرّ لِبَني أُمَيَّة»[١].

وَقَالَ الْعَقَّاد: «الهَاشِمِيُون والأُمَويُون مِن أَرومَة وَاحدة تَرتَفع إِلىٰ عَبد مُناف، ولكنْ الأُسرتِين تختلفان فِي الأَخْلاَق، فَبنُو هَاشم فِي الأغلَب أريحيُون، ولاَ سِيّما أبنَاء فَاطِمَة الزَّهرَاء، وبنُو أُمَيَّة الأغلب نَفعِيُون، ولاَ سِيّما الأَصلاء مِنْهُم... كَان الهَاشمِيُون سُرَاعاً إِلىٰ النَّجدَة وَنُصرَة الْحَقّ والتَّعاون عَلَيْهِ، ولَمْ يَكُن بنُو أُمَيَّة كذَلِكَ»[٢].

وَقَالَ أَحمد عَبَّاس صَالح: «لَقَد تَربىٰ مُعَاوِيَة فِي حِجرِ أَبِي سُفْيَانَ رَأس الْقُوىٰ الرَّجعِية فِي مَكَّة، وتَربىٰ عَليّ فِي حِجرِ النَّبِيّ بِكُلّ مَا تَحملهُ النُّبُوَّة مِن فدَاء وَتَضحِية وإيجَابِيَة لِلخَير المُطلق... إنّ مُعَاوِيَة هُو القُطب الأزَلي الكَامن فِي الكَوْن، قَلب السَّلب المُطلق ـ أي الشّرّ ـ وقَد تَصَادم القُطبَان ـ أي عَليّ ومُعَاوِيَة ـ السَّالِب والمُوجِب بِقَدر مَا تُتِيح الإمْكَانية البَشرِية أنْ تَكُون سَلباً مُطلقاً، أو إيجَاباً مُطلقاً»[٣].

(وَ لاَ الْمُهَاجِرُ) إِلىٰ الله وهُو الإِمَام (كَالطَّلِيقِ) ٱبن الطَّلِيق وهُو مُعَاوِيَة (وَ لاَ الصَّرِيحُ) الوَاضح النَّسَب (كَاللَّصِيقِ) بِغَير أَبِيه.

قَالَ الْعَقَّاد: «فِي نَسْل أُمَيَّة شُبهَة نُشير إِلَيْهَا ولاَ نَزِيد، فَهِيَ مَحل الإِشَارَة والمُرَاجَعة فِي هَذَا المقَام. دَخل دَغْفَل[٤] النَّسَابة عَلىٰ مُعَاوِيَة، فقَال لهُ: مَن رَأَيْت

---

(١) أنظر، شَرح نهج ٱلبَلاَغَة: ١٧/٣.

(٢) أنظر، كتَابه «أبُو الشُّهدَاء»: ١٥٩.

(٣) أنظر، كتَابه «اليَمِين واليَسَار»: ١٢٢ طَبْعَة سَنَة ١٩٧٢م. (مِنْهُ).

(٤) هو دَغْفَل بن حَنظَلَة بن زِياد. قَالَ ٱبن النَّدِيم: ٱسمه حِجر، ودَغفَل لَقَبه. أدرك الرَّسُول، وٱختلفُوا فِي

مِن عَلِيَة قُرَيْش ؟ قَالَ: رَأيتُ عَبد المُطلب بن هَاشم، ورَأيتُ أُمَيَّة بن عَبد شَمس. فقَال لهُ مُعَاوِيَة: صِفهُما لِي. قَالَ: كَان عَبد المُطلب أَبْيَض مَدِيد القَامة، حَسن الوَجْه، فِي جَبِينَه نُور النُّبوَّة وعُزّ المُلك... ورَأيتُ أُمَيَّة شِيخاً قَصِيراً نَحِيث الجِسم ضَرِيراً يَقُوده عَبده ذكوَان. قَالَ مُعَاوِيَة: ذَاكَ ٱبنَه. قَالَ دَغفَل: ذَاكَ شَيء أَحْدَثتمُوه، أمّا الّذي عَرفت فهُو الّذي أَخْبَرتُك بِهِ)[1].

(لَبِئْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ). أَنْتَ مُعَاوِيَة، تَفْخر بِآبَائك وأَجْدَادك، وهُم وَقُود النَّار (وَ فِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ... إلخ). أمّا الإمَام فإنّه يَعتَز باللهِ وبِالْإِسْلاَم الَّذي أَذَل الطُّغَاة، ورَفع مِن شَأن المُسْتَضْعَفِين، أَنْصَفهم مِن الْأَقْوِيَاء المُعتَدِين (وَ لَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً... إلخ). كُنْتُم يَا مُعَاوِيَة أَلَد أَعْدَاء النَّبيّ ﷺ أَطْلَقتُم حَوْله الشَّائِعَات والدّعَايَات، وجَمَعْتُم لحَرْبَه الجُيُوش لاَ لشَّيء إلّا لأنّه كَان مَع الضَّعِيف ضِدّ الْقَوِيّ، ومَع الْفَقِير ضِدّ الْغَنِيّ، ولمّا ٱنْتَشر الْإِسْلاَم فِي الجَزِيرة الْعَرَبِية وخَاب مِنْكُم الأمَل

⇐ أدرَاكه صُحبة الرَّسُول، والأصح أنّه لَم يُدرك صُحبته. وَفَد عَلىٰ مُعَاوِيَة فِي أَيّام خِلاَفته، فسَأله عَن العَرَبِية وأَنسَاب النَّاس وعَن النّجوم فأعْجَبه عِلمه، فقَال لهُ: إنْطلق إلىٰ يَزِيد فَعلمه أَنسَاب النَّاس، والنّجوم، والعَرَبِية. غَرَق دَغفَل يَوم الدّولاب ـ قَريَة بَيْنَهَا وبَيْنَ الأهوَاز أَربَعَة فرَاسخ ـ بفَارس فِي وَقْعَة الأزَارقة مِن الخَوَارج قَبل سَنَة ستِين هجرية. أُنظر، الفهرست لِابن النَّديم: ١٣١، تهذيب الكَمَال: ٤٨٧/٨ الرَّقم (١٧٩٩)، تَأريخ دِمشق: ٢٨٧/١٧، الوَافي بالوفيات: ١٨/١٤، ميزان الإعْتِدَال: ٢٧/٢، الاِسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٤٧٧/١، الإِصَابَة: ٤٧٥/١ الرقم (٢٣٩٩)، تهذيب التَّهذيب: ١٢٥/٢، المُعْجَم الكَبِير: ٢٢٦/٤، التَّأريخ الكَبِير: ٢٥٥/٣، شرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي الحَدِيد: ٢٠٨/١٥، تَقريب التَّهذِيب: ٢٣٦/١، أُسد الغَابَة: ١٣٢/٢، المحبر: ٤٧٨، تُحفَة الأَحْوذي: ٩٥/١٠، الآحَاد والمثاني: ٢٩٣/٣.

(١) أُنظر، كتَابه «أبُو الشُّهدَاء»: ١٦٠.

ٱستَسْلَمتُم لِلقوَّة، وقُلتُم: عَسىٰ أنْ يَكُون الإِسْلاَم تِجَارة رَابِحة فِي ٱلْحيَاة الدُّنْـيا.. وقَد ظَهرت أحْقَادكُم عَلىٰ الرَّسُول وفِي مَقاصدك وأفعَالك بَعد أنْ ٱختَار الله نَبِيّه إلىٰ جوَاره.

وتَسْأَل: إنّ بَعْض النَّاس يَشنُون عَلىٰ مُعَاوِيَة فمَا هُو السّر؟.

الجوَاب:

جَاء فِي تَأرِيخ الخُلَفَاء للسّيوطِي عَن الإِمَام أَحمَد بن حَنبل: «إنّه سَأل أبَاه عَن عَليّ ومُعَاوِيَة؟ فقَال: ٱعْلَم أنّ عَلِيّاً كَان كَثِير الأعدَاء، فَفتَش لهُ أعدَاؤه عَيباً فَلم يَجدُوه، فجَاءوا إلىٰ رَجُلٍ قَد حَاربَه وقَاتله فأطرُوه كَيداً مِنْهُم لِعَليّ»[(١)]. وبَعد أنْ نَقل الْعقَّاد هَذَا الْخبَر فِي كتَاب مُعَاوِيَة قَالَ: «وهَذِه دَخِيلة مِن دخَائِل النَّفس الْصّغِيرَة مَعهُودَة مُتكَرّرة فِي كلّ جِيل، وفِي كلّ خصُومة. فَكثِير مِن الثّناء لاَ يَصدُر عَن حُبّ للمُثنىٰ عَلَيْهِ، كمَا يَصدر عَن حِقدٍ عَلىٰ غَيْره، وكَثِير مِن هَذَا الحِقد تَبْعَثه الفضَائِل ولاَ تَبْعَثه الْعُيُوب.

إنّ تَأرِيخ مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ لاَ يَحتَاج إلىٰ مَزِيد مِن تَفصِيل، وإنّمَا يَحتَاج تَأرِيخه وتوارِيخ التَّابِهِين جَمِيعاً إلىٰ تَصحِيح المَوَازِين وبيَان المدَاخل الّتي تُؤتىٰ مِن قِبلها أَحْكَام النَّاس عَلىٰ الحوَادث، والرِّجَال، فتُصَاب بِالخَلل مَعهَا تَفكِير المُفكر ونَظرَة النَّاظر، وٱدرَاك المُدرك لمَا يُحِيط بِهِ مِن حوَادث زَمَنه، وحوَادث سَائر الأزْمِنَة»[(٢)].

---

(١) أنظر، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ١٣٣، فَتح البَاري: ٨٣/٧، الصّوَاعِق: ٧٦، يَنَابِيع المَوَدّة: ٤٠٧/٢.

(٢) أنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة ٱبن أبِي سُفْيَانَ: ١١ طَبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلاَل.

الرسالة ١٨

الْبَصْرَة مَهْبِطُ إِبْلِيس:

وَ اعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ ، وَ مَغْرِسُ الْفِتَنِ ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَ احْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

وَ قَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ ، وَ غِلْظَتُك عَلَيْهِمْ ، وَ إِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلاَّ طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَ إِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَ لاَ إِسْلاَمٍ ، وَ إِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً ، وَ قَرَابَةً خَاصَّةً ، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَىٰ صِلَتِهَا ، وَ مَأْزُورُونَ عَلَىٰ قَطِيعَتِهَا . فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ ، رَحِمَكَ اللهُ ، فِيمَا جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِكَ وَ يَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ، وَ لاَ يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ ، وَ السَّلاَمُ .

اللُّغَة:

حَادِثْ : فِعْل أَمر ، عَامِلْ أو تعَهَّد . والتَّنَمُّرُ : التَّنكرُ . الوَغْم : الحَرْب والحِقد . ومَاسَّةٌ : قَرِيبَة . مَأْزُورُونَ : آثِمُون . ارْبَعْ : ارْفِق أو قِفْ . ويَفِيلَ : يَضْعف .

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنَّ الْبَصْرَةَ سَاد مَسد مَفْعُولي آعْلَمْ، وأَبَا الْعَبَّاسِ أي يَا أَبَا الْعَبَّاسِ، وَالسَّلاَمُ مُبْتَدأ والْخَبَر مَحذُوف أي وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: كَان آبن عَبَّاس عَامِلاً لِلإِمَام عَلىٰ الْبَصْرَة[١]، فأرسَل إِلَيْهِ كتَاباً قَالَ فِيهِ: (أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَ مَغْرِسُ الْفِتَنِ). كنَايَة عَن كَثرَة مَا يَحدث فِيها مِن فِتَن وضَلال، وأَنَّهَا مَلجَأ لِمَن يُفسد فِي الأَرْض، ويَخرُج عَلىٰ النِّظام... وفِيها حَدَثت أَوَّل فِتْنَة كُبرىٰ فِي الإِسْلاَم حَيْث آستَقبَلت الْجَمَل وأَصْحَابه، وحَارَبَت تَحت لوَائه، وجَرَّأت أَهْل الشَّام عَلىٰ شَق العَصا (فَحَادِثْ

(١) كَانَ عَبدالله بن عَبَّاس قَد آشتد عَلىٰ بَنِي تَمِيم لأنَّهم كَانوا مَع طَلْحَةُ وَ الزُّبَيْرُ يَوْم الْجَمَل، فأقصىٰ الْكَثِير مِنْهُم، حَتَّىٰ كَان يُسميهم بشِيعَة الْجَمَل، وأنْصَار عَسكر، وحِزب الشَّيطان. فَعَظُم ذَلِكَ عَلىٰ بَعضِهم مِن شِيعة الإِمَام، ومِنْهُم حَارثة ـ جَارِية ـ بن قُدَامَة. فَكتَب حَارثة إِلىٰ الإِمَام عَليّ بن أَبِي طَالب عليه السلام. يَشكو إِلَيْهِ عَبدالله بن عَبَّاس.

ولِبَني عَمْرُو بن تَمِيم خِصَال تَعرفها لَهُم الْعَرَب ولا يُنَازعم فِيها أَحد، فَمِنْهَا أَكرم النَّاس عَماً وعمّة، وجدّاً وجدّة، وهو هِند بن أَبِي هَالة، وآسم أَبِي هَالة ـ نبَّاش بن زُرارة ـ أَحد بني عَمْرُو بن تَمِيم، وكَانَتْ خَدِيجَة بنت خُوَيْلد عليها السلام، تَحت أَبِي هَالة فولَدت لهُ هنداً، ثُمَّ تزوّجها رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وهِند بن أَبِي هالة غُلام صَغِير فتَبناه النَّبيّ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ ولَدت لهُ خَدِيجَة عليها السلام، القَاسم والطَّاهر وزِينب، وفَاطِمَة عليها السلام، فكَان هِند بن أَبِي هَالة أخَاهم لأُمهم، ثُمَّ أَولد هِند بن أَبِي هَالة هِند بن هِند. فهَذا الثَّاني أكرم النَّاس جَدّاً وجَدّة ـ يَعني رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وخَدِيجَة عليها السلام، وأَكرم النَّاس عمّاً وعمّة ـ يَعني بني النَّبيّ صلى الله عليه وآله وبنَاته. أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن مِيثَم البحراني: ٣٩٥/٤، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ١٨/٣، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٢٥/١٥ و ١٣٢.

أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ). أرْفق بِهِمْ، وقَربهم مِنك بِالْمَعْرُوفِ، عَسَىٰ أَنْ يَسكنُوا إِلَيْك فَيَسمعُوا وَيَطِيُعوا: ﴿ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

(وَ ٱحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ). كَان أَهْل الْبَصْرَة جُنُود الجَمَل وحُمَاته، ولمّا ٱنْعَقَرت قوَائِمه ذلوا وٱسْتَسلمُوا، وخَافُوا أَنْ يُعَاملهم الإِمَام بِمَا يَسْتَحقُّون، فأوصىٰ عَامِله عَلَيْهِمْ أَنْ يُعَاملهم بِالحُسنىٰ، ويُبدلهُم مِن بَعد خُوفهم أَمْناً (وَ قَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ، وَ غِلْظَتُك عَلَيْهِمْ... إلخ). لأنَّهم أو كَثِير مِنْهُم كَانوا الرُّكن الرَّكِين لِلجَمَل وهوَدجه (وَ إِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلاَّ طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ... إلخ). وإنْ مَات مِنْهُم سيِّد قَام سَيِّد.

مَنْ هُو العَالِم؟

(وَ إِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَ لاَ إِسْلاَمٍ، وَ إِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَ قَرَابَةً خَاصَّةً). لَمْ يَهدر لَهُم دَم لِشجَاعتهم وبَأسهم عَلىٰ حَد تَفْسِير ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، ونَقل هَذَا الشَّارح الْكَثِير مِن مَآثر بَنِي تَمِيم وخصَالِهم الَّتي «مَلأت السَّهل والجَبَل»[2]. وكَان فِي سَابق الأزمَان كلّ مَن يَحفظ المَنَاقب، والمثَالب، أو يُدوّنها ـ يُعَد مِن الْعُلَمَاء الأعْلاَم. والعَالِم الطَّيِّب اليَوْم فِي مَفهُوم الوَاعِين الطَّيِّبين هُو الَّذي يَخدم ٱلْحَيَاة. ويُطورهَا، ويَجعَلها أَكْثَر خِصباً، وعَدْلاً، وأمنَاً.

(وَ إِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَ قَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَىٰ صِلَتِهَا). يُشِير

(١) فُصِّلَتْ: ٣٤.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١٥/١٢٥.

إلىٰ أنَّ هَاشم يَلتقُون بِالنَّسب مَع بَنِي تميم فِي إلْيَاس بن مُضر[١]... ولكنَّ الإمَام قَالَ: «وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ مَنْ تَعَدَّىٰ الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَىٰ لَهُ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ»[٢]. ولكنَّ هَذَا لاَ يَمنع مِن الإِحْسَانِ لِمن أَسَاء. ومِن أَقْوَاله: «عَاتِبْ أَخَاكَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعَامِ عَلَيْهِ»[٣]. (وَ مَأْزُورُونَ عَلَىٰ قَطِيعَتِهَا) المُرَاد بِالوِزر هُنا تَرك الأَوْلَىٰ والأَرْجَح.

المُوظَف:

(فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللهُ، فِيمَا جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِكَ وَ يَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ!). أَنْتَ مُوظَف مَسْئُول عَن الرَّعِيَّة، ولاَ يَحق لأي مُوظف أنْ يَصدر عَن ذَاته ومِيُوله لأنّ صِفَة الوَظِيفة تَمحُو الصِّفَة الشَّخْصِيَة، ومِن هُنا رَأينَا الأَنْبِيَاء والمُصلحِين لاَ يَدخلُون فِي حَسَابِهِم الْمَنَافِع الشَّخْصِيَة (فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ). أَنْتَ مَسْئُول عَمّن

---

(١) أنظر، الايضاح لِابْن شَاذان: ١٧٧، أمَالي المُرتضىٰ: ١٦٩/١، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٣١٢/٣، شَرح صَحِيح مُسْلِم: ٧٦/١٦، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٨٦/٩، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٦/٤، طَبقات خَلِيفَة: ٨٦ و ٢٨٣ و ٣٠٣، التَّأريخ الْكَبِير: ١٢٠/١، الجرح والتَّعديل: ١٤٩/٥، تَأريخ بَغداد: ١٥٧/١ و: ٢١٤/٨ و: ٢٠٨/٩، إكمال الأكمال: ١٥/١، تَأريخ دِمشق: ٣٨٩/١١ و: ٣٤٢/٤٣، أُسد الغَابَة: ٢٠٦/٣، الأَنْسَاب: ٣٩٦/٥.

(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن وصيةٍ لهُ عليه السلام إلىٰ ابْنِهِ الإمَام الحَسَن عليه السلام رقم الكتاب (٣١).

وأنظر، قَريب مِن هَذَا فِي الكَافِي: ٦٤٣/٢ ح ٧، ولكن يَنسبه إلىٰ الإمَام عليه السلام، تُحف العُقُول: ٢٣٤، وَسَائِل الشّيعة: ٥٢/١٢ ح ٤، كَنز العُمَّال: ١٢٢/١٦و ١٨١ ح ٤٤١٤٣ و ٤٤٣٩٢، تَأريخ بَغداد: ٣٠٨/٣، عُيُون الحِكم والمَواعظ: ٢٦٦.

(٣) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٥٨).

لدِيَك أَمَام الله والنَّاس، وأنَا مَسْئُول عَنك أيضاً أَمَام الله والنَّاس، لأنّي مَهدت لَكَ ٱلسَّبِيل. وبِكَلِمَة قَصِيرة كِلانا مَسْئُول عَلىٰ أَسَاس المُهِمَّة والوَظِيفَة.. ولكنْ أولاَد الحرَام رُؤسَاء ومَرْؤُوسِين يَتَّخِذُون مِن الوَظِيفَة مَتجَراً ومَكسَباً عَلىٰ حسَاب الكَادحِين والمُسْتَضْعَفِين. وتَكلمنَا حَوْلَ هَذَا المَوْضُوع بِشَكل مُفصل[1].

(١) أُنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (١٢٢)، فِقرَة: عُشَّاق الكَرَاسِي. (مِنْهُ).

الرسالة ١٩

المُعَاهدُون:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَ قَسْوَةً، وَ آحْتِقَاراً وَ جَفْوَةً، وَ نَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَ لاَ أَنْ يُقْصَوْا وَ يُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ. فَآلْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَ دَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَ الرَّأْفَةِ، وَ آمْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَ الْإِدْنَاءِ، وَ الْإِبْعَادِ وَ الْإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللُّغَة:

دَهَاقِينَ: زُعمَاء. والجِلْبَاب: ضَرْبٌ مِن اللِّبَاس. وَدَاوِلْ. فَسَّره الإِمَام بِقَوْله: بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَ الرَّأْفَةِ، وبَيْنَ الْإِدْنَاءِ وَالْإِقْصَاءِ.

الإِعْرَاب:

دَهَاقِينَ: جَمع دِهْقَان مُعرّب آسم نَكرَة تَلقَتهُ الْعَرَب مِن العَجَم، وعَلَيْهِ يَكُون مَصْرُوفاً.

المَعْنَىٰ:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَ قَسْوَةً... إلخ). الخِطَاب مِن الإِمَام لِبَعض عُمَّالِهِ. ولَمْ يُشر الشَّرِيف الرَّضِي، وٱبن أَبِي ٱلحَدِيد، ومِيثَم إِلىٰ ٱسم هَذَا العَامل. ويَرىٰ بَعْض الشَّارِحِين أنّه عُمَرَ بن أَبِي سَلمة[1]، وأُمّه أُم سَلمَة زَوْجَة رَسُول الله ﷺ وإنّه كَان أَمِيراً عَلىٰ فَارس، وأَهلها كَانوا آنذَاك عَلىٰ الشِّرك... ومَهما يَكُن فإنَّ ظَاهر الكلاَم يَدل عَلىٰ أنّ نَفراً مِن رُؤُوس ٱلْمُشْرِكِين كَان بَيْنَهمْ وبَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين عَهد ومِيثَاق شَكَوْا إِلىٰ الإِمَام غِلظَة عَامِله، وقَسوتَه، فَكَتَب إِلَيْهِ أنْ لاَ يُسيء إِلَيْهِمْ لِمَكان العَهد، ولاَ يُدنِيهم مِنْهُ لِمَكان الشِّرك، ويَسلك مَعْهُم مَنهجاً وسَطاً، ومعنىٰ هَذَا أنْ يَدَعْهُم وشَأْنهم.

وتَسْأَل: كَيف نَهىٰ الإِمَام عَن إدنَاء ٱلْمُشْرِكِين، والله سُبْحَانَهُ يَقول: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2].

الجَوَاب:

الإِدْنَاءِ شَيء، الْبِرِّ والْعَدْل شَيء آخر، فَلَيْسَ مِن الضَّرُوري إذَا أَحْسَنتَ وَعَدَلت مَع إنْسَان أنْ تُقربه إِلَيْك، وتَرفَع مِن شَأنه.

(١) عَمْرُو بن أَبِي سَلمة بن عَبد الأَسد المَخزُومِيّ، القُرشيّ، المَدني، رَبِيب رَسُول الله ﷺ، وُلد فِي السَّنة الثَّانِيَة من الهِجْرَة بِأرض الحَبَشَة، شَهد مَع الإِمَام عَليّ ﷺ وَقْعَة الجَمَل، روىٰ عَن النَّبِيّ ﷺ، وأُمه أُمّ سَلمة، وسعِيد بن المُسيب، وعُرْوَة، وقُدَامَة، وثَابت البنَاني وآخرون مَات سَنَة (٨٣ هـ). أُنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٦٧/٣، وتَرجمته في أُسد الغَابَة: ٧٩/٤، تَهذِيب التَّهذِيب: ٤٠١/٧ الرَّقم (٧٥٩)، تَأرِيخ بَغدَاد: ١٩٤/١ الرَّقم (٣٢)، تَهذِيب الكَمَال: ٨٣/١٤، مِيزان الإِعْتِدَال: ٢٠١/٣، التَّأرِيخ الكَبِير: ١٦٦/٦، الجَرح والتَّعدِيل: ١١٧/٦، سِير أعلاَم النُّبلاء: ١٣٣/٦.

(٢) ٱلْمُمْتَحِنَة: ٨.

الرِّسَالَة ٢٠

تَهْدِيد زِيَاد ٱبن أَبِيه:

وَ إِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْـمُسْلِمِينَ شَـيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ الْأَمْرِ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

الشَّدَّةِ ـ بِفَتح الشِّين ـ الحَمْلَة. والْوَفْرِ: الْمَال. وثَقِيلَ الظَّهْرِ: مَن عَجَز عَن نَفَقة عِيَاله. والضَّئِيلَ: الحقِير.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: كَان عبدالله بن عَبَّاس عَامِلاً عَـلىٰ الْـبَصْرَة، والْأَهْـوَاز وفَارس، فَٱستَعَان بِزِيَاد ٱبن أَبِيه[1] فِي تَدبِير الْبَصْرَة نِيَابَة عَنْه، ولمَّا عَـلِم الْإِمَـام

(١) وزِيَاد هَذَا هو الَّذي يُقَال لهُ زِيَاد بن أَبِيه؛ لأنَّه ٱستلحقه مُعَاوِيَة وأدعىٰ أنَّه أخُوه لأبِيه، وشَهد لهُ بِذَلِك

بذَلِكَ كَتَبَ إِلىٰ زِيَاد: (وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ... إلخ). وَيَدل هَذَا بِظَاهِرة أنّ زِيَادَة مَا خَان، ولكنَّ الإِمَام خَاف مِن خِيَانته فهَدَدهُ وحَذَرهُ مِن سُوء الْعَاقِبَة إنْ فَعلها، وإنّه لاَ يُفلت مِن العُقُوبَة، وأدنَاها أنْ يَنتَزِع مَا فِي يَده مِن مَال، ويَتركَه فَقِيراً وحَقِيراً.

⟸ بَيِّنَة شَهد أحدهُم أنّه سَمِع عَلِيّاً يقول: كُنتُ عِند عُمَرَ بن الخَطَّاب فَقَدم زِيَاد بكتَاب أَبِي مُوسىٰ فَتكَلَّم زِياد بِكلام أعجب عُمَرَ، فقَال: أكُنت قَائلاً هَذَا للنَّاس عَلىٰ المِنْبر، فقَال: هُم أهون عَليَّ مِنك يَا أمِير المُؤمِنِين، فقَال أبو سُفْيَانَ وكَان حَاضراً، هُو آبني، فقلت: ومَا يمنعك؟ فقَال: هَذَا القَاعد عَلىٰ المِنبر يَعني عُمَرَ، ثُمّ شَهد آخر بِذَلِك، فقَال أبُو مَرْيَمَ السّلولي: مَا أدرِي مَا شهَادة عَليّ، ولكنني كُنت خَمَّارٌ بالطَّائف فَمرّ بِي أبو سُفْيَانَ فِي سَفره فَطعم، وشَرب، ثُمّ سَألني فَأتيته بِسُميّة جَارية بني عَجلان، وهِي مِن أصحَاب الرّايات يَعني زَانِية بالطَّائف، فوَقع عَلَيْهَا، فقَال: مَا أصبت مِثلها، لقَد آستَلت مَاء ظَهري إستلالاً تبَيَّنت أثر الحَمل فِي عِينها، فقَال لهُ زِيَاد: مَهلاً يَا أبَا مَرْيَمَ إنّما بُعثت شَاهداً، ولَم تُبعث شَاتماً، فقَال: قلتُ الحَقّ، عَلىٰ مَا كَان، ولَو آعفيتمُوني لكَان أحبّ».

أنظر، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ لإبن سعد: ٥٤/٧، أُسد الغَابَة: ٢٤٨/٤، الإِصَابَة: ٣٤٤/٣ تحت الرّقم«٧١٣١»، نزهة الألباب في الألقاب: ٤٢٠/١ و: ١١٢/٢، تَأرِيخ آبن عسَاكر: ١٧٣/١٩، مروج الذّهب: ٥٤/٢، تَأرِيخ اليَعقوبِي: ١٩٥/٢، تَأرِيخ آبن كَثير: ٢٨/٨، تَأرِيخ أَبِي الفِداء: ١٩٤، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ١٩٢/٣، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٢٥٩/٤، الأغَاني: ٣٥١/١٧ طَبعة ساسي، شَرح نَهج ٱلْبَلاغة لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٧٠/٤.

ثُمّ قَام يُونس بن أَبِي عُبَيْد الثّقَفِيّ، فقَال يَا مُعَاوِيَة: قَضىٰ رَسُول الله ﷺ: «الْوَلَد للفرَاش، وللعَاهر الحَجَر»، فَعكست ذَلِكَ، وخَالفت سُنَّة رَسُول الله ﷺ، فقَال: أعد، فأعَاد يُونس مقَالهُ هَذَا، فقَال مُعَاوِيَة: يَا يُونس! والله لتنتَهِين أو لأطِيرنّ بِك طِيراً بَطِياً وقُوعها، فأنفذ مُعَاوِيَة هَذِه الشّهادة، وأثبت زِيَاداً لأبِي سُفيَانَ، وكفَىٰ بِذَلك ذَماً، وقُبحاً لعُبَيْدالله بن زِيَاد، وشَرفاً، ومَجداً لِلإمَام الحُسَيْن.

وَرَد الحَدِيث فِي مصَادر عَدِيدة لا يُمكن ذكرها، ولكنْ نَذكر بَعضاً مِنْهَا عَلىٰ سَبِيل المثَال لاَ الحَصر، أنظر، مُسْنَد الإِمَام الشّافعي: ١٨٨، مُسند أحمد: ٣٨٦/٢، سُنن الدّارمي: ١٥٢/٢، صَحِيح البُخَاريّ: ٣٩/٣، صَحِيح مُسْلِم: ١٧١/٤، سُنن آبن مَاجه: ٦٤٦/١، سُنن التِّرمِذي: ٢٩٣/٣، مصبَاح الزّجاجَة: ١٢٢/٢، مُسْنَد الشّهاب: ١٩٠/١، البَيَان والتّعريف: ١٣٠/٢ و ٢٦٧، التّمهيد لِابن عبد البر: ١٩١/٨، كَشف الخفَاء: ٤٥١/٢، شَرح النّووي عَلىٰ صَحِيح مُسْلِم: ٣٧/١٠.

الرسالة

- ٢١ -

مَوْعِظَة زِيَاد ابن أَبِيه:

فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَ اذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَ أَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَ قَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ.

أَ تَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَ أَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَ تَطْمَعُ ـ وَ أَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَ الْأَرْمَلَةَ ـ أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَ إِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ، وَ قَادِمٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَ السَّلاَمُ.

اللُّغَة:

مُقْتَصِداً: مُعْتَدِلاً. والْفَضْلَ مَا زَاد عَن الْإِعْتِدَال. ومُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ: مُتَقَلِّبٌ فِيهِ.

الْإِعْرَاب:

مُقْتَصِداً حَال مِن فَاعِل «دَع» وهُو أَنْتَ، وَغَداً مَفْعُول بِهِ لاذْكُرْ، لأنّ الذِّكر حَاصل الْيَوْم لاَ فِي الغَد، والْمَصْدَر مِن أَنْ يُوجِبَ مَجْرُور بِجَار مَحْذُوف أي فِي

وجُوب الثَّوَاب، والمَجرُور مُتَعلّق بِتَطْمَع.

الْمَعْنَىٰ:

(فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَ اذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً... إلخ). الْمَال وَسِيلَة لِسَد حَاجَات المُعْوِزِين، لاَ للتَّبذِير والإسْرَاف، والتَّضاهِي والتَّباهِي، ومَا زَاد عَن حَاجَة الْمُحْتَاجِين يُنفق فِي مَشرُوعٍ عَام، أو يُدخَر للشَّدَائِد كالحَرْب، ورَدع الْعُدْوَان.

(أَ تَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَ أَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ !... إلخ). لكلٍّ جَزَاؤه الخَاص، فَالحُسنىٰ لِمَن أَحسَن، والسُّوأىٰ لِمَن أَسَاء، والعَكس بِالعَكس، وَالمُسَاوَاة هُنا مُحَال في الْعَدْل الإلهي... والْمُتَكَبِّر يُغرِيه الْمَال وَيُطغِيه، وَيُبَذره عَلىٰ مَلذَاته وشَهوَاته، ويَمنَعه عَن المَحرُومِين الَّذِين لاَ عَمّ لَهُم ولاَ خَال. وَجَزَاء هَذَا مِن عِند الله عَذَاب الحَرِيق. والمُتَوَاضع نَفْسَه مُقصراً ومُضِيعاً فِي طَاعة الله، وإنْ أَقْبَلت الدُّنْيا عَلَيْهِ بَذلَها فِي سَبِيل الله، وازدَاد لهُ شُكراً، ومِنْهُ خَوْفاً، ولِعبَادَة توَاضعاً. وَلَهُ عِند الله مَثُوبة وحُسن الْمَآب. وهَذَا مَا أَرَاده الْإِمَام بِقَوْله: (الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ).

الرسالة ٢٢

حَوْلَ السُّرُور وَالأَسَف:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَ يَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَ لْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَ مَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَ مَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلاَ تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَ لْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

اللُّغَة:

الدَّرْكُ ـ بِفَتح الرَّاء ـ اللِّحَاق. ولاَ تَأْسَ: لاَ تَحْزَن.

الإِعْرَاب:

أَمَّا ـ بِفَتح الهَمزَة وَتَشدِيد المِيم ـ قِيل: هِي حَرف شَرط بِمَعْنَىٰ مَهمَا يَكُن مِن شَيء، وفِي مَنظُومة آبن مَالك[1]:

أَمّا كَمَهمَا يَكُ مِن شَيء وفَا   لِتلو تِلوهَا وجُوباً أُلِفَا

(١) أنظر، شَرح أبن عَقِيل لِابْن عَقِيل الهَمَذانيّ: ٢/ ٣٩٠.

وَقَالَ آبن هُشام فِي المُغني: تَأتي أيضاً للتَّفصِيل والتَّوكِيد. ويَجُوز أنْ تَكُون «أمَّا» للشَّرط ويَكُون الْمَعْنَىٰ هَكذا مَهمَا يَكُن مِن شَيء فَإنَّ الْمَرْءَ... إلخ. ويَجُوز أنْ تَكُون للتَّوكِيد، أُؤكد بَعد حَمد الله إنَّ الْمَرْءَ... إلخ. والوَجه الأوَّل أرْجَح لِكَسر هَمزة «إنَّ». فَرَحاً تَمْيِيز. وجَزَعاً مَفعُول مُطلق لِتَأْسَ.

الْمَعْنَىٰ:

أَرْسَل الْإِمَام كتَاباً لِابْن عبَّاس جَاء فِيهِ: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ... إلخ).
ونَقَل الشَّرِيف الرَّضِي عَن آبن عَبَّاس أنّه قَالَ: «مَا آنْتَفَعتُ بِكلامٍ بَعد كَلاَم رَسُول الله ﷺ كانْتفَاعِي بِهَذا الكلاَم»[1]. وَيَتلَخَص بِأنّه مِن العَبَث أنْ تَفرَح بِما هُو آتٍ لا مَحَالَةَ، وأنْ تَحزَن عَلىٰ مَا فَات، لأنَّ الفَائِت لاَ يَرجع بِـالْحُزْن، والآتِي لاَ يُستَدَام بِالفَرح، والَّذي يَنفعك بِالآخِرَةِ، ويَبقىٰ بِبقاء الله هُـو الأثَـر الطَّـيِّب الَّـذي تَـتركَه لأخِيك الإِنْسَان[2].

وإذَنْ (فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ). وهُو الَّذي أَشرنَا إِلَيْهِ مِن الْـعَمَل لِخِدْمَة ٱلْحَيَاة، والإِخْلاَص لله وعِبَاده وعِيَاله (وَ مَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ) كمَنصب وعِقَار وعِمَار (فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً) لأنَّه يَعُود عَلَيْكَ بِالشَّر والوَبَال، وبِالأخَص إذَا كَان مِن حرَامٍ. وَتَقَدَّم مِثله فِي ٱلْخُطْبَة (١١٤) وغِيرها، ويَأتي أيضاً.

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِمُحمَّد عَبْدَه: ٣/٢٠، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٥/١٤٠.

(٢) مِثل هَذَا الكلاَم نُقل عَن الإِمَام جَعْفَر بن مُحَمَّد الصَّادِق عليه السلام: يَا آبن آدَم مَالك تَأسىٰ عَلىٰ مَفْقُود لا يُردهُ عَليك الفَوت، أو تَفرح بِمَوجُود لاَ يَتركَهُ فِي يَدِيك المَوت. وقِيل لِبُزُرْجمهر، أيّها الحَكِيم! مَالك... فقَال: لأنّ الفَائِت لاَ يتَلاَفىٰ بِالعِبرة، والآتِي لا يُستدَام بِالحِبرة. أُنظر، تَفسِير القُرطُبي: ١٧/٢٥٨.

الرسالة

-٢٣-

وَصِيَّة الإِمَام بابن مُلْجَم:

وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَلاَّ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَ أَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَ خَلاَكُمْ ذَمٌّ!

أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَ الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَ غَداً مُفَارِقُكُمْ. إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَ إِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَ إِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَ هُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1].

وَ اللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَ لاَ طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ، وَ مَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَ طَالِبٍ وَجَدَ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[2].

اللُّغَة:

القَارِب: طَالِب المَاء لَيلاً، والسَّفِينَة الصَّغِيرَة.

---

(١) النُّور: ٢٢.

(٢) آلِ عِمْرَان: ١٩٨.

الإِعْرَاب:

المَصْدَر مِن أَلاَّ تُشْرِكُوا خَبَر وَصِيَّتِي لَكُمْ التَّوحِيد، وَمُحَمَّدٌ مُبْتَدَأ، وجُملة لاَ تُضَيِّعُوا خَبَر، وعِبْرَةٌ، خَبَر لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي وأنَا اليَوْمَ عِبْرَةٌ، وَكَذا مُفَارِقُكُمْ.

المَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: أَورَد الإِمَام هَذَا عَلَىٰ سَبِيل الوَصِيَّة لمَّا ضَربَه ٱبن مُلْجَم، وَقَد مضىٰ بَعضَه. يُشِير الرَّضِي إِلىٰ مَا جَاء فِي ٱلخُطْبَة (١٤٩)، ويَأتِي الحَدِيث مُفصلاً عَن ٱستِشْهَاد الإِمَام عليه السلام في ٱلرِّسَالَة (٤٦) (وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَلاَّ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً). وَكَلِمَة شَيء هُنا تُفِيد العمُوم والشّمُول، لِأَنَّهَا نَكرَة فِي سِياق النَّفي. والمَعْنَىٰ لِتَكُن جَمِيع أَقوَالكُم وأَفْعَالكُم خَالِصة لوَجه الله، ولاَ تخَافوا أو تَرجُوا أَحداً إِلّا الله، ولا تَستَمسكُوا إلّا بِحَبله وَحده لاَ شَرِيك لهُ.

(وَ مُحَمَّدٌ ـ صلى الله عليه وآله ـ فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ... إلخ). وَسُنَّتهُ مُحَمَّدٌ ـ صلى الله عليه وآله ـ عَمَل وجِهَاد، لا تَصوّف ورُهبَانِية، وأُخوة وتَعَاون، لاَ طوَائِف ومذَاهب، وحُرِّيَّة وكرَامَة، لا عبُودِية وٱستسلاَم.

(وَ خَلاَكُمْ ذَمٌّ!) لاَ بَأس عَلَيْكُمْ ولاَ لَوْم إذاَ قمْتُم بوَاجب التَّوحِيد وسُنَّة الرَّسُول.

وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: «يَرُد الإِمَام بهَذا عَلىٰ الَّذِين كَلفُوا أَنْفسهُم أُمُوراً مِن النَّوَافل شَاقَة جِداً... وهُم يَتْلُون قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَايُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١]. وقَول الرَّسُول الكَرِيم: «بُعَثْتُ بِالحَنَفِيَّة السَّهلة السَّمحَة»[٢]. وَنَعطف

(١) ٱلبَقَرَة: ١٨٥.

(٢) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ١٩/٢٠، تأويل مُختلف الحَدِيث: ١١٧/١، نيل الأوطار: ٣١/١، صَحِيح ↔

عَلَىٰ ذَلِكَ هَذِهِ الرِّوَايَة: «دَخَل رَسُول الله يَوْمَاً إِلَىٰ المَسجِدِ فَرَأَىٰ رَجُلاً يَتَعَبد الْأَوْقَات كلّها! فقَال لهُ: مَن يَسعىٰ عَلَيْكَ؟ قَالَ: أَخِي. فقَال لهُ النَّبيّ ﷺ: أَخُوك أَعْبَد مِنْك»[1].

(أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ) أُدَافع عَنْكُم، وأُدَبر أُمُوركُم، وأُهدِيكُم سَبِيل الرَّشَاد (وَ الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ) مُلقىً عَلىٰ فِرَاش الْمَوْت لاَ أَملُك لِنَفسِي نَفعَاً ولاَ ضُراً (وَ غَداً مُفَارِقُكُمْ) بِلا رَجْعَة إِلىٰ دَار الفَنَاء. وَتَقَدَّم هَذَا والمَعطُوف عَلَيْهِ بِالحَرف الوَاحد فِي ٱلْخُطْبَة (١٤٩) (إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي .... إلخ). إِنْ سَلمت مِن هَذِهِ الضَّرْبَة رَأيتُ رَأيِي فِي صَاحِبهَا: أمّا عفوَاً وأمّا قِصَاصَاً، وإلّا فِالْمَوْت غَايَة الأَحيَاء إلّا وَجهه الكَرِيم.

الْإِمَام يُوْصِي بِقَاتِلِهِ:

(وَ هُوَ ـ أي الْعَفُو ـ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَٱعْفُوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

⇐ البُخَاريّ: ١/١٦، الأدَب المفرد: ١٠٩، ح ٢٨٨، عون المعبُود: ١٨٤/١٠، تُحفَة الأَحْوَذي: ١٥٣/٥، مُقدمة فَتح البَاري: ١٣٤/١، سُبل السّلام: ١١١/٣.

(١) يُنسَب هَذَا الْقَوْل إِلىٰ السَّيِّد الْمَسِيح ﷺ كمَا جَاء فِي تَنبِيه الخَوَاطِر: ٦٥/١، وتَأريخ دمشق: ٤٦٨/٤٧. وَعَن أَنس بن مَالِك قَالَ: دَخَل رَسُول الله ﷺ المَسجِد فإذَا حَبلٌ مَمدُود بَيْنَ سَارِيتين فقَال: «مَا هَذَا الحَبل؟» قَالُوا: هَذَا حَبل لزينَب، فإذَا فَتَرت تَعلقت بِهِ. فقَال ﷺ: «حِلّوه، لِيصل أحدكُم نشَاطه، فإذَا فَتَر فَليَقعُد». أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٦٧/٢، كتَاب التَهجد، صَحِيح مُسْلِم: ٥٤١/١، كتَاب صلاَة المُسَافِرين. وورَد عَن ابن عبّاس قَالَ: بينَا كَان النّبيّ ﷺ يَخطُب، إذَا هُو بِرجُل قَائِم. فَسأل عنْه. فقَالُوا: أبُو إسرَائِيل ـ لَم أعثر عَلىٰ تَرجمته. لكنْ رَاجع الإِصَابَة: ١٦٠/٨ و: ١٢/١١ قِيل: اسْمه يَسِير، وقِيل: قُشَير، وقِيل: هُو قُرشي، وقِيل: أَنْصَارِي، نَذر أنْ يَقُوم فِي الشَمس، ولا يَقعُد، ولاَ يَستَظِل، ولاَ يَتَكلّم، ويَصُوم، فقَال ﷺ: «مروه فَليتَكلّم، وليستَظل، وليَقعُد، وليتمّ صومَه». أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٧٨/٨، كتَاب الأَيمَان والنّذور، سُنن أَبِي داود: ح رَقم «٣٣٠٠».

عَليّ يَأمر بِالعَفُو عَن قَاتِله، وفِي رِوَايَـة أنّـه قَـالَ: «أَطِـيبُوا طـعَامه، وأَلِـينُوا فِرَاشه»(١). فهَل هَذِه أرْيَحِية وجُود، أو رَحمَة ورأفة؟ كَلا، أَنَّهَا رَغـبَة فِي الجَـزَاء الأَكبَر، والثَّوَاب الأوفَر، العَفُو أَقْرَب لِلتَّقْوَىٰ، والتَّقْوَىٰ مَثل الإِمَام الأعلَىٰ، ولذَا قَالَ، وهُو فَرح بِٱستِشْهَاده بَيْنَ يَدي الله: «فُزتُ وربّ ٱلْكَعْبَة»(٢). ومِن قَبل عَاتب الإِمَام وطَالب رَسُول الله ﷺ بوَعده لهُ يَوْم أُحُد بِالشَّهادَة، كَمَا فِي ٱلخُطْبَة (١٥٦)، ومِن أَقْوَاله: «إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَىٰ الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ»(٣)! وإِذَنْ فَلا بِدع أَنْ يَعفُو الإِمَام عَن قَاتِله، وإِنْ بَدا هَذَا العَفُو كأنَّه عَطاء ورَحمَة.

(وَ اللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَ لاَ طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ... إلخ). كَان الإِمَام يَتطلع إِلَىٰ الشَّهادَة شُوقاً، ويَعلَم أَنَّهَا آتِيَة لاَ رَيب فِيها، لأنّ الصَّادق الأَمِـين ﷺ

(١) أُنظر، الطَّبَقات الكُـبْرَىٰ: ٣/٣٧، تَأريخ دِمشـق: ٤٢/٥٥٩، أُسـد الغَـابَة: ٤/٣٧، الإِمَـامَة والسِّيَاسَة: ١/١٨١، تَحقِيق الشِّيري.

(٢) أُنظر، تَأريخ الطَّـبَري: ٥/١٤٣، مـقاتل الطَّـالبيين: ٢٩ و٤٧، طَـبقَات ٱبْـن سـعد: ٣/٣٥، أَنْسَـاب الأَشْرَاف: ٢/٤٨٩ و٤٩٩ و٥٢٤، مروج الذَّهب: ٢/٤١١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/١٥٩، الكَـامِل فِي التَّأرِيخ: ٣/٣٨٩، مناقب الخوارزمي: ٣٨٠ ـ ٤١٠، مناقب ٱبـن شهـرآشـوب: ٣/٣١١، تَأريخ ٱبـن عساكر: ٣/٣٦٧ ح ١٤٢٤ وأضاف قول الإِمَام عليّ ﷺ عند ما ضَرَبَه بٱبن مُلْجَم «فُزتُ وربّ ٱلْكَعْبَة»، وذكر ذَٰلِكَ البلاذري فِي الأنساب: ١/٤٨٨ و٤٩٠، تَأريخ دمشق: ٣٨/٩٧، و: ٣/٣٠٣ ح ١٤٠٢ وما بعدها، كنز العُمَّال: ١٣/٦٩٧، ٱلفَتح الرَّبَاني: ٢٣/١٦٣، والحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ٣/١٤٤، ذَخَائِر العُقبَىٰ: ١١٠ فَضَائِل عليّ ﷺ، الصَّوَاعِق المُحرِقَة: ١٣٣ بَاب ٩ فصل ٥ مع تقديم وتأخير بِمَا يـناسب السِّيَاق، ويحفظ ٱسترسال المَعْنَىٰ واللفظ. الـفُتُوح لِٱبـن أعـثَم: ٢/٢٧٦، الاِسـتِيعَاب: ٣/٥٩ بـإضافة «... لا يفوتنكم الكلب»، أُسد الغَابَة: ٤/٣٨، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٦٤، أرجح المطالب: ٦٥١.

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كلامٍ لهُ ﷺ قَاله لأَصْحَابه فِي سَاحة الحَرْب بصِفِّين رَقم (١٢٣).

وَعَدهُ بِها، ومَا لوَعده مَترك، وكَان يَنتظرهَا بفَارغ الصَّبْر، ويَقول: «مَا يَـنْتَظر أنْ يَخضّب هَذهِ مِن دَم هَذَا، كَمَا فِي «الاِسْتِيعَاب» لِابْن عَبد البَر، بَاب «عَلي». وَقَـالَ أَكْثَر مِن مرَّة: والله لِيخضَبنها مِن فوقِها[1]. وبهَذا نَجد تَفْسِير قَوْله: «مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ... إلخ». ثُمَّ أَوْمَأَ إلىٰ السَّبب المُوجب لِحُبّه المَوْت بقَوْله تَـعَالىٰ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[2]. وعَليّ صَفوَة الأَبْرَار وإمَام الأَخْيَار. ولنَا عَودَة إلىٰ حَديث شهَادته فِي ٱلرِّسَالَة (٤٦).

---

(١) أُنـظر، الاِسْتِيعَاب: ٣/١١٢٦، فَـضَائِل الـصَّحَابَة لأحْمَد بـن حَـنبل: ١/٥٤٢ ح ٩٠٨ و: ٤/٢٦٣، الغَارات: ٢/٤٤٤، مطالب السُّؤول: ١٣٥ طَبعَة النَّجف، أُسد الغَابَة: ٤/٣٥، التَّذكرة لِابْن الجوزي: ١٨٢، كَشف الغُمة: ١/٢٧٩، الرِّياض النَّضرة: ٢/٢٤٨، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ١/٤٤٢ ح ٥٨٨، أمَالي المَحَاملي: ٢١٥، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/١٣٦، الآحَاد والمَثاني: ١/١٤٨ ح ١٧٦، السُّنَّة لِابْن عَاصم: ٢/٤٤٧ ح ٩١٨، السُّنَّة لعبدالله بن أحمد: ٢/٦٣٠ ح ١٥٠٠، فيض القَدِير: ١/١٥١، الإكمَال للحُسيني: ١/٥٤٣ ح ١١٥١، البَداية والنّهاية: ٦/٢١٨، و: ٧/٣٥٨، والحَـاكِم فِي المُـسْتَدرك وصَـحيحه: ٣/١١٣ و١٤٣، ٱلـفَتح الرَّبّاني: ٢٣/١٦٣، وكَنز العُمَّال: ١١/٢٩٧، وذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١١٥، والصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢١ ب ٩ فصل ٢. وفِي المَناقب لِابْن شهر آشوب: ٣/١١١، والمناقب لِابْن المغازلي: ٨ ح٥ و: ٨٠ ح ٤٠٠، يَـنَابِيع المَوَدَّة: ٢/٣٩٦ طَبْعَة أُسوة، تَأريخ دِمشق: ٣/٢٧٨ ح ١٣٦٤ و١٣٦٥ و: ٤٢/٥٤١، فرَائد السِّمطِين: ١/٣٩٠/٣٢٧ ابن كثِير فِي تَأريخه: ٣/٢٤٧، الطَّبري فِي تَأريخه: ٢/٢٦١، السِّيرَة لِابْن هُشَام: ٢/٢٣٦، عُمدة القَاري للعِيني: ٧/٦٣٠، طَبقَات ابن سعد: ٥٠٩، عُيُون الأثر لِابْن سيّد النّاس: ١/٢٢٦، الإمْتَاع للمَقْريزي: ٥٥، السِّيرَة الحَلبِية: ٢/١٤٢، تَأريخ الخَميس: ٢/٣٦٤، شَرح نَهْج ٱلبَلاغَة لِابْن أبِي الحَدِيد: ٧/٥٧.

(٢) آلِ عِمْرَان: ١٩٨.

الرسالة

- ٢٤ -

وَصِيَّة الْإِمَام فِي أَموَالِه:

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَ يُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ .

فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَ يُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَ حُسَيْنٌ حَيٌّ ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ ، وَ أَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ .

وَ إِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ ، وَ إِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَىٰ ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَ قُرْبَةً إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَ تَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ ، وَ تَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ .

وَ يَشْتَرِطُ عَلَىٰ الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَىٰ أُصُولِهِ ، وَ يُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَ هُدِيَ لَهُ ، وَ أَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقُرَىٰ وَدِيَّةً حَتَّىٰ تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً .

وَ مَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ - لَهَا وَلَدٌ ، أَوْ هِيَ حَامِلٌ ، فَتُمْسَكُ عَلَىٰ وَلَدِهَا وَ هِيَ مِنْ حَظِّهِ ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَ هِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا

الرِّقُّ، وَ حَرَّرَهَا الْعِتْقُ.

اللُّغَة:

يُولِجَهُ: يُدخِلَهُ. الأَمَنَةَ: الأَمْن. والمُرَاد هُنا المَوْت، وبِالوُصْلَةِ القَرَابَة. وَالوَدِيَّة: النَّخلَة الصَّغِيرَة تَنبُت عَلىٰ جَذر النَّخلَة الكَبِيرَة. وتُشْكِلَ: تَمْتَلِىء. ومِنْ حَظِّهِ: مِن نَصِيبِه.

الإِعْرَاب:

ٱبْتِغَاءَ مَفْعُول مِن أَجْله، وغِرَاساً تَمْيِيز.

شِعَار عَليّ سَيْفٌ وَمِعْوَلٌ:

كَان الصَّحَابَة فِي عَهد رَسُول الله ﷺ يُمَارِسُون ٱلحَيَاة ويُكَافحُون كسَائِر النَّاس فكَان مِنْهُم التَّاجِر، والفَلاح، والعَامِل، والرَّاعِيَ، والحطَّاب، وَصَاحِب الصَّنعَة، ومَا كَانُوا يَعتَمدُون عَلىٰ الفَيْء وَكفىٰ. وكَان الإِمَام قَبل الخِلاَفَة، وَبعدَها يُحيِي الأَرْض المَوَات بِكَد اليَمِين، وَعرَق الجَبِين، وَيَستَعمرهَا بِالحرَث، والزَّرع، والغَرس، والسَّقِي بِيدَه الشَّرِيفَة.

قَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد فِي شَرح هَذَا الوَصِيَّة: «قَد عَلِم كلّ أَحد أنَّ عَلِيّاً ﷺ ٱسْتَخرج عيُوناً بِكَدّ يَده فِي المَدِينَة يَنْبُع وسُوِيْعَة[1]، وأَحيَاً بِهَا مَوَاتاً كَثِيراً، ثُمَّ

(١) يَنْبُع: حِصن لهُ نَخِيل، وعُيون، وزرُوع بطَرِيق حَاج مِصْر، وفِي قَامُوس الرَّازِي فِي كتَاب الشَّجَرَة يَنْبُع: قَرية فِي غَربِي المَدِينَة بَيْنَهُمَا خَمسُون فرسَخاً. أُنظر، مَرَاصد الإِطِّلاع: ٣/١٤٨٥، مُسْنَد زَيد بن عَليّ: ٣٧٨،

أَخرجَها عَن مِلكه، وتَصَدق بِها عَلىٰ الْمُسْلِمِين، ولَم يَمُت وشَيء مِنْهَا فِي مِلكه»[1].

وفِي كتَاب «الاِسْتِيعَاب» لِابْن عبَد البر: «قُتل عَليّ عليه السلام، عَلىٰ غَيْر مَالٍ آحْتَجَبه، ولاَ دُنيَا أَصَابِهَا»[2].

لَقَد عَمَل عَليّ فِي الأَرْض مَن أَجْل الجَائِعِين تَمَاماً كَمَا جَاهد بِالسَّيْف فِي سَبِيل الله والدِّين. وإذَا كَان شعَار الأَشْتَراكِيين المَطْرَقة والمِنجَل فَإِنّ شَعار عَلِيٍّ السَّيْف والمِعْوَل، هَذَا لِلمعُوزِين، وذَاكَ للمُتعدِين عَلىٰ أَقوَات الْعِبَاد، وأرزَاقهُم، وكلاهُمَا بِمَنزِلة سوَاء عِند الله، وفي مَنطق الْحَيَاة وتَقدمها... وغَرِيبَة الغَرائِب أَنَّ شِيعَة عَليّ يُكثِرُون الكَلاَم والتَّأْلِيف فِي فضَائِله ومنَاقبه، ويَجهلون أَو يَتجَاهلُون عَمْلَه ونضَاله فِي الْأَرْض مِن أَجْل الاِنْتَاج ومنَافع النَّاس، ويُركزُون هِمهم وآهتمامهم عَلىٰ النّصوص والأقوَال... ولاَ سرّ ـ فِيمَا نَعتَقد ـ إلّا لأَنَّهم أو الْكَثِير مِنْهُم يَسْتَهلكُون ولاَ يُنْتجُون، وفِي الوَقت نَفْسَه يَتطَلعُون بِشُوق إِلىٰ المَدِيح والثَّناء مُكَافأة عَلىٰ الكَسَل والاِسْترخَاء.

(هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ... إلخ). جَعَل الْإِمَام فِي وَصِيَّته الْوِلَايَة عَلىٰ صَدقَاته الّتي أَنْشَأها بِيَده ـ لِلْإِمَام الْحَسَن، ومِن بَعده لِلْإِمَام الحُسَيْن، وآشترَط عَلىٰ الوَلي شَرطِين:

⇐ كتَاب الأُم للشَّافعي: ٥٥/٤، المجموع: ٣٢٤/١٥، المُغني لِابْن قُدَامة: ١٨٦/٦، جواهر العُقود: ٢٥٠/١، الغَارات: ٧٠١/٢، وفَاء الوَفاء: ١٣٣٤/٤، كنز العُمَّال: ١٧٨/٢٢، شَرح الأَخبَار: ٤٥٣/٢، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٦١/٦، تَأرِيخ دِمشق: ٥٤٨/٤٢، المُصَنَّف لعبدالرَّزاق الصَّنعاني: ٣٧٥/١٠.

(١) أُنظر، شَرح نَهج اَلْبلاَغة: ١٤٦/١٥.

(٢) أُنظر، الاِسْتِيعَاب: ١١٢٦/٣.

الْأَوَّل: أنْ (يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ) أي بِمقدَار الحَـاجَة والضَّرُورة كَأي إنْسَـان يَتَوَلَّىٰ الصَّدقَات أو أَمْوَال الأَيتَام... هَذَا إذَا كَان فِي حَاجَة مَـاسة، قَـالَ تَـعَالىٰ: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

وفِي الحَدِيث: «إنَّ رَجُلاً سَأل النَّبيّ ﷺ عَن يَتِيمٍ فِي حِجْرِه: هَل يَأْكُل مِن مَاله؟ قَالَ لهُ: كُلْ بِالْمَعْرُوفِ.

الشَّرط الثَّانِي: أنْ (يُنْفِقَ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ) أي عَلىٰ ذَوِي الحَاجَات بِما يَسدهَا مِن غَيْر تَجاوز.

(وَ إِنَّ لِإبْنَيْ فَاطِمَة مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ... إلخ). يَحـق لأَوْلاَد الإِمَام أنْ يَأكلُوا بِالْمَعْرُوفِ مِن ثِمَار مَا تَصدق وأوقَف، سوَاء أكَانُوا مِن سَيِّدة ٱلنِّسَاء أَم مِن غَيْرِها. وكَانُوا عَلىٰ رِوَايَة الشَّيخ المُفِيد (٢٧) ذُكرَاناً وإِنَاثاً: أَرْبَعَة مِن سَيِّدة ٱلنِّسَاء، والبَاقُون مِن أُمّهات شَتىٰ[2] (وَ يَشْتَرِطُ عَلَىٰ الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ

---

(١) ٱلنِّسَاء: ٦.

(٢) فَمِن فَاطِمَة عليها السلام: الحَسَن، والحُسَيْن، ومُحسِن دَرج صغيْراً لرفسةٍ، وقِيل، لِرَدّ بَـابٍ عَـلىٰ صـدرِها، وذَلِكَ مَشهُور، وبَعضُ النَّاس يُنكِرُ وقوعهُ. أنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ١١٨، الهِدَايَة الكُبْرَىٰ: ٤٠٧، بِحَار الأَنْوَار: ٦٣/ ١٩، دَلاَئِل الإِمَامَة: ١٣٤، مَناقب ابن شهرآشوب: ٣/ ٣٥٨. بإضَافة: ويُذكر أنّه كَان لهَا مِنْه ابن آخر يُسمىٰ مُحسناً، توفي صَغيراً.

وفِي أَنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٨٩ قَالَ:... ومُحسن دَرَج صَغِيراً. وفِي المَعَارف: ٢١٠ قَالَ: ومُحسِّناً، وفِي الإِرْشَاد: ١ / ٣٥٤ لَم يَذكر مُحسِّناً، ولكن صَاحب مَناقب آل أبي طَـالب: ٢ / ٧٧، وصَـاحب البـحار:

↔ ٩١/٤٢ رقم ٢٠ يَذكران قَول الشّيخ المُفيد بِلفظ... فَولد مِن فَاطِمَة الحَسَن، والحُسَيْن، والمحسن سقط...

والمصادر الّتي ذكرت «مُحسناً» كَثِيرة مِنْهَا: مِيزان الإِعْتِدَال: ١٣٩/١، تَأريخ الطَّبَرِيّ كما ذكرنا سابقاً، و: ١٥٣/٥ طَبعة أُخرىٰ، الكَامِل في التَّأريخ: ٣٩٧/٣، الإِصَابَة: ٤٧١/٣، لِسَان المِيزان: ٢٦٨/١، القَاموس المُحيط: ٥٥/٢، تَأريخ اليَعقوبي: ٢١٣/٢، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣٥٨/٣، الخِصَال: ٦٣٤، الكَافِي: ١٨/٦ ح ٢، لكن الشّيخ المُفيد في الإِرْشَاد: ٤٥٥/١ يقول: وفي الشّيعة مَن يَذكر أنّ فَاطِمَة عليها السلام أسقطت بَعد النّبيّ صلى الله عليه وآله ولداً ذَكراً كَانَ سمّاه رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وهُو حَمل مُحسناً، فعَلىٰ قَول هَـٰذِه الطّائفه أوْلاَد أَمِير المُؤْمِنِين عليه السلام ثمَانِية وعشرُون، والله أعلم.

وَقَالَ الحَافظ ٱبن الجوزي في تَذكرة الخواصّ: ٥٧ طَبعة بيرُوت لبنان: ٱتفق عُلَمَاء السِّيَر عَلىٰ أنّه كَان لهُ عليه السلام من الْوَلَد ثَلاثة وثَلاثون. مِنْهُم أَرْبَعَة عَشر ذَكراً، وتِسع عَشرة أُنثىٰ... ثُمّ قَالَ: وذكر الزّبير بن بكّار ولداً آخر من فَاطِمَة بِنت رَسُول الله ٱسمه مُحسن مَات طفلاً... وَقَالَ صَاحب الكَامِل في التَّأريخ: ٤٤١/٢ وقَد ذُكر أنّه كَان لهُ عليه السلام من فَاطِمَة ٱبن آخر يُقَال لهُ مُحسن، وأنّه توفّي صَغيراً، وزينَب الصُّغرىٰ تزوّجها عَبد الله بن جَعْفَر بن أبي طَالب.

أُنظر، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١٨٩/٢ بإضَافة: وزينب الْكُبْرَىٰ تزوّجها عبدالله بن جَعْفَر بن أبي طَـالب فولدت له... وأُنظر، الإِرْشَاد: ٣٥٤/١، الكَافِي: ١٨/٦، الخِصَال: ٦٣٤، تَأريخ اليَعقوبي: ٢١٣/٢، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣٥٨/٣، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ١٥٣/٥، و: ١١٨/٤ طَبعة أُخرىٰ، الكَـامِل في التَّأريخ: ٣٩٧/٣، و: ٢٧٢/٤، الإِصَابَة: ٤٧١/٣، لِسَان المِيزان: ٢٦٨/١، مِيزان الإِعْتِدَال: ١٣٩/١، مُقاتل الطّالِبيين: ٢٥ و ٨٦، بِحَار الأَنْوَار: ٧٤/٤٢.

وأُمّ كُلثُوم الْكُبْرَىٰ تزوّجها عُمَرَ ٱبن الخَطَّاب، وأَصدقها أَرْبَعِين أَلفاً، وقِيل مِئة ألف فهَؤُلَاء الخَمْسَة مِنْهَا. أُنظر، المصادر السَّابقة، وكَذَٰلك الإِرْشَاد: ٣٥٤/١ ولكن بِلفظ: زينب الصّغرىٰ المُكنَاة أُمّ كُلثُوم، وفي أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١٨٩/٢ أَضَاف: تزوّجها عُمَرَ بن الخَطَّاب... وتَحت رَقم (٢٣٥) يورد عن هُشَام الكلبي عن أَبِيه عن جَدّه قَالَ: خَطب عُمَرَ بن الخَطَّاب من عَليّ أُمّ كُلثُوم فقَالَ: إنّها صَغيرة... وسَاق الحَدِيث، وكَذَٰلِك تحت رقم (٢٣٦) عَن عُثْمَانَ بن مُحَمَّد بن عَليّ قَالَ: خَرج عُمَرَ إلىٰ النّاس فقَال زفّوني... وسَاق الحَدِيث، وكَذَٰلك تَحت رقم (٢٣٧) عن عِكْرِمَة عن ٱبن عَبَّاس... وَقَالَ ٱبن الكَلبي: ولدت أُمّ كُلثُوم ↔

↔ بِنت عَليّ لعُمَر، زِيد، ورُقِية فَمات زِيد وأُمّه فِي يَوْم وَاحد.

ونَحْنُ لسنَا بِصدد تحقيق حقِّيقة الزّواج، وعَدمه؛ ولكن نُشير إِلىٰ أنّ الحَدِيث مُنقطع السّند، وغَيْر نَاهض للحُجّية. والطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٤/ ١١٨ لَم يَذكر ذَلِكَ، ونَكتفي بِنقل كلاَم الشّيخ المُفِيد فِي جواب المسَائِل السّروية: ٦١ ـ ٦٣ حَيْث قَالَ ﷺ: إِنّ الخَبَر الوَارد بِتزوِيج أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام اْبنته من عُمَرَ غَيْر ثَابت، وطَرِيقه مِن الزّبير بن بكّار، ولَم يَكُن مَوثُوقاً بِهِ فِي النّقل، وكَان مُتّهماً فِيمَا يَذكره، وكَان يَبغض أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام، وغَيْر مَأمون فِيمَا يَدّعِيه عَلىٰ بَني هَاشم... والحَدِيث بِنفسه مُختلف، فَتارةً يروىٰ أنّ أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام تَولّىٰ العَقد لهُ عَلىٰ اْبنته، وتَارةً يروىٰ أنّ الْعَبّاس تَولّىٰ ذَلِكَ عَنْه، وتَارةً يروىٰ أنّه لَم يَقع العَقد إِلاّ بَعد وعِيد مِن عُمَرَ، وتَهدِيد لِبَني هَاشم، وتَارةً يروىٰ أنّه كَانَ عن إِخْتِيار، وإِيثَار، ثُمّ إِنّ بَعْض الرّواة يَذكر أنّ عُمَرَ أولدها وَلداً سمّاه زَيداً، وبَعضُهم يقول: إِنّه قُتل قَبل دخوله بِها، وبَعضهُم يقول: إِنّ لزيد بن عُمَر عَقباً، ومِنْهُم من يقول: إِنّه قُتل ولا عَقب له، ومِنْهُم من يقول: إِنّه وأُمّه قُتلا، ومِنْهُم من يقول: إِنّ أُمّه بَقيت بَعده، ومِنْهُم من يقول: إِنّ عُمَرَ أمهر أُمّ كُلثُوم أَرْبَعِين ألف دِرهم، ومِنْهُم من يقول: أمهرَها أَرْبَعَة آلاف دِرهم، ومِنْهُم من يقول: كَان مهرهَا خَمسمئة دِرهم، ويَبدو هَذَا الإِخْتِلاَف فيه يُبطل الحَدِيث، فَلا يكُون لهُ تأثِيرٌ عَلىٰ حَال، انتهىٰ. وسَبق وأنْ أوضحنا بِأنّ أُمّ كُلثُوم هِي بِنت الخَلِيفَة الأَوّل أبِي بَكر وَهِي الّتي تزوّجها عُمَرَ بن الخَطّاب، ولكنْ الأَقْلاَم المَأجُورة، والضّغائن والأَحْقَاد هِي الّتي أثبتت أنّها بِنت الإِمَام عَليّ عليه السلام لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إِلاّ بِاللهِ العَليّ العَظِيم.

وَوُلِدَ لهُ من خَولة الْحَنَفِيَّة مُحَمّد الأَكْبَر المَعْرُوف، سبق وأنْ تَرجمنا لهُ ﷺ ولأُمّه بالإِضَافة إِلىٰ المصادر السّابقة، كالإِرْشَاد: ١/ ٣٥٤، وأُنظر، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٢/ ٢٠٠ قَالَ: وَوُلد لِعليّ بن أبِي طالب مُحَمّد، وأُمّه خولة بنت جَعْفَر بن قيس بن مَسْلَمَة بن عُبَيْد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة من الدّوَل بن حَنِيفَة وبِالجيم. لكن فِي المعارف: ٢١٠ قَالَ: أُمّه خوله بنت إِياس بن جَعْفَر. وتَأرِيخ دمشق: ٥١/ ٦٦ ح ١٠ نقلاً عن الزّبير بن بكّار وفي ح ١٣ مِنهُ نقلاً عن اْبن سعد. وأضاف صاحب الأنساب: بعث رسول الله ﷺ عَلِيّاً عليه السلام إِلىٰ اليَمن فأصاب خولة فِي بنِي زُبيد، وقد ارتدّوا مع عَمْرُو بن معدي كرب، وصارت فِي سهمه، وذَلِكَ فِي عهد رَسُول الله ﷺ فَقَالَ لهُ رَسُول الله ﷺ: إِنْ ولدت مِنك غُلاماً فَسمّه بِاْسمي وكَنّه بِكُنيتي، فولدت لهُ بعد موت فَاطِمَة عليها السلام غُلاماً فسمّاه مُحَمّداً، وكنّاه أبا القَاسم. وأُنظر، الأَنسَاب: ٢/ ٢٠١ حِيث قَالَ: أغَارت بنو أسد بن خُزَيْمَة علىٰ بنِي حَنِيفَة فسبّوا خوله بنت جَعْفَر ثُمّ قَدموا بِها المَدِينَة فِي أَوّل خِلاَفة ↔

⇐ أبي بَكْر فباعُوها من عَليّ، وبَلغ الخَبَر قومها فقدموا المَدِينَة عَلىٰ عَليّ فعرفُوها، وأخبرُوه بمَوْضِعها مِنْهُم فأعتقها، وأمهرَها، وتزوّجها فولدت له مُحَمّداً ٱبْنِهِ، وقد كَان قَالَ لرَسُول الله ﷺ: أتأذن لِي إنْ وَلد لِي بأنْ أسمّيه بأسمك، وأكنّيه بِكُنيتك؟ فَقَالَ: نَعم... قَالَ البلاذري: وَهَذَا أثبت من خَبَر المَدائني السّابق الذّكر، ولسنا بصدد كلّ حيَاته، وكِيفِية إتخاذ الكِيسَانية لهُ إمَاماً لَهُم، وسبق أنْ عَالجنا مَوْضُوع الكِيسانِية في كتابِنا «الجذُور التّأرِيخِية والنّفسية للغلوّ والغُلاة» فراجع ذَلِكَ.

وَمُحَمّد الأصْغر، وأُمّ الحَسَن، ورَملة مِن بَنِي الثّقفيّة أنظر، الإرْشَاد للشّيخ المفيد: ١ / ٣٥٤ لكن بلفظ: وأُمّها أُمّ سَعيد بنت عُرْوَة بن مسعود الثّقفيّ، وفي البحار: ٤٢ / ٧٤ قَالَ: وكَانَ لهُ من أُمّ شُعيب الدّارمِية ـ وقيل أُمّ مَسعود المَخزُومِيّة ـ أُمّ الحَسَن ورملة. والظّاهِر أنّه أخذ ذَلِكَ من كتاب العدد القَويّة لدَفع المخاوف اليومية (مخطوط). وأنظر، المعارف: ٢١١. وفي تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ١١٩ أضاف: ورَملة الكُبْرَىٰ. أمّا في أنْسَاب الأشْرَاف: ٢ / ١٩٣ قَالَ: أمّ الحَسَن بنت عليّ، كَانَتْ عند جِعدة بن هُبَيْرَة المَخزُومِيّ، ثُمّ خَلف عَلَيْهَا جَعْفَر بن عَقِيل، فقُتل مع الحُسَيْن فخلف عَلَيْهَا عبدالله بن الزّبير... ثُمّ ذكر رَملة الكُبْرَىٰ، وأُمّها أُمّ سعيد....

وَعَبدالله، والعَبّاس، وجَعْفَر أُمّهم أُمّ البَنِين بِنتُ خَالد الكِلابِيّة، أنظر، أنْسَاب الأشْرَاف: ٢ / ١٩٢ حَيْث قَالَ: وَوُلد له ﷺ أيضاً العَبّاس الأكْبَر، وهو السّقّاء، كَانَ حمل قربة مَاء للحُسين بكربَلاء، ويكنىٰ أبا قِربة... ومثل ذَلِكَ جَاء في مَقتل أمِير المُؤْمِنِين ﷺ لابن أبي الدُّنيَا: الورق ٢٤٨... وأضاف صَاحب أنْسَاب الأشْرَاف: وَوُلد له ﷺ أيضاً عُثْمَانَ، وجَعْفَر الأكْبَر، قُتلوا جَمِيعاً مع الحُسَيْن ﷺ، ولا بَقِية لَهُم إلّا العَبّاس ألا فإنّ له بَقية... وأُمّهم جَمِيعاً أُمّ البَنِين بِنت حزام بن رَبِيعَة أخي لَبِيد بن رَبِيعَة الشّاعر، وأخوها مَالك بن حزام الّذي قُتل مع المُخْتَار بالكُوفة. وجاء في الإرْشَاد: ١ / ٣٥٤ قَرِيب من هَذَا بلفظ: أُمّهم أُمّ البَنِين بنت حِزام بن خالد بن دَارم. وقَرِيب من هَذَا أيضاً في بحَار الأنْوَار: ٤٢ / ٧٤ بإضَافة بنت حزَام بن خالد بن رَبِيعَة الكلاَبِية، نقلاً عن العدد القَويّة لدفع المخاوف اليومية (مخطوط).

وأنظر، تذكرة الخواصّ: ٣٢ حَيْث قَالَ نقلاً عن الزّبير بن بكّار: كَانَ للعَبّاس ولد أسمه عُبَيْدالله، كَانَ من العُلَمَاء فمن ولده عُبَيْدالله بن عليّ بن إبراهيم بن الحَسَن بن عُبَيْدالله بن عَبّاس بن أمِير المُؤْمِنِين ﷺ وكَانَ عَالماً فَاضلاً جَواداً، طاف الدُّنيَا وجمع كُتباً تُسمىٰ الجَعفرية فِيها فِقه أهْل البَيْت: قدم بَغداد فأقام بِها وحدّث، ثُمّ سافر إلىٰ مِصْر فتوفي بِها سَنَة (٣١٢ هـ). ومن نَسل العَبّاس ابن أمِير المُؤْمِنِين ﷺ العَبّاس بن ⇐

↩ الحَسَن بن عُبَيْدالله بن العَبَّاس، ذكره الخطِيب في تَأريخ بغداد... وكَانَ فَاضلاً شَاعراً فَصيحاً، وتَزعم العَلوية، وأنَّه أشعر ولد أبي طالب....

وفي المقاتل: ٨٩ قَالَ: والعَبَّاس يَكنىٰ أبا الفَضْل... وهو آخر من قُتل من إخوته لأُمّه، وأبِيه... ولكن الإصفهاني كعَادته يَطلق العنان لِقَلَمه بدُونَ ترَوّي، وبَصِيرة؛ لأنَّه يَردف قَائلاً:... فقدّمهم بَيْنَ يَدِيه، فقُتِلُوا جَمِيعاً، فحَاز مِيراثهُم... ونَحْنُ نَسأل كَم تَتصوّر أيُّها المؤرّخ أنّ العَبَّاس بَقي حيّاً بَعد إخوته حَتَّىٰ يَحوز مِيراثهُم؟ وهل أنّ العَبَّاس كَان يُفكّر بالمَادّيات كمَا تُفكّر أنتَ، وغَيْرك؟ وهل... وهل... إلخ.

وكَانَ يُقَال له «قَمر بني هَاشم» لوسَامته وجَماله. وأُنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ١١٨ بإضافة: بنت حزَام وهو أبو المُجل بن خالد... لكن في المعارف: ٢١١ يذكرها بأسم: بنت حزَام الوَحِيدِية.

والعَبَّاس الأصغرُ، وعَمْرُو، ورُقيَة أُمّها أُمّ كَلبِيَّة من بَني خَالد بن الوَليد. أُنظر، المقاتل: ٩٠ ولكن قَالَ «وأُمّه أُمّ ولد» وفي الهَامش رقم ٢ «وقِيل إنّ أُمّه أسماء بنت عُميس الخَثعمِية» نقلاً عن تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٦ / ٨٩ لكن في: ٤ / ١١٨ منشورات الأعلمي بيروت المُقابله علىٰ طَبعة بريل بمدينة ليدن سَنَة (١٨٧٩م) قَالَ الطَّبَرِيّ: وتزوج عليه‌السلام ليلىٰ أبنة مسعود بن خالد بن مَالك بن رِبْعِيّ بن سَلمىٰ بن جَندل بن نهشل بن دارم بن مالك بن حَنْظَلَة بن مَالك بن زيد بن مُناة تَميم فولدت له عُبَيْدالله، وأبَا بَكْر فزَعم هُشام بن مُحَمَّد أنّهما قُتلا مع الحُسَيْن بالطَّفّ.

وفي المقاتل: ٩١ ذكر أسم أبي بَكْر بن عَليّ أُمّه لِيلىٰ بنت مسعود.... وجَاء في الإرْشَاد: ١ / ٣٥٤ ذكر مُحَمَّد الأصغر المُكنىٰ أبَا بَكْر، وعُبَيْدالله الشّهيدين مع أخيهما الحُسَيْن عليه‌السلام بالطف أُمّهما لِيلىٰ بنتُ مسعود الدّارمية وكَذَلك في البحار: ٤٢ / ٧٤ مِثله. وفي المعارف: ٢١٠ بإضافة: لِيلىٰ بنت مسعود بن خالد النّهشلي. وأُنظر، الكَامِل في التّأريخ: ٢ / ٤٤٠ ـ ٤٤١.

أمّا في أنسَاب الأشْرَاف: ٢ / ١٩٢ فقد ذَكر مُحَمَّد الأصغر، وأُمّه ورقاء أُمّ ولد. وذكر أيضاً في: ١٩٠ و١٩٢ عُبَيْدالله بن عَليّ، قَتله المُختَار في الوَقْعَة يَوْم المذَار، وأضاف: وأبَا بَكْرة، وأُمّهما لِيلىٰ بنت مَسعود النّهشلية من بني تَيْم لا بقية لهما. وأُنظر، الهامش رقم ٢ من: ١٩٠ تعليق المحمودي حَيْث قَالَ حول عُبَيْدالله: فِيهِ تَسامُح بَيّن، والصّواب أنّه كَانَ في جَيش مُصْعَب في يَوْم المذَار، وقُتل، وأمّا قَتله بيد المُختَار أو أصحابه فغير مَعلوم... وأُنظر، قصته في الطَّبَقَات: ٥ / ١١٧ طَبعَة بيروت، وكتاب الخرائج: ١٨، ومقتل أمِير المُؤمِنين لإبن أبي الدُّنيَا، وإثبات الوَصية: ١٢٥، وتَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ١١٨، وأُنظر، تَأريخ أهْل ↪

↔ الْبيت: ٩٥ وكذلك أنظر، الهَامش رقم ٣ من كتاب الْإِرْشَاد: ١ / ٣٥٥.

وَولِد لهُ من أُمّهاتٍ أُخر أبوبَكْر، وعُبَيْدالله، ويَحيىٰ بن أسماء بنتُ عُميس الخثعمية، انظر، أنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٩٢ بإضافة:... وكَانَ عَليّ عليه السلام خلف عَلَيْهَا بعد أبي بَكْر. وأنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ١١٨، وفي المعارف: ٢١٠ ذكر يَحيىٰ فقط، ومثله في الْإِرْشَاد: ١ / ٣٥٤. أمّا في البحار: ٤٢ / ٧٤ ذكر يحيىٰ، وعون.

وأُمَامَة، وفَاطِمَة، وخَدِيجَة، ومَيمُونة، وأُمّ الكرَام، ورُقِية الصُّغرىٰ، وزِينب الصُّغرىٰ، وفَاختاه هِي أُمّ كُلْثُوم هِي نَفِيسة، أنظر، الْإِرْشَاد للشيخ المفيد: ١ / ٣٥٥، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ١١٩، أنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٩٣، بإضافة: ومَيمُونة تزوّجها عبدالله بن عَقِيل... وزَينب الصُّغرىٰ تزوّجها مُحَمَّد بن عَقِيل، ثُمّ خَلف عَلَيْهَا كثير بن الْعَبَّاس، وأُمّ كُلْثُوم الصُّغرىٰ، تزوّجها كثير بن الْعَبَّاس قبل أُختها أو بعدها، وفَاطِمَة تزوّجها سعيد بن الأسود بن أبي البَختري من ولد الحرث بن أسد ٱبْن عبد العزّىٰ.

وَقَالَ فِي مقتل أَمِير الْمُؤمِنِين لِابْن أبي الدُّنْيا (مخطوط): ورق ٢٤٩: وكَانَتْ فَاطِمَة ٱبنة عليّ عند أبي سعيد بن عَقِيل فولدت له حَمِيدة، ثُمّ خلف عَلَيْهَا سعيد بن الأسود بن أبي البَختري فولدت له بـرّة، وخالدة، ثُمّ خلف عَلَيْهَا الْمُنْذِر بن عُبَيْدة بن الزّبير بن العوّام، فولدت له عُثْمَانَ وكثيرة... وأضاف صاحب أنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٩٤ وخَدِيجَة تزوّجها عبدالرّحمن بن عَقِيل... ونَفِيسة تزوّجها تَمام بن الْعَبَّاس بن عبدالمطّلب.

وذكر الطَّبَرِيّ في: ٤ / ١١٩ أنّ الْإِمَام عَليّ عليه السلام تزوّج مُحياة ٱبنة ٱمرئ القيس بن عَدِيّ بن أوس ٱبن جابر بن كعب بن عَلِيم من كَلب فولدت لهُ جَارية هَلكت وهِي صَغيرة... ثُمّ قَالَ: قَالَ الوَاقدي: كَانَتْ تَخرج إِلىٰ المَسجد وَهِي جَارية فِيُقَال لهَا من أخوالك فتقول: وَه، وَه، تَعني كَلباً، وفي أنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٩٤ يُسميها أُمّ يَعلىٰ قَالَ: هَلكت وَهِي جَارية لَم تبرز، وأُمّها كَلبية، وكَانَ يُقَال لها: من أخوالك يا أُمّ يَعلىٰ؟ فتقول: أو، أو، أي كَلب... ولأُمها قِصّة طريفة ذكرها البلاذري في أنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٩٤ و ١٩٥ تحت الرّقم ٢٣٨ فتأمّل فيها. وأُنظر، بحَار الأَنْوَار: ٤٢ / ٨٩، وشَرح النّهج لِابْن أبي الحَدِيد: ٢ / ٧١٨.

وفي البحار: ٤٢ / ٩٢ قَالَ: وزوّج ثماني بَنات، زِينب الْكُبْرَىٰ من عبدالله بن جَعْفَر، ومَيمُونة من عَقِيل بن عبدالله بن عَقِيل. وأُمّ كُلْثُوم الصُّغرىٰ من كُثير بن عَبّاس بن عبدالمطّلب، ورَملة من أَبِي الهياج ↔

عَلَىٰ أُصُولِهِ... إلخ). الوَلِي أنْ لاَ يَتصَرف فِي أُصُول الوَقف كالشَّجر ومَا يَنْبُت عَلىٰ جذُورَه، لاَ يَتصَرف بِبيع ولاَ هِبَة، أو بَأي نَحو يَضُرّ بِالأَعْيَان، ولَـهُ التَّـصرف فِي الثِّمار عَلىٰ وَجْهَها... وهَذَا الشَّرط حَتمٌ حَتَّىٰ وَلو سَكَت عَنْه، لأنّه مِن طَبِيعَة آثَار العَقد تَمَاماً كالاِسْتمتَاع بَيْنَ الزَّوجين بِالنِّسبَة إلىٰ عَقد الزَّواج.

أمّا الحَدِيث عَن العَبِيد والإِمَاء فِي عَصرنا فَمَضْيَعَة للوَقت، وتَكـثِير كَـلاَم بِـلا جَدوىٰ.

⇐ عبدالله بن أبي سُفْيَانَ بن الحَارث بن عبدالمطّلب، ورَملة من الصَّلْت بن عبدالله بن نوفل بـن الحَـارث، وفَاطِمَة من مُحَمَّد بن عَقِيل. أُنظر، مناقب آل أبي طالب: ٢/٧٦ و٧٧ و٢٦٧ و٢٦٨، إعلام الورىٰ: ٢٠٤.

وزادَ فِي الذّكور شَيخُ الشّرف عبدُالرّحمن عُمَرَ الأصْغر، وعُثْمَانَ، وعُون، وجَعْفَر الأصْـغر، ويَجِبُ أنْ تَكُون لهُ رُقيّة الْكُبْرَىٰ، وزِينب الْكُبْرَىٰ بِنتَا فَاطِمَة، فَيَكُون خَمسة وثَلاثُون نَفساً، ثَمَانِية عَـشر رجُـلاً، وسَبع عَشرة اَمرَأة، ولَم يَحتسِبُوا بِالُمحسِن. وهَذِه أَصحّ الرِّوَايَات فِي أولادِهِ. قَالَ الشّيخ المفيد في الإِرْشَاد: ٣٤٢ بَاب ٤: فأولاد أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام ثَمَانِية وعشرون وَلداً ذَكراً وأُنثىٰ. ولكـن فِي: ١ / ٣٥٤ تحـقيق. مؤسّسة آل الْبَيْت عليهم السلام قَالَ: فأولاد أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام سبعة وعشرون وَلداً ذَكراً وأُنثىٰ. وفي العدد الْقَوِيَّة لدفع المخاوف اليوميه للشّيخ رضيّ الدّين عَليّ بن سديد الدّين يُوسُف بن عليّ بن مطهّر الحلّي في الفـصل الثّاني (مخطوط) قَالَ: كَانَ لهُ عليه السلام سبعة وعشرون ذَكراً وأُنثىٰ، وفي المناقب لإبْن شهرآشوب: ٢/٧٦ و٧٧ قَالَ: قَال الشّيخ المُفِيد رحمه الله فِي الإِرْشَاد: أولادَهُ خمـسة وعشرون ورُبَّمَا يَزِيدُون عَلىٰ ذَلِكَ إلىٰ خَمسة وثلاثِين، ذكره النّسابة العمريّ في الشّافي، وصاحب الأَنوَار... أُنظر، الدُّرر النّظِيم في مناقب الأَئِمَّة اللّهاميم: ٤٢٩ ـ ٤٣٠، موسوعة الإِمَام عَليّ: ١/ ١١٥ ـ ١٢٢.

الرسالة ٢٥

الْعُمَّال:

اَنْطَلِقْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لاٰ شَرِيكَ لَهُ ، وَ لاٰ تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَ لاٰ تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً ، وَ لاٰ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَىٰ الْحَيِّ فَاَنْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ ، ثُمَّ اَمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَ الْوَقَارِ ، حَتَّىٰ تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَ لاٰ تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ . ثُمَّ تَقُولَ : عِبَادَ اللهِ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَ خَلِيفَتُهُ ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لاٰ ، فَلاٰ تُرَاجِعْهُ ، وَ إِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَاَنْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ ، أَوْ تُوعِدَهُ ، أَوْ تَعْسِفَهُ ، أَوْ تُرْهِقَهُ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلاٰ تَدْخُلْهَا إِلاّٰ بِإِذْنِهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلاٰ تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ ، وَ لاٰ عَنِيفٍ بِهِ . وَ لاٰ تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَ لاٰ تُفْزِعَنْهَا ، وَ لاٰ تَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا ، وَ اَصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا اَخْتَارَ فَلاٰ تَعْرِضَنَّ لِمَا اَخْتَارَهُ . ثُمَّ اَصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ، ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا اَخْتَارَ فَلاٰ تَعْرِضَنَّ لِمَا اَخْتَارَهُ ، فَلاٰ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَبْقَىٰ مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ ، فَاَقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ . فَإِنِ اَسْتَقَالَكَ

فَأَقِلْهُ، ثُمَّ ٱخْلِطْهُمَا ثُمَّ ٱصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّىٰ تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ. وَ لاٰ تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَ لاٰ هَرِمَةً وَ لاٰ مَكْسُورَةً وَ لاٰ مَهْلُوسَةً، وَ لاٰ ذَاتَ عَوَارٍ، وَ لاٰ تَـأْمَنَنَّ عَلَيْهَا اِلاَّ مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ يُوَصِّلَهُ إِلَـىٰ وَلِـيِّهِمْ فَـيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَ لاٰ تُوَكِّلْ بِهَا اِلاَّ نَاصِحاً شَفِيقاً، وَ أَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَ لاٰ مُجْحِفٍ، وَ لاٰ مُلْغِبٍ وَ لاٰ مُتْعِبٍ. ثُمَّ ٱحْدُرْ إِلَيْنَا مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلاَّ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَ بَيْنَ فَصِيلِهَا، وَ لاٰ يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ (فَيُضِرَّ) ذَلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَ لاٰ يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَ لْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَٰلِكَ وَ بَـيْنَهَا، وَ لْيُرَفِّهْ عَلَىٰ اللاَّغِبِ، وَ لْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَ الظَّالِعِ، وَ لْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ، وَ لاٰ يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَىٰ جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَ لْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَ لْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَ الْأَعْشَابِ، حَتَّىٰ تَأْتِينَا بِإِذْنِ اللهِ بُـدَّناً مُـنْقِيَاتٍ، غَـيْرَ مُـتْعَبَاتٍ وَ لاٰ مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ ﷺ ـ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَ أَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللُّغَة:

لاٰ تُرَوِّع: لاَ تُفْزِع. لاَ تَجْتَازَ: لاَ تَمُر. لاٰ تُخْدِجْ: لاَ تَـبْخَل. وأَنْـعَمَ: قَـالَ نَـعَم. والعَسْف: الجَوْر. والرّهق: تَكْلِيف مَا لاَ يُـطاق. وصَـدْعَيْنِ: نِـصْفين. والعَـوْد: المُسِنْ. والهَرِمَ: أَسَنْ. والمَهْلُوسَة: الضَّعِيفَة أو المَرِيضَة. والعَوَار: العَيب. والمُلْغِب والمُتْعِب بِمَعْنَىٰ. واَحْدُرْ: أُسْرِع. الفَصِيلِ: وَلَد النَّاقَة. وَلاٰ يَمْصُرَ لَبَنَها: لاَيَحلب كلّ مَا فِي الضَّرع. والنَّقِبِ: مَا نَقَبَ خُـفّه. والظَّـالِع: الأَعـرَج أو البَـطيء فِي مَشيَه. والغُدُرِ: جَمع غَدِير. والنِّطَافِ: المَاء القَلِيل. وبُدَّناً: سِماناً، لأنّ البَدين سَمِين.

الإِعْرَاب:

عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللهِ مُتَعَلِّق بِٱنْطَلِقْ، و«عَلَىٰ» هُنا بِمَعْنَىٰ مَع مِثل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾(١)، وَحْدَهُ حَال مِن كَلِمَة الجَلاَلَة، وكَارِهاً حَال مِن ضَمِير عَلَيْهِ، وأَكْثَرَ صِفَة لِمَفْعُول مَحذُوف أي لاَ تَأْخُذ مِنْهُ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ، ورُكُوباً تَمْيِيز، وبُدَّناً حَال.

الْمَعْنَىٰ:

كَان الْإِمَام عليه السلام يُزَود كلّ وَاحد مِن الجُبَاة والسُّعَاة فِي أَمْوَال الصَّدَقَة يُزَودهُ بِالتَّعلِيمَات التَّالية:

١ ـ أنْ يَكُون أَمِيناً مُخلصاً، لاَ يَستَبِيح للدَّولَة والرَّعِيَّة حَقّاً مِن حقُوقها.

وَعَبّر الْإِمَام عَن ذَلِكَ، بِتَقْوَىٰ اللهِ، لِأَنَّهَا الْأَسَاس لكلِّ خُلقٍ كَرِيم بخَاصَّة الْأَمَانَة والْإِخْلاَص.

٢ ـ أنْ يَكُون مَع الَّذي فِي مَالِهِ الْحَق ـ هَيِّناً لَيِّناً لأنَّ الدَّوْلَة للجَمِيع ورعَايتهم وتُوفِير الأَمْن والْعَدْل لكلِّ فَرد، والعَامِل فِيها أَجِير مُؤتَمَن يَتحَمل التَّبعَات، ويُؤاخَذ إِذَا أَسَاء ٱستعمَال المِهنَة والوَظِيفة. وهَذَا مَا أَرَاده الْإِمَام بِقَوْله: (وَ لاَ تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَ لاَ تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً... إلخ).

٣ ـ أنْ لاَ يَأْخُذ أَكْثَرَ مِن الْحَقِّ المَفرُوض، لأنَّ التَّجاوز بَغي وَعُدْوَان.

٤ ـ أنْ لاَ يَنزل ضِيفاً عَلَىٰ أَحد، فَلَيْسَ كلّ النَّاس يَملكُون أسبَاب الضِّيَافة، أو

(١) الْإِنْسَان: ٨.

يَسْعَهم أنْ يَطردُوا الضَّيف ويُصَارحُوه بِعَجزهم.

٥ ـ أنْ يَدَع مَجَالاً للنَّقد والمُلاَحظة عَلَيْهِ بِقولٍ أو فِعلٍ، وأنْ يَكُـون فِي تَحِـيَّته وجَميع حَركَاته مُبشراً لاَ مُنفراً.

(فَإنْ قَالَ قَائِلٌ: لاٰ) حَقّ لله فِي مَالِي (فَلاٰ تُرَاجِعْهُ) لأنَّ الزَّكَاة فِي الإسْلاَم عِبَادة تَماماً كَالصَّوم والصَّلاٰة، ولاَ وَاسطة بَيْنَ الله وعِبَاده، ولاَ يَجُـوز لِمَخلُوق أنْ يَـتكَلَّم بِاْسم الخَالِق، ويُقِيم نَفْسَه وَكِيلاً عَنْهُ فِيما يَعُود إلىٰ عِبَادته تَعَالىٰ والإخْلاَص لهُ (وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَاْنْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ، أَوْ تُوعِدَهُ، أَوْ تَعْسِفَهُ). صَاحب المَال وَقَالَ، عَليّ للهِ حَق فِيمَا وَهَب وأَعطىٰ، فَاْذهَب مَعَهُ إلىٰ أَمْـوَاله الّـتي فِـيها الْحَـقّ، وعَامِله كَأخ متوَاضع، لاَ كَمُتَسلط أو نَظِير، لأنَّه هُو الشَّرِيك الأَكْبَر والَّذي كَدَح ونَاضل. وتَجدُر الإشَارَة إلىٰ أنَّ الإمَام لاَ يوصِي الجَابِي بذَلِكَ حِرصاً عَلىٰ تَحصِيل المَال، بل لأنَّ موظَف الدَّوْلَة يَجب أنْ يَكُون وَدِيعاً ورَقِيقاً مَع أَصْحَاب العِلاَقَات، تَماماً كَما يَجب أنْ يَكُون أَمِيناً وَنَزِيهاً، فإنْ تَقَاعس عَن خِدْمَة النَّاس، وأضْفىٰ مِن وظَيفَته عَلىٰ نَفْسَه هَيْبَة وهَالة وَجَب أنْ يُعَاقَب بِمَا هُو أَهْل لهُ.

(وَاْصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ... إلخ). إقْسِم المَال الَّذي فِيهِ حَقّ الله نِصْفِين، واْجعَل الخَيار لصَاحِبه فِي أحَدهما، ثُمّ قَسِم النِّصف الَّذي تَركه شَطرِين، واْفْعَل مَا فَعَلتَ فِي المَرّة الأُولَىٰ، وهَكَذا حَتَّىٰ يَبقىٰ مقدَار مَا فِي مَاله مِن الحَقّ، فَاْقبِضهُ، وهَلُم بِهِ إلينا، وإنْ شَاء أنْ يَستَأنف وَيُعِيد القِسْمَة مِن جَدِيد فَاْستَجب لمَشِيئته شَرِيطَة أنْ لاَ يَقع النَّقص والاِجْحَاف فِي حَقّ الله، فَيَختَص المَالك بِالسَّلِيم، ويُعطِيك السَّقِيم.

(وَلاٰ تُـوَكِّـلْ بِـهَا اِلاّٰ نَـاصِحاً شَـفِيقاً، وَأَمِـيناً حَـفِيظاً، غَـيْرَ مُـعْنِفٍ وَلاٰ مُجْحِفٍ... إلخ). ضَمِير «بِهَا» يَعُود مَاشِيَة الصَّدقَات. والإمَام يُوصي بِهَا وبِالرِّفْقِ

فِي ٱلْحَيَوَان عَلىٰ وَجه العمُوم، فَلا يُرهقَه فِي المَسِير ولاَ الحِمل والرّكُون، ولاَ يُحرم الصَّغير مِن لَبن أُمّه، وتَجب مُرَاعاة الهَزِيل، والمَرِيض بمَا يَستدعِيه ضَعفه ومَرضه، ولاَ يُجار عَلَيْهِ إذَا تَلكأ فِي السّير. قَالَ رَسُول الله ﷺ للدَّابة عَلىٰ صَاحِبهَا خصَال سِت: «أنْ يَبدأ بِعَلفهَا إذَا نَزَل، ويَعرض عَلَيْهَا المَاء إذَا مَرَّ بِهِ، ولاَ يَضْرِب وَجهها، فأنّها تُسبح بِحَمد رَبّها، ولاَ يَقف عَلىٰ ظَهرها إلاّ فِي سَبيل الله، ولاَ يُحمّلها فَوق طَاقتها، ولاَ يُكلّفها مِن المَشيء إلاّ مَا تُطِيق»(١).

---

(١) أنظر، مَن لاَ يَحضره الفَقيه: ٢/٢٨٦ ح ٢٤٦٦٥، وَسَائِل الشّيعة: ٢١/٥٢٩ ح ٢٧٧٧١، مكَارم الأَخلاَق: ٢٦٢، الجَعفريات: ٨٥، الكَافِي: ٦/٥٣٧ ح ١، تَهذِيب الأَحكَام: ٦/١٦٤ ح ٣٠٣.

الرسالة
٢٦

أَعْظَمُ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ:

أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَ خَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لاٰ شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَ لاٰ وَكِيلَ دُونَهُ. وَ أَمَرَهُ أَلاّٰ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَ مَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَ عَلاٰنِيَتُهُ، وَ فِعْلُهُ وَ مَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّىٰ الْأَمَانَةَ، وَ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ.

وَ أَمَرَهُ أَلاّٰ يَجْبَهَهُمْ وَ لاٰ يَعْضَهَهُمْ، وَ لاٰ يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَ الْأَعْوَانُ عَلَىٰ ٱسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

وَ إِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَ حَقّاً مَعْلُوماً، وَ شُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَ ضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، وَ إِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَ إِلاّٰ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ بُؤْساً لِمَنْ ـ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ ـ الْفُقَرَاءُ، وَ الْمَسَاكِينُ، وَ السَّائِلُونَ، وَ الْمَدْفُوعُونَ، وَ الْغَارِمُونَ، وَ ٱبْنُ السَّبِيلِ! وَ مَنِ ٱسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَ رَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ، وَ لَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَ دِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَ الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَ أَخْزَىٰ. وَ إِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَ أَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الْأَئِمَّةِ، وَ السَّلاٰمُ.

اللُّغَة:

يَجْبَهَهُمْ: يَسْتَقبلهُم ويُفَاجِئَهُم. ويَعْضَهَهُمْ: لِرَمِيهِم بِالزُور والبُهتَان. والبُـؤُس: الْفَقْر والشِّدَة. الْغَارِمُونَ: العَاجِزُون عَن وَفَاء دِيُونِهم.

الإِعْرَاب:

أَمَرَهُ فِعل مضَارع، والفَاعل ضَمِير مُستَتر يَعُود إِلىٰ الإِمَام أي أنّ الإِمَام عَـبَرّ عَن نَفْسَه بِضَمِير الغَائِب، وهَذَا كَثِير فِي لُغَة الْعَرَب، والهَـاء تَـعُود عَـلىٰ العَـامِل، والْمَصْدَر مِن أَنْ لاَ يَعْمَلَ مَجْرُور بِالبَاء المَحْذُوفه، وَمِـثله أَنْ لاَ يَجْـبَهَهُمْ، وشُرَكَـاءَ عَطف عَلىٰ «نَصِيباً» أي وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ شُرَكَاءَ، وأَهْـلَ مَسْكَـنَة صِـفَة لِشُرَكَاءَ، ولاَ يَجُوز جَعل أَهْل بَدلاً بِحَال، لأنَّ بَدل الكلّ يُستَغنىٰ بِهِ عَن المُبدل مِنْهُ مِثل جَاء زيد أَخُوك، وهُنا لاَ يُستغنىٰ مِن حَيْث الْمَعْنَىٰ عَن كَلِمَة شُرَكَاءَ. وخُصُوماً تَمْيِيز، وَبُؤُساً عَطف عَلَيْهِ.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَ خَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لاٰ شَهِيدَ غَيْرُهُ... إلخ). يَسْتَطِيع الإِنْسَان أَنْ يَخُون ويَغدر دُونَ أَنْ يَشعر بِهِ مَخْلُوق. وفِي مِثل هَذِه الحَال لاَ رَادع ولاَ زَاجر إلّا من الدَّاخل، وهُو الإِيمَان بِالله والْخَوْف مِن حسَابه وَعـذَابـه، والإِمَام يُحذر عُمَّاله مِن الْخِيَانَة وَمَعْصِيَة الله فِي الخفَاء، لأَنّه بكلِّ شَيء عَـلِيم. وفِي الحَدِيث: «خَفْ الله كَأَنَّك تَرَاه، فإِنْ كُنتَ لاَ تَرَاه فإِنَّه يَرَاك»[1]. (وَ أَمَرَهُ أَلاَّ يَعْمَلَ

(١) روي الحَدِيث بِلفظ آخر: «أَنْ يَخشىٰ الله كَأَنَّك تَرَاه، فإِنَّك إِنْ لا تَكُن لاَ تَرَاه فإِنَّه يَرَاك) وفِي فإِنْ لَمْ تَكُن

⇔

بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ) . لاَ تَطع الله فِي الظَّـاهِر دُونَ البَاطِل ، بل أَطعهُ فِيهِمَا مَعاً ، وكلّ ظَاهِرٍ يُخالف بَاطِناً فهُو تَلبِيس وتَضلِيل (وَ مَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَ عَلاٰنِيَتُهُ ، وَ فِعْلُهُ وَ مَقَالَتُهُ ... إِلىٰ الْعِبَادَةَ) . كلّ مَـن تـنسَجم أَقْوَاله وأفعَاله مَع حَقِيقَته ووَاقعه فهُو مُخلص وأَمِـين ، بـل ومَـثلٌ أعـلىٰ يَجب أنْ يُحتذىٰ فِي ذَلِكَ كَائِناً مَن كَان .

(وَ أَمَرَهُ أَلاَّ يَجْبَهَهُمْ وَ لاٰ يَعْضَهَهُمْ ، وَ لاٰ يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلًا بِالْإِمَارَةِ عَـلَيْهِمْ) . عَلىٰ موَظف الْدَّوْلَة أنْ لاَ يَستَقبل أَحداً مِن الرَّعِـيَّة بمَـا يَكْـرَه ، ويَسـتَعلي عَـلَيْهِ بالمَنصب والمَركز ، ويُلقي إِلَيْهِ الأَوَامر فِي عُنْجهِية وعَجرَفة كَتِيوس والْموَظْفِين . لأنّه أَجِير لاَ أَمِير ... والرَّعِيَّة هِي السَّيِّد والأَصْل والعَمُود الفَقرِي للدَّولة وخَزِينتَها (وَ إِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً ، وَ حَقّاً مَعْلُوماً ... إلخ) يُشير إِلىٰ الآيَة : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّـدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْـمَسَـٰكِينِ وَٱلْـعَـٰمِلِينَ عَـلَيْهَا وَٱلْـمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِـى ٱلرِّقَـابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّـهِ وَٱللَّـهُ عَـلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] . وَٱلْعَامِلونَ الجُبَاة ، والْفُقَرَاء والمَسَاكِين هُم الَّذِين أشَار إِلَيْهِمْ الإِمَام بقَوْله : «أَهْـلَ مَسْكَنَةٍ ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ» ، وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ يُسْتَعَان بِهِمْ لِلذَبّ عَن الإِسْلاَم ،

⇐ تَرَاه فإنَّه يَرَاك) . أُنظر ، صَحِيح مُسْلِم : ١/٤٠ ح ١٠ ، السُّنن الْكُبْرَىٰ : ٣/٤٤٦ ح ٥٨٨٣ ، المُسند المُستخرج عَلىٰ صَحِيح الإِمَام مُسْلِم : ١/١٠٤ ، مُسْنَد البزّار : ١/٢٧٣ ح ١٠٧ ، مُسْنَد أبي عوانة : ٤/١٩٤ ، مَجْمَع الزَّوائد : ١/٤٠ ، مُسْنَد الطَّيَالسِي : ١/٥ ح ٢١ ، مُسْنَد الرّوياني : ٢/٤١٧ ، مُسْنَد أحمد : ٢/١٠٧ ح ٥٨٥٦ ، مُسْنَد إسحاق بن رَاهوية : ١/٢١٢ ح ١٦٧ ، التَّرغِيب والتَّرهيب : ٣/١٢ ح ٢٨٧٧ ، الإِيمان لِابْن مَنده : ١/١٤٢ ، خَلق أفعَال العِبَاد : ١/٥٧ ، تَعظِيم قَدرة الصَّلاة : ١/٢٧٩ ، فقه الرّضا : ٣٨٢ ، الكَافِي : ٢/٥٥ ح ٢ ، وَسَائِل الشّيعة : ١٥/٢٢٠ ، جَامع الأَخْبَار : ٢٥٩ ح ٦٩٤ ، ثوَاب الأَعْمَال : ١٧٦ .

(١) ٱلتَّوْبَة : ٦٠ .

وٱلغارِمُونَ العَاجِزُون عَن وَفَاء دِيُونهم، وفِي ٱلرِّقَاب تَحرِير العَبِيد، وٱبن ٱلسَّبِيل الغَرِيب بِلا نَفَقَة، وفِي سَبِيل الله ووجُوه الْبِرِّ والإِحْسَان.

(وَ إِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ). أَبَداً لاَ أَدْعِ أَحداً يَعتدِي عَلىٰ سَهمَك مِن الصَّدقَات، ويَغْتَصِبه مِنك، فحَقِيق بِك ـ إِذَنْ ـ أَنْ تَحرص عَلىٰ حقُوق الآخَرِين، ولاَ تَخُونَهُم فِي شَيء (وَ إِلاَّ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْم الْقِيَامَةِ). فَجَزَاؤك عِنْدَنَا التَّأْدِيب، وعِند الله عَذَاب الْحَرِيق حَيْث يُخَاصمك لَدِيه تَعَالىٰ سَائر الشُّركَاء الَّذِين ذَكرَتهُم الآيَة (٦٠) مِن سُورَة ٱلتَّوْبَةِ (فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَ الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا). لأَنَّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1].

(وَ إِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ). قَد تَكُون خِيَانَة الأُمَّة بِدرهَم يَختَلسهُ موَظف مِن مَال الدَّوْلَة، أو رِشوَة يَقبضَها مِن مزُوّر كَاذِب، أو مُحتَكر غَاصِّب، وهَذِه مِن أَعْظَم الْخِيَانَات، وَفسَاد كَبِير، مَا فِي ذَلِكَ رَيب. وأَعْظَم مِنْهَا ومِن كلّ الجرَائِم مُجتَمعة التَّآمر عَلىٰ كِيان الأُمَّة وَتَقوِيضها مِن الأَسَاس بِالْعمَالة لِسفَاحِي الشّعُوب وأَعْدَاء الله والإِنْسَانِيّة. ومَا أَكْثَر العُملاَء فِي الشَّرق، وبِالخصُوص فِي بِلاد الْمُسْلِمِين، وبِالأَخَص عِنْدَنَا نَحْنُ الْعَرَب... وهَل مِن دَلِيل عَلىٰ ذَلِكَ أَقوىٰ وأدَل مِن وجُود «السَّيِّدة إِسْرَائِيلَ» الَّتِي تَنْقَضّ لَيل نَهار بِطائِراتِها ودَبَابَاتها عَلينا تَقْتُل وتُدَمر، وَتَحتَل وتُشرد عَلىٰ مَسمَع ومرَأىٰ مِن قَادة الْعَرَب والعرُوبَة... ومَا زَادهُم هَذَا وذَاكَ إِلاّ تَنَاحُراً وتَثلِيماً!.

(١) ٱلْمُدَّثِّر: ٣٨.

الرسائل

-٢٧-

إلىٰ مُحَمَّدِ بْنَ أَبِي بَكْر...فِقْرَة ١ ـ ٢:

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَ أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَ ابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَ آسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَ النَّظْرَةِ، حَتَّىٰ لاٰ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَ لاٰ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَ الْكَبِيرَةِ، وَ الظَّاهِرَةِ وَ الْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَ إِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ[1].

وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَ آجِلِ الآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَ لَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ، سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَ أَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَ أَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَ الْمَتْجَرِ الرَّابِحِ. أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَ تَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ. لاٰ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَ لاٰ يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ[2].

اللُّغَة:

آسِ: مِن المُؤَاسَاة. بِمَعْنَىٰ المُسَاوَاة. وحَافَ عَلَيْهِ: جَار عَلَيْهِ، وَحَافَ لَهُ: جَار

عَلىٰ الغَيرِ مِن أَجْلَه، كَمَن يَبنِي لأوْلاَدَه مِن أَمْوَال الأَرَامِل، وَالأَيْتَام. وحَظُوا: نَالُوا.

الْإِعْرَاب:

آسِ فِعل أَمر، ومَعْشَرَ عِبَادِهِ أي يَا مَعْشَرَ عِبَادِهِ، وَمَا سُكِنَتْ «مَا» مَصْدَرِيَة أي سُكْنَاها، وَبِمَا حَظِيَ بِمثل الَّذي حَظِيَ، ومِثله مَا أَخَذَهُ.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي وغَيْره: حِين قَلّد الإِمَام مُحَمَّد بْنَ أَبِي بَكْر الْوِلاَيَة كَتَب إِلَيْه: (فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَ أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَ ابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ... إِلىٰ وَ النَّظْرَةِ). روي أنّ رَجُلاً نَادىٰ رَسُول الله ﷺ: «يَا سيّدنا وابن سيّدنا وخَيرنا وابن خَيرنا. فقَال: لاَ يَسْتَهوِيَنَكُم الشَّيْطَان... أنَا مُحَمَّد بن عَبد الله... عَبْدَه ورَسُوله... والله مَا أُحبّ أنْ تَرفَعُوني فَوق مَنْزِلتي»[1]. وكَان أَصْحَابه إذَا رَأوه قَادمَاً عَلَيْهِمْ لَم يَقُومُوا لهُ، لأنَّهم يَعرفُون كرَاهِيتَهُ لِقيامِهم... وكَان يَكْرَه أنْ يَمشي أَصحَابه وَرَاءه، وإذَا فَعَل ذَلِكَ أَحدهُم أَخَذ بِيده ودَفعه إِلىٰ جَانبه.

وعَن كتَاب «الوَفا بِأحوَال الْمُصْطَفَىٰ» لِعبد الرَّحمن بن الجُوزي أنّ النَّبيّ ﷺ:

(١) أنظر، مُسْنَد أحمد: ٣/١٥٣ ح ١٢٥٧٣ و ١٣٦٢١، مُسْنَد عَبد بن حُمَيد: ١/١٣٢٧، التَّأرِيخ الصَّغِير: ١/١١ ح ٢٢، المَدخل إِلىٰ السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١/٣٣٢ ح ٥٣٦، تَفْسِير ابن كَثِير: ١/٥٩١، الأَحَادِيث المُخْتَارة: ٦/٩٦ ح ٢٠٨٠، شُعب الإِيمَان: ٤/٢٢٧ ح ٤٨٧١، عَمل اليَوم واللَّيلَة: ١/٢٤٩ ح ٢٤٨ و٢٢٤٩، الآحَاد والمثاني: ٣/١٥٣ ح ١٤٨٢، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ١/٣١١.

«كَان يُحب لأُمَّته أنْ تُطالب بِحقهَا، وأنْ تعترَض، وأنْ تُبدي رَأيها فِيا يَنفعها ومَا يُرِيبها مِن سلُوك الأُمرَاء»[١].

(حَتَّىٰ لاٰ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ... إلخ). أَنَّهم تَماماً كَالشَّيطَان، مَن جَعَل لهُ سَبيلاً إِلىٰ نَفْسَه قَادَه إِلىٰ الهَاوِيَة. وفِي الحَدِيث: «المَعِدَة بَيْت الدَّاء، والحِمْيَة رَأس الشَّفَاء»[٢]. وَيَصح هُنا القِياس، وعَلَيْهِ فَلَك أنْ تقول: الضَّعْف والهَزِيمَةُ أَمَام الطُّغَاة بَيْت الدَّاء، وقوَّة الإصْرَار عَلىٰ الصّمُود فِي حَربِهِم ومُجَابهَتِهِم رَأس الشَّفاء (وَ لاٰ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ). الضُّعَفَاء هُم المِقْيَاس الصَّحِيح لِعَدل الحَاكِم وجَوْرَه، فإنْ خَافوا عَلىٰ أنفُسهِم مِن شرّ الأَقْوِيَاء كَان معنىٰ هَذَا أنّ الحَاكِم ظَلوم لاَ يَهمهُ مِن أَمر الرَّعِيَّة إلّا السّيطرة والاِسْتعلاَء، وإلّا السَّلب والنَّهب، وإذَا أَمِن الضُّعَفَاء مِن شرّ الأَقْوِيَاء فَمعنىٰ ذَلِكَ أنّ الحَاكِم يُشعر بِتبعَات الحُكْم المُلقَاة عَلىٰ عَاتقه، وإنَّه لله ولِلعَدل، لاَ لأهوَائِه وأَبْنَائه.

(أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا) حَيْث تَمتعُوا بِنسَائِها عَلىٰ كتَاب الله وسُنَّة نَبِيّه، وأَكلُوا مِن طِيبَاتِها بِكَد اليَمِين وَعَرَق الجَبِين، وأيضَاً سُعدُوا وآبتَهجُوا بِمَنَاظر الطَّبِيعَة، وعَاطفَة الأبُوَة والنُّبُوَّة، وبِلَذة العِلم والمَعْرِفَة، ورَاحة الضَّمِير والحَدِيث إِلىٰ الأَصْدقَاء ورَجَاء الثَّوَاب والرِّضا مِن الله، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ مِن نِعَمه تَعَالىٰ الّتي لاَ تُعد ولاَ تُحصىٰ، وَتَقَدَّم قوْل الإِمَام: «وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»[٣]. (وَ

---

(١) أنظر، الوَفا بِأحوَال المُصْطَفَىٰ: ٢/٧١٣. (مِنْهُ).

(٢) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبِي: ٧/١٩٢، كَشف الخفَاء: ١/٤٣٩ ح ١١٦٩ و: ٢/٢٧٩ ح ٢٣٢٠، المَصنُوع: ١/١٧٢ ح ٣٠٦، تَدريب الرَّاوي: ١/٢٨٧، جَامع العلوم والحِكم: ١/٤٢٦.

(٣) أُنظر، آلخُطْبَة: (١١٤). (مِنْهُ).

آجِلِ الآخِرَةِ) أيضاً فَازَ المُتَّقُون بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلأَرْضُ.

(فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ... إلخ). فِي المَلَذَات الّتِي أشرنا إِلَيْهَا، وجَمَعُوا بَيْنَهَا وبَيْنَ الجَنَّة. أَمَّا الطُّغَاة العُتَاة فَتَمَتَعُوا قَلِيلاً، ثُمَّ إِلىٰ عَذَاب الجَحِيم. وتَقَدَّم مرَّاتٍ أنّه لاَ صرَاع ولاَ ٱصطدَام بَيْنَ طِيبَات الدُّنْيَا وجنَّات الآخِرَة، وإِنَّمَا التَّضَاد والصّرَاع بَيْنَ الحرَام وَمَرضَاة الله وثَوَابه. قَالَ رَسُول الله ﷺ لقَوم حَرَّمُوا الطَّيِّبَات عَلىٰ أَنْفسِهِم: «إِنَّما أَنَا أَعْلَمكُم بِالله، وأَخْشَاكُم لهُ، ولكنّيَ أَقُوم وأَنَام، وأَصُوم وأفْطر، وأَتزَوّج ٱلنِّسَاء، ومَن رَغِب عَنِي فَلَيْسَ مِنِي»[1].

الصَّبْر مَصْدَر السَّعَادَة:

(سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَ أَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ... إلخ). المُتَّقُون سَكَنُوا فِي بُيُوْتٍ مُتوَاضِعَة، وَسَكن المُتْرَفُون قُصُوراً شَامِخَة، ولكنَّ الكُوخ مَع الأَمَانَة والتَّقْوىٰ خَير أَلف مرَّة مِن القَصر المُنِيف مَع الخِيَانَة والفَسَاد، ونَفْس الشَّيء يُقَال فِي المآكِل والمَلابس (فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ المُتْرَفُونَ... إلخ). مِن

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٩٤٩/٥ ح ٤٧٧٦، صَحِيح أبن حبَّان: ٢٠/٢ ح ٣١٧، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٦٠/٢، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٧٧/٧ ح ١٣٢٢٦، مُسْنَد الشَّاشي: ٣١٤/٢ ح ٨٩٤، مُسْنَد أحمد: ١٥٨/٢ ح ٦٤٧٧ و: ٢٤١/٣ ح ١٣٥٥٨، مُسْنَد عبد بن حميد: ٣٩٢/١ ح ١٣١٨، المُعْجَم الكَبِير: ٢٢٢/٨ ح ٧٨٨٣، شُعب الإِيمَان: ٣٨١/٤ ح ٥٤٧٧، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٣٠/٣ ح ٢٩٥٣، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣٥٨/٤ ح ٧٠٣٠، فَتح البَاري: ٥١٤/١٠ ح ٥٧٥١، سير أَعْلام النُّبلاء: ٩٠/٣ و: ٨٩/١٢، تَفْسِير القُرطُبِي: ٢٦١/٦ و: ٣٢٨/٩، صفُوة الصَّفوة: ٦٥٦/١، تَلخِيص الحَبير: ١١٦/٣ ح ١٤٣٤، خُلاصة البَدر المُنِير: ١٦٩/٢ ح ١٨٦٨، نَيل الأَوطَار: ٢٢٥/٦، الإِحْكَام لِابن حَزم: ٤٥٤/٤.

حَيْث سَدّ الْحَاجَات واستمرَار الْحَيَاة، لاَ مِن حَيْث المظَاهر الفَارِغَة، وَزْدَادُوا عَلَيْهِمْ بِرَاحَة الضَّمِير، وصَفَاء النَّفس، والاِطمِئنَان إِلىٰ المَصِير. سَمِع امبرَاطُور الصِّين القَدِيم عَن أُسرَة صِينِية فَقِيرَة، ولكنّها أسعَد أَهْل الصِّين إطلاَقاً... عَاشت عَشرَات السِّنِين تَحت سَقف وَاحد بِلا إزعَاج، ومَا يَكْدَر صَفُو الْحَيَاة. فَبَعث الأمبرَاطور رَسُوله يَسأَل رَبّ الأُسرَة العَجُوز عَن سرّ هَذِه السَّعادَة. فَبَعث إِلَيْهِ العَجُوز بِرسَالة طُولها مترَان، وَحِين فَتحهَا الأمبرَاطُور وَجدهَا مَنقُوشة بِكَلِمة وَاحدة مِن أَوَّلها إِلىٰ آخرِها، وهِي كَلِمَة الصَّبْر.

(أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ) الْمُرَاد بِلَذة الزُّهْد هُنا الرِّضا بِالمَيسُور. وسُئل الحَكِيم الصِّيني بوذَا[1] عَن السَّعادَة؟ فقَال: الْقَنَاعَة. وسُئل عَن أَكْثَر شَيء

(١) بوذا هُو الاِسم الدِّيني لِمُؤسس الدِّيانة البُوذِية، ومَعناه بِاللُّغة السَّنسكرِيتية: العَالم الَّذي وَصل الحصُول علىٰ البُوذة، وهُو العِلم الكَامِل.

ومِنْهَا أنبَثَقت الدِّيَانة «الجِينيّة» فِي القَرن السَّادس قَبل المِيلاد، كَان ظهُور «مهَاوِيرا، وبُوذا» بِالهند، ويَنحدر مهَاويرا مِن أسرة مِن طبقة الكَاشترِيا الَّتِي تُسيطر علىٰ أُمُور السِّيَاسَة والحَرب، وكَان أبوه «سدهارتها»، عُضواً فِي المَجلس الَّذي يَحكُم المَدِينَة، أو قطاع المُحَارِبين فِيها، وتزوّج «سدهارتها» مِن بِنت رَئِيس هَذَا المَجلس وأسمها «ترىٰ سالا».

وكَان مولد مهَاويرا سَنَة (٥٩٩ ق.م). وفِي اليَوْم الثَّانِي عَشر لولادته اجتمع أعضَاء الأُسرة فِي حَفل كَبِير، ودُعِيت عمّة الطّفل لتختار لهُ أسماً كَالعَادَة. غَيْر أنّ والديه ذكرا أنّ الأُسرة نَعِمت بالرَّخاء، والخَيْر مُنذ حَملت بِهِ أُمّه. وأقترحَا لِذَلِك أنْ يُسمىٰ «وردهاماتا» أيّ الزِّيَادَة. ولكن أتبَاعه يَدعونه «مهَاويرا» مُدعِين أنّه الاِسم الَّذي اختَارته لهُ الآلهة، ومعنَاه: البَطل العَظِيم. ويُدعىٰ كَذَلِك «جِينا» أيّ القَاهر والمُتغلب، وبهَذا سُميت بِهِ الدّيانة الجِينيّة؛ لأنّ مؤسسِيها عَرفوا بقَهر شَهواتهم، والتّغلب علىٰ رغبَاتهم المَادية.

وعقَائد الجِينيّة كما يَقول أحد الفَلاسفة الهنُود: هِي حَركة عقلية مُتحررة من سُلطان الويدات، مَطبوعة

إِيلاَماً لِلنَّفس ؟ فقَال : تَأنِيب الضَّمِير . ومِن صفَات رَسُول الله ﷺ إنّه كَان فِي طعَامه لاَ يَرد موجُوداً ، ولاَ يَتَكلف مَفْقُوداً (أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ) أي أنَّ الْمُتَّقِين قَرِيبُون مِن رَحمَة الله وكَرَامته (لاَ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ) فِي طَلَب الْعَفْو وحُسن مَآب (وَ لاَ يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ) مِن الدُّنْيَا مَا فِيهِ الكفَايَة وَلَهُم فِي الآخِرَةِ أَجرٌ عَظِيم .

لاَ تُسْخِط الْخَالِق بِرِضَىٰ الْمَخْلُوق...فِقْرَة ٣ ـ ٦:

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَ قُرْبَهُ ، وَ أَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَ خَطْبٍ جَلِيلٍ ، بِخَيْرٍ لاَ يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً ، أَوْ شَرٍّ لاَ يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً ، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ! وَ مَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا ! وَ أَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ ، وَ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ ، وَ هُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ ، وَ الدُّنْيَا تُطْوَىٰ مِنْ خَلْفِكُمْ[٣] . فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَ حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَ عَذَابُهَا جَدِيدٌ . دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ، وَ لاَ تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ ، وَ لاَ تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ ، وَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ ، وَ أَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ[٤] .

⇐ بِطَابِع الذّهن الهندُوسِي التَام ، أُسّس بُنيانها عَلَىٰ الْخَوْفِ من تِكرار المَولد ، والهَرب من الحيَاة اتـقاء شَائمَاتها ، ومَنشؤها الزُّهْد فِي خَير الحيَاة فزعاً من أضرَارها ، عمَادها الرّياضة الشّاقة ، والمُراقبات المُتعبة ، ومعوّلها الجمُود للملذات ، والمُؤلمات ، وسَببها التّقشف ، والتّشدد فِي العَيش ، وطَريقها الرّهبَانية ، ولكن غَيْر رهبَانية البَرهمية . أُنظر ، موسُوعة الأَدْيَان فِي العَالم / الدّيانَات القَدِيمة : ١٦٢ ، وقصص الأَنْبِيَاء لِابْن كثير ، والبدَاية والنّهاية ، وتَأرِيخ الطَّبَرِيّ .

وَ اعْلَمْ ـ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ـ أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَىٰ نَفْسِكَ، وَ أَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ، وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَ لاٰ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَ لَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ(٥).

صَلِّ الصَّلاٰةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَ لاٰ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَ لاٰ تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لإِشْتِغَالٍ، وَ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاَتِكَ.

فَإِنَّهُ لاٰ سَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَىٰ وَ إِمَامُ الرَّدَىٰ، وَ وَلِيُّ النَّبِيِّ، وَ عَدُوُّ النَّبِيِّ. وَ لَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: «إِنِّي لاٰ أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مُؤْمِناً وَ لاٰ مُشْرِكاً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَ أَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ. وَ لَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَ يَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ»(١)(٦).

اللُّغَة:

طُرَدَاءُ: جَمع طَرِيد أو مُطَارَد. ومَحْقُوقٌ: مُطَالَب بِالْحَقِّ. وتُنَافِحَ: تُدَافِع. ويَقْمَعُهُ: يَقْهَرُهُ. والْجَنَانِ ـ بِفتح الجِيم ـ الْقَلْب.

الإِعْرَاب:

دَارٌ أي هِي دَارٌ، وظَنّاً تَمْيِيز، ومِثله خَوْفاً، وأَهْلَ مِصْرَ بَدَل مِن أَعْظَمَ أَجْنَادِي،

(١) أنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١/٦٣ ح ١٨٠، مَجْمَع الزّوائد: ١/١٨٧، الْمُعْجَم الأوسط: ٧/١٢٨ ح ٧٠٦٥، الْمُعْجَم الصَّغِير: ٢/٢٠٠ ح ١٠٢٤، التَّرغيب والتَّرهيب: ١/٧٥ ح ٢٢١ و: ٣/١٦٦ ح ٣٥١٦، نُزهة النَّاظر وتَنبيه الخَاطر: ١٢، كنز الْعُمَّال: ١٠/١٩٩ ح ٢٩٠٤٦.

والْمَصْدَر مِن أَنْ تُخَالِفَ مجرُور بِالبَاء المحذُوفة.

الْمَعْنَىٰ:

(فَٱحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَ قُرْبَهُ، وَ أَعِدُّوا لَـهُ عُـدَّتَهُ... إلخ). ٱسْـتَعِدُوا لَـهُ وٱعْمَلوا لما وَرَاءه مِن حِساب وجَزاء. وتَقَدَّم الكَلاَم عَن الْمَوْت مرَّات ومـرَّات.. بالإضَافة إلىٰ وضُوح الكَلاَم هُنا وصَرَاحته (بِخَيْرٍ لا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لاَ يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً). يَدُل هَذَا بِظاهرِهِ أنَّ الإنْسَان يُعَامل غَـداً كَـمُسيء بَحْت لاَ يُثاب عَلىٰ حَسَنة أَبَداً أيّاً كَان نَوْعها، أو كَمُحسن مَحْض لاَ يُعَاقب عَلىٰ سَيِّئَة أَبَداً مَهما تَكُن، ولاَ ثَالِث خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَأخَرَ سَيِّئاً... وَلَيْس مِـن شَكّ أنّ هَـذَا يَتنَافىٰ مَع العَدَالة الإلٰهية، ومَع الْكَثِير مِن النّصُوص الْقُرْآنِيّة الّتي قَالت بـوضُوح: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَايَـظْـلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَـنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[2]؟ وَهل تَكُون الْحَسَنَة عِـند الله سَيِّئَة أو هَبَاء؟.

الجَوَاب:

قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الآيَة: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[3]. وَقَالَ فِي الآيَة: ﴿فَيَوْمَـئِذٍ لَّايُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[4]. وقَد وَفق المُفسرُون وَجمعُوا بَيْنَ الآيَتين بِأنَّ

(١) ٱلنِّسَاء: ٤٠.

(٢) ٱلرَّحْمَـٰنِ: ٦٠.

(٣) ٱلصَّافَّاتِ: ٢٤.

(٤) ٱلرَّحْمَـٰنِ: ٣٩.

فِي الْقِيَامَة موَاقف يُجرىٰ فِي بَعْضهَا الحِسَاب والسُّؤال، وفِي بَعْضهَا لا سؤَال ولا حِسَاب... وعَلىٰ هَذَا يُحمل كَلاَم الإِمَام، أو يجُوز عَلَيْهِ، ويُقَال هَكذَا: مَن أَحْسَن وَأَسَاء فِي عَمَله اليَوْم يُعَامل غَداً فِي بَعْض المَوَاقف بِالحُسنىٰ فَقط، وفِي مَوقِف يُعَامل كَمُسيء فَقط.. وفِي النّهَاية هُو إِلىٰ الجَنَّة إنْ تَغلَبت الحَسَنَات، أو إِلىٰ النَّار إِنْ تَغَلبت السَّيِّئَات.

(فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا!). قَد تَأْتِي الآفَات عَلىٰ مَا تَزْرَع، والزَّلاَزِل عَلىٰ مَا تَبنِي، ويَذْهَب جُهدك مَع الرِّيح، وقَد تَخسَر فِي تجَارتُك ويَذْهَب رَأس المَال بَعضه أو كلّه. أمّا طَاعتك للهِ فإِنَّهَا تُؤَدِّي بِك حَتماً إِلىٰ جَنْته، وأيضاً مَعْصِيتُك لهُ تَقُودك إِلىٰ نَاره لاَ مَحالَةَ إِنْجازاً لوَعده تَعَالىٰ، وقضَاء لأمرِه إِلّا أَنْ يَشَاء، ولاَ يَشَاء إِلّا لِحِكْمَةٍ.

(وَ الدُّنْيَا تُطْوَىٰ مِنْ خَلْفِكُمْ) لأَنَّكُم تَطوُون اللَّيْل والنَّهَار (وَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَ أَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ... إلخ). أَنْ تجْمَعُوا بَيْنَ الخَوْف مِن الله الَّذي يَزْجُرُكُم عَن الحرَام، ويَدعُوكُم إِلىٰ التَّخلي عَن الْعُيُوب والتَّوْبَة مِن الذّنُوب، أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ذَلِكَ وبَيْنَ الرَّجَاء والأمَل بثَوَابه الَّذي يَبْعَثكُم عَلىٰ الصَّالحَات والسِّبَاق إِلىٰ الْخَيْرَات (فَاجْمَعُوا بيْنَهُمَا) ومَن وُفّق إِلىٰ الجَمع فَقَد فَاز.

(فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ). المُرَاد بِحُسْن الظَّنّ هُنا الثِّقَة بثَوَاب الله عَلىٰ طَاعته، والمْعَنىٰ أَنّ الْخَوْف مِن عذَاب الله عَلىٰ السَّيِّئَة بِلا رَجَاء الثَّوَاب مِنْهُ عَلىٰ الْحَسَنَة، ورَجَاء الثَّوَاب مِنْهُ عَلىٰ الحَسَنَة بِلا خَوْف مِن عَذَابه عَلىٰ السَّيِّئَة كِلاَهُما لاَ يَنْسَجم مَع العَدَالة الإِلهِية الَّتي تجزي كلّ نفْس بمَا تَسعىٰ، ولاَ يَستوي لَدِيها المُحسن والمُسِيء... ولذَا جَعل الإِمَام رَجَاء الثَّوَاب

مُلاَزماً للخَوْف مِن العقَاب وجُوداً وَعَدماً ، وشُدة وضَعفاً ، لأنّ مَصْدَرهُما وَاحد ، وهُو العِلم بِعَدَالتهِ تَعَالىٰ .

لاَ تَدَع الإلْحَاح عَلىٰ اللهِ:

وَقَالَ الإِمَام زَين العَابدِين حَفِيد الإِمَام أَمِير الْمُؤْمِنِينَ : «لو أَنزل ٱلله تَعَالىٰ كتَابَاً إنّه مُعَذّب رَجُلاً وَاحِداً خِفْت أنْ أَكُونه ، أو أَنّه رَاحم رَجُلاً وَاحِداً لرَجَوت أنْ أَكُونه ، أو أَنّه مُعذبِي لاَ مَحالَة ، ما ٱزْدَدت إلا اِجْتِهَاداً ، لِئلا أَرْجَع إِلىٰ نَفْسِي بِالمَلاَمة»[1] . ومَعْنىٰ هَذَا أَنّه لاَ يَقْنط أَبَداً مِن رَحْمَة الله حَتَّىٰ ولَو قَضىٰ وقَدَر أنْ يُعذبه لاَ مَحالَة . . سَلاَم الله عَلَيْكَ يَا مولاَي لقَد خَفَفت عَني ـ والله ـ وجَرّأتني أنْ أُلح وأُلح عَلىٰ الله مُلتَمِساً قِراه . . . لاَ أَحْوَلَ ولَنْ أَزول عَن بَابه وإنْ نَهرنِي ، وأقول لهُ بوقَاحَة وصَلاَفة : أَبَداً لَن أَنْصَرف ، وإِلىٰ أَين ؟ والخَيْر كلّه بِيدك ، ومَا جَدوَاك مِنْهُ ، وأَنَا إِلَيْهِ أَحوَج ؟ ولا يَنقُصك عطَاء . . . فهَات ولاَ أَمل فِي سوَاك .

وتَقَدَّم الكَلاَم عَن فَلْسفَة الخَوْف والرَّجَاء فِي شَرح ٱلخُطْبَة[2] . (وَ ٱعْلَمْ ـ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ـ أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ) . المُرَاد بِالأَجْنَاد هُنا الأقَالِيم والأَطرَاف ، ويَدل كَلاَم الإِمَام أَنّه كَان يُحب أَهْل مِصْر ، ولعَل السَّبب لِهَذا الحُبّ ثورَة المِصْريين عَلىٰ عَاملهُم الطَّاغِية عَبد الله بن أبِي السَّرح الَّذي أَفْسَد بَيْنَ المِصْرِيين والخَلِيفَة الثَّالث عُثْمَانَ[3] . (فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَىٰ

(١) أُنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد : ٢/١٠٠ و : ١٥/١٦٧ .
(٢) أُنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة : ٱلخُطبَة (١٦٠) . (مِنهُ ﷺ) .
(٣) أُنظر ، البِدَاية والنِّهاية : ٧/١٥٢ ، الكَامِل في التَّأريخ : ٣/٤٣ ، تَأريخ الطّبريّ : ٥/٤٩ .

نَفْسِكَ) . المُرَاد بِالنَّفس هُنا الهَوَىٰ ، والمَعْنَىٰ أَنَّك مُطَالب أو جَدِير بِك أنْ تَقمَع هوَاك ، أو لاَ تَستَجِيب لدَعوتَه عَلىٰ الأقَل . وبِكَلام أَعمّ أنّ فِي كلّ واحد مِنّا عَدوّاً لاَ يرَاه ويَلبِّس ، وَعَلينا أنْ نَزجرَه ولاَ نَستَمع إِلَيْهِ وإلّا سَيطر وتَحَكم.

(وَ أَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ) ولاَ تَدَع لِشَيَاطِين الإنْس والجِنّ عَلَيْكَ سَبِيلاً (وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ) بِحَيث لاَ تَبقىٰ بَعدهَا ثَانِيَة ، هَذِه سَاعَة فِي إِصْلاَح دِينَك ونَفْسك .

بَاعُوا دِينهُم لِلشَّيْطَانِ:

(وَ لاَ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ . . . إلخ). لأنّه لاَ شَيء يُغنِي عَن مرضَاته تَعَالىٰ . وهَل يَبِيع المُؤْمِن بِالله دِينه لِلشَّيْطَانِ بِثَمن ؟ . أجْل ، لَقَد فَعَلها عَلاَنِيَة الكَثِير مِن المُنْتَسِبِين إِلىٰ الأَدْيَان والمَذَاهِبُ فِي هَذَا الزَّمَان ، وعَقدُوا المُؤتمَرَات «الدِّينِية» بِوَحي مِن الاِسْتعمَار والصّهيُونِية ، وأَصْدَر بَعْض هَذِه المُؤتمَرَات قَرَاراً بِبَرَاءَة اليَهُود مِن دَم السَّيِّد المَسِيح خِلافاً لنَّص كتَابِهِمْ ، الإنجِيل ، وبَعْضهَا أَصدَر قَرَاراً بِالفَرق بَيْنَ اليَهُودِية والصّهيُونية ، وفِي المُؤتمَرِين «عَمَائِم» مَع العِلم بِأنَّ تورَاة اليَهُود الحَاضِرة تَنص صَرَاحة عَلىٰ أَنَّهم شَعب الله المُخْتَار دُونَ سَائِر الشّعُوب ، وإنّ الله قَد أَحَلَّ لهُم أنْ يَسخّرُوا كلّ الآدمِيين تمَاماً كمَا يُسخّرُون الحَيَوَان الأَعْجَم . . . فَإِلَه إِسرَائِيل كمَا تَتحدَث عَنْهُ التّورَاة والتّمود وكُتب اليَهُود لَيْس هُو الله الَّذي تَفهَمه البَشرِية ، وإنّمَا هُو إِله خَاص لاَ يُعنِية مِن أَمر العَالم شَيء سوىٰ اليَهُود وَحدَهُم . . وهَذِه هِي الصّهيُونية بِالذَات . . . والَّذي يَستَوقف النَّظر حقّاً أنّ مَا مِن مُؤتمر دِيني ـ حَتَّىٰ الإِسْلاَمِي ـ أشَار بِكَلمِة وَاحِدة إِلىٰ أمرِيكا حَلِيفة الصّهيُونية ، وقَائِدة

مُلاَزِماً لِلخَوْف مِن العقَاب وجُوداً وَعَدماً، وشُدة وضَعفاً، لأنّ مَصْدَرهُما وَاحد، وهُو العِلم بِعَدَالتهِ تَعَالىٰ.

لاَ تَدَع الإِلْحَاح عَلىٰ الله:

وَقَالَ الإِمَام زَين العَابدِين حَفِيد الإِمَام أَمِير المُؤْمِنِينَ: «لو أَنزل ٱلله تَعَالىٰ كتَابَاً إِنّه مُعَذِّب رَجُلاً وَاحِداً خِفْت أنْ أَكُونه، أو أَنّه رَاحم رَجُلاً وَاحِداً لرَجَوت أنْ أَكُونه، أو أَنّه مُعذبِي لاَ مَحَالَة، مـا ٱزْدَدت إلا اِجْتهَاداً، لِئلا أرْجَع إِلىٰ نَفْسِي بالمَلاَمة»[1]. ومَعْنىٰ هَذَا أَنّه لاَ يَقْنط أَبداً مِن رَحْمَة الله حَتَّىٰ ولَو قَضىٰ وقَدر أنْ يُعذبه لاَ محَالَة.. سَلاَم الله عَلَيْكَ يَا مولاَي لقَد خَفَفت عَنِي ـ والله ـ وجَرّأتنِي أنْ أُلح وأُلح عَلىٰ الله مُلتمساً قِراه... لاَ أحوْلَ ولَنْ أزول عَن بَابه وإنْ نَهـرنِي، وأقـول لهُ بوقَاحَة وصَلاَفة: أَبَداً لَن أَنْصَرف، وإِلىٰ أين؟ والخَيْر كلّه بيدك، ومَا جَدوَاك مِنْهُ، وأَنَا إِلَيْهِ أَحوَج؟ ولا يَنْقُصك عطَاء... فهَات ولاَ أَمل فِي سوَاك.

وتَقَدَّم الكَلاَم عَن فَلْسَفَة الخَوْف والرَّجَاء فِي شَرح ٱلخُطْبَة[2]. (وَ ٱعْلَمْ ـ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ـ أَنّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ). المُرَاد بِالأَجْنَاد هُنا الأقَالِيم والأَطرَاف، ويَدل كَلاَم الإِمَام أنّه كَان يُحب أَهْل مِصْر، ولعَل السَّبب لهَذا الحُبّ ثورَة المِصْريين علىٰ عَاملهُم الطَّاغِية عَبد الله بن أبي السَّرح الَّذي أَفْسَد بَيْنَ المِصْريين والخَلِيفَة الثَّالث عُثْمَانَ[3]. (فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَىٰ

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لاِبن أَبِي ٱلحَدِيد: ٢/١٠٠ و: ١٥/١٦٧.

(٢) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة(١٦٠). (مِنهُ).

(٣) أنظر، البدَاية والنّهاية: ٧/١٥٢، الكَامِل في التّأريخ: ٣/٤٣، تأريخ الطّبريّ: ٥/٤٩.

نَفْسِكَ) . الْمُرَاد بِالنَّفس هُنا الْهَوَىٰ ، والْمـَعْنَىٰ أَنَّك مُـطَالب أو جَـدِير بِك أَنْ تَـقمَع هوَاك ، أو لاَ تَسْتَجِيب لدَعوتَه عَلىٰ الأَقَل . وبِكَلام أَعمّ أَنّ فِي كلّ واحد مِنّا عَدوّاً لاَ يرَاه ويَلبّس ، وَعَلِينا أَنْ نَزجرَه ولاَ نَستَمع إِلَيْهِ وإِلّا سَيطر وتحَكم .

(وَ أَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ) ولاَ تَدَع لِشَيَاطِين الإنْس والجِنّ عَلَيْكَ سَبِيلاً (وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إلاّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ) بِحَيث لاَ تَبقىٰ بَعدهَا ثَانِيَة . هَذِه سَاعَة فِي إِصْلاَح دِينِك ونَفْسك .

بَاعُوا دِينهُم لِلشَّيْطَانِ:

(وَ لاَ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ . . . إلخ) . لأَنّه لاَ شَيء يُغْنِي عَن مرضَاته تَعَالىٰ . وهَل يَبِيع الْمُؤْمِن بِالله دِينه لِلشَّيْطَانِ بِثَمن ؟ . أَجْل ، لَقَد فَعَلها عَلاَنِيَة الْكَثِير مِن الْمُنْتَسِبِين إِلىٰ الأَدْيَان والْمَذَاهِبُ فِي هَذَا الزَّمَان ، وعَقدُوا المُؤتمرَات «الدِّيـنِية» بِوَحيٍ مِن الاِسْتعمار والصّهيُونية ، وأَصْدَر بَعْض هَذِه الْمُؤتمرَات قَرَاراً بِبرَاءَة اليَهُود مِن دَمِ السَّيِّد المَسِيح خِلافاً لنَّص كتَابِهِمْ ، الإنجِيل ، وبَعْضهَا أَصدَر قَرَاراً بِـالفَرق بَيْنَ اليَهُودِية والصّهيُونية ، وفِي المُـؤتمَرين «عَـمَائِم» مَـع العِـلم بِأَنَّ تـورَاة اليَهُـود الْحَاضِرة تَنص صَرَاحة عَلىٰ أَنَّهم شَعب الله الْمُخْتَار دُونَ سَائِر الشّعُوب ، وإِنّ الله قَد أَحَلَّ لهُم أَنْ يَسخّرُوا كلّ الآدمِيين تَمَاماً كمَا يُسخّرُون الْحَـيَوَان الأعْـجَم . . . فـإلَه إِسرَائِيل كمَا تَتحدَث عَنْهُ التّورَاة والتّمود وكُتب اليَهُود لَيس هُـو الله الَّـذي تَـفهَمه البَشرِية ، وإِنّمَا هُو إِله خَاص لاَ يُعنِيه مِن أَمر العَالم شَيء سوىٰ اليَهُود وَحـدَهُم . . وهَذِه هِي الصّهيُونية بِالذَات . . . والَّذي يَستَوقف النَّظر حقّاً أَنّ مَا مِن مُؤتمر دِينِي ـ حَتَّىٰ الإِسْلاَمِي ـ أَشَار بِكَلِمة وَاحـدة إِلىٰ أَمـرِيكا حَـلِيفة الصّـهيُونية ، وقَـائِدة

الاِسْتعمَار الجَدِيد.

وَهَذِه ظَاهرة تبدو عَلىٰ تَحرُكَات الْكَثِير مِن الْمُنْتَسبِين إِلىٰ الدِّين، ولَيْسَت سرّاً، وأنّي لأشعر بِالمَسْئُولِيَة عَن حَرْبِهِم، ولكنْ أَين وَسَائِل القَمع والرَّدع ؟.

(صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَ لاَ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ). تَقَدَّم الحَدِيث عَنْهَا فِي ٱلخُطْبَة (١٩٩) (فَإِنَّهُ لاَ سَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَىٰ وَ إِمَامُ الرَّدَىٰ، وَ وَلِيُّ النَّبِيِّ). قَالَ الشَّارِحُون: أَرَاد الإِمَام بِإِمَامُ الْهُدَىٰ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ نَفْسَه، وبِإِمَامُ الرَّدَىٰ وَعَدوّ الله وَالْمُنَافِق مُعَاوِيَة. وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «مُعَاوِيَة عَدوّ الله والنَّبِيِّ، لأَنّه عَدوٌ لِعَليّ، وثَبَت عَن رَسُول الله أَنّه قَالَ لِعَليّ: «وَلِيّك وَلِيّي ووَلِيّ الله، وَعدُوّك عَدُوّي وَعَدوّ الله»»[1]. وَقَالَ مِيثَم: هَذَا الْخَبَر مَشهور. وعَلينا نَحنُ أَنْ نُشِير إِلىٰ مَصْدَر هَذَا الحَدِيث ومَا فِي مَعنَاه. وقَد جَاء فِي كتَاب «الخصَائِص» لِلنَّسائِي: ٤ طَبعَة ١٣٤٨ هـ بِمَطبعَة التَّقَدُم بِمِصْر، و«ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٦٥، «أُسد الغَابَة» لاِبْن الأَثِير: ٢ / ١٥٤ طَبعَة سَنَة ١٢٨٥ هـ. بِمَطبعَة الوَهبِية بِمِصْر، وكُتب أُخرىٰ كَثِيرة ذَكرها صَاحب كتَاب «فضَائِل الْخَمْسَة مِن الصّحَاح السِّتَة»[2].

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٥/ ١٧٠.

(٢) أُنظر، مُسْتَدرَك الْحَاكِم: ٣/ ١٢٧ و ١٢٨، الرِّيَاض النَّضِرة: ٣/ ١٢٢ و ١٢٤ و ١٦٧، مَجْمَع الزَّوائِد: ٩/ ١٣٣، بِشَارة الْمُصْطَفَىٰ: ١٢٩ و ٢٠٥.

الرسالة
ـ ٢٨ ـ

إلىٰ مُعَاوِيَة...فِقْرَة ١ ـ ٣:

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اَصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله لِدِينِهِ ، وَ تَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً ، إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَنَا ، وَ نِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَىٰ هَجَرَ ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَىٰ النِّضَالِ . وَ زَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَ فُلَانٌ ، فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اَعْتَزَلَكَ كُلُّهُ ، وَ إِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ[1] . وَ مَا أَنْتَ وَ الْفَاضِلَ وَ الْمَفْضُولَ ، وَ السَّائِسَ وَ الْمَسُوسَ ! وَ مَا لِلطُّلَقَاءِ وَ أَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ ، وَ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَ تَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ ، وَ تَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، وَ طَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا ! أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَىٰ ظَلْعِكَ ، وَ تَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ ، وَ تَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ ، وَ لَا ظَفَرُ الظَّافِرِ[2] !

وَ إِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ ، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ . أَلَا تَرَىٰ ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ، وَ لَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً اَسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ ، وَ

لِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ : سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ ، وَ خَصَّهُ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلاَتِهِ عَلَيْهِ ! أَ وَ لاَ تَرَىٰ أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَ لِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّىٰ إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ ، قِيلَ : «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَ ذُو الْجَنَاحَيْنِ » ! وَ لَوْ لاَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً . تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَ لاَ تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ(٣) .

اللُّغَة:

طَفِقْتَ : ٱبْتَدأت . والْمُرَاد بِبَلَاءِ اللهِ هُنا إحْسَانه . وهَجَرَ (الهفوف) : مَدِينَة بِالبَحرين كَثِيرَة النَّخِيل . والنِّضَالِ : المُرَامَاة . ومُسَدِّدِهِ : مُعَلِّمه . وٱعْتَزَلَكَ : لاَ شَيء لَك مِنْهُ . وثُلْمَتهُ : عَيبه وخَلله . والطُّلَقَاءِ : الَّذِين أُسِروا فِي حَرْب وأُطلقُوا . وحَنَّ : صَوّت . والقِدْح ـ بِكسر القَاف ـ السَّهم . وٱرْبَع عَلَىٰ ظَـلْعِكَ : قِـف عِـند حَـدك . والذَّرْعِ ـ بِسكُون الرَّاء ـ بَسط اليَد ، ويُقَال : ضَاق بِالْأَمْر ذَرْعَاً أي لَم يَقدر عَلَيْهِ . والتِّيهِ : الضَّلال . ورَوَّاغٌ : كَثِير المَكر والخِدَاع . والْقَصْدِ : الْإِعْتِدَال .

الْإِعْرَاب:

أَنْتَ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر ، و«مَا» خَبَر مُقدم ، وهِي للإِسْتفهَام عَلىٰ الإِنْكَار ، والْفَاضِلَ بِالنَّصب مَعَه ، لأنّ الْمَعْنَىٰ مَع الْفَاضِلَ ، وَالتَّمِييزَ مَفْعُول مَعه لِلطُّلَقَاءِ . وهَـيْهَاتَ ٱسم فَعل بِمَعْنَىٰ بَعْدُ . وَمَا غَلَبَةُ مُبْتَدَأ وخَبَر ، وعَلَيْكَ مُتَعَلّق بِغَلَبَة ، ورَوَّاغٌ خَبَر بَعْدُ خَبَر لأَنَّكَ ، وغَيْرَ مُخْبِرٍ خَبَر لمُبْتَدَأ أي أَنا غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ، والْمَصْدَر مِن أَنَّ قَوْماً مَـفْعُول تَرَىٰ ، وسَيِّدُ الشُّهَدَاءِ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحذُوف ومِثله الطَّيَّارُ ، ومَا نَهَىٰ «مَـا» مَـصْدَرِيَة

والْمَصْدَر المُنسبك مُبْتَدَأً، والْخَبَرَ مَحْذُوف وجُوبَاً أي لولا نَهي نهي الله كَائن، وجُمْلَة صِفَة لَفضَائِلَ.

الْمَعْنَىٰ:

(**أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اَصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً ﷺ لِدِينِهِ**). الخِطَاب لمُعَاوِيَة، وكَان قَد كتَب لِلْإِمَام رِسَالَة تَدل عَلىٰ أنّ دَهاءَه وذَكاءَه يَنْحَصر بِصكُوك البَيع والشّرَاء، وإنّ عَقْلَه لاَ يَصلُح إلّا للتّجَارة وعَقد الصَّفقَات مَع تِجارٍ مِن أمثاله، وكاَبن العَاص أَخَذ مِنْهُ مِصْر، وحَارَب مَعه مُعَاوِيَة، والْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ اَشترىٰ مِنْهُ الْكُوفَة بِتَمهِيد الْبَيْعَة لِيَزِيد، أمّا زِيَاد اَبن أَبِيه فكَان رِقاً لمُعَاوِيَة، والثّمَن إلصَاقه بأَبِي سُفْيَانَ... ومَن رَفض عَقد الصَّفقَات التّجَارِية مَع مُعَاوِيَة دَسَّ إِلَيْهِ السُّم بِالعَسَل... وهَذِه هِي سِيَاسَة مُعَاوِيَة، وهَذَا دَهَاؤه وذَكاؤه: شرَاء الدِّين والذِّمم، والْمَوْت لمِن أبىٰ إنْ اَستطَاع إِلَيْهِ سَبِيلاً، وإذَا جَاد مُعَاوِيَة عَن ذَلِكَ الخَط فَلا ذَكَاء عِندَه ولاَ دَهَاء، والدَّلِيل هَذَا الكتَاب الّذي أجَاب عَنْهُ الإِمَام بمَا فضَحَه وأخزَاه، ورَدّ كِيدَه إلىٰ نَحره.

وإِلَيْكَ الْبَيَان:

روىٰ اَبن أَبِي اَلحَدِيد عَن أُستَاذه النَّقِيب أَبِي جَعْفَر[1] أنّ مُعَاوِيَة كَان يَتَلهف عَلىٰ

---

(١) هُو شَرف الدِّين أبو جَعفر يَحيىٰ بن أَبِي طَالب مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أَبِي زيد الحَسَني النَّقيب، وقَد بَالغ اَبن أَبِي اَلحَدِيد فِي وَصفه، ولذَا وَصَفه بالوثَاقة، والأَمَانَة، والبُعد عن الهَوىٰ، والتَّعصُّب، والإِنْصَاف فِي الجدَال مَع غزَارة العِلم، وسعَة الفَهم، وكمَال العَقل، ولَم يَكُن إمَامِي المَذْهَب، ولاَ كَان يَبرأ من السَّلف ولاَ يَرتضي قَول المُسرفِين من الشِّيعة. أُنظر، شَرح نَهج اَلبَلاَغَة: ٢٤٨/٩ و: ٩٠/١٢ و: ١٨٥/١٥.

كَلِمة مِن فَمّ الْإِمَام يَغمز بِها الشّيخِين، ولِيجعَلها حُجّة عِند أَهْل الشَّام، ولمّا عَجز أَرسَل إِلىٰ الْإِمَام الكِتَاب تُلو الكِتَاب والرِّسَالة بَعد الرِّسَالة يَذكر فِيها فَضل أَبِي بَكْر وعُمَرَ، لِيَنفُث الْإِمَام بَعْض مَآخذ عَلَيْهِمْ، فَيَتَّخِذ مِنْهَا مُعَاوِيَة مَا ٱتَخَذ مِن قَمِيص عُثْمَانَ، ومِن رَسَائِله فِي ذٰلِكَ الرِّسَالة الّتي نَحنُ بِصَدد وجوَابها. هَذَا مَا قَاله النَّقِيب لِتلمِيذة الشَّارح، وجوَاب الإِمَام يَشهد بِصحته كمَا يَشهد بأنّ الْإِمَام أدْرَك هَدف مُعَاوِيَة، فَفوّت عَلَيْهِ الْفُرْصَة، وكَشَف لهُ عَن سُوء طوِيَته حَيْث قَالَ لهُ فِيما قَالَ: وأَرَدتَ أَنْ تَفْضَح فَٱفْتَضَحت.

(فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً، إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَنَا). وأي شَيء أَعْجَب مِن هَذَا؟ مُعَاوِيَة يُحدث عَلِيّاً عَن فَضل مُحَمَّدﷺ! غَرِيب مُتَطفل يُخبر أَهْل الْبَيْت بمَا فِي خَزائِنهم!. عَدُوّ أَبِيك اللَّدُود يُنْبِئك عِن فَضله وعَظمته!. ولاَ أَدري: هَل هَذَا دَهاء أو نُكتة؟. وقَد تَواضع الْإِمَام حِين شَبّه مُعَاوِيَة بِالتّلمِيذ يَدعُو أُستَاذه إِلىٰ المُسَابقة والمُبَاراة (وَ زَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَ فُلَانٌ). هَذَا هُو بَيْت القَصِيد فِي رِسَالَة مُعَاوِيَة، أثنىٰ عَلىٰ الشّيخِين لِيَطعَن الْإِمَام عَلَيْهِمَا، فَيبلغ مِنْهُ مُعَاوِيَة مَا أَرَاد، ولكنَّ الإِمَام وَجه إِلىٰ قَلب مُعَاوِيَة طَعنَة نَجلاء حِين قَالَ لهُ: مَا أَنْتَ وَأَهْل السِّيَّاسَة والْفَضْل، والْهِجْرَة والنَّصر؟. إِنَّك طَلِيق وأبن طَلِيق، حَارَبت أَنْتَ وأَبوك الْإِسْلَام ونَبِي الْإِسْلَام، ثُمَّ ٱستَسلمتمَا كَرْهاً لا طَوْعَاً.

(فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَ لاَ ظَفَرُ الظَّافِرِ). لاَ تُقْحِم نَفْسَك بَينِي وبَيْنَ الشّيخِين غَالبَاً كُنتُ أو مَغلُوباً، فَتَقدمهُما عَليَّ لَيْس ٱنتصَاراً لَك، ولاَ تَقدمُي عَلَيْهِمَا إِلّا يَزِيدُك خِزياً، لأنّك مَع الطُّلَقَاء لاَ مَع السَّابقِين الْأَوَّلِينَ (أَ لاَ تَرَىٰ - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ) لأنّ مِثلي لاَ يَقصد مِثلك بِالحَدِيث (وَ لَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ) يُشِير إِلىٰ قَوْله

تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١]. (أَنَّ قَوْماً آسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ... إلخ). وفَضلُهُم كَبِير وجَلِيل لأنَّهم أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.

(حَتَّىٰ إِذَا آسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ... إلخ). لكلِّ شَهِيد فَضل يُشْكَر، ولكنْ لِشَهِيد أَهْل الْبَيْت أفضَلِية عَلَىٰ سَائِر الشُّهَدَاء لاَ يُنكرهَا مُسْلِم، والدَّلِيل أنّ رَسُول اللهﷺ سَمّىٰ حَمْزَة بن عبد المُطلب سَيِّد الشُّهَدَاء، وكَبَّر عَلَيْهِ سَبْعِينَ تَكْبِيرَةً، ومَا فَعل هَذَا بِشَهِيد مِن الأَنْصَار والْمُهَاجِرِين، وإذْكَان لاَ يزِيد عَن سَبع تَكْبِيرَات، ولاَ يُعطِي الشَّهِيد أي لَقب[٢]. وَقَالَ آبن أَبِي آلحَدِيد: «إنّ حَمْزَة سَيِّد الشُّهدَاء فِي حيَاة النَّبيّﷺ فَقط، لأنّ الإِمَام هُو سيِّدٌ لكلِّ شَهِيد ومُسْلِم بَعد رَسُول الله»[٣].

(أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَ لِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّىٰ إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ... إلخ). يُشِير إلى أَخِيه جَعْفَر وآستِشْهَاده فِي مُؤْتَة. وَتَقَدَّم الكَلاَم عَنْهُ، وعَن حَمْزَة فِي آلرِّسَالة (٩) (وَ لَوْ لاَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ).

---

(١) آلضُّحَىٰ: ١١.

(٢) أنظر، شَرح مُسْنَد أَبِي حَنِيفَة: ٥٢٦، كتَاب الأُمّ للإِمَام الشَّافعي: ٣٠٥/١، شَرح سُنَن النَّسائي: ٦١/٤، فَتح القدِير: ٣٨٧/٢، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١٨٤، الثَّمر الدَّاني: ٢٧٢، المجموع: ٢٦٥/٥، الأَحكام لِلإمَام يَحيىٰ بن الحُسَيْن: ١٥٣/١، مُسْنَد زِيد بن عَليّ: ٤٥٢، نِيل الأَوطَار: ٨١/٤، سُبل السَّلام: ٩٨/٢، التَّحقيق في أَحَاديث الخِلاَف: ٩/٢ ح ٨٧٠، صَفوة الصّفوة: ٣٧٦/١، التَّدوين فِي أَخبَار قَزوين: ١٨/٢، شَرح السّيوطي: ٦١/٤ ح ١٩٥٤، تُحفَة الأَحْوَذي: ١٠٩/٤، فَتح البَاري: ٢١٠/٣ ح ١٢٧٧، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ٢٤٨/٤، أُسد الغَابَة: ٤٩/٢، ينَابِيع المَوَدَّة: ٢١٧/٢.

(٣) أنظر، شَرح النَّهج: ١٩٣/١٥.

أشَار الْإِمَام إِلىٰ حَمْزَة، وجَعْفَر، وسَكَت عَن نَفْسه تَأدُباً بقَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1].

لَسْتُمْ هُنَاكَ...فِقْرَة ٤ ـ ٧:

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَ النَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا. لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَ لاٰ عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَىٰ قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وَ أَنْكَحْنَا، فِعْلَ الْأَكْفَاءِ، وَ لَسْتُمْ هُنَاكَ! وَ أَنَّىٰ يَكُونُ ذَلِكَ وَ مِنَّا النَّبِيُّ وَ مِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ، وَ مِنَّا أَسَدُ اللهِ، وَ مِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ، وَ مِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَ مِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَ مِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَ مِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَ عَلَيْكُمْ[4]!

فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ، وَ جَاهِلِيَّتُنَا لاٰ تُدْفَعُ، وَ كِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَ هُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[2] وَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَىٰ بِالْقَرَابَةِ، وَ تَارَةً أَوْلَىٰ بِالطَّاعَةِ. وَ لَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَىٰ الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَ إِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَىٰ دَعْوَاهُمْ.

وَ زَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَ عَلَىٰ كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.

(١) ٱلنَّجم: ٣٢.

(٢) ٱلأَنفَالِ: ٧٥.

(٣) آلِ عِمْرَان: ٦٨.

وَ تِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا(٥)(١)

وَ قُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّىٰ أُبَايِعَ، وَ لَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَ أَنْ تَفْضَحَ فَآفْتَضَحْتَ. وَ مَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَ لا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ! وَ هَذِهِ حُجَّتِي إِلَىٰ غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَ لَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَ أَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَىٰ لَهُ، وَ أَهْدَىٰ إِلَىٰ مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَآسْتَقْعَدَهُ وَ آسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ آسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَىٰ عَنْهُ وَ بَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ أَتَىٰ قَدَرُهُ عَلَيْهِ. كَلاَّ وَ اللهِ لَ ﴿قَدْ يَعْلَمُ آللَّهُ آلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَ آلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ آلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾(٢).

وَ مَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَ

---

(١) يُنسب هَذَا الشّعر إلىٰ أبِي ذُؤيب الهذلِي مِن قَصِيدة طَويلة يَرثِي بَنِيه الخَمْسَة فِي عَامٍ وَاحد أصَابهُم الطَّاعون، وَتَارة يُنسب إلىٰ آبن الزُّبَيْر. وَهَذَا هو عجز البَيْت.

وَعَيَّرَهَا الوَاشُون أنِّي أُحبهَا ⁂ وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

أنظر، ديوان الهذليين: ٢١/١، شرح أشعَار الهذليين: ٧٠/١، خزانة الأدب: ٥٠٥/٩، تنوير الحوالك: ٢٠، المُحلىٰ: ٤٣/٦، مُقدمة فتح البَاري: ١٣٧، تَفسِير القُرطُبي: ٣٨٤/١٠، مُعجم الأُدبَاء: ٨٩/١١، صَحِيح البُخَاريّ: ٥٣/٩، تفسِير الثّعالبي: ٥١٨/٣، العِلَل لأحْمَد بن حَنبل: ٩٤/١، الفَائق فِي غَريب الحَدِيث: ٣٠٩/٣، شَرح نَهج آلبَلاغَة لإبن أبِي الحَدِيد: ٨٠/١ و: ١٨٣/١٥ و: ١٢٣/١٨ و: ١٠٨/٢٠، تَارِيخ دِمشق: ١١/٦٩، تهذِيب الكَمَال: ١٢٤/٣٥، البدَاية والنّهاية: ٣٧٩/٨، شَرح نَهج آلبَلاغَة لمُحَمَّد عَبْده: ٣٣/٣، النّهاية فِي غَرِيب الحَدِيث: ٤٩٧/٢.

(٢) الأَحْزَابِ: ١٨.

هِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لاُ ذَنْبَ لَهُ.

وَ قَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ(١)

وَ مَا أَرَدْتُ ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٢)(٦).

وَ ذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَ لِأَصْحَابِي عِـنْدَكَ إِلاَّ السَّـيْفُ، فَـلَقَدْ أَضْـحَكْتَ بَـعْدَ اَسْتِعْبَارٍ! مَتَىٰ أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وَ بِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ؟!

فَلَبِّثْ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ(٣)

---

(١) هَذَا هُو عَجز الْبَيْت، وصَدرَه.

وَكَمْ سَقَت فِي آثَارِكُم مِن نَصِيحَة ... وَقَد يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ

أنظر، شَرح نَهْج الْبَلاَغَة لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ٤٥/١٠ و: ١٨٣/١٥، شَرح نَهْج الْبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٣٥/٣، مَجْمَع البَحرين: ٣١٩/٤، بِحَار الأَنوَار: ٧٢/٣٣، الغَدِير: ٣٤٩/٩، جوَاهر المطَالب فِي مَنَاقب الإِمَام عَلِيّ بن أَبِي طَالب لِابْن الدِّمَشقِي: ٣٧٥/١.

(٢) هُودٍ: ٨٨.

(٣) قَالَ اَبن مِيثَم: هَذَا مَثل يُضرَب للوَعِيد بِالحَرْب، وأَصْله أَنّ حَمل بن بَدر، وهُو رَجُل من قُشَير أُغير عَلَىٰ إبلٍ لهُ فِي الجَاهِلِيَّة فِي حَرْب دَاحس، والبَسُوس، والغَبراء، فَاسْتَنقذهَا، وَقَالَ:

فَلَبِّثْ قَلِيلًا يَلْحَق الهَيْجَا حَمَل ... لاَ بَأْس بِالْمَوْتِ إذَا الْمَوْت نَزَل

وقِيل: أَصله أَنّ مَالك بن زُهير تَوعد حَمَل بن بَدر فقَال حَمَلْ، هَذَا الْبَيْت فأُرسل مَثلاً، وبَعد ذَلِكَ قَتل مَالك فَظَفَر أَخُوه قِيس بن زُهير بِهِ وبأَخِيه حُذَيْفَة فَقتلهُما وَقَالَ:

شَفِيتُ النَّفس مِن حَمَلْ بِن بَدر ... وَسِيفِي مِن حُذَيْفَة قَد شَفَانِي

وقَد نُسب هَذَا الْبَيْت أَيضاً إِلىٰ سَعد بن مَعاذ قَاله فِي يَوْم الخَنْدَق بَعد أَنْ مَرّ وعَلَيْهِ دِرع قَد خَرجت مِنْهَا أَطْرَافه، فقَال لهُ الحَارث بن أَوس: أَنَا أَتخوف عَلَىٰ أَطْرَاف سَعد فقَالَ سَعد:

أنظر، مَجْمَع الزَّوائد: ١١٥/٦ و ١٣٧، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبة: ٤٩٥/٨، صَحِيح ابن حبَّان: ٤٩٩/١٥، المُعْجَم الأوسط: ١١٦/٤، كَنز العُمَّال: ٤٠٦/١٣، الطَّبقَات الكُبرَىٰ: ٤٢١/٣، الإِصَابَة:

⇔

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَ يَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَ أَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ، وَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَ قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَ سُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ، وَ خَالِكَ، وَ جَدِّكَ، وَ أَهْلِكَ، ﴿وَ مَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [1][7].

اللُّغَة:

الرَّمِيَّةُ: الصَّيد يُرمَىٰ. الصَّنَائِعُ: مِن الصَّنِيعة أي الْحَسَنَة. عَادِيٌّ: قَدِيم. والطَّوْل: الْفَضْل. وفَلَجُوا: ظَفَرُوا. والْمُرَاد بالشَّكَاة هُنا العَيب، وبِالظَّاهِر الزَّائِل. الْجَمَل الْمَخْشُوشُ: فِي أَنْفِهِ خَشَبة صَغِيرة يُقاد بها. وٱلْمُعَوِّقِينَ: والمُثَبطِين والمَانِعِين مِن النُّصرَة. والظِّنَّة: التُّهمَة. والْمُتَنَصِّحُ: المُبَالغ فِي النَّصِيحَة. والإِسْتِعْبَار: البُكَاء. ونَاكِلِينَ: مُتَأَخرِين. ولَبِّثْ: مِن اللَّبْث أي المَكْث. والْهَيْجَاء: الْحَرْب. وحَمَلْ: اسم رَجُل مِن قُشَير. ومُرْقِلٌ: مُسْرِع. والجَحْفَل: الجَيْش العَظِيم. وسَاطِعٍ: مُنْتَشِر. القَتَامُ: الغُبَار الأَسوَد. ومُتَسَرْبِلِينَ: لَابِسِين.

⇐ ١٠٨/٢، الأنساب: ٣٤٤/٥، تاريخ الطّبري: ٢٤٠/٢، البداية والنّهاية: ٤٧/٤، تاج العروس: ٢٩٠/١٠، المغازي للواقدي: ٤٦٩/٢، ينابيع المودّة: ٤٤٧/٣، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ٣٧٢/٤، لِسان العَرب: ١٩٣/١٣، أُسد الغابة: ٥٢/٢، سِير أعلام النُّبلاء: ٢٨١/١، عُيون الأثر لِابن سيّد النّاس: ٤٢/٢، السّيرة النّبويّة لِابن كثير: ٨٢/٣، السّيرة النّبويّة لِابن هشام: ٧١٠/٣، الطّبقات الكُبرىٰ: ٤٢١/٣.

(١) هُود: ٨٣.

الإِعْرَاب:

روي قَدِيمُ عِزِّنَا بِنَصب قَدِيم علىٰ نَزع الخَافض أي علىٰ قَدِيم، وعَلَيْهِ يَكُون ضَمِير «نَا» فَاعِل، وروي بِرَفع قَدِيمُ عَلىٰ أنّه فَاعِل و«نَا» مَفْعُول، والْمَصْدَر مِن خَلَطْنَاكُمْ مَجرُور بِمَن مَحذُوفة، وقِيل: الْمَصْدَر مِن أَنْ خَلَطْنَاكُمْ فَاعِل يَمْنَعْ، وفِعْلَ الأَكْفاءِ بِالنَّصب علىٰ الْمَصْدَر أي فِعْلنا فِعْلَ الأَكْفَاءِ، وأَنَّىٰ خَبَر مُقدم لِيَكُون، وذَلِكَ آسمها، وَمِنَّا النَّبِيُّ مُبْتَدأ وخَبَر، وفِي كَثِيرٍ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً لمُبْتَدأ مَحذُوف أي هَذَا قَلِيلٌ مِن كَثِيرٍ... إلخ، ومَرَّةً نُصب عَلىٰ الظَّرفِيَة أي فِعلة وَاحِدَة مِن مرُور الزَّمن، وتَارَةً عَطف عَلىٰ مَرَّةً، وَتِلْكَ مُبْتَدأ أَوَّل، وشَكَاةٌ مُبْتَدأ ثَانٍ، وظَاهِرٌ خَبَر المُبْتَدأ الثَّانِي، والجُملة خَبَر الأَوَّل، وعَارُهَا فَاعِل ظَاهِرٌ، وَعَلىٰ الْمُسْلِمِ خَبَر مُقدم، وغَضَاضَةٍ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، ومِنْ زَائِدَة، ولَكَ خَبَر مُقَدَّم، والْمَصْدَر مِن أَنْ تُجَاب مُبْتَدأ مُؤَخَّر، ولَبِّثْ فِعل أَمر، وقَلِيلاً صِفَة لِمَفْعُول مُطلق مَحذُوف أي لَبِّثاً قَلِيلاً، والْهَيْجَا مَفْعُول يَلْحَق، وحَمَلْ فَاعِل، ومُتَسَرْبِلِينَ حَال، وسَرَابِيلَ مَفْعُول مُتَسَرْبِلِينَ.

الْمَعْنَىٰ:

(فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ). لاَ تَسمَع مِن المُضلِلِين الَّذِين يُزيِّنُون لَكَ سُوء أَعْمَالُك، ويَغرُونك بِحَرْبِنا وَعدَاوتنا (فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَ النَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا). إنّ الله مَنّ عَلينا علينا نَحْنُ الهَاشِمِيِين بِمُحَمَّد ﷺ وَبِهِ خَتَم النُّبُوَّةِ والنَّبِيِين، وإِذَنْ فَنَحنُ أَهْل الْفَضْل عَلىٰ النَّاس بِرَسُول الله ﷺ الَّذي أَخْرَجَهُم مِن الظُّلمَات إِلىٰ ٱلنُّورِ، ولاَ فَضل لأَحدٍ عَلينا سوىٰ الله، فهُو وَحده مَصْدَر هدَايتنا، أَمّا غَيْرنا مِن الْمُسْلِمِين فهدَايته بِنا، فَالْفَضْل لنَا بِمُحَمَّد عَلىٰ أُمّة الإِسْلاَم، ولهَا بِمُحَمَّد وأَهْل بَيْتِهِ

الْفَضْل عَلىٰ سَائِر الأُمَم.

(لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَ لاَ عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَىٰ قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا). نَحنُ يَا مُعَاوِيَة أَجَلّ مِنْكُم وأَعلىٰ، وأَنْتُم أَقلّ وأدنىٰ، ولَيْسَ مَعْنىٰ هَـذَا أنْ لاَ نُعاملكُم مُعَامَلَة الأَكْفَاء فِي الزَّوَاج كِي تَحتَج بِهِ، فإنّ الكُفؤ قَد يَتزَوج ويُزوج غَيْر الكُفؤ.. وتَجـدُر الإِشَارَة إِلىٰ أنّ الإِمَام أَبْعد النَّاس عَن الفَخر، ولكنْ مـوقف مُـعَاوِيَة قَـد اَضْطَرَّه إِلىٰ ذَلِكَ. وَقَالَ حَفِيده الإِمَام جَعْفر الصَّادقعليه السلام: «يَجُوز لِلإِنْسَان أنْ يُزكِي نَفْسَه عِند الضَّرورَة كَمَا فَعل يُوسُفَ حِين قَالَ لِـلك مِـصْر: ﴿قَـالَ اَجْـعَلْنِى عَـلَىٰ خَزَآبِنِ اَلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وَقَالَ اَبن أَبِي اَلْحَدِيد: نَذكر بِهَذه المُنَاسبَة مُنَاكحَات بَنِي هَاشم وعَـبد شَمس، فقَد زَوّج النَّبيّ اَبْنتِيه رُقيَّة وأُم كُلْثُوم مِن عُـثْمَانَ[2]، وزَوّج اَبْـنَته زَيـنب مِـن أَبِي العَاص بن الرَّبِيع بن عبد العُزىٰ بن عَبد شَمس فِي الجَاهِلِيَّة، وتَزوّج أَبُو لَهَب بن عبد المُطلب أُم جَمِيل بِنت حَرْب أُخت أَبِي سُفْيَانَ، وتَزوّج رَسُول الله أُم حَبِيبَة بِنت أَبِي سُفْيَانَ[3].

(وَ مِنَّا النَّبِيُّ وَ مِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ) أَبُو سُفْيَانَ، وَقَالَ بَعْض الشُّرَاح: أَبُو جَـهل!.

---

(١) يُوسُفَ: ٥٥. أُنظر، التّبيَان: ٤/٤٤٤.

(٢) تَقدَّم اَستخرَاج ذَلِكَ.

(٣) أُنظر، تذكرة خواصّ الأُمَّة: ١١٤ طَبْعَة النّجف، التّمهيد والـبيَان: ٢٠٩، الأغـاني: ٢١ / ٩، الاِشـتقاق: ٣٧١، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤/ ٥٠، والإِصَابَة (قِسم اَلنِّساء)، الرّوض الأنف: ٢/٢٦٨، وَقْعَة صِفّين: ٥٤١، شرح النّهج لِاَبْن أَبِي اَلْحَدِيد: ٢/٢٥٢ و: ٣/ ١٩٠،، الإِصَابَة حرف المِيم: ٣ ق ٢ / ٤٥١ طَبْعَة أُخرىٰ، الاِسْتِيعَاب: ٣/ ٣٢٨، الْفُتُوح لِاَبْن أَعْثَم: ١/ ٤٧٢ وما بعدها، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة لِاَبْن قُتَيْبَة: ١/ ٥٥، وما بعدها، تَهذيب الكَمَال: ٢٤ / ٥٤١ رَقم ٥٠٩٧، والإِصَابَة: ٤ / ٢٩٨ طَبعة أُخرىٰ، المَعَارف: ١٣٦.

ولكنْ أبَا جَهل مَخزُومِي، ولَيْسَ بِأمُوي، يَنْتَهِي نَسَبه إِلىٰ مَخزُوم بن يَقظَة بن مُرّة بن كَعب ٱبن لؤي، كَمَا فِي سِيرة ٱبن هُشام[١] (وَ مِنَّا أَسَدُ اللهِ) حَمْزَة بن عَبدالمُطلب (وَ مِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ... إلخ). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «أَسَدُ الأَحْلَافِ أبُو سُفْيَانَ، لأنّه حَزَّب ٱلْأَحْزَاب وحَالفَهُم عَلىٰ قِتَال النَّبيّ فِي غَزْوَة الخَندق، وسيّد شَباب أَهْل الْجَنَّة: الْحَسَن والحُسَيْن بِنص قوَل الرَّسول»[٢]. (وَ مِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ) وهُم طُغَاة الجَوْر مِن الحُكَّام الْأُمَويين (وَ مِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) فَاطِمَة الزَّهراء عليها السلام. (وَ مِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ) أُمّ جَمِيل عمَّة مُعَاوِيَة الّتي ٱشتَهرَت بِعدَائِها لرَسُول الله (فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا) مِن الفضَائِل (وَ عَلَيْكُمْ) مِن الرَّذَائِل.

ولمُنَاسبة ذِكر سيِّدة ٱلنِّسَاء أُشِير إِلىٰ صدُور كتَاب جَدِيد، ٱسمه «أَهْل الْبَيْت» لمُؤلفه تَوفِيق أبُو عَلَم، ولَم أرَ الكتَاب، ولَم أَجده فِي مكَاتب بيرُوت، وإنّمَا قَرأت عنهُ فِي جَرِيدة «الأَخْبَار»: «قَالُوا بحَقّ: إنّ فَاطِمَة الزَّهرَاء نِداء المَلايين، وشِهَاب النُّبُوَّة، وأَنَّهَا فِي القِمَة، وكلّ ذَلِكَ مِرآة تَعكس جُزءاً ضَئيلاً مِمَّا هِي عَلَيْهِ. أَلِيْسَت بِنت النُّبُوَّة ورَبِيبَة الوَحي؟. ومِثال المَرْأَة الّتي يُرِيدهَا الله، وقِطعَة مِن الإِسْلام المُجسد فِي رَسُول الله، وقُدْوَة لِلمَرأة ولِلإِنْسَان المُؤْمِن فِي كلّ زَمانٍ ومَكَان؟»[٣].

(فَإِسْلاَمُنَا قَدْ سُمِعَ، وَ جَاهِلِيَّتُنَا لاَ تُدْفَعُ). نَحنُ بَنِي هَاشم مَشهُورُون بِالصِّدْق

---

(١) أبُو جَهل: ٱسمه عَمْرُو، كُنيته أبو الحَكم، وإنّما كنّاه (أبَا جَهل) رسول الله صلى الله عليه وآله، كَان سيّداً أدخَلته قُرَيْش دَار النَّدوة فَسودته، وأجْلسته فَوق الجِلة مِن شيوخ قُرَيْش، وهُو غُلام لَم يَطر شَاربه. وهُو أحد من سَاد عَلىٰ الصِّبا. أُنظر، السِّيرَة النَّبوِيَّة: ٢/١٥٨، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ١٥/٣٠٠ و: ١٨/٢٩٢، الثّاقب في المَناقب لِابن حمزة الطّوسي: ١١٠.

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٣/٣٢. وَقَد تَقدَّم ٱستخرَاج الحَدِيث.

(٣) أُنظر، جَرِيدة «الأَخْبَار» المِصْرية تَأريخ: ٢٤ /١١/ ١٩٧٢م. (مِنْهُ رحمه الله).

والأَمَانَة، ومكَارم الأَخْلاَق فِي الجَاهِلِيَّة والإِسْلاَم، قَالَ الْعَقَّاد: «كَان بنُو هَاشم أَصْحَاب عَقِيدة وأَريحِية ووسَامة، وكَان بنُو أُمَيَّة أصْحَاب عَمل وحِيل ومَظهر مَشنُوء... ومهَما تَجد مِن نِدَّين مُتنَاظِرين فِي هَاشم وأُمَيَّة إلّا وَجَدت بَينَهُما هَذَا الفَارق عَلىٰ نَحو مِن الأَنْحَاء»(١).

أَوْلَىٰ ٱلنَّاسِ بِالنَّبِيّ:

(وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا... إِلىٰ وَ تَارَةً أَوْلَىٰ بِالطَّاعَةِ). يَجْمَعُ: يُوجِبُ، وشَذَّ: أُبْعِد، والْمَعْنَىٰ لاَ فوضىٰ وعشوَائِية فِي الوَاقع ولاَ فِي الإِسْلاَم، فَالله اختَار مُحَمَّداً عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِلسَّفَارة بَيْنَه وبَيْنَ عِبَاده، لأَنّه ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢) وكَذَلِكَ الخِلاَفَة لاَ بُدَّ لَهَا مِن سَبب موجِب، ولاَ يَخلو السَّبب الموجِب لتَوَلِّي الخِلاَفَة مِن أَحَد فَرضَين:

إِمّا الرَّحم والْقَرَابَة مِن النَّبِيّ المُخْتَار أَخْذاً بِظَاهر الآيَة: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾(٣).

وإِمّا التَّبعية والطَّاعَة لِرَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَما فِي الآيَة: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤). ولَيْسَ مِن شَكٍّ أَنّ أَهْل الْبَيْت هُم أَقْرَب النَّاس إِلىٰ رَبّ الْبَيْت وصَاحبه، وأَعْلَمهم بِسُنَّته، وأَوَّل مِن آمَن بِهِ

---

(١) أُنظر، عَبقَرية مُحَمَّد: ١٥٤ (مِنْهُ رَحِمَهُ اللهُ).
(٢) ٱلْأَنعَامِ: ١٢٤.
(٣) ٱلْأَنفَالِ: ٧٥.
(٤) آلِ عِمْرَانَ: ٦٨.

ونَاصرَه ودَافع عنهُ.

وهَذِه الحُجَّة العَقْلِيَة النَّقلِية الّتي أدلىٰ بها الإمَام ـ تُثبت أنّه أَوْلَىٰ بِالخِلاَفة مِن السَّابق واللاَحق دُونَ أنْ يجد فِيها مُعَاوِيَة أي مَغمز يَتَشبث بِهِ ويَحتج عِند أَهْل الشَّام.

(وَ لَمَّا اَحْتَجَّ اَلْمُهَاجِرُونَ عَلَىٰ اَلْأَنْصَار يَوْمَ اَلسَّقِيفَةِ... إِلىٰ دَعْوَاهُمْ). تَنَازع المُهَاجِرُون والأَنْصَار عَلىٰ الخِلاَفَة. فقَال هَؤُلاَء: نَحنُ آوينَا النَّبِيّ ونَاصرنَاه، وقَالَ أُولَئِكَ نَحنُ شَجرته وقرَابته. وبِالتالِي تَغلب المُهَاجِرُون... فإنْ، كَان للقرَابَة أثرهَا كمَا زَعم المُهَاجِرُون فِالإِمَام أَقْرَب مِن كلّ قَرِيب وإلاّ فَحُجَّة الأَنْصَار قَائِمَة، ولاَ تُبطل بقَول المُهَاجِرينَ. وفِي سَائر الأَحْوَال فَأَنْتَ يا مُعَاوِيَة طَلِيق لاَ مُهَاجر ولاَ مُنَاصر. وبِكَلمة قَصِيرة الإِمَام طَرَف أَصِيل فِي مَسألة الخِلاَفة، لأنّه أَقْرَب الأَرْحَام وهَاجر ونَاصر، أمّا مُعَاوِيَة فَدَعيّ دَخِيل. وَسَبقت الإِشَارَة إلىٰ «السَّقِيفَة»[1].

(وَ زَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ اَلْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَ عَلَىٰ كُلِّهِمْ بَغَيْتُ... إلخ). لِنفتَرض صِحَة مَا تَقول، وفَرض المُحال لَيس بِمُحال، فهَل حَسَدتُك يا مُعَاوِيَة كَي أَعْتَذر إلَيْكَ؟ وهَل لَكَ مِن فَضلٍ فِي شيء تُحسَد عَلَيْهِ، أو تُغْبَط؟. (وَ قُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ اَلْجَمَلُ اَلْمَخْشُوشُ... إلخ). ثُمَّ مَاذا؟ وهَل فِي ذَلِكَ نَقص مِن دِيني وخُلقِي، أو عِلمِي ومكَانِي عِند خَالقِي (لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ) ذَلِكَ بِأَنَّ الّذي يُذَم حقّاً هُو الظَّالم الغَاصب مِن أمْثَالك يَا مُعَاوِيَة، أَمَّا المَظلُوم فِالله وَلِيه وَنَصِيره. وعَلىٰ

(١) أنظر، شَرح اَلخُطْبَة: (٣ و ٦٨). (مِنهُ).

مَنْطقك هَذَا يَنْبَغي أنْ تَمدح أَبَاك، وتَذم الرَّسُول الأَعْظمﷺ ـ أَسْتَغفر الله ـ لأنّه عَانىٰ الْكَثِير مِن أَبِيك أَبِي سُفْيَانَ... جَيّش الْجُيُوش، وحَزّب الأَحْزَاب، وعَقَد الأَحْوَال عَلىٰ حَرْب نَبِيّ الله، وحَاول قَتله بِكلِّ سَبِيل، وكَسَر جَيْشُ أَبِيك يَوْم أُحُد أَنْف النَّبِيّ ورُبَاعيته، وشَجّه فِي فِي وَجْهه.. وأيضاً يَنبَغي أنْ تُثنِي عَلىٰ أُمّك هِند، لِأَنَّهَا أَكَلت كَبَد حَمْزَة سيِّد الشُّهَدَاء، وتُبَارك عَمّتك أُمّ جَمِيل حَمّالة الحَطب، لِأَنَّهَا جَمَعَت الأَشوَاك، ونَثَرتها فِي طَرِيق رَسُول الرَّحْمَة... حقّاً لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ مِن حَيْث لاَ تَشعر... فأينَ دهَاؤك وذكَاؤك؟.

(وَ هَذِهِ حُجَّتِي إِلىٰ غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَ لَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ... إلخ). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «يحتَج الإِمَام عَلىٰ حقّه لِمَن هُو مَظنَة الاِسْتحقَاق لِلْخِلاَفَة لاَ لِمُعَاوِيَة، لأنّه مُنقطع عَن جِرثُومة الأَمْر فلاَ حَاجَة للإِحْتجَاج عَلَيْهِ (ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَ أَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ). وأنَا أُجِيبُك لقَرَابَتك مِنْهُ، وإلاّ فَأنتَ أَحقَر مِن أتوجَه إِلَيْهِ بِقول.

(فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَىٰ لَهُ، وَ أَهْدَىٰ إِلَىٰ مَقَاتِلِهِ!... إلخ). قَالَ الْعَقَّاد: «إنّ أثبت مَا ثَبت مِن نَفعِية ـ أي انْتهَازِية ـ مُعَاوِيَة هُو طَلَبه مِن عُثْمَانَ أنْ تكُون لهُ وِلاَيَة الدَّم بَعد مَقْتَلَه، وهَذَا الطَّلب بِمثَابة طَلَب وِلاَيَة العَهد!... ومَعنَاه فِي الوَاقع أنّ مُعَاوِيَة كَان يَتمنىٰ قَتْل عُثْمَانَ لِيتَوَلّىٰ الخِلاَفَة مِن بَعده!»[1]. ثُمَّ نَقل الْعَقَّاد عَن تَأرِيخ الخُلَفَاء للسِّيوطي: «أنّ مُعَاوِيَة بَعد أنْ تم لهُ الأَمْر، قَالَ للصَّحابِي أَبِي الطُّفِيل عَامر بن نَائلة: أَلستَ مِن قَتلَة عُثْمَانَ؟ قَالَ أبو الطُّفِيل: لا، ولكنّي لَم أنْصره.

(١) أُنظر، كتَابه «مُعَاوِيَة»: ١٤٨ الطَّبعَة الثَّالثة سَنَة ١٩٦٦م. (مِنْهُ).

قَالَ مُعَاوِيَة: ومَا مَنْعَك مِن نَصره؟.
قَالَ: لَم يَنصره الْمُهَاجِرُون والأَنْصَار.
قَالَ مُعَاوِيَة: كَان حقّاً وَاجباً عَلَيْهِمْ أنْ يَنصرُوه.
قَالَ لهُ أبُو الطُّفِيل: ومَا مَنعك أنْ تَنصره ومَعَك أَهْل الشَّام؟
قَالَ مُعَاوِيَة: أمَا طَلبِي بِدَمه فَنُصرةٌ لهُ.
فَضحك أبُو الطُّفِيل، وَقَالَ: أَنْت وعُثْمَانَ كَمَا قَالَ الشَّاعر[1]:

لا أَلفِينَك بَعد المَوْت تَندُبنِي — وفِي حَياتِي مَا زَودتَنِي زَادا

وَقَالَ الْعَقَّاد: «آلَ الأَمْر إلىٰ مُعَاوِيَة بَعد حِين، ومَا أَخذ أَحداً، أو حَاسب وَاحِداً مِن قَتلَة عُثْمَانَ، وكَان يَلقىٰ الرَّجل مِنْهُم فِيسكتُ عَنْه أو يَسأله: أَلَستَ مِن قَتلَة عُثْمَانَ، ثُمّ يَصرفه مُزوداً بِالْعَطَاء»[2]. وسَبق الحَديث عَن ذَلِكَ أَكْثَر مِن مرَّة.

(وَ مَاكُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً... إلخ). قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «أنْقم عَلَيْهِ أي أُعيبَ عَلَيْه، والأَحدَاث البِدع»[3]. وعَلىٰ هَذَا يَكُون الْمَعْنَىٰ

(١) يُنسب هَذَا الشّعر إلىٰ عُبَيْد بن الأَبرص، والقِصّة بدَايتها هَكذا: قَدِم أبُو الطُّفِيل يَوماً عَلىٰ مُعَاوِيَة فقَال لهُ: كَيف وَجدك عَلىٰ خَلِيلك أبِي الحَسَن؟ قَالَ: كوَجِد أُم مُوسىٰ لمُوسىٰ، وأَشْكُوْا إلىٰ الله التَّقْصِير. فقَال لهُ مُعَاوِيَة: وكُنت فِيمن حَصر عُثْمان؟ قَالَ: لا، ولكنّي فِيمن حَضره. قَالَ: فَمَا مَنعك مِن نَصره... إلخ، ثُم قَالَ لهُ أَنْت وعُثْمان كمَا قَالَ الشَّاعر. أُنظر، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ١٣٣، الاسْتِيعَاب: ١٦٩٦/٤، الإمَامة والسِّيَاسَة: ٢١٥/١، مروج الذَّهب ولكنْ نَسب الشّعر إلىٰ النَّابغة الجَعدي، ديوان عُبَيْد: ٦٣، الشّعر والشُّعراء: ٢٦٩، الأَغَاني: ٨٩/١٩، الإصَابَة: ٤١٥/١، تَأرِيخ ابن عسَاكر: ١١٦/٢٦، الطَّبَقات الْكُبْرىٰ: ١٦٣/٣، فصل المقَال: ٢٤١ الطَّبعة الثَّانِيَة. وأُنظر، كتَاب الْعَقَّاد الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة ابن أبِي سُفيَانَ: ١٠٠ طَبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلال.

(٢) أُنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة ابن أبِي سُفيَانَ: ١٠٠ طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلال.

(٣) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٣٤/٣.

لاَ آعتذر مِن أنّي كَشفتُ لعُثْمَانَ عَن دخُوله فِي البَاطِل، وخرُوجه مِن ٱلْحَقِّ (وَ مَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ) ولكنَّ عُثْمَانَ ومَرْوَان كَانا يَتهمَانَنِي فِي النُّصح (فَرُبَّ مَلُومٍ لاٰ ذَنْبَ لَهُ) عِند الله، وكَفىٰ بِهِ وَلِياً ونَصِيراً.

شَجَاعَة الإمَام عليه السلام:

(وَ ذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَ لِأَصْحَابِي عِنْدَكَ اِلاَّ السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ... إلخ).
مُعَاوِيَة يُهدد الإِمَام بِالحَرْب، وهُو يَعلم مكَانه فِيها، ويَعلم أنّ مَعه سيوف الهَاشِمِين والْصَّحَابَة والتَّابِعِين، وكُلّهُم يَتْقربُون إِلىٰ الله فِي حَرْب مُعَاوِيَة... ولا أعرف أحداً صَوّر شَجَاعَة الإمَام وَثِقَته بِنَفْسه كمَا صَوّرها الْعَقَّاد، قَالَ: «كَان الإِمَـام وهُـو فِي طفُولته، وقَبل أنْ يَبلغ مَبلغ الرِّجَال ـ يَعلم أنّه شَيء فِي هَذِه الدُّنْيا، وإنّه قـوّة لهَـا جوَار يَركن إِلَيْهَا المُستَجِير... والدَّلِيل عَـلىٰ ذَلِكَ أنّ صـنَادِيد قُـرَيْش أحَـاطوا بِالنَّبيّ صلى الله عليه وآله يَنذرُونَه ويُنْكرُونه، والنَّبِيّ يُقلب طَرفه فِي الوجُوه ويَسأل عَن النَّـصِير ولاَ نَصِير إلّا عَليّ بن أبِي طـالب، وهُـو فِي العَـاشرة، أو نَحـوها دُونَ أنْ يَهـاب الرُؤُوس الكُبار، والشِّيوخ الَّذِين رَفعتهُم الوَجَاهة... وعَليّ فِي الخَمسِين أو السِّتِّين هُو علِيّ يَوْم كَان فِي تِلك السِّنّ»[1].

ومَا تَرك الْعَقَّاد بَعد هَذَا قَولاً لِقَائل!. آبن العَاشرة يَقف مُتفرداً لأكبَر الرُؤُوس، وأصْحَاب السِّيوف والجُيُوش غَيْر هيّاب ولا مُكترث، ويَقول للنَّبيّ صلى الله عليه وآله: أنَـا يَـا رَسُول الله لهَؤُلآء الطُّغاة، ولَن يَصلوا إِلَيْكَ مَا دُمت حيّاً... يَقول هَذا دُونَ أنْ يَعتمد

(١) أنظر، عَبقَرِية الإمَام: ٨٥ (مِنهُ رحمه الله).

عَلىٰ دولة، أو عَشِيرة أو شَيء سوىٰ الثِّقَة بِنَفسه والاِتْكَال عَلىٰ الله. والنَّبيّ يَقبل مِنْهُ، ويَثق بِهِ، ويَقول له: أَجْل، أَنْت أَخي ونَصِيري ووَزِيري[1]. وصَدّق الإِمَام الْقَوْل بِالفِعْل، وكَان عِند ظَنّ الرَّسُول، بَات عَلىٰ فِرَاشه لَيْلَة الْهِجْرَة، وفوّت الْفُرْصَة عَلىٰ قُرَيْش، وأَطاح رُؤُوس الكُبار مِنْهَا عَن أَجْسَادها فِي بَدْر وأُحد وٱلأَحْزَاب... حَتَّىٰ ٱستَسلَمت صَاغِرة ٱبْتغَاء السَّلامة والعَافِية.

(قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ) حَنْظَلَة (وَ خَالِكَ) الوَلِيد بن عُتْبَة (وَ جَدِّكَ) عُتْبَة بن رَبِيعَة فِي يَوْم بَدْر (وَ أَهْلِكَ) أَتْبَاع أَبِيكَ. وتَقَدَّم مِثله مَع الشَّرح فِي ٱلرِّسَالة (١٠). وكَتَب بَعْض الشَّارِحِين حَوْلَ هَذِه أَكْثَر مِن (٣٥٠) صَفحَة[2].

---

(١) تَقَدَّم ٱستخرَاج ذَلِكَ.

(٢) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٣١/١٤ و: ١٨٤/١٥، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٣٥/٣، مَنَاقب آل أَبِي طالب: ٣٥١/٢، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢٩٧/١، نُظم دُرر السِّمطين: ٩٧، جوَاهر المطَالب فِي مَناقب الإِمَام عَليّ: ٣٧٥/١، يَنابِيع المَوَدَّة: ٤٤٧/٣.

الرسالة

-٢٩-

إِلىٰ أَهْلِ الْبَصْرَةِ:

وَ قَدْ كَانَ مِنِ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَ شِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَ رَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَ قَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ. فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ، وَ سَفَهُ الْآرَاءِ الْجَائِرَةِ، إِلىٰ مُنَابَذَتِي وَ خِلَافِي، فَهَا أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَ رَحَلْتُ رِكَابِي. وَ لَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلىٰ الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ، مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَ لِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلىٰ بَرِيٍّ، وَ لَا نَاكِثاً إِلىٰ وَفِيٍّ.

اللُّغَة:

انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ: تفرقكُمْ. وَشِقَاقِكُمْ: عَدَاوتكُمْ وخِلَافكُم. وتَغْبَوْا: تَغْفَلوا. والْمُرْدِيَةُ: المُهْلِكَة. وَسَفَهُ الْآرَاءِ: ضَعْفَها. وَالْجَائِرَةِ: المَائِلة عَن الحَقّ. والمُنَابَذَة: المُخَالِفَة. واللَّعْقَة: اللَّحْسَة.

الْإِعْرَاب:

مَا لَمْ تَغْبَوْا «مَا» ٱسم كَانَ، وغَيْرُ مُتَجَاوِزٍ بِالنَّصب حَال، بِالرَّفع خَبَر ثَانٍ لأَنِّي ومُتَّهِماً مَفْعُول مُتَجَاوِزٍ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ قَدْ كَانَ مِنِ ٱنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَ شِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ.... وَ قَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ). الخِطَاب لأَهْل الْبَصْرَة، وكَانوا قَد أَعطوا الإِمَام طَاعتهم ووَلاءهم، فَولىٰ عَلَيْهِمْ عُثْمَانَ بن حُنَيف، ومَا أَنْ دَخَلَت أُمّ الْمُؤْمِنِين الْبَصْرَة بِجَمَلها مَع طَلْحَة والزُّبَيْر حَتَّىٰ نَكث أَكْثَر أَهْلها بَيْعَة الإِمَام، وأَعلنُوا عَلَيْهِ الْحَرْب، ولمّا ٱنْتصر عَلَيْهِمْ عفَا عنهم، وعَادت المِيَاه إِلىٰ مجَارِيها... ولكنْ مُعَاوِيَة لاَ يُرِيد أنْ تَهدأ العَاصفَة مِن حَوْلَ عَليّ، فَأرسَل إِلىٰ الْبَصْرَة مِن يُحرضها عَلىٰ الْفِتْنَة تَارةً، ونَقض العَهد تَارةً أُخرىٰ.

فَأرسل إِلَيْهِمْ الإِمَام هَذَا الكتَاب يُذكرهُم بمَا كَانَ مِنْهُ، ويُهددهُم إِنْ عَادوا لِمثلهَا بقَوْله: (فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ.... إلخ). إِنْ عُدتُم ثَانِيَة إِلىٰ الْفَسَاد فِي الأَرْض فأَنَا لَكُم بِالمرصَاد، ومَلأتُها عَلَيْكُم خَيلاً ورِجَالاً، وعَاملتكُم كَمن آمن ثُمَّ كَفرَ، ثُمَّ آمن ثُمَّ ٱزدَاد كُفراً، وجَعلتكُم عِبرة (لاَ يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ) بِالنِّسبَة إِلَيْهَا (إلاَّ كَلَعْقَةِ لاَعِقٍ). أَخَذتكُم فِي وَقْعَة الْجَمَل بِالرَّأفة واللِّين، ولكنْ إِنْ عُدتم إِلىٰ مِثلها فَمَا لكُم عِنْدِي إِلّا الشِّدَّة والنَّكال... وغَرض الإِمَام مِن هَذَا التَّهدِيد والوَعِيد مُجرد التَّخوِيف والوقَايَة عَسىٰ يَكفُوا عَن الْفِتْنَة، والْفَسَاد.

(مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ... إلخ). الشُّكْر والحُسنىٰ لِمَن أَطَاع

مِنكُم، والعَصا لِمَن عصىٰ، وَلاَ تُظْـلَمُونَ فَتِيلاً. قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «يَقول الإِمَام لأَهْل الْبَصْرَة: لا آخذ البَرِيء بِالسَّقِيم، والوَفي بِالنَّاكث. وبَعد الإِمَام قَالَ زِياد ٱبن أَبِـيه لأَهْـل الْـبَصْرَة: والله لآخـذَن البَرِيء بِـالسَّقِيم، والْـبِرِّ بِـاللَّئِيم، والوَالد بِالْوَلَد، والجَار بِالجَار»[1]... حِكْمَة بَالِغة أَرَادها الله فِي عبَاده لاَ يُدركهَا إلّا ذُو عَقلٍ ودِيـن: رَفَـض أَهْـل الْـبَصْرَة الْـعَدْل وَأَهْـله، فَسَـلط سُـبْحَانَهُ عَـلَيْهِمْ الجَـوْر وعُتَاتِهِ... وهَكذا مَن رَفض ٱلْرِّزْق الكَفَاف تَكابُراً وتَعَالِياً يَحرمُه الخَالِق حَتَّىٰ مِن اليَّسِير. سُنَّة فِي خَلقهِ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً.

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤/١٦ و٢٠٣. وأضَاف فِي خُطْبَة زِيَاد: (أو تَستَقِيم إليَّ قَنَاتكُم. فقَام أَبُو بِلال مَرداس ٱبن أدِية يَهمس، وهُو حِينئذٍ شَيخ كَبِير، فقَال: أيُّها الأَمِير، أَنْبَأنا الله بِخلاف مَا قُلتَ، وحَكَم بِغير مَا حَكَمْتَ. قَالَ سُبْحَانه وَتَعَالىٰ: ﴿وَلَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ٱلأَنْعَام: ١٦٤، فقَال زِياد: يَا أَبَا بِلال، إنِّي لَمْ أَجْهل مَا عَلمت، وكُنا لاَ نَخلص إلىٰ الحَقّ مِنْكُم حَتَّىٰ نَخُوض إلَـيْهِ البَـاطِل خَـوضاً. وفِي روايَـة الرِّيَاشي: «لآخذَن الوَلي بِالوَلي، والمُقِيم بِالظَّاعِنِ، والمُقبل بِالمُدبر، والصَّحِيح بِالسَّقِيم، حَتَّىٰ يَلقىٰ الرَّجُـل مِنكُم أخَاه فيقول: انْجُ سَعد فَقَد هَلك سَعِيد، أو تَستَقِيم لِي قنَاتكُم». أُنظر، الْـبَيَان والتَّـبيين للـجَاحظ: ٦١/٢، عُيُون الأَخْبَار: ٢٤١/٢، نوَادر القَالي: ١٨٥/١، تَأرِيخ الطَّبَرِي حوَادث سَنَة (٤٥)، تَأرِيخ دمشق: ١٨١/١٩.

الرسالة ـ ٣٠ ـ

إلىٰ مُعَاوِيَة غايَة الخُسْر:

فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَ انْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَ ارْجِعْ إِلَىٰ مَعْرِفَة مَا لاٰ تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلاٰماً وَاضِحَةً، وَ سُبُلًا نَيِّرَةً، وَ مَحَجَّةً نَهْجَةً، وَ غَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ، وَ يُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ، مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وَ خَبَطَ فِي التِّيهِ، وَ غَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ، وَ أَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ. فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَ حَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ. فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَىٰ غَايَةِ خُسْرٍ، وَ مَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً، وَ أَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَ أَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَ أَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ.

اللُّغَة:

أَعْلاٰماً: عَلاَمَات ودَلاَئِل. والمَحَجَّة: الطَّرِيق الوَاضِحَة، ونَهْجَةً: وَاضِحَة. ومُطَّلَبَةً ـ بِتَشدِيد الطَّاء وفَتحِهَا ـ مَطلُوبَة. والأَكْيَاسُ: العُقَلاَء. والأَنْكَاسُ: ضِدّ العُقَلاَء، وهُم الَّذِين تَكثر مِنْهُم الأَخْطَاء والأَسوَاء. ونَكَبَ: عَدَل. وخَبَطَ: سَار بِغَير هُدىً. والتِّيه: الضَّلال. وتَنَاهَتْ الأُمُور: بَلَغت غَايتهَا. وأَوْلَجَتْكَ: أَدْخَلَتْكَ.

وأَقْحَمْتُكَ: رَمِيتَ بِنَفْسك بِلا رَوِيَة. وأَوْعَرَتْ: صَعُّبَت وضُيِّقت.

الإِعْرَاب:

فَنَفْسَكَ نُصب عَلىٰ التَّحْذِّير أي آحْذَر نَفْسَكَ، وَحَيْثُ فِي مَحَل نَصب بِفعل مَحْذُوف أي قِف مَكَانك.

الْمَعْنَىٰ:

(فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَ آنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ). يَا مُعَاوِيَة من أَمْوَال الْمُسْلِمِين، وفِيمَا أَنْتَ مُتَسلط عَلَيْهِ مِن شُؤُونِهم ومصَالِحِهم، وهَـذَا حَقّ وَاجب عَلَيْكَ لله، ولِلأُمَّةِ (وَ آرْجِعْ إِلَىٰ مَعْرِفَة مَا لاَ تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ). الْمُرَاد بِالْمَعْرِفَة هُنا الطَّاعَة، مِن بَاب إِطلاَق الْمَعْرِفَة عَلىٰ الشَّيء الْمَعْرُوف، والْمَعْنَىٰ دَع عَنْكَ الْعَمَل لتَفرِيق الْجَمَاعَة، وآرجَع إِلىٰ الطَّاعَة، وأَنْتَ تَعلَم إِنّ إِيقَاظ الْفِتَن مِن أَكْبَر الكَبَائِر، والله سُبْحَانَهُ لاَ يَقبَل مِنْكَ الاِعْتذَار بِالْجَهْل، لأَنَّك كَاذِبٌ فيهِ. قَالَ الْعَقَّاد: «فَلو أنّه آستطَاع أَنْ يَجْعَل مِن كلّ رَجُل فِي دَوْلَته حِزباً مُنَابذاً لِغَيره مِن رِجَال الدَّوْلَة كَافة لِفَعل... ولَو حاسَبه التَّأرِيخ حسَابه الصَّحيح لمَا وصَفَه بغِير مُفرّق الجمَاعَات... لأَنّه فَرّق الأُمَّة شِيعَاً شِيعَاً، فلاَ تَعرف كَيف تَتَفق إِذَا حَاولت الاِتْفَاق»[1].

(فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلاَماً وَاضِحَةً، وَ سُبُلًا نَيِّرَةً، وَ مَحَجَّةً نَهْجَةً). وهِي الْعَمَل لِجَمع الشَّمل، والتَّعاون مَع الجَمِيع عَلىٰ مَصلَحة الإِسْلاَم والْمُسْلِمِين... ولكن هَذَا يَصدر

---

(١) أنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة آبن أَبِي سُفيَان: ٤٢ طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلال.

عَن الإِخْلاَص وَحُبّ الخَيْر، ولاَ يَتوخَاه إلاّ أَهْل الوَعي والإِيمَان، ولَيْس مُعَاوِيَة مِنْهُم فِي شيء، لأنّه نَاكب عَن الحَقّ، ضَارب فِي الضَّلال (فَقَدْ بيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ) حَرصتَ عَلىٰ الدُّنْيَا وَعَاجلهَا، وٱنصَرفتَ عن الله بَعد أنْ بَيَّنَ لَكَ حَلاله وحرَامه، وأرشَدك إلىٰ سوَاء ٱلسَّبِيل (فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَىٰ غَايَةِ خُسْرٍ، وَ مَحَلَّةِ كُفْرٍ). مَضِيتَ فِي طَرِيقٍ يَنْتَهي بِكَ إلىٰ الخُسْرَان المُبِين، والكُفر المُشِين.

وَبَعد، فإنّ إصرَار الإِمَام عَلىٰ مَوْعِظَة مُعَاوِيَة لاَ يَخلو مِن أَحَد فَرضِين:

إمَّا مِن بَاب إلقَاء الحُجَّة عَلىٰ مُعَاوِيَة، وإمَّا للتَّشهِير بِهِ، وإعْلاَن حَقِيقَته لكـلِّ جِيلٍ، كَمَا يَفعَل اليَوْمَ مَن يَمْلكُون وَسَائِل الدّعَايَة والنَّشر، وإلاّ فإنَّ الإِمَام يَعْلَم بِأَنَّ عظَاته لمُعَاوِيَة لاَ تَزِيده إلاّ فِرَاراً وٱستكبَاراً.

الرسالة ٣١

وَصِيَّتهُ لِلْإِمَام الْحَسَن عليه السلام:

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَىٰ، وَ الظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً؛ إِلَىٰ الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لاٰ يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَ رَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَ رَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ وَ عَبْدِ الدُّنْيَا، وَ تَاجِرِ الْغُرُورِ، وَ غَرِيمِ الْمَنَايَا، وَ أَسِيرِ الْمَوْتِ، وَ حَلِيفِ الْهُمُومِ، وَ قَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَ نُصُبِ الْآفَاتِ، وَ صَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَ خَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَ جُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَ إِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَ الْإِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَ صَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَ صَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَىٰ بِي إِلَىٰ جِدٍّ لاٰ يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَ صِدْقٍ لاٰ يَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَ وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَ كَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

اللُّغَة:

الرَّمِيَّةُ: الهَدَف. وَنُصُبِ ـ بِضم النُّون والصَّاد ـ أَشْرَاك مَنصُوبة لِلصَّيد. وَالجُمُوح: العُصيَّان. وَيَزَعُنِي: يَمْنَعُني. وَصَدَفَنِي: صَرَفَنِي. مُسْتَظْهِراً: مُسْتَعِيناً.

الإِعْرَاب:

مِنَ الْوَالِدِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هَذِه وَصِيَّة مِنَ الْوَالِدِ، وإِلىٰ الْمَوْلُودِ مُتَعَلِّق بهَذه الوَصِيَّة، والْفَانِ ومَا بَعده صِفَة لِلْوَالِدِ، والْمُؤَمِّلِ ومَا بَعده صِفَة لِلْمَوْلُودِ، ومَا يَزَعُنِي «مَا» مَفْعُول تَبَيَّنْتُ. غَيْرَ أَنِّي نُصب عَلىٰ الاِسْتثنَاء، ومُسْتَظْهِراً حَال مِن فَاعِل كَتَبْتُ.

صُلْح الْحَسَن وَٱستِشْهَاد الحُسَيْن:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: كَتَبَ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ هَذِه الوَصِيَّة لِوَلَدَه الإِمَام الْحَسَن بِحَاضِرِين عِند ٱنصرَافه مِن صِفِّين. وحَاضِرِين ٱسم بَلدة فِي نوَاحي صِفِّين[1].

والإِمَام الْحَسَن هُو السِّبط الأَوَّل لِرَسُول الله ﷺ، والمَوْلُود البِكر لأمِير الْمُؤمِنِين، والإِمَام الثَّانِي مِن أَئمَة أَهْل الْبَيْت عليهم السلام ورَابع أَصْحَاب الْكِسَاء، وأَحد رَيحَانَتِي النَّبِيّ، وسيِّدي شَبَاب أَهْل الْجَنَّة. وُلد لَيْلَة النِّصف مِن شَهر رَمضَان سَنَة

(١) وَقَدِيماً كَانَتْ تُقرأ بِالتَّثنِية، حَاضر حَلب، وحَاضر قنسرِين، وهِي الأَرْبَاض والضَّوَاحِي الْمُحِيطة بهَذه البلاد، ثُم قَرأنا عَلىٰ جَمَاعَة مِن الشَيوخ بِغيرِ لاَم، ولَم يُفسرُوه، ومِنْهُم مَن يَذكره بِصِيغة الجَمع لاَ بِصِيغة التَّثنِية، ومِنْهُم مَن يَقول بخَناصرِين يَظُنُّونه تَثنِية خناصرة أو جَمعها. ٱنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٦/٥٢.

ثَلاث مِن الْهِجْرَة، وسَمّاه رَسُول الله ﷺ حَسَناً، وهُو أَوَّل مَن سُمي بِهَذا الاِسم[1]، وفِي صَحِيح البُخَاريّ، ومُسْلِم: «أنَّ رَسُول الله، قَـالَ: أَللَّـهُمَّ إِنّي أُحِبّهُ فأحِبّه، وأحبّ مَن يُحبّهُ»[2]. وتَوَلّىٰ الخِلَافَة بَعد أَبيهِ أَشهراً، ثُمَّ جَرىٰ الصُّلح بَيْنَه وبَيْنَ مُعَاوِيَة.

وَتَكَلَّم النَّاس وأَطالوا حَوْلَ هَذَا الصُّلح قَدِيماً وَحَدِيثاً، ومِنْهُم مَن صَوّب، ومِنْهُم مَن خَطّأ بِخَاصَّة أنّ مُعَاوِيَة نَقَض الشُّرُوط الّتي أَبرمهَا عَلىٰ نَفْسه لِلْإِمَام الْحَسَن عليه السلام ...[3]. وَروىٰ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد، فِي أَوَّل شَرحه هَذه الوَصِيَّة، عَن

(١) تَقَدَّم ٱستخرَاجها جَمِيعاً.

(٢) أُنظر صَحِيح البُخَاريّ: ٢ / ١٨٨ كتَاب اللِّبَاس، مِثله فِي كتَاب البيُوع، صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ٤٥٦ بَاب ١٨ / ٥٧ و ٢٤٢١ و: ٧ / ١٢٩ وزَاد «وأحبب مَن يُحبّه»، جَمع الفوَائِد: ٢ / ٢١٧، ينَابيع المَوَدَّة: ٢ / ٤٤ كنُوز الحقَائِق: ٢٥، كنز العُمَّال: ١٢ / ١٢٤ / ٣٤٣٠٧، مَجْمَع الزَّوائد: ٦ / ١٥٧ و: ٩ / ١٦٩، سُنَن التِّرمِذي: ٥ / ٣٢٧ ح ٣٨٥٩ و: بَاب ١١٠ ح ٣٨٧٣ و: ٢ / ٣٠٧، تَهذِيب تَأرِيخ دِمشق لِابْن عساكر: ٤ / ٢٠٣، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣ / ١٦٩، حلية الأَوْلِيَاء: ٢ / ٣٥، مُسْنَد أحمد: ٢ / ٢٤٩ و: ٥ / ٣٦٦، و ٥٣٢، و: ٦ / ٢٨٣، كشف الغمّة: ١ / ٥٢٠ و ٥٦٦، البحَار: ٤٣ / ٢٩٩ و ٢٦٦ / ٢٣، المَناقب لِابْن شهرآشوب: ٣ / ١٨٨، العدد القَوِيَّة (مخطوط): ٦، كنوز الحقَايق: ٢٥، كنز العُمَّال: ١٢ / ١٢٤ / ٣٤٣٠٧، و٧ / ١٠٥، صَحِيح البُخَاريّ أيضاً: فِي كتَاب بدء الخَلق، وقَرِيب من هَذَا اللَّفظ فِي مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣ / ١٦٩ و ١٧٨، الإِصَابَة: ٣ / ٧٨ ق ١، تَهذِيب التَّهذِيب: ٢ / ٢٩٧، الأدب المفرد للبُخاري: ١٧١. وأُنظر تَهذِيب تَأرِيخ دمشق لِابْن عساكر: ٤ / ٢٠٥ ـ ٢٠٧، الغَدِير: ٧ / ١٢٤ وسيرتنا وسنّتنا: ١١ـ١٥، البحار: ٤٣ / ٢٩٤ / ٥٥ و٥٦ و ٦٢، المَنَاقب لِابْن شهرآشوب: ٣ / ١٨٨، كشف الغمّة: ١ / ٥٢٠، سُنَن ٱبن مَاجه: ١ / ٦٤، فَضَائِل الخَمْسَة: ٣ / ٢٣٠ ومَابعدها، فرَائد السِّمطين: ٢ / ٣٨ و ٤٠ ترجَمة الحَسَن عليه السلام، وأنسَاب الأَشْرَاف فِي تَرجمته عليه السلام، نور الأَبْصَار: ١١٦، وأُسد الغَابَة: ٥ / ٥٢٣.

(٣) لمَّا ٱضطرّ الإِمَام الحَسَن عليه السلام إِلىٰ الصُّلح كَتَب وَثِيقة الصُّلح، مُحمّلةً بِأفدح الشُّرُوط الّتي تُلقي بِكَافة المَسْئُوليات عَلىٰ مُعَاوِيَة، وَحِيث لَم تَرد كَامِلة فِي مَصْدَر واحد فَنُشِير إِلىٰ مصادرها فَقط:

⇔ أنظر، البدَاية والنّهاية لِابن كثير: ٨/ ٤١، الإِصَابَة: ٢/ ١٢ و ١٣، ٱبن قُتَيْبَة فِي المعارف: ١٥٠، أعيَان الشّيعة: ٤/ ٤٣، مقاتل الطَّالِبيين ٧٥، الإِمَامة والسِّيَاسَة لِابْن قُتَيْبَة: ٢٠٠، الطَّبَرِي فِي تَأرِيخه: ٦/ ٩٢، البحار: ١٠/ ١١٥ الطَّبعة القَدِيمه، النَّصائح الكَافِيه: ١٥٦ طَبعة لبنان، ٱبن أبِي ٱلْحَدِيد فِي شَرح النَّهج: ٤/ ٨، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ١٩٤، عِلل الشَّرائع: ٨١، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ للشَّعراني: ٢٣.

وأُنظر، حياة الحيوان للدّميري: ١/ ٥٧، تهذيب التَّهذيب: ٢/ ٢٢٩، تَهذِيب الأسماء واللُّغات للنَّووي: ١/ ١٩٩، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١٣٩، يَنابِيع المَوَدَّة: ٢٩٣، عُمدة الطَّالب فِي أنْسَاب آل أبِي طَالب لجمَال الحَسني: ٥٢، تَذكرة الخواصّ: ٢٠٦، تَأرِيخ دمشق: ٤/ ٢٢١، تَأرِيخ دول الإِسْلام: ١/ ٥٣، جوهرة الكَلاَم فِي مَدح السَّادة الأعْلاَم: ١١٢، تَأرِيخ الخَمِيس: ٢/ ٣٢٣، دَائرة المَعَارف للبُستاني: ٧/ ٣٨، الْفُتُوح لِابْن أعْثَم: ٢/ ٢٩٣.

والخُلاَصة: أنّ وَثِيقة الصُّلح تَضمّنت خَمس موَاد، وهِي:

١ ـ تَسلِيم الأَمْر إِلىٰ مُعَاوِيَة علىٰ أنْ يَعمل بكتَاب الله وسُنّة نَبِيّهﷺ وسِيرة الخُلَفَاء الصَّالِحِين.

٢ ـ لَيْسَ لِمُعَاوِيَة أنْ يَعهد إِلىٰ أحد مِن بَعده والأَمْر بَعده لِلحَسن، فإنْ حَدث بِهِ حَدث فلأخِيه الحُسَيْن.

٣ ـ أنْ لاَ يُسمّيه أمِير الْمُؤْمِنِين، وأنْ يَترك سَبّ أمِيرالْمُؤْمِنِين، والقنُوت عَلَيْهِ بالصَّلاة، وأنْ لاَ يَذكر عَلِيّاً إِلاّ بخَير، وأنْ لا يُقِيم عِنده شهَادة.

٤ ـ الأَمْن العَامّ لعمُوم النَّاس الأسود، والأحمر مِنْهُم سوَاء فيهِ. والأَمْن الخَاصّ لشِيعه أمِير الْمُؤْمِنِين، وَعَدم التّعرّض لهُم بمكرُوه.

٥ ـ ٱستثنَاء مَا فِي بَيْت مَال الكُوفَة وهُو خَمسة آلاف ألف، فلاَ يَشمله تَسلِيم الأَمْر. وأنْ يُفضّل بَني هَاشم فِي الْعطَاء، وأنْ يُفرّق فِي أوْلاَد مَن قُتل مَع أمِير الْمُؤْمِنِين يَوْم الجَمَل، وأوْلاَد مَن قُتل معهُ بصِفّين ألف ألف درهم، وأنْ يوصل إِلىٰ كلّ ذِي حَقّ حقّه.

ومِمّا يَجدر ذِكره أنّ بَعْض المؤرخين والبَاحثِين أصرّ عَلىٰ المُغَالطات والمُجَادلات ولَعب بِالأَلْفَاظ وأورد أنّ الإِمَام الْحَسَنعليه السلام قَد تَنازل عَن الخِلاَفَة لِمُعَاوِيَة بِمَا لِكَلمة التّنازل مِن المعنىٰ الخَاصّ، ونَحنُ لو رَجعنا إِلىٰ التّأرِيخ لَم نَجد، ولَم يَرد عَلىٰ لِسَان أحد مَا يُشعر مِن خِطَبهعليه السلام أنّه تنَازل عَن الخِلاَفَة، بل إنّ المَصَادر تُشِير إِلىٰ أنّهعليه السلام سَلّم الأَمْر، أو تَرك الأَمْر لِمُعَاوِيَة وذَلِكَ مِن خلاَل مُلاحظتنا للشّروط الّتِي ورَد فِيها إسقَاطه إيّاه عَن إمرَة الْمُؤْمِنِين، وأنّ الْحَسَنعليه السلام عَاهده عَلىٰ أنْ لاَ يكُون عَلَيْهِ أَمِيراً، إِذْ الأمِير هُو الّذِي يَأمر فيؤتَمر لهُ،

⇔

المَدَائني أنّ مُعَاوِيَة بَعد الصُّلح خَطب أَهْل الْكُوفَة، وَقَالَ لَهُم فِيما قَالَ: «أَتَرُونِ أنِّي قَاتَلتكُم عَلىٰ الصَّلاٰة، والزَّكَاة، والحَجّ، وقَد عَلِمتُ أنَّكـم تُـصلُّون، وَتُـزَكُّـون،

⇐ ولذَا أسقَط الإِمَام الحَسَنعليه السلام الائتمَار لِمُعَاوِيَة إذ أمره أمراً عَلىٰ نَفسَه، والأمِير هُو الَّذي أمّره مَأمور مِن فوقه، فَدلّ عَلىٰ أنّ الله عزّوجلّ لَم يُؤمّره عَلَيْهِ، ولاَ رَسُول اللهصلى الله عليه وآله أمّره عَلَيْهِ، ولذَا لاَ يُقِيم عِنده شهَادة، فكَيف يُقِيم الشَّهَادة عِند مَن أزال عَنْه الحُكْم؟ لأنّ الأمِير هُو الحَاكِم، وهُو المُقِيم لِلْحَاكِم، ومَن لَيس لهُ تَأمِير ولاَ تحَاكم فحُكمه هَذر، ولاَ تُقام الشَّهادة عِند مَن حُكمه هَذر.

كَذَلك أنَّ الإِمَامعليه السلام عَلم أنّ القَوْم جوّزوا لأنفسهم التَّأوِيل، وسوّغوا فِي تَأويلهم إرَاقة مَا أرَادوا إرَاقته من الدِّمَاء، وإنْ كَان الله عزّوجلّ حَقنَه، ولذَا اشترط عَلَيْهِ أنْ لاَ يَتعقب علىٰ شِيعة عَـليّعليه السلام شَـيْئاً، وأنّ الإِمَامعليه السلام يَعلم أنّ تَأويل مُعَاوِيَة عَلىٰ شِيعة عَليّعليه السلام بِتعقّبه عَلَيْهِمْ مَا يَتعقبه زَائل مُضمحلّ فَاسد، كمَا أنّه أزَال إمرَته عَنهُ وعَن المُؤمِنِين، وأنَّ إمرتَه زَالت عَنهُ وعَنْهُم، وأفسد حُكمه عَلَيْهِ وعَلَيْهِمْ، وبالتَّالي تكُون حِينئذٍ دَاره دَائرة، وقُدرته قَائمة لِغيرِ الحَسَن، ولغِير المُؤمِنِين فتكُون دَاره كدَار بُخت نُصر وهُو بِمَنزلة دانِيال فِيها، وكدَار العَزِيز وهُو كيُوسف فِيها.

ولاَ نُرِيد أنْ نُطِيل فِي ذَلِكَ بأنْ نقول كمَا قَالَ أَنَس «يَوْمَ كُلّم الحَسَن» ولَم يَقل يَوْم بَايَعَ. إذ لَم يَكُن عِنده بِيْعَة حَقِيقِية وإنّمَا كَانَتْ مُهادنة كمَا يكُون بَيْنَ أولِياء الله، وأعدَائه لاَ مُبايعَة بَيْنَ أولِيَـائه وأولِيَـائه، فـرأىٰ الحَسَنعليه السلام رَفع السَّيف مَع العَجْز بَيْنه وَبَيْنَ مُعَاوِيَة كمَا رأىٰ رَسُول اللهصلى الله عليه وآله رَفـع السَّـيف بَـيْنه وبَـيْنَ أبِي سُفْيَانَ، وسَهل بن عَمْرُو، ولذَا قَالَ الإِمَام الحَسَنعليه السلام فِي جوَابه لِبعضهم:... لاَ تقل ذَلِكَ يَا أبَا عَامر، لَم أذلّ المُؤمِنِين، ولكن كَرِهت أنْ أقتلهم عَلى المُلك...كمَا جَاء فِي أعيَان الشِّيعة: ٤ ق ١: ٥٢ وقولهعليه السلام:..إنّ مُعَاوِيَة زَعم أنِّي رَأيته لِلخِلاَفَة أهلاً ولَم أرَ نَفسِي لهَا أهلاً، فكَذِب مُعَاوِيَة نَحنُ أَوْلىٰ النَّاس بالنَّاس فِي كتَاب الله عزّوجلّ وعَلى لِسَان نَبِيّه...كمَا جَاء فِي حياة الحيوَان للدّميري: ١/٥٨. وهَـذَا تَـصرِيح خَـطِير بِأنّ الوِلاَيَة لهُ مِن الله عَلىٰ النَّاس لاَ زَالت قرائمة، حَتّىٰ تَسلِيم الأَمْر لِمُعَاوِيَة، وأنّ التَّسلِيم لَيسَ إلاّ تَرك المُلك.

وَقَالَعليه السلام، وكَان مُعَاوِيَة حَاضِراً:...ولَيس الخَلِيفَة مَن دَان بِالجوْر، وعَطّل السُّنن واتخـذ الدُّنـيا أباً وأُمّاً، ولكن ذَلِكَ ملك أصَاب ملكاً تمتّع بِهِ، وكأنّ قَد انقطع عَنْه واستَعجل لذّته، وبقِيت عَلَيْهِ تبعته، فكَان كمَا قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. الأنْبِياء: ١١١. وهَذَا تَعرِيض بِمُعَاوِيَة وأنّه لَيسَ أهلاً لِلخِلاَفَة وإنّمَا هُو ملك يَـطلب الدُّنـيا...أنـظر، المَحَاسِن والمسـاوي للـبيهقي: ١/١٣٢، الإِحْتِجَاج: ١/٤١٩ الخرَائج والجرَائح: ٢١٨، ذَخَائِر الـعُقبَىٰ: ١٤٠، شَرح النَّـهج لابْـن أبِي الحَـدِيد: ١٦/٤٩، مقَاتل الطَّالِبِين: ٧٣، تُحف العُقُول: ١٦٤.

← أنظر، البداية والنّهاية لابْن كثير: ٨/ ٤١، الإِصَابَة: ٢/ ١٢ و ١٣، ابن قُتَيْبَة فِي المعارف: ١٥٠، أعيَان الشّيعة: ٤/ ٤٣، مقاتل الطَّالِبيين ٧٥، الإِمَامة والسِّيَاسَة لابْن قُتَيْبَة: ٢٠٠، الطَّبَري فِي تأريخه: ٦/ ٩٢، البحار: ١٠/ ١١٥ الطَّبعة القَدِيمه، النَّصائح الكَافِيه: ١٥٦ طَبعة لبنان، ابن أبِي الْحَدِيد فِي شَرح النَّهج: ٤/ ٨، تَأريخ الخُلَفاء: ١٩٤، عِلل الشَّرائع: ٨١، الطَّبَقات الْكُبْرَىٰ للشّعراني: ٢٣.

وأنظر، حياة الحيوان للدّميري: ١/ ٥٧، تهذيب التَّهذيب: ٢/ ٢٢٩، تَهذِيب الأسماء واللُّغات للنّووي: ١/ ١٩٩، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٣٩، يَنابِيع المَوَدَّة: ٢٩٣، عُـمدة الطَّـالب فِي أنسَـاب آل أبِي طَـالب لجمَال الحَسني: ٥٢، تذكرة الخواصّ: ٢٠٦، تَأريخ دمشق: ٤/ ٢٢١، تَأريخ دول الإِسْـلام: ١/ ٥٣، جـوهرة الكَلاَم في مَدح السَّادة الأعْلام: ١١٢، تَأريخ الخَمِيس: ٢/ ٣٢٣، دَائرة المعَارف للبُستاني: ٧/ ٣٨، الْفُتُوح لِابْن أعْثَم: ٢/ ٢٩٣.

والخُلاَصة: أنّ وَثِيقة الصُّلح تَضمَّنت خَمس موَاد، وهِي:

١ ـ تسلِيم الأَمْر إلىٰ مُعَاوِيَة علىٰ أنْ يَعمل بكتَاب الله وسُنَّة نَبيّهﷺ وسِيرة الخُلَفَاء الصَّالحِين.

٢ ـ لَيْسَ لِمُعَاوِيَة أنْ يَعهد إلىٰ أحد مِن بَعده والأَمْر بَعده لِلحَسن، فإنْ حَدث بِهِ حَدث فلأخِيه الحُسَيْن.

٣ ـ أنْ لاَ يُسمّيه أَمِير الْمُؤمِنِين، وأنْ يَترك سَبّ أمِيرالْمُؤمِنِين، والقنوت عَلَيْهِ بالصَّلاَة، وأنْ لاَ يَـذكر عَلِيّاً إلّا بخَير، وأنْ لا يُقِيم عِنده شهَادة.

٤ ـ الأَمْن العَامّ لعمُوم النَّاس الأسود، والأحمر مِنْهُم سوَاء فيهِ، والأَمْن الخَاصّ لشِّيعه أَمِير الْمُؤمِنِين، وَعَدم التَّعرض لَهُم بمَكرُوه.

٥ ـ أستثنَاء مَا فِي بَيْت مَال الكُوفَة وهُو خَمسة آلاف ألف، فلاَ يَشمله تَسلِيم الأَمْر، وأنْ يُفضّل بَـنِي هَاشم فِي العَطَاء، وأنْ يُفرّق فِي أوْلاَد مَن قُتل مَع أَمِير الْمُؤمِنِين يَوْم الجَمَل، وأوْلاَد مَن قُتل معهُ بصِفِّين ألف ألف درهم، وأنْ يوصل إلىٰ كلّ ذِي حَقّ حقّه.

وممّا يَجدر ذِكره أنَّ بَعْض المؤرِّخين والبَاحِثِين أصرّ علىٰ المُغَالطات والمُجَادلات وَلَعب بِالأَلْفَاظ وأورد أنّ الإِمَام الْحَسَنعليه السلام قَد تنَازل عَن الخِلاَفَة لِمُعَاوِيَة بِما لِكَلمة التَّنازل مِن المعنىٰ الخَاصّ، ونَحنُ لو رَجعنا إلىٰ التَّأرِيخ لَم نَجد، ولَم يَرد علىٰ لِسَان أحد مَا يُشعر مِن خِطَبهعليه السلام أنّه تنَازل عَن الخِلاَفَة، بل إنّ المصَادر تُشِير إلىٰ أنّهعليه السلام سَلّم الأَمْر، أو ترَك الأَمْر لِمُعَاوِيَة وذَلِكَ مِن خلاَل مُلاحظتنا للشّروط الّتي ورَد فِيها إسقَاطه إيّاه عَن إمرَة الْمُؤمِنِين، وأنّ الْحَسَنعليه السلام عَاهده علىٰ أنْ لاَ يكُون عَلَيْهِ أمِيراً، إذ الأَمِير هُو الَّذي يَأمر فيؤتَمر لهُ، ←

المَدَائِنِي أنّ مُعَاوِيَة بَعد الصُّلح خَطب أَهْل الْكُوفَة، وَقَالَ لهُم فِيا قَالَ: «أَتَرُونِ أنِّي قَاتَلتكُم عَلىٰ الصَّلاٰة، والزَّكَاة، والحَجّ، وقَد عَلِمتُ أنَّكـم تـصلُّون، وَتُـزَكُـون،

⇐ ولذَا أسقط الإِمَام الحَسَن عليه السلام الائتمار لِمُعَاوِيَة إذ أمره أَمراً عَلىٰ نَفسه، والأمِير هُو الَّذي أمْره مَأمور مِن فوقه، فَدلّ عَلىٰ أنّ الله عزّوجلّ لَم يُؤمّره عَلَيْهِ، ولاَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله أمّره عَلَيْهِ، ولذَا لاَ يُقِيم عِنده شهَادة، فكَيف يُقِيم الشَّهادة عِند مَن أزال عَنه الحُكم؟ لأنّ الأمِير هُو الحَاكِم، وهُو المُقِيم لِلحَاكِم، ومَن لَيس لهُ تَأمِير ولاَ تحَاكم فحُكمه هَذر، ولاَ تُقام الشَّهادة عِند مَن حُكمه هَذر.

كَذَلك أنّ الإِمَام عليه السلام عَلم أنّ الْقَوْم جوّزوا لأنفسهم التَّأويل، وسوّغوا فِي تَأويلهم إرَاقة مَا أرَادوا إرَاقته من الدِّمَاء، وإنْ كَان الله عزّوجلّ حقنَه، ولذَا اشترط عَلَيْهِ أنْ لاَ يَتعقب علىٰ شِيعة عَلي عليه السلام شَيئاً، وأنّ الإِمَام عليه السلام يَعلم أنّ تَأوِيل مُعَاوِيَة عَلىٰ شِيعة عَليّ عليه السلام يتعقّبه عَلَيْهِمْ مَا يَتعقبه زَائل مُضمحلّ فَاسد، كَما أنَّه أزَال إمرَته عَنهُ وعَن الْمُؤْمِنِين، وأنَّ إمرتَه زَالت عَنهُ وعَنْهُم، وأفسد حُكمه عَلَيْهِ وعَلَيْهِمْ، وبالتَّالي تكُون حِينئذٍ دَاره دَائرة، وقُدرته قَائمة لغِير الحَسَن، ولغِير الْمُؤْمِنِين فتكُون دَاره كدَار بُخت نُصر وهُو بمَنزلة دانيال فِيها، وكدَار العَزِيز وهُو كيُوسف فِيها.

ولاَ نُريد أنْ نُطِيل فِي ذَلِكَ بأنْ نقول كَما قَالَ أنَس «يَوْمَ كُلّم الحَسَن» ولَم يَقل يَوْم بَايَع. إذ لَم يَكُن عِنده بيْعَة حَقِيقِية وإنَّما كَانَتْ مُهادنة كَما يكُون بَيْنَ أولياء الله، وأعدَائه لاَ مُبايعَة بَيْنَ أوليَـائه وأوليَـائه، فـرأىٰ الحَسَن عليه السلام رَفع السّيف مَع الْعَجْز بَيْنَه وَبَيْنَ مُعَاوِيَة كَما رأىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله رَفـع السّـيف بَـيْنَه وبَـيْنَ أبِي سُفْيَانَ، وسَهل بن عَمْرُو، ولذَا قَالَ الإِمَام الحَسَن عليه السلام فِي جوَابه لِبعضهم:... لاَ تقل ذَلِكَ يَا أبَا عَامر، لَم أذلّ الْمُؤْمِنِين، ولكن كَرهت أنْ أقتلهم عَلى المُلك...كَما جَاء فِي أعيَان الشِّيعة: ٤ ق ١: ٥٢ وقوله عليه السلام:..إنّ مُعَاوِيَة زَعم أنِّي رَأيته لِلْخِلاَفَة أهلاً ولَم أرَ نَفسِي لهَا أهلاً. فكَذِب مُعَاوِيَة نَحنُ أوْلىٰ النَّاس بالنَّاس فِي كتَاب الله عزّوجلّ وعَلى لِسَان نَبِيّه...كَما جَاء فِي حياة الحيوَان للدّميري: ١/٥٨. وهَـذَا تَـصريح خَـطِير بِأنّ الْوِلاَيَة لهُ مِن الله عَلىٰ النَّاس لاَ زَالت قَائمَة، حَتَّىٰ تَسلِيم الأَمْر لِمُعَاوِيَة، وأنّ التَّسليم لَيسَ إلاّ تَرك المُلك.

وَقَالَ عليه السلام، وكَان مُعَاوِيَة حَاضراً:...ولَيس الخَلِيفَة مَن دَان بِالجَوْر، وعَطّل السُّنن واتَّخـذ الدُّنْـيَا أبَاً وأمَّاً، ولكن ذَلِكَ ملك أصَاب ملكاً تمَتّع بِهِ، وكأنْ قَد انقطع عَنه واستَعجل لذّته، وبقِيت عَلَيْهِ تَبعته، فكَان كَما قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. الأَنْبِيَاء: ١١١. وهَذَا تَعريض بمُعَاوِيَة وأنّه لَيْسَ أهلاً لِلْخِلاَفَة وإنَّما هُو ملك يَـطلب الدُّنـيا...أنـظر، المَحَـاسِن والمسَـاوي للـبيهقي: ١/١٣٣، الإحْتِجَاج: ١/٤١٩ الخرَائج والجرَائح: ٢١٨، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١٤٠، شَرح النَّهـج لابْـن أبِي الحَـدِيد: ١٦/٤٩، مقَاتل الطَّالِبِيين: ٧٣، تُحف الْعُقُول: ١٦٤.

وَتحجُون، ولكنّي قَاتلتكُم لأَئتمر عَلَيْكُم، وعَلىٰ رِقَابكُم... أَلا أنّ كل شَرط أشترَطه فتَحت قَدَمي هَاتِين»[١].

وتَكلمنَا عَن هَذَا الصُّلح بِنحوٍ مِن التَّفصِيل فِي كتَاب «الشِّيعَة والحَاكِمُون». ومُجمَل الْقَوْل: «إنّ الَّذِين خَطأوا الإِمَام الْحَسَن فِي هَذَا الصُّلح نَظرُوا إِلىٰ مَا يَنبَغي أَنْ يَكُون، وتَجَاهلوا الظّرُوف والأَحْدَاث الّتي أَحَاطت بِالْحَسَن وفَرضت نَفسها عَلَيْهِ... أعتمدُوا عَلىٰ اللَّمحَة العَابرَة، أو النَّظرِية المُجردَة عَن الزَّمَان والمَكَان، وصَرفُوا النَّظر عمّا يَعترض تَطبِيقها مِن العَقبَات.

أمّا قَول مَن قَالَ: «كَان عَلىٰ الْحَسَن أَنْ يَستَشهد كمَا أستُشهِدَ أَخُوه الحُسَيْن، فإنّمَا يَصح لَو أدىٰ أستِشهَاد الحَسَن إلىٰ نَفْس النَّتِيجة الّتي أَدّت إِلَيْهَا تَضحِية الحُسَيْن مِن إحيَاء الدِّين، وإعلاَن حَقِيقة الأُمَويين، أمّا مَع أختلاَف النَّتِيجة لاِختلاف الظّرُوف والمُؤثرَات ـ فَلا مُبرر للقِياس.

قَالَ الْعَقَّاد: «آلت خِلاَفة الإِمَام إِلىٰ أبنه الْحَسَن فِي مُعسكر مُضطَرب بَيْنَ الْخَوَارِج، والشِّيعَة، والمَوَالِي، والأتبَاع الَّذِين لاَ يَعمَلون عَمْل الأَتْبَاع طَائِعِين، ولاَ يَعملُون عَمْل الرُّؤساء مُقتدرِين مُضطلعِين، ووَرث الْحَسَن مُعسكراً لَم يَطل عَلَيْهِ عَهد الوَلاء لأحد قَطّ لِينَاضل بِهِ مُعسكراً لَم يَقع فيهِ خِلاف قطّ مُنذ الفَتح الأَوَّل، إلا

(١) أنظر، شَرح النَّهج: ١٦/٤٦ و٤٧، مقاتل الطَّالِبِين: ٤٦، المَعْرِفَة والرِّجَال للبسوي: ٣/٣١٨، شَرح الأَخْبَار: ٢/١٥٧، الإِرْشَاد للشَيخ المُفيد: ٢/١٤، مَنَاقب آل أَبِي طَالب: ٣/١٩٦، المُصَنَّف لاِبْن أَبِي شَيبة الكُوفي: ٧/٣٥١ ح ٢٣، تَأريخ دِمشق: ٥٢/٣٨٠ و: ٥٩/١٥٠، البدَاية والنّهاية: ٨/١٤٠، كَشف الغُمة: ٢/١٦٤.

الخِلاَف الَّذي كَان يُريده مُعَاوِيَة ويَعمل لهُ حَذراً مِن مَغَبَّة الإتفَاق عَلَيْهِ»[1]. وَمعنىٰ هَذَا فِي وَاقعهِ أنّ الْحَسَن لَو لَم يُصالح لِقُتِل بِسيُوف مُعسكره لاَ بسيُوف أعدَائِه، كَمَا أوضحنَا فِي كتَاب «الشِّيعَة والحَاكِمُون».

والخُلاَصة: أنَّ الْحَسَن أخُو الحُسَيْن، ورُوح أَبِيه، وأخِيه بَيْنَ جَنْبَيْه، وقَد آسْتُشْهِدَ الحُسَيْن لخَير الإِسْلام، والْمُسْلِمِين، وصَالح الْحَسَن لِلغَاية نَفْسَها، ودَفعاً للضَّرر الأشَد بِالضَّرر الأخَف، لاَ رَهبَة مِن المْوْت، ولاَ رَغبَة فِي ٱلْحَيَاة.

الْمَعْنَىٰ:

(الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ) بِقَسوَته وَشِدَّتِهِ (الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا) أي الصَّابر عَلىٰ آفَاتها وضَربَاتها (إِلَىٰ الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لاَ يُدْرِكُ... إلخ). الْمُرَاد بِالمَوْلُود هُنا كلّ وَلد مِن حَيْث هُو إنْسَان بصَرف النَّظر عَن الْحَسَن وغَيْره مِن الأفرَاد، والْقَصْد النَّهي عَن طول الأمَل لأنّه يُنسي الآخِرَة (وَ عَبْدِ الدُّنْيَا) خَاضع لِمَنطق ٱلْحَيَاة، والغَرَائِز ٱلْحَيَوَانِية (وَ غَرِيمِ الْمَنَايَا) مَديُون للمَوْت الَّذي يَطلب الرَّحِيل مِن كلّ حَيّ تَمَامَاً كَمَا يَطلب الغَرِيم الوَفَاء بِمَاله مِن المَديُون (وَ نُصُبِ الآفَاتِ) مَصِيدة للنَّكبَات والعَثرَات.

(فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي... إِلىٰ وَرَائِي). ذَهب الْعُمُر أو أَكْثَره، ولاَقَيت مِن دَهري مَا لاَقَيت، وجَاءني المَوْت مُسرعاً، وهَذَا بِطَبِيعَة الحَال يَدعُونِي إلىٰ الاِهْتِمَام بِآخرَتِي ومَصِيري، والاِنْصرَاف عمّا عَدَاه (غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ

(١) أنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة آبن أبي سُفيَان: ١٢٢ طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلال.

بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي . . . إلخ). وعَلىٰ الرَّغم مِن أَنّي فِي هَذِه اللَّحظة أهتَم بِنفْسِي دُونَ غَيْرِها فقَد رَأيتُ رَأياً لاَ هوىٰ فيهِ ولاَ شَائِبة، وهُـو أَنّي (وَجَـدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي) وإذَنْ فالاِهتِمَام بِكَ آهتِمَامٌ بِنَفْسِي ذَاتِهَا (حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي . . . إلخ). وهَكَذا كلّ وَالد يَـرىٰ وجُـود وَلده آمـتدَاداً وتكـرَاراً لوجُوده، وقُرَّة عَين لهُ مَا كَان لِيحظىٰ بِها لَو لَم يوجَد.

هَذِه هِي عَاطفة الأبوين نَحو الْوَلَد.. وهِي أشبَه بالصَّرعة والجنُون ـ فِيما أرىٰ ـ ولكنّها غَريزَة حيوَانية نَعوذ باللهِ مِن آثَامها، وفِي الحَـدِيث الشَّرِيـف: «إنّ الْـوَلَد مَجْبَنَةٌ، مَبْخَلَةٌ»[1]. وهَذِه حقِيقَة يَشعر بِها كلّ وَالد ووَالدة، أمَّا عَاطفَة الْوَلَد نَحـو أبويه فَالبَاعث عَلَيْهَا ـ فِي الأَغْلَب ـ مُجرد الْمَصْلحَة، بخَاصَّة أوْلاَد هَذَا الزَّمَان. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. ومَـا قَـالَ: «إنّ مِـن آبـائِكُم وأُمّهَاتكُم عَدوّاً لَكُم فاَحْذَروهم.

لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ...فِقْرَة ٣ ـ ٥:

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ ـ أَيْ بُنَيَّ ـ وَ لُزُومِ أَمْرِهِ، وَ عِـمَارَةِ قَـلْبِكَ بِـذِكْرِهِ، وَ

---

(١) أنظر، المجموع: ١٢٤/١٤، توحيد الصَّدوق: ٣٨٨، المجَازات النَّبويّة: ١٥٧، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١٢٣، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٢٣٦/١ ح ٦٤٧، مُسْنَد أحمد: ١٧٢/٤، سُنَن آبن ماجَه: ١٢٠٩/٢ ح ٣٦٦٦، الْمُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ١٦٤/٣، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٢٠٢/١٠، مَجْمَع الزّوائد: ١٥٥/٨، الْمُصَنَّف لعبدالرّزاق الصَّنعاني: ١٤١/١١ ح ٢٠١٤٣ و ٢٠١١٤٤، الْمُصَنَّف لِابن أبي شَيبة: ٥١٢/٧ ح ٦، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٣٠٥/٢ ح ٥٩.

(٢) آلتَّغَابُن: ١٤.

الْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ . وَ أَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ !

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ، وَ أَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ ، وَ قَوِّهِ بِالْيَقِينِ ، وَ نَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ ، وَ ذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَ قَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ ، وَ بَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ، وَ حَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ ، وَ فُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَ الْأَيَّامِ ، وَ اعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وَ ذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَ سِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَ آثَارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَ عَمَّا انْتَقَلُوا ، وَ أَيْنَ حَلُّوا وَ نَزَلُوا ! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ ، وَ حَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ ، وَ كَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ[٣] . فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَ لَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ؛ وَ دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ ، وَ الْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ . وَ أَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ ، وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَ أَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَ لِسَانِكَ ، وَ بَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ ، وَ جَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَ لَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ[٤] . وَ خُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَ تَفَقَّهْ فِي الدِّينِ ، وَ عَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ ، وَ نِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ ! وَ أَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ ، وَ مَانِعٍ عَزِيزٍ . وَ أَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَ الْحِرْمَانَ ، وَ أَكْثِرِ الْإِسْتِخَارَةَ ، وَ تَفَهَّمْ وَصِيَّتِي ، وَ لَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً ، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَ اعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَ لَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ[٥] .

اللُّغة:

قَرِّرْهُ : أَطْلب مِنْهُ الْإِقرار . وبَصِّرْهُ : اجْعَله بَصِيراً . والفُحْشَ : القُبْح . ومَثْوَاكَ : مَحَل إِقَامتُكَ . وبَايِنْ : بَاعد . لَا يَحِقُّ ـ بِكَسر الحَاء ـ لَيْسَ مِن الحَقِّ فِي شَيء .

الإِعْرَاب:

أَيْ بُنَيَّ يَا بُنَيَّ، إنْ أَنتَ أي إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ، وتَكُنْ مجـزُوم بجـوَاب الأَمْـر، والتَّصَبُّرُ مُبْتَدأ، وجُملة نِعْمَ الخُلُقُ خَبَر.

الْمَعْنَىٰ:

كلّ مَضَامِين هَذِه الوَصِيَّة الْقَيِّمَة الخَـالدَة أو جـلّها، تَكـرَّر مـرَاراً فِي الخُـطب السَّابقَة، ومَع هَذَا نَشرَح مُرَاد الإِمَام مِن كلّ جُملة وحِكْمَة تَقدِيراً لهَا وتَبركَاً بهَا، وتَيسِيراً عَلىٰ القَارىء، ولكـن نُـوجز ولاَ نـطنب، وَقَـد نَـتجَاوز الوَاضِـحَات، والمَكرُورَات إلّا إِذَا اهتدِينا لجَدِيد نَضِيفه إِلَيْهَا، أو يَزِيدها ايضَاحاً.

(فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ ـ أَيْ بُنَيَّ ـ وَ لُزُومِ أَمْرِهِ). ولاَ يَتحقق السَّبب بَيْنَ الله وعَبدَه إلّا بِثَلاثَة:

الْأَوَّل: الشّعُور بوجُوده، وإِنّه يَنْفَع وَيَضُرّ، ويُنعِم وينْتَقم.

الثَّانِي: التَّوكل عَلَيْهِ والثِّقَة بِهِ.

والثَّالث: أنْ يَكُون مَع الْإِيمَان، والتّوكل عَمْل بِرضَاه أي يَنْفَع ولاَ يَضُرّ، وهَذِه الثَّلاثَة مُتكَافئة مُتشَابِكة، فَمَن آمنَ ولَم يتوكل أو تَوكل ولَم يَعمَل انْقَطع السَّبَب بَيْنَه وَبزيْن خَالقه.

(أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ) وَلَيس المُرَاد بِالمَوْعِظَة مُجرد الوَصَايَا العَشر وأَمثالهَا، بل المُرَاد الإِتعَاظ بِالعِبر والانْتفَاع بِالتَّجَارِب (وَ أَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ) أي بِالإِعرَاض عَـن الحَرَام، كمَا قَالَ فِي مكَانٍ آخر: «وَلاَ زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ»[1]. (وَ قَوِّهِ بِـالْيَقِينِ)

---

(١) أنظر، خُطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٢٧/٤، الحِكْمَة (١١٣).

وهُو أنْ تَعبد الله كأنَّك ترَاه، وتُؤمن بِالْآخِرَةِ كأنَّك فِيها.. وأَوَّل مَا يَنشأ هَذَا الْيَقِين مِن التَّفكِير فِي خَلق السَّموَات والأَرْض، أو مِن التَّربِية والبِيئة، ثُمَّ يَنمُو ويَقوىٰ بِالْعَمَل عَلىٰ مُقتضَاه (وَ نَوِّرْهُ بِالْحِكْمَة) فإِنَّهَا ضَالَة الْمُؤْمِن.

(وَ ذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَ قَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ). لأنّ نسيَان الْمَوْت والْفنَاء يُؤدي إِلىٰ الْعَمىٰ والطُّغيَان... بل أدىٰ بِبَعْض الغَافلِين إِلىٰ ٱدعَاء الرّبُوبِية، كَالَّذي قَالَ لإبرَاهِيم الخَلِيل عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾[1] وذَهَل إنّه عمّا قَرِيب يَنزل إِلىٰ قَبرِه جُثَّة هَامِدَة (وَ بَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا... إلخ). تَكرَّر هَذَا مِرَاراً فِيا سَبق، ويَتلَخص بِأنّ عَلىٰ الْعَاقِل أنْ لاَ يَغتر بِالدُّنْيَا وسُلطانهَا وزِينَتها ومَاها، فالأوَائِل أصَابُوا الْكَثِير مِن لذَاتها، ثُمَّ فَارقتهُم وفَارقُوها (فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ) بِٱدخَار الْحَسَنَات لوَقت الْحَاجَة وإلّا لحقَتك الحَسرَة والنَّدَامة.

(وَ لاَ تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ). عَلَيْكَ أنْ تَشتَهِين بِالنَّفع العَاجل إنْ كَانَتْ مَغبَته إِلىٰ سُوء، والتَّبِعة عَلَيْهِ قَاسِية وشَدِيدَة، فإِنَّ خَير الْأُمُور مَا أَمنتَ مِن عَاقبتَه، ومِن هُنا يَصح الْقَوْل: «إِنَّ أَعْلَم النَّاس أَعْلمهُم بِالعوَاقب، وأَعْقَلهُم مَن نَظر إِلَيْهَا، وعَمل بِمُوجبهَا» (وَ دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لاَ تَعْرِفُ). أَبَداً لاَ فَرق بَيْنَ مَن يُحَارِب بِلا سلاَح، ومَن يَتكَلَّم بغَير عِلم، ولاَ هدىٰ، ولاَ كتَاب مُنِير... أمَّا حُرِّيَّة التَّعبِير عَن الرَّأي فَهِيَ مَضمُونة لأَهْل العِلم والرَّأي لاَ لِمن يَهرف بمَا لاَ يَعْرِف، ويُبَادر إِلىٰ الكَلاَم عَلىٰ مَا خَطر فِي قَلبه مِن غَيْر تَأمل وتَفكِير... حَتَّىٰ العَالم يَكُون سكُوته أَبْلَغ وأَفضَل مِن كلاَمه فِي بَعْض الأحيَان، وتَكلمنَا عَن ذَلِكَ سَابقاً[2].

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٥٨.

(٢) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٩٦) فِقْرَة: السُّكُوت. (مِنهُ رحمه الله).

(وَ الْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ) إذَا كَان غَيْرك المَسْئُول فَدَع التَّطفل والفُضُول حَتَّىٰ ولَو كُنت أَهلاً للإجَابَة، وأعْلَم بِمَّنْ سُئل... وكَيف بِك إذَا قَالَ لِكَ السَّائل: مَا إيَّاكَ سَالتُ، أو قَالَ لَك المَسْئُول: مَا إِيَّاكَ أَعْنِي ؟. (وَ أَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلاَلَتَهُ... إلخ). لاَ تَدخل فِي شَيء إذَا كُنت مِنْهُ عَلىٰ شَكٍّ، وَٱستَشْعِر الخَشيَة مِن المَجهُول، ولاَ تَقُل أو تَفعَل إلّا مَع الْيَقِين بإصَابَة المَوضع، فَإنْ أَخْطَأت، والحَال هَذِه، كُنتَ عَلىٰ عُذرك عِند الله والنَّاس... وعَلىٰ أيَّة حَال إنْ لَم يَكُن مِن شَيء تَكْسبه فِي إحْجَامك فَلِيس ثَمَّة مَا تَخسرَه.

وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ:

(وَلاَ تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِم، وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ). أَبَداً لاَ هوَادَة، ولاَ تَعَايُش سلمِي مَع الطُّغَاة الَّذِين مَارسُوا ويمَارسُون فِي ظل هَذَا التَّعَايُش أَعنَف المعَارك ضِدّ المُسْتَضعفِين. ولاَ رَادع لهُم وزَاجر فعَّال ومُؤثر من أيّة قوَّة فِي عَصرنا... أَللَّهُمَّ إلّا أنْ يَستَمِيت المَظلُوم فِي سَبِيل حقّه... وهَل مِن الضَّرُورِي أنْ يَعيش الضَّعِيف فِي صرَاع دَائِم مَع الْقَوِيّ الطَّامع ؟ وإذَنْ فَأين حُمَّاة الْحَقّ، وأَنْصَار الْعَدْل ؟. وسَلاَم الله عَلىٰ مَن قَالَ: «خُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ فِي رُوسيَا، والصِّين، أو فِي رُودِيسيَا، وفِلسْطِين... فِي بَيتك أو فِي بُيُوت الآخرِين».

(وَ عَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَىٰ الْمَكْرُوهِ... إلخ). لاَ تَسْتَسلم للبَاطِل وأَهْله، ودَافع عَن الْحَقّ وأَهْله جُهد المُستَطِيع، وٱصْبر عَلىٰ الْجِهَاد مَهما كَانَتْ الظرُوف (وَ أَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَىٰ إِلَهِكَ... إلخ). ثِق بِرَّبك، وتَوكل عَلَيْهِ بِقَلب خَاضع، وعَمل صَالح، فإنْ فَعلت كَان نَصر الله مَعك أينَما كُنت (وَ أَكْثِرِ الإِسْتِخَارَةَ) ٱدع الله

سُبْحَانَهُ بِإِخلاَص أنْ يَختار لَك مَا فيهِ صَلاَح دِينَك ودُنْيَاكَ (فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ) ولاَ خَير فِي شَيء لاَ يَترك أَثراً يَنْتَفع بِهِ الْإِنْسَان عِلماً كَان، أو عَملاً، أو عَقِيدَة.

(وَ لاَ يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لاَ يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ). العِلم بِطَبعه لاَ يَأمر ولاَ يَنهىٰ، ولاَ يَعنِيه شَيء مِن أَمر السّلوك وأَحْكَامه، وإِنّما يَكشف عَن الشَّيء وَمدىٰ تَأثِيره وعِلاَقته مَع غَيْره. أمّا أَحْكَام السّلوك فمُوكُولة إِلىٰ الدِّين والأَخْلاَق، والإِسْلاَم يُحرم ٱستعمال العِلم للإضرَار بِالآخر، وطَلَبه للتّمَارِي والتَّباهِي، ويُوجب تَعلِيمه ونَشرَه لِخِدْمَة ٱلْحيَاة وأَمنِهَا والْقَضَاء عَلىٰ الشَّرّ والبُؤس. أمّا طَلبه لُمجرد صَقل الْعُقُول وجَلائِها ـ كَما كَان يُقَال ـ فلاَ يَأمر بِهِ ولا يَنهىٰ عزنْه، لأنّه يَكُون، والحَال هٰذِه، تَماماً كالنَّظرَة العَابرَة إِلىٰ زُهرة أو شَجرة.

قَلْبُ الْحَدَثِ...فِقْرَة ٦ ـ ٧:

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَ رَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَ أَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَىٰ وَ فِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ. وَ إِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَ يَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَ تَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَ عُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَ ٱسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ[٦].

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَ إِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَ

فَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَ سِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا ٱنْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَ نَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَٱسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَ تَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَ صَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَ رَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَ أَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَ أَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَ مُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَ نَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَ أَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ تَأْوِيلِهِ، وَ شَرَائِعِ الْإِسْلاٰمِ وَ أَحْكَامِهِ، وَ حَلاٰلِهِ وَ حَرَامِهِ، لاٰ أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا ٱخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَ آرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي ٱلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلاٰمِكَ إِلَىٰ أَمْرٍ لاٰ آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَ رَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَ أَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ(٧).

اللُّغَة:

بَادَرْتُكَ: عَاجَلتُك، والمُؤُونَةَ: الثِّقل والشِّدَّة. ونَخِيلَهُ: صَفْوَته. وأَجْمَعْتُ: عَزَمْتُ وَصَممتُ. وأَشْفَقْتُ: خرِفتُ.

الإِعْرَاب:

وَهْناً تَمْيِيز، ونُصبتْ «فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ» لِلعَطف عَلَىٰ أَنْ أُنْقَصَ، و «فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ» عَطف عَلَىٰ لِتَسْتَقْبِلَ، ومَا قَدْ كَفَاكَ «مَا» مَفْعُول تَسْتَقْبِلَ، والْمَصْدَر مِن أَنْ يَكُون ذَلِكَ مَفْعُول وَرَأَيْتُ حَيْثُ... إلخ، والْمَصْدَر مِن أَنْ يَلْتَبِسَ مَجْرُور بِمَن

مَحْذوفة.

الْمَعْنَىٰ:

(لَمَّا رَأَيْتُنِي) أي رَأيْتَ نَفْسِي (قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً). كَتَبَ هَذِه الوَصِيَّة بَعْد أَنْ تَجَاوز السِّتِّين (وَ أَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي... إلخ). أي مِن الوَصِيَّة، والْمَعْنَىٰ أنّ الإِمَام عَجّل بهذه الوَصِيَّة قَبل بَغْتَة الأَجل ونِهَايَته (أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي... إلخ). لَيْسَ الْمُرَاد بِنُقْصَان الرَّأي هُنا فَسَاد الْعَقْل، بل كلّ مَا يَحُول بَيْنَ الْمَرْء والتَّعبير عَن رَأيه (أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَىٰ وَ فِتَنِ الدُّنْيَا). الإِمَام لا يَغْلِبه الْهَوَىٰ، ولاَ تُفْتِنَه الدُّنْيا، وقَد طَلّقها ثَلاثاً قَولاً وعَملاً... ولكن هَذِه هِي لُغَة الأَوْلِيَاء والقديسين، ومِن قَبله قَالَ رَسُول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] وَقَالَ نُوح: ﴿وَإِلَّاتَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[2].

(فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ) أي البَعِير الصَّعْب الَّذي يَنْفُر ولاَ يُمكّن أَحداً مِن ظَهره (وَ إِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَة... إلخ). قَالَ الإِمَام فِي أَوَّل هَذِه الوَصِيَّة: «مِنَ الْوَالِدِ... إِلَىٰ الْمَوْلُودِ». وقُلنا: الْمُرَاد بِالْمَوْلُودِ الْوَلَد مِن حَيْث هُو إِنْسَان بِصَرف النَّظر عَن الْحَسَن وغَيْره مِن الأَفْرَاد، وقَول الإِمَام: «كَالصَّعْبِ النَّفُورِ... وَقَلْبُ الْحَدَثِ» قَرِينَة قَاطعَة عَلَىٰ مَا قُلناه فِي تَفْسِير الْمَوْلُود، لأَنَّ سِنّ الْحَسَن كَانَتْ أَكْثَر مِن ثَلاثِين سَنَة حِين أوصىٰ أَبُوه بهَذه الوَصِيَّة، ولأَنَّ الْحَسَن أَحد الَّذِين عَنَتْهم الآيَة بِالتَّطْهِير مِن الرِّجْس: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ

(١) سَبأ: ٢٤.

(٢) هُود: ٤٧.

أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١] وأيضاً هُو أحد الَّذين أرادَهُم النَّبيّ ﷺ بحَديث الثَّقلين. وسَبق الكَلاَم عَن هَذَا الحَديث، وآيَة التَّطْهِير أَكْثَر مِن مَرَّة... هَذَا، إِلىٰ أَنَّ الإِمَام أَثنىٰ فِي العَديد مِن خُطَبه عَلىٰ أَهْل الْبَيْت، وأَمر بآتْبَاعِهم، ومِن ذَلِكَ قَوْله فِي ٱلْخُطْبَة الثَّانِيَة: «هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ ـ أي وعَاؤه ـ وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ» وقَوْله فِي ٱلْخُطْبَة(٩٧): «ٱتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً»، إِلىٰ كَثِير مِن ذَلِكَ.

وأَقْوَال الْإِمَام يَنْسَجِم بَعْضهَا مَع بَعْض كَمَا تَنْسَجِم بِمَجْمُوعها مَع عِلمه ودِينه وأَفْعَاله، وَإِذَا كَانَ قَلْبُ الْحَدَثِ «كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ» كَمَا قَالَ الْإِمَام فإِنَّ الْحَسَن كَان، وهُو طِفل، فِي حِجر جَدّه رَسُول الله ﷺ يَحضر مَجلسَه وَيَسمع مِنْهُ ويَحْفظ، وقَد روىٰ عَن جَدّه بَعْض الأَحَادِيث تَنَاقلها الْعُلَمَاء ودَوّنُوها فِي كُتبهِم، مِنْهُم التِّرمذِي فِي صَحِيحه، والدَّارمِي فِي سُنَنه، وأَبُو نَعِيم فِي حُليته، وٱبن الأَثِير فِي أُسد الغَابَة[٢].

(لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ). جِدَّ ـ بِكَسر الجِيم ـ أي الْمحقق، تقول: فُلاَنٌ

(١) ٱلأَحزاب: ٣٣.

(٢) أُنظر عَلىٰ سَبِيل المِثَال، سُنن التِّرمِذي: ١٦٤/٣، وسُنن الدّارمي: ١٥٧/٢، سُنن البَيْهَقِيّ الْكُبْرىٰ: ٣٨/٣، أُسد الغَابَة: ٢٦٥/١، تَفْسِير القُرطُبي: ١٥٧/٩، تَفسِير الطَّبَرِي: ١٠٩/٢١، تَفْسِير ٱبن كَثِير: ٣٢٨/١، مُسْنَد أَبِي عوَانه: ٢١٢/٤، مَجْمَع الزّوائد: ٢٠/٤، المُصَنَّف لعبدالرّزاق: ١١٨/٣، شَرح مَعَاني الآثَار: ١٦٨/٢، الْمُعْجَم الأوسط: ٢٦٠/٢، الْمُعْجَم الصَّغِير: ٣٤٤/١، مُعجم أَبِي يَعلىٰ: ١٩٠/١، الآحَاد والمَثَاني: ٤٣٨/٢، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٦٧/٣، شُعب الإِيمان: ١٥٤/٢، السُّنَّة لعبدالله بن أحمد: ٤٠٣/٢، التَّرغيب والتَّرهيب: ٣٨/٢، التَّارِيخ الْكَبِير: ٢٠٧/٦، تَهذِيب التَّهذيب: ٣٣٧/١٢، تَهذيب الكَمَال: ٤٩٥/٢، الطَّبَقات الْكُبْرىٰ: ٤٤٢/١.

عَالم جدٌّ عَالم أي مُتناهٍ فِي العِلم (مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَ تَجْرِبَتَهُ... إلخ) أي أنّ الإِمَام يُزوده بِالمَعلُومَات الكَافِية لاِعْتدَاله وكمَاله فِي آرائِه وأفعَاله، وتُغنِيه عَن التَّجَارِب وأَتْعَابها (وَ إِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي... إلخ). الْمَعْرِفَة لاَ تُقاس بِالمَوهِبة وحدَها، ولاَ بِالْعُمُر المَدِيد، وإنّما تُقاس بِالرّؤيَة والخِبْرَة، وكَثرَة المُمَارسَة، وقَد ٱمتَدت ٱلْحَيَاة بِالَّذِين سَبقُوا الإِمَام أَكْثَر مِنْهُ بِكَثِير، ولكنّ الإِمَام جَرَب ورَأىٰ أَكْثَر مِمّا جَربُوا ورَأوا، هَذَا إِلىٰ أنّه سَبَر أحوَال المَاضِين حَتَّىٰ كأنّه عَاش مَعهُم مِن يَومهم الأَوّل إِلىٰ آخر يَوْم.

(فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَ نَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ... إِلىٰ جَمِيلَهُ) ٱنْتَهيتُ مِن تَجَارِبِي إِلىٰ مَعْرِفَة ٱلْحَيَاة خَيرها وشَرّها، وأنّي أُقدم لَكَ صَفْوَتها خَالِصة مِن كلّ شَائِبة (وَ صَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ) أي المُشتبَه الَّذي أشَار إِلَيْهِ النَّبيّ ﷺ بقَوْله: «دَع مَا يُرِيبكَ إِلىٰ مَا لا يُرِيبك»[1]. (وَ رَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ). هَذَا دَلِيل آخر نَعْطفه عَلىٰ الأدلة السَّابقة النَّاطقة بأَنّ الْمُرَاد بِالمَوْلُودِ المُخَاطب هُو الْوَلَد مِن حَيْث هُو إِنْسَان، لأنّ مَعنىٰ هَذِه الجُملة أَرَدْتُ أَنْ أُعْلمك الْقُرْآن وتَفْسِيره وحَلاله وحرَامه، ثُمّ عَدلتُ خَشية أَنْ يَخفىٰ عَلَيْكَ مكَان الصّواب فِي الْمَذَاهِبُ والآرَاء لحَدَاثة سِنّك، فاكْتَفِيت بِهَذه الوَصِيَّة الّتِي تَحتَوي عَلىٰ الإِيمَان بِالله، وآدَاب السّلوك.

ومُنذ قَلِيل أشرنَا أنّ سِنّ الحَسَن كَانَتْ عِند هَذِه الوَصِيَّة أَكْثَر مِن ثَلاثِين عَاماً.

---

(١) أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢/٧٢٤ ح ١٩٤٦، صَحِيح آبن حبّان: ٣/٤٩٨ ح ٧٢٢، صَحِيح آبن خُزَيْمَة: ٤/٥٩ ح ٢٣٤٨، مورد الظّمآن: ١/١٣٧ ح ٥١٢، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحين: ١/١١٦ ح ١٦٦، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٦٦٨ ح ٢٥١٨، سُنَن الدّارمي: ٢/٣١٩ ح ٢٥٣١.

وإذَا كَان الْإِمَام الْحَسَن لاَ يَعْرِف أسرَار الْقُرْآن، وأحْكَام الشَّرِيعة فَمَن الَّذي يَعرفها ؟ ثُمّ أنّ الْإِمَام أَمِير الْمُؤْمِنِين حَثّ عَلىٰ التَّمسك بِالْقُرْآن، والْعَمَل بِأمرِه ونَهيه فِي الْعَدِيد مِن خُطَبه وكلاَمه، ونَص صَراحة عَلىٰ تَعلِيم الْقُرْآن وتَعلمه، وَقَالَ: «وَتَعَلَّمُوا ٱلْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ»[١].

والْخُلاَصة: أنّ الْإِمَام يُوصِي بوَجه عَام أنْ يُلقَن الطِّفل أوّلاً أُصول الْإِسْلاَم الضَّرُوريَة، ويُمَرّن عَلىٰ السّلوك الشَّرعي حَتَّىٰ إذَا تَقَدَّمَت بِهِ السّنّ تَعلم الْقُرْآن والشَّرِيعة.

مَا أَكْثَر مَا نَجْهَل؟ فِقْرَة ٨ ـ ١٠:

وَ ٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَىٰ اللهِ وَ الْإِقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَ الْأَخْذُ بِمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَ الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَ فَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَ الْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَ تَعَلُّمٍ، لاَ بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَ عُلَقِ الْخُصُومَاتِ. وَ ٱبْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالْإِسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَ تَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَىٰ ضَلاَلَةٍ. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَ تَمَّ رَأْيُكَ فَٱجْتَمَعَ، وَ كَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَٱنْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَ إِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَ

(١) أنظر، ٱلْخُطْبَة: (١١٠). (مِنْهُ ﷺ).

فَرَاغِ نَظَرِكَ وَ فِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ، وَ تَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَ لَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَ الْإِمْسَاكُ عَنْ ذٰلِكَ أَمْثَلُ(٨).

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَ اعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَ أَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَ أَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَ أَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَ الْإِبْتِلَاءِ، وَ الْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَ مَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، وَ يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَ يَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ! فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَ رَزَقَكَ وَ سَوَّاكَ، وَ لْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَ إِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَ مِنْهُ شَفَقَتُكَ(٩).

وَ اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ـ صلى الله عليه وآله ـ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَ إِلَىٰ النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَ إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ـ وَ إِنِ اجْتَهَدْتَ ـ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ(١٠).

اللُّغَة:

شَائِبَةٍ: مِن الشُّوب أي الخَلط. وَأَوْلَجْتُكَ: أَدْخَلْتُكَ. ونَاقَةٍ عَشْوَاء: ضَعِيفَة الْبَصَر. وتَتَوَرَّطُ: تَقع فِي مَكرُوه. والأَمْثَلُ: الأَفْضَل. وشَفَقَتُكَ: خَوْفُك. ورَائِد الْقَوْم: يَرشدهُم إِلىٰ مَا يَبتغُون.

الْإِعْرَاب:

أَنْ قَدْ صَفَا الأَصل أنّه قَدْ صَفَا، ومَا خُلِقْتَ «مَا» مَصْدَرِيَة، وجَاهِلاً حَال، ومِثله رَائِداً، ونَصِيحَةً تَمْيِيز.

الْمَعْنَىٰ:

أَلَّف الْعَقَّاد كتَاب «عَبْقَرِية الإِمَام»، وتَحدث فيهِ عَن حيَاته وأوصَافه، واعْتَمد فِي تَحدِيد إسْلاَمه عَلىٰ مَقطع هَذِه الوَصِيَّة، وهو قَوْله: (وَ اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَىٰ اللهِ وَ الإِقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ... إِلىٰ قَوْله ـ فَسَّرْتُ لَكَ). وبَعد أَنْ نَقل الْعَقَّاد هَذَا قَالَ: «يَكفِي هَذَا التَّعرِيف بإِسْلاَم عَليّ كَمَا ارْتضَاه لِنَفْسه وأتْبَاعه... وهُو إِسْلاَم الرَّجُل أُتيح لهُ أَنْ يَتَتلمذ لِرَبّه، ويَتَربىٰ فِي حِجر نَبِيّه، إمَامَاً للمُقتَدِين مِن بَعده»[1].

وَمَعْنىٰ الكَلاَم الَّذي اختَاره الْعَقَّاد: عَلَيْكَ أَيُّها الْمُسْلِم، أو أَيُّها الإِنْسَان أَنْ تنظُر وتَبحث أوَّلاً وقَبل كلّ شَيء عمّا أَنْتَ مَسْئُول عَنْه ومُكَلف بهِ، فإِذَا عَرفت مَا عَلَيْكَ مِن مَصْدَره، ومَارسته بِجدَارة، وأَدَّيْته بِأَمَانة ـ فَقد حَررت نَفْسَك مِن التَّبعَة والمَسْئُولِية، ومَا زَاد فهُو تَفَضُل مِنك، وإحْسَان إنْ كَان مَمدُوحاً ومَشكُوراً وإلاّ فهُو تَطَفُل وفضُول، أو هُو إثْمٌ وجَرِيمَة أَنْ أَضَر بِغيرك أو بِمَا عَلَيْكَ مِن وَاجبَات حَيْث لاَ قُربَة بِالنَّوَافل إذَا أَضَرت بِالْفَرَائِض كمَا قَالَ الإِمَام.

ومُرَاد الإِمَام بِالأَوَّلِينَ مِن آبَاء الإِمَام الْحَسَن والصَّالِحِين مِن أَهْل بَيْتِهِ ـ النَّبيّ، وَعَليّ، وعَبد المُطلب، وأبُو طَالب، أمَّا قَوْله: (فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ... إلخ). فَمَعْنَاه عَلَيْكَ أَنْ تكُون امتدَاداً وتِكرَاراً للسَّلف الصَّالح، ولاَ بَأس فِي أَنْ تَنْظُر وتَدرُس مِنْهَاجهم ومفَاهِيمهِم لتَكُون عَلىٰ بَصِيرة مِن أَمْرك، شَرِيطَة أَنْ تَقف مِن ذَلِكَ موقِف العَالِم المُخلص لِلْحَقّ المُستَعِين باللهِ فِي جَمِيع أُمُوره، فهُو يُمَيِّز بَيْنَ

---

(١) أنظر، عَبْقَرِية الإِمَام: فَصل «إسْلاَمه». (مِنْهُ ﷺ).

السَّلِيم والسَّقِيم، والشُّبْهَة والحَقِيقَة، بِلا تعصّب وتَعَسُّف.

(وَ إِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ... إلخ). إذَا توَافر لَكَ التَّجرُد لِلحَقِّ والكَفَاءة العِلمِية جَاز لَك الحُكْم عَلىٰ الأَشْيَاء وأنْ تُصوّب وتُخطّيء وإلّا (فَاْعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ) تَقول وتَتصَرف عَلىٰ غَيْر هُدىً وبَصِيرة (وَ لَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ) ولاَ لغَيره أنْ يَقول بِالجَهْل (وَ الإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ) بَل وَاجب شَرعاً وعَقْلاً.

(وَ اْعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ... إلخ). الله سُبْحَانَهُ هُو المُحيي والمُميت، والمُبدىء والمُعِيد، والمُنعِم والمُنْتَقم (وَ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ). لَيْسَت الدُّنْيَا خَيراً كلّها أو شَرّاً كلّها، وكلّ شَيء فِيها لهُ جِهة سَلب، وجِهة إيجَاب، هَكذا قَضت حِكْمَته تَعَالىٰ، أو هَذِه هِي طَبِيعَة المَادَّة، كالمَاء فيهِ حيَاة وغَرق، والنَّار تُحرق الثّوب وتَنْضج الطَّعام، والشَّمس تضيء، وقَد تَضْرِب الإِنْسَان بحرَارتها... وإِلىٰ هَذَا تُشِير كَلِمَة «لِتَسْتَقِرَّ». ولاَ يَجُوز لأحدٍ أنْ يُركز عَلىٰ جَانب دُونَ جَانب، ولاَ بُدّ مِن النَّظر إِلَيْهما مَعاً، فما كَان خَيرَه أَكْثَرَ مِن شَرّه كَالشَّمس والنَّار فهُو خَير لا يَجُوز تَركه بحَال، قَالَ الإِمَام جَعْفَر الصَّادق عليه السلام: «تَرك الخَيْر الكَثِير لاجْل الشّرّ القَلِيل شَرّ كَثِير»[1]. وتَكلمنا عَن ذَلِك بِنحو مِن التَّفصِيل فِي كتَاب «فَلْسَفَة التّوحِيد والوِلاَيَة».

(وَ الْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ) أي أنّه تَعَالىٰ جَعل الدُّنْيَا دَاراً لِلعَمل، والآخِرَة دَاراً

(١) أنظر، شَرح أُصول الكَافِي: ١٢/٥، ولكن نَسبه إلىٰ أحد الحُكَمَاء، المحصُول للرّازي: ١٦٥/٦، بحَار الأنْوَار: ١٣٥/١١.

لِلجزَاء. قَالَ الإِمَام: «الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَاب، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ»[١] (أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لاُ تَعْلَمُ) يُشِير إِلىٰ أنّ ٱلحِكْمَة الإلٰهية قَد تَقْتَضِي الْجزَاء فِي الدُّنْيَا بِنَوْع مِن الأنوَاع، فَقد أَغرق سُبْحَانَهُ قَوم نُوح، وفرعُون، وأَهلك قَوم هُودٍ، وصَالح، ورُبّ صَدَقة صَغِيرة دَفْعَت شرّاً كَبِيراً (فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ) وَخَفي عَلَيْك وَجْه ٱلْحِكْمَة فِي السَّراء والضَّراء، والجزَاء فِي المَعَادِ (فَٱحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ... إلخ). لاَ تُنْكر مَا تَجْهَل، وأي مَخلُوق أحَاط بكلِّ شَيء عِلماً؟ ولَو قِيس مَا خُفي عَن أعْلَم الْعُلَمَاء إِلىٰ مَا ظَهر لهُ ـ لكَانَتْ النّسبَة بَيْنَهما كَنِسبَة النُّقطة إِلىٰ مِياه البحَار، وحَبّة الرَّمل إِلىٰ جَمِيع الرِّمَال. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٢].

(أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئُ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ـ ﷺ ـ... إلخ). لاَ يَعْرِف التَّارِيخ البَشرِي رِسَالَة كَرِسَالة مُحَمَّد ﷺ فِي شمُولهَا وعمُومهَا لكلِّ نَاحِية مِن حيَاة الإنْسَان، ولكلِّ فَرد مِن أفرَاده، فَقد خَاطَبت كلّ آدَمِي عَلىٰ أَسَاس الإِنْسَانِيَّة الْعَامَّة، وإنّه المَسْئُول المُحاسب عَن الْعَدْل والأخُوة بَيْنَ الجَمِيع... فنُبُوّة بَنِي إِسْرَائِيلَ أَو رِسَالَة بَنِي إِسْرَائِيلَ مَقصُورة عَلىٰ أَنَّهم شَعب الله المُخْتَار، وأنّ الدُّنْيَا والمُسْتَقْبَل هُم وحدَهُم، وبَاقِي النَّاس كلّهُم تُرَاب، وُجدُوا وخُلقُوا لِخدمَتهم ومصَالحهم... ورِسَالَة المَسِيح أو رِسَالَة المَسِيحِيين ٱقتصرت عَلىٰ الرّوح، وفِكرَة المُخلّص مِن الذّنُوب والفِداء والتَّكفِير عَن سَيِّئَات البَشرِية جَمعاء... أمّا رِسَالَة مُحَمَّد ﷺ فَقد خَاطَبت الْعَقْل، وَٱعْتَبَرَتَ الفَاعل الْعَاقِل هُو المَسْئُول وَحده عَن أَفْعَاله وأَقْوَاله، ونوَايَاه وأهدَافه.

---

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتَاب له ﷺ رَقم (٤٢).

(٢) طه: ١١٤.

لاَ يَأْمُرْ الله اِلاَّ بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ اِلاَّ عَنْ قَبِيحٍ...فِقْرَة ١١ ـ ١٢:

وَ اَعْلَمْ يا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَ لَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَ سُلْطَانِهِ، وَ لَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَ صِفَاتِهِ، وَ لَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لاَ يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَ لاَ يَزُولُ أَبَداً وَ لَمْ يَزَلْ أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّةٍ، وَ آخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَ قِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَ كَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَ عَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَ الْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَ الشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ اِلاَّ بِحَسَنٍ، وَ لَمْ يَنْهَكَ اِلاَّ عَنْ قَبِيحٍ(١١).

يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَ حَالِهَا، وَ زَوَالِهَا وَ اَنْتِقَالِهَا، وَ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَ مَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَ ضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَ تَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَ جَنَاباً مَرِيعاً، فَاَحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَ فِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَ خُشُونَةَ السَّفَرِ، وَ جُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَ مَنْزِلَ قَرَارِهِمْ. فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، وَ لاَ يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَ لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَ أَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ.

وَ مَثَلُ مَنِ اَغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَىٰ مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَ لاَ أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَىٰ مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ(١٢).

اللُّغَة:

سَفْرٍ ـ بِفتح السِّين وسكُون الفَاء ـ مُسَافِرُون. وجَدِيبٌ: مَاحِل. وأَمُّوا:

قَصَدُوا. وَالوعْثَاءَ: العُسْر، والمَشَقَّة. والجُشُوبَةَ: الغِلظَة والخُشُونة. وهَجَمُوا عَلَيْهِ: ٱنْتَهُوا إِلَيْهِ بَغْتَة.

الإِعْرَاب:

سَفْرٍ صِفَةَ لِقَوْمٍ، ولِيَأْتُوا مَنصُوب بِأَنْ مُضمَرة بَعد اللاَّم، والْمَصْدَر المُنسبك مُتَعَلِّق بٱحْتَمَلُوا.

الْمَعْنَىٰ:

تَقَدَّم الكلاَم عَن شَرِيك البَاري والأدلة عَلىٰ ٱمْتنَاعه، وأشَار الإِمَـام هُنا إِلىٰ دَلِيلين:

١ ـ (لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ) مَع العِلم بِأَنَّ جَمِيع الأَنْبِيَاء والْمُرْسَلِين دَعوا إِلىٰ إِلهٍ وَاحد لاَ ضِدٌّ لهُ ولاَ نِدٌّ.

٢ ـ (وَ لَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَ سُلْطَانِهِ... إلخ). والآثَار كلّها تَدل عَلىٰ أنّ المُؤثر وَاحد، وهِي أو مِنْهَا هَذِه القَوَانِين الطَّبِيعِية الدَّقِيقة الّتي تَحكُم أجزَاء الطَّبِيعَة وظوَاهرها، وتَجمعها فِي مَجمُوعة وَاحدة شَاملة تَدل عَلىٰ وحدَة التَّدبِير، والمُدبر الوَاحد.

(وَ لَكِنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لاَ يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ). فِي العَدِيد من الآيَات، ثُمَّ فِي سُورَة خَاصَّة هِي سُورَة ٱلْإِخْلَاصِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1]، وذَكر المُلا صَدرا فِي شَرح «أُصول الكَافِي»

(١) ٱلْإِخْلَاصِ: ١ ـ ٤.

لهَذه السُورَة عشرين اسماً، وَقَالَ: إنّ لهَا خَاصَّة وامتيازاً عَلىٰ سَائر آيَات التَّوحِيد، ومِمَّا قَاله فِي تَفْسِيرها: إنّ كَلِمَة «الله» تَدل بذَاتها عَلىٰ الأحدِية بِلا حَاجَة إلىٰ أيّة قَرينة، وإنّما جِيء بِكَلِمة «الأحَد» لمجرد التّوضِيح بأنّ الله وَاحد مِن كلّ وَجْه، وإنّه مُنزه عَن الحدُوث والمَادَّة والكيفات والافْتقَار إلىٰ الغَير، وإنّه قَادر وعَالم، وأبَدي أزْلي، والمُبدىء الأوَّل لكلّ موجُود، وبِكَلمَة أنّ الأحدِية مَنبع الكَمَال التّام مِن شَتىٰ الوجُوه[1].

(فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ...إلخ). عَظَمة الله سُبْحَانَهُ فعَلَيْكَ أنْ تُطِيعه بمَا يُليق بجَلاله وكَماله، وأنْ تجعل طَاعته أسَاسَاً لجَمِيع أَعْمَالك، وبهَذه الطَّاعَة تكُون شَيْئاً مَذكوراً وبدُونها لَسْت شَيْئاً عَلىٰ الإطلاَق، لأنّه تَعَالىٰ لاَ يَأمر إلّا بمَا يَعُود عَلَيْكَ وعَلىٰ غَيْرك بالخَيْر والصَّلاح، ولا يَنهاك إلّا عمّا يَضُرّك أو يَضُرّ بغَيرك، وعَلىٰ هَذَا الأصْل الَّذي ذَكره الإمَام يَصح القَوْل: إنّ كلّ أمر فيهِ خَير وصَلاَح للنَّاس بجِهَة مِن الجِهات فهُو أمر الله بصَرف النَّظر عَن قَائِله. ومِن وصَايا الإمَام وحِكَمه: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ»[2].

(لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَ تَحْذُوَ عَلَيْهَا). ضَمِير بِهَا وعَلَيْهَا يَعُود لِلأَمْثَال، وتَعْتَبِر تَتعِظ، وتَحْذُوَ تَقْتَدِي أي تَسْمَع وتَعْمَل، والمَعْنىٰ كَشَفتُ لَكَ عَن حَقِيقَة الدُّنْيا والآخِرَة لتُؤثر هَذِه عَلىٰ تِلك، لأنّ مَع والآخِرَة تَعْباً قَلِيلاً، وسُرُوراً كَثِيراً ودَائِماً، أمّا الدُّنْيا فَمعهَا سُرُور قَلِيل، وعَذَاب كَثِير ودَائم، ثُمّ ضَرَب مَثلين لكلّ مِن أبْنَاء والآخِرَة

(١) أُنظر، تَفْسِير مُلا صَدرا: ١٥٧/٧، شَرح أُصول الكَافِي: ١٣٩/٣.
(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغة: الحِكْمَة (٨٠).

وأَبْنَاء الدُّنْيَا:

١ ـ (كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ... إلخ). هَذَا مَثل لأَبْنَاء والآخِرَة، ويَتَلخص بِأَنَّهم أشَبه بقَوم كَانُوا فِي سَفْرٍ، وكَان طَرِيق العُودة مُتعباً وشَاقاً، ولكن مَنازلهُم فِيها جَمِيع أَسْبَاب الرَّاحة والسَّكِينَة، ويَسُودها جَو مِن السَّعادة والهَناء الَّذي لا يَكدر صَفوه شَيء... المَناظر رَائِعة، والمَعِيشة واسعَة، والقُلُوب وَاحدة، والأَخْلاَق مُنسجِمة... صَبروا قَلِيلاً عَلىٰ مَشقة الطَّرِيق وقَسوته أعْقَبتها رَاحة لا عنَاء بَعدها أَبَداً... وهَكذا أبْنَاء والآخِرَة زَهدُوا فِي الدُّنْيَا وتَحَملوا مرَارتَها صَابِرين، وسُرعَان مَا ٱنتهىٰ كلّ شيء، وٱنتقَلوا إِلىٰ مُلك دَائِم، ونَعِيم قَائِم.

٢ ـ (وَ مَثَلُ مَنِ ٱغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَىٰ مَنْزِلٍ جَدِيبٍ). هَذَا مَثَل لأَبْنَاء الدُّنْيَا، وهُم عَلىٰ العَكس تَماماً مِن أَبْنَاء والآخِرَة، يَنْتَقلون مِن نَعِيم إِلىٰ جَحِيم: ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1].

الْحُبّ...فِقْرَة ١٣ ـ ١٤:

يَابُنَيَّ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَ ٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَ لاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَ أَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَ ٱسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَ ٱرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَ لاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَ إِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَ لاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٩٧.

وَ آعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ ، وَ آفَةُ الْأَلْبَابِ . فَآسْعَ فِي كَدْحِكَ ، وَ لاٰ تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ ، وَ إِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ(١٣) .

وَ آعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَ مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَ أَنَّهُ لاٰ غِنَىٰ بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ ، وَ قَدْرِ بَلاٰغِكَ مِنَ الزَّادِ ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ ، فَلاٰ تَحْمِلَنَّ عَلَىٰ ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذٰلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ ، وَ إِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَآغْتَنِمْهُ وَ حَمِّلْهُ إِيَّاهُ ، وَ أَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاٰ تَجِدُهُ . وَ آغْتَنِمْ مَنِ آسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

وَ آعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً ، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ ، وَ الْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ ، وَ أَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لاٰ مَحَالَةَ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ عَلَىٰ نَارٍ ، فَآرْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَ وَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، «فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ» ، وَ لاٰ إِلَىٰ الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ(١٤) .

اللُّغَة:

الآفَةُ : المَرَض . والأَلْبَاب : العُقُول . وقَصْدِكَ : رُشْدَك . والإِرْتِيَادِ : الطَّلَب . وبَلاٰغِكَ : كفَايَتك . والوَبَال : الهَلاَك . والكَئُود : الصَّعب . والمُخِفُّ : خَفِيف الحِمْل : ومُسْتَعْتَبٌ : آسترضَاء .

الإِعْرَاب:

فَآغْتَنِمْهُ جوَاب إذَا وَجَدْتَ . وحَالاً تَمْيِيز . وفِي بَعْض النُّسخ إمَّا عَلىٰ جُنَّة أو عَلىٰ

نَارٍ، وفِي بَعْضِهَا عَلىٰ جُنَّة بدُونَ «إمّا» وهِي الصّواب لأنّ «إمّا» فِي هَذَا المورد يَجب تكرَارها، وإنْ يُقَال: إمّا وإمّا، ولا يَجوز إمّا و «أوْ».

المَعْنَىٰ:

(فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ... إلخ). هَـذِه المَـوْعِظَة، أو الوَصِـيَّة شَـائِعَة وَقَدِيمَة، يَرجع تَأرِيخها إِلىٰ مَا قَبل المِيلاد بِقرُون، وتَجدها بِعبَارات شتىٰ فِي الأَدْيَان مَا عَدا اليَهُودِية ـ فِيما أَعلم ـ وروي أنّ أحد تَلامذة كُونفُوشيُوس ـ وُلد عَام ٥٥١ ق م ـ وجّه إِلَيْهِ هَذَا السّؤال: هَل مِن كَلِمة وَاحدة تَكُون قَاعدة لِعَمل الْإِنْسَان طِيلة حَياته؟. فقَال: «لاَ تَصْنع بِالآخرِين مَا لاَ تُرِيدهُم أنْ يَصنعُوا بِكَ». وهَذَا تَعبِير ثَانٍ عَن «أَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَ ٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا».

ولاَ نَعرف أَوّل مَن نَطق بِهَذه الكَلِمة الذَّهبِية... وأيّاً كَان فَهِيَ لِجَمِيع النَّـاس، لأنّ الْحُبّ مَعْنَاه الأخُوة، والإِنْسَانِية، والتّكافُل، والتَّضامُن، والقُوَّة، والنَّـجاح، وبِالحُبّ تَستَقِيم ٱلْحَيَاة، ولاَ مَعنىٰ لحيَاة بِلا حُبّ، وأيضاً لاَ مـعنىٰ للكـرَاهِـية إلّا الْحَرْب، والشّقاق، والفَشل، والتَّخلف، وصَدق مَن قَـالَ: «الْحُبّ مَـصْدَر الْخَـيْر والفضَائل، ولوْلاَه مَا ٱنتَظمت حيَاة الأُسرة، ولاَ قَام للمُجتمع بِنَاء». وَقَالَ آخر: إنّ الله خَلقنا لِنُحِبّ. وَقَالَ (بَرتَرَاند رَاسل): «أُلخص مَـذهبِي فِي الْأَخْـلاَق بِهَـذه الكَلِمَة: «ٱلْحَيَاة الخَيرِية يُوحِي بِها الحُبّ، وتَهدِيها المَعْرِفَة»[1]. ومَعْنىٰ هَذَا أنّ كلّ وَاجب أو مُحرم من أفْعَال الإِنْسَان وسلُوكه، يَرتكز عَلىٰ نَظرِية الْحُبّ، وإنّ الَّـذي يَعتدِي عَلىٰ حقُوق النَّاس، ويُعاملهُم بمَا يَكرهه لِنَفْسه هُو وَحش كَـاسر وعـدوّ

(١) أُنـظر، كِـتَابه السُّـلطان: ١٥٦، تـرجَمـة خَـيرِي حمّـاد ـ الطَّـبعَة الأُولىٰ ـ آذار سَـنَة ١٩٦٢م.

الْإِنْسَانية اللَّدُود.

(وَ لاٰ تَقُلْ مَا لاٰ تَعْلَمُ) تَقَدَّم مِثله مَع الشَّرح فِي الفِقْرَة (٣) مِن هَذِه الوَصِيَّة بِالذّات (وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ) أي حَتَّىٰ ولَو قِيل عَنْك: لاَ عِلمَ لهُ، أو هُو قَلِيل الحَظ مِن العِلم (وَ اَعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَ آفَةُ الْأَلْبَابِ). أَبداً لاَ فَرق بَيْنَ السَّكرَان والمُعجَب بِنَفْسَه، فَالخَمر يُذهِب بِالْعُقُول والأَلْبَاب، وكَذَلِكَ الإِعْجَاب، والْعَاقِل يَفر مِنْهُمَا كَمَا يَفر مِن المَجْنُون (فَاَسْعَ فِي كَدْحِكَ) إعْمَل ونَاضل، ولاَ تَعش كَلاً عَلىٰ غَيْرك، فالبَطَالة آفَة الْحَيَاة، ولاَ قِيمَة لِلإِنْسَان إلّا بِعلمَه، وخَير النَّاس مَن عَاش حَامِلاً لاَ مَحمُولاً، ولوْلاَ السَّير المُتوَاصل فِي مرَاحل الْعَمَل لِبقِي الإِنْسَان إِلىٰ يَوْمه الأَخِير كوَحش الغَاب.

(وَ لاٰ تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ) إذَا زَاد مَا تَنْتج عمّا تَستَهلك فَأغث بِهِ مَلهُوفاً، وَسُدّ بِهِ حَاجَة مُحتَاج (وَ إِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ). إِذَا أُتِيحت لَكَ الْفُرْصَة للكَدح والسَّعِي فَاَشكُر الله عَلىٰ ذَلِكَ، وَاَستَقم فِي أقوَالِك وأفْعَالك، لأنّ التَّحرر مِن البطَالة نِعْمَة كُبرىٰ يَجب أنْ تُقابلها بِالشُّكْر والإِخْلاَص (أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ). المُرَاد بِالطَّرِيق هُنا الدُّنْيَا لِأَنَّهَا دَار مَمَر، أمّا بُعد الطَّرِيق ومَشَقتها فكنَايَة عَن صعُوبة الوقَايَة مِن أوبَاء الدُّنْيَا وأوزَارها، والْمَعْنَىٰ لا غنىٰ لِمَن يَعِيش فِي اَلْحيَاة الدُّنْيَا عَن الصَّبر عَلىٰ البَلوىٰ، والتَّزود بِالتَّقْوىٰ (مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ) مِن الذّنُوب (فَلاٰ تَحْمِلَنَّ عَلَىٰ ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ) أَثْقَالاً تُردِيك وتُخزِيك.

(وَ إِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ). إنّ الزَّاد الَّذي يقِيك عذَاب الحَرِيق يَوْمَ القِيَامَة ـ لَيْسَ مِن نَوْع العِلم والْبَلاَغَة، ولا مِن التَّسبِيح والتَّهلِيل، أو مِن نَوْع المَال والجَمال، والجَاه والأَنْسَاب... كَلا، إنّه شَيء

آخر لاَ يَحملهُ المُسافر إِلىٰ الله بِنَفْسه، بَل يُحمّله لِغَيره، فَيَتَمتع بِهِ حَامله فِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا، ويَفْتَدي بِهِ صَاحبه غَداً مِن غَضَب الله وعِقَابه. قَالَ الْإِمَام: «بِئْسَ الزَّادُ إِلَىٰ الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَىٰ الْعِبَادِ»[1]. وَلَك أَنْ تَعطف عَلَيْهِ: «نِعْمَ الزَّادُ الْمَعَاد الْإِحْسَانِ إِلىٰ الْعِبَاد».

(وَ ٱغْتَنِمْ مَنِ ٱسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ).

يَأخذ مِنْك الْفَقِير فِي الدُّنْيَا مَا أَنْت فِي غِنىٰ عَنْه، ويَرده الله إِلَيْك أَضعَافاً يَوْم الْقِيَامَة، وأَنْت فِي أَشد الْحَاجَة إِلىٰ بَعْضه. وروىٰ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد هُنا: أَنَّ قوماً قَالُوا لحَاتم الأَصَم إِقرَأ لنَا شَيْئَاً مِن الْقُرْآن.

فقرأ: الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يَكْنِزُونَ[2]. فقَالُوا: أَيُّها الشَّيخ مَا أُنزل هَكذا. قَالَ: صَدَقتُم، ولكنْ هَكَذَا أَنْتُم.

---

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٢١).

(٢) هَكذا الآيَة ١ ـ ٣، مِن سُورَة ٱلْبَقَرَةِ: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾. وحَاتم الأَصَم: هُو أَبو عبدالرَّحمن حَاتم بن عنوَان بن يُوسف البَلخي الوَاعظ، مِن أَهْل بَلخ. روىٰ عَنْه شقِيق البَلخي الوَاعظ وصَحبه توفِّي سَنَة سَبع وثَلاثِين ومئتين، لُقب بِالأَصَم لأَنّ ٱمرَأة سَألته مَسألة، فخَرج مِنْها صوت رِيح مِن تَحتها، فَخَجلت، فقَال لهَا ٱرْفعي صوتك، وأَرَاها من نَفْسه أنّه أَصم، حَتَّىٰ سَكن مَا بِها، فغَلب عَلَيْهِ الأَصَم.

زَار بَغداد، وٱجتَمع بِأَحمد بن حَنبل. وكَان يُسمىٰ بلُقمان هَذِه الأُمّة. وكَانَ مَشهوراً بالزُّهْد والوَرع والتَّقشف، لهُ كَلاَم مدون فِي الزُّهْد والحِكم. أُنظر، حَاشِية ردّ المحتار: ١/٦٣، سِير أَعلاَم النُّبلاء: ١١/٤٨٤، الرِّسَالة القُشيرية: ٣٧٩ طَبعة بيروت، طَبقات الأَوْلِيَاء: ١٧٨، النّجوم الزَّاهرة: ٢/٢٩١، تَأرِيخ بَغداد: ٨/٢٤١، اللُّباب: ١/٧٥، الأَعْلاَم للزركلي: ٢/١٥٢، الأَنْسَاب للسَّمعَاني: ١/١٨١، البدَاية والنّهاية: ١٠/٣٤٩.

(أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ). والمُرَاد بِهَا الأَعْمَال الصَّالِحَة، لِأَنَّهَا تحتَاج إِلىٰ جُهدٍ وصَبر، والمُرَاد بِالْمُخِف مَن لاَ يَحمل الأَوْزَار والأَقْذَار، والمُبطىء مَن يَتَبَاطأ عَن عَمل الْخَيْرَات، والمُرَاد بالأَقْبَح مُجرد القُبح مِن غَيْر تفَاضُل حَيْث لاَ قُبح إطلاَقاً فِي الإِسرَاع إِلىٰ مَرضَاة الله ومَغفرته (وَ أَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لاَ مَحَالَةَ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ) إنْ عَمِلت لهَا عَملها (أَوْ عَلَىٰ نَارٍ) إنْ اَعتَدِيت وَعَصِيت (فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ). اَخْتَر لهَا سَبِيل النَّجَاة (وَ وَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ). هَيىء لرَاحتَك وهَنَائِك (فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ)[1] لاَ سَبِيل بَعْدَ الْمَوْتِ إِلىٰ طَلَب الرِّضَا والْعَفْو (وَ لاَ إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ) كَي تَعْمَل وتَسْتَدرك.

والخُلاَصة: أنّ الإِنْسَان لاَ يُصِيب الهَدَف إلاّ بِالْجِهَاد والصَّبر والتَّضحِيحة، وإِنّه لاَ قَرَابة ولاَ عِلاقة بَيْنَ الله وَبَيْنَ أَحد مِن خَلْقه إلاّ الْعَمَل الصَّالح النَّافع.

اَلْدُّعَاء...فِقْرَة ١٥ ـ ١٦:

وَ اَعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَ تَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَ تَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَ لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَ لَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَ لَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَ لَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَ لَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ، وَ لَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَىٰ، وَ لَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ، وَ لَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَ لَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَ حَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَ حَسَبَ

---

(١) أُنظر، الفِرْدَوْس بِمأثور الخطَاب: ٥/٢٧٨ ح ٨١٧٨، مُسْنَد الشِّهاب: ٢/٢٠٤ ح ١١٨٩، دَلائل النُّبوَّة للإصْبهانِي: ١/١٣٩ ح ١٥١، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ٨/٢٢٣، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٢/١٠٤ ح ١٥٤٦

حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَ فَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَ بَابَ الإِسْتِعْتَابِ؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَ إِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ(١٥). فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَ أَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَ شَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَ ٱسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَ ٱسْتَعَنْتَهُ عَلَىٰ أُمُورِكَ، وَ سَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِـنِ رَحْمَتِهِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَ صِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَ سَعَةِ الأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَىٰ شِئْتَ ٱسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَ ٱسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْـطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ. وَ رُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَ أَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ. وَ رُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَ أُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ. فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَىٰ لَكَ جَمَالُهُ، وَ يُنْفَىٰ عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لاَ يَبْقَىٰ لَكَ وَ لاَ تَبْقَىٰ لَهُ(١٦).

اللُّغَة:

الإِنَابَة: الرُّجُوع، ومِثلها النُّزُوع. والنَّجْوَىٰ: حَدِيث السّر. وأَفْضَيْتَ: أَلْقِيت. وأَبْثَثْتَ: كَاشَفْتَ. وشَآبِيبَ: دُفعَات مِن الْمَطَر. والقُنُوط: الْيَأْس.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ تَسْأَلَهُ مَجْرُور بِالبَاء المَحْذُوفة، وعَاجِلًا أَوْ آجِلًا نُصب عَلَىٰ ظَرف الْمَكَان بِمَعْنَىٰ فِي الدُّنْيَا أو فِي والآخِرَةِ، أو ظَرف الزَّمَان بِمَعْنَىٰ الآنْ أو الْغَد.

لِمَاذَا ٱلدُّعَاء؟

(قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَ تَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ). أَمَر سُبْحَانَهُ عِبَاده أنْ يَدعُوا وَيَسْأَلُوه، وهُو يَسْتَجِيب لطَلب ٱلتَّوْبَةِ والْمَغْفِرَة مَع الْإِخْلَاص، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، وأيضاً يَسْتَجِيب لغَيرهَا، ولكنْ عَلَىٰ شَرطِه هُو لاَ عَلَىٰ شَرط الدَّاعِي والسَّائل... ومَن يَدري أنّ طَلبه تَعَالىٰ الدُّعَاء مِن عِبَاده قَد يَكُون لمُجَرد الاِخْتبَار وَالْاِمْتِحَان لإِيمَانهِم، وأنَّهم هَل يَسْتَمرُون ويُثبتُون عَلىٰ الثِّقَة بخَالِقهِم إذَا فَاتهم مَا طَلبوا وأبْطأَ عَلَيْهِمْ مَا سَألوا؟. الله أَعْلم. وعَلىٰ أيّة حَال فإنّ أَفْضَل الدُّعَاء عَلىٰ الاِطلاَق تَرك الذّنُوب».

(وَ لَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ). هَذَا هُو الْإِسْلَام: يَضع الْإِنْسَان أمَام خَالقه دُونَ حجَاب وتَرْجُمَان، ووسَاطَات رُوحِيَة أو مَادِية... أبداً لاَ بيع أَذرُع فِي الْجَنَّة، ولا صكُوك غُفرَان وبَرَاءَة وحرمَان (وَ لَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ). لاَ يَطرد أحداً عَن بَابه مُسِيئاً كَان أَمْ مُحسنَاً (وَ لَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ) عَسَىٰ أنْ تَعُود إلىٰ رُشدك (وَ لَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ) ويَقول لَك: عُدتَ إليَّ صَاغراً ليُرِيك أنّه أعلىٰ مِنْكَ وأَرْفَع... حَاشَا.

(وَ لَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَىٰ) لأنَّك ٱقْتَرفتها مُتعمداً. وَقَالَ عَارِف بِالله: «الْحَذَرَ الْحَذَرَ! فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ»[١] (وَ لَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ). لاَ يُحَاسب المُذنب التَّائِب عَلىٰ مَا سَلف، ويُقرعه ويُعدد لهُ السَّيِّئَات، ويُذكره بإنْعَامه عَلَيْهِ وأفضَاله، كمَا نَفْعَل نَحنُ... كَلا، إنّ مَن تَاب مِن

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٠).

الذَّنب كَمَن لاَ ذَنْب لهُ عِند الله[1] (وَ حَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً) وَيَسْتَحِيل أنْ يَزِيد عَلَيْهَا شَيْئاً لِعَدله ، وَيجُوز أنْ يَعفُو لكَرمه (وَ حَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً) تَفَضُّلاً وإِحْسَاناً .

(وَ فَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ) . لأنَّ الإِنْسَان قَابل للخَطأ بِطَبعه ، والتَّوْبَة تُنْقذه مِن الْإصْرَار عَلىٰ الرَّذِيلة ، وإذَنْ فَرَفض ٱلتَّوْبَة ظُلم وجَوْر . وبِكَلاَم آخر أنّ الله سُبْحَانَهُ خَلق العَبد وأَمَره ونَهَاه ، فَوجب بِمَنطق الْعَدْل ، والحَال هَذِه ، أنْ يَقبَل مِنْهُ الإِنَابة إذَا أذْنَب وأَخْطأ .

هَل ٱلْدُّعَاء مِفْتَاح ٱلْرِّزْق؟

(ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ) . يَدل هَذَا بِظَاهرهِ علىٰ أنّ الدُّعَاء يُحَقق للدَّاعِي كمَا يَشَاء مِن ٱلْرِّزْق .. وأَهْل العِلم يَأخذُون بِظَاهر الكَلاَم حَتَّىٰ تَقوم القَرِينة عَلىٰ عَكْسه . وقَد نَطق الإِمَام بهَذه القَرِينة المُعَاكِسَة ، وذَلِكَ حَيْث قَالَ بِلا فَاصل : (فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ) أي أنّه قَد لاَ يَسْتَجِيب لأنَّ الدَّاعِي لَيْسَ أَهلاً لِذَلِكَ ، لأمْرِ الله بِهِ أَعْلم (وَ رُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ) أو أَنّ الدَّاعِي أَهلٌ وَمحَلٌ ،

(١) أُنظر ، الكَافِي : ٤٣٥/٢ ح ١٠ ، الإِقنَاع : ١٨٥/٢ ، وَسَائِل الشِّيعة : ٣٥٨/١١ ح ٨ و ١٤ ، إعَانة الطَّالِبِين : ١٧٠/٤ ، المُغني : ٣١٦/١٠ ، الجَامِع الصَّغِير : ٥١٩/١ ح ٣٣٥٨ ، مَجْمَع الزَّوائد : ١٩٩/١٠ ، فَتح الباري : ٣٩٣/١٣ ، المُعْجَم الكَبِير : ١٥٠/١٠ ح ١٠٢٨١ و : ٣٠٦/٢٢ ، مُسْنَد الشِّهاب : ٩٧/١ ح ١٠٧ ، كَشف القنَاع : ١٩٦/٦ ، سُنن آبن مَاجه : ١٤٢٠/٢ ح ٤٢٥٠ ، السُّنن الْكُبْرَىٰ : ١٥٤/١٠ ، كَنز الْعُمَّال : ٣١١/٣ ح ٦٧٠٥ و : ٢٠٧/٤ ح ١٠١٧٤ ، كَشف الخَفَاء : ٢٩٦/١ ح ٩٤٤ .

ولكنَّ الْمَصْلحَة تُوجب التَّأخِير، فَعَلَيْه أنْ يَصْبر ولاَ يَيأس، بل وَيزدَاد مِن الدُّعَاء. وبِكَلمة، أنّ الله يَسْتَجِيب ويُحقق فِي الوَقت الَّذي يرَاه هُو، جَلَّت حِكْمَته، لاَ فِي الوَقت الَّذي يُرِيده العَبد لِنَفْسه.

(وَ رُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَ أُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا). قَد يَرىٰ الْإنْسَان أنّ هَذَا الشَّيء فِي خَيره ومَصْلَحته، فَيَدعُو الله، ويَطلبه مِنْهُ، وهُو فِي وَاقعة شرّ مَحض، والله أَعْلم مِن الْإِنْسَان بِمَا يُصلحه ويُفسده، فَيصرف عَنْهُ مَا سَأل، ويُعطِيه خيرّاً مِنْهُ وأَفْضل... وقَد حَدث مَعِي هَذَا بِالذَّات... كُنْتُ رَئِيساً لِلمَحْكَمَة العُليا سَنوات، ثُمَّ ثَار عَليَّ الزُّعماء والقَادة، ونَحّونِي عَن الرِّئَاسة، لأنِّي رَفَضت النُّزول عَلىٰ أهوَائِهم. فكَان الْخَيْرُ لِي كلّ الْخَيْرُ فِي ذَلِكَ حَيْث أَنْتَجت مَا أَنْتَجت. ولله الْحَمْد... نَظَرْت إِلَيْهِ تَعَالىٰ حِين أَغْضبتُ الكبَار مِن الْمَخْلُوقِين، فَنَظر إِليَّ سُبْحَانَهُ بِمَا لَمْ يَخْطُرُ لِي فِي بَال... ولاَ أدرِي كَيف؟ وبِمَاذَا أَشْكُره؟ مِنْهُ وَحدَه أَطْلب الْعَفْو عَن التَّقْصِير فِي كلِّ شيء.

خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا...فِقْرَة ١٧ ـ ١٨:

وَ آعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَ لِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَ لِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ؛ وَ أَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَ دَارِ بُلْغَةٍ، وَ طَرِيقٍ إِلَىٰ ٱلْآخِرَةِ، وَ أَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَ لَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَ لَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَ أَنْتَ عَلَىٰ حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْكُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ(١٧).

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَ ذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَ تُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ

يَأْتِيَكَ وَ قَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَ شَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَ لَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ . وَ إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَىٰ مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَ تَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا ، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا ، وَ نَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا ، وَ تَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَ سِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَ يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا ، وَ يَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا . نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَ أُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَ رَكِبَتْ مَجْهُولَهَا . سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَ لَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا . سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَىٰ ، وَ أَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَىٰ ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَ غَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَ اتَّخَذُوهَا رَبّاً ، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَ لَعِبُوا بِهَا ، وَ نَسُوا مَا وَرَاءَهَا(١٨) .

اللُّغَة:

القُلْعَة : الرِّحْلة . والبُلْغَة : الكفَاية . وَالأَزْر : القُوَّة ﴿أشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾(١) . وَيَبْهَرَكَ : يَدْهَشك ويُحَيرك . وَيَهِرُّ : يكْرَه وَيَمْقت . ومُعَقَّلَةٌ : مُقَيَّدَة . سُرُوحُ عَاهَةٍ : يَسْرَحُون فِي الْفَسَاد والضَّلال . والمُسِيمُ : الرَّاعِي .

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنَّهُ مُدْرِكُهُ مَجْرُور بِمَن مَحذُوفة أي لَابُدّ مِن إدْرَاكه ، فَإِذَا أَنْتَ «إِذَا» فُجَائِية ، نَعَمٌ خَبَر مُبْتَدأ مَحذُوف أي هُم أَهْل الْدُّنيا نَعَمٌ ، وكَذا سُرُوحُ .

---

(١) طه : ٣١.

لمَاذا خُلِق الإِنْسَان؟

(وَ ٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا . . . إلخ). كلّ النَّاس أو جُلّهم، وبِخَاصَّة الَّذِين يُعَانُون آلآم ٱلْحَيَاة ـ يَتَسَاءلُون: لمَاذا خُلِق الإِنْسَان؟ وَقَالَ قَائل: إنّ الله خَلَقنا لِلحُبّ. وَقَالَ آخر: بَل لِنَركَع لهُ ونَسـجُد. وَقَـالَ ثـالث: لِـنَعمَل فِي الأَرْض، وَنَتقن الْعَمَل. وَقَالَ الإِمَام: خَلق الله الإِنْسَان لِيَعمل فِي دُنْيَاهُ عَمَلاً صَالِحاً يَنْتَفعُ بِهِ فِي آخِرَتِه. فالدُّنْيَا وَسِيلَة، والآخِرَة هِي الغَايَة. ويَتفق هـذَا مَـع الـقُرْآن الكَرِيم: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَـدْخُلُونَ ٱلْـجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. أمّا قَـوْله تَـعَالىٰ: ﴿وَمَـا خَـلَقْتُ ٱلْـجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. فإنّ الْمُرَاد الْعَمَل الصَّالح النَّـافع، لأنّـه أَفْـضَل مِـن عَـامَة الصَّـلاة والصِّيام، كمَا فِي الحَدِيث الشَّرِيف. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[3]. وَتَقَدَّم الكَلاَم عَن ذَلِك مِرَاراً.

(فَكُنْ مِنْهُ) أي مِن الْمَوْت (عَلَىٰ حَذَرٍ) لأنّه إذَا جَاء لاَ يُؤخرك ثَانِيَة، فٱسْتَعد لهُ مِن الآنْ، وقَبل أَنْ تَحمل إِلىٰ قَبرٍ سَاكِن مُظلم (يَابُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَ ذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْه . . . إلخ). فإنْ ذَكَرتَ وَتَصورت إنَّك مَيِّت لاَ مَحالَةَ أَخذ الخشُوع بِمجَامع قَلبَك، ودَفَع بِكَ إِلىٰ الاِعْتصَام بِخَالِقك، والْعَمَل لآخرَتك (وَ إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَىٰ مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا . . . إلخ). مَالك وللدُّنْيَا وأَبْنَائِها؟. أَنَّهَـا جِـيفَة وَأَهْـلها

---

(١) غَـافِر: ٤٠.

(٢) ٱلذَّارِيَات: ٥٦.

(٣) ٱلرَّعْد: ١٧.

كِلاَب[١] (فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا) بقَوْله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

(وَ نَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَ تَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا) بِمَوْت السَّابقِين مِن أَهْلها بِلا رَجْعَة، وأَنْتَ حَلَقة مِن هَذِه السّلسَلة، وكذَلِكَ مَن يَأتِي حتّى النّهاية، ومَا إلىٰ الفرَار مِن سَبِيل. وَقَالَ الإمَام لِمَن ذَمّ الدُّنْيا: «أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا، الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا! أَ تَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا؟ أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا، أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ؟ مَتَىٰ اسْتَهْوَتْكَ، أَمْ مَتَىٰ غَرَّتْكَ؟ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَىٰ أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَىٰ؟ كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ! تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الأَطِبَّاءَ»[٣] (فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَ سِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ... إلخ). وهُنا مكَان العُجب، الْمَوْت يَتخَطّف أَهْل الدُّنْيا مِن كلّ جَانب، وهُم عَلىٰ يَقِين بِأنَّهُم مِيتُون لاَ محَالَة، ومَع هَذَا نَرَاهُم فِي تنَاحر وصرَاع دَائِم علىٰ الحُطَام والحَرَام.

---

(١) أقتباساً مِن الحَدِيث المَروي بِألفاظ مُتعددة مِنْهَا: (إنّمَا الدُّنْيَا جِيفَة والمُتَواخُون عَلَيْهَا أَشباه الكِلاَب)، أُنظر، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ١٤٧/١، مُصباح الشّرِيعة المَنسُوب للإمَام الصّادقعليه السلام: ١٣٨، عُيُون الحِكم والموَاعظ: ١٧٨، كَنْز العُمّال: ٧١٩/٣ ح ٨٥٦٤، كَشف الخفَاء: ٤٠٩/١ ح ١٣١٣، الدُّر المَنثُور: ٣٠١/٣، أسد الغَابَة: ٢٣/٤، سُبل الهُدىٰ والرَّشاد: ٣٠١/١١.

(٢) يُونُس: ٢٤.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (١٣١).

الإِمَام يُقْسِم النَّاس إلىٰ قَوِّي وضَعِيف:

(وَ يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَ يَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا). كلّ الأَقْوِيَاء جَبَارُون مُسْتَغلُون، ولاَ يَعْرفُون الحُبّ والخَيْر والعَدْل، ولاَ يُقرُون بِشيء مِن الحَقّ إلّا مَن شَذَّ... ومَا الضَّعِيف عِندهُم إلّا حَشَرة أو بَعُوضَة!... ولاَ عِلاَج لهذَا الدَّاء إلّا بأحَد فَرضِين: الأَوَّل: المُسَاوَاة بَيْنَ جَمِيع النَّاس ذُكوراً وأُنَاثاً، ورِجَالاً وأَطْفَالاً، وتَكَافُؤهُم فِي كلّ شَيء حَتَّىٰ قوَّة العَضلاَت... وهَذَا مُمتنع وتَأبَاه سُنن الكَوْن والطَّبِيعَة.

الثَّانِي: القُوَّة الرَّادعَة الْعَادِلَة، وهَذَا مُمكن والمعْقُول... ولكن مَركز الْقِيَادَة ـ فِي الغَالب ـ يَحتكرَه أرْبَاب القُوَّة والثَّروة قَدِيماً مِن العُرْف القَبْلِي إلىٰ النِّظام الجمهُورِي، وهُنا يَكمُن السّر فِي تَقسِيم المُجتمعَات إلىٰ فِئَة عُليا تَملك كلّ شَيء، وَفِئَة مُضطَهدة لَيسَ لهَا مِن الأَمْر شَيء... وإلىٰ هَذَا التَّقسِيم أشَار الإِمَام بقَوْله: «يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَ يَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا». ومِثله مَا جَاء فِي ٱلْخُطْبَة: «ٱضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً»[١].

(نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ) أي أَنْعَام مُقيدَة مُكبَلة، والمُرَاد بِها الضُّعَفَاء، كمَا قَالَ الشّيخ مُحمَّد عَبْدَه، وهُم لاَ يَستَطِيعُون حِيلة، ولا يَهْتدُون سَبِيلاً إلّا سَبِيل الاِسْتِمَاتة مِن أجل تَحريرهُم وحَيَاتهم، وهَل مِن الضَّرُوري لِمَن يُرِيد ٱلْحَيَاة أنْ يَكُون دَائِم الجِهَاد ضِدّ الطُّغَاة مُتفرغاً لحَربِهِمْ ونضَالهم؟ (وَ أُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَ رَكِبَتْ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطبَة (١٢٩). (مِنْهُ ﷺ).

مَجْهُولَهَا) وهِي الْفِئَةُ الْقَوِيَّة الثَّرِية تَسرح فِي الْفَسَاد والضَّلال (سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَىٰ ، وَ أَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَىٰ ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَ غَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَ اتَّخَذُوهَا رَبّاً ، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَ لَعِبُوا بِهَا ، وَ نَسُوا مَا وَرَاءَهَا) . وَيَنطبق هَذَا تَمَاماً عَلَىٰ الَّذِين يُسيطرُون وَيَتحكمُون بِالثَّرَوَات ووسَائِل الإِعْلاَم ، يَنْشرُون الْفَسَاد بَيْنَ الأَجيَال ، وَيَنْتجُون أَسْلِحة الدَّمار للاِعْتدَاء عَلىٰ الشّعوب الآمِنَة يَنْتَهبُون ويَقْتلُون ويُشردُون .

وبالمُنَاسبة قَرَأت فِي جَرِيدة «الأهْرَام المِصْرية»: «أنّ الكُونجِرس الأمريكي أقر اَعْتِماداً بِ(١٠٥) مِليَارَات مِن الدُّولارَات ، لِبنَاء غوَاصَات ، وقَاذفَات نَووِية جَدِيدة»[1] ! لِمَن هَذَا السّلاح المُدمر ؟ أَلنُصرَة ٱلْحَقّ والعَدْل ، وإنْصَاف الضَّعِيف مِن الْقَوِيّ ، ورَدع الوحُوش الكَاسرة ، أَمْ للاِعْتدَاء عَلىٰ المُسْتَضعفِين ، ودَعم الصّهَاينَة فِي فِلسْطِين ، ولكلِّ عَمِيل وخَائن فِي شَرق الأَرْض وغَرْبِهَا ؟ ولِمَاذَا لاَ تُنْفَق هَذِه المليَارات عَلىٰ خِدْمَة ٱلْحَيَاة وَسدّ حَاجَاتها ؟ ولكنْ أربَابها لاَ يُريدُون أنْ تَنْخفض الأسْعَار ، فَيَبْتَسم لهَا وللأمِن المُعذبُون فِي الأَرْض ... أبَداً لاَ هَدف لِسَاسة التَّخويف بِالْحَرْب ، وَتحوِيل الصِّنَاعَة إِلَيْهَا إلّا أنْ يَتحكمُوا بِالأقوَات والأسوَاق ، وأنْ يُخيِم الرُّعب والْيَأْس عَلىٰ كلّ قَلبٍ ، ومهدِكِي يَخضع لأمرهم صَاغِراً ، ولاَ يَسأَلهُم سَائِل عمّا يَفْعَلون وَيُفسدُون ... وكَأنّ الإِمَام يَنظر إِلَيْهِمْ : وَيَعْنِيهم بقَوْله : «اتَّخَذُوهَا رَبّاً ، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَ لَعِبُوا بِهَا ، وَ نَسُوا مَا وَرَاءَهَا » أي مَا وَرَاء دُنْيَا الطُّغاة العُتَاة مِن خَرَابٍ ، ودَمَارٍ ، وحسَابٍ ، وعقَاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[2] لِلَّذِين

(١) أنظر ، جَريدَة «الأهْرَام المِصْرية» : بِتَأريخ ١/ ١٢/ ١٩٧٢م . (مِنْهُ ﷺ).
(٢) الْفَجْر : ١٤ .

طَغَوْا فِي ٱلْبِلاَدِ، فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْقُبُور، والدّمُوع، والثّكل، والْيُتْم، والبُؤس، والتَّشرِيد.

أَكْرِمْ نَفْسَكَ...فِقْرَة ١٩ ـ ٢٠:

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ! وَ ٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَ إِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَ يَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَ إِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

وَ ٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَ لَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَ أَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَ أَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرَبٍ؛ وَ لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَ لَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَ أَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَ إِنْ سَاقَتْكَ إِلَىٰ الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً. وَ لَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَ قَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً. وَ مَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَ يُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ(١٩)؟!

وَ إِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ. وَ إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَٱفْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَ آخِذٌ سَهْمَكَ، وَ إِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَ أَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَ إِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

وَ تَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَ حِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَ حِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ. وَ مَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَ الْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَىٰ مَعَ الْفُجُورِ، وَ الْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَ رُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَ مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ(٢٠).

اللُّغَة:

رُوَيْداً: مَهْلاً. ويُسْفِرُ: يَكْشِفُ. والأَظْعَانُ: جَمع الظَّعِينَة أي الْهَوْدَج. ووَادِعاً: سَاكِناً. وحَرَب ـ بِفتح الحَاء والرَّاء ـ سَلب الْمَال. وتُوجِفَ: تُسرِع. وتَلاَفِيكَ: تَدَارُكُك. وفَرَطَ: ذَهَب وَفَات. والْوِكَاءِ: الرِّبَاط. والْمُرَاد بِالْحِرْفَة هُنا الْحِرْمَان، أو الضِّيق فِي ٱلرِّزْق. وأَهْجَرَ: تَكَلَّم بِالهَذَيَان.

الْإِعْرَاب:

لِرُوَيْد أَرْبَعَة أَوْجه: الْأَوَّل ٱسم فِعل مِثل رُوَيْدَ زَيداً أي زَيداً، والثَّانِي صِفة مِثل سَار الْقَوْم سَيراً رُوَيْداً أي خَفِيفاً أو بَطِيئاً، الثَّالِث حَال إِذَا وَقع بَعد الْمَعْرِفَة مِثل سَار الْقَوْم رُوَيْداً، والرَّابع النَّصب عَلىٰ الْمَصْدَر مِثل رُوَيْداً، ورُوَيْد زَيد بِالإضَافة، وكَأَنْ قَدْ مُخَففَة أي كَأَنَّه قَد، ويَقِيناً مَفْعُول مُطلق مِن غَيْر لَفظَه، ورُبَّ حَرف جَر، ولاَ يَتعلق مَجرُورها بِشيء لِأَنَّهَا زَائِدَة فِي الْإِعْرَاب دُونَ الْمَعْنَىٰ عَلىٰ حَد تَعبِير النُّحاة، وطَلَبٍ فِي مَحَل رَفع بِالاِبْتِدَاء وإِيَّاكَ مَفْعُول لِفعل مَحذُوف، والأَصْل أُحَذِّرُكَ، ولمَّا حُذف الفِعْل ٱنْفَصل الضَّمِير.

الْمَعْنَىٰ:

(رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلاَمُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ... إلخ). لاَ شَيء أَقْرَب إِلىٰ الْإِنْسَان مِن الْمَوْت، ومَن تَخْطَاه الآنْ أَتَاه غَداً أو بَعد غَد، وحِينذَاك تَنْكَشف الْحَقِيقَة لِلغَافِلِين، وَتَتَملكَهُم الحَسْرَة والنَّدامَة (أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَ إِنْ كَانَ وَاقِفاً... إلخ). كلّ إِنْسَان مُسَافر إِلىٰ قَبرٍ سَاكِن مُظلم،

والدُّنْيَا طَرِيقه إِلَيْهِ، واللَّيْل والنَّهَار مَطِيَّتُهُ، ومَعْنىٰ هَذَا أَنَّه سَائر وإِنْ كَان نَائِماً عَلىٰ فرَاشه، وَمَعْنَاه أيضاً أنّ الْمَوْت يَأخذ مِن عُمره يَوْماً فَيَوْماً مُنذ ولاَدته حَتَّىٰ النَّفس الأَخِير، ومِمَّا قَرأته فِي هَذَا البَاب: «إنَّ اللَّيْل والنَّهَار يَعملاَن فِيك فَاْعمَل فِيهمَا»[1].

(وَ اعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَ لَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ... إلخ). لأنَّه لاَ حَد لِـنَهم الإنْسَان وآمَاله الجَائِعة، ولَو مَلك الكَوْن بِكَامله لِتَمنىٰ كُوناً ثَانِياً وثَالثاً إِلىٰ مَـا لاَ نهَاية (فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَ أَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ... إلخ). اَطلب اَلرِّزْق وَاسع إِلَيْهِ عَلىٰ أَنْ تحفظ التّوَازن الوَاجب بَيْنَ آخرتك ودُنْيَاكَ، كَـمَا قَـالَ سُـبْحَانَهُ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[2]. (رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرَبٍ). قَد لاَ تَرضىٰ بِما يَكفِيك مِن الرِّزْق، وهُو بَيْنَ يَدِيك، فتَكْدَح طَلَباً لِلمَزِيد والاِدْخَار... وتَأْتِي النَّـتِيجَة بِـعَكس مَـا أَرَدت حَيْث تَخسر مَا كُنتَ تَملك مِن طَعَامٍ وغذَاء، وَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا.

(وَ لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ). لاَ يَنْزل الغَذَاء مِن السَّماء... إِنَّه فِي بَطن الْأَرْض، وَعَلِينا أَنْ نَشقهَا بِالجُهد والعَرَق عَلىٰ أَنْ نَـتوكَل عَـلىٰ الله، ونَسْأله التَّـوفِيق، لأَنّ الكَوْن بِما فِيهِ فِي قَبضَته، يَهب ويَمنع حَتَّىٰ مَع الكَد والعَرَق إِنْ شَـاء، ولاَ يَشَـاء إلّا لِحِكْمَةٍ (وَ لاَ كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ). الْمُرَاد بِالْمُجمِل المُعْتَدل، والْمَعْنَىٰ قَد يَكُون الْـغِنَىٰ بِالإِعْتِدَال فِي السَّعي بِلا إفرَاط وتَفرِيط وقَد يَكُون الْفَقْر بِالإفرَاط بِالكَد والسَّعي، والسّر هُو أَنْ نَعْلَم بِأَنّ وَرَاء كلّ شَيء قَضَاءً وتَدبِيراً، وإِنَّ السَّـعِي وَحـدَه لَـيْسَ

(١) أنظر، مكَارم الأَخلَاق لِابن أَبِي الدُّنيا: ٢٩ ح ٤٧، كَنز الفوَائِد: ٢٧١، مَعدن الجوَاهر: ٢٣، عُيُون الحِكم والمَوَاعظ: ١٤٤، مُنيَة المُريد: ٢٣١، إرشَاد القُلُوب: ٥١/١، غُرر الحِكم: ٣٧٠٥.

(٢) الكَهْف: ٤٦.

بِالسَّبب التَّام، ولاَ التوكل هُو المؤثر دُونَ غَيْره، وإنّ كُلاً مِنْهُمَا جُزء مُتَمرم لِلآخر.

(وَ أَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَ إِنْ سَاقَتْكَ إِلَىٰ الرَّغَائِبِ... إِلىٰ عِوَضاً) لاَ تَطلب المَال مِن كلّ سَبِيل، وتَقف مِن أَجْله موَاقف الهَوَان فإنَّ الْكَرَامَة لاَ تُباع بِثَمن ومَن خَسر كرَامته فَقَد خَسِر نَفْسَه... ولكنَّ كَثِيراً مِن النَّاس لاَ يَرون الْكَـرَامَـة إلاّ فِي المَال حَتَّىٰ ولَو حَصل بِطَرِيق العِهر والخِيَانَة (وَ لَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَ قَدْ جَـعَلَكَ اللهُ حُرّاً). هَذَا تَفْسِير وبَيَان لقَوْمه: «أَكْرِمْ نَفْسَكَ» لأنَّ الْكَرَامَة والحُرِّيَّة شَيء وَاحد، يَنبع مِن ذَات الإِنْسَان، ومَا هُو بِهبَة مِن مَخلوق، أوكَسب بِكَد اليَمِين... وعَلىٰ المَرْء أنْ يَستَمِيت مِن أَجْل حُرِّيَته وكَرَامتَه.

وتَجدر الإِشَارَة إِلىٰ أنَّ الحُرِّيَّة الّتي عَنَاها الإِمَام لَيْسَ مَعنَاها أنْ يَعمَل الإِنْسَان مَا يَشْتَهي ومَا يُرِيد دُونَ أنْ يَنْظر إِلىٰ الظّرُوف المُحِيطَة بِهِ والمُجتَمع الَّذي يَعِيش فيهِ، وإنّما أرَاد حُرِّيَّة النَّاس مُجْتَمِعِين يَعِيشون ويَعْملون يَداً وَاحِدة لصَّالح الجَمِيع، وعَلىٰ كلّ فَرد أنْ يُمارس حُرِّيَته فِي هَذَا النّطَاق فإنْ تَعداه فَقد ٱستهَان بِحُرِّيَته بِملء إرَادته، وجَعَل ٱلسَّبِيل عَلَيْهِ لِلقوَّة الرَّادعَة والعَادِلَة.

(وَ مَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ). «مَا» هُنا ٱستفهَام لَفظَاً، وإنْكَار مُحتُوىً، والمَعْنىٰ كلّ شَيء يُحرُم فِعْله فالآثَار المُترتِبة عَلَيْهِ حرَام ـ مَثلاً ـ لاَ مَهر لعَـاهِرٍ لأنَّ الزِّنـا حَرَام[1]، ولا نِيَابة لمُزور لأنَّ التَّزوِير حَرَام، ولاَ حُكم لمُرتشٍ لأنَّ الرِّشوة حَرَام. وبِكَلِمة، إنَّ الغَاية لاَ تُبرر الوَاسطَة إلاّ ضِمن القَانون والنِّظَام (وَ يُسْرٍ لَا يُـنَالُ إِلَّا

(١) لَمْ أَعثَر عَلَيْهِ بِلَفظه، بَل وَرَد: «لاَ مَهرَ لِبَغي». أُنظر. صَحِيح البُخَاريّ: ٧/٧٩، سُنن التِّرمِذي: ٢/٣٠٠ ح ١١٤٣، وَسَائِل الشِّيعة: ١٧/٩٥ ح ٢٢٠٧٠، مُغني المُحتَاج: ٣/٢١٤، تَلخِيص الحَبير: ٣/٥٥ ح ١٢٧٣، خُلاصة البَدر المُنِير: ٢/١٠٠ ح ١٦٢٧.

بِعُسْرٍ) ـ مَثلاً ـ الْغِنَىٰ يُسْر، وَالْفَقْر عُسْر، ولكنْ لاَ يُزال هَذَا العُسْر بِمَا أَشَد مِنْهُ عَسْراً كَالسَّرِقة والْخِيَانَة، والمَذَلة والمَهَانة.

(وَ إِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ). إنَّه شَرهٌ ونَهَمٌ، وعَاقِبَته الوبَال والخُسرَان. وفِي بَعْض الرِّوَايَات: «ٱلدُّنْيَا خَمْر الشَّيْطَان مَن سَكَر مِنْهَا لاَ يُفِيق إلاَ فِي عَسْكَر المُوتىٰ نَادِماً بَيْنَ الخَاسرِين»[1] (وَ إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَٱفْعَلْ... إلخ). مِن الْخَيْر أنْ تَتعاون مَع أخِيك الإِنْسَان عَلىٰ الْمَصْلحَة المُتبَادلة بَيْنَكُمَا عَلىٰ أَسَاس الْعَدْل والمُسَاوَاة، أمّا أنْ يَكُون هُو الْغَنِيّ عَنْك، وأَنْت الْفَقِير إِلَيْهِ فَالأَفْضَل أنْ تَترُكَه وشَأنه، وتَسْعىٰ جُهدك مُتوكلاً عَلىٰ الله، فإنّ الْمُؤْمِن الْحَقّ لاَ يَطلب العُون إلّا مِن خَالقه، ولاَ يَقبَل إلّا فَضْله وإحْسَانه، ولاَ يَنظر إلىٰ مَا فِي أَيْدِي النَّاس.

(فَإِنَّكَ مُدْرِكُ قَسْمَكَ، وَ آخِذُ سَهْمَكَ) مِن خَالِقك، بِلا نَقص ووَاسطة مَخْلوق مِثلك، وإذَنْ فَمِن السَّخَافة أنْ يَقْبل الْهَوَان مِن غَيْرك لأجْل ٱلرِّزْق... بل خَير لَك وأَفْضَل أنْ تَصبر وتَتجرع المَرَارة عَلىٰ أنْ تَتحمل المِنَّة مِن غَيْر رَازق الْعِبَاد (وَ إِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَ أَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ). أَجَل والله أنّ قَلِيله عَظِيم وَكثِير بِخَيرَاته وبَركاته، وكَثِير غَيْره صَغِير وحَقِير بِالقيَاس إِلىٰ يَسِيرِه تَعَالىٰ، وإنْ كَان الكَوْن بِما فيهِ لله ومِن الله، ولكنْ لوسَاطة العَبد مُنغصَات لاَ يُطِيقها أَبِيٌّ كَرِيم. وَقَالَ الشّيخ عَبْدَه: «لَيْس أَفْعل فِي النَّفس مِن هَذَا الكلاَم الَّذي مِن قُوَّته، وإصَابَته

(١) أنظر، جَامع العُلوم والحِكم: ١/٣٨٢، صَفوة الصَّفوة: ٤/٩٨ ح ٦٧٤، فَيض القَدِير: ٣/٣٦٨، مصباح الشَّرِيعة: ١٠٥، بِحَار الأَنْوَار: ٧٠/١٦٩، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٢/٦٩.

الْحَقّ يَقْطَعُ الْقَارِىء الْمُؤْمِن لفُوره عَن الدُّنْيَا»[١].

(وَ تَلاَفِيكَ مَا فَرَطَمِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ... إلخ). لاَ غُبن ولاَ عَيب عَلَيْكَ فِيما فَاتك مِن الكلاَم، لأنَّ السَّاكت يُمكنه أنْ يَستدرك، ويَقضي مَا فَات كمَا فَات، أمّا زَلل اللِّسَان فَيصعب تَلافِيه كَالْمَاء يُرَاق مِن الإنَاء عَلىٰ الْأَرْض يَتَعذر رَده ويَسْتَحِيل (وَ حِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ) أنّ تَرقِيع الثَّوَاب الْخَلق، والْقَنَاعَة بِالكفَاف أَفضل مِن الاِسْتقرَاض وأَخذ أوسَاخ النَّاس (مَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَىٰ النَّاسِ). الْقَنَاعَة كَنْز وغِنىٰ، والْيَأْس مِمَّا فِي أَيْدِي الْمَخْلُوقِين عِزّة وكرَامة، وجُرأَة فِي قَول الْحَقّ وإعْلاَنه، ومَن الْتَجَأَ إِلىٰ الله يَائِساً مِن سوَاه أكرَمه وأعْطاه.

أقولهَا بِجَزم ويَقِين، وعَن تَجْرِبَةٍ وَوجدَان. ومِن أَقْوَال الْإِمَام: «الْغِنَىٰ الْأَكْبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[٢].

(وَ الْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَىٰ مَعَ الْفُجُورِ). العُسْر مَع النَّزَاهة والإبَاء خَير مِن اليُسْر مَع الحَرَام والخسَاسَة (وَ الْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ) ومَن ضَاق بِسُرِه ذَرعَاً فلاَ يَلُومنّ مَن أَطلقه وأفْشَاه. قَالَ الإِمَام: «مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخِيَرَةُ بِيَدِهِ»[٣] (وَ رُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ). وَرُبَّ هُنا للتكثِير لاَ للتَقلِيل إذَا أردنَا بِالضَّرر مَا يَشمل حسَاب الْآخِرَة وعقَابها. وَقَالَ الحُكْمَاء: «لاَ خَير فِي ظَفَر يُصَاب بِضَرر»[٤] (مَنْ أَكْثَرَ

---

(١) أُنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغة: ٥٣/٣.
(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٤٢).
(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٦٢).
(٤) أُنظر، مَجْمَع الأَمْثال: ٢٦٧/٣/١.

أَهْجَرَ). للقَول سَاعَات ومقدَار مُعِين، فمَن تَعدَاه وَقَع فِي اللَّغو والخَطَأ. قَالَ الْإِمَام: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ»[١] (وَ مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ) وخَرَج مِن ظُلمات الجَهْل إِلىٰ نُور المَعْرِفَة، ومَن عَمل وأَقدَم بِلا تَفكِير خَبط فِي التِّيه.

رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً...فِقْرَة ٢١ ـ ٢٢:

قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَ بَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَ ظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَ الدَّاءُ دَوَاءً. وَ رُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَ غَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ. وَ إِيَّاكَ وَ الِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَىٰ فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَىٰ، وَ الْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَ خَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ[٢١]. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَ لَا كُلُّ غَائِبٍ يَئُوبُ. وَ مِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَ مَفْسَدَةُ الْمَعَادِ. وَ لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَ رُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَىٰ مِنْ كَثِيرٍ! لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَ لَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَ لَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَ إِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ[٢٢].

اللُّغَة:

الْخُرْقُ ـ بِفَتح الخَاء ـ الثَّقب، وبِكَسرها الفَتىٰ الظَّرِيف الكَرِيم، وبِضَمها ـ كَمَا هُنا

---

(١) أنظر، نَهج آلبَلاغَة: آلحِكْمَة (٣٤٩).

ـ الْعُنْف والشِّدَّة ، وأيضاً الْجَهْل والْحُمْق . والْمُسْتَنْصَحُ بِالفَتح المَطلُوب مِنْهُ أنْ يَنْصَح . وظَنِينٍ : مُتَّهم . وقَعُودُهُ : مِن الإِبِل . واللَّجَاجِ : التَّمادِي فِي الْخُصُومَة .

الإِعْرَاب:

تَكُنْ مَجزُوم بجوَاب الأَمْر ، وإيَّاكَ مَفْعُول لِفعل مَحذُوف ، والأَصل أُحَذِّرُكَ ، وَمَا ذَلَّ «مَا» مَصْدَرِيَّة ، وَرَجَاءَ مَفْعُول مِن أَجْله لتُخَاطِرْ ، وأَكْثَر لاَ يَنْصَرف لِلصِفَة وَوَزن الفِعْل .

الْمَعْنَىٰ:

(قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ) ابْذل مِن نَفْسِكَ وَمَالِك لنُصرَة الْحَقّ ، وإبْطَال البَاطِل كَمَا فَعَل ويَفْعَل المُنَاضِلُون الأحْرَار (تَكُنْ مِنهُمْ) قَولاً وعَملاً (وَ بَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ) بِإعْلاَن الثَّورَة عَلَيْهِمْ وَجِهَادهُم بِكُلّ مَا تَسْتَطِيع (تَبِنْ عَنهُمْ) . أمّا أنْ تَعْتَزل إيْثَاراً لِلسَّلاَمَة ، وَطَلَباً لِلرَّاحَة ، وَتَعْتَكف فِي الْمحرَاب ، أمّا إنْ فَعَلت هَذَا فَأَنْتَ شَيْطَان أَخْرَس ، كَمَا قَالَ الرَّسُول الأَعْظم ، وأيضاً قَالَ : «مَن لاَ يَهْتَم بِأمْرِ الْمُسْلِمِين فَلَيْسَ مِنْهُم»[1] . (بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ) وأي شَيء أَكْثَر جُرْماً وأَعْظَم إثْماً مِن الْحَيَاة عَلَىٰ

(١) أنظر ، كَشف الخفَاء : ٢/٢٩٧ ح ٢٣٧٩ ، مَجْمَع الزّوائد : ١/٧٨ و : ١٠/٢٤٨ ، المُعْجَم الصَّغِير : ٢/١٣١ ح ٩٠٧ ، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحِين : ٤/٣٥٢ ح ٧٨٨٩ و ٧٩٠٢ ، المُعْجَم الأوسط : ١/١٥١ ح ٤٧١ و : ٧/٢٧٠ ح ٧٤٧٣ ، جَامع العلوم والحِكم : ١/٧٧ ، شُعب الإيمان : ٧/٣٦١ ح ١٠٥٨٦ ، التَّرغِيب والتَّرهيب : ٢/٣٤٢ ح ٢٦٤٥ ، مِيزان الإعْتِدَال : ١/٣٣٧ ح ٧٤٠ ، لِسَان المِيزان : ١/٣٥٤ ح ١٠٩٦ ، تَكملة الإكمَال : ١/٤٩٥ ح ٨٦٤ .

حسَاب المُسْتَضْعَفِين، وخُبْز الأَرَامِل، وَالأَيْتَام؟.

(وَ ظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ) مِنْهُ ومِن الفُحش نَفْسَه أَنْ تَضع يَدك عَلىٰ فَمه، وَتَمْنَعه مِن الصُّراخ مِن أَلَمه والإِحْتِجَاج عَلىٰ ظَالِمه، ولَو قِيل لِي: مَا تعرِيف الإِنْسَان بِمَعْنَىٰ الكَلِمَة لقُلت: هُو الثّورة عَلىٰ الظُّلم وضِدّ الظَّالم. وتَقَدَّم الكَلاَم عَن ذَلِك[1].

(إِذَاكَانَ الرِّفْقُ خُرْقاًكَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً). مُهَادنة الأَشرَار شَرّ مَحض، لِأَنَّهَا تُشْجَعهُم عَلَيْهِ، وتُغرِيهم بِهِ، والْعَدْل أَنْ يُردَعُوا بِالْعُنْف إِذَا لَمْ يُجدِ الجِدَال بِالّتي هِي أَحْسَن. قَالَ الإِمَام: «الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللهِ»[2].

(رُبَّمَاكَانَ الدَّوَاءُ دَاءً). قَد يُخطِىء الطَّبِيب فِي تَشْخِيص المَرَض، فَيَصف دَوَاء ظَاهره الرَّحْمَة وبَاطِنه مِن قِبَله العَذَاب (وَ الدَّاءُ دَوَاءً) كَالطَّبِيب يَقْطَعُ العُضْو السَّقِيم الَّذي لاَ يُمكن عِلاَجه كِيلا يَقِية الأَعضَاء السَّلِيمة، ويُسمىٰ هَذَا بِدَفع الضَّرر الأَشد بِالضَّرر الأَخف (وَ رُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَ غَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ). اسْتَمعْ لِلخَائِن وَالأَمِين، وحَاكِم مَا تَسْمَع مِن الاثْنَيْن بِعَقل رَزِين، واخْتَر مَا تَركَن إِلَيْهِ نَفْسَك. قَالَ الرَّسُول الأَعْظم ﷺ: «الْبِرّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفس، واطمَأن إِلَيْهِ الْقَلْب، والإِثْم مَا حَاكَّ فِي النَّفس، وتَردَد فِي الصَّدر، وإِنْ أَفْتَاك النَّاس وأَفْتَوْك»[3].

---

(١) أُنظر، شَرح الخُطبَة: (١٧٦). (مِنهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (٢٥٩).

(٣) أُنظر، المجموع: ١٥٠/٩، وَسَائِل الشّيعة: ١٦٦/٢٧ ح (٣٣٥٠٢) ٣ ـ، سُنن الدّارمي: ٢٤٦/٢، الخرائج والجرائح: ١٠٦/١، مَجْمَع الزّوائد: ١٧٥/١، مُسْنَد أحمد: ٢٢٨/٤، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ١٦١/٣ ح ١٥٨٦، الأذكار النّووية: ٤٠٨ ح ١٢٤٩، البداية والنّهاية: ٢٠٢/٦.

(وَ إِيَّاكَ وَ الاِتِّكَالَ عَلَىٰ الْمُنَىٰ فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَىٰ). أَبداً لاَ فَرق بَيْنَ التَّأَوه عَلىٰ مَا فَات، وَتَمَنِّي الْخَيْرَات، كِلاهُما سُخف وضَعْف... ولاَ رَاحة إلّا بِالكَد والتَّعب، وَقَالَ قَائِل: «لاَ يَزَال العَبد مَقْرُوناً بِالتوَانِي مَا دَام مُقِيماً عَلىٰ وَعد الأَمَانِي»[1]، (وَ الْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ). التَّجْرِبَة عِند الإِمَام مَصدَر مِنْ مَصَادر الْمَعْرِفَة، ولكنْ لَيسَت أقوَاها، فهُنَاك الوَحي والْعَقْل الَّذي يُفْكر وَيستَنتِج. ومِن أَقْوَاله: «لَيْسَتِ الرَّوِيَّةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَ لَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَهُ»[2] (وَ خَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ) أي مَا نَفْعَك، بل أَنْفَع المَعَارف كلّها مَا أَسْرَع بِكَ إِلىٰ عَمل الْخَيْر، وأقْصَاك عَن ٱرتكَاب الشَّر.

(بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً). فإِنَّهَا تَمُرّ مَرَّ السَّحَابِ وإلّا لَحلقَتك النَّدامة والحَسْرَة (لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ) لاَ غَبِنَ عَلَيْكَ أَنْ تَطْلُب الشَّيء فَلا تَجِدَه، لأَنّ هَذَا شَائع ومَألوف، والمُهم أنْ لاَ تَبْخَع نَفْسَك عَلىٰ أثرَه (وَ لاَكُلُّ غَائِبٍ يَئُوبُ) كَالْمَيِّت (وَ مِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَ مَفْسَدَةُ الْمَعَادِ). بِالتَّهاون فِيهِ وَعدَم ٱدّخَارَه لوَقت الْحَاجَة (وَ لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ) حُلوَة أو مُرّة، والْعَاقِل يُرَاقب ويَحْتَرس، ولاَ يُقدم إلّا بَعد الْبَحْث والتَّأَمل (سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ) مِن ٱلْرِّزْق بَعد السَّعي والْعَمَل، وإِيَّاكَ والمُنىٰ كمَا قَالَ الإِمَام (التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ) بِرأس الْمَال، فإنْ رَبَح قَالَ النَّاس عنهُ: سَعِيد الطَّالع، وإنْ خَسِر قَالُوا: لاَ حَظَّ لهُ. والوَاقع أنَّ الحَظَّ والطَّالع هُنا هُو دِقة المُرَاقبة، وحُسن التَّقدير والتَّوفِيق. والتِّجَارَة فِي أَيَّامنا فَنٌّ مِن فُنُون اللّصُوصِية، وَعِلم بِأَسَاليب الغُش والاِحْتِيال عَلىٰ الشّعوب الضَّعِيفة ونَهب أقوَاتها

(١) يُنْسَب هَذَا الْقَوْل إِلىٰ يَحيىٰ بن معَاذ، أنظر، تَأْرِيخ بَغْدَاد: ٣٩٢/٥ رَقم (٢٩٤٧).
(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٨١).

وَمُقدراتها.

(وَ رُبَّ يَسِيرٍ) وُضع فِي مَحَله (أَنْمَىٰ مِنْ كَثِيرٍ) وُضع فِي غَيْرِ مَوْضِعه. وقَد رَأينَا الْكَثِير مِن أَصْحَاب المَلاَيِين آلَ أمْرَهُم إِلىٰ البُؤس مِن تَصرفهُم (لاَ خَيْرَ فِي مُـعِينٍ مَهِينٍ) يُفسد مَعرُوفة بِكَلِمة أو حَرَكَة نَابية. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[1]. (وَ لاَ فِي صَـدِيقٍ ظَـنِينٍ) يُـرَائِي ويُـرَواغ (سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ) اَمْشِ بِدَائِك مَا مَشىٰ بِك كما قَالَ الإمَام (وَ لاَ تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ) إلّا مَع مَظَنَّة النَّجاح. وَقَالَ قَائِل: «مَن طَلب الفَضْل، حُرِم الأصْل»[2] (وَ إِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ). التَّعَصُّب والعِنَاد جَهل وفَسَـاد، والتَّمادي فِي الخُصُومَة يَسْل العَقْل والدِّين. قَالَ الإمَام: «مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، وَ مَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، وَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَنْ خَاصَمَ»[3].

الصَّدَاقَة وَالصَّدِيق...فِقْرَة ٢٣ ـ ٢٤:

اَحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَ عِنْدَ صُدُودِهِ عَلَىٰ اللَّطَفِ وَ الْمُقَارَبَةِ، وَ عِنْدَ جُمُودِهِ عَلَىٰ الْبَذْلِ، وَ عِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَىٰ الدُّنُوِّ، وَ عِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَىٰ اللِّينِ، وَ عِنْدَ جُرْمِهِ عَلَىٰ الْعُذْرِ، حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَ كَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ. وَ إِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَ امْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَ تَجَرَّعِ

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٦٤.
(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٠٦/١٦، وقَرِيب مِنهُ فِي سير أَعْلاَم النُّبلاء: ٧٩/١٢.
(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٢٩٨).

الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَىٰ مِنْهَا عَاقِبَةً، وَ لَا أَلَذَّ مَغَبَّةً(٢٣). وَ لِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَ خُذْ عَلَىٰ عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَىٰ الظَّفَرَيْنِ. وَ إِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْماً مَا، وَ مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَ لَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَىٰ مَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَ لَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَىٰ الْخَلْقِ بِكَ، وَ لَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَ لَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ، وَ لَا تَكُونَنَّ عَلَىٰ الْإِسَاءَةِ أَقْوَىٰ مِنْكَ عَلَىٰ الْإِحْسَانِ. وَ لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ فِي مَضَرَّتِهِ وَ نَفْعِكَ، وَ لَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ(٢٤).

اللُّغَة:

صَرْمِهِ ـ بِفَتح الصَّاد وسكُون الرَّاء ـ قَطِيعَته. وصُدُودِهِ: بُعْدَه. والْمُرَاد بِالجُمُودِ هُنا البُخل.

الإِعْرَاب:

عَاقِبَةً تَمْيِيز، ومِثلها مَغَبَّةً، ويَوْماً مَا «يَوْم» ظَرف مَنْصُوب بِبَدَا، وَاتِّكَالاً مَفْعُول مِن أَجْله لِتُضِيعَنَّ.

حَقّ الصَّدِيق:

أَشَار الإِمَام فِي هَذَا المَقطع إِلىٰ حَقّ الصَّدِيق. وقَبل الشَّرح نُشِير بِإِيجَاز إِلىٰ

تَعريف الصَّدَاقَة وسَبَبها، ويُمكن تَلخِيصَها بِالمَوَدَّة والوَفَاء والثِّقَة[١]، أمّا سَببها فَالمُطَابقة والاِنْسجَام. قَالَ الرَّسُول الأَعْظم ﷺ: «الأَرْوَاح جُنُود مُجَنَدة مَا تَعارف مِنْهَا إئتَلف، ومَا تَنَاكر مِنهَا آختَلف»[٢]. ومُتَع آلحَيَاة لاَ يَبلغها الإحْصَاء، وَتَفُوقها جَمِيعاً مُتْعَة الصَّدَاقَة، وتَبلغ الغَايَة القُصوىٰ حِين يُفضِي الصَّدِيق إلىٰ صَدِيقه بِأسرَاره وهُمومه حِيث يُشعر مِن أعْمَاقه أنّه يَنفُض عَن كَاهله أثْقَاله وأَغْلاَله.

وأقوىٰ شَيء فِي الدَّلاَلَة عَلىٰ الوَفَاء والثِّقَة أنْ تُدَافع عَن أخِيك، وتُبرئه مِن شَائِعة السُّوء بِمُجرد سمَاعها، وقَبل البَحْث وقيَام البَيِّنَة.

وبَعْد تَجْربَة عَشرَات السِّنِين أَستَطِيع القَوْل: إنّ الصَّدَاقة بِمَعْنَىٰ الحَقِيقَة هَذه الكَلِمَة لاَ تَكُون ولَنْ تَكون إلّا إذَا وَجد فِي كلّ وَاحد مِن الاثْنَيْن صِفَة أو صِفَات يُقدرهَا الآخر أيّاً كَان نَوْعها، فَالشَّرط أنْ يَكُون لِلصِّفَة وَزنهَا عِند الصَّدِيق لاَ فِي ذَاتها ووَاقعها. ويَرجَع هَذَا إلىٰ قَول الرَّسول ﷺ: «مَا تَعارف مِنْهَا إئتَلف».

(آحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَىٰ اللَّطَفِ) قَد يَظُنُّ بِكَ الصَّدِيق التَّقْصِير فِي حَقٍّ مِن حقُوقه، فَيُعاتبك بِالصَّد والهِجْرَان... وَيَنْبَغِي أنْ تَتجَاهل ذَلِكَ، ولاَ تُعامله بِالمثل وإلّا أنْهيت الصَّدَاقَة بِنَفْسِك، ووَضْعَت لهَا حَداً بِيدك... حَتَّىٰ ولَو كَان هُو البَادِي، مَا دَام التَّلاقِي مُمكناً، فإنّك إنْ تَجَاهلت، وَبَقِيت

---

(١) أُنظر، مُختار الصّحاح: ١٥١/١، الغَرِيب لابن سلاّم: ٢٤٧/٢، النّهاية فِي غَرِيب الحَدِيث: ٧٢/٢، لِسَان العَرَب: ١٩٤/١٠.

(٢) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢٠٣١/٤ ح ٢٦٣٨، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٢١٣/٣ ح ٣١٥٨، صَحِيح آبن حبّان: ٤٢/١٤ ح ٦١٦٨، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحين: ٤٦٦/٤ ح ٨٢٩٦، سُنَن أَبِي دَاود: ٢٦٠/٤ ح ٤٨٣٤، المُعْجَم الأوسط: ١٦١/٢ ح ١٥٧٧، مَجْمَع الزَّوائد: ٣١٤/٢ و: ٨٧/٨، مُسْنَد أحمَد: ٢٩٥/٢ ح ٧٩٢٢، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ١٣٠/١، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١٢٣/١ ح ٤٢٣، تَفْسِير آبن كَثِير: ٧٥/٣.

عَلىٰ عَادتك مَعهُ مِن اللُّطف والمُدَاراة يَذهب مَا فِي النَّفس مَع الأَيَّام، وتَعُود المِيَاه إلىٰ مَجْرَاها (وَ عِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَ عِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ). وَاسْه بِنَفْسك حَتَّىٰ ولَو كَان البُخل مِن طَبعه.

(وَ عِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ) تَغَاضَ عَن هَفوَته واَحْتَملها مِنْهُ.. وإنْ طَلبت صَدِيقاً لاَ تُعَاتبه عُشْتَ بِلا صَدِيق مَدىٰ الْحَيَاة «أيّ الرِّجَال المُهَذَب؟»[1] وهَل مِن الْعَدْل والإِنْصَاف أنْ تَطلب الْعِصْمَة مِن خطإٍ لاَ تُبرىء نَفْسَك مِن مِثله؟ (حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ) هَذَا كِنَاية عَن حُسن المُعَامَلَة والتَّسامح مَع الإخوَان، لأَنَّ الصَّدَاقَة أُخوة لاَ عبُودِية، ووفَاء لاَ إلجَاء (وَ إِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ) تَسَامح وتَوَاضع مَع الَّذين النُّبل والخَلق الكَرِيم، لاَ مَع مَن يَرىٰ التَّواضع مِنْك ضَعفاً واَفْتقاراً. قَالَ أعرَابِي لِصَدِيقٍ لَهُ: «كُنْ لِي بِبَعضك حَتَّىٰ أَكُون بِكُلي لَكَ»[2].

(لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ). والجَمع بَيْنَهما تَمَاماً كَالجَمْع

---

(١) روي ذَلِكَ عَن أَبِي عبداللهعليه‌السلام، قَالَ: (كَان قَوم عِنده يَتَحدثهُم إذْ ذَكر رَجُل مِنْهُم رَجُلاً، فَوقع فيهِ وشَكَاه فقَال لهعليه‌السلام: أَنَّىٰ لَكَ بِأَخِيك كلّه، وأيّ الرِّجَال المُهَذب)، وفيهِ إشَارة إلىٰ الكَمَال. كَما أَخذَ هَذَا المَعْنىٰ الشَّاعر المَعْرُوف النَّابغة الذّبيَانِي، فقَال:

وَلَسْت بِمُسْتَبقٍ أخَاً لاَ تَلُمهُ … عَلىٰ شَعْثٍ أيّ الرِّجَال المُهَذَب

أُنظر، ديوانه صنعه اَبن السّكّيت: ٧٨ طَبعة دَار الفِكْر، الكَافِي: ٢/٦٥١ ح ١، مرآة العقُول: ١٢/٥٥٠، البَحر الرَّائق: ٧/١٠٧، الخِصَال: ٢١٢، مُصادقة الإِخوَان: ٨٠، أَمَالي الصَّدوق: ٧٦٧، وَسَائِل الشِّيعة: ١٢/٨٦ ح ١٥٧٠٦، شَرح الأَخْبَار: ٣/٢٩٥، أَمَالي السَّيِّد المُرتضىٰ: ٣/١٠٢، شَرح نَهْج اَلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي اَلْحَدِيد: ١١/٦٨ و: ٢٠/١٥٩، كَنز الْعُمَّال: ٣/٨٥١، كَشف الخفَاء: ١/٢٧٨ ح ٨٧٣، تَفْسِير القُرطُبي: ٢٠/٥٣، فَتح القَدِير: ٥/٤٣٩، تَأرِيخ دِمشق: ١٩/٢٢٤ و: ٢٥/٣٨٩ و: ٤٦/١٠٤ و: ٤٨/١١١ و: ٥٤/١٣٨، الأَغَانِي: ١١/٥، الشّعر والشُّعراء: ٧١، غَرِيب الحَدِيث: ١/٣٢٣ و: ٢/٥٨٩.

(٢) أُنظر، مَجْمَع الأَمْثَال: ١/٨/٢٦٧.

بَيْنَ الْمَاء والنَّار. قَالَ رَجُل لِلْإِمَام: «إنِّي أُحبك وأُحب مُعَاوِيَة. فقَال الإِمَام: أَنْتَ أَعوَر الآنْ، أمّا أنْ تَعْمَىٰ، وأمّا أنْ تُبصر»(١) (وَ ٱمْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً) أي ثَقِيلة عَلىٰ مَن تَنْصَحه، كَمَا لو كَان مُعْجباً بِنَفْسَه يَدعِي العِلم، ومَا هُو مِن أَهْله، أو كَان كَذُوبَاً، أو حَسُوداً فصَارَحته ونَهيته، وبِكَلِمة: إنْصح بِالحَقِّ وإنْ غَضِب المَقصُود بِالنَّصِيحة، ولاَ يَهمك مَا دُمت مُخلصاً ومُجْتَهِداً فِيها عِند نَفْسَك.

(وَ تَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَىٰ مِنْهَا عَاقِبَةً). قَد يَسْتَفزك سَفِيه بِكَلِمة نَابِية، أو حَرَكة مُزعِجة فَتَثُور أعْصَابك، وعَلَيْكَ أنْ تَتَمَاسك إنْ حَدَث شَيء مِن ذَلِكَ، ولاَ تَسْتَجِيب لِغَضبك وأَعْصَابك، ولَو ٱسْتَسلمت لِلغَضب لاِنْتَهيت إِلىٰ أَسوأ العوَاقب. وبِالإيجَاز مَن لَم يَصبر عَلىٰ كَلِمة سَمِع كَلِمَات (وَ لِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ). إنْ ظَنَنت بِهِ خَيراً، ورَجُوت أنْ يَرجع عَن جَفوتَه، ويَؤوب إلىٰ رُشدَه، وهَذَا تَعبِير ثَانٍ عمّا سَبق مِن قول الْإِمَام: «وَ إِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ».

(وَ خُذْ عَلَىٰ عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَىٰ الظَّفَرَيْنِ) وهُمَا:

ظَفَر ٱلْقِصَاص والاِنْتِقَام. وَظَفَر الْعَفو والإِحْسَان. وهَذَا هُو الجَدِير بِالعُظَمَاء والْأَوْلِيَاء. وَلَيس مِن شَكٍّ أنّ الْعَفو يُضَاعف الْحَسَنَات، ويُنْقص السَّيِّئَات. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٢). وَقَالَ الإِمَام: «مَتَىٰ أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ؟ أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ الاِنْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ صَبَرْتَ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ

(١) أُنظر، السَّرائِر: ٣/ ٦٤٠، بِحَار الأَنْوَار: ٢٧/ ٥٨ ح ١٧، عَوالي اللّئالي: ١/ ٢٩٦.

(٢) ٱلْبَقَرة: ٢٣٧.

عَفَوْتَ ؟»[1].

(وَ إِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَٱسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً . . . إلخ). وبأُسلوب آخر هُو لِلإمَام أيضاً: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»[2].

وَكَثِيراً مَا تَحْدث القَطِيعَة بَيْنَ الصَّدِيقِين، ثُمّ تُستَأنف الصَّدَاقَة بِحَبلٍ أقوىٰ وأوْثَق إذاكَان مَع الهَجْر عَقل (وَ مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ) مَن وَثِق بِنُبْلك فَكُن عِند ثِقته، فإنَّها قوّة لَكَ وثروة. والعَكس صَحِيح أي مَن ظَنَّ بِكَ شرّاً فكذّب ظَنّه بِعَملِ الخَيْر.

(وَ لَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ ٱتِّكَالًا عَلَىٰ مَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ). إنَّ لِلصَّدَاقة حُرمتها، وَلِلصَّدِيق حقُوقه، فإنْ قَصَّرْت فِي شَيء مِن حقّه فَقد ٱنْتَهكت حُرمة الصَّدَاقَة والأُخُوة، وجَعَلت عَلىٰ نَفْسَك بِنَفْسك سَبِيلاً للمُوَاخَذة والمَلاَمة. قَالَ بَعْض السَّلف: «مَا تَوَاد ٱثْنَان فَفَرَّق بَيْنَهُمَا إلّا بِذَنبٍ يَحْدثه أَحدهُما»[3] (وَ لَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَىٰ الْخَلْقِ بِكَ). مَن شَقِي بِهِ أهْله فهُو أشْقىٰ النَّاس عَلىٰ الإطْلاَق، لأنَّ مَن يَبغي عَلىٰ القَرِيب يَيأَس النَّاس مِن خَيره، وَيَخَافُون مِن شرّه، ومَن يَسعد بِهِ القَرِيب يَرجُوه البَعِيد لِعَمل الخَيْر. قَالَ رَسُول الله ﷺ: «خَيْرُكُم خَيْرُكُم لأهْلَه، وأَنَا

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٩٤).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٢٦٨).

(٣) هَذَا حَدِيث نَبَوي، كَمَا جَاء فِي مُسْنَد أحمد: ٢/ ٦٨ و: ٥/ ٧١، مَجْمَع الزّوائد: ٨/ ١٨٤ و: ١٠/ ٢٧٥، مُسْنَد ٱبن المُبارك: ٨، مُسْنَد ٱبن راهويه: ١/ ٤٠٥، الأدب المفرد: ٩٢، الجَامِع الصَّغير: ٢/ ٤٩١ ح ٧٨٧٩، العهُود المُحمّدِية: ٥١٠، كَنز العُمّال: ٩/ ٥ ح ٢٤٦٥٢ و ٢٤٨٧٧، فَيض القَدير: ٥/ ٥٥٩ ح ٧٨٧٩، كَشف الخفاء: ٢/ ٣٠١ ح ٢٧٣٠.

خَيْرُكُم لأهْلِي»[1]. هَذَا، إِلىٰ أنّ لِـربّ الأُسرَة وسِـيرته مَـعَهَا التَّأثِـير البَـالغ فِي صَلاَحها وفَسَادها، ونَعِيم الْبَيْت أو جَحِيمَه.

(وَ لَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ). تَجَاهلْ مَن أَدبَر عَنْكَ كأنَّه لَمْ يَكُن حَتَّىٰ ولَو كَانَتْ الدُّنْيَا فِي قَبْضَته... إنّ الاِسْتعَانة بِغَير الله ذُلّ وهوَان (وَ لَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ). إذاكَان هُو أقوىٰ مِنْك عَلىٰ القَطِيعة والإسَاءة فكُن أنْت أقوىٰ مِنْهُ عَلىٰ الصِّلة والإِحْسَان، شَرِيطة أنْ يَكُون فِي صِلتك لهُ شَيء مِن الخَـيْر والصَّلاَح وإلّا فَالسَلو أَفْضَل (وَ لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ فِـي مَضَرَّتِهِ وَ نَفْعِكَ) عِند الله، لأنَّ «يَوْمُ الْعَدْلِ عَلَىٰ الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَـوْمِ الْجَـوْرِ عَـلَىٰ الْمَظْلُومِ»، كَمَا قَالَ الإِمَـام فِي مـقَام آخـر[2]... ولَـيْس مَـعْنىٰ هَـذَا أنْ تَسْـتَسلم لِلظُلم... كَلا، فإنَّ جِهادَه فَرض، ومَن قَصّر فهُو شَرِيك الظَّالم، ولَو عَلِم الظَّالم أنّ المَظْلُوم يَسْتَمِيت دُونَ حُرِّيَته وكَرامتَه لتحَامَاه.

(وَ لَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ) هَذاكَلاَم مُستَأنف لاَ صِلة لهُ بِمَا قَبْله كمَا تَوهم بَعْض الشَّارحِين، وَقَالَ فِي تَفْسِيره: لَيْس جَزَاء مَن أسَاء إِلَيْك أنْ تُقابله بالإسَاءة، لأنّه زَاد فِي أجرك عِند الله[3]!... ونَسىٰ هَذَا الشَّارح وجُوب الجِهَاد ضِدّ الـبَغْي، وإنْ مَن مَات دُونَ عِقَال مِن مَاله مَات شَهِيداً، وإنّه لاَ مَعنىٰ لِلعَدل إلّا الضَّرْب عَلىٰ

---

(١) أُنظر، صَحِيح ٱبن حبّان: ٤٨٤/٩ ح ٤١٧٧، موارد الظّمآن: ٣١٨/١ ح ١٣١٢، سُنن التّرمذي: ٧٠٩/٥ ح ٣٨٩٥، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٤٦٨/٧ ح ١٥٤٧٧، سُنن ٱبن ماجه: ٦٣٦/١ ح ١٩٧٧، مُعتصر المُختصر: ٣٠٣/١، مُسْنَد البزار: ٢٤٠/٣ ح ١٠٢٨، الآحاد والمثاني: ٤٦٥/٤ ح ٢٥١٩، تُحفَة الأَحْوَذي: ٢٧٣/٤، كَشف الخفَاء: ٤٦٣/١ ح ١٢٣٤.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٤١).

(٣) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٠٦/١٦ و ١١١.

أَيْدِي المُعتدِين ، وإنّ السُّكُوت عَنْهُم هُو تَشجِيع لِلفَسَاد فِي الأَرْض .

ٱلرِّزْق...فِقْرَة ٢٥ ـ ٢٦:

وَ ٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَ رِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ . مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَ الْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَىٰ ! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ ، وَ إِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَىٰ مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَىٰ كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ . ٱسْتَدِلَّ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ ؛ وَ لَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ ، وَ الْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ[٢٥] . ٱطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَ حُسْنِ الْيَقِينِ . مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ ، وَ الصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَ الصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ ، وَ الْهَوَىٰ شَرِيكُ الْعَمَىٰ ، وَ رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَ قَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَ الْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ . مَنْ تَعَدَّىٰ الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَ مَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَىٰ لَهُ . وَ أَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ . وَ مَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ . قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً ، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً . لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَ لَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ، وَ رُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَ أَصَابَ الْأَعْمَىٰ رُشْدَهُ[٢٦] .

اللُّغَة:

مَثْوَاكَ : مَنْزِلك . وَمَا تَفَلَّتَ : مَا فَات . وعَزَائِمِ الصَّبْرِ : قُوَّة الإِرَادَة . والقَصْدَ : الإِعْتِدَال . والمُنَاسِب : المُوَفق والقَرِيب . ولَمْ يُبَالِكَ : لَمْ يَكْتَرِث بِكَ . والعَوْرَة : الخَلَل .

الْإِعْرَاب:

رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ «رِزْقٌ» بَدَل مُفَصل مِن مُجمَل، والمُبدل مِنْهُ رِزْقَانِ، ومَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ «مَا» مُبْتَدأ بِمَعْنَىٰ شَيء، وأَقْبَحَ فِعل مَاضٍ، والفَاعِل مُستَتر يَعُود إلىٰ «مَا» والجُملَة خَبَر، والْخُضُوعَ مَفْعُول.

الْمَعْنَىٰ:

(أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ) بِتجَارة أو صِنَاعة أو فِلاحَة أو خِدْمَة. وهَذَا ٱلرِّزْق وَرَاءهُ قَضَاء وَتَدبِير كأي شيء يَحْدَث فِي الكَوْن حَيْث أبىٰ الله سُبْحَانَهُ إلّا أنْ يَربط الأَسْبَاب بِمُسَببَاتها، والنَّتائِج بِمُقَدماتها حَتَّىٰ نَعِيم الآخِـرَة أو جَـحِيمها هُـو نَتِيجَة الأَعْمَال فِي ٱلْحيَاة الدُّنْيَا... هَذَا مَع العِلم بِأنَّ سِلسِلة الأَسْبَاب تَـنْتَهِي إِلَـيْهِ تَعَالىٰ طَالت أَم قَصُرَت (وَ رِزْقٌ يَطْلُبُكَ) بِإِرْثٍ، أو هَدِيةٍ، أو صَيد غَالٍ وثَمِين لاَ يُكلفك سوىٰ خُطوات... ومَهما يَكُن فإِنّ كَلاَم الإِمَام هُنا عَن ٱلرِّزْق مُجـرد تَعبِير عَن وَاقع الحَال بِصَرف النَّظر عَن فَلْسَفَة ٱلرِّزْق. وتَقَدَّم الكَلاَم عَنْهَا[1].

(مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ). لاَ شَيء أَدل عَلىٰ ضِعَة النَّفس وخَسَـاسَتها، ولُؤمهَا ودَنَاءتها ـ مِن التَّنمُر فِي اليُسر، والتَّذلل فِي العُسر... والنَّفس الكَرِيمَة سَواء فِي الحَالِين، بل هِي مَع العُسر أَعَز وأَكْثَر إبَاء... ومِمَّا يَزِيد الْفَاقَة شِدة الْإِسْتكَانَة لِمَن لاَ يجبرهَا. وَقَالَ الإِمَام: «مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَـلَباً لِمَـا عِـنْدَ اللهِ! وَأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَىٰ الْأَغْنِيَاءِ ٱتِّكَالاً عَلَىٰ اللهِ»[2]. (إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا

(١) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: ٢٣. (مِنهُ ﷺ).

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٠٦).

أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ) . أَبَداً لاَ فَرق بَيْنَ مَن يَملك الملاَيين ومَن يَملك العَشرَات مَا دَام وعَاء الْبَطْن لاَ يَقبل المَزيد مِن الطَّعام ، ومَسَاحة الجِسم لاَ تَتَجاوز المُقرر مِن اللِّباس ... والْعُمُر إِلىٰ أجَلٍ ، وإِلىٰ التَّفرِيق والشّتَات مَا جَمع الْمَرْء ومَا كَسَب ... وإِذَنْ فعَلاَمَ التَّناحُر عَلىٰ الْحُطَام ؟.

(وَ إِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَىٰ مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ... إلخ) . حِكْمَة بَالِغَة دَامِغة فمَا تُغني النّذر : ثَروَة الكَوْن لاَ حَد لهَا ، أمّا حَاجتك فَلها حَد ، وأَنْتَ تَطلب المَزيد ، وتَحْزَن إذَا لَم تَبلغ مَا تُرِيد ، وَعَلىٰ مَنطقك هَذَا يَنْبَغي أَنْ تَبْكِي وَتَندُب لأَنَّك لاَ تَملك الكَوْن بِأَرْضَه وسَمائَه ... وأي فَرق مِن حَيْث النَّتِيجَة بَيْنَ مَا ذَهب مِن مَالك ، وبَيْنَ مَا لَم تَنل مُنذ البدَاية ؟. (اَسْتَدِلَّ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ) . تَصَفح أحوَال الَّذِين جَمَعُوا أو حَرَصُوا : مَاذَا حَدَث لأَموَالهم بَعد المْوْت ، وقُس عَلَيْهَا مَا فِي يَدك الآنْ مِن مَال وحُطَام .

(وَ لَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ) . اَعْتَبِر بِالغَير ، واَتْعَظ بِالعِبر إنْ كُنت إِنْسَاناً يَدرك الأُمُور وعوَاقبها لاَ حيوَاناً يُقرع بِالعَصا (اَطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَ حُسْنِ الْيَقِينِ) . لاَ مَفَرّ مِن المَصَائِب وَالنّوائِب فِي هَذِه اَلْحَيَاة ... ومَع هَذَا عَلَيْكَ الوِقَايَة مَا أَمْكَن ، والعِلاج إنْ اَبْتَلِيْتَ ، فإنْ اَستَعصىٰ الدَّاء عَلَيْكَ وعَلىٰ أَهْل الاِخْتِصَاص فوَض الأَرْض إِلىٰ الله ، واَمضِّ فِي عَملك ، واَدِّ مَا عَلَيْكَ ، وسَوف تَرىٰ الأَمْر عَلىٰ مَا يرَام ... وإِنْ شَغَلت نَفْسَك بِالتَّفكِير فِيما أَصَابك صَدك الْخَوْف عَن عَملك ، وترَاكمت عَلَيْكَ الأَحزَان بِلا جَدوىٰ .

ومِن جُمْلَة مَا قَرَأت أنّ رَجُلاً أَحس بِضَعف واَنْحِرَاف فِي صَحته ، ولمّا عَرض نَفْسَه عَلىٰ الطَّبِيب قَالَ لهُ : إِنّه مَرِيض بسُرطان الدَّم ، وإِنّه يَمُوت بَعد قَلِيل ... فَلَم

يَنزَعج وتَحَدىٰ المَرض، وَقَالَ فِي نَفْسَه: لاَ فَرق بَيْنَ أَموت مُفَاجَأة أو بِإنذَار سَابق، ومَضىٰ فِي عَمله كَأَنْ لَمْ يَكُن شَيء، واَستَمر فيهِ حَتَّىٰ الآنْ. ولَو أَنَّه آستَسلَم لِلوسَاوس لخَارت قوَاه، وأمسىٰ طَرِيح الفرَاش يَنْتَظر المَوْت فِي كلِّ لحظَة. ومَعْنىٰ هَذَا أَنّه يَمُوت فِي اليَوْم مرَّات. ولمّا قِيل لهُ: كَيف تَعْمل وأَنْت عَلىٰ هَذِه الحَال قَالَ: أُجَرب ٱلْحِكْمَة القَائِلة: خَير الدّواء الْعَمَل[1]. وَقَالَ الإِمَام: «إِنْ صَبَرْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»[2].

(مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ) مَن أَسْرَف تَعدىٰ الحُدُود، ومَن أَمْسَك قَصّر عَنْهَا والطَّرِيق الوسطىٰ سَبِيل الخَيْر والنَّجَاة (وَ الصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ) ولاَ صُحْبَة بِلا موَافقَة وَمُناسبَة (وَ الصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ) شَرّ النَّاس مَن صَادقَك مِن غَيْر صِدق، يُكِيل لَكَ المَدح فِي المَحضَر، ويُذِيع السَّيِّئَات فِي المَغِيب، وإِنْ سَمعَها أَقرهَا بِسكُوته مَع عِلمه بِإِنَّهَا زُور وآفترَاء (وَ الْهَوَىٰ شَرِيكُ الْعَمَىٰ) إِذَا غَلَب الهَوَىٰ عَمي الْعَقْل (وَ رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ) لتَقَارُب الأَخْلاَق وتوَافقها... وأيضاً كلّ مَن أَحسَن إِلَيْك فهُو قَرِيب إِلىٰ نَفْسَك، وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ (وَ قَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ) لِتَبَاعُد الأَخْلاَق وتَنَافرها، أو لِنزَاعٍ عَلىٰ مِيرَاث أو جَاه.

---

(١) لقَد جَاء فِي الحَدِيث النَّبوي، (إنّ الدَّواء الحِجامة والفصاد والحبّة السَّوداء، وكَذلِك خَير الدَّواء الْقُرآن). أنظر، دعَائم الإِسْلام: ٢/١٤٤ ح ٥٠٠، فَيض القدِير: ٣/٦٢٨ ح ٤٠٠٧، الجَامِع الصَّغِير: ١/٦١٨ ح ٤٠٠٧، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٦/٤٣٧ ح ٢٠٤٧٦، كَشف الخفَاء: ٢/٨٢، سُنَن آبن مَاجه: ٢/١١٥٨، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٩/٣٤٦، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شيبة: ٥/٤٢٤، كَنز الْعُمَّال: ١٠/٨ ح ٢٨١٠٣، تَهذِيب الكَمَال: ١٠/٢٣٨، تَهذِيب التَّهذيب: ٢/٤٠١، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ١٢/١٤٥، غَرِيب الحَدِيث: ٣/١٢١٧، النَّهاية فِي غَرِيب الحَدِيث: ٣/٢٩٠.

(٢) أُنظر، نَهج آلبَلاَغَة: من كتَابٍ لهُ عليه السلام وَقَدْ عَزَّىٰ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ عَنِ آبْنٍ لَهُ (٢٩١).

(وَ الْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ) لِلُؤمه وحَسَده، أو لِتَعاظُمه وخُيلاَئِه، أو لِظُلمه واعتدَائه (مَنْ تَعَدَّىٰ الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ) أي طَرِيقه، والْمَعْنَىٰ مَن تَسَلح بِغَير الْحَقّ فهُو أَعْزَل مِن كلّ حُجّة ودَلِيل، وَفَضِيلة ومَكْرَمة، ولاَ دوَاء لهُ إلّا الازْدِرَاء والقَسوَّة إذا لَم يَرتَدع إلّا بِها (وَ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَىٰ لَهُ) إذا لَم تَدَّعِ بمَا لَيْسَ فِيكَ أَحَبك النَّاس، وأَنْزَلوك فِيما أَنْت أَهْل لهُ وَجَدِير بِهِ، وإنْ تجَاوزت طورَك بَخَسُوا حقّك، وارتَابُوا فِي كلّ قَولٍ، أَو فِعلٍ مِن أقوَالك وأفْعَالك، وإنْ كُنت فِيهِ مِن الصَّادقِين (وَ أَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ). والسَّبَب الَّذي بَيْنَ الله والعَبد هُو العِلم بِأحكَامه تَعالىٰ والْعَمَل بِها.

(وَ مَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ). قَالَ ابن أَبِي الْحَدِيد، ونَحنُ مَعَهُ فِيما قَالَ: الْمُرَاد بِهَذه الوَصِيَّة خصُوص الْوُلَاة[1]، لأنَّ عَدَم المُبَالاَة بِهِمْ مَعْنَاه الاِسْتِهَانة بِالقُوَّة الرَّادعَة عَن البَاطِل، أمَّا سَائر النَّاس فَغَير مَقْصُودِين بهَذه الوَصِيَّة، لأنّ اللاَّمُبَالاة مِن حَيْث هِي لاَ تَسْتَدعِي العَدَاء والبَغْضَاء (قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً) الْمُرَاد هُنا الحِرْمَان، وبِالإدْرَاك نَيل الْمُرَاد، والْمَعْنَىٰ رُبَّمَا يَتمَنىٰ الْمَرْء لِنَفْسه شرّاً مِن حَيْث يَظُنّ أنّه خَير مَحض، ولاَ يَنْكَشف ذَلِكَ إلّا بَعْد أَنْ يَنَاله ويُمَارسه، ومِثَاله أنْ يَتمَنىٰ الزَّواج مِن امرَأة أَعْجَبَته مِن أَوَّل نَظرة، حَتَّىٰ إذَا تَمَّ مَا أَرَاد، وبَاشر وعَاشر قَالَ: ﴿يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[2].

(لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ) فَتحت الثِّياب أَفَاعٍ وذِئَاب، والْقُلُوب صَندُوق الْعُيُوب (وَ لَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ). مَا مِن إنْسَان عَلىٰ وَجه الأَرْض إلّا وهُو يَملك جُزءاً مِن

---

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة: ١٦/١١٩.

(٢) مَرْيَم: ٢٣.

الوَقت يَسْتَمع فِيهِ إِلىٰ حِكْمَة، أو يَقرأ مَا يَنْفعه، أو يُفَكر فِي أُخِـرته ومَـصِيره، أو يَكتُب، أو يَغْرس، أو يَذكر الله، أو غَيْر ذَلِكَ مِمَّا يَتنَاسب مَع أوضَاعه... وللوَقت وَزْن وثَمن، ومَن ذُهل عَنْهُ أو لَمْ يَكترَث بِهِ فقَد مَات، وهُو حـيّ (وَ رُبَّـمَا أَخْـطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَ أَصَابَ الْأَعْمَىٰ رُشْدَهُ) تَبعاً لِلظرُوف والأحدَاث الّتِي تَشذ عَـن القوَاعد، ولاَ سَبِيل إِلىٰ التَّنبؤ بِها... وقَد رَفعَت هَذِه الشّواذ أفرَاداً لاَ دَور لهُـم فِي شَيء، ووَضعَت آخرِين كَان لهُم أَحْسن الأثَر فِي خِدْمَة ٱلْحيَاة وتَقدمهَا.

السُّلْطَانُ وَالزَّمَانُ...فِقْرَة ٢٧ ـ ٢٨:

أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَ قَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَ مَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَىٰ أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَ عَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُـرَ مِـنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَ إِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ(٢٧).

وَ إِيَّاكَ وَ مُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ، وَ عَزْمَهُنَّ إِلَىٰ وَهْـنٍ. وَ اكْـفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْـقَىٰ عَـلَيْهِنَّ، وَ لَـيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَ لَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَ لَـيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَ لَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَ لَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِـغَيْرِهَا. وَ إِيَّـاكَ وَ التَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَىٰ السَّقَمِ، وَ الْبَرِيئَةَ إِلَـىٰ الرِّيَبِ. وَ اجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ. وَ أَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَ أَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ،

وَ يَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

ٱسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَ دُنْيَاكَ، وَ ٱسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَ الآجِلَةِ، وَ الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ، وَ السَّلَامُ(٢٨).

اللُّغَة:

الأَفْنِ وَالوَهْنِ: الضَّعْف. قَهْرَمَانَة: وَكِيلة فِي التَّصرف. والتَّغَايُرَ: إِظْهَار الغِيرَة. ويَتَوَاكَلُوا: يَتَّكِل بَعْضهُم عَلىٰ بَعْض.

الإِعْرَاب:

إِيَّاكَ أُحَذِّرُك، والبَاء فِي بِأَشَدَّ وبِقَهْرَمَانَةٍ زَائِدَة.

الْمَعْنَىٰ:

(أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ). كلّ إِنْسَان عَلىٰ وَجه الأَرْض يَقْدَر عَلىٰ الشَّر والْخَيْر، ولَو يُحب الْخَيْر وفَاعِله، ولكنَّ الشَّر أوْسَع مجَالاً، وأَكْثَر أنوَاعاً وأفرَاداً، يَسْتَطِيعَه أَضْعف الضُّعفاء مَتىٰ شَاء وأَرَاد، ولاَ تفوته الْفُرْصَة مِنْهُ وإنْ أَبطأ وتَلكأ، أمّا عَمْل الْخَيْر ووَضعه فِي مَوْضِعه فلَه قيودَه وظرُوفه، ولاَ تَسمح بِهِ الْفُرْصَة فِي كلّ حِين... وقَول الإِمَام: «أَخِّرِ الشَّرَّ» مِن بَاب: لاَ تَسْتَعجل الهَلاك، أي ٱبْتَعد عَنْهُ.

(وَ قَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ) لأنَّ الْعَاقِل لاَ يَقُول ويَفْعَل إلّا بَعد تَقدِير العوَاقب، والتَّثبُت والأَنَاة، ولاَ يحقد عَلىٰ مَن عَابه بِشيء هُو فِيهِ، أمّا الجَاهِل فَيَتَصرف بِاللمْحَة، وَيَحكُم بِالظَّنة، ولاَ يَعْرِف للرَوِية مَعْنىٰ، ولاَ يُقِيم لِلعَاقِبَة وَزناً

(مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ) إذَا أَقْبَلت الدُّنْيَا عَلَيْكَ فَاَحْذَر الُخَبآت والمُفَاجآت. فإنّ الدُّنْيَا يَجُوز عَلَيْهَا كلّ شَيء (وَ مَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ) أي مَن أَعْظَم الطَّاغِية مِن أَبْنَاء الزَّمَان، لأنَّ الزَّمَان لَيْسَ بِجِسم يَحسّ كِي لاَ يُحقّر أو يُقدّر، ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ تَعظِيم الطَّاغِية رِيَاء ونِفَاق، وذُلّ وهوَان.

(لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَىٰ أَصَابَ) الهَدَفَ وإنْ كَان حَاذقاً. والقَصد مِن هَذَا هُو التَّنبِيه إلَىٰ أنّ الْعَاقِل يَتوقع الخَطَأ مِن نَفْسَه ويَتقَبل النَّقد، وإنّ المُعْجَب برَأيه يَرىٰ أنّه لا يَنْطق إلّا بِالصَّوَاب، وهُو جَاهل مَغرُور (إذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ) إنْ خَيراً فَخَير، وإنْ شرّاً فَشّر بخَاصَّة فِي عَصرنا الَّذي بَلَغت فيهِ الأَسْلحة المُدمرة حَداً يَفُوق التَّصور، ويُسِيطر الْحَاكِم أو الهَيَئة الْحَاكِمَة عَلىٰ جَمِيع المُقدرَات ونَوَاحِي اَلْحيَاة.. فإذَا كَانَتْ مصَالح الْعِبَاد فِي أَيدٍ أَمِينة ونَزِيهَة عَاشوا فِي ظلّ الرَّاعِيَ عِيشَة رَاضِية، وإنْ كَانَتْ فِي أَيْدِي اللّصُوص والقرَاصِنة قَادوا الرَّعِيَّة إلىٰ الهَاوِية، ومُنذ القَدِيم شَاع وذَاع أنّ: «الرَّعِيَّة تَصلح بصَالح الملك، وتَفسد بفسَاده»[1].

وتَقدَّم الكَلاَم عَن ذَلِكَ فِي اَلْخُطْبَة (٢١٦)، ويَأتِي أيضاً فِي «عَهد الإمَام» لِلأَشْتَر.

(سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ). السَّفر يُسْفر عَن الأَخْلاَق، فإذَا صَحِبتَ جَاهِلاً فِي سَفرك ظَهرت مَعَالِم صفَاته وغَرَائِزه، وأزْعَجك وجَنىٰ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إنْ صَحِبتَه عَنَاك، وإنْ اَعْتَزلته شَتَمك»[2]. وكَان ﷺ إذَا سَافر يَقول:

(١) أنظر، فَيض القَدِير شَرح الجَامع الصَّغِير: ٥٦٣/٣.

(٢) أنظر، تُحف العقُول: ١٨، بَحار الأَنوَار: ١١٩/١.

«مَن كَان سَيىء الخُلق والجوَار فَلا يَصحبنا»[1]. وقَدِيماً قِيل: «الجَار قَبل الدَّار»[2] (إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً) إلّا للمُطَايَبَة فِي حدُود الشَّرع وَالآدَاب.

الْمَرْأَة وَالْمَشُورَة:

(وَ إِيَّاكَ وَ مُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ، وَ عَزْمَهُنَّ إِلَىٰ وَهْنٍ). لأنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «شَاوِرُوهِنَّ وخَالِفُوهِنَّ»[3]. وفِي «صَحِيح» البُخَارِيّ كِتَاب «الحَيض»: «يَا مَعْشَرَ ٱلنِّسَاء: مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ، وَدِينٍ أذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إحْدَاكُنَّ. قُلْنَ لَهُ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا، وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ ٱلْمَرْأَة مِثْلَ نِصفِ شَهَادَةُ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَىٰ. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»[4]. وكلّ مَا قَاله الإِمَام عَن الْمَرْأَة فهُو عَن اللهِ، ورَسُوله بِلا تَقْلِيم وتَطْعِيم فِي الشَّكل والأُسلُوب. وتَقَدَّم الكَلَام عَن ذَلِكَ[5]. وأيضاً يَأتِي عِند قَول الإِمَام:

(١) أُنظر، مكارم الأَخْلَاق للطَّبرسي: ٢٥١، بحَار الأَنْوَار: ٢٧٣/٧٣.

(٢) أُنظر، تَفْسِير آبن كَثِير: ٣٩٥/٤، مجمع الزّوائد: ١٦٤/٨، نُظم دُرر السّمطِين: ١٦٨.

(٣) أُنظر، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٤٤٩/٦ ح ٧٦، فَيض القدِير: ٢٦٣/٤، المَصنُوع: ١١٣/١ ح ١٦٠، كَشف الخفَاء: ٤/٢ ح ١٥٢٩، حَاشية الدّسوقي: ٩٨/٣، المَبسُوط للسَّرخسي: ٤٤/١٤.

(٤) تَقدَّم آستخرَاجه، أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٤٥/١ ح ٢٩٩، بَاب ٦ تَرك الحَائض الصّوم، طَبعة دَار الفِكر ـ بَيروت ـ بإشرَاف مُحمَّد يَنِيس، و: ١١٦/١ ح ٢٩٨ و: ٥٣١/٢ ح ١٣٩٣ طَبعة أُخرىٰ، وفَتح البَاري: ٤٠٦/١، المُسند المُستخرج علىٰ صَحِيح الإِمَام مُسْلِم: ١٥٨/١ ح ٢٣٩.

(٥) أُنظر، شَرح الخُطْبَة: ٨٠ فِقرَة «عَلِيٌّ وَالْمَرْأَة». (مِنْهُ ﷺ).

«الْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا»[1].

وبَعْد، فأي إنْسَان جَمع مِن مَشُورَته بَيْنَ الوَعي والإخْلاَص يَصح الأخْذ بهَا والاِعْتِمَاد عَلَيْهَا رَجُلاً كَان أَمْ إمْرَأَة، ومتىٰ انْتَفىٰ هَذَان سَقطَت الْمَشُورَة عَن الاِعْتِبَار وإنْ كَان الْمُشِير رَجُلاً، أمّا نَهي النَّبيّ وَعَليّ مِن مَشُورَة النِّسَاء فيُحمَل عَلىٰ مَشُورَة الجَاهِلِيَّة، وكَان أَكْثَر النِّسَاء آنْذَاك فِي مَعزَل عَن العِلم وتجَارب الحيَاة، ولاَ ذَنب لِلمَرْأَة فِي ذَلِكَ إذَا قَصّر الرَّجُل فِي تَربيتها مَع العِلم بأَنَّهَا مِن طِينَة الرَّجُل، وطَبِيعتهما وَاحدة، ويَشْتَركَانَ فِي المَسْئُولية عَلىٰ قَدمِ المُسَاوَاة.

(وَ اكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ). يُشِير إلىٰ الآيَة: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَايُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَايُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَايَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]. (وَ لَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ). لاَ فَرق بَيْنَ أنْ يُطْلَق لَهُنَّ السَّراح فِي الخرُوج حَيث أَرَدنَّ وبَيْنَ أنْ يَدخُل عَلَيْهِنَّ عَاهِر فَاجِر (وَ لَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا). اتّفقت الْمَذَاهِبُ الإسْلاَمِيّة قَوْلاً وَاحِداً عَلىٰ أنّ الْمَرْأَة لاَ يَجُوز أنْ

(١) أنظر، نَهج البَلاغَة: الحِكْمَة (٢٣٨). (مِنهُ).
(٢) النُّور: ٣١.

تَتَوَلَّىٰ الإِمَارة والسُّلْطَان، وفِي الْحَدِيث: «لَنْ يُفْلِح قَوْم وَلّوا أَمْرَهُم إِمَرْأَة»[١]. واْخْتَلفوا فِي تولّيها الْقضَاء: قَالَ أَبُو حَنِيفَة: «يَجُوز أَنْ تَتَوَلَّىٰ الْمَرْأَة الْقضَاء فِي حقُوق النَّاس دُونَ حقُوق الله أي الحقُوق الْعَامَّة»[٢]. وَقَالَ غَيْره: لاَ يَجُوز إِطلاَقاً[٣].

(فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ) للرِّقَة والحنَان، والدَّعَة والاِطمْئنَان (وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ) تَتَصَرف فِيمَا يَخُص الرَّجُل نيابَة عَنْهُ (وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا). كَرَامَة الْمَرْأَة أَنْ تَبقَ إِمَرْأَة، وأَنْ تَضع نَفْسهَا حَيْث وضَعتها الطَّبِيعَة، ولاَ تَتطفل عَن وظَائِف الرَّجُل. وَقَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «أَيَن هَذِه الوَصِيَّة مِن حَال الَّذِين يَصرفُون

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٤/١٦١٠ ح ٤١٦٣ و: ٦/٢٦٠٠ ح ٦٦٨٦، الْمُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ٣/١٢٨ ح ٤٦٠٨، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٥٢٧ ح ٢٢٦٢، مَجْمَع الزَّوائد: ٧/٢٣٤، سُنَن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ: ٣/٩٠ ح ٤٩٠٧ و: ١٠/١١٧ ح ٢٠١٤٩، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٣/٤٦٥ ح ٥٩٣٧، تَفْسِير القُرطُبي: ١٣/١٨٣، تَفْسِير ٱبن كَثِير: ١/٤٩٢، الْبَيَان والتَّعرِيف: ٢/١٦٦، خُلاصة البَدر الْمُنِير: ٢/٤٢٦ ح ٢٨٤٣، سُبل السَّلام: ٤/١٢٣، المُغني: ١٠/٩٢، نَيل الأَوْطَار: ٩/١٦٧، تُحْفَة الْمحتاج: ٢/٤٦٦ ح ١٥٦٩ و ١٧٦٤، فَتح البَاري: ٨/١٥٤ و: ١٣/٥٦، فَيض القدِير: ٥/٢٠٣، كَشف الخفَاء: ٢/١٩٧ ح ٢٠٨٠.

(٢) أُنظر، الْهِدَايَة المَطبوع مَع شَرح فَتح القَدِير: ٥/٤٨٥، اللُّبَاب: ٣/٢١١، الأَحكَام السُّلطَانِية للمَاوردي: ٦٥، نَيل الأَوطَار: ٩/١٦٨، المِيزَان الْكُبْرَىٰ: ٢/١٨٩، الْمحلىٰ: ٩/٤٢٩، المُغني: ١١/٣٨١، الشَّرح الْكَبِير: ١١/٣٧٨، بدَاية الْمُجْتَهِد: ٢/٤٤٩، الْمجموع: ٢٠/١٥٠، حلية الْعُلَمَاء: ٨/١١٤، الحَاوي الْكَبِير: ١٦/١٥٦، تَبيين الحقَائق: ٤/٧١٧.

(٣) أُنظر، كتَاب الخِلاَف للشَّيخ الطُّوسي: ٦/٢١٣، جَامع المقَاصد: ١١/٢٧٨، تَذكرة الْفُقَهَاء: ٢/٥١١، الحَاوي الْكَبِير: ١٦/١٥٦، تَبيين الحقَائق: ٤/١٨٧، الميزَان الْكُبْرَىٰ: ٢/١٨٩، مُغني الْمحتَاج: ٤/٣٧٥، السِّرَاج الوهَاج: ٥٨٨، الوَجِيز: ٢/٢٣٧، كفَاية الأَخيَار: ٢/١٥٨، الشَّرح الْكَبِير: ٦/٥٧٧، المُغني: ٦/٥٧٠، الْمَجمُوع: ١٥/٥١٠.

آلنّسَاء فِي مصَالح الأُمّة»[١]. (وَ إِيَّاكَ وَ التَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ). لَكَ أنْ تَغَار عَلىٰ المْرْأة بِصيَانَتها مِن التَّبرج ومُخالطة المَشبُوهِين، أمّا الغِيرَة بِرَجم الظّنُون فإِنَّها تُشَجع المْرْأة السَّقِيمة عَلىٰ الخِيَانَة، وتُغرِي البَرِيئة بِهَا، وتَقول فِي نَفْسها: كُنت أحَرص عَلىٰ ثِقته بِأمَانتي وعفَافِي، أمّا وَقد أصْبَحت عِنده فِي مكَان الرِّيب فلَم يَبق مَا أحرص عَلَيْهِ.

(وَ اْجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ). يُشِير بهَذا إِلىٰ أنَّ الأَعْمَال يَنْبَغي أنْ توزَع عَلىٰ المْوَظّفِين، والمُسْتَخدمِين، وأنْ يُحدّد لكلِّ وَاحد مِنْهُم عَمل خَاص بِهِ يَكُون هُو المَسْئُول عَنْه وإلّا عَمَّت الفُوضىٰ، وضَاعت المَسْئُولية بَيْنَ الجَمِيع، وأحَال كلّ وَاحد التَّقْصِير والإِهْمَال عَلىٰ الآخر، وهَذَا التَّصنِيف والتَّوزِيع لِلأَعْمَال هُو المَبدأ الَّذي لَمْ تَعرفه المَدنية إلّا حَدِيثاً. ويَأتي التَّوضِيح فِي عَهد الأَشْتَر[٢].

(وَ أَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ... إلخ). تَقَدَّم مَع الشَّرح فِي آلخُطْبَة (٢٥) (اَسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَ دُنْيَاكَ، وَ آسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَ الآجِلَةِ، وَ الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ). أَخْلص في عِبَادَتك لله، وفِي مُعَاملتك مَع النَّاس، وآسْأَل التَّوفِيق مِنْهُ تَعَالىٰ لمَا فيهِ لله رضىٰ، وَلَك خَير وصَلاَح دُنْياً وآخرَة. وأَفضَل الصَّلوَات عَلىٰ مُحَمَّد وآله والأَطْهَار.

---

(١) أنظر، شَرح نَهج آلبَلاَغة: ٥٦/٣.

(٢) أنظر، عَهْدِه لِلأَشْتَرَ: آلرِّسَالَة ـ ٥٣ ـ فِقْرَة (١٨). (مِنْهُ).

الرسالة ٣٢

إلىٰ مُعَاوِيَة:

وَ أَرْدَيْتَ جِيلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَ أَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَ تَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَ نَكَصُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ، وَ تَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ، وَ عَوَّلُوا عَلَىٰ أَحْسَابِهِمْ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَ هَرَبُوا إِلَىٰ اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَىٰ الصَّعْبِ، وَ عَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ. فَٱتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَ جَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَ الْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ. وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

أَرْدَيْتَ: أَهْلَكْتَ. وجِيلًا: قَبِيلاً أو صِنْفاً. والوِجْهَة ـ بِكَسر الوَاو ـ القَصد. وَنَكَصُوا: رَجَعُوا. وَعَوَّلُوا: ٱعْتَمَدُوا. وأَحْسَابِهِمْ: جَمْع حَسَب أي شَرَف الآبَاء. وَفَاءَ: رَجَع. ومُوَازَرَتِكَ: مُعَاوَنَتك. والقِيَادَ: مَا تُقَاد بِهِ الدَّابَّة.

الإِعْرَاب:

كَثِيراً صِفَة لِلجِيل، وإِذْ ظَرف ومَحَله النَّصب بِهَرَبُوا.

المَعْنَىٰ:

كَتَبَ الإِمَام إِلىٰ مُعَاوِيَة رِسَالَة جَاء فِيها: (وَ أَرْدَيْتَ جِيلًا مِـنَ النَّـاسِ كَـثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ). النَّاس يُحبُون الْمَال، ومِنْهُ الْكَثِير فِي يَد مُعَاوِيَة يَبذلهُ لكلِّ مَن يبيع دِينَه بِدُنْيَاه، فرَاجَت سُوق مُعَاوِيَة، وكَثُرَ فِيهـا الْعَرْض والطَّلب، ورُوِينَا فِيمَا سَبق بَعْض الأَمْثِلة عَلىٰ ذَلِكَ، مِنْهَا عَن الطَّبرِي: «إنّ الحُتَات المُجَاشِعيّ وَفَد عَلىٰ مُعَاوِيَة مَع جَمَاعَة مِن الرُّؤساء، فَأمر لكلِّ وَاحد بِمِئَة أَلف، ولِلحُتَات بِسَبعِين... ولمّا عَاتَبه الحُتَات قَالَ لهُ مُعَاوِيَة: ٱشْتَرِينا مِن الْقَوْم دِينهُم. فقَال الحُتَات: وأَنَا ٱشْـترِ مِـني دِينِي. فَأَكْمَلها مُعَاوِيَة عَلىٰ المِئة، وتَمَت الصَّفْقَة»[1].

(وَ عَوَّلُوا عَلَىٰ أَحْسَابِهِمْ). مَا حَارب وَاحد مَع مُعَاوِيَة إِلّا لمَالٍ أو وَظِـيفَةٍ، أو بِدَافع مِن العَصَبِيَّة الجَاهِلِيَّة (إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ). مَوَّه مُعَاوِيَة عَلىٰ بَعْض الْمُؤمِنِين فِي بدَاية الأَمْر، ثُمَّ تَكَشفَت لَهُم الحقَائِق حِين حَاول أَنْ يَحْمَلهم عَلىٰ الإِثْمِ ومَعْصِيَة الله ورَسُوله (وَ جَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ). المُرَاد بِالشَّيْطَان الْهَوَىٰ، والمَعْنَىٰ لَقَد تَغَلّب هوَاك عَلىٰ عَقْلَك ودِينَك، فَحررّ نَفْسك مِنْهُ (فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَـنْكَ) وأَنْتَ مُفارقهَا لاَ مَحَالَة (وَ الآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ) وَفِيهَا حِسَابك وجَزَاؤك.

---

(١) أُنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ١٣٥/٦، الغَارات: ٣٩٣/٢، الإِسْتِيعَاب: ٣٩٦/١ التَّرجمة (٦٠٧)، أُسد الغَابَة: ٢٧٩/١، جَمهرة أَنسَاب الْعَرَب: ٢١٩، ابن الأَثِير: ٢٠١/٣، تَأرِيخ دمشق: ٢٧١/١٠ و ٢٧٧ و ٢٧٩، عَليّ بن أَبي طالب بَقِية النُّبوَّة، وخَاتَم الخِلاَفَة للأُستاذ عبدالكَرِيم الخَطِيب: ٤٤٤، ومَا بَعدها طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

الرسالة ٣٣

إلىٰ قُثَم بن العَبَّاس:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي ـ بِالْمَغْرِبِ ـ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَىٰ الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ الأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَ يُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَ يَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَ يَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ؛ وَ لَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَ لَا يُجْزَىٰ جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ. فَأَقِمْ عَلَىٰ مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ، وَ النَّاصِحِ اللَّبِيبِ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَ إِيَّاكَ وَ مَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَ لَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً، وَ لَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

الْعَيْن: الجَاسُوس. والْمُرَاد بِالْمَغْرِبِ هُنَا بِلاد الشَّام لِأَنَّهَا مِن الأَقَالِيم الغَرْبِية، كَمَا قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد[1]. والْمَوْسِمِ: الأَيَّام الّتِي يُقَام فِيهَا ٱلْحَجّ. والْكُمْهِ: جمع أكْمَه أي

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٦/١٣٨.

وُلد أَعْمىٰ. الدَّرّ: اللَّبَن. والصَّلِيبِ: الشَّدِيد. والبَطَر: الطُّغيَان بِسَبب الغِنَىٰ والتَّرف.

الإِعْرَاب:

أُنَاسٌ نَائِب فَاعِل لوُجه، والعُمْيِ الصُّمِّ الْكُمْهِ صِفَات لأَهْل الشَّام، ودَرَّهَا بَدَل آشْتِمَال مِن الدُّنْيَا.

الْمَعْنَىٰ:

قُثَم أخُو عَبدالله بن عَبّاس بن عبدالمُطلب جَدّ النَّبِيّ ﷺ، وكَان الإِمَام قَد وَلاَّهُ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وبَقِي عَلَيْهَا حَتَّىٰ آسْتُشْهِدَ الإِمَام. وآسْتُشْهِدَ قُثَم بِسَمرقَند فِي زَمن مُعَاوِيَة[1]، وكَان لِلإِمَام عُيُون وجوَاسِيس عَلىٰ مُعَاوِيَة، فَكَتَب إِلَيْهِ أَحَدهُم أنّ مُعَاوِيَة أرسَل دُعَاته فِي السِّر إِلىٰ مَكَّة أَيَّام ٱلحَجِّ لِيَنفثُوا السّمُوم والأكَاذِيب ضِدّ الْحَقّ وأَهْله. فَكَتَب الإِمَام إِلىٰ قُثَم هَذَا الكتَاب لِيحتَاط لِلأَمْرِ، وَيَسُد الطَّرِيق عَلىٰ الْعَدُوّ:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي ـ بِالْمَغْرِبِ ـ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي... إلخ). يُخْبر الإِمَام عَامِله عَلىٰ مَكَّة بِأنَّ مُعَاوِيَة بَعثَ إِلَيْهَا جَمَاعَة مِن أَهْل الشَّام أَضَلَهُم الشَّيطَان، لِيفتَرُوا عَلىٰ الله الْكَذِب، وهُم يَعْلمُون دَائِبِيْن فِي مَرضَاة مُعَاوِيَة بَغياً وَعدُوَاناً لله ورَسُوله (وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلا يُجْزَىٰ جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ). والْخَيْر فِي مَفْهُوم الإِمَام

(١) أُنظر، تَأرِيخ مَدِينَة دِمشق: ٤٧٢/٣٧ و ٤٩١، المُنتَخب مِن ذَيل المُذيل للطَّبري: ٣٨، ذَخَائِر الْعُقبَىٰ: ٢٣٩، الإِسْتِيعَاب: ٥٥١، طَبقات خَلِيفَة: ٤٠٤.

يُقَاس بِجَزَائِه وثَوَابه غَداً عِند الله، لاَ بِالنَّعِيم والتَّرف فِي الْحيَاة الدُّنْيَا. والشَّر يُقاس بِغَضب الله وَعَذَابه. ومِن أَقْوَاله فِي ذَلِكَ «كُلّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ»[1]. وَكُلّ شُهدَاء الإِيمَان بِالله يقَيْسُون الْخَيْر والشَّر بِهَـذا المَـبدأ، ولَوْلاَ حلاَوته مَا أَقْدمُوا عَلىٰ الْمَوْت بِقلُوب مُطْمَئِنَة، وأوْجه مُبْتَسمة.

(فَأَقِمْ عَلَىٰ مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ، وَ النَّاصِحِ اللَّبِيبِ). مِن السُّلطَة والْوِلاَيَة عَلىٰ مَكَّة ومَا يَتْبَعها، ودَافع عَنْهَا بِكُلِّ سَبِيل وبِجِـدٍّ وإِخْـلاَص، وبِهَـذا تُؤَدِّي حَقّ الله ورَسُوله وحَقّ إِمَامَك وَحَقّ الرَّعِيَّة (وَ لَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً) بَل شَاكِراً مُتوَاضِعاً (وَ لَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا) أي ضَعِيفاً مُنْكَسراً عِند الشَّدَائِد.

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الْحِكْمَة (٣٨٧).

الرسالة
-٣٤-

إِلَىٰ مُحَمَّدِ بْنَ أَبِي بَكْر:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَىٰ عَمَلِكَ، وَ إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اَسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدَ، وَ لَا اَزْدِيَاداً لَكَ فِي الْجِدِّ؛ وَ لَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَ أَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلَايَةً.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحاً، وَ عَلَىٰ عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً، فَرَحِمَهُ اللهُ! فَلَقَدِ اَسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَ لَاقَىٰ حِمَامَهُ، وَ نَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ اللهُ رِضْوَانَهُ، وَ ضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ. فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَ اَمْضِ عَلَىٰ بَصِيرَتِكَ، وَ شَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَ اَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ، وَ أَكْثِرِ الاِسْتِعَانَةَ بِاللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَ يُعِنْكَ عَلَىٰ مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللُّغَة:

مَوْجِدَتُكَ: غَضَبك. والجَهْدَ ـ بِفَتح الجِيم ـ التَّعَب والمَشَقَّة، وأيضاً الوِسع والطَّاقة، وبِضَمها الطَّاقة والقَلِيل مِن اَلرِّزق. والجِدّ ـ بِكسر الجِيم ـ الاِجْتِهَاد.

وحِمَامَهُ: مَوْتَه. وَأَصْحِرْ: أَبْرِز.

الإِعْرَاب:

ٱسْتِبْطَاءً مَفْعُول مِن أَجْله لأَفْعَلْ. وَمَئُونَةً تَمْيِيز، ومِثلها وِلاَيَة، وَنَاصِحاً صِفَة لِرَجُل، وَلَنَا مُتَعَلِّق بِنَاصِح.

الْمَعْنَىٰ:

وِلدَ مُحَمَّد بن أَبِي بَكْر قَبل وَفَاة رَسُول الله ﷺ بِبِضْعَة شهُور، وأُمّه أَسْمَاء بِنت عُمِيس الخَثْعمِيَّة، تَزوّجَها جَعْفر بن أَبِي طَالب، فَرُزق مِنْهَا أَوْلاَداً، مِنْهُم عبدالله الشَّهِير بِكَرمه، ثُمّ تزوّجَها مِن بَعْده أَبُو بَكْر، فوَلدت لهُ مُحَمَّداً، ومِن بَعد أَبِي بَكْر تزوّجَها الإِمَام، فوَلدت يَحيىٰ[1]. فَمُحَمَّد هُو ٱبن أَبِي بَكْر ورَبِيب الإِمَام، وكَان يُحبّه ويُثني عَلَيْهِ، ووَلاَّهُ مِصْر... ثُمَّ رَأىٰ أَنْ يَسْتَبدل بهِ الأَشْتَر، لِيكُون حِصناً مَنِيعاً لِمِصْر مِن مُعَاوِيَة وٱبن العَاص، فَكَتب لهُ العَهد المَشهُور، ولمَّا عَلِم مُحَمَّد بن أَبِي بَكْر بذَلِكَ عَتَب وتَألم... ودَسّ مُعَاوِيَة لِلأَشْتَر السُّم بِالعَسل قَبل أَنْ يَصل إِلىٰ مِصْر، فَبقِي مُحَمَّد وَالِياً عَلَيْهَا، وَكَتب الإِمَام لهُ هَذِه ٱلرِّسَالَة:

(أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الأَشْتَرِ إِلَىٰ عَمَلِكَ... إلخ). لمَاذا صَعُب عَلَيْكَ ٱخْتِيارِي لِلأَشْتَر؟ أَتَظُن أَنَّه أَعزَّ عَليَّ مِنْك، أو أَنِّي ٱتهمك بِالتَّقصِير

---

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٤٢/١٦، مقَاتل الطَّالبِيين: ١١، شَرح مَعَانِي الآثَار: ٤٨/١، لِسَان المِيزَان: ٥٢٢/٧، تَقرِيب التَّهذِيب: ٦٢٩/٢، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٣٩٢، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ٥٢/٢، تُحْفَة الأَحْوَذِي: ١٢٠/٧ و: ٥٢/٨.

فِي عَمَلِك .. كَلا، وَلكنّ ز ٱلحِكْمَة والمَصْلحَة قَضَت بذَلِكَ ... هَذَا، إِلىٰ أنّي مَا أَردت طَرْدَك وعَزْلك، وإنّما أَردتُ نَقْلك إِلىٰ بَلدٍ آخر يَسُرك ويُعْجِبُك، ولاَ يَجر عَلَيْكَ المتَاعِب والمَصَاعِب كمِصْر القَرِيبة مِن مُعَاوِيَة والّتي جَعْلها طُعمَة لِابْن العَاص. فَهوّن عَلَيْكَ.

(إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحاً... إلخ). وهُو الْأَشْتَر، كَان مُخْلصاً لله ولَنَا، وأَنْت كذَلِكَ يَا مُحَمَّد، ولكنَّ مُعَاوِيَة كَان يَهَاب الْأَشْتَر وَيَتحَاماه حَيْث فَعل بِهِ الأفَاعِيل فِي صِفِّين، ولَوْلا رَفع المَصَاحِف لَقضىٰ عَلَيْهِ الْأَشْتَر، ومَا آغْتَاله مُعَاوِيَة إلّا خَوْفاً مِن بَأسه وصَلابته (فَرَحِمَهُ اللهُ! فَلَقَدِ آسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَ لَاقَىٰ حِمَامَهُ... وَ ضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ). قَالَ آبن أَبي آلحَدِيد: وَلَسْتُ أَشُك بِأَنّ الْأَشْتَر بهَذه الدَّعْوَة يَغْفر الله لهُ ويُكَفر ذنُوبه، ويُدخله الجَنَّة، ولاَ فَرق عِنْدِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ دَعْوَة رَسُول الله ﷺ، يَا طُوبىٰ لِمَن حَصل له مِن عَليٍّ عليه السلام بَعْض هَذَا![1].

(فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَ آمْضِ عَلَىٰ بَصِيرَتِكَ... إلخ). آستَعد لحَرْبه، وآحْذَر مِن كَيده، وآثْبت عَلىٰ دِينَك وإِيمَانك، وحَرض عَلىٰ الجِهَاد، وآسْتَعن بالله، فإِنَّه نَاصرك وكَافِيك إنْ شَاء الله.

(١) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة: ١٤٤/١٦.

الرسالة

-٣٥-

إِلَىٰ عَبدالله بن الْعَبَّاس:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ اُفْتُتِحَتْ، وَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ قَدِ اُسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ، وَلَداً نَاصِحاً، وَ عَامِلًا كَادِحاً، وَ سَيْفاً قَاطِعاً، وَ رُكْناً دَافِعاً. وَ قَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَىٰ لَحَاقِهِ، وَ أَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْـوَقْعَةِ، وَ دَعَـوْتُهُمْ سِـرّاً وَ جَهْراً، وَ عَوْداً وَ بَدْءاً. فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً، وَ مِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَ مِـنْهُمُ الْـقَاعِدُ خَاذِلًا. أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلًا؛ فَوَاللهِ لَوْ لَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ، وَ تَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَىٰ مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَ لَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً.

اللُّغَة:

نَحْتَسِبُهُ: نَسْأل الله الأَجْر عَلىٰ الرَّزِية فِيهِ. وَبَـدْءاً ـ بِـفَتح البَـاء ـ أَوَّل الحَـال. وَعَوْداً ـ بِفَتح الْعَيْن ـ الرُّجُوع إِلىٰ الحَال السَّابقة.

الإِعْرَاب:

وَلَداً حَال أي مَوْلُوداً، وَيَجُوز إعرَابه بَدلاً مِن الهَاء فِي نَحْتَسِبُهُ، ونَاصِحاً ومَا بَعْده صِفَة لِلوَلَد، وسِرّاً مَفْعُول مُطلق أي دَعَوْتُهُم دَعْوَة السِّرّ، حَيْث كَانَتْ الدَّعْوَة بِالْقَوْل، والسِّرّ وَالجَهْر مِن صِفَاته، وكَارِهاً حَال، وَمِثله مَا بَعْده، وطَمَعِي مُبْتَدَأ والْخَبَر مَحذُوف أي طَمَعِي كَائِن.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ المَسعُودِي فِي «مرُوج الذَّهب»: فِي سَنَة ٣٨ هـ. وجّهَ مُعَاوِيَة عَمْرُو بن العَاص إِلىٰ مِصْر فِي أَرْبَعَة الآف، مِنْهُم مُعَاوِيَة بن خُدَيْج وأبُو الأعوَر السَّلمي[(١)]، فَالتَقُوا هُم وَمُحَمَّد بن أَبِي بَكْر بِالمَوضع الْمَعْرُوفِ بِالمُسْنَاة، فٱقْتَتلُوا وٱنْهَزَم مُحَمَّد بَعْد أنْ فَرَّ أَصْحَابه عَنْهُ وأَسْلمُوه لأعْدَائه، وصَار إِلىٰ مَوضع بِمِصْر وٱخْتَفىٰ فِيه، وأحُيطَ بِهِ فخَرج إِلَيْهِمْ، وَقَاتلهُم حَتَّىٰ قُتل، فَأَخذه مُعَاوِيَة بن خُدَيْج[(٢)] وعَمْرُو

(١) هُو أبُو الأعور بن سُفْيَانَ السَّلمي كمَا ذكره الطبري فِي تَأرِيخه: ٣/ ٥٧١، و: ٥/ ١١٥، والبداية والنِّهاية: ٧/ ١٩٦، ومروج الذَّهب: ٢/ ٣٨٥. وذكر ٱبن قُتَيْبَة فِي الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١/ ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٦ و ١٣٥ و ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥٢. أنّ مُعَاوِيَة جَعله عَلىٰ مُقدمة جَيْشه فِي صِفِّين. أُنظر وَقْعَة صِفِّين: ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦٧ و ١٨١ و ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٠٦ و ٢١٣ و ٢١٤ و ٢٢٦ و ٣٢٨ و ٣٢٩ و ٣٣٤ و ٣٣٧ و ٣٦٢ و ٣٩١ و ٤٨١ و ٤٩٣ و ٥٠٧ و ٥١١، والفُتوح لإبن أَعْثَمْ: ٢/ ٤٣٧، والأَخبَار الطّوال: ١٦٧ ١/ ٥٥ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٦ و ١٣٥ و ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥٢.

(٢) هُو أبُو نَعِيم مُعَاوِيَة بن خُدَيْج بن جَفنَة بن قَنبر، صحَابِي، شَهد صِفِّين فِي جَيش مُعَاوِيَة، توفي فِي مِصْر سَنَة (٥٢ هـ). أُنظر، ترجمته فِي تَهذِيب التَّهذِيب: ١٠/ ٢٠٣، المحبر: ٢٩٥، شَذرَات الذَّهب: ١/ ٥٨، الأَعْلام: ١٧١.

بن العَاص وغَيْرهما وجَعَلوه فِي جِلد حِمَار، وأَضرمُوه بِالنَّار. وقِيل: فَعَل بِهِ ذَٰلِكَ، وفيهِ شيء مِن ٱلحَيَاة[1].

وَحَزُن عَلَيْهِ عَلِيّ، وسُرَّ مُعَاوِيَة، وَقَالَ الإِمَام: جَزْعنَا عَلىٰ قَدر سرُورهُم. كَان لِي رَبِيباً، وَكُنت أَعْدَهُ وَلَداً، وكَان بِي بَراً. فَكَتب الإِمَام هَذِه ٱلرِّسَالَة لِابْن عَبَّاس يُخبره فِيها بِمَقتل مُحَمَّد بن أَبِي بَكْر، وكَان ٱبن عَبَّاس آنْذَاك عَـاملاً لِـلإِمَام عَـلىٰ الْبَصْرَة.

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ... إلخ). يَتَألم الإِمَام عَلىٰ فَقد مُحَمَّد بن أَبِي بَكْر، ويَطْلب لهُ من الله الرَّحْمَة والْمَغْفِرَة، وَلِنَفْسه الأَجْر والثَّوَاب عَلىٰ رَزِيته فيهِ، ويُؤَبْنَه مُثْنِياً عَلىٰ إِيمَانه وإِخْلاَصه، وَشجَاعته وجِهَاده (وَ قَدْكُـنْتُ حَـثَثْتُ النَّـاسَ عَـلَىٰ لَحَاقِهِ... إلخ). بِكُلّ سَبِيل عَلىٰ نُـصرَة مُحَـمَّد والجِـهَاد مَـعْه، فَـتثَاقلوا وتَـعْلَلوا بِالأَبَاطِيل والأَضَالِيل.

(أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلًا) ولَوْ بِالْمَوْت لأَسْتَرِيح مِن تَخَاذُل أَهْل الْعِرَاق ونِفَاقهُم (لَوْ لَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّـهَادَةِ). كَـان الإِمَـام يَتعجَل الشَّهَادة وَيَنتظرهَا بِفَارغ الصَّبر، ولاَ سَبِيل إِلَيْهَا إِلّا بِجِـهاد الْـفِئَةُ الْـبَاغِيَةُ

---

(١) أُنظر، مروج الذّهب للمَسعودي: ٣٩/٢، تَأرِيخ اَبن كَثِير: ٣١٤/٧، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٦/ ٥٨ ـ ٦١، الكَامِل فِي التَّأرِيخ لِابْن الأثِير: ١٥٤/٣، النّجوم الزّاهرة: ١١٠/١، تَذكرة خواصّ الأُمّة: ١١٤ طَبعَة النّجف، التّمهيد والبَيَان: ٢٠٩، الأَغَاني: ٢١ /٩، الإشْتقَاق: ٣٧١، الطَّبَرِيّ، وٱبن الأثِير، وٱبن كَثِير فِي ذِكر حوَادث سَنَة (٣٦ هـ)، الإِصَابَة حَرف المِيم: ٣ ق ٢ / ٤٥١، الاسْتِيعَاب: ٣ / ٣٢٨، الفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ١ / ٤٧٢، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ٥٥ ومَا بعدها، تَهذِيب الكَمَال: ٢٤ / ٥٤١ رَقم ٥٠٩٧، شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٣ / ١٩٠.

وقَائِدها مُعَاوِيَة، وأَقْرَب مَكَان إِلَيْهِ الْعِرَاق، ومِن أَجْل هَذَا أَقَام الإِمَام، وصَبر عَلىٰ أخْلاَق أَهْله، ولَوْلاَ رَغبَتَه فِي الشَّهادة مَا بَقِي مَعْهُم يومَاً وَاحِداً، ولاَ ٱجْتَمع بِهِمْ أَبَداً.

الرسالة
-٣٦-

إلىٰ أخيه عقيل:

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذٰلِكَ شَمَّرَ هَارِباً، وَ نَكَصَ نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، وَ قَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلَا وَ لَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّىٰ نَجَا جَرِيضاً بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ، وَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا. فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَ تَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ، وَ تَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ، وَ جِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَىٰ حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَ سَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي.

وَ أَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّىٰ أَلْقَى اللهَ؛ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَ لَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً، وَ لَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ ـ وَ لَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ ـ مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَ لَا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً، وَ لَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَ لَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَقَعِّدِ، وَ لَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ[1]:

(١) تُنْسَب هٰذِه الأَشْعَار إلىٰ صَخر بن عَمْرو السّلمي، أخي الخَنْسَاء، كما جَاء في الأغاني: ١٣١/١٣ طَبعة

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي صَبُورٌ عَلَىٰ رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَىٰ بِي كَآبَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

اللُّغَة:

طَفَّلَتِ الشَّمْسُ ـ بِتَشدِيد الفَاء ـ دَنَت لِلغُرُوب. وآبَتْ الشَّمْسُ: غَابَت. والجَرِيض: الحَزِين. المُخَنَّقِ ـ بِضم الميم وتَشدِيد النّون ـ مَوضع الخَنَّق. والرَّمَقِ: بَقِية النَّفس. وَلأْياً: مِن لأي يلأىٰ الشِّدَّة والمِحنَة. والتَّرْكَاضَ مُبَالغة فِي الرَّكض. والتَّجْوَالَ: مُبَالغة فِي الجُولاَن. والشِّقَاقِ: الخِلاَف. وجِمَاحَهُمْ: أَسْرَاعَهُم. وأَجْمَعُوا: عَزَمُوا وَصَمَمُوا. والجَوَازِي: المُكَافَآت. والمُحِلِّينَ: نَاقضِي العَهْد. والسَّلِسَ: السَّهل. والمُتَقَعِّدِ: مِن ٱقْتَعَد الدَّابَة إذَا ٱتخذَها مَرْكَباً.

الإِعْرَاب:

هَارِباً حَال، وَمِثله نَادِماً، وشَيْئَاً مَفْعُول مُطلق لاِقْتَتَلُوا، لأنَّ مَعْنَاه ٱقْتَتَلُوا قِتَالاً، وَكَلَا وَلَا الكَاف لِلتَّشبِيه بِمَعْنَىٰ مِثل، وَمَحلها النَّصب صِفَة لِشيء «وَلَا وَلَا» يُكنىٰ بِها عَن السُّرْعَة والقِلَة وَمَحلها الجَر بِإضَافة الكَاف الَّتي هِي بِمَعْنَىٰ مِثل كَمَا

⇐ السَّاسي، كتَاب اليَاقُوته مِن العقد الفَرِيد فِي العِلم والأَدَب لابن عَبد رَبّه: ١٧٦ طَبعة مِصْر، بمَطبعة الإسْتِقَامَة سَنَة ١٣٧٢ هـ و: ٣٢٢/١ الطَّبعة الثَّانِيَة، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢٠٧، المِعيار والموَازنَة: ١٨١، مَجموع المَعَانِي: ٧٢، تَاج العَروس: ٣٦٨/٨، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ٧٦/١، تَحقِيق الشِّيري، جوَاهر المطالب فِي مناقب الإِمَام عَليّ: ٣٦٦/١، الغَارات: ٤٣٦/٢، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٣٢٥/١ و: ١٢٠/٢.

قُلنَا، ولَأْياً نُصب عَلىٰ الْمَصْدَريَة، ومَا نَجَا «مَا» مَصْدَرِيَة أي عَسُرت نَجَاته، والْجَوَازِي فَاعِل جَزَتْ، وعِزَّةً تَمْيِز، ومُتَضَرِّعاً مَفْعُول ثَانٍ لِتَحْسَبَنَّ.

الْمَعْنَىٰ:

كَان مُعَاوِيَة يَشن الغَارَات بِشَيَاطِينه عَلىٰ أَطْرَاف دَولة الْإِمَام، يُفْسدُون فِي الْأَرْض بِالْقَتْلِ، والتَّشرِيدِ، والنَّهب، والسَّلب. فَكَتَب عَقِيل بن أَبِي طَالب كِتَاباً إِلىٰ الْإِمَام حَوْلَ بَعْض الْمُغِيرِين وَفَظَائِعهُم. فَأَجَابه الْإِمَام بقَوْله: (فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِباً). ضَمِير إِلَيْهِ يَعُود إِلىٰ الْمُخرب الَّذي أَغَار وأَفْسَد، وَلَمْ يُصرح الْإِمَام بٱسمه، ولاَ ذَكَره الشَّارِحُون والشَّرِيف الرَّضِي، وتُومىء عِبَارة ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد إِلىٰ أَنّه بُسْر بن أَرْطَأة، ونَقَل عَن الرَّاوندي أَنّ هَذَا الهَارب الخَائِب هُو مُعَاوِيَة، وسَخَر ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد مِن ذَلِكَ، وَقَالَ أَنّه عَجِيب ومُضْحِك! وَبْعد أَنْ نَقَل عَنْهُ تَفْسِير الْجَوَازِي وَقَالَ: «قد كَان يَجب أَنْ يُحْجَر عَلىٰ هَذَا الرَّجُل، ويُمْنَع مِن تَفْسِير النَّهج»[1]... وَمَهما يَكُن فَالْمَعْنَىٰ وَاضح، ويَتَلخَص بِأَنَّ الْإِمَام أَرْسَل لِلمُخَرب جَمَاعَة مِن الْمُجَاهِدِين، فقَاتَلُوه قَلِيلاً، ثُمّ وَلّىٰ مَذمُوماً مَخذُولاً.

(فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَ تَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ). فَقَد أَبُوا إِلّا الضَّلَال والعُدْوَان، وإِعْلَان الْحَرْب عَليّ مُنذ يَومِي الْأَوَّل تَمَاماً كَشَأنهم مَع رَسُول الله ﷺ. وتَقدَّم الكَلَام عَن ذَلِكَ[2]. (وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ). فَإِنِّي مُصمم بحَوْلَ الله

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٥٢/١٦.
(٢) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٣٣ و ١٧٢ و ٢١٧). (مِنْهُ ﷺ).

عَلَىٰ جِهَاد مَن نَكَث العَهد، ومَن مَرَق مِن الدِّين، ومَن بَغىٰ عَلىٰ الخَلق، وَعَاث فِي الأَرْض فَسَاداً، ولَنْ أتراجع مَهما كَانَتْ الظُرُوف والعوَاقب.

الإِمَام وَالنَّاس:

(لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَ لَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً). مَالِي والنَّاس كَثُرُوا أَمْ قَلّوا، أَقْبَلوا أَمْ أَدْبَرُوا؟ فإنِّي، مَا حَيِيت، لاَ أُصَانع إلّا وَجْهَاً وَاحِداً، ولاَ أَكْتَرث بِسوَاه مَا رَضي عَنّي ولَمْ يَغْضَب عَليَّ... فَبالخَالِق غِنىٰ عَن الخَلق، ولاَ غِنىٰ بِغَيرِه عَنْهُ... هَذَا هُو الدِّين اليَقِين، وَبِهِ نَطق الْقُرْآن والسُّنَّة النَّبَوِيَّة، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] أي لاَ إِيمَان لِمَن يُؤثر الْخَوْف مِن الله. وفي الآيَة: ﴿فَلَاتَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَاتَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[2]. وَلَكن الْكَثِير مِن أرْبَاب العَمائِم وَالقَلاَنس عَكَسُوا الآيَة... وقَالت لَهُم أهوَاؤهُم: لاَ تَخْشَوا الله وَاْخْشَوا النَّاس وَاْشْتَرُوا بِآيَات الله ثَمَناً قَلِيلاً. فَاْسْتجَابُوا لَهَا وأَطَاعوا.. وَصَلَّىٰ الله عَلىٰ مُحَمَّد وآله الَّذي خَاطب رَبَّه بقَوْله: «إنْ لَمْ يَكُن بِكَ عَليَّ غَضَب، فَلا أُبالِي! ولكن عَافِيتك هِي أوسَع لِي... إنِّي أَعُوذُ بنُور وَجهك، الَّذي أشرَقت بِهِ الظُّلُمَات، وصَلُح عَلَيْهِ أمْر الدُّنْيا والآخِرَة، مِن أنْ يَنزل بِي غَضَبك، أو يَحلّ عَليَّ سَخْطك... لَكَ الْعُتبىٰ حَتَّىٰ تَرضَىٰ... لاَ حَوْلَ، ولا قُوَّة، إلا بِكَ...»[3].

---

(١) ٱلتَّوْبَة: ١٣.

(٢) ٱلْمَائِدَة: ٤٤.

(٣) وَرَد هَذَا الحَدِيث لمَّا مَاتت خَدِيجَة بَعد أَبِي طَالِب كَمَا في تَأرِيخ الطَبريّ: ٢/٨١، تَأرِيخ ابن عساكر:

(وَ لَا تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ أَبِيكَ.. .إلخ). حَرِيصاً عَلَىٰ حَيَاته. كَيف وقَد طَلق الدُّنْيَا ثَلاَثاً[1]؟. إنَّه يَحْرص عَلَىٰ شَيء وَاحد فَقط، هُو جِهَاد البَاطِل، والْمَوْت عَلَىٰ الْحَق... بِهَذه الرُّوح وَحْدَها تَتَقدم الإِنْسَانِية، ويَعِيش النَّاس حَيَاة أَفْضَل. وأيّة جَدوىٰ مِن المَصَانع إذَا أُسْست عَلَىٰ الإِسْتغلاَل والضَّلاَل، وبُنِيت عَلَىٰ الْبَغْي والْعُدْوَان؟. إنّ مصَانع الأسْلحة فِي القَرن الْعِشْرِين ٱستَنزَفت خَيرَات الأَرْض والسَّمَاَء، وٱبْتَلعت أقوَات الْعِبَاد فِي شَرق الأَرْض وغَرْبِهَا، وحَوّلت أصْحَابها إلىٰ كَائِنات أَشَد ضرَاوة مِن ٱلْحَيَوان المُفْتَرِس، وأَكْثَر خُبثاً فِي الشَّرّ والْفَسَاد، وأَعْظَم تَخْرِيباً وتَقْتِيلاً وتَشرِيداً للآمِنين.

⟸ ٢٨٤/١، مَجْمَع الزّوائد: ٣/٦، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٩٨/١٤، كنز الْعُمّال: ٦٩٩/٢ ح ٥١٢٠، تَفسِير القُرطُبي: ٢١١/١٦، تَفسِير ٱبن كَثِير: ٣٠١/٣، تَأريخ ٱبن خلدون: ق٢/ج٢/ ١٠، سيرة ٱبن هُشام: ٢٨١/٢، السِّيرَة النَّبويَّة: ١٥٠/٢، سُبل الْهُدَىٰ والرَّشاد: ٤٣٩/٢، مُسْتَدرَك الْحَاكِم: ٦٢٢/٢، تَأريخ ٱبن كَثِير: ١٢٢/٣، الصّفوة لِابْن الجوزيّ: ٢١/١، الفَائق للزّمخشري: ٢١٣/٢، تَأريخ الخَمِيس: ٢٥٣/١، فتح البَاري: ١٥٣/٧، شرح شواهد المغنيّ: ١٣٦، أسنىٰ المطالب: ١١، طلبة الطّالب: ٥٤/٤، مع زِيَادَة قَوْله صلى الله عليه وآله: «يَاعمّ! مَا أُسرع مَا وجدت فقدَك...!».

وهو القَائل حِينَما وَاجه مِحنتَين بل مُصِيبتَين، الوَاحِدَة تلو الأُخرىٰ وهما مَوْت «خَدِيجَة، وعمّه أَبِي طالب» فِي سَنَة وَاحِدَة، بل قِيل الفَاصل الزمني بَيْنَ مَوْت هَذَا، وهَذِه عِدة أَيَّام، وهو العَام الَّذي سُمي بعَام الْحُزْن بَعد خرُوج بني هَاشم، والمُطلِب من الشِّعب بثمانية وعشرين يوماً ولذا قَالَ صَاحب الهمزية، كَمَا جاء فِي السِّيرَة الحَلبِية: ٣٤٦/١.

وَقَضَىٰ عمّه أبو طَالب والدّ	هـــرفِيه السّرّاء والضّرّاء
ثُمّ مَاتت خَدِيجَة ذَلِكَ العَا	م ونَالت من أحمد المنَاء

وقِيل: كَانَتْ وفَاة خَدِيجَة قَبل أَبِي طَالِب بخمس وثلاثين لَيْلَة، وقِيل: بَعده بثلاثة أيّام.

(١) يَقصد قَوْله عليه السلام كَمَا جَاء فِي ٱلْحِكْمَة: (٧٧)، من نَهْج البَلاَغَة. «يَا دُنْيَا! يَا دُنْيَا! إِلَيْكِ عَنِّي أَ بِي تَعَرّضْتِ، أَمْ إِلَيَّ تَشَوّقْتِ، لاَ حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لاَ حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاَثاً لاَ رَجْعَةَ فِيهَا».

الرسالة

-٣٧-

إلىٰ مُعَاوِيَة:

فَسُبْحَانَ اللهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَ الْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ، مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَ اطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ؛ الَّتِي هِيَ للهِ طِلْبَةٌ، وَ عَلَىٰ عِبَادِهِ حُجَّةٌ. فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَ قَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَ خَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ. وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

الطِّلْبَة: المَطْلُوبَة. والحِجَاجَ: الجِدَال.

الْمَعْنَىٰ:

(فَسُبْحَانَ اللهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ). الخِطَاب لمُعَاوِيَة. وفِيمَا سَبق نَقْلنَا عَن المُؤرخِين والبَاحثِين القُدامىٰ والجُدد ـ أنّ مُعَاوِيَة خَذَل عُثْمَانَ فِي حَيَاته، وطَلَب مِن أنْ يَجْعَله وَليّ دَمه، وإنّه بَعد أنْ تَمَّ لهُ الأَمْر تَجاهل عُثْمَانَ ودَم عُثْمَانَ، وإنّه

كَان يَستَقبل قَتَلته ويُجِيزَهُم بِالأَمْوَال[١].

وَقَد جَابَه الإِمَام مُعَاوِيَة بِهَذه الْحَقِيقَة، وَقَالَ لهُ صَرَاحةً: (إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَ خَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ). وفَسّر الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه هَذَا بِقَوْله: إنّ مُعَاوِيَة اتخذَ مِن الأَنْصَار لِعُثْمَانَ بَعد مَوْته ذَرِيعة لِجَمع النَّاس إِلىٰ غَرَضه، وَخَذَل عُثْمَانَ حِين كَان النَّصْرُ يُفِيده[٢].

وَنَقَل ابن أبِي الحَدِيد فِي شَرح هَذِه الرِّسَالَة عَن البَلاذُري مَا نَصّه بِالحَرف: «لمّا أَرسَل عُثْمَانَ إِلىٰ مُعَاوِيَة يَستَمدهُ بَعَث مُعَاوِيَة يَزِيد بن أَسد القَسري، وَقَالَ لهُ: إذَا أتَيت ذَا خُشُب فَأقمْ بهَا[٣]، ولاَ تَتجَاوزهَا، ولاَ تَقل: الشَّاهد يَرىٰ مَا لاَ يَرىٰ الغَائِب، فإنّني أنَا الشَّاهد، وأَنْت الغَائب. فأَقَام يَزِيد بِذي خُشُب حَتَّىٰ قُتل عُثْمَانَ، فاَستَقدَمه حِينئذ مُعَاوِيَة، فعَاد إِلىٰ الشَّام بِالجَيْش الَّذي كَان أَرْسَله مُعَاوِيَه مَعهُ، وإنّما صَنع ذَلِكَ ليُقتَل عُثْمَانَ فَيدعُو إِلىٰ نَفْسه»[٤]. وكلّ الشّوَاهد مِن سِيرَة مُعَاوِيَة تَنْطُق بِصحَة هَذِه الرّوَايَة.

(١) أنظر كتَاب مُعَاوِيَة لِلعَقَاد: ١٥٠ الطَّبعة الثَّالثة سَنَة ١٩٦٦م.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ٦٢/٣.

(٣) خُشُب: وَادِي عَلىٰ مَسِيرة لَيْلَة مِن المَدِينَة. أنظر، النِّهاية: ٣٢/٢.

(٤) أُنظر، أسد الغَابَة: ١٠٣/٥، تَهذِيب التَّهذيب: ١٠١/٣، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ١١٥/٥، شَرح نَهج البَلاَغَة: ١٥٤/١٦، وَقعَة صِفِّين: ٢١٠، الكَامِل لِابْن الأثِير: ١٢٣/٣.

الرسالة -٣٨-

إلىٰ مَالِك الأَشْتَر:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَىٰ الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا للهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَ ذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَىٰ الْبَرِّ وَ الْفَاجِرِ، وَ الْمُقِيمِ وَ الظَّاعِنِ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَ لَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَىٰ عَنْهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللهِ، لاَ يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَ لَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَىٰ الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَ هُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَ أَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، لَا كَلِيلُ الظُّبَةِ، وَ لَا نَابِي الضَّرِيبَةِ: فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَ لَا يُحْجِمُ، وَ لَا يُؤَخِّرُ وَ لَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَ قَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَ شِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ.

اللُّغَة:

السُّرَادِق: الخَيمَة. والْمُرَاد بِيُسْتَرَاح إِلَيْهِ هُنا يَعْمل بِهِ. وَلَا يَنْكُلُ: وَلَا يَرجع.

والرَّوْع: الخَوْف. والظُّبَةِ: حَد السَّيْف. ونَبَا السَّيْف: لَم يُؤثر فِي المَضْرُوب. والضَّرِيبَةِ: المَضْرُوب. والمُرَاد بالشَكِيمَة هُنا شدَّة البَأس.

الإعْرَاب:

أَشَدَّ صِفَة لِعَبْد، وأَخُو مَذْحِجٍ بَدَل مِن مَالِك.

المَعْنَىٰ:

كَان عَبدالله بن سَعد بن أَبِي السَّرح أَخاً لعُثْمَانَ فِي الرِّضَاعة[1]، ومِمَّنْ كَتَب الوَحي لرَسُول الله ﷺ، وكَان يُحاول أَنْ يُحرّف مَا يُملىٰ عَلَيْهِ، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ فَضَحه وَكَشف أَمره، وأَنْزل فيهِ، كَمَا فِي تَفْسِير الطَّبريّ، وغَيْره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]. فَٱرْتَد مُشركاً، ولمَّا كَان يَوْم الفَتح أَمر النَّبيّ ﷺ بِقَتله، وقَتْل ٱبن خَطل[3]، ومقَيْس بن صَبَابة[4] ولُو وُجدُوا تَحت أَسْتَار الكَعْبَة.

---

(١) تَقَدَّمت تَرجمته.

(٢) ٱلأَنعَام: ٩٣.

(٣) ٱسمه عبدالله بن خَطل أو عَبدالعزىٰ، رَجُل من بَني تَيم بن غَالب، وإنَّمَا أَمر بِقتله لأنّه كَان مُسلماً فَبعثه ﷺ مصدقاً، وبَعث مَعه رَجُلاً مِن الأَنصار، وكَان معه يَخدمه مُسلماً. فَنَزل مَنزلاً وأَمر المَوْلَىٰ أَنْ يَذبح لَهُ تَيساً فَيصنع لَهُ طَعَاماً، فنَام فَٱسْتيقظ ولَمْ يَصنع لَهُ شَيْئاً. فغدا عَلَيْهِ فَقَتله ثُمّ ٱرْتد فَهدر دَمه ﷺ ولَو وُجد مُتَعلّقاً

فَغيبَ عُثْمَانَ أخَاه مِن الرِّضَاعة، ثُمَّ طَلَب لهُ الأَمَان مِن رَسُول الله ﷺ فَأعرَض عَنْهُ، فكَرر عُثْمَانَ الطَّلب ثَلاَث مَرّات، فَصمتَّ رَسُول الله ﷺ طويلاً. ثُمَّ قَالَ النَّبيّ: نَعم. وكَان آبن أبِي السَّرح حَاضراً مَع عُثْمَانَ. فَلمَا آنْصَرف عُثْمَانَ قَـالَ النَّـبيّ لِمَـن حَوْلَه: مَا صَمَتُّ «أوّلاً وثَانياً» إلاّ لِيقوم إلَيْهِ بَعْضكُم فيضْرِب عُنقه. فَقَال رَجُـل مِن الأَنْصَار: فَهلاَّ أَوْمَأت إليّ يَارَسُول الله؟ فَقَال: أنَّ النَّبيّ لاَ يَنْبَغي أنْ يَكُون لهُ خَائِنَة الأَعْيُنِ(١).

↩ بأستَار الكَعْبَة. أنظر، السِّيرَة النَّبويّة لِابْن هُشَام: ٥٤٤/٣، تَارِيخ دمشق: ٤١١/٥، تَفْسِير الثَّعالبي: ٣١٨/٤، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٥٢/٢، تَارِيخ الطَّبَرِي: ٣٣٦/٢، البداية والنِّهاية: ٣٣٤/٤، تَارِيخ اليَعقوبي: ٦٠/٢، شَرح نَهْج آلبَلاَغة لِابْن أبِي آلحَدِيد: ٢٧٦/١٧ و: ١٥/١٨، صَحِيح البُخاريّ: ٢١٦/٢، صَحِيح مُسْلِم: ١١١/٤، سُنن التِّرمِذي: ١١٩/٣، كَنز العُمّال: ٥٢١/١٠، مِيزان الإعْتِدَال: ٥٠/١ ح ١٥٥.

(٤) هو مَقيس بن صَبابة بن حَزن بن يَسار الكناني القُرَشيّ، شَاعر، آشتهر فِي الجَاهِلِيّة. عِداده فِي أخواله بَني سَهم. وكَانَتْ إقامته بِمَكَّة. قَدم مِن مَكَّة مُسلماً فِيها يَظهر، فقَال: يَا رَسُول الله ﷺ، جِئتك مُسلماً، وجِئتك أطلب دِية أخِي قُتل خَطأً. فَأمر لهُ رَسُول الله بِدِية أخيه هُشام. فأقَام عِند رَسُول الله ﷺ غَيْر كَثير، ثُمّ عَدا عَلىٰ قَاتل أخِيه فَقتله، وخَرج إلىٰ مَكَّة مُرتداً.

أنظر، مُسْنَد أبِي يَعلىٰ: ١٠٠/٢، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٢٧٢/٤، تَفْسِير مَجْمَع البَيَان: ١٥٩/٣، زَاد المَسِير لِابْن الجوزي: ١٧٣/٢، تَفْسِير الجَلالين: ٢٦٦، الإصَابَة: ٤٧٧/٢، فَتح القدِير: ٥٠١/١، تَارِيخ دمشق: ٣١/٢٩، أُسد الغَابَة: ٥/٤، الأعْلاَم للزّركلي: ٢٨٣/٧.

(١) أُنظر، السِّيرَة لِابْن هُشَام، والإسْتِيعَاب لِابْـن عَـبدالبر. (مِنه ﷺ). وسُـنَن أبِي دَاود: ٢٢٠/٢، أنْسَـاب الأَشْرَاف: ٤٩/٥، مُسْتَدرَك الحَـاكِم: ١٠٠/٣، الإسْتِيعَاب: ٣٨١/١ و: ٩١٨/٣، الإسْـتِيعَاب بِهَـامش الإصَابَة: ٣٧٠/٢، تَفْسِير القُرطُبي: ٤٠/٧ و ٣٠٣/١٥، أُسد الغَابَة: ١٧٣/٣، الإصَابَة: ٣١٧/٢، تَفْسِير الشَّوكاني: ١٣٤/٢، الدُّر المَنثور: ٢٨٢/٧، عُيُون الأثَر لِابْن سيّد النَّاس: ١٩٥/٢، الأحَادِيث المُخْتَارة: ٢٤٩/٣، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٢٠٥/٨ ح ١٦٦٥٦، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٣٠٢/٢ ح ٣٥٣٠، سُنَن النَّسائي: ١٠٦/٧، مُعتصر المُختصر: ٢١٩/١، نَوادر الأُصـول فِي أحَـادِيث الرَّسُـول: ١٢٢/١، تَهـذِيب الأسْمَاء: ٢٥٤/١ رقم «٣٠٢».

وَحِين ٱنْتَهت الخِلاَفَة لعُثْمَانَ ولىّٰ ٱبن أَبِي السَّرح مِصْر فَأفْسَدَ وظَلَم، فثَار جَمَاعَة مِن المِصْريين، وطَالبوا أنْ يَسْتَبدلهُ بأَمِين عَلىٰ الْعَدْل والدِّين وحقُوق الْمُسْلِمِين وبهَذا نَجد تَفْسِير قَوْل الإِمَام عَن أَهْل مِصْر: (الَّذِينَ غَضِبُوا للهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَ ذُهِبَ بِحَقِّهِ... إلخ). والْمُرَاد بِالعَاصِي المُقِيم عَلىٰ الْمُنْكَر والظَّاعِن عَن الْمَعْرُوفِ هُو عَامِل عُثْمَانَ أي ٱبن أَبِي السَّرح الَّذي كَان السَّبب فِي ثَورة المِصْريين عَلىٰ الخَلِيفَة الْمَقْتُول.

(فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ ـ يَا أَهْل مِصْر ـ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللهِ، لاَ يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ). وهُو مَالِك الأَشْتَر الْمَعْرُوف بِحَزمه وشَجَاعته، وقُوَّتِه فِي دِينَه وإِيمَانه، وإخْلاَصه فِي أَقْوَاله وأفْعَاله، ورَجَاحة عَقْله وحُسن تَدبِيره (فَاسْمَعُوا لَهُ وَ أَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ). قَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: «هَذَا لَقب خَالد بن الوَلِيد، وٱخْتلُف فِيمَن لَقبه بِهِ، فَقِيل: لَقبه بِهِ رَسُول الله ﷺ، والصَّحِيح أنّه لَقبه بِهِ أَبُو بَكْر لِقتَاله أَهْل الرِّدَّة، وَقَتْله مُسيلَمة»[1]. ويُؤَيد مَا صَححَه ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد قَول المُؤرخِين، وَمْنُهم ٱبن الأَثِير فِي المُجلد الثَّانِي مِن «الكَامِل»: إنَّ خَالِداً لَمّا قتْل مَالِك ٱبن نويرَة، وتَزَوج ٱمْرَأَتَهُ غَضَب عُمَرَ، وَقَالَ لِخَالد: قَتلت مُسلماً، ثُم نَزَوت عَلىٰ ٱمْرَأَتَهُ! والله لأرْجُمنَك. وأَلح عَلىٰ أَبِي بَكْر أنْ يقيد خَالداً بِمَالِك. فقَال أَبُو بَكْر: تَأول خَالد فَأخطأ، ولاَ أَغْمد سَيْفاً سَلّه الله عَلىٰ الْكَافِرين. وإذَنْ فَسبب التَّسمِية قِتَاله لأَهْل الرِّدَّة بَعد رَسُول الله ﷺ[2].

---

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٥٨/١٦.

(٢) أُنظر، تَأريخ اليَعقوبي: ١١٠/٢، تَأريخ أَبِي الفدَاء: ١٥٨/١، تَأريخ الطَّبَري: ٢٨٠/٣، الإصَابَة: ٣٣٦/٣،

⟺

↔ كنز العُمّال: ١٣٢/٣ الطَّبعة الأُولىٰ: وفيات الأَعْيَان: ٦٦/٥، فوَات الوفيات: ٦٢٧/٢، تأريخ ٱبن شَحنة بهامش الكَامِل: ١١٤/١١.

أمّا ٱرتدَاد مَالِك بن نويرة بن جَمرة بن شدّاد التّميميّ اليَربُوعيّ، كمَا يدعُون فهُو لَيْسَ بِٱرتدَاد بِالمَعْنىٰ اللّغوي ـ أرجَعه، صَرفه عنهُ ـ ولاَ هُو بِالمَعْنىٰ الاصْطلاحِي: الارْجَاع عَن الدِّين وصَرف المُسْلِمِين عَن الإِسْلاَم. حَتَّىٰ يَستحق القَتْل طِبقاً للنصّ الشّرعي هَذَا أوّلاً.

وثَانِياً: لقَد أفتىٰ الفُقهَاء سُنّة وشيعَة بِأنّ المُرتد يُمهَل ثَلاثة أيّام للمُنَاقشَة فِيما إذَا ٱلتبس عَلَيْهِ مِن أمر الدِّين وطُروء الشُّبهَات. أنظر كتَاب المَبسوط للسَّرخسي: ٩٨/١٠.

قَالَ الإِمَام مَالِك: ثَلاثَة أيّام بِليَالِيها مِن يَوْم الثّبوت لاَ مِن يَوْم الكُفر بِلا جُوع ولاَ عَطش، بَل يُطعَم ويُسقىٰ ولاَ يُعَاقب خِلال هَذِه المُدة. أنظر، الشّرح الكَبِير للدّرديريّ: ٢٧٠/٤.

وَقَالَ الإِمَام الشّافعيّ بوجُوب الاسْتتَابَة؛ لأنّه كَان مُحترَماً بالإِسْلاَم. أنظر، حَاشِية البجيرمي عَلىٰ شَرح المَنهج بَاب الرِّدَّة.

وَقَالَ الإِمَام أحمد بن حَنبل بوجُوب البلُوغ والعَقْل وكَان الكُفر بقوله وعَمله لاَ بِالاحْتمَال مِن تِسع وتِسعِين وَجْهاً ويُحتمل الإِيمَان مِن وَجهٍ وَاحد. أنظر، كَشف القنَاع عَلىٰ مَتن الأقنَاع: ١٠٠/٤، حَاشية رَدّ المحتار عَلىٰ الدُّر المُختَار لِابْن عَابدِين: ٢٨٣.

وَقَالَ عُمَرَ لأَبِي بَكر: عَلاَمَ تُقَاتل النَّاس وقَد قَالَ رَسُول الله ﷺ: أُمرت أنْ أُقاتل النّاس حَتّىٰ يَشْهدُوا أنْ لاَ إله إلاّ الله وأنَّ مُحَمّداً رَسُول الله... أنظر، البداية والنّهاية: ٣٤٣/٦، الأَحْكَام السُّلطانية للمَاوردي، طَبعة مِصْر الأُولىٰ: ١٧٤.

والسّؤال الّذي يَطرح نَفسه عَلىٰ المُنصفِين والعُلَماء الخيّرين أصْحَاب الكَلاَم والفِقه والدِّين والتحقِيق والنّظر والدّرايَة، أهَذِه الأسَالِيب الّتي ذَكرُوها أُتبعت مَع مَالِك ٱبن نوِيرة عَلىٰ فَرض أنّه ٱرتَد؟ أم أنّ عَدم مُبَايعته لأبِي بَكر هِي الّتي أدَت إلىٰ قَتله؟ أمْ أنّ الحِقد الدّفِين عَلَيْهِ فِي قَلب خَالد بن الوَليد هُو الّذي أدىٰ إلىٰ قَتله؟ أمْ أنّ الطَّمع فِي زَوجته لِجمَالها ورجَاحة عَقلها هُو الّذي دَفع خَالد ٱبن الوَليد إلىٰ قَتله؟ أمْ حَقاً أنّه لَمْ يَدفع الصّدقَات إلىٰ أبِي بَكر؛ لأنّه أُستعمَل عَلايَة مِن قبل النّبيّ ﷺ، ولذَا لَمْ يَدفَعها إلاّ اصَاحِبهَا الشّرعِي من بَعْدَه ﷺ؟ ثُمّ لِماذا يُدَاهمهُم لَيلاً؟ ويُروعهُم تَحت جُنح اللّيل، وأَخَذ القوم سِلاحهُم تهيُّؤاً لِلقتَال، فقَال الرّاوي: فقُلنا لهُم: نَحْنُ مُسْلمُون، قَالُوا: فَمَا بَال السّلاح مَعَكُمْ؟ قُلنا: فإنْ كُنْتم كمَا تَقُولون فَضَعوا السّلاح. ↔

⇐ قَالَ الرّاوي: فوَضعُوها ـ أي أسْلحتهُم ـ ثُمّ صَلّينا وصَلّوا مَعْنا. أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٣/٢ (بتصرف).
أَفبَعد هَذَا كلّه مِن الحوَار الّذِي يُدلل عَلىٰ أنّهم مِن المُسْلمِين وأنّهم يُؤدُّونَ الصَّلاة بإمَامَة قَائِدهم يَبدأ الْغَدْر الجَاهِليّ ويَقْطعُون عَلِيهم صَلاتهم ويَربطُونهُم وَيَأخذُونهُم أُسارىٰ لخَالد بن الوَليد سَيف الله المَسْلول ـ كمَا تَقُولون ـ عَلىٰ خَبرٍ بَلغه أنّ مَالِكاً قَد ٱرْتد؟ ثُمّ يَقول مَالِك بن نوِيرة لخَالد بن الوَليد: أنَا عَلىٰ الإِسْلاَم مَاغيّرت ومَابَدلت، وشَهد لهُ بِذَلك أبو قتَادة أخُو بَنِي سَلمة الأنْصَاريّ الّذي شَهد أُحد مَع رَسُول الله ﷺ وكَان يُقَال لهُ فَارس رَسُول الله ﷺ. أُنظر، ترجمته فِي الإِصَابَة: ١٥٧/٤، الإسْتِيعَاب: ١٦١/٤، جَمهرة أَنْسَاب الْعَرَب: ٣٦٠.
وشَهد لهُ أيضاً عَبد الله بن عُمَرَ بن الخَطَّاب، لكنّ سَيف الله قَدَمه وأَمر ضرَار بن الأَزوَر الأسديّ ـ الّذي بَعثه خَالد بن الوَليد سَابقاً فِي سَرِيَّة أغَارت عَلىٰ حِيّ بَنِي أَسد وأَخَذ ٱمْرَأة جَمِيلة مِنْهُم فَوطئها، ثُمّ نَدم، لكنّ خَالد بن الوَليد سَيف الله طِيبها لهُ فَلم يَقبل وأَمره أنْ يَكتب إِلىٰ عُمَرَ ٱبن الخَطَّاب فِيهِ كتَاباً، فكَتب عُمَرَ بن الخَطَّاب أرْضَخه بِالحجَارة لكنّه مَات قَبل وصُول الكتَاب، وقِيل: إنّه شَرب الخَمر مَع أَبِي جُنْدب ـ أنْ يَضْرِب عُنقه فضَرَبه، أُنظر، ترجمته فِي الإِصَابَة: ٢٠٠/٢، الإِسْتِيعَاب: ٢٠٣/٢.
ثُمّ قَبض خَالد بن الوَليد عَلىٰ ٱمرَأته ـ زوّج مَالِك بن نويرة ـ أُمّ تَمِيم فَتزوجها، أُنظر، القِصّة فِي كَنْز الْعُمَّال: ١٣٢/٣. وزَاد اليَعقوبِيّ: ١١٠/٢. «... فَلمّا رَآها أَعْجَبته فقَال: والله مَانلت مَا فِي مثَابتك حَتّىٰ أَقتلك».
وفِي تَأرِيخ أَبِي الفدَاء: «إنّ أَبَا قتادة، وعَبدالله بن عُمَرَ بن الخَطَّاب، كلّمَا خَالداً فِي أَمْر مَالِك لكنّه كَره كَلامهمَا... وَقَالَ مَالِك لخَالد: ٱبعثنَا إِلىٰ أَبِي بَكر فَيكُون هُو الّذي يَحْكُم فِينَا، لكنّ خَالد بن الوَليد أَبىٰ وَقَالَ: لاَ أَقَالني الله إِنْ أَقْلتك... فَٱلتفت مَالِك إِلىٰ زوّجته وَقَالَ لخَالد بن الوليد: هَذِه الّتِي قَتَلتني... فقَال خَالد بن الوَليد: بل الله قَتلك برجُوعك عَن الإِسْلام فقَال مَالِك: أنَا عَلىٰ الإِسْلام...». أُنظر، تَأرِيخ أَبِي الفدَاء: ١٥٨، وفيَات الأَعْيَان: ٦٦/٥، تَأرِيخ ٱبن شحنة: ١١٤، من هامش الكَامِل: ١١، فوَات الوفيات: ٦٢٧/٢.
وفِي الإِصَابَة: «...قَالَ مَالك لامرَأته: قَتلتِنِي ـ يَعْنِي سَأُقتل مِن أَجْلِكِ» وزَاد «... أَمَر خَالد ٱبن الوَليد برَأسه فَنُصب أُثفيه الحَجر يُوضع عَلىٰ النّار ـ فَنَضج مَا فِيها قَبل أنْ يَخلص النّار إِلىٰ شنون رَأْسه» لأنّه كَان رَحمه الله كَثِير الشَعر فِي رَأسه. أُنظر، الإِصَابَة: ٣٣٧/٣، تَأرِيخ الطّبريّ: ٥٠٣/٢، ٱبن كَثِير: ٣٢٢/٦، ⇐

↔ تَأريخ أبِي الفداء: ١٥٨، شَرح النَّهج لِابْن أبِي ٱلحَدِيد ١٧٦، تَرجمته فِي فوات الوفيات: ٢/٦٢٧.
وفِي تَأرِيخ اليَعقوبِيّ: ٢/١١٠.«أنّ خَالداً تزوّج أُمّ تَمِيم بنت المِنْهَال ـ زوّج مَالِك ـ فِي تِلك اللّيْلَة».
وهُنا يَأتِي التَأويل والتّخْطئة مِن قِبل أبِي بَكر فَيترك كلّ النّصوص الشّرْعِيّة مِن الْقُرآن والسُّنَّة المُطَهرة ويَأخذ بِقول خَالد بن الوَليد بِأنّه تَأول وأصَاب وأخْطأ، وعِندما طَلب منهُ عُمَرَ ابن الخَطّاب رَجْمه قَالَ أبُوبَكْر: مَا كُنت أغْمد سِيفاً سَلّه الله عليهم. أنظر، الإِصَابَة: ٣/٣٤٠، الإسْتِيعَاب: ٣/٤٨٨، كَنْز العُمّال: ٣/١٢٣ ح ٢٢٨.
الله أكْبَر كَبِيرا! كَيف يَحل قَتل رَجُل يَتشهد الشَهادتِين؟ والفُقهاء لاَ يُجوزُون تَكفِير أهْل القِبلة فَكيف بِسَفك الدِّمَاء الّتِي شَدد الشَارع الحَكِيم عَلَيْهَا كَثِيراً؟ وَكَيف ولِمَ تُنصب رُؤوسهم عَلىٰ القدُور بَعد الـقَتْل؟ وكَيف يَنزو عَلىٰ آمرَأة وهِي لَمْ تَمضِ بَعدُ عِدتها؟ وكَيف تُعطل حدُود الله؟ وكَيف...وكيف...؟

الرسالة
-٣٩-

إلىٰ آبن العاص:

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا آمْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَ يُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَآتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَ طَلَبْتَ فَضْلَهُ، آتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ، وَ يَنْتَظِرُ مَا يُلْقَىٰ إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَ آخِرَتَكَ! وَ لَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِّي اللهُ مِنْكَ وَ مِنِ آبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَ إِنْ تُعْجِزَا وَ تَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

يَشِينُ: يُعِيب. وَيُسَفِّهُ: يَنْسِبهُ إِلىٰ السَّفَه. وبِخِلْطَتِهِ: بِلَغْوه. وَالضِّرْغَامِ: الأَسَد. والمَخَالِب: الأَظْفَار.

الإِعْرَاب:

غَيُّهُ فَاعِل ظَاهِرٍ، وسِتْرُهُ نَائِب فَاعِل لِمَهْتُوكٍ، وآتِّبَاعَ مَفْعُول مُطلق لاِتَّبَعْتَ.

الْمَعْنَىٰ:

(فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا ٱمْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ). الخِطَاب لِابْنِ العَاص الَّذي بَاع بِولاَيَة مِصْر[1]، والْمَرْء الَّذي ظَهر ضَلاَله، وٱفْتَضحت أحْوَاله هُو مُعَاوِيَة.. وروىٰ الْعَقَّاد فِي آخر كتَاب عُثْمَانَ: «أنَّ أبَا سُفْيَانَ دَخل علىٰ عُثْمَانَ حِين صَارت إِلَيْهِ الخِلاَفَة، وَقَالَ لهُ: «قَد صَارت إِلَيْك بَعْد تَيْم وعَديّ ـ أي أبِي بَكْر وعُمَرَ ـ فأدْرهَا كَالكرَة، وٱجْعل أوتَاها بَنِي أُمَيَّة، فإنَّما هُو المُلك، ولاَ أدرِي مَا جَنَّة ولاَ نَار»[2].

وَأخذَ مُعَاوِيَة بِمَبدأ أَبِيه «إنَّمَا هُو المُلك» وفِي ذَلِكَ يَقول الْعَقَّاد فِي آخر كتَاب مُعَاوِيَة: «أراد مُعَاوِيَة المُلك لهُ وَلِبَنِيه... وَعَرف النَّاس فِي زَمَانه الفَرق بَيْنَ الْوَالِي الَّذي يَتَّخِذ الحُكْم خِدْمَة لِلرَّعِيَّة، وأمَانة لِلخَلق والخَالِق، وبَيْنَ الحُكْم الَّذي يُحَاط بِالأُبَّهَة وَيجري عَلىٰ سُنَّة المُسَاوَاة، وَيَملي لصَاحِبه في البَذخ والمُتْعَة... وكَان الرَّجُل مِن النُّصحَاء يَدْخُل عَلَيْهِ كَأنَّمَا يَبكتَه فَيُسلم عَلَيْهِ بِالمُلك، ولاَ يُسلم عَلَيْهِ بِالخِلاَفَة»[3].

---

(١) تَقَدمت تَرجَمته، وأُنظر، جَمهرة أَنْسَاب الْعَرَب لاِبْن حَزم: ١٥٤، وطَبقَات ٱبن سعد: ٧/ق ٢ /١٨٨، المعارف لاِبْن قُتَيْبَة: ٢٨٥، أسد الغَابَة: ٤ / ٤٢٠، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٢ / ٢٣٢، البداية والنِّهَايَة: ٢٧٥/٤، شَرح النَّهج لاِبْن أبِي ٱلحَدِيد: ١ / ٢٠ و٨ / ٥٣، مقاتل الطَّالبِين: ٤٤، الإرْشَاد: ١ / ١٨ ـ ٢٢.

(٢) أُنظر، الاِسْتِيعَاب: ١٦٧٩/٤، والمَطبُوع بِهَامش الإِصَابَة: ٨٧/٤، شَرح الأَخْبَار: ٥٢٨/٢، مَنَاقب أَهْل البَيْت لحِيدر الشِّيرواني: ٤٠٧، النِّزاع والتَّخاصم: ٦٠، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٤٥/٢ و: ٥٣/٩ و: ١٧٥/١٥، التَّذكرة الحَمدُونية: ١٧١/٩ ح ٣٨٠، النَّصائح الكَافية: ١١٠، الكُنىٰ والأَلقَاب: ٨٦/١، تَأرِيخ الطَّبَري: ٣٥٧/١١ ولكنْ بلفظ: «تَلقفُوها تَلقف الكُرة» مروج الذَّهب: ٤٠٧/٦، تقوية الإِيمَان: ١٩٧، تَأرِيخ ٱبن عساكر: ٤٠٧/٦.

(٣) أُنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة ٱبن أَبِي سُفْيَانَ: ١٣٤ طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهلال.

وَتتَابع عَلَيْهِ فِي أيّامه الأُولىٰ مَن يَقول لهُ: «السّلام عَليكَ أيُّها المَلك.... يَقول: نَعْم أنَا أَوّل المُلُوك! وَتبعته فِيما شَجر بَعْده مِن خِلاف توَازن تَبعته فِي هَذَا الخرُوج بِولاَيَة الأَمْر مِن وَرَع الخِلاَفَة إلىٰ أُبَّهَة الهَرَقْليَّة، والكِسْرَوِيَّة»[1].

(يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَ يُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ). ومِن ذَلِكَ إعْلاَنه سَبَّ الإمَام وجَعْله سُنَّةً يَنْشَأ عَلَيْهَا الصَّغِير، ويُشِيب الكَبِير[2]. (فأذهبت دُنْيَاكَ وآخرتك). المُرَاد بدُنْيَاكَ مَا قَدر الله سُبْحَانَهُ لِابْن العَاص مِن رزقه الحَلاَل، ولكنَّه رَفض هَذَا الرِّزْق الطَّيِّب، وآثَر عَلَيْهِ رِزق الخَبِيث المُحرَم، فَخَسَر دُنيا الحَلال، والنَّجاة فِي الآخِرَةِ (وَ لَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ). إنَّك تَطْلب الْعِزَّة والمكَانَة، وهِي فِي مُتنَاول يَدك، وَمَا عَلَيْكَ إلاّ أنْ تَتقِي الله، وتُنَاصر الحَقّ وَتعْمَل بِهِ. ومِن اعتَزَ بِغَير الحَقّ فهُو ذَلِيل، ولاَ عِزَّ أعزّ مِن التَّقْوىٰ، ولاَكَنز أَغْنَىٰ مِن القَنَاعَة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. أو يَعْملُون وَلكنّهم آثَرُوا طَاعَة الشَّيْطَان مِن دُونَ الله وَلياً.

(فَإنْ يُمَكِّنِّي اللهُ مِنْكَ وَ مِنِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا). قَالَ ابن أَبِي الحَدِيد: «وفِي غَالب ظَنِّي أنّ الإمَام لَو ظَفَرَ بِهما لَمْ يَقْتلهُما، لأنَّه كَرِيم حَلِيم، ولكنْ

---

(١) أنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة ابن أبِي سُفيَان: ١٣٥ طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلال.

(٢) تَقَدّم إستخرَاج مَن أسّس سبّ، ولَعن الإمَام عَليّ عليه السلام عَلىٰ منَابر المُسْلِمين. أنظر عَلىٰ سَبِيل المثَال، مروج الذَّهب: ٢/٧٢، كَشف الخفَاء: ١/١١، شوَاهد التّنزيل: ٢/٤٥٩، فرَائد السّمطِين: ١ ب ٣١ ح ١١٧/١٥٥ طَبعَة بَيرُوت، تَأريخ دمشق: ٢/٣٤٨ و٤٤٢ و٤٤٣ ح ٨٥١ الطّبعة الثَّانِيَة ح ٩٥٩، لِسَان المِيزان: ١/١٧٥، أنسَاب الأشْرَاف: ٢/١٠٣ و١١٣، مُسْنَد أحْمَد بن حَنبل: ح ٤٦/٧٢ طَبعَة قُم.

(٣) المُنَافِقُونَ: ٨.

يَحْبسهُما كَانَ يَحْسم بِحَبْسهُما مَادَّة فَسَادهُما»[1]. وَلَيْسَ مِن شَكٍّ أَنّ الإِمَام يَعْفُو وَيَصْفَح عَن حَقّه المُخْتَص بِهِ أيّاً كَان، فَلَقد أوصىٰ بِقَاتله خَيراً، وَقَالَ لأهْله: «أَطِيبُوا طَعَامه، وأَلِينُوا فرَاشه، وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»[2]. أمَّا حَقّ الله والنَّاس فَلا هوَادة فيهِ لأحدٍ عِند الإِمَام ولاَ شَفِيع (وَإِنْ تُعْجِزَا و تَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا) أي إنْ عَجَزت عَنْكُمَا فإنَّ مَصِيرَكُما إلىٰ النَّار، وَعَدها الله لكلٍّ فَاجرٍ كَافرٍ.

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١٦/١٦٠.

(٢) تَقدَّم ٱستخرَاج ذٰلِكَ.

الرسالة ٤٠

إِلىٰ بَعْضِ عُمَّالِهِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَ عَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَ أَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ.

بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَ أَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَ اعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَ السَّلَامُ.

الْمَعْنَىٰ:

لَمْ يَذكر بَعْض الشَّارِحِين هَذِهِ ٱلْرِّسَالَة، أو يُشر إِلَيْهَا، والشَّرِيف الرَّضِي قَالَ: إِلىٰ بَعْض عُمَّالِهِ، وابن أبِي ٱلْحَدِيد ٱكْتَفَىٰ بِنَقل طَرف مِن الأَقوَال والنَّوَادر عَن الْوُلَاة والْقُضَاة، مِنْهَا أنَّ رَجُلاً أَهدىٰ إِلىٰ ٱلْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ سِرَاجاً مِن شَبه، وأَهدَىٰ آخر إِلَيْهِ بَغْلاً، ثُمَّ ٱتَفَقت لَهُما خصُومَة فِي أمْرٍ فتَرَافعا إِلَيْهِ، فَجعَل صَاحب السِّرَاج يَقُول: إِنَّ أَمْري أَضْوَأ مِن السِّرَاج، فَلما أَكْثَر قَالَ لهُ الْمُغِيرَةَ: إِنَّ البَغل يَرمَح السِّرَاج

فَيَكْسِرَه[1].

وَقَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «أنَّ العَامل المَقصود بِهَذه ٱلرِّسَالَة هُو نَـفْس العَـامل الَّذي عَنَاه الإِمَام بِٱلرِّسَالَة التَّالِية بِلا فَاصل أي عَبد الله بن عَبَّاس كـمَا يَأتِي[2] (وَ أَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ) أي أَفْسَدتها، والْمَعْنَىٰ كُنت عِنْدَنَا أَمِيناً، وصِرت الآن خَـائِناً لاَ نَأتمنك عَلىٰ شَيء (بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَـدَمَيْكَ) جَـعلتَها خَالِية بَعْد أنْ أخَذت مَا فِي بَيْت المَال، أو أَكَلت خَيراتها وَجعلتَها خَرابَاً يَباباً تَمَاماً كَمَا يَفْعل الجرَاد.

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٦/١٦٥.

(٢) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٣/٦٤.

الرسالة ٤١

- ٤١ -

قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَ جَعَلْتُكَ شِعَارِي وَ بِطَانَتِي، وَ لَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَ مُوَازَرَتِي وَ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَ الْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَ أَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ وَ شَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَ خَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَ خُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَ لَا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ[1]. وَ كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَ كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَ كَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَ تَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ، وَ عَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ، وَ اخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَ أَيْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا ـ لِغَيْرِكَ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَ أُمِّكَ، فَسُبْحَانَ اللهِ! أَ مَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَ وَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ[2]!

اللُّغَة:

الشِّعَار: الثَّوْب المُلتَصق بِالجِسْم. وَبِطَانَتِي: خَاصَّتِي. والمُوَاسَاة: التَّسوِية بِالنَّفس. وَالمُوَازَرَة: المُنَاصَرَة. وكَلِبَ الزَّمَان: ٱشْتَد. وَحَرِبَ الْعَدُوّ ـ بِكسر الرَّاء ـ ٱسْتَأسد. وفَنَكَتْ: كَذِبَت. وشَغَرَتْ: خُليّتْ. والمِجَنّ: التُّرْس. وآسَيْتَ: سَاعَدتَ. وغِرَّتَهُمْ: غَفْلَتهُم. والشِّدَّةُ: الْقُدْرَة. والذِّئْبِ الأَزَلّ: سَرِيع العَدْو. والْكَسِيرَةَ: مَكْسُورَة يَدَها أو رِجْلَها. وغَيْرَ مُتَأَثِّمٍ: غَيْرَ مُبَالٍ بِٱقْتِرَاف الذُّنُوب والآثَام. وحَدَرْتَ: أَسْرَعتَ.

الإِعْرَاب:

ٱبْنَ عَمِّكَ مَفْعُول آسَيْتَ، ورَحِيبَ حَال مِن تَاء المُخَاطب فِي حَمْلتِه، وكذَلِكَ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ، وَلاَ أَبَا «لاَ» نَافية لِلجِنْس، وأَبَا ٱسمهَا، أُشْبِعت الفَتحة فصَارت أَلفاً ولِغَيْرِكَ خَبَر، ويُقَال هَذَا لِلتَّوبِيخ مَع التَّحامِي مِن الدُّعَاء عَلىٰ المُخَاطب.

المَعْنَىٰ:

أَكْثَر البَاحثِين أو الْكَثِير مِنْهُم قَالُوا: إنّ هَذِه ٱلرِّسَالَة كَتَبها الإِمَام لِابْن عَمِّه عَبد الله ٱبن عَبَّاس، وكَان قَد ٱخْتَاره لوِلاَيَة الْبَصْرَة، ولمّا ٱغْتَصبَ مُعَاوِيَة مِصْر، وَقَتْل عَامِلها مُحَمَّد بن أَبِي بَكْر خَشي ٱبن عَبَّاس ـ كَمَا نَتصَور ـ أنْ يَطْمَع مُعَاوِيَة فِي الْبَصْرَة، ويُمثل فِيها نَفْس الدَّور الَّذي مَثله فِي مِصْر، ويَكُون مَصِير عَامِلها كَمَصِير ٱبن أَبِي بَكْر... فَأَخذ مَا فِي بَيْت الْمَال وتَوجه إِلىٰ مَكَّة وَقَالَ: «سَلاَمَات يَا رَأْس» ويُومىء إِلىٰ ذَلِكَ قَول الإِمَام: (فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَىٰ ٱبْنِ عَمِّكَ قَدْكَلِبَ... قَلَبْتَ

لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ). وهَذِه الكَلِمة تُقَال لِمَن كَان سِلمَاً لأخِيه ثُمَّ صَار حَـرْبَاً عَلَيْهِ.

وٱبن عَبَّاس حَبر عَلمَاً وَفهْمَاً، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، ولكنّه غَيْر مَعْصُوم[1]، وحَيَاة

(١) عبدالله بن العَبَّاس: بن عبدالمطّلب بن هَاشم أبو العَبَّاس، المَوْلُود قَبل الْهِجْرَةِ بِثلاَث سِنِين، والمتوفّىٰ سَنَة (٦٨ هـ) بِالطَّائِف بِقَرية السَّلامة الّتي بِها مَسجد النَّبيّ ﷺ، وفِي جَانبه قُبّة فِيها قَبر ٱبن عَبَّاس وجَمَاعَة مِن أوْلاَدِه ومَشْهد للصَّحَابة، وكَان لهُ (١٣) سَنَة يَوْم وفَاة النَّبيّ ﷺ، ومَاتَ ﷺ وهو ٱبن (٧١) أو (٧٤) سَنَة، وصَلّىٰ عَلَيْهِ ٱبن الْحَنَفِيَّة، وَقَالَ لهُ النَّبيّ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلّمه ٱلحِكْمَة وتَأوِيل القُرْآن».

شَهِد مَع عَليّ ﷺ: الجَمَل، وَصِفِّين، والنَّهْـرَوَان. قَالَ لَهُ رَجُل أَنْتَ أعْلَم أمْ عَليّ ﷺ؟ قَالَ لَهُ: ثَكَلَتك أُمّك! عَليٌّ ﷺ عَلّمني الْحَدِيث. ولمّا قُتل الحُسَيْن ﷺ بَكىٰ ٱبن عَبَّاس بُكاءً شَدِيداً. ثُمَّ قَالَ: مَالَقِيت عِتْرَة النَّبيّ ﷺ مِن هَذِه الأُمّة بَعد نَبِيّها ﷺ. اللَّهُمَّ إنِّي أُشهدك لِعليٍّ وليّ، ولولدَه وَليّ، ولأعْدَائهم بَريء، وَقَالَ ٱبن عَبَّاس فِي مَوت الْحَسَن ﷺ:

أصْبَح اليَـوْم ٱبـن هِـند آمِـنَاً ... ظَاهِر النَّخْوَة إذْ مَات الحَسَـن

أرْبِـع اليَـوْم ٱبــن قَـامصا ... إنَّمَـا يَـقْمص بِـالعِين السَـمن

وبِالجُملة، فقَد كَان ٱبن عَبَّاس ﷺ مِن أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، وكَان مُحبّاً لِعَليّ ﷺ وتِلمِيذه، حَاله فِي الجَلالة والإِخْلاص لأَمِير المُؤمِنِين ﷺ أشْهر مِن أنْ يُخفىٰ.

أُنظر تَرجمته فِي: مُعجم الحَموي: ٥ / ١٠٣، أُسد الغَابَة: ٣ / ١٩٢، الإِصَابَة: ٢ / ٣٢٢، والاِسْتِيعَاب فِي هَامشه: ٣٤٢، وأمَالي ٱبن الشَّيخ: ٨، والخُلاَصة: ٥١، ورَبِيع الأبرَار للزَّمخشري: بَاب (١٩ و ٤٧ و ٨١)، البحَار: ٩ / ٦٣٥، تَأريخ الإِسْلاَم للذَّهبي: ٥ / ١٤٨، المُعْجَم الكَبِير: ١٠ / ٢٣٢ و ٢٣٦، الطَّـبقَات لِابْـن سَعد: ٢ / ٣٦٥، المَعْرِفَة والتَّأريخ للبسوي: ١ / ٤٩٣، تَهذِيب الكَمَال: ١٥ / ١٥٤ الرّقم ٣٣٥٨، التّبيين فِي أنْسَاب القُرَشِيين: ١٥٦.

وَقَد جَاء رَداً عَلىٰ كتَاب عبدالله بن عَبَّاس، فقَد روىٰ أرْبَاب هَذَا القَوْل أنّ عَبدالله بن عَبَّاس كتَب إِلىٰ عَليّ ﷺ جوَاباً عَن هَذَا الكتَاب قَالُوا: وكَان جوَابه، أمّا بَعْد، فَقَد أتَاني كتَابك تُعظم عَليَّ مَا أصَبت مِن بَيْت مَال البَصْرَة؛ ولَعمرِي إنّ حَقّي فِي بَيْت المَال لأكثر مِمَّا أخذت، والسَّلام.

وقَد ٱختَلف النَّاس فِي المَكْتُوب إلَيْهِ هَذَا الكتَاب، فقَال الأكْثَرُون: إنّه عَبدالله بن عَبَّاس وَرَوَوا فِي ذَلِكَ

العَامِلِ لِلْإِمَام هِي الزُّهْد والحِرْمَان مِن أَكْل المَال بِالبَاطِل، والحِسَاب العَسِير عَلىٰ الدِّرهم فَمَا دونَه... ولاَ يُطَبق هَذَا إلّا مَعْصُوم، أو شَبِيه بِالمَعْصُوم بِخَاصَّة أنّ عُمال مُعَاوِيَة غَارقُون إلىٰ الآذَان فِي التَّرف والنَّعِيم... وكُلنا يَعْلم أنَّ ٱبن عَبَّاس قَطع شَوطاً بَعِيداً مَع الإِمَام، وجَاهد بَيْنَ يَديه جِهَاداً عَظِيماً، وإنّ لهُ موَاقف فِي نُصرة الحَقّ وأَهْله ومُحاربَة البَاطِل وأنْصَاره ـ يَشكرهَا لهُ الله ورَسُوله، بل أنّ الله سُبْحَانَهُ قَد ٱستَخْلصه هُو ونَفر فِي عَصرَه لاَ يَتَجاوزُون عَددزد الأَصَابع، ٱسْتَخلصهُم لإعْلاَن الحَقّ عَلىٰ المَلأوإذَاعَته، والدَّعْوَة سِرّاً وجَهرّاً لِحُمَاة الدِّين وعِصمَة المُؤْمِنِينَ لاَ يَبْتغُون جَزَاءً ولاَ شكُورَاً إلّا الوَسِيلة إلىٰ الله ورَحْمَته والنَّجَاة مِن غَضَبه وعَذَابه.

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَ جَعَلْتُكَ شِعَارِي وَ بِطَانَتِي). إنّ الله سُبْحَانَهُ جَعْلنِي أَمِيناً عَلىٰ مصَالح عِبَاده، وٱخْتَرتُك شَرِيكاً ومُسَاعداً لِي عَلىٰ أدَاء هَذِه الأَمَانَة حِين جَعلتُك وَالِياً عَلىٰ البَصْرَة (وَ لَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَ مُوَازَرَتِي وَ أَدَاءِ الأَمَانَةِ إِلَيَّ). وَثقتُ بِكَ دُونَ الأَقَارب والأَرحَام، لأنَّك كُنتَ لِي سَنداً وعَضُداً وفَياً بِعهدِي وأَمِيناً عَلىٰ سرِي (فَلَمَّا رَأَيْتَ

⇐ روَايات، وٱستدلوا عَلَيْهِ بألفَاظ الكتَاب. وَقَالَ آخرُون وهُم الأقَلون: هَذَا لَم يَكُن، ولاَ فَارقَ عبدالله بن عَبَّاس عَليّاً (ع)، ولاَ بَاينهُ ولاَ خَالفه، ولَمْ يَزل أَمِيراً عَلىٰ البَصْرَة إلىٰ أنْ قُتل عَليّ (ع). ثُم قَالَ: وهَذَا عِنْدِي هُو الأَمْثل والأَصوَب.

وقَد قَالَ الرَّاوندي: المكتُوب إِلَيْهِ هَذَا الكتَاب هُو عُبَيْد الله بن العَبَّاس لاَ عَبدالله، ولَيس ذَلِك بِصَحِيح، فإنّ عُبَيْدالله كَان عَامِل عَليّ (ع) عَلىٰ اليَمن. أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة لِابن أبِي الحَدِيد: ١٧٣/١٦ (بتصرف). بحَار الأَنوَار: ٥٠٠/٣٣، الفَائِق فِي غَرِيب الحَدِيث: ١٧٠/٣، أَخبَار مَعْرِفَة الرِّجَال: ٢٧٩/١، أَنسَاب الأَشرَاف: ٧٥، العقد الفَرِيد: ٩٩/٥، غَرِيب الحَدِيث: ٣٧٠/١، جوَاهر المطَالب فِي منَاقب الإِمَام عَليّ (ع) لِابن الدِّمَشقِي: ٨٥/٢.

الزَّمَانَ عَلَىٰ ٱبْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَ الْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ.... أَدَّيْتَ). كُنتَ بِي بَاراً وَلِي مُطِيعاً، ثُمَّ عَصِيت وَجَفوت لمّا جفَانِي الدَّهر، فَهل تُرِيد أنْ تكُون لهُ عَوناً عَلىٰ أَقْرَب النَّاس إِلَيْك، وأَكْثَرهم رَأفَةً ورَحْمَةً بِك ؟.

(وَ كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ... الْكَسِيرَةَ). إنّ عَملك يَشْبَه عَمل الجَاهلِين بِدِين الله، أو عَمل المُرَائِين الَّذِين يَرتقبُون الْفُرْصَة حَتَّىٰ إِذَا سَنَحت وثَبُوا وغَدَرُوا تَمَاماً كمَا يَثب الذِّئب عَلىٰ فَرِيسة لاَ خَلاص لهَا مِنْهُ ولاَ فِرَار (فَحَمَلْتَهُ إِلَىٰ الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ... الخ). أَخَذت مَال المُسْلِمين تَتَنَعم بهِ فِي بَلدك أَنْت وأَهْلك كَأَنَّك جَنيته بِكَد يَمِينك، أو وَرثته مِن قَرِيب!. فَأينَّ خَوفك مِن الله وحسَابه يَوْم العَذاب الْأَكْبَر.

يُنَادِي الظَّالِمُ بِالْحَسْرَةِ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

أَيُّهَا الْمَعْدُودُ ـ كَانَ ـ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَ طَعَاماً، وَ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً، وَ تَشْرَبُ حَرَاماً، وَ تَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَ تَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ، وَ الْمَسَاكِينِ، وَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ الْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، وَ أَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ! فَاتَّقِ اللهَ وَ ارْدُدْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَىٰ اللهِ فِيكَ، وَ لَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ[٣]! وَ وَ اللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَ لَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَ أُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا، وَ أُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي؛ فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَىٰ،

وَ دُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَىٰ، وَ عُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَ يَتَمَنَّىٰ الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ، ﴿وَّ لاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[1] ![٤].

اللُّغَة:

تُسِيغُ شَرَاباً: تَبْلَعَه وَيسهل عَلَيْكَ شُرْبَه. وأَفَاءَ الْمَال عَلَيْهِ، جَعَله غَنِيمَةً لَهُ. الهَوَادَة: اللِّين والرِّفْق. وضَحِّ: مِن ضَحىٰ الْغَنَم إذَا رَعَاهَا فِي الضّحىٰ، والْمُرَاد الأَمْر بِالأَنَاة. والْمَدَىٰ: الغَايَة. والمَنَاص: المفَرّ.

الإِعْرَاب:

كَانَ عِنْدَنَا «كَانَ» زَائِدَة دَلَت عَلَىٰ الزَّمَان المَاضِي وَكَفَىٰ، وكَيْف تُسِيغُ «كَيْف تُسِيغُ» حَال، والْمَصْدَر مِن أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَاعِل لِفعل مَحذُوف أي لَو ثَبَت كُون الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، ومِثْلَ مَفْعُول مُطلق أو صِفَة لِمَفْعُول مُطلق مَحذُوف أي فِعلاً مِثْلَ الَّذي فَعَلت، وحِينَ اسم لاَتَ، وخَبَرها مَحذُوف أي وَّلاَ تَ حِينَ مَنَاصٍ كَائِن.

الْمَعْنَىٰ:

(أَيُّهَا الْمَعْدُودُ ـ كَانَ ـ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الأَلْبَابِ). هَـذَا تَعبير ثَانٍ عَن قَوْله المُتَقَدم: وَلَمْ يَكُن رَجُل مِن أَهْلِي أَوْثَق فِي نَفْسِي (كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَ طَعَاماً.... وَ

---

(١) سُورَة ص: ٣.

أَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ). أنَّ الْمَال الَّذي انْتَهبتَه لَيْسَ لَكَ ولأبِيك: إنّـه لِلأَرَامِـلِ، وَالأَيْتَام، والْفُقَرَاء، والْمَسَاكِين، والمُجَاهِدين مِن أَجْل الإِسْلاَم، والمُرَابطِين فِي ثغُور الْمُسْلِمِين يُدَافعُون عَنْهَا بسَلاحِهم وأروَاحِهم، فَكيف تَتَصرف بِهِ، وتُنفقه عَلىٰ طعَامك وشَرَابك وَخَدَمك وَنسَـائك (فَاتَّقِ اللهَ وَ ارْدُدْ إِلَىٰ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ). الأَمْوَال إِلىٰ أَهْلها وإلّا أدبْتُك بمَا تَسْتَحق (وَ لأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِـهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ) لأنِّي لاَ أَشْهَره إلاّ عَلىٰ مَن أَشْرَك وبَغىٰ، ولاَ أَضْرب بِهِ إلاّ مَن أَفْسَد وَطَغىٰ.

(وَ وَ اللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ... إلخ). أَبداً لاَ فَرق فِي الْحَقّ بَيْنَ قَرِيب وَبَعِيد، وسيِّد ومَسُود، فهَذا سيِّد الكَوْنين وخَـاتَم النَّـبِيين حِـين أَحَس بِدنُو أَجْله قَام خَطِيباً وقَال «أيُّها النَّاس فأنِّي أحمد الله إِلَيْكُم الَّذي لا إله إلا هو، وإنّه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم فَمن كُنْت جَلَدتُ لهُ ظَهراً فهَذا ظَهري فَلِيَستَقد مِنْهُ، وَمَن كُنْتُ شَتَمتُ لهُ عِرضاً فهَذا عِرضِي فَلْيَسْتَقد مِنْهُ، ومَن كُـنْتُ أَخَذْتُ لهُ مَالاً فهَذا مَالِي فَلْيأخذ مِنْهُ، ولاَ يَقول رَجُل إنِّي أَخشىٰ الشَّحْنَاء مِن قِبَل رَسُول الله ﷺ، أَلا وإنّ الشَّحْنَاء لَيْسَت مِن طَبِيعتي ولاَ مِن شَأنِي»[1]. وَقَالَ: «لو سَرقَت فَاطِمَة لِقَطَعت يَدهَا»[2]. وَلَيْس هَذَا تـوَاضـعاً وَكَـفىٰ، وإنَّمـا هُـو خُـلق

(١) أنظر، مِيزان الإعْتِدَال: ٣/٣٨٢، لِسَان المِيزان: ٤/٤٦٨، تَأرِيخ الطَّبَري: ٢/٤٣٣، البـدَايـة والنّـهاية: ٥/٢٥١، السِّيرَة النَّبويَّة: ٤/٤٥٧، سُبل الْهُدىٰ والرَّشاد: ١٢/٢٤٢، شَرح نَهج الْبَلاَغَة لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ١٣/٢٨، تَأرِيخ دمشق: ٤٨/٣٢٣، الأحَادِيث الطّوال: ١٠٦، الْمُعْجَم الأوسَط: ٣/١٠٤، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٢٢٥، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/٢٦.

(٢) حَاشَاك يَا بِنْت رَسُول الله ﷺ، وَمَعَاذ الله مِن أَنْ تَسرُق، وَعَلىٰ كلّ مُسْلم يَنْبَغي لهُ أَنْ يَقول مِثل هَـذَا ↔

الإِسْلاَم، وَشَرِيعَة الْقُرْآن، وَبِهِ وَحده نَجد تَفْسِير صلاَبَة الإِمَام فِي الحَقِّ، وٱلتزَامه بِهِ، وَحَمْلَه أَهْله وعُمَّالِهِ عَلَيْهِ.

(وَ أُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلاَلٌ لِي... بَعْدِي). كَان الإِيثَار أَبْرَز صِفَات الإِمَام، يَنْفق عَلىٰ المَحَاوِيج مُعْظم مَا يَمْلك حِيت الَّذي يَجنيه بِكَد اليَمِين، ولاَ يُبقِي لِنَفْسه وأَهْلَه إلاّ دُونَ الكَفَاف عَملاً بِسُنَّة رَسُول الله الَّذي قَالَ: «مَا أُحب أنْ يَكُون لِي مِثْل أُحُد ذَهَباً أنفقه فِي سَبِيل الله، أمُوت وأَتْرُك مِنْهُ قِيرَاطِين»(1). هَذَا وَهُو حَلال طَيب، فَكَيف بِهِ إذاكَان نَاراً وَجَحِيماً، كَالمَال الَّذي أَخَذه هَذَا العَامِل يَتَنعم بِهِ وَيَتْرُك مَا تَبقىٰ مِيرَاثاً لأَبْنَائه؟ (فَضَحٌ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدىٰ، وَ دُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرىٰ... إلخ). تَمَهَل وٱنْتَظر... فَأَمَامَك قَبر سَاكِن مُظْلِم، والحِسَاب عَسِير، ومَا لِلظَّالمين مِن فِرَار وأَنْصَار.

← الْقَول. وَهَذِهِ الرِّوَايَة مَشهُورة عِند أَهْل السُّنَّة، وَقَد جَاءت عَلىٰ صِيغَة المُبَالغة فِي التَّشدِيد عَلىٰ عَدَم التَّساهل فِي الحُدُود، ولأَنَّ فَاطِمَةﷺ هِي رُوحه الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْه، وأعزّ الخَلق لَدِيه.

أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٥١/٤ و: ٩٧/٥، صَحِيح مُسْلِم: ١١٤/٥، مُغني المُحتاج: ١٠٠/٤، سُنن الدَّارمي: ١٧٣/٢، سُنن النَّسائي: ٧٣/٨، سُنَن أَبِي دَاود: ٣٣٢/٢، السُّنن الْكُبْرىٰ: ٢٥٤/٨، سُنن التِّرمذي: ٤٤٢/٢، مُسْنَد آبن راهويه: ٣٣٦/٢، السُّنَن الْكُبْرىٰ: ٣٣٣/٤، شَرح مَعَاني الآثَار: ١٧١/٣، صَحِيح آبن حبّان: ٢٤٨/١٠، رِيَاض الصَّالحِين: ٣٣٢، العهُود المحمدية: ٨٠٦، كَنز العُمَّال: ٢٦٩/٣، فَيض القَدِير: ٧٢٠/٢.

(1) حَقّاً مَا تَرك دِينَاراً، ولاَ دِرهماً، ولاَ عَبداً، ولاَ وَلِيدةً، بل تَرَك دِرعَه مَرهُونةً عِند يَهودِي عَلىٰ ثَلاثِين صَاعَاً مِن شَعِير. أنظر، مَجْمَع الزَّوائد: ١٢٠/٣، كَنز العُمَّال: ٣٥٦/٦ ح ١٦٠٣٨، مُسْنَد أحمد: ٣٠٠/١، السُّنَن الْكُبْرىٰ: ٧/٤، تَرِكَة النَّبيّﷺ لحمّاد بن زَيد البَغدادي: ٧٦، البِدَاية والنِّهاية: ٣٠٥/٥.

الرسالة
-٤٢-

إلىٰ عُمَرَ المَخْزُومِيّ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنِ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلَىٰ الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ، وَلَا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ: فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ! وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَىٰ ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَىٰ جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللُّغَة:

لَا تَثْرِيبٍ: لَا لَوْم. والظَّنِين: المُتَّهَم. والمَأْثُوم: المُذْنِب. وأَسْتَظْهِرُ: أَسْتَعِين.

الإِعْرَاب:

غَيْرَ حَال مِن فَاعِل أَقْبِلْ، والمَصْدَر مِن أنْ تَشْهَد مَفْعُول أَحْبَبْتُ.

الْمَعْنَىٰ:

هَذِه ٱلْرِّسَالَة لاَ تَحتَاج إِلىٰ شَرح وتَفْسِير بِخَاصَّة بَعْد أَنْ ذَكَرنَا مُفردَاتها فِي فِقْرَة اللُّغَة، وهِي رِسَالَة شَخصِية لاَ شَيء فِيها مِن المبَادىء الْعَامَّة، وتَتَلخَص بِأَنَّ عُمَرَ ٱبن أَبِي سَلمَة كَان وَالِياً عَلىٰ البَحرين[1]، فَٱسْتَبدَله بِنُعْمَانَ بْنِ عَجْلاَنَ لِحَاجَته إِلَيْهِ فِي حَرْب مُعَاوِيَة، لأنَّه يُعْتَمد عَلَيْهِ فِي نُصْرَة الْحَقّ والدِّين. بَقِي أَنْ نُشِير إِلىٰ التَّعرِيف بِعُمَرَ وَنُعْمَان، والأَوَّل هُو رَبِيب رَسُول الله ﷺ حَيْث تَزوّج بِأُمّه بَعْد مَوْت أَبِيه أَبِي سَلمَة. وَقَد وِلد فِي الحَبَشة السَّنَة الثَّانِيَة مِن الْهِجْرَة، وَمَات فِي خِلاَفة عَبد المَلك بن مَرْوَان، والثَّانِي مِن الأَنْصَار، وقَبِيلته بنُو زُرِيق، وكَان مِن الشُّعرَاء، ومِن خَاصَّة عَليّ وشِيعَته، وصَرَح بِذَلِكَ فِي شِعره، ومِنْهُ[2]:

وإِنَّ هَوَانَا فِي عَلِيٍّ وأَنَّه   لأَهْلٌ لَهَا مِن حَيثُ يَدرِي ولاَ يَدرِي

وَضَمِير لَهَا يَعُود إِلىٰ الخِلاَفَة، وقَوْله: مِن حَيْث يَدرِي ولاَ يَدرِي مَعْنَاه نَحْنُ نُحبّ عَلِيّاً ونَهْوَاه، ولاَ يُهِمنَا أَنْ يَعْرِف هُو ذَلِكَ مَا دَامت مَحبتنَا لهُ خَالِصة لوَجْه الله.

---

(١) عَمْرُو بن أَبِي سَلمة بن عَبد الأَسَد المَخْزُومِيّ، القُرَشِيّ، المَدني، رَبِيب رَسُول الله ﷺ، وِلد فِي السَّنَة الثَّانِيَة من الْهِجْرَةِ بِأَرض الحَبَشَة، شَهد مَع الإِمَام عَليّ ﷺ وَقْعَة الْجَمَل، روىٰ عَن النَّبِيّ ﷺ، وأُمّه أُمّ سَلمة، وسعِيد بن المُسيب، وعُرْوَة، وقُدَامَة، وثَابت البنَاني وآخرون مَات سَنَة (٨٣ هـ). أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٦٧/٣، وتَرجمته فِي أُسد الغَابَة: ٧٩/٤، تَهذِيب التَّهذِيب: ٤٠١/٧ الرَّقم (٧٥٩)، تَأرِيخ بَغدَاد: ١٩٤/١ الرَقم (٣٢)، تَهذِيب الكَمَال: ٨٣/١٤، مِيزان الإِعْتِدَال: ٢٠١/٣، التَّأرِيخ الْكَبِير: ١٦٦/٦، الجَرح والتَّعدِيل: ١١٧/٦، سِير أَعلاَم النُّبلاء: ١٣٣/٦.

(٢) أُنظر، الإِسْتِيعَاب: ٥٥٠/٣، الأَخْبَار والمُوفقيات للزّبير بن بكَار: ٥٩٣ ح ٣٨٢، أَنسَاب الأَشْرَاف: ١٦٣/٢، أُسد الغَابَة: ٢٦/٥، جَمهرة أَنْسَاب الْعَرَب: ٣٢٧، الاشتِقَاق: ٤٦١، الإِصَابَة: ٥٣٢/٣، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٣١/٦.

الرسالة
-٤٣-

إلىٰ مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة:

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَ عَصَيْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَ خُيُولُهُمْ، وَ أُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَ لَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَ لَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا.

أَلَا وَ إِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَ قِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَ يَصْدُرُونَ عَنْهُ.

اللُّغَة:

اَعْتَامَكَ: اَخْتَارَك. وقِبَلَكَ ـ بِكَسر القَاف وفَتح البَاء ـ عِنْدَ، وَتَأْتِي بِمَعْنَىٰ الطَّاقَة. ويَرِدُونَ: يَحْضَرُون المُورِد. وَيَصْدُرُونَ: يَرْجِعُون.

الإعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنَّكَ بَدَل مِن أَمْر، ومِيرَاثاً تَمْييز، ومِثله أَعْمالاً، وسَوَاءٌ خَبَر إنَّ.

الْمَعْنَىٰ:

كَان الإِمَام يَضَع الْعُيُون عَلىٰ عُمَّالِه يُرَاقبُون تَصَرفَاتهم، ويَتَتَبَّع هُو أخْبَارهُم، فإِذَا بَلَغه أنَّ أَحداً مِنْهُم ٱعْتدىٰ عَلىٰ بَيْت الْمَال، وٱشْتَغَل وَظِيفَته، أو أَجْحَف بِضَعِيف، وَمَنعَه مِن طلبَته ـ كَتَب إِلَيْهِ يُهدده وَيَتُوعده، وهَذَا مَا دَعَا بَعْض الْعُمَّال أنْ يَتركُوا الإِمَام، وَيَنْضَمُوا إِلىٰ مُعَاوِيَة، وَمِنْهُم مَن كَان يَطعَن عَلَيْهِ لاَ لِشيء إلاّ ٱسْتثقَالاً لِلحَقِّ.

وفِي شَرح ٱلْخُطْبَة (٤٤) نُشِير إِلىٰ أنّ مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة هَرَب إِلىٰ مُعَاوِيَة لأنَّ الإِمَام طَالبه بِحَقِّ الْمُسْلِمِين، وكَان عَامِلاً لهُ عَلىٰ بَلدة مِن بِلاد العَجم تُسمىٰ أَرْدشِير خُرَّة[1]، وكَان قَد بَلَغ الإِمَام أنَّ مَصْقَلَة ـ قَبْلَ هرُوبه إِلىٰ مُعَاوِيَة ـ كَان يَحْرُم الْمُسْلِمِين مِن أَمْوَالِهم، ويُؤثر بِها أَرْحَامه، وأَبْنَاء قَبِيلته، فَكَتب إِلَيْهِ بذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ مِن جُمْلَة مَا قَالَ: «إنَّ هَذِه الأَمْوَال حَقّ لِلمُسْلِمِين ٱكْتَسبُوها بِالجِد والجِهَاد، وأَنْتَ أَجِير لَهُم، وقَائِم عَلىٰ مَا فيهِ حيَاتهم، وعَلَيْكَ أنْ لاَ تَشتَهِين بِشيء مِنْهُ، تَماماً كَما تَحرص وتَهتَم بِأَمْنِهم والدِّفَاع عَنْهُم، وأنْ تُقسم الأَمْوَال بَيْنَهمْ بِالْحَقِّ والْعَدْل لاَ بِالشَّهوَات والأهوَاء، فَتُؤثر أَهْلَك وذَوِيك عَلىٰ حسَاب الكَادِحِين والمُجَاهدِين.

---

(١) أنظر، مُعجَم البُلدان: ١/١٤٦، فتُوح البُلدان: ٢/٤٧٦. وهِي بَلدة مِن بِلاد العَجم، بل هِي أكْبَر كُور فَارس، ومِن مُدنها شِيراز. وتُكتب أرْدشِير خُرّة، بِضَم الخَاء وتَشدِيد الرّار المُهملة، والهَاء المُهملة، وتَارَة بِفَتح الخَاء، والرَّاء والهَاء مُهمَلة.

(لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً . . . إلخ) . لآخُذَنك بِمَا أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ مِن العُقُوبَة والتَّأدِيب ، «الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّىٰ آخُذَ الحَقَّ لَهُ ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّىٰ آخُذَ الحَقَّ مِنْهُ»[1] . (وَ لَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) . كَيف تَطلب الجَاه والْمَال مِن طَرِيق الْبَغْي والجَوْر ، وَتَسْتَهِين بِغَضب الله وَعَذَابه ؟ وأي عَاقل يَطلب الصِّحة بِالسُّقم ، والنَّعِيم بِالجَحِيم ؟ .

(أَلَا وَ إِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَ قِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ . . . إلخ) . الْمُسْلِمِين فِي الْمَال تَمَاماً كَحَقهم فِي الْمَاء يَردُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصدرُون عَنْهُ عَلَىٰ السَّواء لاَ فَرق بَيْنَ كَبِير وصَغِير ، وأَسْوَد وأَبْيَض . ونَظَرِية الإِمَام فِي الْمَال يَعرفهَا الجَمِيع ، وهِي كمَا أَعْلَنَها : «لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهمْ ، فَكَيْفَ ، وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ»[2] ؟ .

(١) أنظر ، شَرح الخُطبَة : (٣٧) . (مِنْهُ ﷺ) .
(٢) أُنظر ، نَهج البَلاَغَة : الخُطبَة (١٢٦) .

الرسالة
ـ ٤٤ ـ

إلىٰ زِيَاد ٱبن أَبِيه:

وَ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ ، وَ يَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ . فَٱحْذَرْهُ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ : يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ ، وَ عَنْ يَمِينِهِ وَ عَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَ يَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ .

وَ قَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَ نَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ : لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ ، وَ لَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ ، وَ الْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ ، وَ النَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ .

اللُّغَة:

يَسْتَزِلُّ : يَحْمِل غيرَه علىٰ الزَّلل وٱقْتراف الذّنوب . واللُّب : العَقْل . وَيَسْتَفِلُّ : يَثْلِم . وغَرْبَكَ : نَشاطَك وَحِدّتك ، يُقَال : أخَاف عَلَيْكَ غَرب الشَّباب أي حِدّته . والغِرَّة ـ بِكَسر الغين ـ الغَفْلَة والسَّذاجَة . والفَلْتَةُ : مَا يَكُون مِن غَيْر رَوِية وَتَدبِير . والنَّزْغَة : الدَّعْوَة والوَسوَسَة والحرَكة ، ولاَ يَكُون إلّا بِالشَّر والمَفْسدة . والوَاغِل :

المُتَطَفِل. والْمُدَفَّعِ ـ بِتَشدِيد الفَاء ـ المَمْنُوع. وَالنَّوْطِ: مَا يُوضَع عَلىٰ ظَهر الدَّابَة دُونَ أَنْ يُثَبّت ويُشدّ بِشَيء.

الْمَعْنَىٰ:

أَبداً لاَ يَعْرِف مُعَاوِيَة الْيَأْس تَمَاماً كَالاِسْتِعمَار، طَمَع فِيمَن ٱعْتَزَل الْقِتَال أَنْ يَقِف إلىٰ جَانِبه، وكَتَب إِلَيْهِ يَسْتَنجِد بِهِ ضِدّ الْإِمَام كَعبدالله بن عَمْرُو، وسَعد ٱبن أَبِي وَقَّاص، بَل كَتَب لأَشَد النَّاس وَلاَءً وإِخْلاَصاً لِلْإِمَام كَقَيْس بن سَعد بن عَبَادة الْأَنْصَاري. وإِذَنْ فَلا بِدع إِذَا كَتَب إِلىٰ زِياد بن أَبِيه أو ٱبن أُمّه سُمَيَّة وأَغرَاه بمَا أَحَبّ وأَرَاد، وكَان زِيَاد آنذاك وَالياً عَلىٰ فَارس أو بَعْض أعمَالهـا عَـلىٰ حَـد تَـعبِير أَبِي ٱلْحَدِيد[1]. ولمّا عَلم الْإِمَام بِكتَاب مُعَاوِيَة أَرْسَل إِلىٰ زِيَاد هَذِه ٱلْرِّسَالَة:

(وَ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ) يُمْنِيك ويُغْرِيك فَلاَ تَتبَّع خُطوَاته. إِنّه شَيْطَان الإِنْس بِعَينَه (وَ قَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ). يُشِير إِلىٰ كَلِمة نَفَث بِهَا الشَّيْطَان عَلىٰ لِسَان أَبِي سُفْيَانَ... فَقَد تَكَلَّم زِيَاد، وهُو غُلاَم حَدَث، بِحَضرَة عُمَرَ، فأَعْجَب الحَاضِرون بِكلاَمه، وَقَالَ ٱبن العَاص: لله أَبُو هَذَا الغُلاَم لَوْ كَان قَرشِياً لِسَاق الْعَرَب بِعصَاه، فَقَال أَبُو سُفْيَانَ: أَنَا وَضَعْته فِي رَحم أُمّه... وَلَيْس مِن شَكٍّ أَنّ مِثل هَـذِه النَّـفثَة الشَّيْطَانِية لاَ يثبّت بِها نَسَب ولاَ سَبَب.

وفِي شَرح ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «إِنّ زِيَاد هُو ٱبن عُبَيْد، وَقَالَ النَّاس: ٱبن أَبِيه

---

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٧٧/١٦.

لِحَمُول عُبَيْد، ولمّا آستَلحقه مُعَاوِيَة قَالَ أَكْثَر النَّاس: زِيَاد بن أَبِي سُفْيَانَ، لأَنَّهم يَتْبعُون المُلُوك، وَلَيْس أَتبَاع الدِّين إلاّ كَقَطرة مِن البَحر المُحِيط»[1]. وقول الإِمَام: (كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ، وَ النَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ)، مَعْنَاه أنّ زِيَاداً لَوْ أُلصِق بِأَبِي سُفْيَانَ يَصِير مَجْهُول النَّسب لاَ يُعرف لهُ أَصْل، ومُذَبْذَباً بَيْنَ عُبَيْد وأَبِي سُفْيَانَ.

الْعَقَّاد وَدُهَاة الْعَرَب:

وَلِلمَرحُوم الْعَقَّاد كَلاَم حَوْلَ زِيَاد، وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ، وأبن العَاص فِي كتَابه «مُعَاوِيَة» ومِن المُفِيد أنْ نُلَخصه بِمَا يَلِي:

«بِأي الدّهَاءِين تَمَكَن مُعَاوِيَة مِن آجْتذَاب عَمْرُو بن العَاص، وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ، وَزِيَاد وغَيْرهمْ مِن الدُّهَاة الَّذِين سَارت بِدهَائهم الأَمْثَال فِي صَدر الإِسْلاَم؟

ولَعَلنا نَسْتَطِيع الْقَوْل: إنّ هَؤُلاَء الدُّهَاة ومَن جَرىٰ مَجرَاهُم قَد خَدعُوه ـ مُعَاوِيَة ـ وسَخَرُوه لِقَضَاء مَآربهُم، كمَا نَسْتَطِيع أنْ نَقول أنَّه هُو قَد خَدعَهُم وَسَخرَهُم لِقَضَاء مآربِه... فأنّهُم جَمِيعاً قَد أَخذُوا نَاجِزاً مَضمُوناً حَيْث يَأخذ مَنْهم العِوَض مُقدَراً غَيْر مَضمُون، وأيّاً مَاكَان الْقَوْل فَلِيس دُهَاء مُعَاوِيَة هُنا دُهَاء القُدرة الْعَقْلية الفَائِقه الَّتي أَوقَعت فِي روع أَعْوَانه زَعماً تَخفىٰ عَلِيهم حَقِيقَته وَيَنْقَادُونَ بِهِ إِلَيْهِ وَهُم لاَ يَفْقَهُون.... فَقَد عَرفُوا مطَالِبهم وعَرفوا أنَّهم يَجْدُونها عِند مُعَاوِيَة، حَيْث لاَ يَجْدُونها عِند غَيْره، ولَو أَنَّهم آستطَاعوا أنْ يُنَازعُوه الخِلاَفَة لَمَا سلَّموها لهُ

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٦/١٧٧، الغَارات: ٢/٩٢٥.

طَوْعاً... أمَّا ٱبن العَاص وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ فَقَد كَانَا مِن آحَاد الرَّعِيَّة يَوْم نَشَب النِّزَاع عَلىٰ الْخِلاَفَة بَيْنَ عَمِيد بَني هَاشم عَليّ بن أَبِي طَالب، وَعَمِيد بَنِي أُمَيَّة مُعَاوِيَة ٱبن أَبِي سُفْيَانَ، ولَمْ يَكُن لأحدهمَا جُند ولاَ مَال ولاَ عُصبَة تُنافس العُصبة الهَاشِمِية أو العُصبَة الأُموِية، فَهُما خَلِيفتَان أنْ يَنْظرا إِلىٰ المَطلب المَيسُور حَيْث تَيَسَّر، وقَد نَظرا إِلَيْهِ فَلْم يَعرفا لهُ طَرِيقاً أَقْرَب مِن طَرِيق مُعَاوِيَة وبخَاصَّة بَعد مَقْتَل عَليّ رضوَان الله عَلَيْهِ»[1].

وأمَّا الْمُغِيرَةَ فَقَد رَضي بوِلاَيَة الْكُوفَة، ولمَّا ٱسْتَقر الأَمْر لِمُعَاوِيَة هَان عَلَيْهِ الْمُغِيرَةَ، وهَمَّ بِعَزْله، ولمَّا عَرف الْمُغِيرَةَ ذَلِكَ دبَر حِيلته الّتي أَرْغَم بِها مُعَاوِيَة عَلىٰ إبْقَائه فِي مَنْصبه، وهِي وَسوَسَته لِيَزِيد أنْ يَعْهَد إِلَيْهِ أبُوه بِالْخِلاَفَة مِن بَعْدَه، ولمَّا أخبَر يَزِيد أبَاه بِمَا قَالَ الْمُغِيرَةَ تَعَجَل لِقَاءه وٱبْتَدره سَائِلاً: «وَمَن لِي بِهذا الَّذي قُلته لِيَزِيد؟ فقَال لهُ الْمُغِيرَةَ: الأَمْر سَهْلٌ، أنَا أَكفِيك الْكُوفَة، وَيَكفِيك زِيَاد الْبَصْرَة، والشَّام بِيدَك، وَبَقِية الأَمْصَار تَبع. فقَال لهُ مُعَاوِيَة: ٱرْجَع إِلىٰ عَملَك[2].

وأمَّا زِيَاد فكَان آخر المُبَايِعِين مِن الدُّهَاة الثَّلاثة، ولَمْ يَسْتَطِيع مُعَاوِيَة ٱقْنَاعه فِي حيَاة الإِمَام، فَقَد كَتَب إِلَيْهِ، وهُو وَالٍ لِلإِمَام، ولكنَّ زِيَاداً حِين قَرأ كتَابه قَام فِي النَّاس خَطِيباً، وَقَالَ: «العَجَب كلّ العَجَب مِن ٱبن آكلَة الأكْبَاد، ورَأس النِّفَاق، يُخوّفنِي بِقَصده ٱيّاي وبَيْني وبَيْنَه ٱبن عَمّ رَسُول الله فِي الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَار[3]!.

---

(١) أنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة ٱبن أبي سُفْيَانَ: ٣٠ وَمَا بَعْدَها طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلال.

(٢) أُنظر، تَأريخ اليعقوبِي: ٢/٩٦، تَأريخ ٱبن خَلدون: ٣/١٦.

(٣) أُنظر، تَأريخ دمشق: ١٩/١٧٥، النَّصائح الكَافِية لِمَن يَتَوَلَّىٰ مُعَاوِية: ٨١، الغَدِير: ١٠/٥٢٠، نَهج السَّعادة: ٥/٣٥٨.

وَبَعد صُلح الإمَام الْحَسَن ذَهَب الْمُغِيرَة بِأمرٍ مِن مُعَاوِيَة إلىٰ زِيَاد، وسَاومَه علىٰ إلحَاقه بِأبِي سُفْيَانَ ووِلاَيَة مَا أَحَب مِن البلاَد، فَاستجَاب زِيَاد علىٰ هَذَا الشَّرط، وتَمّت الصَّفقَة بَيْنَه وبَيْنَ مُعَاوِيَة كمَا تَمّت مَع الْمُغِيرَة، وأبن العَاص... وهَكذَا أَبْنَاء الدُّنْيا لاَ يَفْهمُون ولاَ يَتخَاطبُون إلّا بِلُغة بَيْع الذِّمَّم وشرَائها.

وَختَم الْعَقَّاد حَدِيثه عَن الثَّلاثة بِقَوْله: «هَؤُلاَء هُم الدُّهَاة الثَّلاثة، لَمْ يُغلب أَحَدٌ مِنْهُم عَلىٰ رَأيه بِدُهاءٍ مِن مُعَاوِيَة، وإنّمَا أفَادوا مِنْهُ جَمِيعاً فَوق مَا أفَادُوه»[1].

---

(١) أُنظر، كتَابه الموسُوم بـ(مُعَاوِيَة آبن أَبِي سُفْيَانَ: ٣٨ وَمَا بَعْدَها طُبع بِمطَابع مؤسَّسة دَار الهِلال.

الرسالة

ـ ٤٥ ـ

إلىٰ عُثْمَانَ بن حُنَيْف الأَنْصَاري..فِقْرَة ١ ـ ٤:

أَمَّا بَعْدُ، يَا ٱبْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَىٰ مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَ تُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ. وَ مَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَىٰ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَ غَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هٰذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَ مَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ(١).

أَلَا وَ إِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَ يَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَ إِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ ٱكْتَفَىٰ مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَ مِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَ إِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذٰلِكَ، وَ لَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَ ٱجْتِهَادٍ، وَ عِفَّةٍ وَ سَدَادٍ. فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَ لَا ٱدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَ لَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً(٢)، وَ لَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَ لَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَ لَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَىٰ وَ أَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ. بَلَىٰ! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَ سَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَ نِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَ مَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَ غَيْرِ فَدَكٍ، وَ النَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَ تَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَ

حُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَىٰ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَىٰ جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ[٣]. وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَىٰ مُصَفَّىٰ هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَىٰ تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ - أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ[١]:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِدِّ[٤]

اللُّغَة:

الجِفَانُ: جَمْع الجَفْنَة أي القَصْعَة. وعَائِلُهُمْ: فَقِيرَهُمْ. وتَقْضَمُهُ: تَأكله بِطَرف أسْنَانك. والمَقْضَمِ: المَأكَل. وطِيبِ الوَجْه مِن المَأكُولَات: مَا كَان مِنْهَا حَلَالاً. وطِمْرَيْهِ: ثَوبِيه البَالِيين. والتِّبْر: فُتَات الذَّهب. والوَفْر: المَال الكَثِير. والجَدَث: القَبْر. والمَدَرُ: الطِّين. والمَزْلَقِ: مَوضع الزَلَقِ. والجَشَعِ: الطَّمَع وَشِدّة الحِرْص. واليَمَامَةِ: مَدِينَة مِن اليَمَن، وَفِيها خَرج مُسَيلمَة الكَذَّاب. والمِبْطَان: مُمتَلِىء البَطْن. وغَرْثَىٰ: جَائِعَة. والبِطْنَة: التُّخمَة. والقِدّ: جِلْد السَّخْلَة واللَّحْم القَدِيد، والمُرَاد بِهِ هُنا الطَّعَام.

---

(١) يُنسب هَذَا البَيْت لِحَاتم بن عَبدالله الطَّائي كَمَا جَاء فِي شَرح نَهج البَلاغَة لِابْن أَبِي الحَدِيد: ٢٨٨/١٦، وديوَان الحَماسَة بِشَرح الزَّرقَاني: ١٦٦٨/٤.

الإِعْرَاب:

لَهِيَ أي الدُّنْيَا، اللاَّم للابْتِدَاء، وفَائِدتها التَّوكِيد، والله مُبْتَدأ، وجُملَة نِعْمَ الْحَكَمُ خَبَر، والنَّفْسُ مُبْتَدَأ أَوَّل، ومَظَانُّهَا مُبتَدَأ ثَانٍ، وجَدَثٌ خَبَره، والْجُملَة خَبَر المبْتَدَأ الأَوَّل، وآمِنَةً حَال، وهَيْهَاتَ ٱسم فِعل بِمَعْنَىٰ بَعُد، ومِبْطَاناً حَال، وَحَسْبُكَ مَصْدَر بِمَعْنَىٰ كَافِيك، وهُو مُبْتَدَأ، وَدَاءً تَمْيِيز، والْمَصْدَر مِن أَنْ تَبِيتَ خَبَر.

الْمَعْنَىٰ:

عُثْمَانَ بن حُنَيْف ـ بضَم الحَاء ـ صَحَابِي جَلِيل مِن الأَنْصَار الَّذِين آووا النَّبيّ ﷺ وَفَدَوْهُ بِالأَرْوَاح، وهُو مِن قَبِيلَة الأَوْس[1]، قَالَ ٱبن عَبد البَر فِي «الاِسْتِيعَاب».
«ذَكَر الْعُلَمَاء أنّ عُمَرَ بن الخَطَّاب ٱسْتَشَار الصَّحَابَة فِي رَجُلٍ يُوْجهه إِلىٰ الْعِرَاق، فَأَجْمَعُوا جَمِيعاً عَلىٰ عُثْمَانَ بن حُنَيْف، وقَالُوا: إنْ بَعثتَهُ إِلىٰ أَهْم مِن ذَلِكَ فإِنَّ لَهُ بَصَراً، وَعَقلاً، وَمَعْرِفَة، وتَجْرِبَةً، فَأَسرع عُمَرَ فَوَلاَّهُ مَسَاحَة أَرْض الْعِرَاق وضَرَب الْخَرَاج والْجِزْيَة»[2]... ثُمَّ وَلاَّهُ الإِمَام عَليّ بن أَبِي طَالب الْبَصْرَة حَتَّىٰ نَزَل بِها طَلْحَة والزُّبَيْرَ فنَال ٱبنْ حُنَيْف مَا زَاد مِن فَضْله، وسَكَن الْكُوفَة بَعد ٱستِشْهَاد الْإمَام. وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد فِي شَرح هَذِهِ ٱلرِّسَالَة: «إِنَّه مَات بِهَا فِي زَمَن مُعَاوِيَة»[3].

---

(١) تَقَدَّمت تَرجَمته.

(٢) أُنظر، الاِسْتِيعَاب: ٣/٨٩، التَّأرِيخ الْكَبِير: ١/ ٢٠٩، الجَرح والتَّعديل: ٦/١٤٦، الإِصَابَة: ٢/ ٤٥٩، تَهذِيب التَّهذِيب: ٧/١٠٣، أُسد الغَابَة: ٣/ ٣٧١، وتَأرِيخ الطَّبَرِي: ٣/ ٤٦٥.

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٦/٢٠٧.

كَتَب الإِمَام إِلَيْهِ، وهُو وإِلَيْهِ عَلىٰ الْبَصْرَة: (أَمَّا بَعْدُ، يَا ٱبْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَىٰ مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا... وَ غَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ). الإِمَام يَحْكُم بِٱسم الله والإِسْلاَم، وإِذَنْ فَلابَدع أنْ يُحَاسب عَامِله عَلىٰ أكل الطَّيِّبَات مِن ٱلرِّزْق، لِأَنَّهَا تَحل وتَطِيب لغَير الحَاكِم، أَمَّا لِلْحَاكِم فَهِيَ خَبِيثَة وقَبِيحَة مَا دَام فِي الرَّعِيَّة مَحرُوم وَاحد، لأنَّ الله تَعَالىٰ: «فَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ» كَمَا قَالَ الإِمَام[1].

وَقَالَ الْعَقَّاد فِي كتَابه «عَبْقَرِيَة الإِمَام»: «وَقد بَلَغ مِن حسَاب الإِمَام لِلوَلاَة أنّه كَانَ يُحَاسبهُم عَلىٰ حضُور الوَلاَئِم الّتِي لاَ يجمل بِهِمْ حضُورهَا، فَكَتَب إِلىٰ عُثْمَانَ بن حُنَيْف الأَنْصَاري: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَىٰ مَأْدُبَةٍ. وٱسْتَكثَر عَلىٰ شُرَيْح قَاضِيه أنْ يَبْنِي دَاراً بِثَمَانِين دِينَاراً، وهُو يُرزق خَمْسمِئَة دِرهم، وحَاسب عَلىٰ أَقَل مِن هَذَا مَن هُو أَقل مِن شُرَيْح أَمَانَة فِي الْقَضَاء»[2].

وَقَالَ عَبدالكَرِيم الخَطِيب: «سَمِع الإِمَام أنَّ عَامِله عَلىٰ الْبَصْرَة عُثْمَانَ بن حُنَيْف قَد دُعِيَّ إِلىٰ وَلِيمَة أَعدهَا لهُ أَبْنَاء الْبَصْرَة، فثَارت لِذَلِكَ ثَائِرته، وأَعْلنها حَرْباً عَلىٰ ٱبن حُنَيْف حَتَّىٰ أنَّه لَيكَاد يَمْسك بِهِ مِن حُلقُومه فيُقِيئهُ مَا أَكَل»[3].

(فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ). الْمُـرَاد

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كَلاَم لهعليه السلام بِالْبَصْرَةِ تَحتَ رَقم (٢٠٩).

(٢) أُنظر، عَبقَرِية الإِمَام: ٩٥ (مِنْهُ ﷺ). والرِّسَالَة الثَّالثة مِن رَسَائِل الإِمَامعليه السلام. شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٤/٢٧، نُظم دُرر السِّمطين: ١٦٩، روضَة الوَاعظِين: ٤٤٦، أَمَالي الصَّدوق: ٣٨٨، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٣/٤.

(٣) أُنظر، كِتَابه عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِية النُّبوَّة، وخَاتَم ٱلخِلاَفَة: ٢٦٥ ومَا بَعدها طَبعة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﷺ).

بِالقَضْم والْمَقْضَم هُنا الأكل والمأكول، وأَطْلَق الإِمَام عَلَيْهِ هَذَا الوَصف للتَنْبِيه إِلىٰ أنّ الغَرض مِن القُوت مُجرد حِفْظ آلحَيَاة، والْمَعْنَىٰ حَتَّىٰ القُوت الضَّرُورِي لاَ يَحل لَكَ إلاّ إذَا جَـزَمتَ وأَيْـقَنت بِأنّـه حَـلال زُلاَل، وَيَحـرم إذَا كَـان فـيهِ أدنىٰ شُـبهة لِلحرَام... ومِن هُنا قَالَ الْفُقَهاء: «الأَصْل فِي الأَمْوَال آلتَّحْرِيم حَتَّىٰ يَثْبُت العَكس، وأَنَّهَا لاَ تَحل أبداً إلاّ مِن حَيْث أَحَلَّها الله»[(١)].

(أَلاَ وَ إِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَ يَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِـلْمِهِ). أَنْتَ يَـا آبـن حُنَيْف مَرؤُوس ومَأْمُوم، وأَنَا رِئيسك وإمَامك، وعَلَيْكَ أَنْ تَـقْتَدِي بِي وتَهْـتَدِي بِهَديي، وأنَا كمَا تَرَاني آستر جِسمي بِثُوبِين خَلَقِين، «وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّىٰ آسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَ لَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَ لاٰ تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: آغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْـمَدُ الْـقَوْمُ السُّرَىٰ»[(٢)]. أمَّـا قُـوتِي فـقُرصَان مِـن الشَّـعِير بِقُشره... وَقَالَ بَعْض أصْحَاب الإِمَام لخَادِمته: «أَلا تَتقُون الله فِي هَذَا الشَّيخ؟ أَلا تَنْخلُون هَذَا الطَّعام مِن النَّخَالة؟ قَالت: أَمَر أنْ لاَ نَنْخُل لهُ طعَاماً»[(٣)].

(أَلَا وَ إِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ) لأنَّ لِهَذا النَّوْع مِن الزُّهْد أَهْلاً يَأْخذُون مِن الدُّنْيَا لِبَطن الأَرْض لاَ لِبطُونهِم، ولِلآخِرَة لاَ للأُولىٰ (وَ لَكِـنْ أَعِـينُونِي بِـوَرَعٍ وَ آجْتِهَادٍ). بِالكَف عمَّا حَرّم الله، وبِكَبح الشَّهوَات عمَّا تَطْمَح إِلَيْه... إنّ لأجْسَامكُم

---

(١) أنظر علىٰ سَبِيل المِثال، تذكرة الـفُقَهاء: ٢١١/٢، مُجمَع الفَـائِدة: ٣٤٨/١٠، جَـامع المـدَارك: ٢٦٦/٣، المجمُوع: ٢٢/١٠.

(٢) أنظر، شَرح آلخُطْبَة: ١٦٠ فِقْرَة: «مِدْرَعَة الإِمَام تَنصُّ عَلَيْهِ». (مِنْهُ).

(٣) أنظر، فرَائد السِّمطِين: ٣٥٢/١، كَشف الغُمة: ١٦٣/١، المنَاقب للخوَارزمي: ١١٨، كَشف اليَقين: ٨٧، إرشَاد القُلُوب: ٢١٥، الغَارات: ٨٧/١، وَسَائِل الشِّيعة: ٣٨٩/٢٤ ح ٣٠٨٥٥.

حَقّاً عَلَيْكُم، مَا فِي ذَٰلِكَ رَيب، فَأدوه عَلىٰ وَجْهه، ولاَ تَتجَاوزُوا عَن حَده.

(فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَ لَا ٱدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً). إنّ لِي أَهْلاً وَأَوْلاَداً، وإنِّي عَلىٰ جَمع الْمَال لقَادر، وهَذَا هُو بَيْنَ يَديّ أُوزْعَه عَلىٰ المَحَاوِيج، ولاَ أَدْخر مِنْهُ لِنَفسِي وأَهْلِي قَلِيلاً ولاَ كَثِيراً.

وهَكذا لَوْ نَظَر الْمَرْء إلىٰ كلّ حَاكم مُخلص لوَجدَه يَسْمُو بِهِ الْعَدْل والْخَوْف مِن الله أنْ يُقَدر نَفْسَه بِضَعفَة النَّاس مِن رَعِيتَه، فَيكتَفِي مِن اللِّبَاس بِطِمْرَيْنِ، ومِن الطَّعام بِقُرْصَين كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ» كَمَا قَالَ الإِمَام[1]. وفِي الْحَدِيث: «أَنَّ رَسُول الله ﷺ مَا ٱتخَذ مِن شَيء زَوْجَيْن، ولا قَمِيصِين، ولاَ رِدَائِين، ولاَ إزَارِين، ولاَ مِن النَّعال، ولاَ رُؤي قَطّ فَارِغَاً فِي بَيْتَه، إمَّا يَخْصف نَعْلاً لرَجُلٍ مِسْكِين، أو يُخِيط ثَوبَاً لأَرْمَلة»[2].

(بَلَىٰ! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ.... إلخ). وهِي قَرية فِي الحْجَاز كَانَتْ لِجَمَاعة مِن اليَهُود[3]، فَصَالحُوا رَسُول الله ﷺ عَلَيْهَا، أو عَلىٰ نِصْفَها حَسَب ٱختلاف الرِّوَايَات، فَملكهَا النَّبيّ بِنَص الآيَة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4]، ثُمَّ وَهبَها لاِبْنَته سَيِّدَة ٱلنِّسَاء، وتَصَرفت بِها فِي حيَاته، ولمَّا ٱنْتَقل إِلىٰ

(١) أُنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: مِن كَلاَم له ﷺ بِالْبَصْرَةِ تَحتَ رَقم (٢٠٩).

(٢) أُنظر، تَأرِيخ دمشق: ١٠١/٤، صَفوة الصَّفوة: ٢٠٠/١، سُبل الْهُدَىٰ والرَّشَاد: ٨٥/٧ و ٩٣، حلية الأبرَار: ٢٤١/١، الوفَا لاِبْن الجُوزي: ٤٧٦/٢.

(٣) أُنظر، لِسَان الْعَرَب: ٤٧٣/١٠.

(٤) ٱلأَنفَالِ: ١. ولِفَدَك فِي التَّأرِيخ الإسْلاَمِي أدوَار، وأَخْبَار، وتَتلخص بأنّ فَدَكاً قَرية فِي الحجَاز، وكَانَتْ

↔

الرَّفِيق الْأَعْلىٰ أَخَذها أَبُو بَكْر، وَقَالَ: هِي لِلْمُسْلِمِين[١]. فَأَغْضىٰ الْإِمَام وتجَاهل، وَلزمْ يَثرِهَا حَرْباً عَمَلاً بِمبدَأه الَّذي أَعْلنهُ: «وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ اِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّة، ٱلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ، وَزِبْرِجِهِ»[٢]. وَعَلَيْهِ يَكُون الْمُرَاد بِشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ

⇐ ملكاً لِليهُود فصَالحُوا رَسُول الله عَلَيْهَا، ولمّا ٱنتقلت إِلَيْهِ وَهَبها لابنَته فَاطِمَة. وعَن كِتَاب «الدُّر المنثُور» للسّيوطي عِند تفسِير قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ ٱلإِسْرَاء: ٢٦. إنّ رَسُول اللهﷺ دَعَا فَاطِمَة، وأعطَاهَا فَدَكاً... ولمّا قُبض النَّبِيّ ٱنْتَزَعها أبو بَكْر من فَاطِمَة. أنظر، الدُّر المنثُور: ١٧٧/٤، لُباب النّقول للسّيوطي: ١٢٣. ولَم يَردها عُمَرَ فِي عَهْدِهِ لِبضْعَة مُحَمّدﷺ، ولمّا جَاء عُثْمَانَ وَهَبها لمرْوَان بن الحَكَم، وحِين تَوَلَّىٰ عُمَرَ بن عَبد العَزِيز رَدها إِلىٰ أَوْلَاد فَاطِمَة، وبعدَه ٱنتَزعهَا مِنْهُم يَزِيد بن عَبد الملك. ثُمّ رَدها السّفاح العَبَّاسي إِلىٰ الفَاطِميِين، ثُمّ أَخَذها مِنْهُم المَنصُور الدّوانِيقي وأَرْجعهَا إِلَيهِمْ المَأمُون، وٱنْتَزعها مِنْهُم المُتوكل، وٱنتهىٰ عَهد الفَاطِميِين بِفَدَك.

أُنظر، الكَامِل فِي التَّأريخ: ١٩١/٥، مِيزان الإِعْتِدَال: ١٣٥/٣، بشَارة المُصطفىٰ: ٣٥٣، فَتح القَدِير: ٢٢٤/٣، إعْلَام الوَرىٰ بأعلَام الهُدىٰ: ٢٠٩/١، كَشف الغُمة: ١٠٥/٢، العَدد القَوِيَّة: ١٩٥، جُواهر المطالب فِي مَناقب الإِمَام عَلِيّ لِابْن الدِّمشقِي: ١٥٦/١، ينَابيع المَوَدَّة: ١٣٨/١، مُسْنَد أَبِي يَعلىٰ: ٥٠٠/٢ ح ١٣٤٦، مَجْمَع الزَّوائد: ١٢٤/٩، تَأرِيخ ٱبن عسَاكر: ١٠٤/٤٢ و ١٠٥، النِّهَاية فِي غَرِيب الحَدِيث: ٣٨١/٤، شَرح الأَخبَار: ٣٢١/١، العُمدة: ١٤٠، فَضَائِل الصَّحَابَة لأَحْمَد ٱبن حَنبل: ٥٨٣/٢ ح ٩٨٧، ذَخَائِر العُقبىٰ: ٧٣، مُسْنَد أحمد: ١٦/٣، البداية والنّهاية: ٢١٢/٤، السِّيرَة النَّبوِيَّة لِابْن كَثِير: ٣٥٢/٣، لِسَان العَرَب: ٤٠٩/٧، تَاج العرُوس: ٢٢٨/٥، مُسْنَد أحمد: ١٦/٣ ح ١١١٣٨، تَالي تَلخِيص المُتشابه: ٥٢٨/٢.

(١) تَقَدّم الحَدِيث عَن قِصّة فَدَك. أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٧/١٢، صَحِيح مُسْلِم كتَاب الجِهَاد رقم «٥١ و٥٣ و٥٤ و٥٦»، مُسْنَد أحمد: ٤/١ و٦، عن عَائِشَةَ إشَارة إِلىٰ المحَاورة الَّتي دَارت بَيْنَ فَاطِمَة الزَّهراء البَتول عليها السلام، وبَيْنَ أَبِي بَكْر حَيْث قَالَ: إِنّي سَمِعتُ رَسُول اللهﷺ يَقول: «إِنّا مَعَاشِر الأَنْبِيَاء لا نُورّث، مَا تَرَكْنَاه فَهُوَ صَدَقَةٌ!!

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (٧٤).

قَوْمٍ، نَفْسُ أَبِي بَكْر، وَمَن وَافقه وآزره عَلىٰ عَمَله، والْمُرَاد بِسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ نَفْسُ الْإِمَام وَفَاطِمَة. وَتَقَدَّم الكَلاَم عَن فَدَك بِنَحوٍ مِن التَّفصِيل[1].

(وَ مَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَ غَيْرِ فَدَكٍ ؟ .. إلخ). وَهَل أَنْتفع بِالعَقَارِ والْأَمْوَال، وأَنَا مَحْمُول عَلىٰ الْأَعْوَاد، أو فِي قَبْر مُوحِشٌ مُظْلِمٌ يَتَرَاكم مِن فَوقِي التُّرَاب أو تَسَدَّد عَنِي الْحِسَاب حِين وقُوفِي بَيْنَ يَدي الله يَسْألنِي عمَّا جَمَعْتُ وتَرَكْتُ وَفَعَلْتُ ؟ وَهَل مِن شَيء أَقْسىٰ عَلىٰ الْإِنْسَان مِن أنْ يَكد ويَشْقىٰ فِي جَمع الْحُطَام، ثُمَّ يَترُكه إِلىٰ غَيْره لاَ يَنْتَفع بِهِ فِي قَبْرِه ويَوْم حَشْره ؟.

(وَ إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَىٰ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ). والتَّقْوىٰ هِي دَعْوَة الْإِسْلاَم والْقُرْآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2]. وقَوْله: «مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ» يُومىء إِلىٰ أَنّ التَّقْوىٰ عِند الله أَنْ تُسَاوي نَفْسَك بِكلِّ نَفْس، ولاَ تَرىٰ لَهَا فَضلاً عَلىٰ سوَاك كَائِناً مَن كَان إلّا بِالتَّقْوىٰ، وَمَعْنىٰ تَروِيض النَّفْس بِالتَّقْوىٰ أَنْ تُطَهرها مِن كلّ شَائِبَة كَالبُغْضِ، والْكَذِب والْحَسَد، وإنْ تُحيي ضَمِيرك بِحُبِّ الْخَيْر لِلنَّاس، كلّ النَّاس.

(وَ لَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَىٰ مُصَفَّىٰ هَذَا الْعَسَلِ، وَ لُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَ نَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ). إنَّ لِرَسُول الله ﷺ مُعْجِزَات شَتىٰ، وحَاول بَعْض البَاحِثِين أَنْ يَجْعَل مِن فَقْر النَّبيّ مُعْجِزَة كُبرىٰ تُضَاف إِلىٰ مُعْجِزَاته الجَمَّة لأنَّ مَعنىٰ الإِعْجَاز فِي وَاقعة أَنْ يَفْعَل الْإنْسَان مَا يَعْجز عَنْه غَيْره... وَقَد كَانَتْ أَمْوَال الْجَزِيرَة الْعَرَبِيَة

---

(١) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٢٠٢) (مِنْهُ ﷺ).
(٢) ٱلنِّسَاء: ١.

تُجبىٰ لِرَسُول الله ﷺ فَيُوزعهَا عَلىٰ النَّاس، ويَبيتُ طَاوِياً هُو وَأَهْل بَيْتِهِ عَلىٰ التَّمر والْمَاء، ولاَ يَسْتَطِيع هَذَا إلاّ مَن كَان رَحْمَة مُهدَاة للنَّاس أَجْمَعِين[(١)].

وعَلَيْهِ فِالْإِمَام رَحْمَةٌ مُهْدَاة، لأنَّ أَمْوَال الجَزِيرَة وَغَيرَها كَانَتْ تُجبىٰ إِلَيْهِ، ويُوزِعها عَلىٰ النَّاس، وهُو فِي أَشْد الحَاجَة إِلىٰ بَعْضهَا تَمَاماً كَما فَعل الرَّسُول الكَرِيم ﷺ... هُذا، وهُو يَرىٰ ذَلِكَ وَاجِبَاً وإلزَامَاً لاَ تَفضُلاً وإحْسَاناً، ويَقوَل: كَفىٰ بِالْمَرْء قَسْوَةً وضَرَاوةً أنْ يَتقَلب فِي النَّعِيم، وحَوْلَه أَكْبَادٌ تَحِنُّ إلَىٰ لِقُمَة العَيش... وأَعْظَم مِنْهُ لُؤمَاً مَن يَعِيش عَلىٰ حسَاب الآخرين يَصْنَعُون لهُ الْغِنَىٰ والتَّرف وَيَصْنَع لَهُم البُؤس، وَالْفقْر.

الشَّجَرَة الْبَرِّيَّة...٥ ـ ٩:

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَ لَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَ تَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدىً، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَ مُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ». أَلَا وَ إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ

---

(١) أنظر، شَرح نَهج الْبَلاَغَة لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ١٨٩/١٩، صَحِيح مُسْلِم: ٢١٨/٨، صَحِيح البُخَاري: ١٢٩/٣، سُنَن ابن مَاجه: ١٣٨٨/٢، سُنَن التِّرمِذي: ١١٨/٥، مَجْمَع الزَّوائد: ١٤٢/٧، مُسْنَد أَحمد: ٢٩٨/٢، إِقبَال الأَعْمَال: ٢٤١/١، الكَافِي: ٤٨٠/١، مَجْمُوعة ورَام: ٣٩، تلخِيص الحَبِير: ٤٨٠/١، سُبل السَّلام: ١٥٥/٢، تَهذِيب الأَحكام: ١٩٨/٤.

عُوداً، وَ الرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَ النَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَىٰ وَقُوداً، وَ أَبْطَأُ خُمُوداً[٥]. وَ أَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَ الذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ. وَ اللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَىٰ قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَ لَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَ سَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَـذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَ الْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ[٦].

وَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَ هُوَ آخِرُهُ:

إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَىٰ غَارِبِكِ، قَدِ ٱنْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَ أَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَ ٱجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَ مَضَامِينُ اللُّحُودِ. وَ اللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَ قَالَباً حِسِّيّاً، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَ أُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَ مُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَىٰ التَّلَفِ، وَ أَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَا وِرْدَ وَ لَا صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَ مَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَ مَنِ ٱزْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَ السَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَ الدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ ٱنْسِلَاخُهُ[٧].

ٱعْزُبِي عَنِّي! فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَ لَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي. وَ ٱيْمُ اللهِ ـ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ ـ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَىٰ الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَ تَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً؛ وَ لَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا. مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا. أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ؟ وَ تَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَ يَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا ٱقْتَدَىٰ بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ. وَ السَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ[٨]!

طُوبَىٰ لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَىٰ رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّىٰ إِذَا غَلَبَ الْكَرَىٰ عَلَيْهَا ٱفْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ ٱسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، ﴿أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّـهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فَاتَّقِ اللهَ يَا ٱبْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ[9].

اللُّغَة:

الجُشُوبَةَ: الخُشُونَة. وتَقَمُّمُهَا: تأكل القُمَامَة أي الكُنَاسَة. وتَكْتَرِشُ: تَملأ كَرشَها ومِعْدتها. وأَعْتَسِفَ الطَّرِيقَ: سَار بِلا هدَايَة ودرَايَة. والْمَتَاهَةِ: مَكَان الحَيرَة. وَالوَقُود ـ بِفتح الوَاو ـ المَحْرُوقَات، وبِضمها مَصْدَر أي الاِشْتعَال. والصِّنْوُ: الأَخ الشَّقِيق. والصِّنْوَان: فَرعَان الأصل وَاحد. والذِّرَاع: السَّاعد مِن طَرف المِرفَق إِلىٰ طَرف الاِصْبع الوسطىٰ. والعَضْد: مِن المِرفق إِلىٰ أَعلىٰ الكَتف. وتظَاهَرَت عَلىٰ قتَالِي: تعَاونَت عَلَيْهِ. والْمَعْكُوس: المَقْلُوب. وحَبِّ الحَصِيدِ: حَبُّ النَّبَات المَحْصُود. والغَارِبِ: العُنق، وأعلىٰ الظَّهر مِمَّا يَلِي العُنق، وأعلىٰ كلّ شَيء. ومَدَاعِبِ: جَمْع مَدْعَبَة أي دَعَابَة. الوِرْدَ: الإِشْرَاف عَلىٰ الْمَاء. والصَّدْرِ: الرُّجُوع عَنْهُ. والْزَلَقِ: لاَ تَثْبت فِيهِ الأَرْجُلَ. وٱزْوَرَّ: ٱنْحَرَف. وٱنْسِلَاخُهُ: ذِهَابه. وٱعْزُبِي: ٱبْعدِي. وأَسْلَسُ: لاَنَّ. وهِشُّ ٱبْتَسَم وٱرْتَاح. والمَأْدُوم: مَا يُؤكل مَع

(١) ٱلمُجَادِلَة: ٢٢.

الخُبز. والرَّبِيضَةُ: الْغَنَمُ الْمُجْتَمعة فِي مَرَابِضها مَع رُعَاتها. وتَرْبِضَ: وتَبْرُك. ويَهْجَعَ: يَسْكُن. وقَرَّتْ عَيْنُهُ: بَرَدَتْ. والْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ: المَتْرُوكَة بِلا رَاعٍ. وعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا: كِنَايَة عَن الصَّبر عَلىٰ الأَذَىٰ. والغُمْض وَالْكَرَىٰ: النّوم. والهَمْهَمَةُ: الصّوت الخَفِي. وتَقَشَّعَتْ: انْجَلَتْ.

الإِعْرَاب:

كَالْبَهِيمَةِ الكَاف بِمَعْنَىٰ مِثْل حَالاً مِن مَفْعُول يَشْغَلَنِي، ومِثْلها سُدىً، وَعَابِثاً، وَعُوداً تَمْيِيز ومِثله جُلُوداً، وَقُوداً، وَخُمُوداً، وإِلَيْكِ عَنِّي «إِلَيْكِ» اسم فِعل بِمَعْنَىٰ ابْعدِي. ومَطْعُوماً حَال، ومِثْله مَأْدُوماً، وطُوبَىٰ مَصْدَر بِمَعْنَىٰ الطَّيِّب، مُبْتَدأ، وَلِنَفْسٍ خَبَر.

الْمَعْنَىٰ:

(أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَ لَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ). يَسْأَل الإِمَام كلّ حَاكم: هَل الغَرَض مِن حُكْم الأَلقَاب الفَارِغَة، والمظَاهر الكَاذِبة؟ وهَل أَنْتَ مُقْتَنع بَيْنَكَ وبَيْنَ نَفْسك بذَلِك، أو تَسْتَطِيع أنْ تُقْنع بِهِ وَاحِداً عَلىٰ وَجْه الأَرْض؟

وجَوَاب الحَاكِم عَن هَذَا السُّؤال قَوْلاً وَفِعلاً هُو الَّذي يُحدد حَقِيقَته وَشَخصِيته، وبَعد هَذَا السُّؤال حَدَد الإِمَام وَظِيفَته ومَكَانته فِي الْحُكم، حَددها بِالوَحدة الإِنْسَانِية، ومُسَاواة الحَاكِم لِلرَّعِيَّة فِي كلّ شَيء حَتّىٰ فِي مكَارِه العَيش، ومِن البَدِيهَة أنّ هَذِه المُسَاوَاة تَضْمن الحُرِّيَّة لِلجَمِيع، والتَّعاون عَلىٰ مَصْلَحة الجَمِيع.

(وَ كَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ.... إلخ). إنَّ البُطُولَة والشَّجَاعَة لاَ تُقَاس بِنَوْع الطَّعَام، وإنَّما تُقَاس بِالصَّبر والثَّبَات، وتَوطِين النَّفْس عَلىٰ المَوْت، وبِقُوّة الجِسْم والعَضلاَت، والمَوَاقِف الَّتي سَجلها التَّأريخ لِلإمَام فِي غَزْوَات النَّبيّ ﷺ وحُرُوبه ـ تشْهَد بِأنَّه فَارس الإسْلاَم والعَرَب (أَلَا وَ إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً) مِن الشَّجَرَة الأَهْلِية، لأنَّ هَذِه تَحيَا بِالحَرْثِ، والسَّمَادِ، والمَاء السَّائح، والتَّقْلِيم، والتَّطعِيم، وتَحيَا تِلك عَلىٰ الطَّبِيعَة لاَ أَثر فِيها لِلصَّنعةِ، وَيَد الإنْسَان (وَ الرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ) وهِي الأَعْشَاب الغَضَة الَّتي تُعجبَك بِمنظَرها (أَرَقُّ جُلُوداً) مِن الأَعْشَابِ (وَ النَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَىٰ وَقُوداً) لِنَفْس العِلَّة المُوجِبَة لِصَلاَبَة الشَّجَرَة البَرِّيَّة. والقَصد مِن هَذَا هو التَّنْبِيه إِلىٰ أنَّ فِي التَّقَشُّف والخُشُونَة القُوَّة والصَّلاَبَة، وفِي التَّرف والرَّفَاهِية الضَّعْف واللِّين. ومَعْلُوم أنّ مُعَاوِيَة كَان يَتَقلب فِي النَّعِيم كالرَّوَاتِعَ الخَضِرَة.

(وَ أَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَ الذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ). النَّبيّ وعَليّ مِن طِينَة وَاحدة، وأَصْل وَاحد، وكَان النَّبيّ صَلْب العُود، وعَليّ سَيْفه وسَاعِده[1].

(١) أُنظر، الإرْشَاد للشَّيخ المُفِيد: ١/٤٤، أمَالِي الشَّيخ المُفِيد: ٧٧، أمَالِي الشَّيخ الطُّوسي: ٢/٧١، إعْلاَم الوَرىٰ: ١/٣١٩، بِشَارة المُصْطَفىٰ: ٣٧ و ٤٥ و ١٥٥، تَأريخ بَغدَاد: ٦/٥٦، الفُتُوح لِابن أَعْثَم: ١/٢٦٩، النّزاع والتَّخاصم: ١٢٨، يِنَابِيع المَوَدَّة: ٣/٢١١، مَنَاقب أمِير المُؤمِنِين، سُليمان الكُوفي: ١/ ٤٦٩، المُعْجَم الأوسط للطَّبراني: ٧/ ٥٠ ح ٦٠٨٢، كَنز العُمَّال: ١١/ ٦٠٨، ح ٣٢٩٤٤، عُيُون أَخْبَار الرّضا: ١/٧٨، الخِصَال: ٢١، الغَارات: ١/٢١، شَرح الأَخْبَار: ٢/٥٧٨، الإِحْتِجَاج: ١/٢٠٨، الصِّرَاط المُسْتَقِيم: ١/٢٢٨، بِحَار الأَنْوَار: ٢١/٢٨٠، مُسْنَد الإمَام الرِّضا: ١٣٥، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٢/٢٤٢، نُظم دُرر السِّمطِين: ٧٩، خصَائص الوَحي المُبين: ٢٤٢، شوَاهد التَنزِيل: ١/٢٨٨، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/١٠٠، تَفْسِير

وَقَالَ المُفَسِّرُون: إنَّ كَلِمَة «وَأَنفُسَنا» فِي آيَة المُبَاهَلَة أَرادَ بِهَا سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً وَعَلِيًّا: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(1)].

⇐ القُرطُبي: ٢٨٣/٩، الدُّر المنثور: ٤٤/٤، تَأريخ مَدِينة دِمشق: ٦٤/٤٢، مِيزان الإِعْتِدَال: ٣٠٦/٢، المُجدي فِي أَنْسَاب الطَّالبِين: ٣٢٠، كَشف الغُمة: ٣٢٣/١، كَشف اليَقِين: ٣٦٩، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ٢٦٩/١١.

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٦١. وَتَقَدَّم أَسْتخرَاج ذَٰلِكَ. وأنظر، فَتح القَدِير للشَّوكاني: ١/٣١٦ الطَّبعة الأُولَىٰ و ٣٤٧ الطَّبعة الثَّانِيَة طَبْعَة مُصطفىٰ الحَلبي بمِصْر، تَفسِير أبن كَثِير: ١/٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٦، و: ٢/٥٢ طَبْعَة بَيروت، تَفسِير الكشّاف للزَّمخشري: ١/٢٦٨ طَبْعَة قُم و ٣٧٠ طَبْعَة بَيروت، تَفسِير الطَّبَرِيّ: ٣/٢٩٧ ـ ٢٩٩ طَبْعَة دَار الكُتب العِلمِية بَيروت و ١٩٢ و ٣٣٠ و ٣٠١ طَبعة المَيمنية بمِصْر، و: ٢٢/٦، تَأريخ أبن كثير: ٥/٥٣ و ٥٤ طَبْعَة السّعادة سَنَة ١٣٥١، إمْتَاع الأَسْمَاع للمَقرِيزِي: ٥٠٢، مناقب الإِمَام عليّ عليه السلام لِابن المغازلي: ٢٦٣ ح ٣١٠ طَبْعَة بَيروت، الفَضَائِل لأَحْمَد بن حنبل: بَاب فَضَائِل الحَسَن والحُسَيْن عليهما السلام ح٢٧، شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٢٩١/١٦ طَبْعَة مِصْر، و: ٤/١٠٨ طَبْعَة مِصْر تحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل، أُسد الغَابَة لِابْن الأثير: ٤/٢٦، الإِصَابَة لِابْن حجر العسقلاني: ٢/٧٢ طَبْعَة الميمنية بمِصْر، مرآة الجنَان لِليَافعي: ١/١٠٩، أَسْبَاب النّزول للواحدي: ٥٩ و ٧٤ الطَّبعة الأُولَىٰ.

وأُنظر، أيضاً دَلائِل النُّبوَّة لأبِي نَعِيم: ١/٢٩٧، فرائد السِّمطِين للحمويني: أوائل السِّمط الثَّاني ح ٣٧١، السِّيرَة الحَلَبِية للحلبي الشَّافعي: ٣/٢١٢ طَبْعَة البهية بمِصْر، السِّيرَة النَّبويَّة لزين دحلان بهامش السِّيرَة الحَلَبِية: ٥/٣، أَحْكَام ٱلقُرآن للجصّاص: ٢/٢٩٥ ـ ٢٩٦ طَبْعَة عبدالرَّحمَان مُحَمَّد بمِصْر و ٢٩٥ الطَّبعة الثَّانِيَة تحقيق الفمحاوي، التسهيل لعلوم التّنزيل للكلبي: ١/١٠٩، فتح البَيان فِي مقاصد ٱلقُرآن: ٢/٧٢، زَاد المَسير لِابْن الجوزي: ١/٣٩٩، جَامع الأُصول لِابْن الأثِير: ٩/٤٧٠، الخصَائص: ٩٧، تَفْسِير الحبري: ٥٠، المُسْتَدرَك لِلحَاكِم: ٣/١٥٠، تَأريخ دمشق لِابْن عساكر: ١/٢٥٥ الطَّبعة الثَّانِيَة، تَفْسِير الجَلالين للسّيوطي: ١/٣٣ طَبْعَة مِصْر و ٧٧ طَبْعَة دار ٱلكِتَاب العَرَبِي بيروت.

وراجع أيضاً الرِّياض النّضرة للطَّبري الشَّافعي: ٢/٢٤٨ الطَّبعة الثَّانِيَة، الإِتحَاف فِي نَسب الأَشْرَاف للشّبراوي الشَّافعي: ٥، مَعَالِم التّنزيل للبَغوي بهَامش تَفْسِير الخَازن: ١/٣٠٢، مطالب السّؤول لِابْن ⇔

(وَ اللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَىٰ قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا). والسّر أنّ الإمام لاَ يُبَالِي كمَا قَالَ: «دَخَلْتُ إِلَىٰ الْمَوْتِ، أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ»[١]، أو كـما قـالَ: «وَاللهِ لاَبْـنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»[٢]. وَقَالَ الْعَقَّاد: «خُلِقَ عَـليّ شُـجَاعاً بَالِغاً فِي الشَّجَاعَة، والشُّجَاع جَرِيء لاَ يُبَالِي بِٱلْحيَاة»[٣].

(وَ لَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا) أي إِلىٰ رِقَاب الضَّالِين الْمُضْلِين مِن الْعَرَب (وَ سَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هَـذَا الشَّـخْصِ الْـمَعْكُوسِ) وهُـو مُعَاوِيَة، وَنَعَتَه بِالْمَعْكُوسِ لانْعكَاس عَقِيدتَه وَفَسَادها، وبِالْمَرْكُـوسِ لاِرْتكَـاسه بِالشَّهوَات والْمُحَرَّمَات (حَتَّىٰ تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ) القِطْعَة مِن الطِّين اليَابس ونحوها (مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ) أي مِن ثَمَر الزَّرْع ونـاتجه كـالحِنْطَة والشَّـعِير، وغَـيْرهما مِـن الحبُوب. ومُجْمَل الْـمَعْنَىٰ أنّ الإمَام يُرِيح الإنْسَانِيَّة مِن شَرّ مُعَاوِيَة إنْ ٱسْـتطَاع إِلىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً.

(إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَىٰ غَارِبِكِ) «لاَ حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاَثاً لاَ رَجْعَةَ فِيهَا»[٤]، (قَدِ ٱنْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَ أَفْـلَتُّ مِـنْ حَـبَائِلِكِ... إلخ). لَـقَد

⇐ طَلْحَة الشّافعي: ١/ ١٨ طَبْعَة النّجف، صَحِيح مُسْلِم: ٢/ ٣٦٠ بِشرح النّووي، و: ٧/ ١٢٠ طَـبْعَة مُحَمَّد عَليّ صَبيح، و: ٤/ ١٨٧١ طَبْعَة مِصْر تَحقِيق مُحَمَّد فـؤاد، و: ١٥/ ١٧٦ طَـبْعَة مِـصْر، صَـحِيح التِّرمِذي: ٤/ ٢٩٣/ ٣٠٨٥، و: ٥/ ٦٣٨/ ٣٧٢٤ و ٣٠١/ ٣٨٠٨ فِي بَاب فَضَائِل أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين، مُسْنَد أحمد: ١/ ١٨٥ طَبْعَة المَيمنِية، و: ٣/ ٩٧/ ١٦٠٨ طَبْعَة دار المعارف.

(١) أنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٥٥). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٥). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أنظر، فِي آخر كتَابه «عَبقَرِية الإمَام». (مِنْهُ ﷺ).

(٤) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٧٧). (مِنْهُ ﷺ).

حَرَرتُ نَفْسِي مِن مَلذَات الدُّنْيَا وأَهْوَائها، ووَقْتهَا عَلىٰ الآخِـرَةِ وجَـزَائـها (أَيْـنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ... إلخ). كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّـكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ. وتَقَدَّم مِثله مِرَاراً وتكرَارَاً (مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَ مَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ) الخِطَاب لِلدُّنْيَا، ودَحْض الحُجَّة إبْطَالها، ودَحْض الأَرْض زَلْقَها (وَ السَّالِمُ مِنْكِ) أي مِن فِتن الدُّنْيَا وغـرُورهَا (لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُـنَاخُهُ... إلخ). المُنَاخُ ـ بضم الخَاء ـ مَبْرَك الإِبل، والْمُرَاد بِهِ هُنا العَيش وغَيْره مِن شُؤُون الدُّنْيَا، والْعَاقِل لاَ يَكْتَرث بِالدُّنْيَا وآلاَمها، ولِأَنَّهَا إِلىٰ زَوال، والْآخِرَةِ هِـي دَار القَـرَار. وسَبَق التَّفصِيل مَرّات وَمَرَّات.

الإمَام فِي جِهَاد دَائِم:

(فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي) لاَ أَطْمَع فِي شَأن مِن شُؤُون الدُّنْيَا، لأنَّ الطَّامع فِي وثَاق الذُّلَّ، ولاَ أَتَذلَلّ إلّا لِمَن كَان التَّذلُّل لهُ عِزّة ورِفْعَة (وَ لَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي) مَهْمَا بَذلتِ مِن الثَّمَن (لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً). مَن تَجرأ عَلىٰ الدُّنْيَا جُرأَة عَليّ بن أَبِي طَالب، وٱحْتَقَرها هَذَا الاِحْـتقَار فعلَيْه أنْ يُوطن النَّفس عَلىٰ الْحِرْمَان مِن مُتْعَها، وَيَسْتَعد لِضَربَاتها... وَلِذَا رَوّض الْإِمَام نَفْسَه حَتَّىٰ قَنعَتْ وَأَعطَت الدُّنْيَا كلَّ مَا تُرِيد مِن التَّضحِيَات، ومَـا أَخَـذَت مِنْهَا إلّا قُرص شَعِير بِنخَالته مَع ذَرَات مِن المِلح تبتَسم لهُ وتُرحب بِه.

ويَدلنا هَذَا عَلىٰ أنّ الْإِمَام كَان فِي صِرَاع وجِـهاد دَائِم ومُـتصل: فَمِـن الْجِـهَاد الأَصْغَر فِي الْقِتَال ضِدّ الشِّرك والْبَغْي إِلىٰ الْجِهَاد الأَكْبَر فِي تَروِيض النَّفس وكَبْحَها عَن الأَهْوَاء والرَّغْبَات. وفِي حَدِيث قُدسِي: «يمُوت النَّاس مَرَّة، ويمُوت أَحْدهُم فِي

كُلّ يَومٍ سَبْعِين مَرَّة مِن مُجَاهدة أَنْفُسهم ومُخَالفة هَوَاهم »[1].

إنّ آلاَم الدُّنْيَا لاَ حَدَ ولاَ نهَايَة ، وطَرِيق الخَلاص مِن كلّ المتَاعب والهمُوم مُقفل ومُسَدد ، والْعَاقِل يَعرض عَن الدُّنْيَا ، ويَهرَب مِنْهَا ، ويَتوجَه بِكلّه إلىٰ الله وَحدَه ، ومَعْنىٰ الهرُوب مِن الدُّنْيَا أنْ تَهرَب مِن لهوَها ولعبهَا ، مِن آثامهَا ومفَاسدها ، مِن السَّلب ، وَالنَّهب ، والْبَغْي ، والْفَسَاد ، والدَّس ، والنِّفَاق ، ومَعْنىٰ التَّوجه إلىٰ الله أنْ تَتقِيه فِي أقوَالك وأَعْمَالُك ، وتُجَاهد بِنَفسك وأَمْوَالك لِمَصلحَة عِبَاده وَعِيَاله ... هَذِه هِي رِيَاضَة الْإِمَام وفَلْسَفَته وَمَنْهَجه فِي حيَاته وخِلاَفَته .

(طُوبَىٰ لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَىٰ رَبِّهَا فَرْضَهَا) وهُو أنْ تَترك أَثَراً يَنْتَفع بِهِ النَّاس مِن بَعْدَه ، وعَلىٰ الأقَل أنْ تَكف والْأَذَىٰ عَن النَّاس ، ولاَ تُفْسد فِي الْأَرْض . قَالَ الرَّسُول الْأَعْظم ﷺ : «كُفَّ أَذاكَ عن النّاس ، فإِنَّه صَدقة تَتصدَق بِها عَلىٰ نَفْسَكَ »[2] فَسَلبُ الشَّرّ خَير فِي دِين الْإِسْلاَم (وَ عَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا) . صَبَرتْ فِي الْحَقّ ، وجَاهَدت فِي سَبِيله ، وتَحَملتَ مِن الْأَشرَار الْكَثِير مِن البَلاء والضَّرَاء طَلباً لِمَرضَاة الرَّحْمَن وَرَاحَة الوجدَان (وَ هَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا) خَوْفاً مِن التَّقْصِيرِ فِي أدَاء فَرضَها الَّذي أَشَار إِلَيْهِ الْإِمَام بقَوْله : «طُوبَىٰ لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَىٰ رَبِّهَا فَرْضَهَا » .

(حَتَّىٰ إِذَا غَلَبَ الْكَرَىٰ عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا ، وَ تَوَسَّدَتْ كَفَّهَا) . هَذَا كنَايَة عَن قَنَاعَة النَّفْس بِمَا تَيَسَّر ، وأَنَّهَا لاَ تَتكَلف مَا تَعْسَر . وفِي الحَدِيث : «إنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَتْ لهُ حَصِيرة يَجْلس عَلَيْهَا فِي النَّهَار ، وَينَام عَلَيْهَا فِي اللَّيْل حَتَّىٰ أثّرت فِي

(١) أنظر ، بحَار الأَنوَار : ٢٤/٧٤ ح ٦.

(٢) أنظر ، مُسْنَد أحمد : ١٥٠/٥ ، كَنز الْعُمَّال : ٩٥٠/١٥ ح ٤٣٦٥١ ، سُبل الْهُدَىٰ والرّشَاد : ٢٨٨/٩ ، نـوَادر الرّاوندي : ٣.

جَنْبَه... ولكنَّه كَان يَكْرَه الْفَقْر، ولاَ يَرضىٰ بِهِ، وَيَتَعَوذ مِنْهُ»[١]. ومِن دُعَائه: «أَللَّهُمَّ أَنِّي أَعُوذ بِكَ مِن الْفَقْر والقِلة والذِّلَّة... ومِن أنْ أَظْلم أو أُظْلَم»[٢]... وفِي حَدِيثٍ آخَر: «كَاد الْفَقْر أنْ يَكُون كُفراً»[٣].

(فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَ تَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ).

عَاشَت هَذِه النَّفس الطَّيِّبَة القَانْعَة مَع أَهْل الله الَّذِين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٤]. أي خَوْفاً مِن عَذَابه، وَطَمَعاً فِي ثَوَابه (فَاتَّقِ اللهَ يَا ٱبْنَ حُنَيْفٍ، وَ لْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ). هَكذَا جَاء «لْتَكْفُفْ» فِيمَا لَدِي مِن نُسَخ النَّهْج... وَلعَلها خَطأ مِن النَّاسخ، وإنّ الأصل «لِتَكْفُكَ أَقْرَاصُكَ» أي ٱكتَف عَن موَائِد الَّذِين يَدْعُونك بِمَا لَديك مِن أَقْرَاص. وبِهذا وَحدَه يَكُون خَلاَصُك مِن النَّار. والله أَعْلم بِالصَّواب، ومِنْهُ نَسْتَمد التَّوفِيق.

وَبَعدُ، فإنَّ هَذِه ٱلرِّسَالَة أَوْضَح وأَصْدَق بَيَان فِي تَحدِيد نَهْج الإِمَام.

---

(١) أُنظر، مَضْمُون هَذَا الحَدِيث فِي المَبسوط للطّوسي: ٨/٩٠، المَجموع: ١٩٥/٦، المُهذب: ٥٩٤/٢، تَذكرة الفُقَهاء: ٥٦٦/٢، مكَارم الأَخْلاَق للطَّبرسي: ٢٥، سُنن التِّرمذي: ٩٤/٥، مُغني المُحتاج: ١٠٨/٣، تَفْسِير القُرطُبي: ١٦٩/٨، بِحَار الأَنْوار: ٣٨٥/١٦.

(٢) أُنظر، صَحِيح ٱبن حبّان: ٣٠٥/٣، كتَاب الدُّعاء للطَّبراني: ٣٩٩، مَوارد الظَّمْآن: ٦٠٥، الجَامِع الصَّغِير: ٢٣٤/١ ح ١٥٤٦، كَنز الْعُمَّال: ١٨٩/٢ ح ٣٦٨٨، الأدب المُفرد: ١٤٦، سُنن النَّسائِي: ٢٦١/٨، مُسْنَد أحمد: ٣٠٥/٢، عون المَعبود: ٢٨٢/٤، فَيض القَدير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ١٨٨/٢ ح ١٥٤٦، إرواء الغَلِيل: ٣٥٤/٣، سَير أعْلاَم النُّبلاء: ٤٩٢/١٥.

(٣) أُنظر، مُسْنَد الشِّهاب: ٣٤٢/١ ح ٥٨١، فَيض القَدير: ٥٤٢/٤ و: ٤٥٨/٥، مِيزان الإِعْتِدَال: ٢٠٤/٢ ح ٢٠٤ ح ١٧٤٦ و: ٢٣١/٧ ح ٩٦٦٩، العِلَل المُتناهِية: ٨٠٥/٢ ح ١٣٤٦، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٧/٧ و: ٤٥/١٠، كَشف الخَفاء: ١٤١/٢ ح ١٩١٩، الكَافِي: ٣٠٧/٢ ح ٤، الخِصَال: ١٢ ح ٤٠، الجَامِع الصَّغِير: ٢٦٦/٢ ح ٦١٩٩، كَنز العُمَّال: ٤٩٢/٦ ح ١٦٦٨٢.

(٤) ٱلسَّجْدَة: ١٦.

الرسالة ٤٦

الرِّفْقُ بِالرَّعِيَّة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَىٰ إِقَامَةِ الدِّينِ، وَ أَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ، وَ أَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَىٰ مَا أَهَمَّكَ، وَ اخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَ ارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَ اعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ، وَ اخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَ ابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَ أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَ آسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَ النَّظْرَةِ، وَ الْإِشَارَةَ وَ التَّحِيَّةِ، حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَ لَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

أَسْتَظْهِرُ: أَسْتَعِينُ. أَقْمَعُ: أَقْهَرُ. والنَّخْوَة: الكِبَر. واللَّهَاةَ: لَحْمَة فِي سَقْف الحَلق. والثَّغْرِ: مَا يَهْجم مِنْهُ الْعَدُوّ. والضِّغْث: الخَلْط. وَآسِ: سَاوِ واعْدل.

الإِعْرَاب:

مَا كَانَ «مَا» مَصْدَر ظَرفِيَة، وأَرْفَقَ بِالنَّصب خَبَر كَان، وفِي بَعْض النُّسخ

بِالرَّفع، وهُو خَطأ، وَآسِ فِعل أَمر، وَلَا يَيْأَس عَطف عَلىٰ لَا يَطْمَعَ.

الْمَعْنَىٰ:

لَمْ يُشر أَحد مِن الشَّارحِين إِلىٰ ٱسم هَذَا العَامِل، ولاَ مَصْلَحة دِينِية أو دِنيُوية فِي مَعْرِفته كِي نَتكَلف الْبَحْث عزنْه. ويَظْهر أَنَّه مِن عِباد الله الصَّالحِين وذَوِي البَأس والشَّجَاعَة لِقَول الْإِمَام: (فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَىٰ إِقَامَةِ الدِّينِ). وهَكَذا الْإِمَام السَّاهِر عَلىٰ مَصْلَحَة الرَّعِيَّة يَتَتَبَّع أَخْبَار عُمَّالِه، ويُكَافِيء الْمُحسن بِالْحَمْدِ والْمَعْرُوفِ، والْمُسِيء بِالذَّمِ والوَعِيد.

(وَ ٱخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ) ٱعْتَدل فِي مُعَامَلتك مَع النَّاس. لاَ شِدَّة ولا لِين، بَل بَيْنَ بَيْنَ، عَلىٰ أنّ الرِّفْق أَسْلَم مِن الْعُنْف لِدِينَكَ ودُنْيَاكَ. قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الرِّفْق لم يوضع عَلىٰ شَيء إلاّ زَانَه، ولاَ نُزع مِن شَيء إلّا شَانَه»[1]. ولاَ تُستَعمل الْعُنْف إلّا لِلقَضَاء عَلىٰ الْعُنْف، وحَيْث لاَ يُغْنِي عنهُ شَيء. وَكَان بَعْض الْمُلوك القُدَامىٰ يَجْلس للنَّاس وعَلىٰ الحَائِط قِطعَة كُتب فِيها بَخط عَرِيض: عِنْدَنَا الشِّدَّة فِي غَيْر عُنْف، واللِّين فِي غَيْر ضَعف، والْمُحْسِن يُجَازىٰ بِإِحْسَانه والْمُسِيء بِإسَاءته، والْأُرزَاق فِي حِينهَا، لاَ حِجَاب عَن صَاحب ثَغْر ولاَ طَارق لِيلٍ[2].

(وَ ٱخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَ ٱبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ) فَإِنَّ التَّواضع يَزِيدك رَفْعَة عِند

(١) أُنظر، الكَافِي: ٢/١١٩ ح ٦، و٦٤٨ ح ١. وَسَائِل الشِّيعة: ٢/٤٩٨ ح ٢٧٤١، بِحَار الْأَنْوَار: ١٦/٢٥٨ ح ٤٣.ب

(٢) أُنظر، الفَائق فِي غَرِيب الحَدِيث: ٣/١٦٨، كَنز الْعُمَّال: ٥/٧٦٥ ح ١٤٣١٩، تَارِيخ دِمشق: ٤٤/٤٣٩، تَارِيخ الْمَدِينَة: ٣/٨٧٩، النِّزاع والتَّخاصم: ٤٢، الْإِيضَاح: ١٦٣.

الله والنَّاس (وَ آسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَ النَّظْرَةِ). عَلَيْكَ بَيْنَ الجَمِيع حَتَّىٰ بِـاللَّحظة والنَّظرة ليَكُون الضَّعِيف عَلىٰ يَقِين بِأنَّه فِي حِصنٍ حَصِين بِحَاكمه، وإنَّك تَنْتَصف لهُ مِمَّنْ يَعْتَدِي عَلَيْهِ كَائِناً مِن كَان... وفِي الوَقت نَفْسَه يَقف القَوِيّ عِند حَده ولاَ يَطمَع مِنْك فِي المُحَابَاة عَلىٰ حسَاب المُسْتَضْعَفِين. وتَقَدَّم مِثْله بِالحَرف الوَاحد[1].

(١) أُنظر، أَوَّل ٱلرِّسَالَة: (٢٦).

الرسالة
-٤٧-

حِين ضَرَبَهُ ابنُ مُلْجَم:

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَىٰ اللهِ ، وَ أَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا ، وَ إِنْ بَغَتْكُمَا وَ لَا تَأْسَفَا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا ، زُوِيَ عَنْكُمَا وَ قُولَا بِالْحَقِّ ، وَ اعْمَلَا لِلْأَجْرِ ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً ، وَ لِلْمَظْلُومِ عَوْناً .

أُوصِيكُمَا ، وَ جَمِيعَ وَلَدِي وَ أَهْلِي وَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي ، بِتَقْوَىٰ اللهِ ، وَ نَظْمِ أَمْرِكُمْ ، وَ صَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا ـ ﷺ ـ يَقُولُ : «صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَ الصِّيَامِ » .

اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ ، وَ لَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ .

وَ اللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ . مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ ، حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ .

وَ اللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ .

وَ اللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ .

وَ اللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا .

وَ اللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ أَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ .

وَ عَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَ التَّبَاذُلِ، وَ إِيَّاكُمْ وَ التَّدَابُرَ وَ التَّقَاطُعَ. لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي.

اُنْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَ لَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَ الْمُثْلَةَ وَ لَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[1].

اللُّغَة:

أَلَّا تَبْغِيَا: لَا تُرِيدَا. وزُوِيَ: مُنِع. وَذَاتِ بَيْنِكُمْ: حَالِكُم، وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ: لَا تُجِيعُوهُم بأَنْ تُطْعِمُوهُم غبًّا[2]، أي ٱطْعِمُوهُمْ فِي كُلِّ يَومٍ، وَلَيْسَ فِي يَومٍ دُونَ يَوْم، مَن أَغْلَب فُلَانٌ أي زَار يَوماً، وتَرَك يَوماً. ولَمْ تُنَاظَرُوا: لَمْ يَنْظر إِلَيْكُم بِٱحْتِرَام. والتَّبَاذُلِ: الْعَطَاء. والتَّقَاطُعَ والتَّدَابُرَ بِمَعْنَىٰ. والْمُثْلَةَ: التَّشوِيه.

الْإِعْرَاب:

وجَمِيعَ مَفْعُول مَعْهُ لأُوصِيكُمَا، وَيَجُوز عَطف جَمِيعَ عَلَىٰ ضَمِير التَّثْنِية الْمَنْصُوب

---

(١) أُنظر، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٤٩/٦ و: ١٤٢/٩، الْمُعْجَم الْكَبِير: ١٠٠/١ و: ٤٠٣/١٢ ح ١٣٤٨٥ و: ١٥٧/١٨ ح ٣٤٣ و ٣٤٥، البَدَاية فِي تَخْرِيج أَحَادِيث الدِّرَاية: ٣٨/٢ ح ٤٩٨، نَصب الرَّاية: ٢٢٤/٣، المَبسوط للسَّرخسي: ١٣٥/٩، السِّير الْكَبِير للشَّيباني: ١١٠/١ و: ١٠٢٩/٣، تَنزِيه الْأَنْبِيَاء: ٢١٨، وهُنالك أحَادِيث كَثِيرة تَنهىٰ عَن الْمُثْلَة كمَا جَاء فِي مُسْنَد أحمد: ٢٤٦/٤ و ٤٤٠ و: ١٢/٥، شَرح مَعَاني الآثَار: ١٨٣/٣، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٦٩/٩.

(٢) أُنظر، شَرح ٱلنَّهج: ٧/١٧.

بِأُوصِيكُمَا، واللهَ نُصب عَلىٰ التَّحْذِير. وَإِيَّاكُمْ مَفْعُول لِفعل مَحْذُوف وجُوبَاً أي إِيَّاكُمْ أُحَذِّر، وأُحَذِّر التَّدَابُرَ عَلىٰ ٱضْمَار حَرف الجَر أي مِن التَّدَابُر.

الْمَعْنَىٰ:

(أُوصِيكُمَا بِتَقْوَىٰ اللهِ). الخِطَاب لِـلْإِمَامِين: الْحَسَـن والحُسَـيْن ﷺ، وهَـذِه الوَصِيَّة قَالهَا حِين ٱغْتَاله اللَّعِين، ٱبن مُلْجَم، كَمَا جَاء فِي آخرهَا (وَ أَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا، وَ إِنْ بَغَتْكُمَا). أي دُنْيَا الحَرَام. قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَن قَالَ قَبَّح الله الدُّنْيَا قَالت لهُ: قَبَّح الله أَعْصَانا لِرَبّه»[1]. (وَ لَا تَأْسَفَا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا، زُوِيَ عَنْكُمَا) لأنَّ الْأَسف لاَ يُرجع مَا فَات، ولأنَّ المَـطلوب فِي بَعْض الْأَحيَان يَكُون خَيرَاً مِن نَيله وإصَـابته، ولِمَاذَا الآلاَم والحَسَرَات عَلىٰ مَا أَنْت عَنْهُ فِي غِنىٰ؟.

(وَ كُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَ لِلْمَظْلُومِ عَوْناً) فإنَّ كُلاً مِن هَذِين فَرضٌ وحَتمٌ، فَعَون الْمَظْلُوم مَعْرُوف يَجِب الْأَمْر والْعَمَل بِهِ، والظُّلم مُنْكَر يَجِب تَركَه والنَّهي عَنْهُ، ومَن أَعَان ظَالِماً أو رَضِي بِفعلَه فهُو شَرِيك لهُ... إنَّ الظُّلم سَيِّئَة لاَ تُقْبَل مَـعه حَسَـنَة، وتَركُ الظُّلم حَسنَة لاَ تَضر مَعْهُ سَيِّئَة بِالنَّص الصَّرِيح عَن النَّبيّ حَيْث قَالَ: «مَـن أَصْبَح لاَ يَهم بِظُلم أَحد غَفر الله مَا ٱجْتَرَم»[2].

---

(١) أُنظر، كَـنز الْـعُمَّال: ٢٣٩/٣ ح ٦٣٤١، العـهُود الْمُـحمدِّية: ٨٥١، كـتَاب أمـثَال الحـدِيث لِابـن خَـلاد الرَّامهرمزي: ٦٠، كَنز الفوَائِد: ٢٧١، فَيض القَـدِير شَرح الجَـامِع الـصَّغِير: ٤١٤/٢، تـفْسِير الثَّـعالِبي: ٣٩٠/٥، وَسَائِل الشِّيعة: ٥٠٩/٧ ح ٩٩٨٩، شَرح أُصول الكَافي: ٤٦/٧.

(٢) روَاه الكُلِينِي فِي «أُصول الكَافي». وتَحدثنَا مَرَّات عَن الظُّلم. أُنظر شَرح الْخُطْبَة: (١٧٦) فِقْرَة: «لاَ إسْلاَم مَع ظُلم». (مِنهُ ﷺ). وأُنظر، الكَافِي: ٣٣٢/٢ ح ٨، بِحَار الْأَنْوَار: ٣١٥/٧٢ ح ٣٣ و ٦٢، الجَامِع الْصَّغِير: ٥٧٢/٢ ح ٨٤٥١، كَنز الْعُمَّال: ٥٠٤/٣ ح ٧٦٣٠، تَأريخ ٱبن عسَاكر: ٢٧٣/٥٣ ح ٦٤٦٢.

(وَ صَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا ـ عليه السلام ـ يَقُولُ: «صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَ الصِّيَامِ»)[1]. وصَلَاح ذَاتِ البَيْنِ أنْ تُصلح قوم تَفَاسدُوا، وَتبَاعدُوا، وتجْعَل قُلُوبهمْ وَاحدة، وكَلِمَتهُم مُتحدة... وهَذَا العَمَل أَفْضَل عِند الله مِن جَمِيع الصَّلاة والصِّيَام وكُلّ مَا يَكُون مِن ركُوع وسجُودٍ، وتهلِيلٍ وتَكبِير، لأنَّ الْعِبَادَة أَمْر خَاص بَيْنَ الإنْسَان وخَالِقه، أَمَّا النِّزَاع والخصَام فأثَره عَام حَيْث يُؤدي حَتماً إِلىٰ المظَالِم والمفَاسد، وضَعف المُجتَمع وٱنحطَاطه، وَفَشله وتخلفه، وتَغلُّب الغُزَاة والطَّامعِين علىٰ البِلاد، وتَحكمُهم بِأرْوَاح العِبَاد ومُقدرَاتهُم.

وهَل مِن شَيء أَدْل عَلىٰ ذَلِكَ مِن أوضَاعنا الشَّنيعة نَحْنُ العَرَب الّتي جرّأت عَدوّنا وعَدوّ الإِنْسَانِية أنْ يحتل جُزءاً كَبِيراً مِن أرْضنَا فِي مَنْطَقة ٱسترَاتِيجِية، يُهدد كِيانَنا وحَاضرنَا ومُستَقبلنا؟... وغَرِيبَة الغَرَائِب أنْ لاَ يُوجد فِي هَذَا الْعَصْر عَرِبِي قَوّي يُصْلح ويَجمَع الشَّمل!. ولاَ سرّ ـ فِيمَا نتَصَور ـ إلّا أنّ مَركز الْقِيَادَة بَيْنَ الَّذين لاَ يَسْتَجِيبُون لِكتَاب ولاَ سُنّة ولاَ عَقل وضَمِير إلّا لأَهوَائِهم وأَغْرَاضهم.

(وَ اللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ). تَقدَّم فِي العَدِيد مِن ٱلخُطَب، مِنْهَا ٱلخُطْبَة (١٨ و ١١٠ و ١٧٦) وغَيرْها (وَ اللهَ اللهَ فِي الصَّلاةِ) تَقدَّم فِي ٱلخُطْبَة (١٩٩) وغَيرْها (وَ اللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ) تَقدَّم فِي ٱلخُطْبَة (٢٧) وكَثِير غَيرْها (لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ

---

(١) أنظر، المُعْجَم الكَبِير: ١٠١/١، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٢٩٨/٢ ح ٣٧٧١، تَهذِيب مُستمر الأَوهَام: ٢٣٦/١، تَأرِيخ الطَّبَري: ١٥٨/٣ و: ١١٣/٤ طَبعة أُخرىٰ، الكَافِي: ٥١/٧، دعَائِم الإِسْلام: ٣٤٩/٢، ثوَاب الأَعْمَال: ١٤٨، البدَاية والنِّهاية: ٣٦٣/٧، تُحف العقُول: ١٩٨، المعيار والموَازنة: ٢٤٦، كَشف الغُمة: ٥٩/٢، سُبل الهُدىٰ والرَّشاد: ٣٠٦/١١، المَناقب للخوَارزمي: ٣٨٥، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٣٠/٢، مَقتل الإِمَام أَمِير المُؤمِنِين لابن أَبِي الدُّنيا: ح ٣٣.

النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّىٰ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ... إلخ). تَقَدَّم فِي ٱلْخُطْبَة (١٥٦) وغَيْرِها.

(أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي... إلخ). قَالَ عَبد الكَرِيم الخَطِيب: «سُئِل الإِمَام فِي أَمر ٱبن مُلْجَم؟ فَقَال: «إِنْ أَعْش فِالْأَمْر إِليَّ، وإِنْ أَصب فِالْأَمْر لَكُم، فإِنْ آثَرتُم أَنْ تَقْتَصوا فضَرْبَة بِضَرْبَةٍ، وَأَن تَعفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»[1].... وَقَالَ: «أَطِيبُوا طَعَامه،

---

(١) أنظر، فِي آخر كِتَابه عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِية النُّبوّة، وخَاتَم ٱلخِلاَفَة، طَبعة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ).

قَالَ ولَدهُ الإِمَام الحَسَن: «أَتيتُ أَبِي سَحراً فَسلّمتُ عَلَيْهِ فَردّ عليَّ السّلام، وَقَالَ: إِنّي بِتّ أَرقَاً فرأَيتُ وَقد مَلَكتني عَينِي، حَبِيبي رَسُول الله فَشكَوْتُ إِليهِ مَا لَقِيتُ مِن أُمّتهِ مِن الأَوَد، واللّدَد فَأَمرنِي بِالدُّعاء فَقُلتُ: أَللَّهُمَّ إِنِّي قَد كَرِهتهُم، وكَرهونِي، فَأَرحنِي مِنْهُم، وأَرحهُم مِنّي»، فَاستجَاب الله دُعَاءه. رُوي ذَٰلِكَ بِطُرق عَدِيدة، فَمثلاً عَن عَمّار الدُهني عَن أَبِي صَالح الحَنفِي قَال: سَمعتُ عَلِيّاً عليه السلام يَقول: رَأيتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله فِي مَنامِي، فَشكَوتُ إِليهِ مَا لَقِيتُ مِن أُمّتهِ مِن الأَوَد واللّدَد ـ العَوج وَالخُصُومَة الشّدِيدة ـ وبَكِيتُ، فَقَال: لاتَبكِ يَا عَليّ والتَفِتْ، فَالتفتُّ فإِذَا رَجُلان مُصَفَّدان، وإِذَا جَلامِيد تُرْضَح بِها رُؤُوسهُما. أُنظر، النِّهَاية: ٤/ ٢٤٤، الإِرْشَاد: ١/ ١٥، المنَاقب للخوَارزمي: ٣٧٨ و٤٠٢، مَناقب أبن شهر آشوب: ٣/ ٣١١، كَشف الغمّة: ١/ ٤٣٣ طَبعة الحَدِيثة قَرِيب مِن هَٰذَا اللّفظ، وتَذكرة الخَواصّ: ١٠٠، إِعْلاَم الوَرىٰ: ١٥٥، بِحَار الأَنْوَار: ٤٢/ ٢٢٥، شَرح النّهج لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١/ ١٢٨، شَرح النَّهج للفِيض: ١٥٦ خُطبَة ٩٦، تَأرِيخ دِمشق تَرجمَة الإِمَام عَليّ: ٣/ ٢٩٥، الاِسْتِيعَاب لِابْن عَبد البرّ بِهَامش الإِصَابَة: ٣/ ٦١.

عَوْداً عَلىٰ بِدْء:

وتَفرق عبدالرّحمن بن مُلْجَم، وشبيب خَلف سواري مسْجد الكُوفة فلمّا نُودِي للصَّلاةِ خَرج مُسْرعاً فأَصَاب ٱبن مُلْجَم جَبْهتهُ، وأَضَاف الشّيخ المُفيد في الإِرْشَاد: ١/ ١٩: وَقَد كَانوا قَبل ذَٰلِكَ أَلقَوا إِلىٰ الأَشعث بن قيس مَا فِي نفُوسهم مِن العَزِيمَة عَلىٰ قَتْل أَمِير المؤمنين عليه السلام وواطَأَهُم عَلَيْهِ، وحضَر الأَشعث بن قيس فِي تِلك اللّيْلَة لمعُونتهُم عَلىٰ مَا ٱجتمعُوا عَلَيْهِ. وكَان حُجر بن عَدِيّ فِي تِلك اللّيْلَة بَائِتاً فِي المَسْجِد فسَمِع الأَشعث يَقول لِابْن مُلْجَم: النّجاء النّجاء لحَاجتك فَقَد فَضَحك الصُّبح، فَأحسّ حُجرٌ بِما أَرَاد الأَشعث فقَال لهُ: قَتلتهُ يَا أَعْور. وأَضَاف البَلاذُري فِي: ٢/ ٤٩٤. فلمّا قُتل عَليّ قَالَ عَفِيف: هَٰذَا مِن عَمَلك

⇔ وكِيدَك يَا أعْور....

وَقَالَ أبو الفَرج فِي مُقاتل الطَّالبِيين: ٤٧: وللأشعث بن قيس فِي ٱنْحرافه عَن أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ أخبَار يَطول شَرحها... ومِثل ذَٰلِكَ فِي شَرح النَّهج لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٣٤٠. ولَم يَلتق حِجْر بن عديّ بِعَلِيٍّ... وخَرج مُبادراً لِيمضي إِلىٰ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَيُخبره الخَبَر، ويُحذِّره مِن القَوم، وخَالفه أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَدخل المَسْجد فَسَبقه ٱبن مُلْجَم... لكن فِي أَمَالي الشَّيخ الصّدوق: ١٨/٣ وَرَد مُسْنَداً عَن الإمام عَليّ بن الحُسين عليه السلام: فَوقَعت الضَّربَة وهُو سَاجد. وفِي الكَنز: ١٥ / ١٧٠ ح ٤٩٧ أنّ ٱبن مُلْجَم طَعن عَلِيّاً حِين رَفع رَأسه مِن الرّكعَة فَٱنصَرف وَقَالَ: أتمّوا صَلاتكُم ولَم يُقدّم أحداً... وقَرِيب مِنْهُ فِي تَأريخ دِمشق: ح ١٣٩٧: أنّ عبد الرّحمن بن مُلْجَم ضَرَب عَلِيّاً فِي صَلاة الصُّبح عَلىٰ دَهش بِسيفٍ كَان سَمّه... وقَرِيب مِنْه فِي الفضَائل لأَحْمَد: ح ٦٣ لكن بإضَافة: ومَات مِن يَومه ودُفن بِالكُوفة.

أمّا ٱبن أَبِي الدُّنيا فِي مَقتل أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ: ح ٥٣٢ فقَال: إنّ عَلِيّاً خَرَج فَكبّر فِي الصَّلاة، ثُمّ قَرأ مِن سُورة الأَنْبِيَاء إحدىٰ عَشرة آيَة، ثُمّ ضَرَبه ٱبن مُلْجَم مِن الصَّف عَلىٰ قَرنه ـ وأضَاف: ـ إنّه لمّا ضَرب ٱبن مُلْجَم عَلِيّاً عليه السلام وهُو فِي الصَّلاة تَأخر فَدفع فِي ظَهره جَعْدة فصلّىٰ بِالنَّاس... وروىٰ الطَّبراني فِي مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٤١، والطَّبَرِيّ: ٦ / ٨٤ طَبعة أُخرىٰ، وشَرح النَّهج لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٣٤، والشّيخ المُفِيد فِي الإِرْشَاد: ١ / ٢٠ مَا يَلي:... فَأقبل عليه السلام يُنادِي: الصَّلاة الصَّلاة، فرَأيت بَريق السَّيف وَسَمعتُ قَائلاً يَقول: الحُكْم لله يَا عَليّ لاَ لَكَ، ثُمّ رَأيت بَريق سِيف آخر وَسَمِعتُ عَليّ عليه السلام يقول: لاَ يَفُوتَنّكم الرَّجُل.... ووَصل إلىٰ دمَاغِهِ، فقَال: «لاَ يَفُوتنكم، فَوثبُوا عَليهِ مِن كُلّ جَانبٍ فَلمّا مَسكُوهُ. قَالَ لَهُم: أكرمُوهُ؛ فإنْ عِشتُ فأنَا وَليّ دَمي، أمّا أعفو، وأمّا أقتَصُّ، وإنْ مُتُّ فَألحقُوهُ بِي، ولاَ تَعْتَدوا إنّ الله لاَ يُحبّ المُعتدِين، أُنظر، تَأريخ مَدِينة دِمشق: ٤٢/ ٥٥٩، تَأريخ اليَعقوبي: ٢/ ١١٩ مع إخْتلاف، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٣/ ٢٥٦، الإمامة والسِّيَاسَة: ١/ ١٨١.

وَقَالَ عليه السلام: «فُزتُ وربّ ٱلْكَعْبَة»، أُنظر، شَرح الأَخْبَار: ٢/ ٤٤٢، تَأريخ مدِينة دمشق: ٤٢/ ٥٦١، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥/ ١٤٣، مُقاتل الطَّالبِيين: ٢٩ و٤٧، طَبقات ٱبن سعد: ٣/ ٣٥، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢/ ٤٨٩ و٤٩٩ و٥٢٤، مروج الذّهب: ٢/ ٤١١، الإمَامة والسِّيَاسَة: ١/ ١٥٩، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٣/ ٣٨٩، مناقب الخوَارزمي: ٣٨٠ ـ ٤١٠، مَناقب ٱبن شهرآشوب: ٣/ ٣١١، بحَار الأَنْوَار للمجلسي: ٤٢/ ٢٢٨، تَأريخ ٱبن عساكر: ٣/ ٣٦٧ ح ١٤٢٤ وأضَاف قَول الإِمَام عَليّ عليه السلام عِندمَا ضَرَبه ٱبن مُلْجَم

⇔

↔ «فُزتُ وربّ ٱلكَعْبَة»، وذكر ذَلِكَ البَلاذُري فِي الأنْسَـاب: ١/ ٤٨٨ و٤٩٠، تَأريخ دمشـق: ٣٨/ ٩٧، و: ٣/ ٣٠٣ ح ١٤٠٢ وما بَعدها، كَـنز الـعُمَّال: ١٣/ ٦٩٧، الفَـتح الرَّبَّـاني: ٢٣/ ١٦٣، والحَـاكِـم فِي المُسْتَدرَك: ٣/ ١٤٤، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١١٠ فَضَائِل عَليّ عليه السلام، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٣٣ بَاب ٩ فصل ٥ مع تَقدِيم وتَأخير بما يُناسب السِّياق ويَحفظ ٱسترسَال المَعْنَىٰ واللَّفظ. وأنظر، الفُتُوح لِابْن أعْـثَم: ٢/ ٢٧٦، أعْيَان الشّيعة: ١/ ٥٣٠ الإسْتِيعَاب: ٣/ ٥٩ بإضَافة «... لاَ يَفُوتَنكُم الكَلب» أُسد الغَابَة: ٤/ ٣٨، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٦٤، أرجَح المطالب: ٦٥١، إحقَاق الحَقّ: ٨/ ٧٩٥.

إنّ مع كُلّ إنْسَانٍ مَلكيّن يَحفظَانه، فإذَا جَاءَ القَدَر خَلّيا بَيْنهما، وإنّ الأجَل جُنّة حَـصِينَةٌ، وٱسْـتدعىٰ بِأوْلاَدِهِ ورغّبَهُم فِي الآخرة، وأزهَبهُم مِن الدُّنْيا، وزَهدهُم فِـيها، وقَـرَأ: ﴿لِّكَـيْلَا تَأْسَـوْاْ عَـلَىٰ مَـا فَـاتَكُمْ وَلَاتَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَـٰكُمْ﴾، ٱلحَدِيد: ٢٣، وأمَرهُم بِتَقوىٰ الله سِرّاً وعَلانِيةً، ثُمّ قَرَأ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ٱلنِّسَاء: ١٣١، وأشْهدهُم، ومَن حَضرَ أنّه قَد أمَّرَ الحَسن، أُنظر، المُعمّرُون والوَصَايا لِلسّجستَاني: ١٤٩، التَّأريخ للطَّبري: ٦/ ٨٥ و٦١، الأمَالي للزجّاجي: ١١٢، الكَافِي: ٧/ ٥١، مروج الذّهب: ٢/ ٤٢٥، تُحف العقُول: ١٩٧، من لا يَحضره الفَقِيه: ٤/ ١٤١، مَنَاقب الخوَارزمي: ٢٧٨، كَشف الغُمّة: ٢/ ٥٨، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١١٦، روضَة الوَاعـظِين لـلفتّال الـنّيسابوري: ١٣٦، المعَارف: ٢/ ١٧٨، الكَافِي: ٧/ ٥١، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٢/ ٥٢، كتَاب سُليم بن قَـيس: ٤٤٦، مـقاتل الطّالبيين: ٢٤.

وعهدَ إليهِ مَا كَان عليهِ. وَقَالَ: السّلام عَليكم ورَحمة الله وبَركاته، ولَم يَتَكَلَّم بَعد ذَلِكَ بِغَير لاَ إِلٰه إلّا الله مُحَمّد رَسُول الله حَتَّىٰ قَبضهُ اللهُ، ودُفِن فِي السّحر صَلوات الله عَلَيْهِ.

هَذَا، ولِسَان حَالِي يَقولُ: «يَا لَيتنِي كُنتُ مَعَك سَيِّدي فَأفوز فوزاً عَظيماً». وقِيل كَان آخر كَـلاَمه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، ٱلزَّلْزَلَة: ٧ ـ ٨.

وأمّا شَبِيب فَوقع سِيفهُ فِي الطّاق فَأفلت لذَلك، وأرَادوا بعبد الرّحمن التّنكِيل بأنوَاع العَذَاب، فَذكروا وَصيّته فاقتصّوا، ومكثَ ٱلجُمُعَة، والسَّبت، وتوفّي لَيْلَة الأحد لإحدىٰ عَشرة لَيْلَة بَقِين، وقِيل: خَلت مِن شَهر رَمضان سَنَة أربعِين من الهِجْرَة. أُنظر، تَأريخ اليَعقوبي: ٢/ ٢١٢، فضَائِل الصَّحَابَة لِابْن حَنبل: ٢/ ٥٥٧، مروج الذّهب: ٢/ ٤٢٦، تَأريخ دمشق: ٢/ ٥٨٧. وقِيل: جُرح لِتسع عَشر لَيْلَة خَلت مِن شَهر رَمضَان، وقيل: قُتل لِسبع عَشر لَيْلَة مِنْهُ، ومَات مِن لِيلته، وقِيل: فِي سَابع عشرين مِنْهُ، وقـيل: طُـعن ↔

وأَلِينُوا فِرَاشه، وأنْ تعفُوا أَقْرَب لِلتَّقْوَىٰ»[1]. وَقَالَ جُورج جُردَاق: «لمَّا قَالَ لهُ طَبِيبَه أعْهَد يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الضَّرْبَة قَد بَلَغَت أُمّ الرَّأس ـ لَمْ يَتَأفف وَلَمْ

↩ لإحدىٰ وعشرِين لَيْلَة خَلت مِنْهُ، وقِيل: فِي اللَّيْلَة التَاسعة مِنه، وقِيل: لَيْلَة الثَّانِي والعِشْرِين مِنه، وقِيل: قُتل يَوْم ٱلْجُمُعَة، وقِيل: فِي لِيلتها فِي إحدىٰ وعشرِين مِنه، وقِيل مَات فِي يَوْم الأحد مِنه. أنظر، فَضَائِل الصَّحَابَة لِابْن حَنْبل: ٢/ ٥٥٩، أُسد الغَابَة: ٤/ ١١٣، البداية والنّهاية: ٧/ ٣٣١، تَأرِيخ بَغداد: ١/ ١٣٦، تَأرِيخ مدينة دمشق: ٤٢/ ٥٨٤، البداية والنّهاية: ٧/ ٢٣١، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٣/ ٣٩، الْفُتُوح: ٣/ ٢٨١، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٣/ ٣٩، الْفُتُوح: ٣/ ٢٨١، المناقب للخوارزمي: ٣٩٦، مقتل أَمِير الْمُؤْمِنِينَ: ٤٩.

وجَاء فِي بِحَار الأَنْوَار: ٤٢/ ٢١٣ بِلفظ: حَتَّىٰ قُبض لَيْلَة ثَلاث وعشرِين مِن شَهر رَمْضَان لَيْلَة ٱلْجُمُعَة سَنَة أرْبَعِين مِن الْهِجْرَة، وكَان ضُرب لَيْلَة إحدىٰ وعشرِين من شَهر رَمضَان. وهَكذا أيضاً فِي الْغَيْبَة للشَّيخ الطّوسي: ١٢٧ عَن جَابر عن أَبي جَعفر ﷺ، وفِي روَاية أُخرىٰ فِي نَفس الْمَصْدَر عن صفوَان بن يَحيىٰ قَالَ: بَعث إليَّ أبو الحَسن موسىٰ بن جَعفر ﷺ بهَذه الوصِية، وفِي روَاية أُخرىٰ أنّه قُبض لَيْلَة إحدىٰ وعشرِين وضُرب لَيْلَة تِسع عَشرة وهِي الأظهر.

وفِي مناقب آل أَبِي طالب: ٢/ ٧٨: قُبض ﷺ قَتِيلاً فِي مَسْجِد الكُوفة وَقت التّنوِير لَيْلَة ٱلْجُمُعَة لِتسع عَشرة لَيْلَة مَضِين مِن شَهر رَمْضَان. وفِي الإِرْشَاد: ١/ ٩ قَالَ: وكَانَتْ وفَاته ﷺ قُبيل الفَجر من لَيْلَة ٱلْجُمُعَة لَيْلَة إحدىٰ وعشرِين مِن شَهر رَمْضَان سَنَة أربعِين مِن الْهِجْرَة قَتِيلاً بِالسَّيف... وفِي شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/ ١٨١ قَالَ: وكَان عُمره ﷺ ثَلاثاً وَستِين سَنَة، وُمدة خِلافته أرْبَع سِنِين وتِسعة أشْهر ويَوماً وَاحِداً.

وللنَّاس خِلاف فِي مُدة عُمره وفِي قَدر خِلافته، أنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤/ ١١٦، والْفُتُوح: ٢/ ٢٨٢، وفِي المقاتل: ٥٤ قَالَ: توفِّي ﷺ وهو ابن أرْبع وستِين سَنَة... فِي لَيْلَة الأحد لإحدىٰ وعشرِين لَيْلَة مَضت مِن شَهر رَمْضَان. وأُنظر، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢/ ٤٩٨، أمّا الكَامِل فِي التّأرِيخ: ٢/ ٤٣٣ فقَال: وفِي السَّنَة ٤٠ هـ قُتل عَلِيٌّ فِي شَهر رَمْضَان لِسَبع عَشرة خَلت مِنْهُ، وقِيل: لإحدىٰ عَشرة، وقِيل: لِثلاث عَشرة بَقِيت مِنْهُ، وقِيل فِي شَهر رَبِيع الآخر سَنَة ٤٠، والأوّل أصحّ. وَقَالَ العَلّامة السَّيِّد مُحسن الأمِين: ١/ ٥٣٠: قُتل ﷺ سَنَة ٤٠ من الْهِجْرَة في شَهر رَمْضَان، ضُرب لَيْلَة التّاسع عَشر لَيْلَة الأربَعاء، وقُبض لَيْلَة ٱلْجُمُعَة إحدىٰ وعشرِين علىٰ الْمَعْرُوف بَيْن أصحَابنا وعَلَيْهِ عَمل الشّيعة اليَوْم. ولِبَعْضهُم.

يُذكرنِي رَيبُ الزّمَان وفِعْلهُ ... زَمَانُ عَلِيٍّ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَة

(١) تَقدَّم اَستخرَاج ذَلِكَ.

يَتَشَكك، بَل أَسْلَم أَمرَه إِلىٰ الله، ثُمَّ أَمْلىٰ عَلىٰ الحَسْنين: لاَ تُثَار فِتْنَة بِسَبب قَـتلي، ولاَ يَهْرق دَم، وَأَن تَعفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ». ومَات فِي الأَرْض عَظِيم، وَقَام فِي النَّاس مَن تَعَاظمُوا!. فإِذَا هُنا إِنْسَان يَمُوت فَيَعلو، وإِذَا هُناك أُنَاس يَعِيشُون فَيصغُرون[1].

أَمَّا الْـعَقَّاد فـقَال فِي كـتَاب «عَـبْقرِية الإِمَـام»: «وُلد فِي الكَـعْبَة، وضُرِب فِي المَسجد، فأيَّة بدَاية وَنهَايَة أَشْبه بِٱلْحَيَاة بَيْنَهما مِن تلك البدَايَة، وَتِلك النَّهايَة»[2]. يُرِيد أنَّ حيَاة الإِمَام مُـنذ النَّـفس الأَوَّل حَـتَّىٰ النَّـفس الأَخِـير هِـي للهِ، وفِي الله وَحدَه[3].

---

(١) كِان ٱسْم الطَّبِيب الَّذي أَخْبَره هُو أثِير بن عَمرو بن هَانِي السَّكونِي، وكَان مُطبباً صَاحب الكُرسي يُعالج الجُرَاحات، وكَان مِن الأَرْبعِين غُلاماً الَّذِين كَان ٱبن الوَلِيد أصَابهُم فِي عَين التَّمر فَسَبَاهُم. أنـظر، مـقاتل الطالبيين: ٢٣، بِحَار الأَنْوَار: ٢٣٤/٤٢ ح ٤١، نهج السعادة: ١٣٠/٧، معجم البلدان: ٩٣/١، معجم ما أستعجم: ١٠٩/١.

(٢) أنظر، عَبْقَرية الإِمَام: ٤٣. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) وُلِدَ عَليٌّ عليه السلام بِمَكَّة المُشرّفة بِدَاخل البَيْت الحَرَام فِي يَوْم ٱلْجُمُعَة الثَّالث عَشر مِـن شَهـر الله الأَصَمّ رَجَب الفَرْد سَنَة ثَلاثِين مِن عَام الفِيل قَبل الهِجْرَة بِثلاَث وَعشرِين سَنَة. وَكرّم الله وَجهَه عَن السُّجود لأَصْنَامها فكَأنّما مِيلاده ثمّة إِيذَاناً بِعَهدٍ جَدِيدٍ لِلكَّعبَة ولِلعبَادة فِيها. (عَبْقَرية الإِمَام لِـلعقّاد: ٤٣. وَقَـالَ الدَّهـلوي الشَّهير بشَاه وَليّ الله وَالد عَبدالعَزِيز الدَّهلوي مُصنّف «التُحفَة الإِثْنَا عَشرية فِي الرَّدّ عَلىٰ الشِّيعة» قَالَ فِي كتَابه إِزَالة الخَفَاء: تَوَاترت الأَخْبَار أنّ فَاطِمَة بِنت أسد وَلَدت أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام عَلِيّاً فِي جُوف الكَّعْبَة، فإِنّه وُلد فِي يَوْم ٱلْجُمُعَة ثَالث عَشر مِن شَهر رَجَب بَعد عَام الفِيل بِثلاثِين سَنَة فِي الكَّعْبَة، ولَم يُوْلَد فِيها أَحد سوَاه قَبْله ولاَ بَعْدَه.

أنظر، الغَدِير: ٦ / ٢٢. وقِيل بِخَمس وعشرين. أَخرَج هَذِه الفِقْرَة صاحب الفِرْدَوْس بِمأثور الخِطَاب: ٣ / ٣٣٢ طَبْعَة دَار الكتَاب العَربِي، والعلّامة الحلّي في كَشف اليَقِين: ١٧، والعـلّامة المجـلسي في البـحار: ٣٥ / ١٦، والسَّيِّد ٱبن طَاووس فِي الطَّرائف: ١٥٤، وأبن شهرآشوب فِي المَنَاقب: ٢ / ١٨٠، وعَبدالرَّؤوف المَنَاوي المصري فِي كنُوز الدَّقائق: ١٨٨، والشَّيخ جَلال الدِّين السّيوطي فِي الجَامِع الصَّغِير، ومُحبّ الدِّين

⇐ أبُو بَكْر بن مُحَمَّد الطَّبَرِي فِي ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ، والسَّيِّد عَلِيّ شِهاب الهَمَداني فِي مَوَدَّة القُربىٰ، والأحَادِيث الأَرْبَعِين لِلإمَام عَلِيّ بن مُوسىٰ الرِّضا، وإرشَاد المُفِيد: ٩، وإعْلام الورىٰ للطَّبرسي، كَشف اليَقِين: ١٧ تَحقِيق حُسين الدَّرگاهِي، يَنابِيع المَوَدَّة: ٦٧/٢، تَحقِيق السَّيِّد عَلِيّ جمَال غَاية المَرَام: ١٢ بَاب ٣ المَقصد الأوّل ح ١، ٱبن المغازلي فِي المَنَاقب: ٦ ح ٣، كَشف الغُمّة: ١ / ٨٢، البحار: ٨/٣٥ و١٧، الكَافِي: ٤٥٢/١.

وأنظر، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣ / ٤٨٣، نور الأَبْصَار: ٦٩، أُسد الغَابَة: ٤ / ٣١، والفضائل لِابْن شاذان: ٥٤، مرآة العقول: ٥ / ٢٧٥)، كفَاية الطَّالب: ٢٦٠ نَقلاً عن الإحقَاق: ٧ / ٤٨٨. وَهَذِه فَضِيلة خَصّه الله تَعَالىٰ بِها إجْلالاً لهُ وإعْلاءً لمرتَبته وإظْهاراً لِتَكرُمته. وَكَان عَليّ عليه السلام هَاشِمياً مِن هَاشِمِين وأَوّل مَن وَلَده هَاشم مَرّتين. قَالَ ثِقَّة الإِسْلام الكُليني رحمه الله: وُلد أَمِير المُؤْمِنِين عليه السلام بعد عَام الفِيل بِثلاثين سَنَة، وقُتل فِي شَهر رَمضَان لِتسع بَقِين مِنْهُ لَيْلَة الأحد سَنَة أَرْبَعِين مِن الهِجْرَة، وهُو ٱبن ثَلاث وستِين سَنَة، بَقِي بَعد قَبض النَّبِيّ صلى الله عليه وآله ثَلاثِين سَنَة. وأُمّه فَاطِمَة بنت أَسد بن هَاشم بن عَبد مَنَاف، وهُو أَوّل هَاشمي وَلده هَاشم مَرّتين. (الكَافِي: ١ / ٤٥٢). يَعْني ٱنْتَسب إلىٰ هَاشم مِن قِبل الأبِ والأمّ مَعاً، وكَان المُرَاد الأَوْلوية الإِضَافِية وإلاّ فإخوته كَانوا أَكْبر مِنهُ فَكيف يَكُون أَوّل مِن وَلده هَاشم مَرّتين، فالأَوْلَىٰ مَا ذَكره المُفيد والشَّهيد وغَيْرهما. هُو وأخوته أَوّل هَاشمي وُلد بَيْن هَاشِمِيين، وَقَالَ بَعْضهم: كَانَتْ فَاطِمَة أَوّل هَاشِمِية وَلدت هَاشمي. (مرآة العقول: ٥ / ٢٧٧، كشف الغمّة: ١ / ٨١).

وَقَالَ السَّيِّد الرَّضي رحمه الله: وَلَم نَعْلم مَوْلُودُ فِي الكَّعْبَة غَيْر عَلِيّ عليه السلام. وَقَالَ السَّيِّد المُرتضىٰ رحمه الله: لاَ نَظِير لهُ فِي هَذِه الفَضِيلة. وَقَالَ الطَّبرسي: لَمْ يُوْلَد قطّ فِي بَيْت الله تَعَالىٰ مَوْلُود سوَاه لاَ قَبْله ولاَ بَعْدَه. (أُنظر، الغَدير: ٦ / ٢٤، كشف اليقين: ١٩٤، الإِسْتِيعَاب: ٢ / ٥٠١.

ومِن كتَاب المَنَاقب لأبِي المعَالِي الْفَقِيه المَالكي روىٰ خَبراً يَرْفَعه إلىٰ عَلِيّ بن الحسين رضىٰ الله عَنْهما أنّه قَالَ: كُنّا عِند الحُسين عليه السلام فِي بَعْض الأَيَّام وَإِذا بِنسوة مُجتَمِعِين فَأقْبلت ٱمْرأة مِنهنّ عَلينا فقُلتُ لهَا: مَن أَنتِ يَرحمكِ الله؟ قَالت: أنَا زيدة ٱبنة العَجلان مِن بَني سَاعدة، فقُلتُ لهَا: هَل عِنْدَكَ مِن شيءٍ تُحدّثينا بِهِ؟ قَالت: إي والله حَدّثتني أُمّ عِمَارَة بِنت عبَادة بن فَضلة بن مَالك بن عَجلان السَّاعدي أنّها كَانَتْ ذَات يَوْم فِي نِساء مِن الْعَرَب إذْ أقْبل أبُو طالب كَئِيباً حَزِيناً، فَقُلتُ لهُ: مَا شَأنك؟ قَالَ: إنّ فَاطِمَة بِنت أَسد فِي شِدّة مِن الطَّلَق، ثُمّ أنّه أخذ بِيدها وجَاء بِها إلىٰ الكَّعْبَة فَدَخل بِها، وَقَالَ: ٱجْلسي عَلىٰ ٱسم الله، فَطَلَقَتْ طَلْقَة

⇐

↔ وَاحدة فَولَدت غُلاَماً نَظِيفاً مُنظّفاً لَمْ أرَ أَحْسَن وَجْهاً مِنْه. فَسمّاه أَبُو طالب عَلِيّاً وَقَالَ شِعراً:

سَمّيته بِعَلِيٍّ كَي يَدُوم لَهُ ... عِزّ العُلوّ وَفَخر العِزّ أدْوَمه

أُنظر، فَتح المَيبدي، نَهج الصّبَاغة: ١ / ٥٢. ونَقل صَاحب كفَاية الطَّالِب: ٢٦٠ وصَاحِب الإِحقَاق: ٧ / ٤٨٨ شِعراً لأَبِي طَالب فِي ولاَدة الإِمَام عَلِيّ عليه السلام وهُو يَقول: أَيُّها النَّاس وُلد فِي الكَعْبَة وَلي الله عزّوجلّ فَلمّا أَصْبَح دَخَل الكَعْبَة وهُو يَقول:

يَا رَبّ هَذا الغَسَق الدَّجِيّ ... والقَمر (الفَلق) المُبلّج المَضيّ

بَيّن لنَا (عَن) أَمْرك الخَفِيّ (المَقضيّ) ... مَاذا تَرىٰ فِي اَسم ذَا الصَّبِيّ

أي بِما نُسميّ ذَلِكَ الصَّبي. (أُنظر، مَوَدّة القُربىٰ: ٢٥).

قَالَ فَسَمع صَوت هَاتف يَقول:

خَصَصتُما بِالوَلَد الزَّكِيّ ... والطَّاهر المُنتَجب الرَّضيّ

يَا أَهْل بَيْت المُصطفىٰ النَّبِيّ ... خَصَصتُم بِالوَلَد الزَّكِيّ

إنّ اَسمه مِن شَامخ العَلِيّ ... عَلِيّ اُشتقّ مِن العَلِيّ

وَقَالَ الرَّسُول صلى الله عليه وآله فِي ولاَدة عَلِيّ عليه السلام كمَا نَقله لنَا الحَافظ الكَنجي الشَّافعي عَن جَابر بن عبدالله، قَالَ: سَألت رَسُول الله صلى الله عليه وآله عَن مِيلاد عَلِيّ بن أَبِي طَالب. فقَال: لَقد سَألتني عَن خَير مَولُود وُلد فِي شَبه المَسِيح عليه السلام، إنّ الله تَبارك وَتَعالىٰ خَلق عَلِيّاً مِن نُوري وخَلَقني مِن نوره وكِلاَنا مِن نورٍ وَاحد. (كِفَاية الطَّالب: ٢٦٠).

وَقَالَ الإِمَام جَعفر بن مُحمّد الصَّادق عليه السلام فِي ولاَدته عليه السلام كمَا فِي الكَافِي: ١ / ٤٥٢: إنّ فَاطِمَة بِنت أَسد جَاءت إلىٰ أَبِي طَالب لِتبشّره بِمَولد النَّبِيّ صلى الله عليه وآله فقَال أَبُو طالب: اَصْبِري سَبتاً (دَهراً) أُبشّرك بِمثله إلّا النُّبوّة وَقَالَ: السَّبت ثَلاثون سَنَة، وكَان بَيْن رَسُول الله صلى الله عليه وآله وأَمِير المُؤْمِنين عليه السلام ثَلاثون سَنَة. (أُنظر، مرآة العقول: ٥ / ٢٧٧) والسَّبت: الدَّهر.

وروىٰ الحَافظ القندوزي: ٢٥٥ عَن عَبّاس بن عَبدالمطّلب قَالَ: لمّا وُلدت فَاطِمَة بِنت أَسد عَلِيّاً سمّته بِاَسم أَبيها أَسد، ولَمْ يَرض أَبُو طالب بِهَذا الإِسم فقَال: هَلمّ حَتّىٰ نَعلوا أَبَا قُبيس لِيلاً، ونَدعوا خَالق الخَضراء فَلعلّه أنْ يُنبئنا فِي اَسمه، فَلمّا أَمْسيا خَرجا وَصَعدا أَبا قُبيس ودَعِيا الله تَعالىٰ، فَأنشأ أَبُو طَالب شِعراً:

↔

⟸ يَاربَّ هَذَا الغَسَق الدُّجىٰ ...إلخ.

فإذَا خَشْخَشة مِن السَّماء فَرفَع أبُو طالب طَرفه فإذَا لَوح مِثل زَبَرجَد أخْضَر فيهِ أرْبَعَة أسطُر فَأخذه بِكلتا يَدِيه وضَمّه إلىٰ صَدره ضَمّاً شَدِيداً فإذَا مَكتُوب: خَصَصتُما بِالْوَلَد الزَّكيّ..إلخ

فَسرّ أبُو طالب سرُوراً عَظِيماً، وخرَّ سَاجداً لله تَبارك وتَعَالىٰ وَعقّ بِعَشرة مِن الإبِل وكَان اللَّوح مُعلّقاً فِي الْبَيْت الحرَام يَفْتَخر بِهِ بَنُو هَاشم عَلىٰ قُرَيْش حَتَّىٰ غَاب زَمان قتَال الحَجّاج بن الزُّبير.

فَقِصَّة وُلادته عليه السلام فِي جَوف الكَّعْبَة الْمُكَرَّمَة أمر مَشهُور بَيْن الأُمّة حَتَّىٰ ألّف الشَّيخ الأوردبادي فِي هَذَا المَوْضُوع كتَاباً فَخماً كَمَا يَذكر الشَّيخ الأَمِيني فِي كتَابه الغَدير: ٦ / ٢٧.

وروي عَن سَعيد بن جُبير قَالَ: يَزيد بن قعيب: كُنت جَالِساً مَع العَبَّاس بن عَبدالمُطّلب وفَريق مِن بَني عَبدالعزّىٰ بِإزاء بَيْت الله الحَرَام، إذْ أَقْبَلت فَاطِمَة بِنت أسد أمّ أَمِير الْمُـؤْمِنِين عليه السلام وكَانَتْ حَامِلة بِهِ لِتسعة أشهُر وقَد أخذها الطَّلق، فقَالت: يَا رَبّ، إنّي مُؤمنة بِك وبِمَا جَاء مِن عِنْدَكَ مِن رُسل وكُتب، وإنّي مُصدّقة بِكلام جَدّي إبْرَاهِيم الخَليل عليه السلام وإنّه بَنىٰ الْبَيْت العَتِيق، فبحقّ الَّذي بَنىٰ هَذَا الْبَيْت، وبحَقّ المَوْلُود الَّذي فِي بَطني إلاّ مَا يَسّرت عَليّ وُلادَتي. قَالَ يَزيد بن قعيب: فَرأيتُ الْبَيْت قَد انشقَّ عن ظَهره. ودَخَلَت فَاطِمَة فِيهِ، وغَابت عَن أبْصَارنا وعَاد إلىٰ حَاله والْتَزق الحَائط فرمنا أنْ يَنفتح لنَا قُفل البَاب فَلم يَنفتح، فَعلمنا أنّ ذَلِكَ مِن أمر الله عَزّوجلّ، ثُمّ خَرجت فِي اليَوْم الرَّابع وعَلىٰ يَدها أَمِير الْمُؤْمِنِين عَليّ بن أبِي طالب عليه السلام ثُمّ قَالت: إنّي فُضّلت عَلىٰ مَن تقدّمني مِن النِّسَاء، لأنّ آسية بِنت مُزاحم عَـبدت الله عـزّوجلّ سرّاً ...وإنّي دَخلْت بَيْت الله الحرَام فَأكلتُ مِن ثمَار الجَنَّة وأرْزَاقها (أوراقها) فَلمّا أردت أنْ أخرج هَتف بِي هَاتف: يَا فَاطِمَة سَمّيه عَلِيّاً، فَهُو عَليّ والله العَليّ الأعلىٰ يَقول: إنّي شَقَقتُ اسمه مِن اسمي، وأدّبته بِأدبي....الحَدِيث طَويل. (رَاجع كَشف الغُمّة بَاب المَناقب: ١ / ٨٢، والبحار: ٣٥ / ٨ و ١٧، المَنَاقب لِابْن شهـرآشـوب: ٢ / ١٧٤).

وَجَاء النَّبيّ صلى الله عليه وآله فَحملهُ مَعه إلىٰ مَنزل أُمّه. قَالَ عَليّ بن الحُسين: فوَالله مَا سَمعت بِشيءٍ حَسنٍ قَطّ، إلاّ وهَذَا مِن أحْسَنه. ذَكر صَاحب السِّيرَة النَّبَويَّة بهَامش السِّيرَة الحَلَبية: ١ / ١٧٦ عَن فَاطِمَة بِنت أَسد أُمّ عَليّ عليه السلام أنّها قَالت: لمّا ولدته سمّاه صلى الله عليه وآله عَليّاً وَبَصَق فِي فِيهِ، ثُمّ أنّه ألقمه لِسَانه فَما زَال يَمصّه حَتّىٰ نَام. قَالت: فَلمّا كَان مِن الغَد طَلبنا لهُ مُرضعة فَلم يَقبل ثَدي أحد، فدعونا لهُ مُحمّداً صلى الله عليه وآله فَألقمه لِسَانه فنَام، فكَـان كَذَلك مَاشَاء الله تعالىٰ.

⟸

↩ والخُلاَصة : أختلف الْعُلَمَاء فِي تَسميته بِعَليّ عليه السلام فقَال بَعْضُهم: هُو أسم سَمّته بِهِ أُمّه عِند ولادته. وَقَالَ قِسم آخر: إِنّمَا سَمّته أُمّه حَيدرة بِدَليل قوله عليه السلام يَوْم خَيبر «أنَا الَّذي سَمّتني أُمّي حَيدرة»، فَلمّا عَلا عَلىٰ كَتفي رَسُول الله صلى الله عليه وآله وكَسر الأَصْنَام سُمّي عَليّاً مِن العلوّ والرّفعة والشّرف. أُنظر، الاِسْتِيعَاب لِابْن عَبد البرّ المَالكي بهَامش الإِصَابَة: ٣ / ٢٦، تذكرة الخواصّ لِابْن الجُوزي الحَنَفي: ١٥ و ١٦ طَبْعَة بيروت. وقِيل إنّ أُمّه لقّبته حَيدرة وهُو صَغير كمَا تَدلّ عَلىٰ ذَلِكَ أَخبَار كَثِيرة مِنْهَا فِي مُسْنَد أحمد بن حَنبل: ٤ / ٢٦٣ عَن عَمّار، والنَسائي فِي الخصَائص: ١٢٩ ح ١٤٩ الطّبعة الثّانِيَة، والحَاكِم الحَسْكَاني في شوَاهد التّنزِيل: ١٩٠ ح ١٠٩٠، وتَأرِيخ دمشق: ح ١٣٧٧، وفرَائد السّمطِين: بَاب ٧٠ ح ٣٢٤، ومَجْمَع الزَّوائد: ٩ / ١٣٧، وكَنز العُمّال: ٦ / ٣٩٩، غَاية المَرَام: ١٣ ب ٣ من المَقصد الأوّل ح ١، المَنَاقب لِابْن المغَازلي الشّافعي: ٦ / ٣.

الرسالة
-٤٨-

أيضاً إلىٰ مُعَاوِيَة:

وَإِنَّ الْبَغْيَ وَ الزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَ دُنْيَاهُ، وَ يُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ، وَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَ قَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَـتَأَلَّوْا عَلَىٰ اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَ يَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ.

وَ قَدْ دَعَوْتَنَا إِلَىٰ حُكْمِ الْقُرْآنِ وَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَ لَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَ لَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

يُوتِغَانِ الْمَرْءَ: يفضحَانه، وفِي بَعْض النُّسخ يُذِيعَانِ أي يُهْلِكَانِ. وَتَأَلَّوْا: فَسَرُّوا، وَقَالَ الشَّيخ عَبْدَه: الْمُرَاد هُنا تطَاولُوا[1]. وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: حَلَفُوا مِن الأَلِيَّةُ

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٧٨/٣.

وهِي اليَمِين[1]. ويَغْتَبِطُ: يَفْرَح.

الإِعْرَاب:
جُملَة يَغْتَبِطُ صِفَة لِيَوْمٍ، وإِيَّاكَ مَفْعُول مُقَدم لأَجَبْنَا، والجُملَة خَبَر لَسْنَا.

المَعْنَىٰ:
(وَإِنَّ الْبَغْيَ وَ الزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَ دُنْيَاهُ). الإِمَام يُخَاطب مُعَاوِيَة بِلُغَة الدِّين والأَخْلاَق، والعَقْل والضَّمِير، وهُو لاَ يَفْهَم ولاَ يَسْمَع إلّا لُغَة المَنْفَعَة والتَّمسك بِالكُرسِي... الإِمَام يَقول لهُ: الظُّلم والْكَذِب يُـؤديَان بِكَ إِلىٰ الفَـضِيحَة أَمَـام الله والنَّاس، وهُو يَقول: ثُمَّ مَـاذا؟ أَنِّي أَبْحَث عَـن الحُكْـم لاَ عـمَّا يَـقول ويُـريد الله والنَّاس... ومُعَاوِيَة يَعْلَم أَنَّه مَتىٰ آستَتَب لهُ الأَمْر سَاق النَّاس كَالأَغْنَام بِأَمْوَاله وعَطَايَاه... وَقَد رَأَينَا رَأي الْعَيْن كَيف يُصَفق الاِنْـتهَازيُون، والرُّعَـاع وَيَهْـتفُون لِلطُّغَاة... وكُلّما آزدَاد الطَّاغِية عتُواً آزدَاد المُصفقِين والهَاتفِين! وَقَد أَعْلَن الإِمَـام ذَلِكَ بقَوْله: «... وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُـلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْـتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ»[2].

(وَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ) وهُو الطَّلب بِدَم عُثْمَانَ، فإِنَّه ذَهَب بِمَوْتِه، وإِنَّك تَتَسْتَر بِهِ كَذِباً ونِفَاقاً (وَ قَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَـلَىٰ اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ). الأَقْوَام هُم أَصْحَاب الجَمَل، طَلبوا الخِلاَفَة وتَذرعُوا بِدَم عُثْمَانَ كَـذِباً

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٢/١٧.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كلامٍ لهُ عليه السلام إِلىٰ كُمَيْل بن زِياد رَقم (١٤٧).

وٱفتِرَاءً تَمامَاً كمَا فَعل مُعَاوِيَة، وَقَد أَكْذَبهُم سُبْحَانَهُ، لأَنَّ مقَاصدهُم تكشفت للنَّاس، وٱفْتَضحُوا عِند الجَمِيع بِالعَار والصَّغار.

(فَٱحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ... إلخ). إنَّ لَك وَلِكُلّ إنْسَان يَومَاً يُجزىٰ فيهِ المُحسن بِالحُسنىٰ، والَّذِين أسَاءوا بِمَا عَملوا (وَ قَدْ دَعَوْتَنَا إِلَىٰ حُكْمِ الْقُرْآنِ وَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ... إلخ). ونَحْنُ نَسْتَجِيب لدَعوتهِ فِي كلّ حِين وأيّاً كَان الدَّاعي، أمّا أَنْت فَلَسْتَ مِنْهُ فِي شَيء كِي نَسْتَجِيب لَك. قَالَ عَبد الرَّحمن بن الجُوزي: «كَيف يَحلّ لِمُسلم أنْ يَظُنّ فِي أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عَليّ فِعل مَا لاَ يَجُوز... إنّمَا قَاتل بِالدَّلِيل الْمُضْطَرّ لهُ إلىٰ الْقِتَال، فكَان عَلىٰ الحَقّ، ولاَ يَخْتَلف الْعُلَمَاء أنَّ عَلِيّاً لَمْ يُقَاتل أَحداً إلّا وَالحَقّ مَعْهُ، وكَيف وَقَد قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَللَّهُمَّ أَدِرْ الحَقّ مَع عَليٍّ كَيفمَا دَار»[1].

---

(١) أنظر، صَيد الخَاطر: ٣٨٥، طَبعَة دَار الْفِكْر دِمشق. (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر، التَّفسِير الْكَبِير للرَّازي: ٢٠٥/١، شَرح الأَخْبَار للمغربي: ٥٢٥/٢، سُنَن التِّرمِذي: بَاب مناقب عليّ، ح ٣٧١٤، جَامع التِّرمِذي: ٢١٣/٢، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٣٥/٧، تَأرِيخ بَغداد: ٣٢٠/١٤ ح ٧٦٤٢، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ٧٨، فرَائد السِّمطِين: ١/ ١٧٧، المناقِب لِابْن المغازلي: ١١٧ و٢٤٤، والمُسْتَدرَك: ٣/ ١٩ و ١٢٤، كَنز الْعُمَّال: ١٥٧/٦، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٩٠، المطالب العَالية: ٦٦/٤، المحصُول للرَّازي: ١٣٤/٦، وفِي بَعْض المصادر بِلفظ: «رحمَ الله عَلِيّاً أَدِرْ الحَقّ مَعه حَيثُ دَار». أنظر أيضاً، المُعْجَم الأوسط: ٩٥/٦ ح ٥٩٠٦، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٤٩/١٠، فَيض القَدِير: ١٩/٤، تَهذِيب الكَمَال: ٤٠٢/١٠ ح ٢٢٥٦، الرِّيَاض النَّضرة: ٢٤٣/١ ح ٨٧.

الرسالة

-٤٩-

الدُّنْيا مَشْغَلَةٌ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَ لَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَ لَهَجاً بِهَا، وَ لَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَ نَقْضُ مَا أَبْرَمَ! وَ لَوِ ٱعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَىٰ حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

المَشْغَلَة: مَا يَشْغل. ولَهَجاً: وَلَعاً. ونَقْضُ: هَدْم وَحَلّ. وأَبْرَمَ: أَحْكَم.

الْمَعْنَىٰ:

مَن كَانَتْ الدُّنْيَا كُلّ هَمِّهُ وٱهْتِمامه أَعْمَته عَن غَيْرِهَا، وأُصِيب بِدَاء الطَّمع وَالوَلع بِها، وكُلَّما أَصَاب مِنْهَا شَيْئاً ٱزْدَاد لَهْفَةً عَلىٰ الغَائِب... وفِي ذَلِكَ يَقول الإِمَام:

«مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»[١]. والدَّلِيل أَصْحَاب المَلاَيِين فِي هَذَا الْعَصْر:

أَنَّهُم يُحَاوِلُون جَاهِدِين أنْ يُوجهُوا كُلّ شيء إِلىٰ زِيَادَة الأَرْبَاح، وكُلّ مَا فِي الدُّنْيَا إِلىٰ شِرْكَة مُسَاهِمة، ولَوْ عَمَّ الخَرَاب والدَّمَار شَرق الأَرْض وَغَرْبِهَا، وَلَمْ تَتَسع الأَرْض لأَطْمَاعَهُم فَصَعَدُوا إِلىٰ القَمَر بَحثاً عَن المَال وتَحقِيق الآمَال.

والنَّتِيجَة (فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَ نَقْضُ مَا أَبْرَمَ) بِالمَوْت أو الآفَات، كمَا قَالَ الإِمَام: «لِكُلِّ آمْرِئٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: الْوَارِثُ، وَالْحَوَادِثُ»[٢]. وَقَالَ الإِمَام: «وَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَسْتَوْفِيَ رِزْقَهُ مِنْهَا»[٣]، (وَ لَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَىٰ) مِن عُمرك وأَيَّام حيَاتك، وأَنَّك الآنْ لاَ تَحس بِشيء مِمَّا كُنتَ فِيهِ (حَفِظْتَ مَا بَقِيَ) مِن أَيَّامك القَلِيلة، وَتُبْتَ إِلىٰ الله، وأَحْسَنتَ وأَصْلَحت.

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٤٥٧).

(٢) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة: (٣٣٥).

(٣) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة: (٤٣١).

الرسالة
-٥٠-

لَا سِرَّ دُونَكُمْ إِلَّا فِي حَرْبٍ:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَىٰ الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَىٰ رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَ لَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَ أَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَ عَطْفاً عَلَىٰ إِخْوَانِهِ.

أَلَا وَ إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَ لَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَ لَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَ لَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَ أَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ للهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ؛ وَ أَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَ لَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ، وَ أَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَىٰ الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَ لَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً، فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَ أَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

الْمَسَالِح: مواضع السِّلاح أي الثّغور. والطَّوْلُ: الْقُدْرَة والْغِنىٰ والْفَضْل والْعَطَاء.

وأَحْتَجِزَ: أَكْتَم وَمَنَع. ومَقْطَع الْحَقِّ: مَا يُقْطَع بِهِ البَاطِل. وَلاَ تَنْكُصُوا عَن دَعْوَة: لاَ تَتَأخرُوا عَنْهَا. والْغَمَرَات: الشَّدَائِد.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أنْ لاَ يُغَيِّرَهُ خَبَر إِنَّ حقّاً، ودُنُوّاً تَمْيِيز، والْمَصْدَر مِن أنْ لاَ أَحْتَجِزَ، اسم إِنَّ لَكُمْ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا «إنْ» الشَّرطِية دَخَلْت عَلىٰ فِعل مَحْذُوف يُفسرَه الفِعْل المَوجُود أي فَإِنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا.

الْمَعْنَىٰ:

كَتَب الْإِمَام هَذِه ٱلْرِّسَالَة إِلىٰ قَادَة الجَيْش وأُمَرَائه، وٱبْتَدأَهَا بقَوْله: (فَإِنَّ حَقّاً عَلَىٰ الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَىٰ رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ). الْوِلاَيَة تكلِيف لاَ تَشرِيف، وَخِدْمَة لاَ سيَّادة، فإنْ كَان لِلوَالِي مِن فَضْل فهُو فِي إِخْلاَصِهِ، وحُسن تَدبِيره لِلرَّعِيَّة، وفِي تَقدِيره لِنَفْسَه بِأضْعَف مِنْهَا، ودَفع الظُّلم والأَذَىٰ عَنْهَا.

(أَلَا وَ إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ). أَنْتُمْ إِخوَانِي أَتعَاون مَعَكُمْ عَلىٰ خَير الْإِسْلاَم والْمُسْلِمِين، ولاَ أُخْفِي عَنْكُم أي سِرّ إِلّا إِذَا دَعَت الْحَاجَة وَالْمَصْلحَة إِلىٰ الخفَاء والكِتْمَان كَخُطَة الْحَرْب والْقِتَال خَوفاً أَنْ تَتَسرَب إِلىٰ الْعَدُوّ، فَتَتعرضُوا أَنْتُمْ والبلاد لِلخَطَر والهَلاك... وهَكذا فَعل الرَّسُول الأَعظم ﷺ مِن قَبل: «عَنْ جُنْدُب بن عَبدالله عن النَّبِيّ ﷺ أنه أَرْسَل أَوّل سَرِيَّة مُسَلحة لاِعْتَرَاض قوَافل قُرَيْش، وَبَعَث عَليهم أبَا عُبيدَة، فلمّا ذَهَب يَنْطَلق بَكىٰ صِبَابَة إِلىٰ رَسُول الله ﷺ فَجَلس وبَعَث عَليهم عَبد الله بن جَحَش الأسدِي مكَانه، وكَتَب

كِتَاباً سَلّمه لهُ، وأَمَره أنْ لاَ يَفْتَحه إلّا بَعد لِيلتِين مِن بِدَايَة إنْطلاَقه لِلقيَام بِمهمته»[١]... ويَدُلنا هَذَا أنّ التَّكتُم والتّموِية فِي التَّخطِيط والْعَمَلِيَات الحَرْبِية لَيْس مِن مُبتكرَات الغَرب، وإنَّ الْمُسْلِمِين هُم السَّابِقُون الأوّلون إلىٰ ذٰلِكَ.

(وَ لاَ أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إلَّا فِي حُكْمٍ) عَلىٰ أحد الخَصمِين المُترَافِعِين لَديَّ... وأيضاً يَدل هَذَا عَلىٰ أنَّ الإِسْلاَم سَبق الشَّرَائِع الوَضْعِية فِي حُكْمه بِأنَّ القَاضِي لاَ يَجُوز لهُ أنْ يُبدي رَأيه فِي الدَّعْوَىٰ يَنظرها إلّا بَعد آنْتِهَاء المُرَافعة وعِند إعْلان الحُكْم. وأنَّ لِلطَّرف الآخر أنْ يَطعَن فِي الحَاكِم وحُكْمَه إذَاكَان قَد أبْدىٰ رَأيه مِن قَبل (وَ لَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ) مَادِياً كَان كَالرَّاتب، والْعَطَاء، أو أَدْبِياً كَالتَّقدِير والرُّتْبَة (وَ لَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ) بل أَبْتُّ بِهِ بِلا تَأخِير ومُمَاطَلة (وَ أَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً) بِلا تَفَاضُل ومُحَابَاة لقَوّي أو قَرِيب.

(فَإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ) أي أَدّيْت لِكلِّ ذِي حَقّ كَامِلاً ومُعجلاً (وَجَبَتْ للهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ) وأيَّة نِعْمَة أَعْظَم مِن نِعْمَة الحَاكِم الْعَادِلُ الّذي يَأمِنهُ البَرِيء، ويَخافه المُجْرِم، ويَقوىٰ بِهِ الضَّعِيف المُحقّ، وَيَضْعَف الْقَوِيّ المُبطل؟ (وَ لِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ) لأنَّ طَاعَة الحَاكِم الْعَادِلُ هِي طَاعة الله، لاَ لذَات الحَاكِم وكُرسي الحُكْم (وَ أَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ) لأنَّ دَعْوَتي، والحَال هَذِه، هِي دَعْوَة الله والحَقّ (وَ لَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ) وهُو الجِهَاد وصِيَانة الحُدُود مِن الْعَدُوّ.

---

(١) هو عَبدالله بن جَحش بن رِئاب بن يَعمر بن صَبرة بن مُرّة بن كَبير بن غَنم بن دودان بن أسد بن خُزيمة وأخُوه أبُو أحمَد حَليفا بَني أُمَيّة. أنظر. مَجمَع الزَّوائد: ١٩٨/٦، الطَّبَقات الكُبْرَىٰ: ١٠/٢ و ٥٠، تَعجِيل المَنْفَعَة لابن حَجر: ٤٣٥، عُيُون الأثر: ١/ ١٢٨ و ٣٠٢ و: ٩/٢، السِّيرَة النَّبَوِيَّة: ٣٦٦/٢ و: ٦٩٢/٤، الاِسْتِيعَاب: ٤٣/١.

(وَ أَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَىٰ الْحَقِّ) وهُو الدِّفَاع عَن البِلاد، والإِستماتَة فِي سَبِيلها.

(فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ). هَذَا تَهدِيد وَوَعِيد لِمَن يُقصّر ويَتهَاون فِي الجِهَاد ووَاجبَات الجُنْدِية، وأنَّ الإِمَام يَأخذه بِأقْسىٰ العقُوبَات وأشدّها، لأنَّه يُعرض الأرْوَاح والأَمْوَال لِلخَطر والهَلاك (فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَ أَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ). وهُو الحَقّ والعَدْل مِن الإِمَام، وأَعْطُوه النَّصِيحة والطَّاعَة، وبِذَلِكَ تَسْتَقِيم الأُمُور ويَعيش النَّاس فِي هَنَاءٍ وأَمَان.

وبَعدُ، فإِنَّ الإِمَام العَادِل هُو الَّذي يَقْهر هَوَاه، ويُحبّ النَّاس، كلّ النَّاس، وَيَخلص لهُم، ولاَ يَرىٰ لِنَفْسه وذَوِيه أي امْتِياز، بَل يُقدرها بِأضعَف الضُّعَفَاء مِنْهُم، وَيَأخذ مِن قَوِيهم لِضَعِيفهم، ومِن غَنِيّهِمْ لِفَقِيرهُمْ، ويُساوِي بَيْنَ الجَمِيع فِي الحقُوق والوَاجبَات، ولاَ يُعاقب أحداً إلاّ بمَا ظَهر مِنْهُ، وثَبت عَلَيْه... ومتىٰ توَافَرت هَذِه الخِلال فِي الحَاكِم وَجَب عَلىٰ الرَّعِيَّة أنْ تَسمع لهُ وتُطِيع وإلاّ فَلَها، بَل عَلَيْهَا أنْ تَتمرد، وَتَثُور أمراً بِالمَعْرُوفِ ونَهْيَاً عَن المُنْكَر.

الرسالة
-٥١-

إِلَىٰ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَ أَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَ الْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ ٱجْتِنَابِهِ مَا لاٰ عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ. فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَ ٱصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَ وُكَلاٰءُ الْأُمَّةِ، وَ سُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ. وَ لاٰ تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَ لاٰ تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَ لاٰ تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَ لاٰ صَيْفٍ، وَ لاٰ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَ لاٰ عَبْداً، وَ لاٰ تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَ لاٰ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَ لاٰ مُعَاهَدٍ، إِلاّٰ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاَحاً يُعْدَىٰ بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِسْلاٰمِ، فَإِنَّهُ لاٰ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلاٰمِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَ لاٰ تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَ لاٰ الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَ لاٰ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَ لاٰ دِينَ اللهِ قُوَّةً، وَ أَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا ٱسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ ٱصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَ عِنْدَكُمْ أَنْ

نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَ أَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

اللُّغَة:

يُحْرِزُهَا: يُحْفِظُهَا. والسُّفَرَاءُ: الرُّسُل والمُمَثلُون. وتُحْشِمُوا: تُغْضِبُوا، وفِي بَعْض النُّسخ لا تَحْسِمُوا أي لا تَمْنَعُوا. ويَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، يَضْطَرِبُون فِي الْعَمَل عَلَيْهَا كَبَقَرَة الفِلاَحَة. والشَّوْكَة: القُوَّة. وَأَبْلُوا: أَدْوا.

الإِعْرَاب:

مُصَلٍّ وَلاَ مُعَاهَدٍ بَدل مِن النَّاس، والْمَصْدَر مِن أَنْ يَدَعَ فَاعِل يَنْبَغِي، والْمَصْدَر مِن أَنْ نَشْكُرَهُ مَفْعُول اَصْطَنَعَ لأَنَّ الْمَعْنَىٰ أَنّه تَعَالىٰ طَلَب مِنّا أَنْ نَصْنَع لهُ الشُّكْر بِالجُهد والكَد.

الْمَعْنَىٰ:

كَتَب الْإِمَام إِلىٰ جُبَاة الْأَمْوَال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا). مَن نَظَر بِعَين الْعَقْل إِلىٰ عَاقِبَة الفِعْل قَبل أَنْ يَقدم عَلَيْهِ، وتَدَبرَه عَلىٰ حَقِيقَته ـ نَال خَيره ونَجا مِن شرّه، ومَن فَعل بِلا فِكر ورَوِية فَقَد عَرَّض نَفْسَه لِلمْهَالِك (وَ اَعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَ أَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ) لأَنَّ الْمَال بِه عِمَارَة الدُّنْيا وقُوَّتِه... وإذَنْ مَهْما عَانيتُم أَيُّها الجُبَاة مِن المتَاعِب فَمَا هِي بِشيء بِالقِيَاس إِلىٰ مَرضَاة الله وثَوَابَه شَرِيطَة أَنْ تَقُومُوا بِالوَاجب عَلىٰ الوَجه الأَكْمَل.

(وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَ الْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ... إلخ). لَو اَفْتُرِض أَنَّه لاَ ذَمّ ولاَ عِقَاب عَلىٰ تَرك القَبِيح، وَلَكن فِي تَرْكه مَدح وَثَنَاء، لَو

ٱفْتُرِض هَذَا لكَان التَّرك أَوْلَىٰ وأَفضَل، فَكيف إذَا كَان العِقاب عَلىٰ فِعل القَبِيح مُؤكَد ومُحقق؟ وقَرِيب مِن هَذَا قَول الإِمَام فِي كَلمَاته القِصار: «لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَىٰ شُكْراً لِنِعَمِهِ»(١). (فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَ وُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَ سُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ) تَجْتَمع فِي الجُبَاة صِفَات ثَلَاث:

الْأُولَىٰ: أَنَّهُمْ يَجْمعُون الْأَمْوَال مِن الرَّعِيَّة لتُنْفَق فِي مصَالحها.

الثَّانِيَة: أَنَّهُمْ وُكلَاء مِن قِبل الْأُمَّة.

والثَّالِثَة: أَنَّهُمْ رُسُل الْأَئِمَّة. وَكلّ وَاحدة مِن هَـذِه الثَّلاث تَسْتَدعِي الْأَمَانَة والْإِخْلَاص، ومتىٰ ٱنتفَت الْأَمَانَة عَن الجُبَاةِ فَسَدت الْأَوْضَاع، ودَبَّ الضَّعْف والوَهن فِي كِيان الرَّعِيَّة.

(وَ لاَ تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ) لِكُلِّ إِنْسَان حَاجَة فِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا، ولِكُلِّ حَاجَة سَبِيل، فإِنْ كُنْتُم ٱلسَّبِيل إِلىٰ إِدْرَاك حَاجَة مُحتَاج فكُونُوا لهُ عُوناً عَلىٰ سَدها وَقَضائها. وفِي الْحَدِيث: «والله لِرَسُول الله ﷺ أَسرّ بِقَضَاء حَاجَة الْمُؤمِن إِذَا وَصَلت إِلَيْهِ مِن صَاحب الْحَاجَة»(٢). (وَ لاَ تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَ لاَ صَيْفٍ، وَ لاَ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا). لاَ ضَرِيبَة عَلىٰ مَا يَحتَاج إِلَيْهِ الْإِنْسَان مِن غذَاءٍ، وكِسَاءٍ، ومَسْكَنٍ، وأثَاثٍ، وآلةٍ، وحيوَانٍ، وأَيضاً لاَ تَجوز مُصادَرة شَيء مِن ذَلِكَ لوفَاء ضَرِيبَة سَابقَة، ويُمْهَل المُعسر إِلىٰ مَيسرَة. هَذَا مَا فَهِمنَاه مِن ظَاهر الكَلاَم وإِطْلاَقه، أَمَّا فُقَهَاء الْإِمَامِيَّة فإِنَّهُم يُوجبُون عَلىٰ المَدِين للنَّاس أنْ يَبِيع جَمِيع مَا يَملك لوفَاء

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٩٠).

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٢/١٩٥ ح ١٠، وَسَائِل الشِّيعة: ١٦/٣٥٩ ح (٢١٧٥٨)، بِحَار الْأَنْوَار: ٧١/٢٨ ح ٣٩٩، شَرح أُصول الكَافِي: ٩/٨٠ ح ١٠.

دِيُونَه إلاّ دَار السُّكنىٰ وقُوت يَوْم ولَيْلَة لهُ ولِعيَاله، وثِيابَه وثِيَابهم ومَا يَحتَاج إِلَيْهِ مِن كُتب العِلم إنْ كَان مِن أَهْله. وأدِلّة وجُوب الوَفَاء عَامة تَشمل الدَّين لِبَيْت المَال وغَيْره، ولاَ بُدَّ للتَّخْصِيص مِن دَلِيل[1].

(وَ لاٰ تَضرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَ لاٰ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ). يَجب الرِّفْق فِي تَحصِيل المَال، ولاَ تَجُوز القَسوَة بِحَال لاَ ضَرباً ولاَ شَتماً ولاَ شيء يُؤذي ويُسيء، والمُرَاد بِالمُصلّي أَهْل القِبلَة، وبِالمُعاهد أَهْل الذِّمَّة والمُشرك إذَا دَخَل بِلاد الإِسْلاَم بإذْنٍ وَعهدٍ (اِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاَحاً يُعْدَىٰ بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ الإِسْلاَمِ). أجْل، إذَا دَخَل بِلاد المُسْلِمِين غَرِيب عَنْهَا وعَن الإِسْلاَم، وكَان مَعَه أي شَيء يُسْتَعمل فِي الحَرْب، وٱشْتَبَهْتُم فِي أمرِه لِقيَام القَرائِن عَلىٰ الرّيب ـ إذَا كَان هَذَا جَاز لَكُم أنْ تُصادرُوا مَا يَكُون سَبباً لِلتَّخرِيب وقوّة العَدُوّ... وعَلىٰ هَذَا كلّ الشّعوب والدّول قَدِيماً وحَدِيثاً.

(وَ لاٰ تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَ لاٰ الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَ لاٰ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً) تَنَاصَحُوا بِالحَقّ، وتوَاصوا بِالتَّقْوَىٰ أَنْتُمْ والجُنْد والرَّعِيَّة، وأدوا مَا عَلَيْكُم مِن وَاجبَات لله، وأطيعُوه وٱشكرُوه بِالجِهَاد ونُصرَة الحَقّ.

وَبَعْد، فإنّ جِبَاية الأَمْوَال صَعْبَة تَحتَاج إِلىٰ الصَّبر والمُرونَة، والإِخْلاَص، والأَمَانَة، والعِلم بِالحقُوق المَالية الشَّرعِيَّة، مَا هِي؟ ومتىٰ تَجب؟ وَعَلىٰ مَن؟ وكَيف تُؤخذ مِمَّنْ هِي عَلَيْهِ إذَا ٱمتَنع أو عَجز؟ وكَانَتْ هَذِه الأَمْوَال وجبَايتهَا سَبباً أو مِن الأَسْبَاب المُوجِبَة لِحرُوب الرِّدَّة فِي عَهد أَبِي بَكْر.

(١) أُنظر، رسَائل الكَركي: ٢/٢٤١، الجَامِع للشَّرائع: ٣٦٣، تَذكرة الفُقهَاء: ٢/٣، تَحرير الأَحكَام: ٢/٥٢٥، تَبصِرة المُتعلمِين: ١٥٢، مسَالك الأَفهَام: ٢/١٢٩.

الرسالة ٥٢

أَوْقَاتُ الصَّلاةِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّىٰ تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ، وَ صَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَ الشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ، وَ صَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَ يَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَىٰ مِنًى، وَ صَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَىٰ الشَّفَقُ إِلَىٰ ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَ صَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَ الرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَ صَلُّوا بِهِمْ صَلاةَ أَضْعَفِهِمْ، وَ لا تَكُونُوا فَتَّانِينَ.

اللُّغَة:

تَفِيءَ: تَمِيل إِلىٰ جِهَة الغَرب، ويُعرَف ذَلِكَ إذَا حَدَثَ الظِّلّ للشَّيء المُعتَدل المَنْصُوب فِي أَرْض مُسطَحَة. وَمَرْبِضِ الْعَنْزِ: مَرْقَدهَا، والْمَعْنَىٰ إذَا بَلغ ظِلّ الشَّيء مُقدَار مَرْقَد عَنْز فَقَد دَخَل وَقْت صَلاَة الظُّهْر فِي جَمِيع البُلدَان دُونَ آستثناء، لأنَّ فِي بَعْضهَا يَدخُل هَذَا الوَقت قَبل أنْ يَبْلُغ الظّل هَذَا المقدَار، وفِي بَعضهَا الآخر لاَ يَدخل إلّا إذَا بَلغ الظّل مُقدار مَرْقَد عَنْز ـ هَكذا يُقَال ـ وَبَيْضَاءُ حَيَّةٌ: لَم تَصفَرّ بَعدُ.

والْمُرَاد بِعُضْو النَّهَار جُزْء مِنْهُ، ومُقدَاره أنْ يَسِير الْإِنْسَان سَيرّاً مُعتَاداً فَرْسَخَينِ، والفَرْسَخ (٥٧٦٠) مَتْراً[1]. والشَّفَقُ: الحُمْرَة فِي الأُفْق بَعد غُرُوب الشَّمْس. وفَتَّانِينَ، مُثِيرِين لِلْفِتْنَة بِأسبَاب مِنْهَا تَطوِيل الصَّلاَة الْمُوجب لِنُفرَة النَّاس بِخَاصَّة الضُّعَفَاء.

الْإِعْرَاب:

الظُّهْرَ مَفْعُول مُطلق لصَلُّوا، لأنَّ الْمَعْنَىٰ صَلُّوا صَلاَة الظُّهْر، وحَيَّةٌ صِفَة لبَيْضَاء.

الْمَعْنَىٰ:

(فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّىٰ تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ). ٱبْتدَأ بِصَلاَة الظُّهْر تَبعاً للآيَة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾[2]. والْمُرَاد بِالدُّلُوكِ هُنا الزَّوَال، وفِي الحَدِيث: «أنَّ صَلاَة الظُّهْر أَوَّل صَلاَة فَرضَها الله عزَّوجلَّ فِي الْإِسْلاَم، ثُمَّ رُتب عَلَيْهَا غَيْرها»[3]. وأَشرنَا فِي فِقْرَة اللُّغَة إِلىٰ الْمُرَاد مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ (وَ صَلُّوا

(١) الفَرْسَخ مسَافة مَعلومَة فِي الأَرْض مَأخُوذ مِنْهُ، وهُو ثَلاثَة أَميَال أو ستَّة، سُمِّي بِذَٰلِك لأنَّ صَاحبه إذَا مَشىٰ قَعَد وٱسْترَاح مِن ذَٰلِكَ كَأنَّه سَكن. أو هُو الفَرْسَخُ التَّام خَمس وعشرُون غَلْوَةً. وهُو وَاحد الفَرَاسخ؛ فَارسي مُعَرب. أُنظر، لِسَان الْعَرَب: ٣/٤٤ و: ١٥/١٣٣.

(٢) ٱلإِسْرَاء: ٧٨.

(٣) أُنظر، شَرح الأَزْهَار: ١/٢٠٤، فَتح الوَهاب: ١/٥٤، الإِقناع: ١/٩٧، مُغني المُحتَاج: ١/١٢١، الفَقِيه: ١/٢٠٠، عِلل الشَّرائع: ٢/٣٢٣، وَسَائِل الشِّيعة: ٧/٣٢٩، أمَالي الطُّوسي: ٦٩٥، مَناقب أَمِير الْمُؤْمِنِين لِابن شَهر آشوب: ١/٤٣، بحَار الأَنْوَار: ١/٤٣ و: ٨٠/١٣٧.

بِهِمُ الْعَصْرَ وَ الشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ) .
قَبل أَنْ تَصفَرّ الشَّمْس ، وهَذَا الوَقت للإِسْتحبَاب ، لأَنَّ وَقت الْعَصْر يَمتَد إِلىٰ غَسَقِ

⇐ يَبدأ الْفُقَهَاء بصَلاَة الظُّهر ؛ لِأَنَّهَا أَوَّل صَلاَة فُرضت ، ثُمَّ فُرض بعدها الْعَصْر ، ثُمَّ المغرب ، ثُمَّ الْعِشَاء ، ثُمَّ الصّبح علىٰ التّرتيب . وَقَد وَجَبت الصَّلوَات الْخَمس بِمَكَّة لَيْلَة الإِسرَاء بَعد تِسع سَنوَات مِن بِعثَة الرَّسُول ، وٱستدَل مَن قَالَ بِهذا أَنّ الآيَة : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ . الإِسرَاء : ٧٨ . قَد فَصلت الصَّلوَات الْخَمس .

وَٱتفقوا عَلىٰ أَنّ الصَّلاة لاَ تَجوز قَبل دخُول وَقتها ، وعَلىٰ أَنّ الشَّمس إِذَا زَالت ، دَخَل وَقت الظُّهر . الخِلاَف : ٢٥٥/١ ، ذكرىٰ الشّيعة للشّهيد الأَوّل : ٢٨٨/٢ ، المُغني : ٤٤١/١ ، بدَاية المُجْتَهد : ٩٢/١ ، الخِلاَف : ٢٥٥/١ ، تَذكرة الْفُقَهَاء : ٣٠٠/٢ ، المُدونة الْكُبْرَىٰ : ٥٦/١ .

وَٱختلفوا فِي مقدَار هَذَا الوَقت ، وإِلىٰ مَتىٰ يَمتد :

قَالَ الإِمَامِيّة : تَختَص الظُّهر مِن عَقب الزَّوَال بِمقدَار أَدائها ، وتَختَص الْعَصْر مِن آخر النَّهار بِمقدار أَدائها أَيضاً ، ومَا بَيْنَ الأَوّل والأَخِير مُشترك بَيْن الصَّلاتِين ، ومِن هُنا قَالُوا : يَجوز الجَمع بَيْن الصَّلاتِين فِي الوَقت المُشتَرك ، وإِذَا ضَاق الوَقت ، ولَم يَبق مِن آخره إِلّا مقدَار مَا يَتسع للظُّهر فَقطَ ، قَدم الْعَصْر عَلىٰ الظُّهر يُصليها أَدَاءً ، ثُمّ يَأْتِي الظُّهر آخر الوَقت قَضاءً . من عُلَمَاء المَذَاهب مَن يوَافق الإِمَامِيّة عَلىٰ الجَمع فِي الحَضر ، وقَد أَلّف الشّيخ أَحمد الصّديق الغمَاري كتَاباً فِي ذَلِكَ أَسمَاه «إِزَالة الخَطر عَمّن جَمع بَيْن الصَّلاتِين فِي الحَضر» . أُنظر ، تذكرة الْفُقَهَاء : ٣٦٥/٢ ، الأُمّ : ٧٧/١ ، المُغني : ١١٣/٢ ، المُدونة الْكُبْرَىٰ : ١١٦/١ ، مسَائل أَحمد : ٧٥ ، فَتح العَزيز : ٤٨٩/٤ ، شرَائع الإِسْلام : ٤٧/١ ، الكَافِي : ٢٧٦/٣ ، تَذكرة الْفُقَهَاء : ٣٠١/٢ ، الذّكرىٰ : ٣٢١/٢ .

وَقَالَ الأَرْبعة : يَبتدئ وَقت الظُّهر مِن الزَّوَال إِلىٰ أَنْ يَصِير ظلّ كُلّ شَيء مِثله ، فإِذَا زَاد عَن ذَلِكَ خَرج وَقت الظُّهر ، ولكنَّ الشّافعية ، والمَالكية ، قَالُوا : يَختص هَذَا التّحدِيد بِالمُختار ، أَمّا المُضطَر فَيمتد وقت الظُّهر مَعه إِلىٰ مَا بَعد ٱمتدَاد ظلّ الشّيء إِلىٰ مِثله . أُنظر ، المَبسوط للسَّرخسي : ١٤٢/١ ، المُغني : ٤١٦/١ ، الشّرح الْكَبِير : ٤٦٥/١ ، الموطأ : ٦٨/١ ، الأُمّ : ٧٢/١ ، بدَاية المُجْتَهد : ٨٩/١ ، المجموع : ٢١/٣ ، أَحكَام الْقُرآن : ٣٦٩/٢ .

وَقَالَ الإِمَامِيّة : ٱمتدَاد الظّل إِلىٰ مِثله وَقت فَضيلة الظُّهر ، وإِلىٰ مِثْلِيه وَقت فَضِيلة الْعَصْر . أُنظر ، الرّوضة البَهية : ١٨٥/١ ، المَبسوط للطّوسي : ٧٢/١ ، تَذكرة الْفُقَهَاء : ٣٠٣/٢ ، الذّكرىٰ : ٣٢٥/٢ .

ٱلَّيْلِ بِنّص الآيَة: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾[1]. (وَ صَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ... إلخ). عِند غُرُوب الشَّمْس. (وَ صَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَىٰ الشَّفَقُ إِلَىٰ ثُلُثِ اللَّيْلِ) بَعد ذِهَاب الحُمْرَة مِن الأُفْق. وأيضاً هَذَا للاِسْتحبَاب حَيْث تَجوز الصَّلاَة بَعد الغُرُوب بِمقدَار صَلاَة ثَلاَث رُكْعَات[2]. (وَ صَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَ الرَّجُلُ

---

(١) ٱلإِسْرَاء: ٧٨.

قَالَ الحَنفِية، والشَافِعِية: يَبتدئ وَقت العَصْر مِن زِيَادَة الظّلّ عَن مِثله الغُرُوب. أنظر، المَبسوط للسَّرخسي: ١/١٤٤، بدَائع الصَّنائِع: ١/٢٩، الجُوهر النّقي: ١/٣٦٦، بدَاية المُجتَهِد: ١/٨٩، الأمّ: ١/٥١، مُختصر المزني: ١١، فَتح العزيز: ٢/٣٤٩.

وَقَالَ المَالكِية: للعَصْر وَقتَان: أحدهُما اختيَاريّ، والثّانِي اضْطرَاريّ، ويَبتدئ الأوّل مِن زِيَادَة الظّلّ عَن مِثله إلىٰ اصفرَار الشّمْس، ويَبتدئ الثّانِي مِن الاصفرَار إلىٰ الغُرُوب. أنظر، المجموع: ٣/٢١، الشّفا: ١/٥٣، مُقدمات ابن رُشد: ١/١٠٥، الفِقه عَلىٰ المَذاهب الأَرْبَعة: ١/١٨٣.

وَقَالَ الحنَابلة: مِن آخر صَلاَة العَصْر إلىٰ أنْ يَتجاوز الظّلّ عَن مِثْلِيه تَقع الصَّلاَة أدَاءً إلىٰ حِين الغُرُوب، ولكنَّ المُصلِّي يَأثم، حَيْث يَحرم عَلَيْهِ أنْ يؤخرها إلىٰ هَذَا الوَقت، وقَد انفردوا بِذَلك عَن سَائر المَذاهب. أنظر، الإِنْصَاف: ١/٤٣٣، المُغني: ١/٤١٦، حلية العُلَمَاء: ٢/١٤، الشّرح الكَبِير: ١/١٩٤ و ٤٣٠.

(٢) قَالَ الشَافِعِية، والحنَابلة، (عَلىٰ رأي الصّاحِبين) قَالُوا: يَبتدئ وَقت المَغرب مِن مَغِيب القُرص، ويَنتهِي بِمَغِيب الشّفق الأحْمَر مِن جِهة المَغرب. أنظر، بدَاية المُجتَهِد: ١/٩٢، المَنهج القَوِيم: ١/١٠٨، اللُّباب: ١/٥٦، المُنتقىٰ: ١/١٤، المَجموع: ٣/٢٩٠، مُغني المُحتاج: ١/١٢٢، الفِقه عَلىٰ المَذاهب الأَرْبَعة: ١/١٨٤، المُغني: ١/٤٢٤.

وَقَالَ المَالكِية: إنّ وَقت المَغرب مُضيق، ويَختص مِن أَوّل الغُرُوب بِمقدار مَا يَتسع لَهَا ولمُقدماتها وشرَائطها مِن الطّهارة والأذَان، ولاَ يَجوز تَأخيرها اختيَاراً عن هَذَا الوَقت، أمّا مَع الاضطرَار فَيمتد وَقت المَغرب إلىٰ طلُوع الفَجْر، وعَدم جوَاز تَأخِير المَغرب عَن أَوّل وَقتها مِمّا انفردت بِهِ المَالكِية. أنظر، الإِنْصَاف: ١/٤٣٤، بدَاية المُجتَهِد: ١/٩٢، مُقدمات ابن رُشد: ١/١٠٦، فَتح الرّحِيم: ١/٦٢.

وَقَالَ الإِمَامِيّة: تَختص صَلاَة المَغرب مِن أَوّل وَقت الغُرُوب بِمقدار أدَائها، وتَختص العِشَاء مِن آخر النّصف الأوّل من اللّيل بِمقدار أدَائها، ومَا بَيْن هَذين وَقت مُشترك بَيْن المَغرب والعِشَاء، ولِذَا أجَازوا الجَمع

↔

يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ... إلخ). بَعْد طلُوع الفَجْر[1]. والتَّفصِيل فِي كُتب الفِقْه.

⇐ فِي هَذَا الوَقت المُشترك بَيْن القَرِيضتين. ويَتحقق الغُرُوب عِند الإمَامِيّة بِمُجرد سقُوط القُرص تَماماً كَما عِند الأَرْبَعة، ولكنّهم قَالُوا: بِأنّ مَغِيب الشّمس لا يُعرف بِمُجرد موَاراة القُرص عَن العَيان، بـل بٱرتـفَاع الحُمْرة مِن المَشرق بِمقدار قَامة الرَّجُل؛ لأنَّ المَشرق مُطل عَلىٰ المَغرب، وعَلَيْهِ تَكُـون الحُـمْرة المَـشرِقية ٱنعكَاساً لنُور الشّمْس. وكُلّما أوغَلت الشّمْس فِي الغُرُوب، ٱرتَفع هَذَا الانْعكاس. أمّا مَا يُسَمُّونَه مِن أنّ الشّيعة لاَ يَفطرُون فِي شَهر رَمضان حَتّىٰ تَطلع النّجوم فَلا مَصْدَر لهُ، بل قَد أنْكَروا ذَلِكَ فِي كُتبهم الفقهية، ورَدوا عَلىٰ مَن زَعم ذَلِكَ بأنّ النّجوم قَد تَكُون قَبل الغُرُوب ومَعه وبَعده. وأنّه مَلعُون ٱبن مَلعُون مَن آخر صَلاَة المَغرب إلىٰ ٱشتبَاك النّجوم مُتعمداً. قَالُوا هَذَا رَداً عَلىٰ الخطّابِية أتْبَاع أبِي الخَطّاب القَائِلين بِهَذا القَوْل. وهُم مِن الفرق البَائدة، ولله الحَمد. وقِيل للإمَام الصّادق: إنّ أهْل العرَاق يُؤخرون المَغرب إلىٰ أنْ تَشتبك النّجوم. فقَال هَذَا مِن عَمل عَدوّ الله أبِي الخَطّاب. أُنظر، الرّوضة البَهـية: ١/١٨٠، الذّكـرىٰ: ٢/٣٤٠، التّهذيب: ٢/٢٨، رِياض المسائل: ٢/١٧٢، المجموع: ٣/٣٨، فَـتح العَـزيز: ٣/٢٧، المُـغني: ١/٤٢٦، الشّرح الكَبِير: ١/٤٧٤.

هَذَا بالنسبة إلىٰ المُختار، أمّا المُضْطَرّ لنُوم أو نِسيَان، فَيمتد وَقت الصّلاتِين إلىٰ الفَجْر عَلىٰ أنْ تَختص صَلاَة العِشَاء مِن آخر اللّيل بِمقدَار أدائِها، وتَختص المَغرب مِن الجزْء الأوّل مِن نِصف اللّيل الثّاني بِمقدار أدائها أيضاً. أُنظر، المجموع: ٣/٤٠، الوَجيز: ٣٣، كفَاية الأخيار: ١/٥٢، المَبسوط للسَّرخسي: ١/١٤٥.

(١) أمّا وَقت الصُّبح مِن طُلوع الفَجْر الصّادق إلىٰ طُلوع الشّمْس بالإتفَاق، إلاّ المَالكية قَالُوا: للصُّبح وَقتَان: ٱختياريّ، وهُو من طُلوع الفَجْر إلىٰ تَعارف الوجُوه. وٱضطِرَاريّ، وهُو من تَعارف الوجُـوه إلىٰ طُـلوع الشّمْس. أُنظر، الخِلاَف: ١/٢٦٧، المَبسوط للسَّرخسي: ١/١٤١، الرّوضة البَهية: ١/١٧٩، الإنْـصَاف: ١/٤٣٨، المُدونة الكُبْرَىٰ: ١/٥٦ و٩٣، بِدَاية المُجتَهد: ١/٩٧، المُحلىٰ: ٣/١٩١، الفِقه عَلىٰ المَذاهب الأَرْبَعة: ١/١٨٥.

الرسالة ٥٣

عَهْد الأَشْتَر...فِقْرَة ١ ـ ٢:

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ : جِبَايَةَ خَرَاجِهَا ، وَ جِهَادَ عَدُوِّهَا ، وَ اسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا ، وَ عِمَارَةَ بِلاَدِهَا .

أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ ، وَ إِيْثَارِ طَاعَتِهِ ، وَ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ : مِنْ فَرَائِضِهِ وَ سُنَنِهِ ، الَّتِي لاٰ يَسْعَدُ أَحَدٌ اِلاّٰ بِاتِّبَاعِهَا ، وَ لاٰ يَشْقَىٰ اِلاّٰ مَعَ جُحُودِهَا وَ إِضَاعَتِهَا ، وَ أَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَ يَدِهِ وَ لِسَانِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، جَلَّ اسْمُهُ ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وَ إِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ .

وَ أَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ ، وَ يَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، اِلاّٰ مَا رَحِمَ اللهُ[1] .

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَىٰ بِلاٰدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ ، مِنْ عَدْلٍ وَ جَوْرٍ ، وَ أَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاٰةِ قَبْلَكَ ، وَ يَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ ، وَ إِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي

اللهُ لَهُمْ عَلَىٰ أَلْسُنِ عِبادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَآمْلِكْ هَوَاكَ ، وَ شُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاٰ يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْكَرِهَتْ(٢) .

اللُّغَة:

يَكْسِرَ نَفْسَهُ : يَقْهَرهَا . وَوَزَعَ : مَنَعَ . والْجَمَحَاتِ : مِن جَمَح الفَرَس بِصَاحِبه إِذَا تَمَرد عَلَيْهِ .

الْإِعْرَاب:

جِبَايَةَ وَمَا بَعْدَها بَدل اشْتمَال مِن مِصْرَ ، والْمَصْدَر مِن أنْ أَنْ يَنْصُرَ الله مَجْرُور بِالبَاء المَحْذُوفَة أي أَمرَه بِنَصْر الله سُبْحَانَهُ .

الْمَعْنَىٰ:

هَذِه ٱلرِّسالَة تَلقَاها مَالِك الأَشْتَر مِن الإِمَام حَيْنَ وَلاَّهُ عَلىٰ مِصْر ، وتُعرَف بِعَهْد الأَشْتَر ، وأَخَذ هَذَا العَهْد حَظاً كَبِيراً مِن ٱهتِمَام الْعُلَمَاء الْعَرَب وغَيْر الْعَرَب قَدِيماً وحَدِيثاً ، ومِنْهُم مُسْتَشرِقُون ، ونَقَل المُؤلفُون وكُتّاب المَقالاَت العَدِيد مِن فصُوله ، أمَّا الَّذِين شَرحُوه بِاللُّغَة الْعَرَبِيَّة وغَيْرها فَكَثِيرُون ، وذَكَر السَّيِّد الشَّهْرستَانِي أسماء عَشْرَة مِنْهُم فِي أَوَّل كِتَاب «الرَّاعِيَ والرَّعِيَّة» للأُستَاذ الفُكيكي ، ومَا لَدي مِن الشّروح إلّا الرَّاعِيَ والرَّعِيَّة بِالإضَافة إلىٰ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد ، ومِيثَم(١) .

(١) أنظر ، شَرح عَهْد مَالِك الأَشْتَر : لِعَليّ بن مُحَمَّد الرَّشتي الجِيلانِي ، وَشَرح عَهْد مَالِك الأَشْتَر : لِمُحَمَّد بَاقر بن ⟵

وكَان الْأَشْتَر مِن زُعَمَاء الْعَرَب وفُرسَانهم وأكـيَاسَهُم، ومِـن رُؤُوس الشِّـيعة المَوَالِين لأَهْل الْبَيْت، وكَان الْإمَام يَعْتَمد عَلَيْهِ ويَدخِرَه لِلمُهِمَات، وَقَالَ فِـيهِ مِـن جُملة مَا قَالَ: «كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحاً، وَ عَلَىٰ عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً»(١)، وَقَالَ: «مِمَّنْ لاٰ يُخَافُ وَهْنُهُ، وَ لاٰ سَقْطَتُهُ»(٢). ويَكْشِف هَذَا التَّقرِيض أنَّ الْأَشْتَر كَان يَجْمَع بَـيْنَ الْعَمَل والْعَقْل والْإِخْلاَص، بِالإضَافة إِلىٰ الشَّجَاعَة والفُرُوسِيَّة.

وَلَيْسَ مِن قَصْدِي أنْ أُطِيل وأُفِيض فِي شَرح هَذَا العَهْد اليَتِيم، كَمَا هِي عَادتِي فِي كُلّ مَا كَتَبت خَوْفَاً مِن مَلَلِ القَارىء وسَأمه... ولكنّي أُحَـاول أنْ أُبْـرز المَـعَانِي الأَسَاسِية والمَزَايا الهَامَة، وَمَدىٰ تَأْثِيرها فِي ٱلْحَيَاة. وخَير الكَلاَم مَا قَـلَّ لَـفْظَه، وكَثُرت فوَائِده.

ٱبْتَدأ الْإِمَام هَذَا العَهْد بِتَحدِيد السُّلطة الّتِي أَسندَها لِلأَشْتَر، وهِي أَرْبَعَة أُمُور:

الْأَوَّل: (جِبَايَةَ الْأَمْوَال) وهِي مِن الوَظَائِف المَالِيَة.

وَالثَّانِي: (جِهَادِ الْعَدُوِّ) الشُّؤُون الحَرْبِيَّة.

وَالثَّالِث: (ٱسْتِصْلاٰحَ حَال المُوَاطِنِين) وَيَشْمل الْأَمْـن، والثَّـقَافة، والصِّـحة، وَوَظَائِف الْدَّوْلَة، والخَدمَات، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ مِن الشُؤُون الاِجْتمَاعِيَّة.

← الميرزا يُوسُفَ بن بِيكلر سُلطان خَان القُمي التَّفرِيشي، وشَرح عَهْد مَالِك الْأَشْتَر: للشَّيخ هَادي بن المُولىٰ حَسنِين بن مُحسن بن عبدالله بن مُحسن بن الحُسين البَرجندي، ودرَاسَات النَّهج فِي شَرح عَهْد مَالِك الأَشْتَر: للشَّيخ مُحَمَّد مَهدي بن عَبدالكَرِيم شَمس الدِّين العَاملي، وقَائد القوَات العَلوية فِي شَرح عَهْد مَالِك الأَشْتَر: للشَّيخ عَبدالوَاحد المُظفري، أو السِّيَاسَة العَلوية فِي شَرح عَهْد مَالِك الأَشْتَر، والتُحفَة السُّلَيْمانِية فِي شَرح عَهْد مَالِك الأَشْتَر: للسَّيِّد مَاجد أبن السَّيِّد مُحَمَّد البَحراني والَّذي كَتبه بأسم الشَّاه سُلَيمان.

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: آلرِّسالَة (٣٤). (مِنْهُ‏ؒ).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: آلرِّسالَة (١٣). (مِنْهُ‏ؒ).

وَالرَّابِع: (عِمَارَةَ البِلاَد) وتَعمّ الزِّرَاعَـة، والصِّـنَاعَة، والتِّـجَارَة، والإِسْكَـان، والمُوَاصلاَت.

ثُمَّ أمرَه بِما يُوجب عَلىٰ كُلّ حَاكِم فِي كُلِّ العـصُور (أَمَـرَهُ بِـتَقْوَىٰ اللهِ، وَ إِيْـثَارِ طَاعَتِهِ، وَ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ). العِلم بِلا تَقْوىٰ لاَ يَحل مِشْكلاَت اَلْحيَاة، بَل يَزِيدهَا تَعقِيداً... ومَاذا فَعل العِلم بِإنسَان القَرن الْعِشْرِين؟. لَقَد غَيَّر العَالَم القَدِيم، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، وهَبَط بِالْإِنْسَان عَلىٰ سَطح القَمر. ولكنَّه أودَىٰ بِحَيَاة المَـلاَيِين، ورَوّع الآمِنِين، ونَهَب أقوَات الضُّعفَاء، وشَرَّد مَلاَيِين الأَطْفَال، واَلنِّسَاء، وبَـات يُهدد بِأسلِحَته كَوكبنا هَذَا الَّذي نَسْكنَه بِالخَرَاب والدَّمَار... ويَسْتَحِيل أنْ تُـعَمر البِلاَد، وَيسعَد أَهْلها، وتَرىٰ الإِنْسَانِيَّة شَيْئاً مِن الْخَيْرِ إلّا بالإِخْلاَص، والتَّقْوىٰ.

(أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَىٰ بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَ جَوْرٍ). كُلّ بَلد رَأىٰ مُن حُكْامه شَرَّاً وخَيرَّاً، ولكنَّ مُعْظَم الحُكَّام والزُّعمَاء مِـن الأَشْرَار، وأمَّـا الأَخْيَار فَأقَل مِن القَلِيل (وَ أَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَاكُنْتَ تَنْظُرُ فِيه مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ... تَقُولُ فِيهِمْ). لاَ سُلطَان لِلملُوك، والأُمَراء عَـلىٰ نَـوَايـا النَّاس وأرْوَاحهُم، وعَلىٰ أَلْسنَتهُم، وأَفْكَارهُم... وهُم يَـنْطقُون بِـمَظَالِم الْحَـاكِـم وعِيُوبه، وبِالأَمْس كُنْتَ يَا مَالِك تُعِيب وتَنْتَقد بَعْض الْوُلاَة، فَاجْتَهد مَا اَسْتَطَعت فِي أنْ لاَ تَدَع سَبِيلاً عَلَيْكَ للقَالَة والمَلاَمَة.

(وَ إِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَىٰ أَلْسُنِ عِبَادِهِ). المِـقْيَاس الصَّحِيح لِعَدل الْحَاكِم رِضا الضُّعَفَاء عَنْه الَّذِين لاَ عَمّ لهُم ولاَ خَال إلّا الْعَدْل والْحَقّ (فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَ شُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَكَ) اَرْدَعهَا عَن الشَّرّ إنْ أَحبَتهُ ومَالت إِلَيْهِ، واَدْفَعها إِلىٰ الْخَيْر إنْ كَرِهَته وَصَدت عَنْه، وبِهَذا وَحدَه تَنْتَصف مِنْهَا، وتَسْلك

بِها طَرِيق النَّجَاة والأَمَان.

كُلّ النَّاس مِن تُرَاب...فِقْرَة ٣ ـ ٥:

وَ أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَ الْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَ اللُّطْفَ بِهِمْ، وَ لاٰ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَ إِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَ تَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَ يُؤْتَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَ الْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَ صَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَ تَرْضَىٰ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَ صَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَ وَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَ اللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ! وَ قَدِ ٱسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَ ٱبْتَلَاكَ بِهِمْ[٣]. وَ لاٰ تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ فَإِنَّهُ لاٰ يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَ لاٰ غِنَىٰ بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَ رَحْمَتِهِ. وَ لاٰ تَنْدَمَنَّ عَلَىٰ عَفْوٍ، وَ لاٰ تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَ لاٰ تُسْرِعَنَّ إِلَىٰ بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَ لاٰ تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَ مَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَ تَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ. وَ إِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَٱنْظُرْ إِلَىٰ عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَ قُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَىٰ مَا لاٰ تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَ يَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَ يَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ[٤]!

إِيَّاكَ وَ مُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَ التَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَ يُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

أَنْصِفِ اللهَ وَ أَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَ مِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَ مَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَ مَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَ مَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَ كَانَ لِلهِ حَرْباً حَتَّىٰ يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ. وَ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ

إِلَىٰ تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَ تَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُلْمٍ ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ ، وَ هُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ(٥) .

اللُّغَة:

سَبُعاً ضَارِياً : جَرِيئاً عَلَىٰ الافْتِرَاس . وَٱسْتَكْفَاكَ : طَلَب مِنْكَ أَنْ تصلح شُؤُونَهم بِأمره . وتَبْجَحَنَّ : تَفْرَحَنَّ . والمَنْدُوحَة : السَّعَة والفُسْحَة . والأُبَّهَة : الْكِبْرِيَاء . والمَخِيلَة : العُجْب . ويُطَامِنُ : يسكِّن ويُخَفِف . وطِمَاحِكَ : جِمَاحِك . وغَرْبِكَ : حِدَّتِك . وَيَفِيءُ : يَرْجِع . وعَزَبَ : غَابَ . والمُسَامَاةَ : المُبَارَاة فِي السّمُو . وجَبَرُوتِهِ : قُدْرَته وَعَظَمَته . وأَدْحَضَ : أَبْطَلَ .

الإِعْرَاب:

مَا أَنْتَ فِيهِ «مَا» فَاعِل أَحْدَثَ ، وأَنْتَ فِيهِ مُبْتَدَأ وَخَبَر ، والْجُمْلَة صِلَة «مَا» وأُبَّهَةً مَفْعُول ، وإِيَّاكَ مَفْعُول لِفعل مَحْذُوف أي إِيَّاكَ أُحَذِّر .

مَحَبَّة الْحَاكِم لِلرَّعِيَّة:

(وَ أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَ الْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَ اللُّطْفَ بِهِمْ) . مَحَبَّة الْحَاكِم لرعيته ضرورة تَمَاماً كالْعَدْل ، وأي حاكم يُلزم نفسه بالْمَحَبَّة والْعَدْل ـ فإِنَّه يَجْعَل مِن رَعِيَّتِه أصْدقَاء لهُ ، وأَحْبَاء حَتَّىٰ ولَو كَان عَلىٰ غَيْر دِيْنِهم ، وبِهَذا تَسْتَقِيم لهُ الأُمُور ، وَيَعُم الأَمْن والهُدُوء بِلا جُيُوش وجُنُود ، لأَنَّ كلّ وَاحد مِن رَعِيَّة السَّائِس الْعَادِلُ هُو قوَّة لهُ وَعُدَّة ، وجُنْدي يُحافظ ويُدَافع . وقَد أَثْنىٰ سُبْحَانَهُ عَلىٰ نَبِيِّه الكَرِيم

بِقَوْله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. وأي حَاكِم لاَ يُنَفذ لهُ أمر إلاّ بِالقُوَّة فهُو مِن الخَاسِرِين دُنياً وآخِرَة.

(فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَ إِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ). عَلىٰ الْإِنْسَان أنْ لاَ يَعتدِي ويُسيء إلىٰ أخِيه الْإِنْسَان بِشيء، وأنْ يَنْصفه مِن نَفْسه، عَوناً لهُ عَلىٰ ظَالِمه سوَاء أكَان عَلىٰ دِينه أَمْ عَلىٰ دِين الشَّيْطَان. قَالَ الْإِمَام جَعْفر الصَّادق عليه‌السلام لِشيِّعَته: «ردُوا الْأَمَانَة إِلىٰ أَهْلهَا وإنْ كَانوا مجُوسَاً»[2]. وَقَالَ لهُ أَحد أصْحَابه وأَتْبَاعه: «وَقَع لِي مَال عِند يهودِي، فكَابَرنِي عَلَيْهِ وَحَلف، ثُمَّ وَقع لهُ عِنْدِي مَال فَهْل آخذَه عِوضاً عَن مَالي وأجْحَده وأحْلف عَلَيْهِ، كمَا صَنع؟. فقَال الْإِمَام: إذَا خَانَك فَلا تخُنْهُ، ولاَ تَدخُل فِيما عِبْتَه عَلَيْهِ»[3].

الْمُسْلِم وَالدُّوَل الْإِسْلاَمِيَّة:

وبِهَذه المُنَاسبة نُشِير إِلىٰ أنَّ الْأَوَائِل مِن حُكَّام الْمُسْلِمِين كَانوا يُعَامِلُون أي مُسْلِم يَدْخُل بِلاَدهم مُعَامَلَة المُوَاطن الأصِيل فِي جَمِيع الحُقُوق والوَاجبَات بصَرف النَّظر عَن بَلده وجِنْسه ولُغته، عَن الإذن والجوَاز، ولا يُمنع مِن الإِقَامَة والتِّجَارَة،

---

(١) ٱلتَّوْبَة: ١٢٨.

(٢) أنظر، الكَافِي: ٥/١٣٢ ح ٢، التَّهذِيب: ٦/٣٥١ ح ٩٩٣، تَذكرة الفُقَهَاء: ٢/١٩٦، وَسَائِل الشِّيعة: ١٣/٢٢٢ ح ٥٣.

(٣) أنظر، الكَافِي: ٥/٩٨ ح ١، الفَقِيه: ٣/١١٣ ح ٤٨٢، الإسْتبصَار: ٣/٥٢ ح ١٧١، وَسَائِل الشِّيعة: ١٢/٢٠٤ ح ٧، تَهذِيب الأَحْكَام: ٦/٣٤٨ ح ٩٨٠.

فكَان الْمُسْلِم الهِندي، والتُّركي، والْعَرَبِي، والْفَارِسْي يَنْتَقل بِملء إرَادته حَيْث شَاء مِن البِلاَد الإِسْلاَمِيّة وَدُوهَا، ويَتَمتَع بِجَمِيع الحُقُوق السِّياسِيَّة، والْمَدِينَة، والطَّبِيعية.. وأيضاً عَلَيْهِ وَاجبَات مُتسَاوِية مَع المَوَاطن الأصِيل، وَلِلْحَاكِم أنْ يجبرَه عَلىٰ حَمل السِّلاح، والدِّفَاع عَن الرَّعَايا الْمُسْلِمِين مَا دَام فِي بَلدهُم[1].

(يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَ تَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ... عَفْوِهِ وَ صَفْحِهِ). كُلّ النَّاس يَخْطئُون، ومَن الَّذي تَخْلو صَحِيفته مِن هَفْوَة؟ مَا دَام يَعِيش مَع النَّاس، وَيَحتَك بِهْم... حَتَّىٰ الَّذي يَعِيش مُعتَزِلاً قَد يُخْطيء ويُقصر بِحَق خَالقه، ولكنَّه تَعَالىٰ يَعْفُو وَيَصفَح عَمَّن يَطلب مِنْهُ الْعَفْو والصَّفح. قَالَ عزَّ مَن قَائِل: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُواْمِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]. فَجدِير بِالعَبد أنْ يَعفُو عَمَّن أسَاء إلَيْهِ. يُعَامل النَّاس كَأنَّه لاَ عَدوّ لَهُ فِيهِمْ ولاَ حَاسد، ولَيْس مِن شَكٍّ أنَّ الغَلبة لِلحَلِيم.

(فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ) كَأمِير (وَ وَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ) لأنَّه ٱخْتَارك وَعَيَّنَك (وَ اللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ!) لأنَّ الكُلّ فِي قَبضَته، فأنَا وأَنْتَ وَالرَّعِيَّة جَمِيعاً مُتسَاوون فِي العبُودِية لله والاِفْتقَار إلىٰ رَحْمَتِه وَعِنَايَته. فلِمَاذا التَّكَبُّر؟ وعَلىٰ مَن؟ (وَ قَدِ ٱسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَ ٱبْتَلَاكَ بِهِمْ). الْخَلق أمَانَة الْخَالِق عِند الْحَاكِم يَمْتَحنه سُبْحَانَهُ بِهِم، فإنْ سَاسَهُم بِالحُسنىٰ كَافَأه بِأحسَن مِنْهَا، وإلّا حَقّت عَلَيْهِ كَلِمَة العَذَاب.

(وَ لاٰ تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ فَإِنَّهُ لاٰ يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ... وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً).

لاَ تُحَدث نَفْسك بِمَعْصِيَة الله، فَيحل عَلَيْكَ غَضَبه وعَذَابه، ولاَ طَاقَة لَكَ عَلىٰ دَفْعه

---

(١) أنظر، نِظَام الحُكْم الإِسْلاَمِي لِمَحْمُود حِلمِي. (مِنْهُ).

(٢) ٱلزُّمَر: ٥٣.

وتَحمُّله... وأيضاً لاَ غِنىٰ لَكَ بِمَالٍ، أو جَاهٍ عَن عَفو الله ورَحْمَتِه، وإنْ عَفوت عَمَّن أَسَاء إِلَيْك فَلا تَندم عَلىٰ مَا فَعَلت، فإنَّ الْعَفْو خَير وَفَضل... وأيضاً لاَ تَفرَح إذَا شَفيت غِيظَك مِن عَدُوّك، وٱذْكر قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]. ولاَ تَعتَدي عَلىٰ مَخلُوق حَتَّىٰ وَلو كَان بِمثل مَا ٱعتَدىٰ عَلَيْكَ، إنْ لَمْ يَكُن الْعَفْو تَشجِيعاً لَهُ عَلىٰ الشَّر والْعُدْوَان.

(وَ لاَ تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَ مَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ). أي أَمِير، والمُرَاد بِالإِدْغَالِ الإِفْسَاد، وبِالمَنْهَكَة الضَّعْف: وبِالْغِيَرِ ـ بِكَسر الغين ـ نوَائِب الدَّهر، والمَعْنَىٰ لاَ تَغْتَرِ بِمَنصب الرِّيَاسة، وتَقول: أنَا الأَمِير النَّاهِي، ومَا عَلىٰ النَّاس إلّا أنْ يَسْمَعوا وَيَطِيعوا، لأنَّ هَذَا غُرُور يُفسِد الْقَلْب، ويَضعف الدِّين، ويُلقي بِصَاحِبه إِلىٰ التَّهْلُكَة.

(وَ إِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً.... مِنْ عَقْلِكَ). إذَا نَفَخ الشَّيْطَان فِي أَنْفك مِن الكِبَر، ووَسوَس فِي خَيالَك إنَّك شَامِخ وعَرِيض، كَمَا قَالَ الشَّاعر السَّاخر[2]:

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهِرِ تَحْكِي ٱنْتِفَاخاً صُورَةَ الأَسَدِ

قَإِذَا حَدَث لَك شَيء مِن هَذَا فٱستَعذ بِالله مِن الشَّيْطَان، وتَذكر عَظَمة الله الَّتِي لا يُدَانِيها شَيء، وإنَّك فِي قَبضَته لاَ تَملك لِنَفْسك نَفْعاً ولاَ ضَرّاً إلّا مَا شَاء

(١) اَلْبَقَرَة: ٢٣٧.

(٢) يُنسب هَذَا الشِّعر إِلىٰ ٱبن شَرف، وقيل: لِلحَسَن بن رَشيق، وقيل: لِمُحَمَّد بن عَمَّار المُهري الأَنْدلسِي كَمَا جَاء فِي دِيوَانه: ٥٩ و ٦٠، ونَفح الطِّيب: ١/٢١٤ و: ٤/٢٥٥، وفَيَات الأَعْيَان: ٤/٤٢٨، تَأرِيخ ٱبن خَلدون: ١/١٥٥ و ٢٢٩، سير أَعْلاَم النُّبلاء: ١٧/١٤٤، الأَعْلاَم لِلزَّركلي: ٦/٣١٠.

الله... وعِندئذ يَكف الشَّيطَان، ويَذهب لِشَأنه وتَرجع أَنْت إِلىٰ رُشدك وعَقْلك... ونَكتَشف مِن هَذِه المَوْعِظَة البَالِغة أنّ ٱلسَّبِيل الوَحِيد إِلىٰ رِيَاضة النَّفس عَلىٰ التَّواضع ـ أنْ يَكُون عَقل العَبد أَبَداً ودَائِماً مَع الله فِي قُدرَته وسُلطَانه وإنّه لاَ دَواء لِمَرض الْقُلُوب إلاّ مَعْرِفَة الله سُبْحَانَهُ فِي كَمَاله وجَلاَله.

(إِيَّاكَ وَ مُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَ التَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ). دَع التَّعَاظُم فَإِنَّه جَهْل وسَفَه... والعَظَمة لله وَحده، ومَن تَطَاوُل إِلَيْهَا أذَلّه وأخْزَاه، ومَن وَضَع نَفْسه مَنزلتها رَفعة الله والنَّاس فَوق مَا يَسْتَحق (أَنْصِفِ اللهَ وَ أَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَ مِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ). كُلّ مَن يَعتَرف بِالْحَقّ ويَعمَل بهِ، لهُ كَان أَمْ عَلَيْهِ ـ فَقَد أَنْصَف النَّاس مِن نَفْسِه، وأَهْلِه، وأصدقَائِه (فَإِنَّكَ إلاَّ تفْعَلْ تَظْلِمْ! وَ مَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ). الله عَادِل، مَا فِي ذَلِكَ شَكّ، وإذَنْ فَمَن جَار فَقَد عَاند الله بِالذَات، وٱستَحَق مِنْهُ المَقت والْهَوَان دُنيا وآخِرَة.

رِضَا الرَّعِيَّة...فِقْرَة ٦ ـ ٧:

وَ لْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَ أَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَ أَجْمَعُهَا لِرِضَىٰ الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَىٰ الْخَاصَّةِ، وَ إِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ الْعَامَّةِ. وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَىٰ الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَ أَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ، وَ أَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَ أَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَ أَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَ أَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَ أَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَ إِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَ جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَ الْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ؛ فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَ مَيْلُكَ مَعَهُمْ[٦].

وَ لْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَ أَشْنَأُهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً ، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا ، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَ اللهُ يَحْكُمُ عَلَىٰ مَا غَابَ عَنْكَ . فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ . أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ، وَ اقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ ، وَ تَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لاَ يَضِحُ لَكَ ، وَ لاَ تَعْجَلَنَّ إِلَىٰ تَصْدِيقِ سَاعٍ ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ ، وَ إِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ[٧] .

اللُّغَة:

الْإِجْحَافُ : النَّقص الفَاحِش . والْإِلْحَافِ : الْإِلْحَاح . المُلِمَّاتِ : الشَّدَائِد . وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ : جَمَاعَتهُم . وأَشْنَأُهُمْ : أَبْغَضَهُم . وَالوِتْر : الحِقْد . وَتَغَابَ : تجَاهل وتَغَافل . والسَّاعِيَ : النَّمام .

الْإِعْرَاب:

مَئُونَةً تَمْييز ، ومِثلها مَعُونَةً ، وشُكْراً ، وعُذْراً ، وصَبْراً ، ومِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ مُتَعَلِّق بِأَثْقَلَ ، والْعَامَّةُ خبَرَ عِمَادُ الدِّينِ ومَا عطف عَلَيْهِ ، وَتَغَابَ عَلَيْهِ ، فِعل أَمر مَبني عَلىٰ حَذف حَرف الْعِلَّة .

الْمَعْنىٰ:

(وَ لْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُور إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ) . الْمَرَاد بِالْأَوْسَط هُنا الْمُعْتَدل ، ومَعْنىٰ الْإِعْتِدَال فِي اسْتعمَال الحَقّ أَنْ لاَ يَطْغىٰ سُلطَان حَقٍّ عَلىٰ سُلطَان حَقٍّ آخر ،

وأنْ يُمَارِس الإِنْسَان حَقَّه فِي حدُود المُحَافظة عَلىٰ حقُوق الآخرين، فَلِلرَّاعِي ـ مَثلاً ـ حَقّ الطَّاعَة عَلىٰ الرَّعِيَّة، وَلكنَّ فِي حدُود مصَالِحهُم ومَا يَعُود عَلَيْهِمْ بِالنَّفع والخَيْر، وأيضاً عَلىٰ الرَّاعِي أنْ يستَجِيب لِمطَالب الرَّعِيَّة، ولكنْ فِي نطاق الاِحْتِفَاظ بِهَيْبَة الحُكْم وسِيَادته بِحَيث لاَ يَكُون مَغْلُوباً عَلىٰ أمره. وبِهَذا يَحصل التَّوَازن بَيْنَ الحَقّين فِي غَيْر عُنف وتَعَسُّف.

الدِّيمُقْرَاطِيَّة:

(وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ) أي عَلىٰ الرَّاعِيَ قَبل كلّ شَيء أنْ يَعْمَل لِمَصلَحَة الجَمِيع بِلاَ ٱسْتثنَاء، فإنْ تَعَذَّر عَلَيْهِ أخَذ بِالأَهم الأَعَم، وهُو مَصْلَحَة الأَكثَرِية (فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَىٰ الْخَاصَّةِ) إذَا طَلبَت الأَقْلية مِن الحَاكِم أنْ يَغْدِق عَلَيْهَا الاِمْتِيازَات الّتِي تُمْكنهَا مِن رِقَاب الأَكثَرِية وٱسْتغلاَلِهم ـ فَعَلَيه أنْ يَرفض ولاَ يَسْتَجِيب، أمَّا مِن الوجهَة الدِّينيَّة فوَاضح لمكَان الظُّلم والجَوْر، وأمَّا مِن الوجهَة السِّيَاسيَّة فلأنَّ سُخْطَ الْعَامَّة يَهز كيَان الدَّوْلَة بِالاِضْرَابَات والمُظاهرَات، ورُبَّمَا بِالثَّورة المُسلحَة، ورِضَا الخَاصَّة لاَ يُجدي شَيْئَاً فِي هَذِه الحَال، والعُنْف يَزِيد النَّار ٱشْتعَالاً. أمَّا سُخْطَ الأَقْلية فَلا يَترَتب عَلَيْهِ أي مَحذُور، ومِن أجل هَذَا فهُو مَغْفُور، بَل مَشكُور فِي جَانب رِضَا الْعَامَّة، وهَذَا مَا أرَاده الإِمَام بقَوْله: (وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ الْعَامَّةِ).

وَقَالَ المُشْتَرِع الفَرَنْسِي الشَّهِير «مُونتِسكِيُو» (MONTEΣΘIEY) فِي كِتَابه «روح الشَّرَائِع» الَّذي تَرك أثراً بَالِغاً فِي عَالم التَّشرِيع حَتَّىٰ يَومنا هَذَا، وتُرجم إلىٰ جَمِيع اللُّغَات الأُورُوبِية، وكَثِير غَيْرها، مِنْهَا الْعَرَبِيَّة، قَالَ: تَنْقَسم الحكُومَات إلىٰ

أنوَاع:

الحكُومة المُستَبدة: وهِي الّتي يَحْكمها فَرد وَاحد بِلا قَانون وَنِظَام، ويَحمل الجَميع عَلىٰ إرَادته وأهوَائه.

والحكُومَة الملَكِية: وَيَحكُم فِيها وَاحد، ولكنْ وِفق قَوَانِين مُقَرَرة ثَابتَه.

والحكُومَة الاِرْستقْرَاطِية: وَيَحكُم فِيها فَرِيق خَاص.

والحكُومَة الدِّيمُقْرَاطِية: وَيَحكمهَا الشَّعب.

وَهَذِه الحكُومَة الدِّيمُقْرَاطِية تَنْشدهَا جَمِيع الشّعُوب، ويُؤمِن بِها كُل فَيْلَسُوف ومُشْترَع يَهدف إِلىٰ الْخَيْر والصَّالح العَام، وَيَتَغنىٰ بِها الأُدْبَاء الأَحْرَار، ونَصَّت عَلَيْهَا فِي المَادَّة الأُولىٰ الدَّسَاتِيرُ الّتي وَضْعتها المجَالِس النِّيَابِية فِي الشَّرق والغَرب، وهِي بِالذَّات عَنَاها الإِمَام بقَوْله: (فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَىٰ الْخَاصَّةِ، وَ إِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ الْعَامَّةِ). وَمَعنىٰ هَذَا فِي وَاقعه أَنَّ الحَاكِم وَكِيل عَن الجَمَاعَة لِتأمِين غَايَاتها وأَهْدَافها، وَمُمَثل لِلسُّلطة لاَ مَالِك لهَا، وإِنَّه يَبقىٰ فِي الْحُكْم مَا دَام أَمِيناً وَمُخْلِصاً.

التَّسَلُّط الطَّبَقِي:

ثُمَّ أَشَار الإِمَام إِلىٰ مسَاوىء الْخَاصَّة، وهُم الَّذِين يَتَسلطُون عَلىٰ غَيْرِهِمْ بِالورَاثَة، أو الجَاه، أو المَال، وكَان النَّاس مِن قَبل يُسمُونَهُم أو هُم يُسمُون أَنْفُسهم بِالأَشْرَاف والنُّبلاء، أَشَار الإِمَام إِلىٰ مسَاوئِهم بقَوْله: (وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَىٰ الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ... إلخ). أبَداً لاَ شَيء عِند هَذِه الْفِئَةُ إِلّا إِرْهَاق الْحَاكِم بِمَطَالِبهم، وأَطْمَاعهم الّتي لاَ يَحدها شَيء، أَمَّا الرَّعِيَّة فِي نَظَرهُم فَعَبِيد

يُسَاقُون إِلىٰ مَهَاوي البُؤس والمَذَلَّة، لِيعمَلوا لِيلَ نَهار كِي يَتَدَفق الذَّهب الأَسود، ويَتقَاسمُوه مَع الشِّركَات والإِحْتِكَارات الَّتي يَستَمدُون مِنْهَا وجُودهُم وَنفُوذَهُم.. ولاَ شَيء أثقَل عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مِن كَلِمَة الْعَدْل، والمُسَاوَاة. وعِنْدَنَا مِنْهُم الْكَثِير! وَدَعوَتهُم اليَوْم ـ بِلسَان أذنَابهم ـ أنْ يَقف الْعَرَب مَع إِسْرَائِيلَ تَحت مَظَلة الْوِلاَيَات المُتحدَة، لِأَنَّهَا هِي وَحدَها تُؤمّن لِلعَرَب الأَمْن وتُطَهرهم مِن الْقِوَىٰ الوَطَنِيَة والعنَاصر الثَّورِيَة.

الإِسْلاَم دِين الجَمَاهِير:

ثُمَّ أشَار الإِمَام إِلىٰ محَاسن الأَكْثَرِية بقَوْله: (وَ إِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَ جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَ الْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ... إلخ). العُنْصُر البَشرِي ضَرُورة طَبِيعِية لوجُود الدِّين، لأنَّه مِن مظَاهر الْحَيَاة، ولاَ يُمكن أنْ يُوجد أو يُفهم فِي ذَاته مُستقلاً عَن الإِنْسَان... هَذَا مِن جِهَة، ومِن جِهَة ثَانِية لَو انْحصر الدِّين بِالْفِئَة المُتْرَفة لجَعَلوه تَبعاً لأَهوَائِهم: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1]. والتُّربَة الْخِصْبَة لِلإِسْلاَم هِي الْفِئَةُ المُسْتَضعَفَة الَّتي لاَ تَستَطِيع الْحَيَاة إلاّ فِي ظلِّ الْحَقّ، والْعَدْل، والمُسَاوَاة، ومِن هُنا كَانَتْ الْمَبَادىء مُثُلها العُليا وأُمنِيَتها القُصوىٰ، والإِسْلاَم هُو الضَّامن والكَفِيل لهَذه الأُمنِيَة، وإِذَنْ هُو دِينهَا وإِيمَانها مِن حَيْث تُرِيد أو لاَ تُرِيد، وهَذِه الْفِئَةُ هِي الأَكثَر الأَغْلَب فِي كلّ شَعب، وبِهَذا نَجد تَفْسِير قَول الإِمَام: «إِنَّ الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ... عِمَادُ

(١) ٱلْمُؤْمِنُون: ٧١.

الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ».

وَيُحدثنَا التَّأرِيخ أَنَّ الْكَثِير مِن المَجَازر والمَظَالِم قَام بِهـا الأَشْرَاف بِآسم الدِّيـن، وأَنَّهم أحْرَقوا أُلوف الرِّجَال وآلنِّسَاء، وهُـم أَحْـيَاء، وأَنَّ الله بِـزَعمِهم أَعْـطَاهُم مِـفْتَاح مَـلكُوت السَّـموَات والأَرْض لِـيَحلوا مَـا يُـرِيدُون، ويَـربطُوا مَـا يَشَاءون... وهَذَا مَا دَعا مَاركس أنْ يَقول: «الدِّين أَفْيُون الشّعُوب»[1]. وَقَـالَ جَمَاعَة مِن فَلاَسِفَة العصُور الوسْطىٰ: «يَجب فَصل الحَقّ عَن الدِّين، وتَجْـرِيده مِن كلِّ سُلطان، لِيَستَمد الحَقّ سُلطَانه مِن الطَّبِيعَة وحدَها، ويَـتخَلص مِـن سُـلطان الدِّين الَّذي آتخذَت مِنْهُ الطَّبَقَة المُتَسَلطَة طُغيَانَهم وإنْفَاذ حُكْمُهم زَاعمِين أَنَّه مُستَمد مِن عِند الله».

وإذَا تَجرَد الدِّين عَن الحَقّ والْقِيَم يَصْبَح كَـارِثة عَـلىٰ العَـالَم والإنْسَـانِيَّة تَمَـاماً كَالصّهيُونِية، والنَّازِية، وعُدْوَانِية أمرِيكا!... ولاَ سرّ هٰذا الفَـهم مِـن مَـاركس وأمثَاله إلّا فظَائِع الخَاصَّة الَّذِين أشَار إلَيْهِمْ الإمَام بِقَوْله: «وَإِنَّ سُخْطَ الخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ الْعَامَّةِ». ولَو أَدْرَك مَاركس، ومِن إلَيْهِ الإِسْلاَم كَما هُو فِي كِتَاب الله ومَا ثَبت عَن نَبِيِّه لقَالُوا: هُو الدِّين الوَحِيد الَّذي يُحقق أَهْدَاف الجَماهِير، ويُـعَبر عَـن أَمَانِيهم ورَغْبَاتهم، وأَنَّهم يُدينُونَ بِهِ، ويُخْلصُون لهُ مِن حَيْث لاَ يَشْعرُون... لَـقد جَرّد الإِسْلاَم الْفِئَات والأَفْرَاد مِن كلّ آمتِياز، ومِن حَقِّ السَّـيطَرة والاِسْـتعلاَء، وأَبْطَل مَزَاعم الَّذِين يَرون لأَنْفُسهم حُقُوقاً مُقدسَة عَلىٰ غَيْرِهِمْ، ووَضَع الجَـمِيع عَلىٰ مُستوىً وَاحد فِي الحُقُوق والوَاجبَات. قَالَ سُبْحَانَهُ لنَبِيِّه الكَرِيم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ

---

(١) أُنظر، كِتَاب أَفْيُون الشُّعُوب لِلعَقاد، وسُبل الهُدىٰ والرَّشاد: ٣١/١.

أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[١]. وَقَالَ لَهُ أَيضاً: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢]. وأيضاً: ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[٣]. وإذَا لَمْ يَكُن لِمُحَمَّدٍ مِن سَبِيل عَلىٰ مَخْلُوق فَكَيف بِسوَاه؟.

ومِن الأَوْصَاف الّتي نَعتَ بِها الإِمَام الْعَامَّة ـ أي الأَكثَرِية الغَالِبة ـ أَنَّهُم العِـدَة والقُوَّة ضِدّ الَّذين يُرِيدُون عِلواً فِي الأَرْض وفَسَاداً... وهَذَا غَاية المَدِيح... وقَـد يَظُنّ ظَّان أَنّ هَذَا الوَصف يُؤيد المَبدأ القَائِل بِحتمِية الصِّرَاع بَيْنَ الطَّبَقَات، وثُورَة الْعُمَّال عَلىٰ رَبّ الْعَمَل لِيَنْتَزِعُوا مِنْهُ مِلكِية أدوَات الانْتَاج.

ونَقول فِي جوَابه: إنَّ هَذَا المَبدأ أو هَذَا الْقَوْل ثَبت خَطأهُ بَعد أَنْ تنَازل رَبّ الْعَمَل عَن الكِبرِيَائِه، وآستجَاب لمطَالب الْعُمَّال مِن زِيَادَة الأُجور وتَحدِيد سَاعَات الْعَمَل والتَّعوِيض والضَّمَان وتَعطِيل يَومين فِي الأُسْبوع ـ فِي بَعْض البِلاد ـ ومَا إلىٰ ذَلِكَ مِمَّا يُرضِي الْعُمَّال ويَجعل مِنْهُم حُرَاساً لأدوَات الانْتَاج وصَاحِبهَا.

ونَعْطف عَلىٰ قَول الإِمَام: الْعَامَّة القُوَّة، والعدَّة ضِدّ الطُّغَاة، ونَعْطف عَلَيْهِ أَنَّهُـم العَمُود الفَقْري لِلأُمَّة، ويَسْتَحِيل أَنْ تَنْهَض وتُدَافع عَن نَفْسَهـا بِغَيْرِهِمْ، وعَـلَيْهِمْ يَقوم الانْتَاج والإِقْتصَاد، وجَمِيع شُـؤُون ٱلحَـيَاة، ومِـنْهُم الأُدبَـاء، والفَـنانُون، والْعُلَمَاء، والأَطْبَاء، والمُوظفُون... فإهْمَالهم إهْمَال لِلأُمَّة والوَطن والْدَّوْلَة.

(وَ لْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِك مِنْك، وَ أَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ). الَّـذي

---

(١) ٱلغَاشِيَة: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) ٱلأَنْعَام: ٥٢.

(٣) ٱلأَنْعَام: ١٠٧.

يَنْتَقص النَّاس ويَتَحرىٰ العَورَات والعَثرَات ... وهَذِه خِلَّة السُّفهاء والأخْسَاء، ومَن يَصغي إِلَيْهِمْ فهُو مِثْلهُم (فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا). لاَ تَبحَث عَنْهَا، وإنْ بَلَغَك شيء مِنْهَا فتغَاب وتجَاهل، بَل الأُولىٰ بِكَ أنْ تَدفع التُّهمَة عَن المُتَهم بِمثل «لَمْ يَثْبُت هَذَا، ولَعَل لَهُ مُبَرِراً لَمْ تَطلع عَلَيْهِ» والله هُو الَّذي يحُاسب ويُعَاقب (فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ) لأنَّه يُلقي الْعَدَاوَة والبَغضَاء بَيْنَ مَن سَعىٰ بِهِ، ومَن سَعىٰ إِلَيْهِ (وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ) تَصنُّعاً ورِيَاءً، فَكَم مِن خَائِن تَستر بِثُوب أَمِين، وغَادرٍ تمثَّل بِالصَّالحِين.

كُن مَعَ اَلصَّادِقِينَ...فِقْرَة ٨ ـ ٩:

وَ لاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَ يَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَ لاَ جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَ لاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَ الْجُبْنَ وَ الْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّىٰ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَ مَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَ إِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَ أَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَ نَفَاذِهِمْ، وَ لَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَ أَوْزَارِهِمْ وَ آثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَىٰ ظُلْمِهِ، وَ لاَ آثِماً عَلَىٰ إِثْمِهِ: أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَ أَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَ أَحْنَىٰ عَلَيْكَ عَطْفاً، وَ أَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَ حَفَلاَتِكَ[٨]، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَ أَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَ اَلْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَ الصِّدْقِ؛ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَىٰ أَلاَّ يُطْرُوكَ وَ لاَ يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ

تَفْعَلْهُ. فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَ تُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

وَ لاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَ الْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَ تَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ! وَ أَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَ اعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَ تَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَ تَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا. وَ إِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ، وَ إِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ(٩).

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِالْفَضْل هُنا النَّوَال. والبِطَانَة: الْخَاصَّة. والآصَارِ وَالأَوْزَار بِمَعْنَىٰ. والْمَؤُونَة: الثِّقَل والشِّدَّة. وإِلْفاً: حُبّاً. ويَبْجَحُوكَ: يَفْرَحُوك. الزَّهْوَ: العُجْبُ. وَالْعِزَّة: الكِبْرُ. والتَّزْهِيد والتَّدْرِيب: التَّعْوِيد. وحَسُنَ البَلاٰء: إِحْسَان. وسُوء البَلاٰء: ضِدَّه.

الإِعْرَاب:

خَيْرَ الْخَلَفِ مَفْعُول وَاجِدٌ، ومَؤُونَةً تَمْيِيز، ووَاقِعاً حَال مِمَّا كَرِهَ، ومَا أَلْزَمَ «مَا» فِي مَحَل نَصب بِنَزع الخَافِض، وبِأَدْعَىٰ البَاء زَائِدَة، ونَصَباً مَفْعُول يَقْطَعُ.

الْمَشُورَة:

(وَ لاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ... إلخ). لَيْسَ الْمُرَاد

بِالْمَشُورَة هُنا نِظَام الشُّورَىٰ فِي مقَابل الْاِسْتِبْدَاد والدِّكتَاتُورِية، بل مُجَرد الاِسْتِئنَاس بِرأي مَن تَرىٰ مِنْهُ الوَعي والنَّصِيحة... والإمَام يَنْهىٰ عَن الْأَخذ بِرَأي الجَبَان والْبَخِيل والحَرِيص، وَهَذَان الاِثْنَان سوَاء فِي القَبض والْإِمْسَاك، ولكنّ الحَرِيص أَكْثَر جَشعاً وشَرَهاً، يَكْدَح لِيل نَهَار فِي السَّعي لدُّنيَاه، أَمَّا الْبَخِيل فَقَد يَكُون كَسولاً، والْإنْسَان عَلىٰ وَجه العمُوم يَنظر إِلىٰ الْأَشْيَاء ويَتصَوَرها مِن خِلال ذَاته كَالنَّمْلَة تَرىٰ لله شَارِبين كمَا لهَا ـ عَلىٰ مَا قِيل ـ وكَالضِّفدَعَة فِي بِئر تَرىٰ السَّماء بِحَجم فوهَة البِئر، ومِن هُنا وخَوْفاً مِن الْفَقْر يَأمر الْبَخِيل بِالْإِمْسَاك، والجَبَان بِالاِسْتِسلاَم حِرصاً عَلىٰ ٱلْحَيَاة، ويَأمر الحَرِيص بِالكَدح لمُجَرد الجَمع والاِدْخَار[1].

---

(١) أمّا الاِسْتِدلاَل بِالآيَة: ﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ...﴾ فَهيَ قَد وَرَدت ضِمن آيَات تَبدأ مِن الآيَة: ١٣٩ ـ ١٦٦ مِن سُورة آلِ عِمْرَانَ، تَتَحدث عَن غَزْوَات الرَّسُول ﷺ، وبَعْضهَا لِسَان الخطَاب فِيها لِلمُسْلِمِين الغُزَاة خَاصَّة يَعظهُم ويَرشدهُم ويَعدَهُم بِالنَّصر، وكَيف نَصرَهُم فِي موَاطن عِدّة... وبَعْضهَا لِسَان الخطَاب إِلىٰ الرَّسُول ﷺ خَاصَّة، ومِنْهَا قَوله تَعَالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩. فالآيَات هُنا تُبَيِّن الْمَشُورَة بِاللِّين والرِّفق والرَّحمة، ولَم تَأمره ﷺ بِأَنْ يَعمل بِرأيهم، وذَلِكَ بِدَلِيل قَوله تَعَالىٰ: ﴿...فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ...﴾، آلِ عِمْرَانَ ١٥٩. يَعْنِي إِذَا عَزمتَ عَلىٰ أمرٍ مَا فاَعمَل برَأيك لاَ برَأيهم، عَلىٰ الرَّغم مِن أنّ الْمُشَاوَرة مَطلوبة، ولاَ تَدل هَذِه الآيَات عَلىٰ نَظرِية الشُّورَىٰ أو تَرك الْأُمَّة بِيدها فِي حضُور المَعصوم؛ لأنَّه ﷺ أَوْلَىٰ بِهِمْ مِن أَنْفسهم كمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾، الْأَحْزَاب: ٦. فإِذَا كَانَتْ لهُ الْوِلاَيَة عَلىٰ النّفوس فمَا قِيمة الْوِلاَيَة عَلىٰ الْأُمُورِ الْأُخرىٰ، وخَاصَّة الغَزْوَات، بل إنّ الْوِلاَيَة هُنا واضحة كمَا يقول الْأُصوليُّون.

أمّا الاِسْتِدلاَل بِأنَّه ﷺ كَان يَسْتَشِير أَصْحَابه، فهَذا لاَ بَأس بِهِ مِن بَاب مُجرد الاِسْتِشَارة والاِسْتِضَاءة بِالافكَار، ولَو بِهَدف تَعويد الْأُمَّة عَلىٰ ذَلِكَ، أو بِهَدف أشتِرَاكهم فِي الْمَسْئولية، وتَحْسِيسَهُم بِتَحمُّل العِبء،

↔

وَقد يَظُنّ أنّ العَالِم البَاحث الَّذي يُحلل الأَشْيَاء الطَّبِيعِية فِي مُختبَره هُو الوَحِيد الَّذي يَنْظر إِلىٰ هَذِه الأَشْيَاء نَظرَة مُجردَة وَنَزِيهَة... وهَـذَا خَـطأ، لأنّ العَـالِم كأي إِنْسَان يَسْتَحِيل أنْ يَتجَرد عِن ذَاته... وكلّ مَا يَصدر عَنْهُ مِن حُكـم وقَـول إِنّمـا يَصدر مِن خِلال إدْرَاكه الذَّاتي وشعُوره الشَّخصي، والفَرق بَـيْنَه وبَـيْنَ غَـيْره أنّ شعُوره يَتوَلد مِن الحِس والتَّجْرِبَة، أمّا شعُور غَيْره كَالجَبَان، والْبَخِيل فإِنَّه يَتوَلد مِن الوَهم والخيَال، أو كمَا قَالَ الإِمَام مِن سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ الَّذي كَـتَب عَـلىٰ نَـفْسِه الرَّحْمَة، وَقَالَ: ﴿وَلَاتَـاْيْـَٔسُواْمِـن رَّوْحِ ٱللَّـهِ إِنَّـهُۥ لَايَـاْيْـَٔسُ مِـن رَّوْحِ ٱللَّـهِ إِلَّا ٱلْـقَوْمُ

⇐ وِلاَيَة الأَمْر لآيَة الله السَّيِّد الحائريّ: ١٦٦، مع هامش رقم (٢).

وأنّ مُشَاورة الرَّسُول ﷺ لأصْحَابه كَانَتْ فِي الغَزَوَات فقط، كمَا صَرح بِذَلك أبُو هُرِيرة الدَوسيّ قَالَ: «لَمْ أرَ أحداً أكثَر مَشُورَة مِن رَسُول الله ﷺ، وكَانَتْ مُشَاورتَه أصْحَابه فِي الحَرْب فَقط». أنـظر، كـتَاب المغَازيّ للواقديّ: ٢/٥٨٠، تحقيق الدّكتور «مارسدن جونس». وها هِي غَزْوَة بَدر شَـاهد عَـلىٰ ذَلِكَ، فَعندما أتَاه خَبَر قَافلة قُرَيْش التّجارية الرَّاجعَة مِن الشّام بِقيَادة أبِي سُـفْيَانَ خَـرج هُـو ﷺ وأصْحَابه لِلتَّعرض لهَا، لكنَّ أبَا سُفْيَانَ إنْحَرف فِي مَسِيره عَن الطَّرِيق وَآستَنجد بِقُرَيْش مَكَّة فخَرجت مُستعدة لِلقتَال فِي ألف فَارس ولَم يَكُن مَع رَسُول الله غَيْر (٣١٣) شَخصاً. وبمَا أنّ العَدد والعدّة غَيْر مُتكَافِئة بَيْن الطَّرفِين فمَا عَلىٰ رَسُول الله ﷺ إلاّ أنْ يَقف بَيْن أمرين لاَ ثَالث لهُمَا، إمّا أنْ يَترَاجع ـ يَنْسَحب ـ بِأمنٍ وأمَـان إِلىٰ المَدِينَة، وإمّا أنْ يُقَاتل بِهؤلاَء الّذين مَعه فهُنا آستشَار أصْحَابه وأخبَرهُم بمَا عِند قُرَيْش مِن التَّأهُب لِلقتَال. فقام أبُو بَكْر وتَكَلَّم ولكنّ رَسُول الله ﷺ أعرَض عَنْه، ثُمّ تَكَلَّم عُمر بن الخَطَّاب فَأعرض عَنْه، ثُمّ تَكَلَّم المقدَاد....أنظر، صَحِيح مُسْلِم كتاب الجهاد غَزْوَة بَدر: ٣/١٤٠٣.

عَلىٰ الرّغم مِن أنّ بَعْض المصَادر التَّأرِيخِية لَم تَذكر لنا مَا تَكلَّم بِهِ أبِي بزكر، وعُمر، والمـقدَاد، لكـنَّ الوَاقديّ ذَكر قَول عُمر بن الخَطَّاب، والمقداد، فقَد قَالَ: قَالَ عُمر بن الخَطَّاب: «يَـارَسُول الله إنّهـا والله قُرَيْش وعِزّها، والله مَاذلّت مُنذ عَزّت، والله مَاآمَنت مُنذ كَفرَت، والله لاتَسلّم عِزّها أبـداً، ولـتقَاتلنك، فَاتّهب لِذَلك أهبتَه وأعد لِذَلِك عِدّته». أنظر، مغازي الواقديّ: ١/٤٨، طَبْعَة أكسفورد. ومِثل هَذَا فِي إمْتَاع الأَسْمَاع للمَقْرِيزي: ٧٤.

ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[١].

(إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً). أَكْثَر النَّاس يَلقُون الحَاكِم بِالرِّيَاء والتَّصَنُّع، وَيَثنُون عَلَيْهِ بِما لَيس فِيهِ، وبِالخصُوص إذا كَان مِن الطُّغاة والأشْرَار، ومِن البدَاهة أنّ الشّرِير لاَ يَصْحبَه إلّا مَن كَان مِن فَصِيلته وعَلىٰ شَاكلته، ولذَا حَذّر الإِمَام مِن أعوَان الأَئمّة وإخوَان الظّلمَة، وأوصىٰ عَامِله أنْ يَنْظر إِلىٰ مَاضي أعوَانه، وإخوَانه، وتَأرِيخهُم، ومقَاصدهُم، وأنْ يَختَار مَن حَسُنَت سِيرَته، وطَابَت سَرِيرَته.

(وَ أَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَ نَفَاذِهِمْ). يَقول الإِمَام لِعَامِله: دَع أَهْل السَّوَابِق فِي المَثالِب والجَرَائِم حَتّىٰ وَلَو بَلغُوا الغَاية مِن الوَعي والذَّكاء، فإِنّهُم يُخَادعُون ويُضَلِلُون، ويَتّخِذُون مِن عقُولِهم وذكَائِهم أدَاة لِلصُّوصِيَة... وعَلَيْكَ بِأهل الدِّين والصَّلاح، فإِنّهُم لاَ يَغشُون مِن آستَنْصَحَهُم، ولاَ يَرُون لَهُم فَضلاً عَلَيْهِ، لأَنّهم يَعطون كلّ إنْسَان مِن أَنْفسهم مَا يَرغبُون فِي مِثله، وفِيهِمْ الْكَثِير مِن أَهْل الرَّأي السَّلِيم، والْعَقْل الحَكِيم. وتَجدُر الإِشَارَة إِلىٰ أنّ الإِمَام لاَ يَنْهىٰ عَن الاِسْتعَانة بِالمجرِم إنْ كَان عِنده شَيء مِن الخَيْر والإِحْسَان، وإنّما يَنْهىٰ عَن الوثُوق بِهِ، والاِطمِئنَان إِلىٰ دِينه وضَمِيره... ومَا مِن أَحد إلّا وفِيهِ خَيرٌ وَشَرٌ، ولاَ يَنْبَغي أنْ يَمْنَعنا شَرّه عِن الاِنْتفَاع بِخيرّه.

(ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ). الحَقّ مُرّ وثَقِيل عَلىٰ أَهْل الهَوَىٰ والجَهْل، أمَّا أَهْل العِلم والْعَدْل فالحَقّ ضَالّتهم أنّىٰ كَان وَيكُون، وَيَجهرُون بِهِ، ولاَ

---

(١) يُوسُف: ٨٧.

يَخْشُون فِيهِ لَومَة لاَئِم... فإذَا ظَفرت بوَاحد مِنْهُم فَقرّبهُ إلَيْك، واَستَمع لهُ، واَرفَع مِن شَأنه (وَ أَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ). أيضاً قَرّب إلَيْك مَن لاَ يُسَاعدك عَلىٰ بَاطلٍ لِمَنفَعة عَاجِلة ومَسرّة زَائِلة، ولاَ يُزين لَك فِعل مَا يَنبَغي تَركَه، وتَرك مَا يَنْبَغي فِعله (ثُمَّ رُضْهُمْ) أي عَودهُم (عَلَىٰ أَلاَّ يُطْرُوكَ وَ لاَ يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ). كمَا يَفعل الاِنْتهَازِيُون مِن أَهْل النِّفَاق والرِّيَاء... ولَيْس مِن شَكٍّ أنّ الحَاكِم الوَاعِي يَعْلم دَخِيلتهُم وأَهْدَافهُم، ويُنزلهُم فِي المكَان اللاَّئِـق بِهِـمْ، ولاَ يَغتَر بِتَصْفِيقهم وهِتَافهم إلّا جَاهل سَـخِيف، أو مُـزيف خَـائِن عَـلىٰ شَـاكـلَتهم وأخْلاَقهم.

(وَ لاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَ الْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ... نَفْسَهُ). إنّ الله سُبحَانَهُ أَمَر عِبَاده بِالتَّراحم ورَحمَهُم، وأَمَرهُم بِالجُود وجَاد عَلَيْهِمْ، وعَامَلهُم عَلىٰ أسَاس: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]؟. وأَمَرهُم أنْ يُقِيمُوا العِلاَقَات فِيمَا بَيْنَهمْ عَلىٰ هذَا المَبدأ، ولاَ يَرضىٰ مِنْهُم إلّا بِمِثل مَا أعطَاهُم وعَاملهُم... سُبْحَانَكَ رَبَّنا مَا أكرَمك وأعْظَمك!... تَعاليت وسَاويت.

(وَ اعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَـانِهِ). قَـالَ رَسُول الله ﷺ: «الْبِرّ مَا اَطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفس، واَطمَأن إِلَيْهِ الْقَلْب، والإِثْم مَا حَاكَّ فِي النَّفس، وتَردَد فِي الصَّدر، وإنْ أَفْتَاكَ النَّاس وأَفْتَوْك»[2]. وعَلىٰ هَذَا يَكُون الحَاكِم

(١) اَلزَّلزَلَة: ٧ ـ ٨.

(٢) أنظر، المجموع: ٩/١٥٠، وَسَائِل الشّيعة: ٢٧/١٦٦ ح (٣٣٥٠٢) ٣ ـ، سُنَن الدّارمي: ٢/٢٤٦، الخَرائج والجَرائح: ١/١٠٦، مَجمَع الزّوائد: ١/١٧٥، مُسْنَد أحمد: ٤/٢٢٨، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٣/١٦١ ح ١٥٨٦، الأذكار النّووية: ٤٠٨ ح ١٢٤٩، البداية والنّهاية: ٦/٢٠٢.

أعرَف النَّاس بِأنَّ الرَّعِيَّة تُحبّه وتَثق بهِ ، أو تكرهه ولا تَركن إِلَـيْهِ ، لأنَّ حُـبّهم أو كرَاهِيتهُم آنعكَاس عَن سِيرته ومُعَامَلتَه ، فإنْ كَان إِلَيْهِمْ مِن المُحسنِين أحْسَن بِهِم الظَّن وعَلِم أنَّهُم يُحبُونه لِعلمه بِأنَّ الإنْسَان عَبد الإِحْسَان ، وإنْ كَان مِن المُسِـيئِين أسَاء بِهِمْ الظَّن وعَلِم أنَّهُم يَمقتُونه لِيَقِينه بِأنَّ الإِنْسَان عَدوّ بِطَبعه لمِن أسَاء إِلَيْهِ .

النَّاس طَبَقَات...فِقْرَة ١٠:

وَ لا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَ اجْتَمَعَتْ بِـهَا الأُلْـفَةُ ، وَ صَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ . وَ لا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ ، فَيَكُونَ الأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا ، وَ الْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَ أَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ ، وَ مُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلادِكَ ، وَ إِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ .

وَ اعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ ، وَ لا غِنَىٰ بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ : فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ ، وَ مِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَ الْخَاصَّةِ ، وَ مِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ ، وَ مِنْهَا عُمَّالُ الإِنْصَافِ وَ الرِّفْقِ ، وَ مِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَ الْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَ مُسْلِمَةِ النَّاسِ ، وَ مِنْهَا التُّجَّارُ وَ أَهْلُ الصِّنَاعَاتِ ، وَ مِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ ، وَ كُلٌّ قَدْ سَمَّىٰ اللهُ لَهُ سَهْمَهُ ، وَ وَضَعَ عَلَىٰ حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ ، أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ ﷺ ـ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً[١٠] .

اللُّغَة:

السُّنَّة : السِّيرَة وطَرِيقَة العُرْف . والمُـدَارَسَـةَ : المُـبَاحَثَة . والمُـنَاقَشَةَ : المُحَـادَثَة

وَالمُجَادَلَة.

الإِعْرَاب:
فَرِيضَةً نُصب عَلىٰ الْمَصْدَرِيَة أي فَرض ذَلِكَ فَرِيضَةً، ومِثلها عَهْداً، ومَحْفُوظاً صِفَة لِلعَهْد.

الْعُرْفُ وَالْعَادَةُ:
(وَ لاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَ ٱجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْـفَةُ).
السُّنَّة فِي أَصْل اللُّغَة الشَّيء الْمَعْرُوف المَأْلُوف تَتلقَاه جَمَاعَة مِن النَّاس بِالْقَبُول[1].

---

(١) السُّنَّة: هِي الطَّرِيقة المُعْبَدة، والسِّيرَة المُتبعة، أو المِثال المُتبع، سوَاء كَانَتْ مَحْمُودَة أو مَذمُومة، وجَمْعها سُنن، وذكروا أنَّها مَأخوذة مِن قَولهم سَنَّ المَاء إذَا وَالىٰ صَبَّه، فَشُبهت الْعَرب الطَّرِيقة الْمُستَقيمه بِالمَاء المَصبُوب، فإِنَّه لتوَالي جَريَانه عَلىٰ نَهجٍ وَاحد يَكُون كَالشَّيء الوَاحد.

وهِي مُستَعمَلة فِي الكِتَاب والسُّنَّة النَّبويَّة، وكَلاَم الْعَرب، فِي الكِتَاب قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ فَاطِر: ٤٣، وَقَوْله تَعَالىٰ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ ٱلإِسْرَاء: ٧٧، وقَد وَرَد لَفظ السُّنَّة فِي الْقُرآن بِالإِفرَاد فِي ثَلاَثة عَشر مَوضعاً، وبِالجَمع فِي مَوضِعين، كَمَا وَرَد ذكرها فِي الحَدِيث النَّبوِي بِمَا لاَ يُحصىٰ ذِكره، وفِي أشعار الْعَرب قَالَ خَالد بن زُهير الهذَلي:

فَلا تَجزعَن عَن سُنَّة أَنت سِرتها ... فَأَوَّل رَاض سُنَّة مَن يَسِيرهَا

أنظر، ديوَان الهذَليين: ١٥٦/١.

يَنبغي عَلينا فِي موَاجهتنَا لِهَذا المَجَال الجَدِيد أنْ نَسأَل أنفُسنا عمّا إذَا كَان لِلشَّرِيعة الإِسلاَمِيَّة مَصْدَر وَاحد، أو عِدة مصَادر؟ ذَلِكَ لأنَّ الْفُقَهَاء قَد حَددُوا لهَا بِعَامة أَرْبَعَة مصَادر، هِي: الْقُرآن، أو (كَلِمَة الله)، والسُّنَّة، أو (مَا نُقل عَن الرَّسُول)، والإِجْمَاع، أو (الحُكْم المُجْمَع عَلَيْهِ فِي الأُمّة)، وأخِيراً: القِيَاس أو (الحُكْم

⟺

والْبِدعَة عَلىٰ العَكس أي مَا لاَ تَعْرفه الجْمَاعَة ولاَ تَألفه، وبِتَعبير السَّلف كلّ مَا فُعل آبتدَاءً مِن غَيْر مِثال سَابق(١).

والسُّنَّة فِي آصطلاَح أَهْل الشَّريعة مَا ثَبت عَن رَسُول الله ﷺ مِن قَولٍ، أو فِعلٍ، أو تَقريرٍ، وبِكَلِمة وَاحدة هِي الحَدِيث، والْمُرَاد بِالسُّنَّة هُنا العُرفِية لاَ الشَّرعِيَّة.

وتَنْقَسم السُّنَّة العُرفِية إِلىٰ نَوْعَين: حَسَنَة، وهِي مَا تَعُود عَلىٰ النَّاس بِالْخَيْر والصَّلاح كَحِلف الفُضُول، والسَّيِّئَة كَوَأد البَنَات. وأشَار النَّبيّ ﷺ إِلىٰ هَذَا التَّقسِيم بِقَوْله: «مَن سَنَّ سُنَّة حَسَنَة كَان لهُ أَجر مِن عَمل بِها، ومَن سَنَّ سُنَّة سَيِّئَة كَان

↩ بِطَريق التّناظر). ويَجب الإلتفَات إِلىٰ أنّ مصَادر التّشريع عِند الإمَامِيَّة هِي: (كتَاب الله، والسُّنَّة النّبوِيّة الشَّريفة بمَا فِيها قَول الإمَام المَعصُوم، والإجمَاع، والعقل).

وَالحقّ أنّ جَمِيع العُلَمَاء مُتفقُون عَلىٰ أنْ يَروا فِي تَعَالِيم السُّنَّة العَملِيَة، أو مَأثُور النَّبيّ ﷺ ـ مَصَدراً ثَانِياً، عَظِيم الأَهمِية، لِلشَّرِيعَة الإسْلاَمِية، بَعْد القُرآن، كَلِمَة الله. نَقصد بِهذا مَجمُوع أقْوَاله، وأفْعَاله، وتَقرِيرَاته، وجَمِيع موَاقفه الضِّمنِية، آستِحْسَاناً، أو رَفضَاً.

والقُرآن نَفسه قَد طَلب إِلىٰ المُؤمِنِين أنْ يَنقَادوا، دُونَ حَرج، لِجَمِيع أوَامر النَّبيّ ﷺ، متىٰ أَخذُوا أنْفسهم بِالإِيمَان بِهِ، ومِن ذَلِكَ قَوْله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ٱلنِّسَاء: ٦٥. وَقَوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، ٱلنِّسَاء: ٨٠. وَقَوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾،الحشر: ٧. وَقَوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ٱلنُّور: ٥٦.

(١) البِدْعَة: هِي مَا عُمل عَلىٰ غَيْر مِثال سَابق، والمُرَاد بِها هُنا: مَا عُمل مِن دُونَ أنْ يَسْبق لهُ شَرعِية مِن كِتَاب ولاَ سُنَّة. فمَا يُضَاد النّقل سَيكُون كَذَلِك مُضاداً لِلعَقل، و«وكلّ ضَلاَلَة فَهِيَ مُخَالِفَة لِلعَقل، كمَا هِي مُخَالِفة لِلشَّرع». وقَد قَسم عُلَمَاء السُّنَّة البِدْعَة عَلىٰ خَمسَة أقْسَام: وَاجبة، كَحفظ العُلوم بِالتّدوِين والرَّد عَلىٰ المَلاحدة بِآقَامة الأَدِلة، ومَنْدُوبة: كَبِنَاء المَدَارس، وَمُباحة، كَالتّوسعة فِي أَلوان الطَّعام، ومُحَرَّمة ومَكرُوهة، وهُما ظَاهران. أنظر، هَذَا التّقسِيم فِي سُبل السّلام لِابْن حَجر العَسْقلاَني: ٢/٤٨.

عَلَيْهِ مِثل وِزر مَن عَمل بِها»[1]. وَقَد حَذّر الْإِمَام عَامِله أَنْ يُغير عَادَة فِيها صَلاح لِلنَّاس بِجِهة مِن الجِهات، والْفُقَهَاء يُعبرُون عَن هَذِه الْعَادَة بِبنَاء العُقلاء، ويقُولون: أَينما كَانَتْ الْمَصْلحَة فَثَمَّ شَرْع الله. وقَد أَمَر سُبْحَانَهُ نَبِيّه الكَرِيم أَنْ يَأخذ بِها حَيْث قَالَ لهُ عزَّ مَن قَائل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]. والشَّاهِد فِي كَلِمَة الْعُرْف[3].

وكَانَتْ الْعَادَة ـ أو الْعُرْف ـ ومَا زَالت قوَّة تُسيطر فِي الْمُجْتَمعَات، ولَهَا أَبْلَغ الأَثر عِند الحُقُوقِيين، وفِي اَجْتِهَادَات المحَاكِم والفِقْه الْإِسْلاَمِي بِخَاصَّة فِي إثبَات الحُقُوق الّتي تَستَدعِيها المُعَاملات، كَالبيع، والشِّراء، والإيجَار، والدَّين، والرَّهن، والضَّمانِ، والمُضَاربة، والمُزَارعَة، والوَصِيَّة، والوَدِيعَة، والمَهر، والنَّفقة، والصُّلح، والشِّركَة... إِلىٰ غَيْر ذَلِكَ... وهَكذا ظَهرت الْعَادَة مُتَمِمَة لِلقوَاعد الشَّرْعِيَّة، بَل اَتخَذ مِنْهَا الحُقُوقِيين مَصْدَراً لِلقَوَانِين الوَضعِية، وحَوْلُوا الْكَثِير مِنْهَا إِلىٰ نُصُوص تُنَفذ بِقوَّة السِّلاح... والْإِسْلاَم يُباركها بِشَرطٍ وَاحد، وهُو أَنْ تَستَهدف الْخَيْر والْمَصْلحَة.

مُدَارَسَة الْعُلَمَاء:

(وَ أَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَ مُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ). لَيْسَ الْمُرَاد هُنا حِفْظ اللُّغَة،

---

(١) أنظر، سُنن الدَّارمي: ١/١٤٠ ح ٥١٢، الكَافِي: ٥/٩ ح ١، مَجْمَع الزَّوائد: ١/١٦٨، حَاشِية رَدّ المحتار: ١/٦٢، سُنن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ: ٤/٧٦ ح ١٧٥٣٢، روضَة الطَّالبين: ١/٧٣، تهذِيب الأَحكام: ٦/١٢٤، صَحِيح اَبن خُزيمَة: ٤/١١٢ ح ٢٤٧٧، الْهِدَايَة: ١٢، الفصُول الْمُختارة: ١٣٦.

(٢) اَلْأَعْرَاف: ١٩٩.

(٣) أنظر، سلَّم الوصُول: ٣١٧، عِلم أُصول الفِقْه، لخلاف: ٩٩، مصَادر التَّشريع الإسْلاَمي: ١٢٤، الأُصول العَامة لِلفِقْه المُقَارن، لمُحَمَّد تَقِي الحَكِيم: ٤١٩.

وقوَاعد الصَّرف والنَّحو، ولاَ مَعْرِفَة الفِقْه وأُصُوله، ولاَ الطَّبِيعَة والكَم، وأيضاً لَيْس الْمُرَاد بِٱلْحِكْمَة دِرَاسَة الفَلْسَفَة، وعِلم الكَلاَم، وتَدرِيسَهُما، وإنَّما الْمُرَاد بِالعِلم وٱلْحِكْمَة مَا يَخدم ٱلْحَيَاة، ويَصلُح البِلاد، وأحوَال الْعِبَاد، كَمَا أوضَح الإِمَام ذَلِكَ بقَوْله (فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ، وَ إِقَامَةِ مَا ٱسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ). ومَعْنىٰ هَذَا أنَّه لاَ عِلم، ولاَ حِكْمَة حَقّاً وحَقِيقَة إلّا مَا يَسْتَهدف خَير البَشرِية فِي أي جَانب مِن جوَانب ٱلْحَيَاة.

تَصْنِيف الْمُجْتَمع:

وَقَبلَ كُلّ شَيء نُشِير إِلىٰ أنَّ تَصْنِيف النَّاس هُنا لاَ يَمت بِأيَّة صِلَة إِلىٰ المَال، أو الجَاه، والأَنْسَاب، أو الدِّين، والمَذْهَب، وإِنّمَا هُو عَلىٰ أسَاس الأَعْمَال والوَظَائِف الاِجْتِمَاعِية الّتِي ورَثتهَا الإِنْسَانِية جِيلاً عَن جِيل عَلىٰ مَدىٰ التَّأرِيخ البَعِيد، وتَفَاعَل فِيها الزَّمَان والمكَان، والمشَاعِر، والأفْكَار... وهَذِه الوظَائِف يَبْحَث عَنْهَا عِلم الاِجْتِمَاع، والْمَعْرُوفِ عِند جَمَاعَة مِن البَاحِثِين أنَّ ٱبن خَلدُون (ت ٨٠٨ ها)، أوَّل مَن تَفطَن لهَذا العِلم وتَكَلَّم عَنْه!. ولكنَّ إخوَان الصَّفا تَحدثُوا عَن الْمُجتَمع الطَّبقِي، والوَظَائِف الاِجْتِمَاعِيَة فِي رَسَائِلهُم قَبل ٱبن خَلدُون بِأَرْبَعَة قُرون، وأشَار الإِمَام إلَيْهِ فِي عَهْد الأَشْتَر قَبل إخوَان الصَّفا بِحوَالي أَرْبَعَة قرون[1]... أجَل، أشَار إِلَيْهِ

(١) رسَائل إخوَان الصَّفا: كَتبهَا جَمَاعَة وَهُم: أبُو سُليمَان مُحَمَّد بن نَصِير البَستي الْمَعْرُوف بِالمقدسي، وأبُو الحسَن عَليّ بن هَارون الزَّنجاني، وأبُو أحمَد النَّهر جوري، والعَوفي، وزِيد بن رفَاعة، وكلُّهم حُكماء، ٱجتَمعوا فِي البَصرة فِي أوَاسط القَرن الرَّابع الهجري، وكَانوا يَجْتمعُون سِرّاً فَيتبَاحثُون فِي الفَلْسَفَة عَلىٰ

كشَاهِد، أو كوصِيَة لعَامل مِن عُمَّالِه، وتَكَلَّم عَنْهُ إخوَان الصَّفا فِي مَقَالة أو رِسَالَة، وتَوَسع فِيهِ ٱبن خُلدُون كَعِلم، ثُمَّ أُهْمَل مِن بَعده قُرون أو تَزِيد حَتَّىٰ جَاء الفَيْلَفُوس الفَرنسِي «أوجِيست كُونت» فَأحيَاه مِن جَدِيد.

(وَ ٱعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَ لاَ غِنَىٰ بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ). لاَ تَسْتَقِيم ٱلْحَيَاة فِي أي مُجْتَمع بَالِغاً مَا بَلغ مِن التَّقدم أو التَّخلف إلّا مَع التَّرَابط والتَّعاون عَلَىٰ هَدف وَاحد، ومَصلَحة مُشترَكة بَيْنَ جَمِيع الأفرَاد والْفِئَات بحَيث يَتكوُن صَرح المُجْتَمع مِن تعَاون الجَمِيع، فكُلّ فَرد لُبنَة، وكُلّ أُسرة جِدَار، وكُلّ فِئَة غُرفَة، وبدُون هَـذَا التَّعاون والتَّماسُك تَسُود الفُوضىٰ ويَتصدع البِنَاء... ولهَذا التَّعاون صُور ومظَاهر، كَالتَّعاون بَيْنَ أَهْل الفِلاحَة، والصِّنَاعَة، وتَعاون هَاتِين الفِئتِين مَع التَّاجِر، والمُستَهلك، ثُمَّ الجَمِيع مَع الأطبَاء، والمُهندسِين، والْعُلَمَاء، والمُعَلمِين، ثُمَّ مُسَاهمة كَافة المواطِنِين فِي تَحَمُّل المَسْئُولِيات الْعَامَّة كَالخِدْمَة العَسْكرِية، ودَفع الضَّرائِب، ونَحو ذَلِكَ مِن الوَاجبَات.

وبَعد هَذِه الإِشَارَة إِلىٰ تَلاحم الطَّبَقَات، وحَاجَة بَعْضهَا إِلىٰ بَعْض ـ حَصرَها الإِمَام أو ذَكر مِنْهَا تِسع طَبقَات، وهِي:

١ ـ (جُنُودُ اللهِ) وَنَسَبهُم الإِمَام إِلىٰ الله سُبْحَانَهُ، لأنَّهُم يُجَاهدُون فِي سَبِيله دِفَاعاً عَن الدِّين، وعَن الْمُسْلِمِين وبِلاَدهم.

٢ ـ (كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَ الْخَاصَّةِ). والْمُرَاد بِكُتَّاب الْعَامَّةِ مَن يُحرر الشُؤُون الْعَامَّة كَالضَّرَائِب ونَحوها، والْمُرَاد بِالْخَاصَّةِ مَن يُحرر لِلقَاضِي، والْوَالِي، وأَمِير الجَيْش،

⇐ أنوَاعها، وتَسترُوا بأَسم إخوَان الصَّفا، وكَانَتْ وحدَتهُم المَذْهَبِية الدَّعوة إِلىٰ الإخَاء. فَكَتبُوا إحدَىٰ وخَمسِين رِسَالَة. أُنظر، كَشف الظُنون: ١/٩٠٢، مُعجم المَطبوعَات العَربِية: ١/٤٠٩.

ومِن إِلَيْهِمْ.

٣ ـ (قُضَاةُ الْعَدْلِ). قَالُوا: إِنَّ «جُون لُوك المتوفىٰ ١٧٠٤م» الاِنجلِيزي قَسم السُّلطة إِلىٰ تَشرِيعِية تَحفظ مصَالِح الْمُجْتَمع بوَضع القَوَانِين، وسُلطَة لِتَنفِيذ هَذِه القَوَانِين، ثُمَّ جَاء مِن بَعده «مُونتسكِيو» الفَرنْسِي فأضَاف إِلَيْهِما سُلطة ثَالِثة، وهِي السُّلطة القضَائِية، وطَالب بِفَصلها عَن السُّلطتِين ضمَاناً لِلْحُرِّيَّة، فاَرتَبط مَبدأ فصل السُّلطات الثَّلاث بِاَسم «مُونتسكِيو»، وأصْبَح «جُون لُوك» فِي خَبَر كَان[1].

وَتَقسِيم الإِمَام الْمُجْتَمع إِلىٰ فِئَات، مِنْهَا الجُنُود، والْوُلَاة، والْقَضَاء ـ يُومِىء إِلىٰ فَصل السُّلطة القضَائِية عَن غَيْرِها، وَاَستقلاَلها بِذَاتِها حمَايَة لِلحُقُوق مِن الاِعْتسَاف والاِعْتدَاء، ومِن المَعْلُوم أنَّ التَّشرِيع فِي الإِسْلاَم لله وَحدَه، وأنَّ الطَّرِيق إِلىٰ مَعْرِفَته الْقُرْآن، والسُّنَّة.

٤ ـ (عُمَّالُ الإِنْصَافِ وَ الرِّفْقِ) أي الْوُلَاة الَّذِين يُعْيِنهُم الخَلِيفَة لِينصفُوا النَّاس وَيرفقُوا بِهِمْ.

٥ ـ (أَهْلُ الْجِزْيَةِ... مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ) وهُم أَهْل الكِتَاب الَّذِين يَقْبلُون شرُوط الْمُسْلِمِين.

٦ ـ (وَ الْخَرَاجِ... مِنْ مُسْلِمَةِ الأُمَّة) أي الَّذِين يَدفعُون الْخَرَاج، وهُم الْمُسْلِمُون.

٧ ـ (التُّجَّارُ).

٨ ـ (أَهْلُ الصِّنَاعَاتِ).

---

(١) أُنظر، «مُونْتِسكِيُو» (MONTEΣΘIEY) فِي كتَابه «روح الشَّرَائِع».

٩ ـ (الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ) أي الْفُقَرَاء، والْمَسَاكِين، وأَوضَحَ الإِمَام ذَلِكَ بقَوْله: (مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ) وَهُم الأَرَامِل، وَالأَيْتَام، والعَاجِز عَن الْعَمَل، وكُلّ عَامِل، وَفَلاَح، وخَادِم، وكَاسِب لاَ يَسد دَخله نَفقَته ونَفَقة عِيَاله.

وَلكُلّ وَاحدة مِن هَذِه الْفِئَات حُكْمُهَا ونَصِيبهَا الْمُحدد مِن الْحَقّ فِي كتَاب الله أو سُنَّة نَبِيِّه ﷺ. وبَعد هَذَا التَّصنِيف الْمُجْمَل شَرع بِالتَّفصِيل فِيما يَلي:

الجُنُود حُصُونُ الرَّعِيَّةِ..فِقْرَة ١١:

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَ زَيْنُ الْوُلاَةِ، وَ عِزُّ الدِّينِ، وَ سُبُلُ الْأَمْنِ، وَ لَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ اِلاَّ بِهِمْ. ثُمَّ لاٰ قِوَامَ لِلْجُنُودِ اِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَىٰ جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَ يَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لاٰ قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ اِلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَ الْعُمَّالِ وَ الْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَ يَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَ يُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَ عَوَامِّهَا. وَ لاٰ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً اِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَ ذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَ يُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَ يَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لاٰ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَ مَعُونَتُهُمْ. وَ فِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَ لِكُلٍّ عَلَىٰ الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَ لَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ اِلاَّ بِالاِهْتِمَامِ وَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَ تَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَىٰ لُزُومِ الْحَقِّ، وَ الصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ[١١].

اللُّغَة:

المَعَاقِدِ: المُعَاملاَت. ومَرَافِقِهِمْ: مَنَافِعَهُمْ. والطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ: الشَّعبية.
ورِفْدُهُمْ: مُسَاعَدتهُم.

الإعْرَاب:

بِإِذْنِ اللهِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هُم كَائِنُون بِإِذْنِ اللهِ، وجَمِيعَاً حَال، والَّذِينَ يَحِقُّ صِفَة لأَهْل الحَاجَة.

القُوَّة وَالعَدَالة:

فِي المَقْطَع السَّابق بِلاَ فَاصل قَالَ الإِمَام ﷺ: «أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَ لاَ غِنَىٰ بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ» وهَذَا المَقْطَع بِكَامِله أي الَّذِين نَحْنُ بِصَدده هُو تَفْسِير وَبَيَان لِتَلاحِم الطَّبَقَات التِّسع الَّتي ذَكْرهَا فِي المَقطع السَّابق وَٱحتِيَاج بَعْضهَا إِلىٰ بَعْض، وشَرحنا ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّم، ونَعُود إِلَيْهِ ثَانِيَة مَع الإِمَام ﷺ.

(فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَ زَيْنُ الْوُلاَةِ، وَ عِزُّ الدِّينِ... إلخ). لاَ تَسْتَقِيم ٱلْحَيَاة، وتَطِيب إلاّ بِالعَدَالةِ، وهِي المُسَاوَاة فِي جَمِيع الحُقُوق والوَاجبَات بَيْنَ الجَمِيع، فإِذَا ٱختَل مِيزَانها سَاد الظُّلم، وفَسَدت الأَوْضَاع... ومِن البدَاهَة أَنّه لاَ عَدَالة بِلاَ قُوَّة، والقُوَّة بِلاَ عدَالة ٱستبدَاد، ومَعنىٰ هَذَا أنّ القُوَّة والعَدَالة عُنْصرَان أَسَاسِيان لِلحَيَاة الطَّيِّبَة، والوجُود القَوِيم، والجُنْد هُم مَصْدَر القُوَّة وأَسَاسها، وبِهِمْ يُصَان الدِّين، والوَطن، ويَستَتِب الأَمْن، والنِّظَام، أَمَّا العَدَالة فَلهَا مظَاهر، وأَهمهَا عَدَالة القُضَاة، والوُلاَة، ويَأتِي الحَدِيث عَنْهَا وعَنْهُم.

وتَجدر الْإِشَارَة إِلىٰ أنّ قُوَّة الدَّوْلَة كَانَتْ تُقاس ـ فِيما مَضىٰ ـ بِالعُنْصُر البَشرِي قِلّة وكَثْرَة، أمَّا اليَوْم وبَعد أنْ تَقدّم العِلم، وتَطورَت الأسْلِحة ـ فَالأثَر الأهَم لِلسّلاح ونَوْعه كَالقنَابل النَّووية، والصَّوارِيخ المُوجهَة، والطَّائِرات القَاذِفة المُقَاتِلة، والغوَاصَات، والدَّبَابَات الحَدِيثَة، والْعَقْل الألكترُونِي وغَيْره مِن أدوَات الكَشف والتَّجَسس، ووَسَائِل النَّقل، والمواصلاَت بَرَّاً، وبَحرَّاً، وجوَّاً.

الضَّرائِب:

(ثُمَّ لاٰ قِوَامَ لِلْجُنُودِ اِلاّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذي يَقْوَوْنَ... حَاجَتِهِمْ).

لاَ حَيَاة لِلدَّولة، لاَ لِلجُنُود فَقط، أو لأيَّة هَيئَة، أو فَرد إلّا بالنَّفقَة الكَافِية لِسَد الْحَاجَات، ومِن البَدَاهَة أنّه لاَ موَارد لِلدَّولة إلّا فَرض الضَّرائِب وَجبَايتهَا. وقَرَر الانكلِيزِي الْإِقْتصَادي الشَّهِير «آدَمَ سِمث» أَرْبَعَة شَروط لِلضَّرائِب، وهِي:

١ ـ «أنْ تُفرَض عَلىٰ النَّاس بِنسَبة قُدرَتهُم عَلىٰ تَحمّلها». وهَذَا الشَّرط يَنطَبق عَلىٰ فَرِيضَة الْخُمُس والزَّكَاة والْجِزْيَة فِي الْإِسْلاَم.

٢ ـ «أنْ تَكُون الضَّرِيبَة مُعِينَة». وهَذَا شَرط أسَاسِي فِي كلّ شَرِيعَة، لأنَّ عَدَم التَّعيِين فُوضىٰ وعُدْوَان.

٣ ـ «أنْ تُجْبىٰ بِالطُّرق والْأَوْقَات الّتي تُسبب أَقْل اَزعَاج مُمكن لِلشَّعب». وَأَكّد الْإِمَام عَلىٰ هَذَا الشَّرط، وشَدد فِيهِ عَلىٰ عُمَّالِهِ فِي الْكَثِير مِن وصَايَاه ورَسَائِله، مِن ذَلِكَ قَوْله لأحَد الجُبَاة، قُل لأهَل الحَيّ: «فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِ»[1]؟ فإنْ قَالَ قَائِل: لاَ، فَلا تُرَاجِعْه. وفِي رِسَالَةٍ أُخرىٰ: «وَ اَخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة ٱلرِّسالَة: (٢٥). (مِنْهُ ﴿﴾).

جَنَاحَكَ، وَ ٱبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَ أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ»[١]. وفِي رِسَالَة أُخرىٰ: «وَ لاٰ تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَ لاٰ صَيْفٍ، وَ لاٰ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَ لاٰ عَبْداً، وَ لاٰ تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ»[٢]. إلىٰ غَيْر ذَلِكَ.

٤ ـ «يَجب أنْ تُنَظم الضَّرَائِب بِحَيث لاَ تُكلف الشَّعب إلاّ مَا هُو ضَرُوري لِخَزِينَة الدَّوْلَة». وَقَالَ جَمَاعَة مِن فُقَهَاء الْمُسْلِمِين: «إذَا لَم تَفِّ الحُقُوق المَنصُوص عَلَيْهَا فِي الْقُرْآن والسُّنَّة ـ فَلِلخَلِيفة أنْ يَفرض عَلىٰ الأَغْنِياء بِقَدر مَا هُو ضَرُوري لِبَيْت مَال الْمُسْلِمِين، لِأَنَّهَا تَحمِي الأَمْوَال، والأَروَاح، وتُؤمّن العَيش لِكُلّ بَائِسٍ وعَاجِزٍ، وَقَالَ آخرُون: يَقتَرض الإِمَام عَلىٰ بَيْت الْمَال. وفِي رَأينَا أنَّ هَـذَا الفَـرع يَدخُل فِي بَاب الجِهَاد الَّذي يَجب عَلىٰ كُلّ قَادر وجُوباً كِفَائِياً إنْ قَام بِـهِ بَعْض الأَغْنِياء سَقَط عَن الكُلّ وإلاّ نَفذ الإِمَام حَسبَمَا تَستَدعِيه الظّرُوف. وٱتفقَت الْمَذَاهِبُ الإِسْلاَمِيّة كَلِمَة وَاحدة «عَلىٰ أنَّ الضَّرُورة تُقدَّر بِقَدرَها».

(ثُمَّ لاٰ قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْـقُضَاةِ وَ الْـعُمَّالِ... إلخ) وهُما الْجُنْد وأهْل الْخَرَاج، وتكَلمنَا عَنهُما بِما تَرىٰ، أمَّا الْقُضَاة، والْعُمَّال أي الْوُلاَة، والتُّجَّار، والْكُتَّاب، والطَّبَقَة الدُّنْيَا ـ الشَّعبِية ـ فَسَيتعَرض لَهُم الإِمَام فِي هَذَا العَهْد، ونَشرَح أَقْوَاله هُنَاك بِمَا يُنَاسبهَا إنْ شَاء الله (وَ فِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ) لاَ تَستَقِيم حَيَاة الْمُجتَمع إلاّ بِتعَاون فِئَاته بِكَاملهَا، وفِي نَفْس الوَقت لا حَوْلَ ولا قوَّة لفِئَة أو فَرد إلاّ بِالله، وهُو تَعَالىٰ يَمد الجَمِيع بِلُطفه وفَضله (وَ لِكُلٍّ عَلَىٰ الْـوَالِـي حَـقٌّ بِـقَدْرِ مَـا يُصْلِحُهُ.... إلخ). الْوَالِي مَسْئُول عَن كُلّ فِئَة وكلّ فَرد، ويَأتِي الكَلاَم عَن نَوْع هَذِه

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة ٱلرِّسَالَة: (٤٦). (مِنهُ ﷺ).

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة ٱلرِّسَالَة: (٥١). (مِنهُ ﷺ).

المَسْئُولِية، ولاَ يَخرج مِنْهَا ويَتحرَر أمَام الله إلّا بِـالجُهدِ، والصَّـبرِ، والإِخْـلاَصِ، والاِسْتعَانَة بِهِ تَعَالىٰ.

رُؤسَاء الجَيْش...فِقْرَة ١٢ ـ ١٤:

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصحَهُمْ فِي نَفْسِكَ للهِ، وَ لِرَسُولِهِ، وَ لِإِمَامِكَ، وَ أَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَ أَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَ يَسْتَرِيحُ إِلَىٰ الْعُذْرِ، وَ يَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَ يَنْبُو عَلَىٰ الْأَقْوِيَاءِ، وَ مِمَّنْ لاٰ يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَ لاٰ يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ اَلْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَ الْأَحْسَابِ، وَ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَ السَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ؛ ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَ الشَّجَاعَةِ، وَ السَّخَاءِ وَ السَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَ شُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَ لاٰ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَ لاٰ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَ إِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَ حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَ لاٰ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالاً عَلَىٰ جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَ لِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاٰ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ(١٢).

وَ لْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَ أَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِـنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَ يَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ هَمُّهُمْ هَـمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَ إِنَّ أَفْضَلَ قُـرَّةِ عَيْنِ الْوُلاٰةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلاٰدِ، وَ ظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. و إِنَّهُ لاٰ تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاّٰ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ، وَ لاٰ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاّٰ بِحِيطَتِهِمْ عَلَىٰ وُلاٰةِ الْأُمُورِ، وَ قِـلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَ تَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَ وَاصِلْ فِي

حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَ تَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو الْبَلاٰءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَـثْرَةَ الذِّكْـرِ لِـحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ وَ تُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ(١٣).

ثُمَّ ٱعْرِفْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَ لاٰ تَضُمَّنَّ بَلاٰءَ ٱمْرِئٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَ لاٰ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاٰئِهِ، وَ لاٰ يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ ٱمْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلاٰئِهِ مَاكَانَ صَغِيراً، وَ لاٰ ضَعَةُ ٱمْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاٰئِهِ مَاكَانَ عَظِيماً.

وَ ٱرْدُدْ إِلَىٰ اللهِ وَ رَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَ يَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١) فَالرَّدُّ إِلَىٰ اللهِ: الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَ الرَّدُّ إِلَىٰ الرَّسُولِ: الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ(١٤).

اللُّغَة:

أَنْقَاهُمْ جَيْباً: كِنَايَة عَن الإِخْلاَص والنَّزَاهَة. ويَنْبُو: يَتجَافىٰ ويَشتَد. والنَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ بِمَعْنَىٰ، وكذَلِكَ السَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ. وجِمَاعُ ـ بِكَسر الجِيم جَامع. وَشُعَبٌ ـ بِضَم الشِّين ـ جمع شُعْبَة أي الطَّائِفَة مِن الشَّيء. والعُرْف: المَعْرُوف. وتَفَاقَمَ الخَطْب: صَار عَظِيماً. وآثَرُ: أَفْضَل. وحِيطَتِهِمْ: حِفْظَهُم وتَعهدهُم. وذَوُو الْبَلاٰءِ: الَّذِين ٱختُبِرُوا وعُرفُوا بِجَلِيل الأَعْمَال. ويُضْلِعُكَ: يُثقُلك وَيصْعب عَلَيْكَ حَلّه وحَمْلَه. ومُحْكَمِ الكِتَاب: نَصّه الصَّرِيح. والسُّنَّة الجَامِعَة: الثَّابِتة بِالإِجْمَاع، وضِدَّهَا

---

(١) ٱلنِّسَاء: ٥٩.

الْمُفَرِّقَة.

الإِعْرَاب:
جَيْباً تَمْييز، وَمِثلَه حِلْماً، واتِّكَالاً مَفْعُول مِن أَجْله لِتَدع، ومَا كَان صَغِيراً «مَا» مَفْعُول تُعْظِمَ.

قَادَة الجَيْش:
فِي مَقْطَع سَابق فِقْرَة رَقم (١٠)، قَالَ الإِمَام: «أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاَ غِنَىٰ بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ»، وذَكَر مِنْهَا تِسْعَاً، وفِي المَقْطَع الَّذي يَلِيه فِقْرَة رَقم (١١)، بَيَّنَ الإِمَام: لِمَاذا لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وفِي المَقْطَع الَّذي نَحنُ الآنْ بِصَدده تَعرض الإِمَام لإِحدىٰ الطَّبَقَات أو الْفِئَات، وهُم الجُنُود وقَادتهُم، وذكَر الشُّرُوط الَّتي يَنْبَغي أَنْ تَتوَافر فِي كُلِّ قَائِد، قَالَ:
(فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ للهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً).
اَخْتَر لِرِئَاسَة الجَيْش النَّاصح لأُمَّته ومُهمَته، والمُخلِص لدِينَه وضَمِيره، والحَلِيم الَّذي يَملك نَفْسه، ويَكظِم غَيظَه، ويَقبَل العُذر، ويَرحَم الضَّعِيف، ويَشتَد عَلىٰ الْقَوِيّ كِي لاَ يَطمَع فِي جَوْرَه وَتَحيّزه (وَمِمَّنْ لاَ يُثِيرُهُ الْعُنْفُ) أي يَصْبر عَلىٰ الكَلِمَة القَاسيَة النَّابية، ويَتَمهل حَتَّىٰ يَتَدبَّر العوَاقِب، فَيعمَل بمُوجِبها، شَأن الْعَاقِل الحَكِيم. (وَلاَ يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ) إِذَا سَكَت لاَ يَسْكُت عَن عَجزٍ بَل لحِكْمَة ورَوِيَّة، وبِكَلِمَة يَلِين مِن غَيْر ضَعْف، ويَقوىٰ مِن غَيْر عُنْف.
وبَعْد، فإِنَّ قِيَادَة الجَيْس عِبء ثَقِيل وخَطِير لِلغَايَة، لأَنَّ مَصِير الأُمَّة بِكِيَانها

وجَمِيع مُقْدرَاتها مَنُوط بِالجَيْش وقَائِده، فَأدنىٰ خَطأ مِنْهُ يَعُود عَلىٰ الجَمِيع بِالخَطب الفَادح... ومِن أَجْل هَذَا يُضحَي المَوَاطن بِثَمرة كَدِّهِ وَجِدِّه طوَال السِّنِين فِي سَبِيل جَيْشَه تَمَاماً كَمَا يُضحِي مِن أَجْل أَهْله وعِيَاله، ويَرضىٰ عَن طِيب نَفْس بِأضْخَم المِيزَانِيَات والنَّفقَات لِلجَيْش ورَاحته... فإذَا لَم تَتوَافر العَبْقَرِية السِّيَّاسِيَّة لِلقَائِد ـ ذَهب كلّ شَيء مَع الرِّيح... وبِالتَّالِي فإنَّ أَعْظَم القَادَة عَلىٰ الإطْلاَق هُو الَّذي يَعْرِف متىٰ يَحْجِم، وَمَتىٰ يَقدِم، ولاَ يُثِير حَرْباً إلّا لِضَرورَة قَاهِرة، ولاَ يَستَعمل الْعُنْف إلّا مُرغَماً، ولِلْقَضَاء عَلىٰ العُنْفِ، والْإرهَابِ، والجَرِيمَةِ، لأنَّ الحَـرْب، والقَسوَة شَرّ بِطَبِيعتهَا تَمَاماً كَالكَيّ بِالنَّار، وهُو آخر الدَّوَاء.

(ثُمَّ ٱلْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَ الْأَحْسَابِ، وَ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ.... إلخ).

قَرب إلَيْك أَهْل السَّوَابِق الحَسَنَة الَّذِين عَرَفَهُمْ النَّاس مِن قَبل، ومِن بَعد ـ بِمكَارِم الأَخْلاَق كَالصِّدْق والشَّجَاعَة والكَرَم... وفِي هَذَا الْعَصْر تَعْتَمد الجِهَات الرَّسمِيَة عَلىٰ صَحِيفَة السَّوَابِق وخِلوهَا مِن السَّيِّئَات، وتَطلبهَا كَشَرط لِلحصُول عَلىٰ وَظِيفَة، أو سَفر، أو مَا إلىٰ ذَلِكَ. ومُنذ سَنوَات كَتَب الأُستَاذ عَبد الوهَاب حَمُودَة مقَالاً بِعنوَان «الآرَاء الاجْتِمَاعِية فِي نَهْج ٱلْبَلاَغَة» نَشرَته مَجلة «رِسَالَة الإسْلاَم»، ثُمّ أَدْرَجَته دَار هَذِه المَجَلة فِي كِتَاب «دَعْوَة التَّقرِيب» ونَقل الكَاتب قَول الإمَام: «ثُمَّ ٱلْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَ الْأَحْسَابِ.... إلخ». وعَلق عَلَيْهِ بِمَا يَلي:

«إنَّ نَغْمَة الْبُيُوتَاتِ والأَحْسَابِ قَد تَبدُو شَاذة، ولكنْ يَنْبَغي أنْ لاَ نَرتَاع لهَا وَلنَكمِل آستِمَاعنا بِأنشُودَة الإمَام الحَبِيبَة، فإنَّ وَصِيتَه بِذَوِي الأَحْسَاب لاَ تُنَافِي الدِّيمُقرَاطِية فهُو لَم يَدع إلىٰ تَمْيِيزهُم، وإنَّمَا دَعَا إلىٰ الانْتِفَاع بِمَا عِندهُم، وكَثِيراً مَا يَتسق نُبل الأَخْلاَق مَع نُبل الدَّم، ثُمّ أنّ الإمَام أتْبَع ذَلِكَ بِقَوْله: والسَّوَابِق الحَسَنَة ثُمَّ

أَهْل النَّجْدَةِ والسَّماحَةِ . وهَؤُلاَء يَكُونُون مِن هَذِه الطَّبَقَة كَما يَكُونُون مِن تِلك دُونَ تَمْيِيز» . وعَلَيْهِ يَكُون ذِكر الْبُيُوتَات والأَحْسَابِ وَسِيلة ، وَالْعَدْل هُو الهَدَف والغَايَة .

(ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا) . اَسهَر عَلَىٰ مَصْلَحَة الجُنْد ، وأَمّن لَهُم العَيْش الكَافِي ، وأشعرهُم بِالأفعَال لاَ بِالأقوَال فَقط أَنَّهم مَوضع عنَايتَك واَهتِمَامك (وَ لاٰ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ) اَبذل كُلّ مَا تَملك مِن طَاقة لِتقوِيَة الجُـنْدي ورَفع مَعنويَاته كَفَرض وَاجب عَلَيْكَ ، لاَ كَمتفَضل ومُحسن (وَ لاٰ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَ إِنْ قَلَّ . . . إلخ) . لاَ تَزهد فِي مَعرُوف تُسدِيه إِلىٰ الجُـنْد وإِنْ قَلَّ . . . ومِقْيَاس الْخَيْر والْمَعْرُوف عِند الإِمَام أَنْ يَكُون مُرضِياً ومَقبُولاً عِند الله ، وفِي ذَلِكَ يَقُول : «لَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَىٰ ، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ ؟»[١] .

(وَ لاٰ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اَتِّكَالاً عَلَىٰ جَسِيمِهَا . . . إلخ) . الجَسِيم والخَطِير بِالنِّسبَة إِلىٰ الجَيْش السِّلاح والإِعَاشَة ، واللَّطِيف اليَسِير كَالحلوىٰ أو الفَاكِهة تُهدىٰ إِلَيْهِمْ بِمُنَاسَبة الأَعْيَاد وغَيْرها ، والإِمَام يُوصي عَامِله أَنْ يهتَم بِهَذا وَذَاكَ ، ولاَ يَترك اليَسِير لوَفرَة الخَطِير ، فَاليَسِير كَمَال نَافع ، والخَطِير لِسَد حَاجَة لاَ غِنىٰ عَنْهَا . . . قِيل لِبَعض المُؤلفِين : إِلىٰ كَم تَكتُب ؟ . فقَال : لِعَل الكَلِمَة الّتي تَنْفَعني لَمْ أَكتُبها بَعْد .

(وَ لْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ . . . قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ) . إِذَا أَرَاد القَائِد أَنْ يَسمَع لهُ الجَيْش ويعطُوه الوَلاَء والطَّاعَة فعَلَيْه أَنْ يُحسن إِلَيْهِمْ ، وإِلىٰ مَا يَعِيلُون ، ويَكفِيهِمْ جَمِيع مَا أَهمَهُم كِي يَنصَرفوا إِلىٰ الجِهَاد لاَ يَشْغلهُم عَنْه أي شَاغل ، وأي قَائِد يُؤدي هَذَا الوَاجب مَع جُنُوده فهُو أَهْل لِلتَّعظِيم والتَّكرِيم . قَالَ

(١) أُنظر ، نَهْج ٱلْبَلاَغَة : اَلحِكْمَة (٩٥).

رَسُول الله ﷺ: «خَيْرُكُم خَيْرُكُم لأهْلَه، وأنَا خَيْرُكُم لأهْلِي»(١). والجُنْد بِمنزِلَة الْوَلَد والأَهْل لِقَائِدهم.

(وَ إِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاَةِ آسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلاَدِ.... إلخ). الْعَدْل صِفَة الله وإرَادته وبِهِ بُعث الأَنْبِيَاء والمُرْسَلِين، وهُو أُمْنِيَّة الأكثَرِية فِي كلّ شَعب، ومِن كلّ طَائِفَة ودِين، فَأي حَاكِم حَكَم بِالْعَدْل، وسَاوىٰ بَيْنَ النَّاس فِي الحُقُوق والوَاجبَات وأَحَاطَهُم بِعنَايَة ورِعَايته ـ فإنَّ الرَّعِيَّة أي الأكثَرِية تُخْلِص لهُ، وتَنقَاد، وتُعطِيه الطَّاعَة الوَلاَء، وإنْ وَرَث السُّلْطَان عَن الآبَاء، وأي حَاكم يُحابِي ويَجَوْر، ويُؤثر فَرِيقاً عَلىٰ فَرِيق فهُو عَدوّ الرَّعِيَّة تَأبَاه وَتتمَرد عَلَيْهِ، وإنْ أُنْتُخب بِالإجْمَاع، فَإرَادَة الرَّعِيَّة مَنُوطة بِالْعَدْل، فَحَيثما يَكُون فَثَمَّ إرَادَة الأكثَرِية، وحَيثما يُوجد الظُّلم والجَوْر فَثَمَّ سَخط الْعَامَّة والأُمَّة.

أمَّا الاِنْتخَابَات فِي كَثير مِن البُلدَان فإِنَّهَا تَجري فِي ظلِّ الْعُنْف والتَّزوِير والرِّشوَة والْخِيَانَة، ومَا دَجُ ٱلْأَحْزَاب أَيَّام الاقتِرَاع لِكَسب الأصوَات ـ إلَّا مُسَاومَة عَلنِيَة لاِغْتصَاب السُّلطَة وتوزِيعها عَلىٰ المُتحَالِفِين!... وقَول الإِمَام: «مَوَدَّتُهُمْ إلاَّ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ... ، وَقِلَّةِ ٱسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ ـ دُوَل الْوُلاَة ـ وَتَرْكِ ٱسْتِبْطَاءِ ٱنْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ» مَعْنَاه أنَّ الْوُلاَة مَتىٰ عَدلوا أَحَبهُم النَّاس وأَخْلَصوا لهُم، ولاَ يَسْتَثقلُون حُكْمَهُم، ويَسْتَبطئُون زوَال دَوْلَتهُم، بَل يَتمنُون أنْ تَطول وتَدُوم.

---

(١) أُنظر، صَحِيح آبن حبّان: ٤٨٤/٩ ح ٤١٧٧، موارد الظّمآن: ٣١٨/١ ح ١٣١٢، سُنن التّرمِذي: ٧٠٩/٥ ح ٣٨٩٥، سُنَن البَيْهَقِيّ الْكُبْرىٰ: ٤٦٨/٧ ح ١٥٤٧٧، سُنَن آبن ماجه: ٦٣٦/١ ح ١٩٧٧، مُعتصر المُختصر: ٣٠٣/١، مُسْنَد البزار: ٢٤٠/٣ ح ١٠٢٨، الآحَاد والمَثاني: ٤٦٥/٤ ح ٢٥١٩، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٢٧٣/٤، كَشف الخفاء: ٤٦٣/١ ح ١٢٣٤.

(فَٱفْسَحْ فِي آمَالِهِمْ). ٱعمَل جَاهِداً كِي تُحقق لِلرَّعِيَّة مَا تَبْتَغِيه مِن الأَمْن والرَّخَاء (وَ وَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ) أي عَلىٰ مَن كَان أَهلاً لِلثَّنَاء (وَ تَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو الْبَلاَءِ مِنْهُمْ... إلخ). إذَا رَأَيْت مِن جُندِي بَادِرة شُجَاعَة ونَشَاط، أو نَزَاهَة وإخلاصاً فِي عَمله ـ فَأعطَه مِن الشُّكْر والتَّقدِير مَا تَرغب لِنَفْسك فِي مِثله لِيهتَز البَطل الأريَحِي، وعَسَىٰ أنْ يَنْشَط الجبَان الكَسُول... وهَذَا مَا جرَت عَلَيْهِ سُنَّة الحُكُومَات تَمْنَح الأوسِمَة والرُّتَب لِكُلِّ جُندِي يَقوم بِعَمل بُطولِي.

(وَ لاَ تَضُمَّنَّ بَلاَءَ ٱمْرِئٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَ لاَ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ). لاَ تَحملنَّك مكَانة الرَّجُل عَلىٰ أنْ تنسب إلَيْهِ مَا لَيس فِيهِ مِن الحَسَنَات، أو تَرىٰ الصَّغِيرَة مِنْهَا كَبِيرة. وأيضاً لاَ تَمنعَنَّك ضِعَة إنْسَان عَلىٰ أنْ تَبْخَسه حَقَّه وفَضله. وبِكَلِمة: انظر إلىٰ الْقَوْل لاَ إلىٰ القَائِل وإلىٰ الفِعْل لاَ إلىٰ الفَاعِل، وإذَا أَحسَن أَكْثَر مِن جُندِي فَٱذكِر كُلّ وَاحد مِنْهُم بِعَمله عَلىٰ حِدة، فَإنَّ ذَلِكَ أدْعىٰ لِغبطَته وسرُوره... وهَذِه المُلاَحظة مِن الإمَام بَالِغة الدِّقَة.

(وَ ٱرْدُدْ إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ... إلخ). إذَا ٱشتَبَه عَلَيْكَ حُكم مِن الحَلاَل والحَرَام فَٱرجَع إلىٰ الآيَات الوَاضحَة الصَّرِيحَة فِي كِتَاب الله، ومَا ثَبُت بِطَرِيق القَطع عَن رَسُول الله ﷺ فإنْ ٱهتَدِيت فَذَاك، وإلّا فَٱتق الشُّبهَات خَشيَة الوقُوع فِي المُحرَّمَات.

الْقُضَاة...فِقْرَة ١٥:

ثُمَّ ٱخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَ لاَ تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَ لاَ يَتَمَادَىٰ فِي الزَّلَّةِ، وَ لاَ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَىٰ الْحَقِّ إِذَا

عَرَفَهُ، وَ لاٰ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَىٰ طَمَعٍ، وَ لاٰ يَكْتَفِي بِأَدْنَىٰ فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَ أَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَ آخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَ أَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَ أَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَ أَصْرَمَهُمْ عِنْدَ ٱتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لاٰ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَ لاٰ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَ أُولَئِكَ قَلِيلٌ. ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَ ٱفْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَ تَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَىٰ النَّاسِ. وَ أَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاٰ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ ٱغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَٱنْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَىٰ، وَ تُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا(١٥).

اللُّغَة:

لاٰ تُمَحِّكُهُ: لاَ تُغْضِبُه، وأَصْل المَحَك اللُّجَاج، وهُو يُؤدي إِلىٰ الغَضَب. وَلاٰ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ: لاَ يَضِيق صَدرَه مِن الرُّجُوع إِلىٰ الْحَقّ، كَما قَالَ الشَّيخ مُحَمَّده عَبْدَه[1]، وَقَالَ غَيْره: لاَ يَعيَا فِي النُّطق، والأَوَّل أَنْسَب. ولاٰ يَزْدَهِيهِ: مِن الزَّهو. والمُرَاد بالاِغْتِيَال هُنا الوشَايَة.

الإِعْرَاب:

تَبَرُّماً تَمْيِيز، ولِيَأْمَنَ مَنصُوب بِأَنْ مُضمَرة بَعد اللاَّم، والمَصْدَر المُنسَبك مُتَعَلِّق بِأَعْطِهِ.

(١) أُنظر، شَرح ٱلنَّهج: ٣/٩٤.

الْقَضَاء:

تَحَدث الإِمَام فِي المَقْطَع السَّابق عَن الجُنُود، وَيَتَحدث الآنْ فِي هَذَا المَقْطَع عَن الْقَضَاء وَأشرنَا فِي الفِقْرَة العَاشِرة إِلىٰ أنَّ الإِمَام سَبق «مُنْتسكِيو» إِلىٰ آستقلاَل السُّلطَة القَضَائِية وفَصْلَها عَن السُّلطتِين، التَّشرِيعيَّة والتَّنفِيذِيَّة، حمَايةً لِحُقُوق النَّاس مِن الاِعْتدَاء والاِعْتسَاف، وتَنْحَصر مُهِمَّة القَاضِي فِي تَطبِيق القَوَانِين المُقرَرة عَلىٰ الوقَائع والحوَادث الخَاصَّة.

ولاَ يَحق للقَاضِي ـ فِي عَصرنا ـ أنْ يُنفذ أو يُشرع، لأنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا هَيئته الخَاصَّة بِهِ، بَل قَالَ كَثِير مِن الْفُقَهَاء، والحُقُوقِيين: لاَ يَجوز لِلقَاضي أنْ يَقضِي بِعلمِه الشَّخصي دَفعاً لِلتُّهمَّة[1]. وعَلىٰ أيَّة حَال فإنَّ المُشرع قَد أَطلَق الْحُرِّيَّة لِلقَاضي فِي الْبَحْث عَن المَوْضُوع، وأعطَاه سُلطة واسِعَة فِي تَقدِير ٱلْوَاقِعَة الَّتي بَيْنَ يَدِيه، وبإمكَان القَاضي القَدِير أنْ يُكَيف ٱلْوَاقِعَة بمَا يَتفق مَع الْحَقّ والنَّص مَعاً بِلا تَمحُّل وتَعَسُّف. وسَلاَم عَلىٰ مَن قَالَ: «الْبِرّ ما آطمأن إِلَيْهِ الْقَلْب... وإنْ أَفْتَاك النَّاس وأَفْتَوْك»[2]، وَنَعطِف نَحنُ القَانُون عَلىٰ النَّاس أخذاً بِرُوح النَّص، وبِتَعبِيرنا نَحنُ الْفُقَهَاء «عَملاً بِتَنقِيح المَنَاط»[3].

---

(١) أُنظر، الاِنْتِصَار لِلشَّرِيف المُرتضىٰ: ٤٨٧، المَبسوط للسَّرخسي: ١٠٥/١٦، بِدَاية المُجْتَهِد: ٥٠٧/٢، حلية الأَولياء: ١٤٢/٨، الوَجيز: ٢٤١/٢، الحَاوي الْكَبِير: ٣٢٢/١٦، كتَاب الأُم: ٢١٦/٦، المُدونة الكُبرىٰ: ١٤٨/٥، الخِلاَف للطَّوسي: ٢٤٣/٦، المُغني: ٤٠٢/١١.

(٢) أُنظر، المَجمُوع: ١٥٠/٩، وَسَائِل الشِّيعة: ١٦٦/٢٧ ح (٣٣٥٠٢) ٣ ـ، سُنَن الدَّارمي: ٢٤٦/٢، الخَرائج والجَرائح: ١٠٦/١، مَجْمَع الزَّوائد: ١٧٥/١، مُسْنَد أحمد: ٢٢٨/٤، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ١٦١/٣ ح ١٥٨٦، الأذكار النَّووية: ٤٠٨ ح ١٢٤٩، البداية والنِّهاية: ٢٠٢/٦.

(٣) أُنظر، الْقَضَاء والشَّهادات للشَّيخ الأنْصَاري: ٥٣، المُسْتَصفىٰ: ٢٨٢، المَحصول: ١٢٧/٥.

(ثُمَّ ٱخْتَرْ لِلْحُكْمِ - أي لِلْقَضَاء - بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ) . الغَايَة مِن الْقَضَاء فَصل الخُصُومَات والمُنَازعَات بإعطَاء كلّ ذِي حَقٍّ حَقَّه، ولاَ نَصِل إِلىٰ هَذِه الغَايَة إلّا إذَا تكَاملت فِي القَاضِي الصِّفَات الّتي أشَار إِلَيْهَا الإِمَام فِيما يَلِي:

١ - أنْ يُختَار القَاضِي بِالتَّعيين لاَ بِالاِنْتخَاب العَام، وعَلىٰ هَذَا مُعظم الدّول. ولاَ يَتنَافىٰ مَع ٱستقلاَل الْقُضَاة عَن الحَاكِم الَّذي يَختَارهُم حَيْث يَنصَرف كُلّ فَرِيق بَعد التَّعيين إلىٰ مُهِمَّته وٱختصَاصه، ولاَ يَتدخَل فِي شُؤُون الآخر، وفِي الْوِلاَيَات المُتحدَة يَختَارون الْقُضَاة عَن طَرِيق الاِنْتخَاب، وبِهَذا الأُسلوب يُعيَّن الْقُضَاة الشّعْبيُون بِالْإتِّحَاد السّوفِياتِي، وكذَلِكَ فِي تَشيكُوسلُوفَاكِيا، وهَذِه الطَّرِيقة تُؤَدِّي إِلىٰ العَدِيد مِن المشَاكل، مِنْهَا أنَّ أَكْثَر المُوَاطنِين يَجْهَلُون أو لاَ يَقدرُون الكَفَاءَة العِلمية والخُلقية فِي القَاضِي المُنتَخَب، ومِنْهَا أنَّ الاِنْتخَابَات تَجري - غَالِباً - فِي ظلّ التَّرهِيبِ، والتَّرغِيبِ، والخُضُوع لِلنَّزعَاتِ، وٱلأَحْزَاب، ومِنْهَا أنَّ القَاضِي بَشر غَيْر مَعصُوم عَن المَيل مَع مِن وَثِق بِهِ، وأدلىٰ لهُ بصُوته، والتَّحَامُل أو الاِنْحرَاف عَن غَيْره... ومَا إِلىٰ ذَلِكَ مِن المسَاوِىء.

٢ - أنْ يَكُون القَاضِي (مِمَّنْ لاٰ تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ) أي يَجب أنْ يَكُون عَالِماً مُجْتَهِداً يَسْتَخرِج الأَحْكَام مِن مصَادرها، ويُطَبقهَا عَلىٰ مَوارِدهَا.

٣ - (لاٰ تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ) . وفِي تَفْسِيره أَقْوَال أرْجَحها أنْ يَكُون القَاضِي وَاسع الصَّدر، يَتَحَمَّل مَا يَجري ويَحدث عَادةً بَيْنَ الخصُوم مِن المُهَاتَرَات، شَرِيطة أنْ لاَ تَمس هَيْبَة القَاضي والْقَضَاء.

٤ - (وَ لاٰ يَتَمَادَىٰ فِي الزَّلَّةِ - أي الخَطأ - وَ لاٰ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَىٰ الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ) إذَا أَخطَأ، ثُمَّ عَرَف الصَّوَاب فعَلَيْه أنْ يَرجع إِلَيْهِ، ولاَ يَصر عَلىٰ خَطَأه، فإنَّ

الرُّجُوع عَن الخَطَأ فَضِيلة.

٥ ـ (وَ لاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَىٰ طَمَعٍ) أنْ يَكُون عَفِيفاً لاَ يَقضِي بِالْهَوَىٰ، ولاَ يَقبَل الرِّشىٰ، وبِقَول الإِمَام جَعْفَر الصَّادِق عليه السلام: «أنْ يَكُون صَائِناً لِنَفْسَه، حَافِظاً لدِينَه، مُخَالِفاً لهَوَاه، مُطِيعاً لأَمْرِ مَوْلاَه»(١).

٦ ـ (وَ لاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَىٰ فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ). لاَ يُعلن الْحُكْم النَّهائِي إلاّ بَعد التَّحرِي والوَقف عَلىٰ جِهات الدَّعوىٰ بِأكـمَلها، والْـبَحْث عـمَّا يَـتصل بِـالحَادثَة حُـكماً ومَوضُوعاً. وهَذِه هِي طَرِيقة الْعُلَماء، فإِنَّهم لاَ يَتَنبئُون بِشيء إلّا بَـعد الاِسْـتقرَاء التَّام، والمُلاَحظات الدَّقِيقَة والوثُوق بمَا يَقولُون.

٧ ـ (وَ أَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ). لَيْسَ الْمُرَاد بِالوُقُوف هُنا الإحْجَام عَن الْحُكْم، لأنَّ القَاضِي مُلزَم بِفَصل الخُصُومَات والبَت بإعلاَن الْحُكْم النَّهائِي المُطلق عَن كلِّ قَيد، وإلّا أنتَقَض الغَرض مِن الْقضَاءِ، وأيضاً لَيْس الْمُرَاد بِالاِحتِيَاط، لأنَّه مُمكن فِي العِبَادْت والكَفَّارَات، أمَّا فِي الخُصُومَات فَمُتعذر ـ فِي الغَالِب ـ لِـتضَارِب الحُـقُوق المُتنَازع عَلَيْهَا بِالسَّلب والإِيجَاب... أللَّهُمَّ إلّا أنْ يَبذل الجُهد فِي الصُّلح، وإنَّمَا الْمُرَاد بِالوُقُوف هُنا الرُّجُوع إلىٰ أصْل صَحِيح مَع النَّص.

وقَد حَدَد الحُقُوقِين هَذَا الأصل بِالرُّجُوع إلىٰ ٱجْتِهَادَات المحَاكِم العُليا فِي نظَائِر الحَادِثة المُتنَازع عَلَيْهَا، وإلّا فإلىٰ الْعُرْفِ، والتَّقَالِيد الّتي أَلِفهَا الْمُتعَاملُون فِي بِلاَدهم مُنذ سنِين، فإنْ لَمْ تُوجد عُمل بِمبَادىء قَانُون الطَّبِيعَة، وقوَاعد الْعَدَالَة كمَا يَـرَاهـا القَاضِي، ويُسمىٰ هَذَا بِالاِسْتِحْسَان فِي ٱصطلاَح الأُصولِيين.

---

(١) يُنْسَب إلىٰ الإِمَام العَسكرِي عليه السلام، كمَا جَاء فِي التَّفسِير المَنْسُوب إلَيه: ٣٠٠، الإحْتِجَاج: ٢/٢٦٣، الْقَضَاء والشَّهادَات: ٢٤١، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٨/٩٤ ح ٢٠.

أَمَّا فُقَهَاء الْمُسْلِمِين فإنَّ لَدِيهم قوَاعد وأُصولاً شَرعِية مُقرَرة، وهِي كَثِيرَة بِكَثْرَة الموَارد:

مِنْهَا: قَاعدة دَرء الْحُدُود بِالشُّبهات[1]. وعَلَيْهَا آعتَمدت القَوَانِين الحَدِيثَة حَيْث تَقول: «يَجب عِند الشَّك تَفْسِير القَانُون لصَالِح المُتَهم، لأَنَّ كُلّ إنْسَان بَرِيء حَتَّىٰ تَثبت إدَانته، وأَنَّ تَجرِيم البَرِيء أَكْثَر فسَاداً مِن تَبرئَة المُجرم»[2].

ومِنْهَا: قَاعِدَة اليَد[3]، والإِسْتِصحَاب بإبقَاء مَا كَان حَتَّىٰ يَثْبت العَكس[4].

ومِنْهَا: قَاعِدَة الأَهَم والمُهم[5]، وأَصَالَة الصِّحة فِي المُعَاملاَت والسَّلاَمة فِي الأَعْيَان[6]، والأَخذ بِالْقَدر المُتيقن[7]، والضَّرُورات تُبيح المَحظُورَات[8]،

(١) أُنظر، المبسوط للسَّرخسي: ٩٨/٧، الخِلاَف: ١٤٦/٢، الْفَقِيه: ٧٤/٤، سُنن آبن ماجه: ٨٥٠/٢، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٣٦٠/٧، كنز الْعُمَّال: ٣٠٥/٥، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٩٥/١٠.

(٢) أُنظر، الْمُعْجَم القَانُونِي: ٢٥٤/١ و ٣٨٩ و ٧٥٤، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبة: ٤٨٩/٦ ح ٥/٣٣ و ١/١٧١.

(٣) أُنظر، الكَافِي: ٣٨٧/٧ ح ١، تَهذِيب الأَحْكَام: ٢٦١/٦ ح ٦٩٥، وَسَائِل الشِّيعة: ٢٩٢/٢٧، مصبَاح الفقَاهة: ٧٦٩/١، بُلغة الْفَقِيه، قَاعدة اليَد للسَّيِّد بَحر العلُوم: ٣٠٠.

(٤) أُنظر، مُسلَّم الوصُول: ٣٠٥، مصبَاح الأُصول: ٢٤١، إرشَاد الفحُول: ٢٣٧، مصَادر التَّشرِيع: ١٢٨.

(٥) أُنظر، القوَاعد الفقهية: ٤٦٠/١، أَوَائل المقَالات: ٣٧٢، تَهذِيب الأُصول: ٣٣٦/١، نهَاية الأُصول: ٢٠٣، الرِّياض: ٤٧٣/٢.

(٦) أُنظر، جَامع المقَاصد: ١٩٤/٥، مسَالك الأَفْهَام: ٢٦٨/٣، كتَاب الْقَضَاء: ٣٦٩، العنَاوِين الفقهية: ٢٧٧/٢، حَاشِية المكَاسب للإصْفهَاني: ٣٧٦/٣.

(٧) أُنظر، مُستمسَك العُروة الوثقىٰ: ٣٨٧/١٣، مصبَاح الفقَاهة: ٢٧٧/١، فِقه الصَّادق: ٣٠٠/١٣.

(٨) أُنظر، كَشف اللِّثام: ٥٩/٢، الحَدَائِق النَّاضرة: ٤٢٣/١٥، كتَاب المكَاسب: ٢١/٢، حَاشية الدّسوقي: ١٥٠/١، الدُّر الْمُختار: ٥٨٤/٣، كَشف القنَاع: ٤٨٠/١، فَيض القَدِير: ٧٢/١.

والضَّرورَة تُقدر بِقَدرها[١]، ومِنْهَا: قَاعِدة القُرْعَة[٢]، وقَاعِدة الْعَدْل، والإِنْصَاف[٣]، وأصَالة تَأخر الحَادث[٤]، وٱحترَام الأَمْوَال[٥]... ومَا إِلىٰ ذَلِكَ مِن الأُصول والقوَاعد الَّتي تحدثُوا عنْهَا فِي مِئَات الصَّفحَات.

٨ ـ (وَ آخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ) كِالإِقْرَار، والشّهُود، واليَمِين، والقَرَائِن القَطعِية الَّتي تَنشَأ مِن السّيرِ فِي الدّعوىٰ ومُلاَبسَاتها.

٩ ـ (وَ أَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ) أي يَفْسَح المجَال لِلخَصم لِيُدلِي بكلّ مَا لَديه، ويَستَمع إِلَيْهِ القَاضي بِصَدر رَحب، وخُلق كَرِيم.

١٠ ـ (وَ أَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ تَكَشُّفِ الأُمُورِ) دَؤوب فِي الْبَحْث، والتَّتبُّع لاَ يَعْرِف الكَسَل والمَلَل.

١١ ـ (وَ أَصْرَمَهُمْ عِنْدَ ٱتِّضَاحِ الْحُكْمِ). متىٰ ٱتضَح الْحَقّ فَلا أَمل فِي غَيْرِه، ولاَ قَضَاء إلّا بِهِ، ولاَ مضيّ عَلَيْهِ مَهمَا تَكُن الظّرُوف والعوَاقب حَتَّىٰ ولَو كَانَتْ قَصاً لِلسَّان، وَقَطعَاً لِلرَّأس.

١٢ ـ (لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ) لاَ يَطرب لِلمَدِيح إلّا جَاهل كَفِيف، وأَحمَق سَخِيف

---

(١) أنظر، مفتَاح الْكَرَامَة: ٣٠٣/٢، حَوَاشِي الشّروانِي: ١١٨/١ و: ٢٥٧/٦، جوَاهر الكَلاَم: ١٠٧/٢.

(٢) أنظر، ذَخِيرة الْمَعَاد: ١٣٩/١، كَشف اللّثام: ٤٥٦/٢، دعَائم الإِسلام: ١٧٤/١، وَسَائِل الشّيعة: ١٨٩/١٨، قَاعدة القُرْعَة حُسين كَرِيمي: ٤٧.

(٣) أنظر، فرَائِد الأُصول: ٦٨٠/٤، كتَاب الخُمُس للسَّيِّد الخُوئي: ١٤٦، مصبَاح الفقَاهة: ٢٩١/٧، قَاعدَة القُرْعَة: ٤٧.

(٤) أنظر، كَشف اللّثام: ٥٢/٢، الرَّسائل الفقهية لِلبَهبَهاني: ١٣١، مفتَاح الْكَرَامَة: ٥٥٨/١، جوَاهر الكَلاَم: ٣٥٣/٢، كتَاب الْقَضَاء للأشتِياني: ٤١٤، فرَائد الأصول: ٣٤٧/٣.

(٥) أنظر، مُنيَة الطَّالب: ٢٧١/١، القوَاعد الفقهية للبجنُوردي: ١٦٤/٤، نهَاية الأفكار: ٢٢/٤.

حَيْث لاَ كَبِير، ولاَ صَغِير إلّا بَعد الْعَرْض عَلىٰ الله.

١٣ ـ (وَ لاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ) أَبَداً... لاَ يَكُون ولَنْ يَكُون مَع الْقَوِيّ عَلىٰ الضَّعِيف، ومَع الْغَنِيّ عَلىٰ الْفَقِير، بَل يَأخذ لهَذا مِن ذَاكَ، لِيستَقِيم مِيزَان الحَقّ، والْعَدْل.

(أُولَئِكَ) الَّذِين تكَاملت فِيهِمْ هَذِه الصِّفَات (قَلِيلٌ) بِلا رَيب، ومَع هَذَا فَعلىٰ الْحَاكِم، أنْ يَتَحَرىٰ ويَبحَث عَنْهُم، ويُقَدم مَن هُو أَعرَف بِالشَّرِيعَة وأُصول المُحَاكمَات، وأَصلب فِي الْحَق، وأَكْثَر تَفطُناً لأهدَاف الخُصُوم وخدَاعهُم، (ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ) أي قَضَاء القَاضِي، يُشِير بهَذا إِلىٰ مَبدأ التَّفتِيش الْعَدْلِي، وَوجُوب إشعَار القَاضِي ـ وإنْ توَافرت فِيهِ الشُّرُوط ـ بِأنَّه مُرَاقب ومُحَاسَب عَلىٰ تَصرفَاته وأحْكَامه... وفِي كُلِّ حكُومَة عَصرِية نِظَام لِلتَّفتِيش، ودَائِرة خَاصَّة بِهِ.

(وَ افْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ). سَمِع النَّبِيّ ﷺ رَجُلاً يَقول: «أَللَّهُمَّ إنِّي أَسأَلُك الصَّبر. فقَال لهُ: «لَقَد سَأَلت الله البَلاَء فَاسأَله العَافِيَة»[(١)]. ومن العَافِيَة أنْ يَكُون لَدِيك نَفَقة كَافِية، وكَان الإِمَام يَقول فِي دُعَائه: «أَللَّهُمَّ ارزُقني رِزقَاً حَلاَلاً يكفِيني... ولاَ تَبتَلني بِفَقر أشقىٰ بِهِ»[(٢)]. وأَعْظَم أَنوَاع الشَّقَاء مَعْصِيَة الله، وَالْفَقْر

(١) أنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٥/٥٤١ ح ٣٥٢٧، مُسْنَد البزار: ٧/٨٢ ح ٢٦٣٥، تَأريخ بَغداد: ٣/١٢٦، حلية الأَولِيَاء: ٦/٢٠٤، الأدب المُفرد: ١/٢٥٣ ح ٧٢٥، المُعْجَم الْكَبِير: ٢٠/٥٥ ح ٩٧ و٩٨، مُسْنَد عَبد بن حُمِيد: ١/٦٦ ح ١٠٧، مُسْنَد أَحمد: ٥/٢٣١ ح ٢٢٠٧ و٢٢١٠٩، المُصَنَّف لِابْن أبِي شَيبة: ٦/٤٦ ح ٢٩٣٥٦.

(٢) أُنظر، إقبَال الأَعْمَال: ١/١٠٨، شَرح أُصول الكَافِي: ١٠/٤٨٧، بحَار الأَنوَار: ٩٤/٣٧٩، تهذِيب الأَحْكَام: ٣/٧٧، مصبَاح المُتهجد: ٥٤٩ ح ٥٤.

يُؤدي إِلَيْهَا، قَالَ نَبي الرَّحْمَة ﷺ: «كَاد الْفَقْر أنْ يَكُون كُفراً»[١]. أي يجر إِلىٰ الكُفر. ومِن هُنا أَمر الإِمَام بتأمِين وَسَائِل ٱلْحيَاة الكَرِيمَة لِلقُضَاة وللجُنُد أيضاً كما تَقدَّم كِي لاَ يَكُون لوَاحد مِنْهُم عُذر يَتعلل بهِ، وإِلىٰ هَذَا أشَار الإِمَام بقَوْله: «مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ». وعَلَيْهِ العَدِيد مِن الحكُومَات. ويُقَال: أنَّ القَاضِي فِي بَعْض البُلدَان الغَربِيَة لاَ يُحدد رَاتبه، وإِنَّ الحكُومَة تَقُوم بجَمِيع تكَالِيفه ونَفقَاته بَالِغَة مَا بَلغت... ومَن طَلب أَكْثَر مِن حَاجتَه وحَاجَة عِيالَه فإِنَّ الكَوْن بِما فيهِ لاَ يَروِيه ولاَ يَكفِيه.

(وَ أَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاٰ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ). اَرْفَع مِن شَأن القَاضِي العَالِم العَفِيف تَقدِيراً لِلعِلم والخُلق الكَرِيم، لاَ لذَات الشَّخص ومَنصبه (لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ ٱغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ). إِذَا رَأىٰ النَّاس مِنْكَ الاِحْتِرَام والإِكبَار لِلقَاضِي هَابُوه وأطَاعُوه، وكَفوا أَلسِنتَهُم عَن السّعَايَة ضِدّه عِنْدَكَ (فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْكَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ). قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «هَذِه إِشَارة إِلىٰ قُضَاة عُثْمَانَ وحُكَامه، وأَنَّهُم لَم يَكُونُوا يَقضُون بِالْحَقِّ عِنْدَه، بَل بِالْهَوَىٰ لِطَلَب الدُّنْيَا»[٢].

وبَعد، فَلا عَدالَة بِلا قوَّة، والقُوَّة بِلا عَدَالَة فَسَاد وٱستِبدَاد، والْقُضَاه لِلعَدلِ، والْجُنْد لِلقُوَّة، يُدَافع هَؤُلاَء عَن الكِيَان، وأُولَئِكَ عَن الْحُقُوق، وكُلّ مِنْهُمَا جُزء مُتَمم لِلآخر، ولاَ تَسْتَقِيم ٱلْحيَاة الكَرِيمَة بِهما مَعاً، وأي نَقص وَخَلل فِي وَاحد مِنْهُمَا فهُو

---

(١) أُنظر، مُسْنَد الشِّهاب: ١/٣٤٢ ح ٥٨١، فَيض القَدير: ٤/٥٤٢ و: ٥/٤٥٨، مِيزان الإِعْتِدَال: ٢/٢٠٤ ح ٢٠٤ ح ١٧٤٦ و: ٧/٢٣١ ح ٩٦٦٩، العِلَل المُتناهِية: ٢/٨٠٥ ح ١٣٤٦، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٧/١٧ و: ١٠/٤٥، كَشف الخَفاء: ٢/١٤١ ح ١٩١٩، الكَافِي: ٢/٣٠٧ ح ٤، الخِصَال: ١٢ ح ٤٠، الجَامِع الصَّغِير: ٢/٢٦٦ ح ٦١٩٩، كنز الْعُمَّال: ٦/٤٩٢ ح ١٦٦٨٢.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٧/٦٠.

نَقص فِي حَيَاة الشَّعب والأُمَّة ، ولِكَي نَتقِي هَذَا الخَلل والفَسَاد فَعلِينا أنْ نُوفر وَسَائِل العَيش الكَافِي الوَافِي لكلِّ قَاضٍ وجُنديِ ، ولاَ يَحقّ لأي مواطن أنْ يَسْتَمتع بِالرّفَاهِية عَلىٰ حسَاب الأُمَّة وحَيَاتها وقُوَّتِها .

الْعُمَّال....فِقْرَة ١٦:

ثُمَّ اَنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاَسْتَعْمِلْهُمُ اَخْتِبَاراً ، وَ لاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَ أَثَرَةً ، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَ الْخِيَانَةِ . وَ تَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَ الْحَيَاءِ ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَ الْقَدَمِ فِي الْإِسْلاَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاَقاً ، وَ أَصَحُّ أَعْرَاضاً ، وَ أَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً ، وَ أَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً . ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَىٰ اَسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ ، وَ غِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ .

ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ ، وَ اَبْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَ الْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَىٰ اَسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ ، وَ الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ . وَ تَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ ؛ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَىٰ خِيَانَةٍ اَجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ ، اَكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً ، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ ، وَ أَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ ، وَ وَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَ قَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ[١٦] .

اللُّغَة:

المُحَابَاة : الاخْتصَاص . وَالأَثَـرَة : الاِسْتِبْدَاد ، وَكَلاهُمَا تَعَسُّف واَعتبَاط .
والأَعْرَاض : مَا يَصُونَه الإِنْسَان مِن نَفْسه ، وقَوْمٌ ذَوُو عِرض ـ بِكَسر العِين ـ أي

أَشرَاف. وإِشْرَاقاً: تَطَلُّعاً، وفِي بَعْض النُّسَخ أَشْرَافَاً، بِالفَاء، وهُو غَلَط. والأَغْلَب فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ، الأَكْثَر تَجْرِبَة. وأَسْبِغْ: وَسع. وثَلَمُوا: خَانُوا. والحَدْوَة: الحَث.

الإِعْرَاب:

آخْتِيَاراً مَفْعُول مِن أَجْله، ومِثله مُحَابَاةً. وأَخْلاقاً تَمْييز، وكَذَلِكَ أَغْرَاضاً وإِشْرَاقاً، وأَحَدٌ فَاعِل لفِعل مَحذُوف أي فإِنْ بَسَطَ أَحَدٌ مِنْهُم، وشَاهِداً حَال.

الدَّوْلَة وَالشَّخْصِيَة الإِعْتِبَارِيَة:

الدَّوْلَة مُنظَمَة أو مُؤسَّسَة بَشرِية تُمارس السُّلطة بآسم الشَّعب لِحسَابه ومَصلحتَه، فَهِيَ، والحَال هَذِه، وَكِيلَة لاَ أَصِيلة، ومُمثِلة لاَ مَالِكة، ولذَا يُسمىٰ أفرَادها مَأمُورِين وموظَفِين، والنِّظام الَّذي يَجْمَع أفرَاد الدَّوْلَة ويُحدد مِهمَّتها، وأهدَافهَا هُو الَّذي يَجْعَل مِنْهَا شَخصِية آعْتِبَارِيَة لِلإِلزَام والالِتزَام، والمُرَاد بِالشَّخْصِيَة نَفْس الأَشخَاص الَّذِين تَتَألف مِنْهُم المُنظَمَة. أمَّا الاِعْتِبَارِيَة فَهِيَ الصِّفَة القَانُونِية لِهؤُلاَء الأَشْخَاص، لأنَّ القَانُون مِن حَيْث هُو لاَ وجُود فِي ذَاته ولاَ أَثر، وإِنَّمَا وجُوده وأثَره بوجُود الأَشْخَاص الَّذِين يُمارسُون ويَعْملُون بمُوجِبه، ومَعْنىٰ هَذَا أنَّ لِكلِّ موظَف فِي الدَّوْلَة شَخصِيتِين: إحدهُما طَبِيعيَة مِن حَيْث ذَاته، والثَّانِيَة قَانُونِية مِن حَيْث الوَظِيفة.

وكُلّ ذِي سُلطَة علىٰ شَعبٍ، أو نَاحِية مِن نوَاحِيه، أو مَدِينة مِن مُدنه ـ لاَ بُدَّ لهُ مِن عُمَّال موَظفِين يَستَعِين بِهِمْ فِي إدَارة الشُؤُون، وصِيَانة الحُقُوق، وتَسهِيل المصَالِح.. وَعَنْ هَؤُلاَء يَتحدَث الإِمَام فِي هَذَا المَقْطَع بَعد حَدِيثَه عَن الجُنْد،

والقُضَاة.

(ثُمَّ آنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ). الخِطَاب لِلْأَشْتَرِ الَّذي أَسْنَد إِلَيْهِ الإِمَام وِلاَيَة مِصْر، ولذَا قِيل: إِنَّ هَذَا المَقْطَع خَاص بِعُمَّال العَامِل وَحده أي الْوَالِي المَنْصُوب مِن الْإِمَام... أجَل، إِنَّ الخِطَاب خَاص بظَاهِرِه، ولكنَّ الْمُرَاد بِهِ العَام، لأنَّ الكَفَاءة الَّتي ذَكرهَا كَشَرط للاِخْتِيار والتَّوظِيف ـ تَعم كُلّ عَامِل وموظَف دُونَ آسْتِثْنَاء.

(فَآسْتَعْمِلْهُمُ آخْتِبَاراً، وَ لاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَ أَثَرَةً). الموظَف ـ كَمَا أشرنَا ـ أَجِير عِند الْأُمَّة، مُؤتَمن عَلَىٰ مصَالِحها، ومِن أَجل هَذَا وَجَب أنْ يُخْتَار عَلَىٰ أَسَاس الكَفَاءَة لاَ عَلَىٰ أَسَاس الصَّدَاقَة، والْقَرَابَة... وهَذِه الوَصِيَّة مِن الْإِمَام لِعَامِله هِي لِمُجَرَد التَّوكِيد، أو مِن بَاب لِيطمَئِنَّ قَلبِي، أو لِبيَان مَا يَجب أنْ يَكُون عَلَيْهِ العَامِل بوَجه العمُوم، لأنَّ أي عَامِل يَكُون كَفُؤاً فِي وَاقِعه فَيختَاره الْإِمَام عَلَىٰ هَذَا الْأَسَاس ـ لاَبُدَّ وأنْ يَختَار هُو بِدَوره عُمَّالاً أُمنَاء نُصحَاء تَمَاماً كَمَا آختِير هُو، وأيضاً لاَبُدَّ وأنْ يُؤدي موظَفُو العَامِل وَاجبهُم عَلَىٰ الوَجه الأكمَل لأَنَّهُم أكفَاء كَمَا هُو الفَرض.

وَقَد أشَار الْإِمَام إِلىٰ ذَلِكَ بقَوْله: «فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلاَحِ الْوُلاَةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلاَةُ إِلَّا بِآسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ»[1]. وَقَالَ آرسطُو للإِسكَنْدَر: «لَيس أَصْلَح لِلنَّاس مِن أُوْلِي ٱلْأَمْرِ إذَا صَلحوا، ولاَ أَفْسَد لَهُم مِنْهُم إذَا فَسدُوا، وإِنَّ الْوَالِي مِن الرَّعِيَّة مكَان الرُّوح مِن الجَسَد، وبِمُوضِع الرَّأس مِن البَدن، والْإِمَام يُصلح مَن يَأتَم بِهِ، أمَّا الْمُؤتَم فَلا يَصلح الإِمَام»[2]. وَلَو بَحثنَا عَن السَّبب المُوجب لِلتَّخَلُّف وفَسَاد

(١) أُنظر، شَرح الخُطْبَة: (٢١٦). (مِنهُ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٧/٥٥، ومَا بَعدهَا. رِسَالَة الإِسْكَنْدَر إِلىٰ أَرِسطو وَرد أَرِسْطو عَلَيْهِ.

الْأَوْضَاع فِي كُلّ زَمَان ومَكَان ـ لوجدنَاه فِي فَسَاد الحُكَّام وإفْسَادهم، وضَلالهم وأهوَائهم.

(فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَ الْخِيَانَةِ). وضَمِير التَّثنية فِي «إِنَّهُمَا» يَعُود إِلىٰ الْمُحَابَاة والأَثَرَة، وفِي بَعْض النُّسَخ «إِنَّهُم» بِالجَمع وهِي خَطأ. ولَيْس مِن شَكٍّ أنَّ الْمُحَابَاة جَوْر، لِأَنَّهَا تَنْتَهِب المَرَاتب مِن أَهْلها، وتُسندهَا إِلىٰ الأَذْنَاب والمحَاسِيب، وأنَّ الْأَثَرَة خِيَانَة، لِأَنَّهَا مِن وَحِي الْهَوَىٰ ومَرض الْقَلْب... ومِن البدَاهَة عِند كَافَة النَّاس أنَّ الطَّرِيق إِلىٰ مَعْرِفَة الكَفَاءَة والمُؤهلاَت هُو الاِخْتبَار وَالاِمْتِحَان. وَقَدِيماً قِيل: «عِند الاِمْتِحَان يُكرَم الرَّجُل أو يُهَان»[1]، وأيضاً مِن البدَاهة أنَّ قَوام الكَفَاءَة بِالْمَعْرِفَة، والْأَمَانَة.

(وَ تَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَجْرِبَة وَ الْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ... الْمُتَقَدِّمَةِ). الْمُرَاد بِالتَجْرِبَة الْمَعْرِفَة، وهِي الشَّرط الْأَوَّل لِلكفَاءَة، أَمَّا الشَّرط الثَّانِي، وهُو الْأَمَانَة، فَأشَار إِلَيْهِ بِالْحَيَاءِ، لأنَّه يَزجِر صَاحِبه عَمَّا يُشِين. وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَن ٱسْتَعمَل رَجُلاً مِن عصَابَة وفِي تِلك العصَابَة مَن هُو أرْضَىٰ للهِ مِنْهُ فَقَد خَان الله وَرَسُوله، وَخَان الْمُؤْمِنِين»[2]. أَمَّا أَهْل الْبُيُوتَات فَهُم وَسِيلة لاَ غَايَة، كَمَا أَشَرنَا عِند الحَدِيث عَن الجُنُود، وإِلىٰ ذَلِكَ يُشِير الإِمَام هُنا بقَوْله: (فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاقاً، وَ

---

(١) أُنظر، عُيُون الحِكم والموَاعظ: ٣٣٧، غُرر الحِكَم: ٦٢٠٦.

(٢) أُنظر، الْمُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ١٠٤/٤ ح ٧٠٢٣، مَجْمَع الزَّوائِد: ٢١١/٥، الْمُعْجَم الْكَبِير: ١١٤/١١ ح ١١٢١٦، السُّنَّة لِابْن عَاصم: ٦٢٧/٢ ح ١٤٦٢، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ١٢٥/٣ ح ٣٣٤٥، سُبل السَّلام: ١١٧/٤ و ١٩٠، حُلية الأولِيَاء: ٨٣/٧، تَهذِيب التَّهذِيب: ٣١٣/٢ ح ٦٢٣، تَأرِيخ بَغداد: ٧٦/٦، الدِّراية فِي تَخرِيج أَحَادِيث الْهِدَايَة: ١٦٥/٢ ح ٨١٥، نَصب الرَّايَة: ٦٢/٤، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبرىٰ: ١١٨/١٠ ح ٢٠١٥١.

أَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَ أَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً). هَذَا الْبَيَان لِلعلَة البَاعِثة عَلىٰ آختِيَار الْموَظْفِين مِن الْبُيُوْتَات، ومِن البَدَاهة أنَّ الْحُكْم يَدُور مَدَار عِلته وجُوداً وعَدماً، فَالّذي لاَ يَتصف بِالكَفَاءة لاَ يَجُوز آختِيَاره، وإنْ كَان مِن أَهْل الْبُيُوْتَات، ومَن تَحلىٰ بِها جَاز توظِيفه وإنْ لَمْ يَكُن من الْبُيُوْتَات.

الإِمَام وَمطَالِب الْعُمَّال:

(ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَىٰ آسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ... إلخ). ضَمِير «عَلَيْهِمْ» يَعُود إِلىٰ الْعُمَّال، وقَوْله: «قُوَّةٌ لَهُمْ... وَغِنىً لَهُمْ... وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ» وَاضح لاَ يَحْتَاج إِلىٰ تَفْسِير، والَّذي تَجدر إِلَيْهِ الإِشَارَة هُو هَذَا الاِهْتِمَام البَالغ مِن الإِمَام بِمطَالِب الْعُمَّال، والْموَظْفِين، وتَحسِين أوضَاعهُم فِي عَصرٍ كَان يُنظر فِيهِ إِلىٰ الْعُمَّال كَمخلُوقَات غَيْر إِنْسَانِية، وأَنَّ الْفَقْر والشّقَاء مِن الْقدَر والسَّماء لاَ مِن الْأَرْض والجَوْر.

والآنْ نَقرأ ونَسْمَع الْكَثِير عَن إضرَابَات الْعُمَّال، والْموَظْفِين فِي القطَاعِين: الخَاص والعَام، فِي شَرق الْأَرْض وغَرْبِها يَحْتَجُون عَلىٰ الظُّلم والإِجْحَاف، ويُطَالبُون بزِيَادَة الأُجُور وضَمَان الحُقُوق، ويَتْحَملُون نَتِيجَة لِذَلِكَ الْكَثِير مِن التَّضحِيَات كَالقَتْلِ، والضَّربِ، وحِرمَان الأَهْل، والعِيَال مِن القُوت الضَّرُوري أَيَّام الإِضْرَاب، وفَوق ذَلِكَ كُلّه أنَّ الإِجْحَاف بِحَقِّ الْعُمَّال يُوَلِد الكَرَاهِية والصّراع بَيْنَ طَبقَات الْمُجْتَمع وفِئَاته، ويَخْلِق المشَاكِل والقَلاَقِل لِلحكُومَة والمَوَاطنِين عَلىٰ السَّوَاء.

وَقَد تَنْبه الْإِمَام إِلىٰ ذَلِكَ قَبل غَيْره بِمئَات السِّنِين، وأَوْصىٰ الْمَسْئُولِين أَنْ يَهْتَمُوا

بِالْعُمَّال، وَيَسْبغُوا عَلَيْهِمْ الأَرْزَاق تلاَفِياً لِكلّ ضَرر وفَسَاد، ومَن قَرأ الكُتب القَدِيمَة مِن عَهد أَفْلاَطُون إِلىٰ القَرن التَّاسع عَشر ـ لاَ يَجد كَاتِباً أو عَالِماً أوصىٰ بِالْعُمَّال والعنَايَة بِهِمْ كَمَا فَعَل الإِمَام. كَانَتْ فَلْسَفَة أَفْلاَطُون تُعبر عَن طَبقته!. وهَكذَا غَيْره مِن الفَلاسفَة والأُدبَاء... أمَّا فَلْسَفَة الْكَثِير مِن الْفُقَهَاءِ الأَجْلاَء فَهِيَ التَّسلِيم الذَّلِيل لسُلطَان الزَّمَان والخَاقَان ٱبن الخَاقَان[1]... وغَرِيبَة الغَرَائِب أنَّ هَـؤُلاَء يَـنْتَسِبون أَنْفُسهُم إِلىٰ الإِمَام، ويَدَّعُون الْعَمَل بِتَعَالِيمه، بل ويَتكَلمُون بِٱسمه!.

(ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَ ٱبْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَ الْـوَفَاءِ عَـلَيْهِمْ... إلخ). يُشِير الإِمَام بِهَذا إِلىٰ مَبدَأ التَّفْتِيش عَلىٰ المُوظَّفِين كَمَا هُو الشَّأن بِالنِّسبَة إِلىٰ الْقُضَاة، وتَقَدَّم الكَلاَم فِي ذَلِكَ، ونُضِيف أنَّ المُوظف إذَا أَيقَن أنَّه مُرَاقب وأنَّ أَخبَاره تَصل بِتَمامها إِلىٰ رَئِيسه ـ تَحَفّظ كُلّ التَّحفظ، وإِنْ أَسَاء خَاف مِن العُقُوبَة قَـبل أَنْ تَـصل إِلَيْهِ، كَمَا يَفرح المُحسن بِرضَا رَئِيسه قَبل أَنْ يَصله الثَّوَاب.

(وَ تَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ؛ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَىٰ خِيَانَةٍ ٱجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ). أي مِن المُوظَّفِين عِنْدَكَ، والْمَعْنَىٰ لاَ تَركن إِلىٰ وَاحد مِنْهُم أيَّاً كَان، ورَاقِب الجَمِيع بِدقَّة حَتَّىٰ لاَ يَخفَىٰ عَلَيْكَ إِحْسَان مَن أَحْسَن، وإِسَاءة مَن أَسَاء، ولاَ تَترك مُحسناً بِغَير جزَاء، ولاَ تُقرَّ مُسِيئاً عَلىٰ جِـنَايَة، ومَـتىٰ ثَـبت عَـلَيْهِ بِـإِجْمَاع المُرَاقِبِينَ والمُفَتشِين فَخذهُ بِها كَمَا تَرىٰ بِحِكْمَتِك، شَرِيطَة أَنْ لاَ تُخَالف نَـصَّاً مِـن نصُوص الكِتَاب والسُّنَّة، وشَهِّر بِهِ وبِجَرِيمته بَيْنَ النَّاس وعَلىٰ المَلأ، لِيكُون عِـبرَة لغَيره، ولاَ تَأخذك الرَّأفَة فِي دِين الله.

---

(١) خَاقَان: أسم لكُلّ مَلِك مِن مُلُوك التُّرك. أُنظر، لِسَان العَرَب: ١٣/١٤٢.

وتَجدر الْإِشَارَة إِلىٰ أنَّ عُقُوبَة الجرَائِم فِي الشَّرِيعَة الإِسْلاَمِيّة عَلىٰ أنوَاع، مِنهَا ٱلْقِصَاص، ومِنْهَا الحَد، ومِنهَا التَّعزيز. والْحَد مَا نَصّ الشَّرع عقُوبته، وتُسمىٰ أيضَاً العُقُوبَة المُقدّرة، والتَّعزِيز مَا لاَ نَصّ فيه، ويَترك تَقدِير العُقُوبَة لِلْحَاكِم، وتُسمىٰ أيضَاً العُقُوبَة المُفوضَة ولاَ يَكُون التَّعزِيز إلّا عَلىٰ الكَبَائر مِن الذّنُوب، والشَّرط الْأَوَّل فيهِ أنْ يُخالف نَصّاً ولاَ إجْمَاعاً. والعُقُوبَة الّتي أشَار إِلَيْهَا الإِمَام هُنا مِن نَوْع التَّعزِيز حَيْث أوكَلها إِلىٰ إجْتهَاد الحَاكِم[1].

الْخَرَاج...فِقْرَة ١٧:

وَ تَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاٰحِهِ وَ صَلاٰحِهِمْ صَلاٰحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَ لاٰ صَلاٰحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ اِلاّٰ بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَ أَهْلِهِ. وَ لْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلاٰبِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذٰلِكَ لاٰ يُدْرَكُ اِلاّٰ بِالْعِمَارَةِ؛ وَ مَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلاٰدَ، وَ أَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَ لَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ اِلاّٰ قَلِيلًا. فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً، أَوِ ٱنْقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ ٱغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ؛ وَ لاٰ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلاٰدِكَ، وَ تَزْيِينِ وِلاٰيَتِكَ، مَعَ ٱسْتِجْلاٰبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَ تَبَجُّحِكَ

---

(١) التَّعزير: هُو التَّأدِيب، ولهذَا سُمّي الضَّرب دُونَ الحَد تَعزيراً، إنَّمَا هُو أدب، وسُمي بِالعُقُوبَة المُفوضَة؛ لأنَّ الشَّارع لَم يُحدد مقدَارها، أو كَيفيتها، لكنَّه ترك لِلْحَاكِم ذَلِكَ. أنظر، الفَائِق: ١/٢٢٨، غَرِيب الحَدِيث: ٤/٢٢، الصِّحاح: ٢/٧٤٤، لِسَان العَرَب: ٤/٥٦١، مُعجَم ألفَاظ الفِقه الجَعفري، الدّكتور أحمَد فَتح الله: ٢٩٤.

بِٱسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ ، وَ الثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَ رِفْقِكَ بِهِمْ ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ ٱحْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ ، وَ إِنَّمَا يُؤْتَىٰ خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وَ إِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَىٰ الْجَمْعِ ، وَ سُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ وَ قِلَّةِ ٱنْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ(١٧) .

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِالْعِلَّة : هُنا مَا يَعرِض لِلزَّرْع مِن الحَشرَات والأَمرَاض . وٱنْقِطَاعَ شِرْبٍ : تَعذر السَّقِي بِكُلِّ الوَسَائِل . والبَالَّة : مَا يَبُلّ الأَرْض مِن وَابِل أو طَلٍّ . وإِحَالَةَ الأَرْض : تَغيّر حَالهَا عمّا كَانَتْ عَلَيْهِ . والْمَؤُونَة : النَّفَقَة . وتَبَجُّحك : سرُورك . ومُعْتَمِداً : مُتخِذاً : وإِجْمَامِكَ : رَاحتِكَ .

الإِعْرَاب:

قَلِيلًا صِفَة لِمَحذُوف أي زَمَناً قَلِيلًا ، ومُعْتَمِداً حَال ، وفَضْلَ مَفْعُول لِمُعْتَمِد ، والثِّقَةَ عَطف عَلىٰ فَضْلَ ، وفَرُبَّمَا «رُبَّ» حَرف جَر و «مَا» كَافة عَن الْعمَل ، وطَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ مَنْصُوبَة بِنَزع الخَافض أي مِن طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ .

الضَّرَائِب:

(وَ تَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ) . بَعد أَنْ تَكَلَّم الإِمَام عَن الجُنُودِ والْقُضَاة ، والْعُمَّال ٱنْتَقل إِلىٰ الحَدِيث عَن الْخَرَاج وَأهله ، والْمُرَاد بِتَفَقُّدْ أَمْرَ الْخَرَاج أَنْ يَستَوفِيهِ

الجُبَاة كَامِلاً بِلا نُقْصَان، أو زِيَادَة، لأنَّ النُّقْصَان ظُلم بِالرَّعِيَّة، والزِّيَادَة ظُلم بِمن يَدفع الخَرَاج، أمَّا المُرَاد يَفقَدْ أَهْل الخَرَاجِ فهُو الرِّفْق بِهِمْ، والاستمَاع لمطَالِبهِم، والعَمَل عَلىٰ إصْلاح شُؤُونُهم، وعَدم مُصَادرة شَيء مِن أَمْوَالِهم مِن أجْل الخَرَاج، ويَأتِي المَزِيد فِي التَّوضِيح عِند الكَلاَم عَن عِمَارَة الأَرْض، أمَّا كَلِمَة الخَرَاج وبيَان المُرَاد مِنْهَا فَيعلَم مِمَّا يَلِي:

(فَإِنَّ فِي صَلاَحِهِ وَ صَلاَحِهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ... إلخ). أي لاَ طَرِيق لِصَلاَح المُجْتَمع بِشتىٰ فِئاته إلّا بِصَلاَح أَمْرَ الخَرَاج ومَن يَدفَع الخَرَاج، ويَدُلنا هَذَا الشّمُول لِجَمِيع الفِئَات، وهَذَا الإِطلاَق فِي الحُكْم ـ بِأنَّه لاَ صَلاح إلّا بِصلاَح الخَرَاج وَأَهْلَه، كمَا يَدُلنا عَلىٰ أنَّ المُرَاد بِالخَرَاج هُو كلّ مَا يُجبىٰ لِبَيْت المَال بِأي سَبب مِن الأَسْبَاب أو آسم مِن الأَسمَاء، لأنَّ البَيْت المَال لصَالِح المُجتَمع فِئَات وأفرَاداً حَتَّىٰ مَا ينفق مِنْهُ عَلىٰ الجُنْد والقُضَاة لأنَّهم حُرَاس الوَطن والعَدَالة، ولذَا يُطلق عَلَيْهِ مَالُ المُسْلِمِين ومَال الله، أي لصَالح الخَلق. ويُؤيد إطْلاَق الخَرَاج عَلىٰ جَمِيع الضَّرَائِب بِشتىٰ أنوَاعها مَا جَاء عَن بَعْضهُم: «إنَّ آسم الخَرَاج يُطلق عَلىٰ الضَّرِيبَة، والفَيْء، والجِزْيَة، والغِلَة، ومِنْهُ خَرَاج العِرَاقِين»[1]. وَلَيْس هَذَا بِبَعِيد، لأنَّ الخَرَاج فِي اللُّغَة الأَجْر، وكُلّ مَا تَأخذه الدَّوْلَة هُو أَجْرَها عَلىٰ آستقَامَة الحَيَاة.

والضَّرِيبَة فِي الإِسْلاَم عَلىٰ أنوَاع:

مِنْهَا: الزَّكَاة، وتُسمىٰ أيضاً الفَرِيضَة، والصَّدَقَة الوَاجِبَة.

ومِنْهَا: الخُمُس، ويُسمىٰ أيضاً الغَنِيمَة.

(١) أُنظر، مَجمَع البَحرين لِلطُرِيحي: ٦٣٢/١.

ومِنْهَا: مَا يُوضَع عَلىٰ الأَرْض.

ومِنْهَا: الجِزْيَة عَلىٰ الرُؤُوس.

ومِنْهَا: الْفَيْء وهُو مَا أُخذ مِن غَيْرِ الْمُسْلِمِين سِلماً لاَ حَرْبَاً.

قَالَ العَلاَّمَة الحِلِّي ـ مِن عُلَمَاء الإِمَامِيَّة ـ «الغَنِيمَة مِن دَار الْحَرْب مَا أُخذت بِالغَلبَة وإِيجَاف الخَيْل والرِّكَاب، وَأمَّا الْفَيْء مَا حَصل من غَيْرِ قتَال، ولا إِيجَاف بخيل ورِكَاب»[1] ومِثله قَالَ الماوردي ـ مِن عُلَمَاء السُّنَّة ـ وهَذِه عبَارَته: «مَال الْفَيْء مَأخُوذ عَفولاً، ومَال الغَنِيمَة مَأخُوذ قَهْراً»[2].

هَذِه هِي الضَّرَائِب الَّتِي يَفْرضهَا الإِسْلاَم، أو معْظَمها وأَهْمهَا عَلىٰ سَبِيل الإِجْمَال، والتَّفصِيل فِي كُتب الفِقْه، ويَجْمعها اسم الْخَرَاج، وإِنْ كَان أَظْهر أفرَاده ضَرِيبَة الأَرْضِين. وتَجدر الإِشَارَة أنَّ الضَّرِيبَة عَلىٰ السِّلع، والمُسافر، والعُقُود المَدنِيَة، وعَلىٰ الدَّعَاوي لَدىٰ الْقُضَاة ـ لَمْ تَكُن معرُوفَة مِن قِبل الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة.

وكلّ ضَرِيبَة كَانَتْ تُجبىٰ لبَيْت المَال فَهِيَ لصَالح الْمُسْلِمِين حَتَّىٰ سَهم النَّبيّ ﷺ الخَاص بِهِ كَان يُعطِيه لِلمعوَزِين ويَقول: «مَا آمن بِاللهِ، والْيَوْم الآخر مَن بَات شَبعَاناً، وجَارَه جَائِع، فقُلنا: هَلكنَا يَارَسُول الله، فقَال: مِن فَضل طعَامكُم، ومِن فَضل تَمركُم، ورِزقكُم، وخلقكُم، وخَرقكُم تُطفئُون بِهَا غَضَب الرَّب

(١) أنظر، تذكِرة الفُقَهَاء: ١١٩/٩ مَسْألَة (٧٥).

(٢) أنظر، الأَحْكَام السُّلطَانِيَة للمَاوردِي: ١٤٧/١، وروضَة الطَّالبين: ٣٢٧/٥، كتَاب الأُمّ: ١٤٧/٤، المَجْمُوع: ٣٥٤/١٩، مُغني المُحتاج: ٩٣/٣، المُدونة الكَبرىٰ: ١٠/٢، جواهر العُقُود: ٣٧٩/١، حَاشية رَدّ المحتَار: ٣١٤/٤.

تَعَالىٰ»[١] ... ولاَ يَستَثني إلّا مَا يُقِيم الأَوَد، ولَو أحتَفَظ بِبَعضه لكَان مِن أغنِياء الْعَرَب.

(لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَىٰ الْخَرَاجِ وَ أَهْلِهِ) مَا مِن غَني أو فَقِير إلّا ويَنْتَفع مِن الضَّرَائِب فِي الدَّوْلَة الْعَادِلَة، سوَاء أَنْفقتهَا علىٰ المشَارِيع الْعَامَّة كَالمدَارس والمُسْتَشفِيات، والْعُيُون وشَق الطُّرقَات، أَم عَلىٰ الْجُنْدِ والْقُضَاة، وسَائِر الْموَظْفِين حَيْث لاَ حَيَاة ولاَ نِظَام إلّا بوجُود الدَّوْلَة. قَالَ «مُونتِسكِيُو» (MONTEΣΘIEY): «أنّ دَخل الدَّوْلَة هُو جُزء يَدفعهُ المواطن مِن مَاله لِينَال السَّلاَم والْمُتْعَة بِالْحيَاة»[٢]. وَمَعْنىٰ هَذَا أَنَّ الدَّوْلَة عِيَال عَلىٰ الْخرَاج، والرَّعِيَّة، عِيَال عَلىٰ الدَّوْلَة بِالنَّظر إلىٰ جِهَاتِها لِلسَّلاَمة والْمُتْعَة، والنَّتيجَة أنّ كلَّ النَّاس، دَولة وشَعْباً عِيَال عَلىٰ الْخرَاج كَمَا قَالَ الإِمَام.

(وَ لْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلاٰبِ الْخَرَاجِ). لاَ تَسْتَقِيم ٱلْحيَاة إلّا بِتَبَادُل الثِّقَة بَيْنَ الرَّاعِيَ والرَّعِيَّة، وٱلسَّبِيل إلىٰ ثِقَة الرَّعِيَّة بِرَاعِيها هُو أنْ تُؤمِن وتُوقِن بِأَنَّه يَهْتَم بِسِيَّاسَة الإِنْتَاج، وزِيَادَة الثَّروَة، وتُوفِير الدَّخل الكَافِي لِكُلِّ فَرد ـ أَكْثَر مِمَّا يَهْتَم بِسِيَّاسَة الضَّرَائِب وتَحصِيلها... ومِن البَداهَة أنّ المَورد الرَّئيسي لِلثَّروةِ، وزِيَادَة الدَّخل هُو الْأَرْض، بِخَاصَّة فِي ذَلِكَ العَهد حَيْث كَان الاِعْتِمَاد قَبل كُلّ شَيء عَلىٰ الزِّرَاعَة، وثَروَة الأَرْض المَوجُودة فِيها بِالقُوَّة، ولاَ

(١) أُنظر، وَسَائِل الشِّيعة: ٢٠٩/١٧، بِحَار الأَنْوَار: ١٩١/٧٤، كتَاب المكَاسب للشَّيخ الأَنْصَاري: ١٠٦/٢، رسَائِل الشَّهِيد الثَّانِي: ٣٢٩. وقَريب مِنْهُ فِي الْمُعْجَم الْكَبِير: ٢٥٩/١ ح ٧٥١، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٢٤٣/٣ ح ٣٨٧٤، الْقَول المُسَدد: ٢١/١.

(٢) أُنظر، «مُونتِسكِيُو» (MONTEΣΘIEY) فِي كتَابه «روح الشَّرَائع».

تَظهَر هَذِه الثَّروَة إِلىٰ عَالم الوجُود إلّا بِالْعَمَلِ، وتُوفِير الآلَة. وأيضاً مِن البدَاهَة أنَّ زِيَادَة وحدَها لاَ تَزِيد فِي دَخل الْفَرْد، ولاَ تَسد حَاجَة كُلّ مُحتَاج إلّا مَع النِّظَام الْعَادِلُ الَّذي يُحقق المُسَاوَاة بَيْنَ الجَمِيع، وبِكَلِمة: لاَ عُمرَان إلّا بمُجتَمع يَقُوم عَلىٰ نِظَام عَادِل، وعَلَيْهِ تَكُون وَصِيَّة الإِمَام لعَامِله بعِمَارَة الأَرْض مَع ٱستِقَامَة الأَمْرُ والْحَيَاة هِي وَصِيَّة بمُرَاعَاة الْعَدْل، والْعَمَل لزِيَادَة الإِنْتَاج، وتَحسِينَه، وتَنظِيم أسوَاقه، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ مِمَّا يَعُود عَلىٰ الجَمِيع بِالْخَيْر والصَّلاح.

(وَ مَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَ أَهْلَكَ الْعِبَادَ). الضَّرِيبَة لاَ تُقَاس بِشَهوَة الرَّاعِيَ وإِرَادَته، بَل بِالنَّص مَع وجُودَه، وإِلّا فبِالْمَصْلحَةِ، والْحَاجَة الضَّرُورِيَة لِلدَّولَة، وقُدرَة الرَّعِيَّة فِي نِطَاق الْعَدْل، ولَو أَهتَم الرَّاعِيَ بسِيَّاسَة الضَّرَائِب فَقط، وأَهْمَل الرَّعِيَّة وعِمَارَة الأَرْض ـ لكَان تَاجِراً مُسْتَغِلاً ولَعَمّ الخَرَاب والدّمَار، وإِذَا صَارت البِلاد خَرَاباً ويَبَاباً فَمن أَين تُجبىٰ الأَمْوَال؟ وهَل يَزِيد مَال الخَزِينَة بِفَقر الشَّعب؟

وَحَكىٰ لنَا بَعْض الشّيوخ أنَّ صَاحِب الأَرْض فِي العَهْد العُثْمَانِي كَان يَهرَب مِنْهَا وَيَتنَازل عَنْهَا بِلا ثَمَن لِمَن شَاء فِرَاراً مِن الضَّرَائِب الفَادِحَة، وأَنَّ الْعَدِيد مِن النَّاس كَانوا يُؤثرُون الْفَقْر، والبطَالة عَلىٰ الْعَمَل فِي الأَرْض لِلغَاية نَفْسَها.

(فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً، أَوِ ٱنْقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ .... إِلىٰ رِفْقِكَ بِهِمْ). ضَمِير شَكَوْا يَعُود إِلىٰ الرَّعِيَّة، والْمُرَاد بِالثّقل الضَّرِيبَة، والْمَعْنَىٰ أَنَّ لِلزَّرْع آفَات، كَٱنْقِطَاع الْمَطَر، وتَعفن البَذر، والحَشرَات والأَمرَاض، وَمَا إِلىٰ ذَلِكَ مِن الأوبِئَة... فَإِذَا ٱشْتَكَت الرَّعِيَّة شَيْئاً مِن ذَلِكَ إِلىٰ الرَّاعِيَ فعَلَيْه أَنْ يَبذُل كلّ جُهد فِي مُسَاعدَتهم، وأَنْ يُخَفف عَنْهُم الضَّرَائِب أو يُلغِيها مِن الأَسَاس حَسْبَمَا تَستَدعِيه الْمَصْلحَة، ولَيْس

مِن شَكّ أنَّ الرَّعِيَّة تُمْنَح الثِّقَة والوَلاَء المُخلص. والْكَثِير مِن الحكُومَات تُخصص مَبْلَغاً مِن الميزَانِية لمِثل هَذِه الطّوَارىء.

(فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ ٱحْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ). إذَا أَحسَن الرَّاعِي سِيرتَه مَع الرَّعِيَّة كَانوا لهُ القُوَّة والعِدَة عَلىٰ كلّ أجْنَبي وطَامع، وإنْ أَسَاء ثَاروا عَلَيْهِ، وطَلبُوا تَنْحِيتَه... فإنْ كَان مِن عُشاق الكَرَاسِي ٱستعَان بِالأجنَبِي، وتآمر مَعْه عَلىٰ شَعْبَه، كَما حَدَث بلُبنَان سَنَة ١٩٥٨م، ومِن البدَاهَة أنّ الأجنَبِي لاَ يَتَدخل إلّا لِمَصْلَحَته... وَقَد تَنَبَه الإِمَام لذَلِكَ. فَأوصىٰ عَامِله أنْ يَحرص بِأعمَاله كُلّ الحِرْص عَلىٰ ثِقَة الرَّعِيَّة بِهِ وحُبّهُم لهُ، لِيَستَجِيبُوا لِدَعوَته سَاعَة يَشَاء، ويَكُونوا لهُ حِصْناً مِن الأعدَاء.

(فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ). المُرَاد هُنا الْعَدْل، والأَمْن والخِصْب، ومَتىٰ توَافَرَت هَذِه العنَاصر الثَّلاَثة ضَحىٰ أَهْله بِالنَّفْس والنَّفِيس فِي سَبِيله وَسَبِيل رَاعِيه وحَارِسَه، وإذَا ٱفتَقدُوا وَاحِداً مِنْهَا شَعرُوا بِالغُربَة، وهُم فِي وَطَنهم، وقَد رَأينا مِن يَتعصَّب لُبلَد غَرِيب يَعِيش فِيهِ بِأمْن وهَنَاء، ويَتجَاهل وَطَنه لأنَّه لاَ يُوفر لهُ الأَمْن ولُقْمَة العَيش.

(وَ إِنَّمَا يُؤْتَىٰ خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا... إلخ). الأَرْض وَسِيَلة مِن وَسَائِل الإِنْتَاج، ولَكْن بِالْعَمَل، وتُوفِير المَال لشرَاء الآلَة، والبَذر والسّمَاد والدَّواء لمُكَافَحة الأَمرَاض والحَشرَات، فإذَا ٱحْتَكَرت المَالَ فِئَة من الْفِئَات، وتَآمر مَعَهَا الْحَاكِم ـ خَرِبَت الأَرْض، ورَحَل أَهْلها إِلىٰ غَيْرها، أو عَاش أحرَارها فِي السّجون، وغَيْرِهِمْ مِن الرَّعَايا لِلمُترَفِين الطُّغَاة! ولِلأحرَار ونضَال الشّعوب تَأرِيخ رَائِع وطَوِيل.

الْكُتَّاب...فِقْرَة ١٨:

ثُمَّ أنْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَىٰ أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَ آخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَ أَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلاَقِ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلاَفٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ، وَ لاَ تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَ إِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَىٰ الصَّوَابِ عَنْكَ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَ يُعْطِي مِنْكَ، وَ لاَ يُضْعِفُ عَقْداً آعْتَقَدَهُ لَكَ، وَ لاَ يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَ لاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ. ثُمَّ لاَ يَكُنِ آخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ فِرَاسَتِكَ وَ آسْتِنَامَتِكَ وَ حُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَ حُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، وَ لَيْسَ وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَ الْأَمَانَةِ شَيْءٌ. وَ لَكِنِ آخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَآعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً، وَ أَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ نَصِيحَتِكَ لِلّٰهِ وَ لِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ. وَ آجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ، لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَ لاَ يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَ مَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ(١٨).

اللُّغَة:

مَكَائِدَكَ: خِطَطُكَ الخَفِية ضِدّ أعدائِك. والفِرَاسَة ـ بِكَسر الفَاء ـ التَّنبُؤ بِالخفَايَا مِن القَرَائِن. والاِسْتِنَامَة: الرُّكُون. وأُلْزِمْتَهُ: لَزِمَك وَوَجَب عَلَيْكَ.

الإِعْرَاب:

إِيَّاهُمْ مَفْعُول ثَانٍ لاِخْتِيَارُكَ، وشَيْءٌ آسم لَيْسَ مُؤَخَّر، ووَرَاءَ خَبَر مُقدم، وكَانَ

فِي الْعَامَّة «كَانَ» زَائِدَة، ويَجُوز أنْ تَكُون أصلاً، وآسمهَا ضَمِير مُستَتِر، وأثَراً خَبَرهَا، ووَجْهاً تَمْيِيز.

شُرُوط الوَزِير:

(ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ). سَبَق الكَلاَم عَن الْجُنْدِ، والْقُضَاةِ، والْعُمَّال. والْحَدِيث الآنْ عَن الْكُتَّاب، وَقَالَ أَكْثَر من الشَّارِح: إنَّ الْمُرَاد بِهِمْ الوُزَرَاء، وَلَيْس هَذَا بِبَعِيد، إِلَيْهِ قَول الْإِمَام: «مَكَائِدَكَ وَ أَسْرَارَكَ» فإنَّ السِّر والكَيد ضِدّ الْعَدُوّ لاَ يُطْلِع الْحَاكِم أحداً عَلَيْهِ إلّا وُزَرَاءَه وخَاصته. وكَانَ الوَزِير آنْذَاك مُجَرد مُسْتشَار لإسدَاء النُّصح والإرْشَاد، وَقَد يَسْتَعِين بِهِ الْحَاكِم عَلىٰ تَنْفِيذ بَعْض رَغَائِبه. وَلَمْ تُمْهد قوَاعِد الوُزَارَة، وَتَحدَدَ مُهِمَّة الوَزِير إلّا فِي الْدَّوْلَة العَبَّاسِية، هَكذا جَاء فِي كِتَاب «نِظَام الْحُكْم الْإسْلاَمِي»[1]. وَقَالَ آبن أَبِي آلْحَدِيد فِي شَرحَه: «الكَاتِب الَّذي يُشِير إِلَيْهِ الْإِمَام هُو الَّذي يُسمىٰ الآنْ فِي الاِصْطلاَح العُرفِي وزِيراً، لأنَّهُ صَاحِب تَدبِير الْأَمِير، والنَّائِب عَنْه فِي أُموره»[2].

وَأشَار الْإِمَام إِلىٰ الشُّرُوط الَّتي يَجب توَافرهَا فِي الوَزِير بِقَوْله:

١ ـ (عَلَىٰ أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ). فِيمَا تَقَدَّم قَالَ الْإِمَام عَن الْعُمَّالِ، والْمُوَظَّفِين: «فَآسْتَعْمِلْهُمُ آخْتِبَاراً» أي آمْتِحَاناً بِالإضَافَة إِلىٰ شهَادَة حُسن السِّيرَة والسُّلوك، وَيَظْهَر مِن كَلاَمَه هُنا عَن الوَزِير أنَّه لاَ دَاعِي لاِمْتحَانه، والمُهم أنْ يَكُون خَير

(١) أنظر، مبادىء نِظَام الحُكم فِي الإسْلاَم لِعَبد الحَمِيد متولِي: ٢٧٩، ونِظَام الحُكم في الإسْلاَم لِمُحَمَّد مَهدي شَمس الدِّين.

(٢) أنظر، شَرح نَهج آلبَلاَغَة: ١٧/٧٩.

النَّاس فِي مُجْتَمعه، أو مِن خَيَارِهم، وكُلّ الدُّول فِي الشَّرق والغَرب تُسند الوزَارَة لمَرضِيّ السِّيرَة بِلا ٱمْتحَان، وسُؤال، وجوَاب، وهَذَا أَحد الطُّرق الّتي يَثْبُت بِها الاجْتهَاد المُطلق عِند الإِمَامِيَّة. وقَد عرَّف الإِمَام فِي كَلمَاته القصَار: «مِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ، وَلِسَانِهِ، وَقَلْبِهِ، فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ، وَقَلْبِهِ، وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ، فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ، وَ التَّارِكُ بِيَدِهِ، وَلِسَانِهِ، فَذَلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ، وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ، وَقَلْبِهِ، وَيَدِهِ، فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ»[1]. أي يُشعر بِالأَسىٰ لكلِّ ظُلم وأذىٰ فِي أي جُزء مِن أجزَاء العَالم، وأنّه مَع المَظلُومِين والمَنكوبِيْن برُوحه وقَلبه، وأنّه يُنَاضل مِن أَجْلِهم بمَا يَسْتَطِيع مَعْنوِياً ومَادياً بِاللِّسَانِ، وٱلْقَلَم، وبِاليَد، والْمَال: «مِن كُلٍّ حَسَب طَاقَته». ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2].

٢ ـ (وَ ٱخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَ أَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ... إلخ). إذَا كَانَ لَديك سِرّ هَام، أو خِطَة تُكِيد بِها الْعَدُوّ، وٱحتَجتَ فِي تَنفِيذهَا إِلىٰ مُعِين ـ فٱختَره مِن أَهْل الوَعِي والفِطْنَة بِحَيث لاَ يُخدَع ويُؤخذ مِن غَيْر شعُور، ومِن أَهْل الدِّين، والوَفَاء أيضاً، يَفِي بِالعَهْد، ويُحَافظ علىٰ الْأَمَانَة، ويُقدس الوَاجب، ولاَ يَتهَاون فِيه، ويَحرص علىٰ سمْعَته وكَرَامته.

٣ ـ (مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ) إذَا أَكْرَمتَه وَجعلتَه لَكَ أَخَاً جَعْلَك لهُ سَيِّداً، فَلا يَطْمَع ويَغْتَر بِإكرَامك ويَتجَاوز الْحُدُود، كمَا هُو شَأن السَّفِيه الجَاهِل.

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكمَة (٣٧٤). (مِنهُ ﷺ).

(٢) ٱلبَقَرة: ٢٨٦.

٤ ـ (وَ لاٰ تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ ... إلخ). يُؤدِي وَاجبَه عَلىٰ أَكْمَل وَجه، ولاَ يَتهَاون بِرسَالة تَأتي إِلَيْك مِن عَامِل أو مِن غَيْره، وأيضاً لا يَتهَاون بجوَابها، ويَحرص كُلّ الْحِرْص عَلىٰ حُسن سِيرتك، وسُمعتك بَيْنَ النَّاس، ولاَ يُعرّضك لِلسَّخط والاِنْتقَاد بسُوء تَصرفه، كَما يَفعَل الْكَثِير مِن حَوَاشِي الرُّؤسَاء، والأكثَر مِن أبنَاء المَرَاجع، والْعُلَماء فِي هَذَا الْعَصْر (فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ) أي يَحْتَج لَك بِالمَنطق السَّلِيم عَلىٰ عمالك وغَيْرهِمْ مِمَّنْ يَعتَرض ويَنتَقد (وَ يُعْطِي مِنْكَ) النُّصح لِلعُمَّال والْمُوَظفِين وغَيْرهمْ.

٥ ـ (وَ لاٰ يُضْعِفُ عَقْداً اَعْتَقَدَهُ لَكَ ... إلخ). إذَا اَنْتَدبتَه إِلىٰ مفَاوضَة خَصم مِن خصُومَك، وتَفَاوضا ثُمَّ اَتفقَا بَعد النِّقَاش عَلىٰ أشيَاء مُعينَة، بَعْضهَا لَك، وبَعْضهَا عَلَيْكَ، إذَا كَان هَذَا أَبرَم الشَّيء الَّذي لَكَ عَلىٰ خَصمك وأَحْكَمه مِن جَمِيع جِهَاته بِحَيث لاَ يَدع لِلخَصم مَنْفذاً لِلنَّقص والتَّحرر مِنْهُ، أَمَّا الشَّيء الَّذي عَلَيْكَ لِخَصمك فَيَتبعَه بِأوصَاف وقَرَائِن تَجْعَلك فِي حِلٍّ مَتىٰ أَردَت التَّحرر مِنْهُ تَمَاماً كَما يَفعَل السَّاسَة الدُّهَاة الآنْ وفِي كُلِّ عَصر... وهَذَا بَعْض الشَّوَاهد الْكَثِيرة الَّتي تَدمغ وتُكَذب زَعم الزَّاعمِين بِأنَّ عَلِيّاً لاَ يَعْرِف السِّيَاسَة[١].

٦ ـ (وَ لاٰ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ ... إلخ). لاَ يَدعِي مَا لَيْس فِيهِ، ويَتوقَع الخَطَأ فِي رَأيه، ويَتقَبل الاِنْتقَاد، ويُحسن الاِسْتمَاع، ويُمهل المُتَكلم حَتىٰ يَنْتَهي مِن حَدِيثه.

٧ ـ (ثُمَّ لاٰ يَكُنِ اَخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ فِرَاسَتِكَ وَ اَسْتِنَامَتِكَ وَ حُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ).

(١) أُنظر، الإمَام عَليّ صوت الْعَدَالة الإنْسَانِيّة، جورج جُردَاق: ٤/٧٧٥.

لَيْسَت الفِرَاسَة طَرِيقاً عِلمِياً أو شَرعِياً لِمَعْرِفَة أي شَيء حَتّىٰ ولَو كَان حَقِيراً، فَكَيف بِالمصَالِح الْعَامَّة، والأُمُور الهَامَة ؟ هَذَا، إلىٰ أنَّ الأشرَار يُلقُون الحُكَّام بِالرِّيَاء والتَّصنُع لِيَنزلُوهُم مَنزِلة الأخْيَار... ولَكنَّ الحَاكِم الذَّكِي يُدرك وَاقعهُم ويُعَاملهم بِمَا هُم أَهْل لهُ.

مِقْيَاس الْحَقِيقَة:

(وَ لَكِنِ ٱخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ... إلخ). يَخْتَلف مِقْيَاس الحَقِيقَة بِٱختِلاَف طَبِيعتها، فَالحَقِيقَة الدِّينِيَة تُقَاس بِالوَحي مِن الله، والحَقِيقَة الفَلْسَفِيَة تُقَاس بِالفكرِ، وَالْعَقْل، والحَقِيقَة العُرفِيَة مِقْيَاس أَفْهَام النَّاس وَعَادَاتهُم، والحَقِيقَة العِلْمِية تُقَاس بِالمُشَهَادة والتَجْرِبَة. وكَذَلِكَ الرِّجَال يُعرَف مِنْهُم الكُفؤ بمَا يُمَارسه مِن الأَعْمَال، فَالطَّرِيق إلىٰ الْعَمَل بِمَهَارَة الطَّبِيب أنْ يُشفي المَرضىٰ، ومهَارَة مُهندس البِنَاء تَظْهَر فِي العِمَارَةِ والبِنَايَة، ولاَ نَعرف خُلق الوَزِير أو المُوظَف إلّا إذَا بَاشر مِهْنَته حِيناً كَافِياً مِن الدَّهر، فإنْ قَام بهِ كَمَا يَجب، وذَكرَه النَّاس بالخَيْرِ، والأَمَانَةِ فَهُو كذَلِكَ، وعَلىٰ الحَاكِم المُخْلِص أنْ يُؤثره عَلىٰ غَيْره، ويَركن إِلَيْهِ، وقَدِيماً قِيل: أَلْسِنَة الرَّعِيَة أَقْلاَم الحَقّ سُبْحَانَهُ إلىٰ المُلُوك»[1]... وَقَالَ الإِمَام: «مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلاَنِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَحْسَنَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ»[2].

---

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٧/٣١، تَاج العَروس: ١/٣٨، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ١/٣١٥، كَشف الخفَاء: ١/٦٧ الرَّقم (١٥٤) وص: ١٨٠ الرَّقم (٥٣٢) و: ٢/٢١١ الرَّقم (٢٣٨).
(٢) أنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٢٣).

(فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ نَصِيحَتِكَ للهِ وَ لِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ) . إذَا ٱخْتَرت الأَمِين المُجَرب لمصَالح الْعِبَاد فَقَد نَصَحت لله ورَسُوله، وأثَابَك بالحُسنىٰ، وزِيَادَة.

تَوْزِيع الأَعْمَال:

(وَ ٱجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ، لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا) . هَـذَا كَـلاَم مُستَأنف وعَام يَشمل كُلّ الأَعْمَال، ولاَ يَخْتَص بِالرَّسَائِل وأجوبَتهَا كَمَا فَهم ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد وغَيْره[١]، لأنَّ الإِمَام قَالَ: كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ، ولَمْ يَقل كُـلّ رِسَـالَة مِـن رسَائِلك. والْمَعْنَىٰ أَنَّ أَعْمَال الدَّوْلَة كَثِيرة ومُتنُوعَة، وتَحتَاج إِلىٰ الْكَثِير مِن الْعُمَّالِ، والْموَظْفِين... ولاَ تَنْتَظم هَذِه الأَعْمَال وتَسْتَقِيم إلّا إِذَا حُصْرَت وصُنْفَت إِلىٰ أَقْسَام وَأَصْنَاف بِلا تَدَاخُل بَيْنَهَا وٱصطدَام، ثُمَّ يُسْنَد كُلّ عَمل مِنْهَا إِلىٰ شَخص مُعين يَقوم بِهِ، وَيَدُور فِي فَلكِهِ، ولاَ يَتجَاوزه إِلىٰ غَيْره، ويَكُون وَحدَه المَسْئُول عَنْهُ، وبِهَـذا التَّقسِيم والتَّوزِيع يُمْكن ضَبط الأَعْمَال وٱتقَانها عَلىٰ الوَجه المَطلوب... وَقَالَ الإِمَام فِي آخر وَصِيَته الطَّوِيلة لوَلَده الإِمَام الْحَسَن: «وَٱجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِـنْ خَـدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ»[٢].

وَقَالَ البَاحِثُون: إِنَّ هَذَا المَبدأ لَمْ تَهْتَدِ إِلَيْهِ الْمَـدِنِيَة إلّا حَدِيثاً (وَ مَهْمَا كَـانَ فِـي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ) . يَجب عَلىٰ الْوَالِي أنْ يَتحَرىٰ أَخْبَار الْـعُمَّال والْمُوَظْفِين، ويَحرص كُلّ الحِرْص عَلىٰ مَعْرِفَة أَعْمَالهُم: هَل أَحْسَنُوا أَم أَسَاءوا؟ وأنْ يُجزي الْمُسِيء بِمَا يَسْتَحق، فإنْ أَهمَل الْوَالِي الْبَحْث والتَّـفتِيش، أو تَـغَاضىٰ عَـن

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٧٦/١٧.
(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٣١).

الإِسَاءة، كَان مَسؤولاً أَمَام الله، ومَأخُوذاً بِأشَد العقُوبَات.

التُّجَّار وَأرْبَاب الصِّنَاعَة...فِقْرَة ١٩:

ثُمَّ ٱسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَ ذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَ أَوْصِ بِهِمْ خَيْراً: الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَ الْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَ الْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ، وَ أَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَ جُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَ الْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَ بَحْرِكَ، وَ سَهْلِكَ وَ جَبَلِكَ، وَ حَيْثُ لاَ يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَ لاَ يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاَ تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَ صُلْحٌ لاَ تُخْشَىٰ غَائِلَتُهُ. وَ تَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَ فِي حَوَاشِي بِلاَدِكَ. وَ ٱعْلَمْ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَ شُحّاً قَبِيحاً، وَ ٱحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَ تَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ، وَ ذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَ عَيْبٌ عَلَىٰ الْوُلاَةِ. فَٱمْنَعْ مِنَ الإِحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَنَعَ مِنْهُ. وَ لْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَ أَسْعَارٍ لاَ تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَ الْمُبْتَاعِ. فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَ عَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ[١٩].

اللُّغَة:

ٱضْطَرَب التَّاجِر بِمَالِهِ: ٱنْتَقَل بِهِ مِن بَلدٍ إِلىٰ بَلد. والْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ: الْمُعْتَمَد عَلَيْهِ فِي الكَسْب. والْمَرَافِقِ: الْمَنَافِع. والْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ بِمَعْنَىٰ وَاحد، أي الأَمَاكن البَعِيدة، والبَائِقَةُ والغَائِلَةُ: الشَّرّ. وضِيقاً: شَدِيداً فِي مُعَامَلته. والْمُبْتَاعِ: الْمُشْتَرِي.

الإِعْرَاب:

مَفْعُول ٱسْتَوْصِ مَحْذُوف أي أَوْصِ نَفْسَك، والْمُقِيمِ ومَا بَعْدَه بَدل مُفَصل مِن

مُجْمَل، والمُبْدَل مِنْهُ الضَّمِير فِي «بِهِمْ»، وبِمَوَازِينِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً لِيَكُنِ، وبَيْعاً مَفْعُول مُطلق لِلْبَيْع.

الصِّنَاعَة وَالتِّجَارَة بَيْنَ الْقَدِيم وَالْجَدِيد:

ٱبْتَدأ الكَلاَم أَوَّل مَا ٱبْتَدأ بِالجُنْد، ثُمَّ الْقُضَاة، ثُمَّ الْعُمَّال والمُوَظَّفِين، ثُمَّ أَهْل الخَرَاج، ثُمَّ الْكُتَّاب أو الوُزَرَاء. والحَدِيث الآنْ عَن الْفِئَةُ السَّادِسَة، وهُم التُّجَّار، وأَهْل الصِّنَاعَة... وَكُلّ عَلاَقَة بَيْنَ الْفَرْد والْفَرْد، أو بَيْنَ الْفَرْد والجَمَاعَة، أو بَيْنَ الجَمَاعَة وَالجَمَاعَة ـ فإِنَّهَا لاَ تَخلو مِن أَحد فَرضين:

إِمَّا رُوحِيَة لاَ صِلَة لهَا بِالإِقْتصَاد، كَحُبّ المُؤْمِن لأَخِيه المُؤْمِن لِمحض الإِيمَان وحُبّ الصَّدِيق صَدِيقَه لِمُجَرد الصَّدَاقَة، وحُبّ الأُمّ لِوَلِيدهَا.

وإِمَّا ٱقتصَادِيَة كَعَلاَقة التَّاجِر بِالمُنْتِج والمُسْتَهلك، وعلاَقَة كُلّ النَّاس بِهَؤُلاَءِ الثَّلاَثَة، لأنَّ ٱلْحَيَاة لاَ تَستَقِيم إِلّا بِالزِّرَاعَةِ، والصِّنَاعَةِ، والتِّجَارَةِ، ولذَا قَالَ الْفُقَهَاء: هِي فَرض كفَايَة عَلىٰ الجَمِيع.

والأَوصَاف الّتِي نَعَت بِها الإِمَام أَهْل التِّجَارَة، والصِّنَاعَة ـ تَدل دَلاَلَة قَاطِعَة عَلىٰ أَنَّ أَكْثَرهُم كَانوا مِن الكَادحِين لاَ يَبْتَغُون إِلّا سَدّ الحَاجَة والعَيش بِأَمَان، ومِن أَجْل هَذَا كَانُوا يَعْرِفُون الدِّين والشَّرِيعَة، والخَيْر والشَّرّ، والْعَدْل والظُّلم تَمَاماً كَالمُسْتَضْعَفِين... وأَيضاً كَانُوا يُشَارِكُون بِأَمْوَالِهِم وأَنْفسِهُم فِي الدِّفَاع عَن الدِّين والوَطن، ورُبَّمَا بَذَل أَحْدهُم معْظَم مَا يَملِك فِي هَذِه ٱلسَّبِيل، كَمَا حَدثنَا التَّأرِيخ.

ولَيْسَ هَذَا بِبَعِيد عَن طَبِيعَة ٱلْحَيَاة والأَوْضَاع فِي ذَاكَ العَهْد حَيْث لاَ آلَة إِلّا المَغَازل والأَنوَال اليَدوِيَة، وإِلىٰ هَذَا أَشَار الإِمَام بِقَوْله: (وَ الْمُتَرَفِّق بِبَدَنِه) أي

العَامِل بِعَضلاَته لاَ بِالضَّغط عَلىٰ الأَزْرَار... أيضاً لَمْ يَكُن آنْذَاك شِركَات تجَارِيَة آحتكَارِيَة يَملك أَسهمهَا أَصحَاب المَلاَيين، وَيُسِيطرُون عَلىٰ السِّيَّاسَة وأقوَات الْعِبَاد، بَل كَان التَّاجِر يَعْرض سِلعَته فِي حَانُوته عَلىٰ المُسْتَهلكِين، وإلَيْهِ أشَار الإمَام بقَوْله: (الْمُقِيم مِنْهُمْ) أو يَنْتَقل بِها مِن بَلدٍ إلىٰ بَلد، وإلَيْهِ الإِشَارَة بِالْمُضْطَرِب بِمَالِهِ.

وَبِكَلاَم آخر أنَّ الهُوَة لَمْ تَتسِع بَيْنَ فِئَات المُجْتَمع ـ كمَا هِي الحَال الآنْ ـ إلّا بعد أنْ تَقَدَّمت وَطَغت عَلىٰ مظَاهر ٱلْحيَاة، وتَحكّم بِهَا وبِالْمَصَانع أَصْحَاب الشِّركَات الإِحْتِكَاريَة، وأَخْضَعوا الإنْتَاج وكُلَّ مَجهُود لأهوَائِهم ومكَاسِبهُم، وحَوّلوا مِعْظَمه إلىٰ أَسْلِحة الخَرَاب والدَّمَار، وفَرضُوا الْعَجْز وَالْفقْر عَلىٰ الشّعُوب المُسْتَضعَفة، ولِحْتَكرُوا أقوَاتها ومُقدرَاتها، وحَاربُوا كُلّ ثَقَافة وَاعِية، وخَنْقُوا كُلّ صَوت للأَحرَار والْحُرِّيَّة فِي شَرق الأَرْضِ، وغَرْبِهَا.

وفِي الأُسبُوع الأَوَّل مِن كَانُون الثَّانِي يَنَاير سَنَة ١٩٧٣م نَشَرت الصُّحف تَقرِيراً لـ «آرنست مَاير» مُدِير مَعْهَد الصَّحَافة الدّولِي جَاء فيهِ: «إنَّ (٢٦) دَولَة فِي العَالَم فَقط مِن بَيْنَ (١٣٢) دَولة أَعْضَاء فِي الأُمم المُتحدَة تَتمَتع بِحُرِّيَة الصَّحَافة، لأنَّ الْقوىٰ الإِقْتِصَاديَة تُخْضِع صَاحب الصَّحِيفَة لإرَادتهَا وإلّا أَوْقَفت عَنْه سَيل الإعْلاَنَات.

وإنَّ الصُّحفِي الأمرِيكِي فَقَد حُريتَه بِشَكل سَرِيع ومُحزن... وأنَّ العَدِيد مِن الصُّحف المُسْتَقِلة آثرَت الإخْتفَاء بَدلاً مِن الوقُوع فِي بَرَاثن الإِحْتِكَارات».

ولَيْس مِن شَكٍ أنَّ الإمَام لاَ يَتحدَث عَن هَذَا النَّوْع مِن الشِّركَات وذَوِي الصِّنَاعَات حَيْث لَمْ يَكُن لَهُم فِي عَهْدِه عَين ولاَ أَثر، ولأَنَّهُم حُوش كَاسِرة، وأَوبِئَة مُهْلِكَة لاَ يَعتَرفُون بِمَبدأ أو قَانُون، ولاَ بِشيء إلّا بِالنَّجَاح والأَرْبَاح... والإِمَام

يَتَحَدث عَن التُّجَّار، والصُّنَّاع الَّذِين هُم أدَاة خَيرٍ فِي المُجْتَمع، ويَعتَرفُون بِـالدِّين والضَّمِير، والخَيْر والشَّرّ، والعَدْل والظُّلم، كمَا أشرنَا.

وبِهَذا التَّمهِيد يَسْهل عَلينَا أنْ نَفهَم مَا أرَاده الإمَام بِحَدِيثه التَّالي عَـن التُّـجَّار، وذَوِي الصِّنَاعَاتِ.

(ثُمَّ ٱسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَ ذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَ أَوْصِ بِهِمْ خَيْراً). أولاَء يَـصْنَعُون الكِسَاء، والسِّلاَح، وأدوَات البِنَاء، والمَنْزِل، وآلاَت الزِّرَاعَة، ومَا إلَيْهَا وأُولَـئِكَ يَنْقلُونَهَا إلىٰ المُحْتَاجِين والمُستَهلكِين، وعَلىٰ الرَّاعِيَ أنْ يَهْتَم بِالفِئتِين مَعاً حَـيْث لاَ غِنىٰ لِلمُجْتَمع عَنْهُما، ويَعْمَل عَلىٰ تَحسِين الصِّنَاعَة بمَا يُحقِق الخَيْر لِلجَمِيع والرَّخَاء لِلجَمِيع... وكُلنا يَعلم أنَّ الصِّنَاعَة اليَوْم هِي القُوَّة العُظمىٰ فِي كُلّ مَـيدَان، وأَنَّهَـا المَطْلَب الأَوَّل لِكُلّ شَعب، لأنَّ التَّقدم يُقاس بِها لاَ بِالزِّرَاعَة، بَل هِي المِقْيَاس لتَطَور الزِّرَاعَة، والتِّجَارَة، وزِيَادَة الرِّبـح فِي هَـذِه، وغَـلَة الأَرْض فِي تِـلك. فَـتَشجِيع الصِّنَاعَة، إذَنْ، تَشجِيع للإنْتَاج بِشَتىٰ وَسَائِله.

ومَا فَرَضت اليَابَان نَفْسها عَلىٰ العَالَم بَـعْد هَـزِيمتهَا وٱسْتِسلاَمها لأمـرِيكَا فِي الحَرْب العَالمِية الثَّانِيَة ـ إلاّ بِثُورتهَا الصِّنَاعِيَة السِّلمِيَة، وكَذلِكَ الألمَان... وبِالأَمْس القَرِيب وحِين ظَهر العَجْز التِّجَارِي الأمرِيكي، وأَعْقَبه أزْمَـة الدُّولار، ٱلتـجَأت الوِلاَيَات المُتحدة صَاغِرة إلىٰ اليَابَان، والفَضْل للإنْتَاج وصِنَاعة السِّلم... والمُجْتَمع الأمرِيكي مُجْتَمع صِنَاعي تِجَاري أكْثَر مِن اليَابَان بِالقِيَاس إلىٰ مَوَارده وإمْكَانَاته، ولكنْ سِيَّاسَة التَّصنِيع الحَرْبِي خَلقت لأمرِيكا ولِلعَالَم كلّه أزْمَات ومِشكلاَت، ولاَ سَبِيل لِلخلاَص إلاّ سِيَّاسَة السِّلم فِي كُلِّ مَيدَان، وإطلاَق الحُرِّيَّة لِكُلِّ شَعب وإنْسَان بِلا تَمْيِيز بَيْنَ قوّي وضَعِيف، وغَني وفَقِير، وأَسْوَد وأَبْيَض.

(فَــإِنَّهُمْ مَــوَادُّ الْـمَنَافِعِ، وَ أَسْـبَابُ الْـمَرَافِـقِ، وَ جُـلَّابُهَا مِـنَ الْـمَبَاعِدِ وَ الْمَطَارِحِ... إلخ). ومِن هَذِه المَنَافِع أنَّ التُّجَّار يَنْقلُون سِلع البِلاَد الَّتي تَـزِيد عَـن حَاجَة أَهْلها إِلىٰ بِلاَدٍ أُخرىٰ هِي فِي أَمسّ الحَاجَة إِلَيْهَا.. ويَتَعَذر علىٰ ٱلْبَلَدِ المُنْتِج والمُسْتَهلِك الاجْتِمَاع فِي مكَان وَاحد لِلبَيع والشِّرَاء، وهَذَا مَا أَرَاده الإِمَام بِقَوْله: (وَ حَيْثُ لاٰ يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا). وأيضاً يَنْقل التُّجَّار مَع السِّلع عَقِيدَتهم وثَقَافَتهم، وعَن طَرِيقهم ٱنْتَشر الإِسْلاَم فِي كَثِير مِن الأَقْطَار.

قَالَ العَقَّاد الكَاتب المصرِي: «يُوجد اليَوْم فِي أفرِيقيَا مِئة مِليُون مُسْلم، وقَرِيب مِن هَذَا العَدد فِي السومَطرَة وبِلاَد الجَاوة، وقَرِيب مِنْهُ فِي البَاكستَان، وقَد يَكُون فِي الصِّين ومَا جَاورَها عِدة كَهذه مِن المَلاَيِين. وكُلّ هَؤُلاَء سَرت فِيهِمْ عَقِيدة الإِسْلاَم بِمعزَل عَن الدّولِ، والسِّيَاسَة»[1].

(فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاٰ تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَ صُلْحٌ لاٰ تُخْشَىٰ غَائِلَتُهُ). إنَّ التُّجَّار، والصُّنَاع مِن حَيْث المَجْمُوع ـ لاَ يُثِيرُون الفِتَن، ولاَ يَتآمرُون مَع أَعْدَاء الوَطن، كَما تَفْعَل اليَـوْم الرَّجعِيَة لِلمُحَافظَة عَلىٰ ٱستغلاَلها وٱمتِيَازاتها... وقَول الإِمَام: «فَـإِنَّهُمْ سِـلْمٌ لاٰ تُخَافُ بَائِقَتُهُ» دَلِيل قَاطع عَلىٰ أنَّ أَهْل التِّجَارَة، والصِّنَاعَة كَانُوا فِي ذَلِكَ العَهْد مِن الكَادحِين يَعِيشُون بِكَد اليَمِين، كَما قَدمنَا (وَ تَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَ فِي حَوَاشِي بِلاٰدِكَ). تَتَبَّع أَخْبَار القَرِيب مِنْهُمْ وَالبَعِيد، وأَسْهَر عَلىٰ مَصلَحَة الجَمِيع.

(وَ ٱعْلَمْ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَ شُحّاً قَـبِيحاً... إلخ). إنَّ التُّجَّار كَسَائِر الفِئَات، فِيهِمْ الكَبِير والصَّغِير، والسَّمح والضِّيق، والجَشع والقَانِع،

---

(١) أنظر، كِتَابه «الإِسْلاَم فِي القَرن العِشرين». (مِنْهُ ﷺ).

والطَّيّب والْخَبِيث، وَقَد يُحَاول بَعْض الأَثرِيَاء مِن ذَوِي الجَشَع والطَّمع ـ أنْ يَستَغِلَ عَن طَرِيقٍ غَيْرِ مَشرُوع كَالرِّبا، والغشِ، والإِحْتِكَارِ، والتَّحَكُمِ بِالأَسْعَار، فـإنْ حَدَث مِن أَحدهِم شَيء مِن هَذَا فَالضَّرب عَلىٰ يَده وعَامِلهُ بمَا يَسْتَحق.

والإِحْتِكَار: مُحرَم نَصَّاً وإِجْمَاعَاً، ومِن الكَبَائِر أيضاً، ولاَ يَخْتَص بِنَوْع مُعين خِلاَفاً لِجَمَاعَة مِن الْفُقْهَاء، بَل يَعم كُلّ مَا يضْطَر إِلَيْهِ النَّاس لِتَقدِيم الْمَصْلحَة الْعَامَّة عَلىٰ الْخَاصَّة. والحَاكِم يَجبرُ المُحْتَكِر أنْ يَعرض السِّلعة فِي الأسوَاق. ولاَ يَحل التَّسعِير عَلَيْهِ ولاَ عَلىٰ غَيْره إلّا لضَّرُورَة الْمُجْتَمع ومَصْلحَتَه، وللوقَايَة مِن ٱستِغلاَل الْبَائِع وجَشَعَه. وَقَالَ الشَّهِيد الثَّانِي: «إِذَا ٱمْتَنع صَاحِب الطَّعَام مِن بَذلَه إلاّ بِأَزيَد مِن ثَمَن مِثله، فإنْ كَان الْمُضْطَرّ قَادِراً عَلىٰ قِتَاله قَاتَله، فَإنْ قُتل الْمُضْطَرّ كَان مَظلُوماً، وإنْ قُتل المَالِك كَانَ هَدراً... إلخ»[1]. وتَكَلمنَا عَن الإِحْتِكَار مُفصلاً فِي كِتَاب «فِقْه الإِمَام جَعْفَر الصَّادِق» بَاب البَيع»[2].

(وَ لْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً) أي فِيهِ تَسهِيل بِالثَّمَن (بِمَوَازِينِ عَدْلٍ) لاَ يَنْتَقص مِن بَاع، ولاَ يَتزِيد مِن ٱشْترىٰ (وَ أَسْعَارٍ لاَ تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَ الْمُبْتَاعِ) لاَ سُلطَان مُطلقاً لِلإِنْسَان حَتَّىٰ عَلىٰ نَفْسه ومَاله... فكُلّ تَصَرف فِي الْحَقّ مُقَيد بِعَدم

---

(١) أنظر، مسَالِك الأَفهَام: ١٢١/١٢، المبَسُوط للطُّوسي: ٢٨٦/٦، جوَاهر الفِقْه لِابْن البَرّاج: ٢٠٨، مُختَلف الشِّيعة: ٣٣٨/٨، مجمَع الفَائِدة: ٣٢٧/١١، جوَاهر الكَلاَم: ٤٣٧/٣٦، الشَّرح الْكَبِير: ١٠٤/١١، كَشف القنَاع: ٢٥١/٦، المُغني: ١٨٠/١.

(٢) وأنظر، النِّهايَة للشَّيخ الطُّوسي: ٣٧٤، المبسوط للطُّوسي: ١٩٦/٢، الوَسِيلة لِابْن حَمزة: ٢٦٠، السَّرائِر: ٢٣٨/٢، حَاشية رَدّ المُحتار: ٧١٧/٦، قوَاعد الأَحْكَام: ١١/٢، مُختلف الشِّيعة: ٣٨/٥، مُنْتهىٰ المَطلب: ١٠٠٧/٢، تَذكِرة الْفُقهَاء: ٥٨٥/١، المُقنع: ٣٧٢، المَراسم: ١٦٩، نِهَاية الإِحْكَام: ٥١٣/٢، وغَيْر ذَلِكَ كَثِير.

الضَّرَر والإِجْحَاف بِالآخرين، وبِتَعبِير الحُقُوقِيين لاَ تَعَسف فِي آسْتِعمَال الْحَقّ (فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَ عَاقِبْهُ). الإِحْتِكَار ذَنْب كَبِير كمَا أشرنَا، ومَن آرتكَب كَبِيرَة مِن الجَرَائِم عَاقبه الحَاكِم بِالعُقُوبَة المَنْصُوص عَلَيْهَا شَرعَاً، وإِنْ أَعوزَته النّصُوص عَزَّره بمَا يَرىٰ شَرِيطَة أَنْ لاَ يُخَالف نَصّاً فِي الكِتَاب والسُّنَّة. وإِلىٰ هَذَا الشَّرط أشَار الإِمَام بقَوْله: (فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ).

وبَعْد، فإِنَّ الإِسْلاَم يُقِيم العَلاَقَات بَيْنَ النَّاس وَيُنظمهَا لصَالِح الجَمِيع بِلا آسْتِثنَاء، إِنْ أَمكَن وإِلاّ قَدَم صَالِح الغَالِبِيَة عَلىٰ الأَقلِية، ولهَذَا المَبدأ وغَيْره مِن المَبَادىء الإِسْلاَمِيّة قَالَ كَثِير مِن الأَجَانب، والمُسْتَشرِقِين: «إِنَّ الإِسْلاَم دِين آلحَيَاة فِي كُلِّ زَمَان ومَكَان»[1]. وَنَقلنَا طَرفاً مِن أقوَالِهم فِي كتَاب «فَلْسَفَة التّوحِيد والْوِلاَيَة» فَصل «مُحَمَّد والقُرآن».

الطَّبَقَة السُّفْلَىٰ...فِقْرَة ٢٠ ـ ٢١:

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَىٰ مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ، مِنَ الْمَسَاكِينِ وَ الْمُحْتَاجِينَ وَ أَهْلِ الْبُؤْسَىٰ وَ الزَّمْنَىٰ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَ مُعْتَرّاً، وَ آحْفَظْ للهِ مَا آسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَ آجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَ قِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الإِسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلأَقْصَىٰ مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَىٰ، وَكُلٌّ قَدِ آسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ؛ وَ لاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لاَ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ لإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ. فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَ لاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَ تَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ

---

(١) أنظر، مكَارِم الأَخلاَق لابْن أَبِي آلدُّنيَا: ٦.

تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَ تَحْقِرُهُ الرِّجَالُ؛ فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَ التَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ. فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَىٰ الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَىٰ اللهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ[٢٠].

وَ تَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَ ذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ، وَ لَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَ ذٰلِكَ عَلَىٰ الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ، وَ الْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ؛ وَ قَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَىٰ أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَ وَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ.

وَ اجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَ تَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ للهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَ تُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَ أَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَ شُرَطِكَ، حَتَّىٰ يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ». ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَ الْعِيَّ، وَ نَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَ الْأَنَفَ يَبْسُطِ اللهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَ يُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ. وَ أَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَ امْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَ إِعْذَارٍ[٢١]!

اللُّغَة:

الطَّبَقَة السُّفْلَىٰ: الجماهير الشَّعْبِيَة والغَالِبيَة العُظمىٰ الّتي تَتألف مِن الْفُقَرَاء، والْمَساكِين كما أوضح الإمام ذٰلك بقوْله: «مِنَ الْمَسَاكِينِ وَ الْمُحْتَاجِينَ». والْبُؤْسَىٰ ـ بِضَم البَاء ـ شِدَّة الْفَقْر. وَالزَّمْنَىٰ ـ بِفَتح الزَّاي ـ جمع زَمِين أي صَاحِب عَاهَة. والقَانِع: الرَّاضِي بِمَا تَيَسَّر مِن غَيْر مُسَأَلَة. والمُعْتَرّ: يَتعَرض لِلعطَاء. والمُراد بِصَوَافِي الْإِسْلَامِ الْمَال الْمُشَاع لِكُلِّ مُسْلم. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ: دَع الكِبرَ والْإِعْجَاب.

وَتَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ: تَحْتَقِرَه وتَزْدَرِيه. وَثِقَتَكَ: مَن تَثِق بِهِ. والإِعْذَارِ: مَا يُوجب العُذْر والرِّقَّةِ ـ بِكَسر الرَّاء ـ الضَّعْف. وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ: تَأمرَهُم أنْ لاَ يَتعَرضُوا لَهُم. والمُتَتَعْتِع: الْعِيِّ. وتُقَدَّس: تُطَهْر. والْمُرَاد بِالضِّيقَ هُنا ضِيق الصَّدر. الأَنَف ـ بِفَتح الأَلْف والنُّون ـ الاِسْتِنْكَاف.

الإِعْرَاب:

اللهَ اللهَ ٱحْذَرُوا أو ٱتقُوا الله، وَالثَّانِيَة لِلتَّوكِيد، وغَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ حَال مِن مُتَكَلِّمُهُمْ.

فَلْسَفَة الْمَسَاكِين:

(ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى[1] مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ... إلخ). لأَنَّهُم لَيْسُوا مِن الْجُنْدِ، والْقُضَاة، ولاَ مِن الْمَوظْفِين، والصّنَاع الَّذِين تَقَدَّم عَنْهُم الكَلاَم، وإنَّمَا يَتَألفُون مِن الشَّغِيلَة المَأجُورِين فِي الزِّرَاعَةِ وبَعْض الحِرف، ومِن المُسْتَخدَمِين فِي الْبُيُوت، وَمَحلاَت التِّجَارَة، وَسَائِقِي السَّيَّارَات، وعُمَّال البِنَاء والمطَابع ومَا أَشْبَه، ومِن الشِّيوخِ، والعَجزَةِ، والعَاطِلِين عَن الْعَمَل، وَقَد يَكُون لِبَعضهُم قِطعَة مِن الأَرْض لاَ تَفِي بِحَاجَته، أو تَكُون لهُ زَاوِيَة يَبِيع فِيهَا الفِجل، والكُرَاث ونَحوه، أو يَكُون بَائِعاً لِلصُّحفِ، أو أورَاق «اليَانصِيب»، أو ذَا حِرفَة تَافِهة كَمَسح الأحذِيَة، أو تَرقِيعها، أو يَكُون موظَفاً لِلحرَاسَةِ، والكِنَاسَة.

---

(١) وهَذِه الْكَلِمَات تُرَادف كَلِمة البِنَاء التَحتِي الشَّائِعة فِي تَعْبِيرَات بَعْض الكُتب، ويَعْنُون بِهَا إنَّ صَلاح الْمُجتَمع لاَ يَكُون إلاَّ بِصلاَح هَذِه الطَّبَقَة لاَ بِالأَغْنِيَاء والأَقوِيَاء، لأنَّ البِنَاء يَبدأ بِالأَسَاس لاَ بِالسَّقف، ومَتىٰ صَلح الأَسَاس صَلح السَّقف وغَيْره مِن أجزَاء البِنَاء. (مِنْهُ).

كُلّ هَؤُلاَء يَشملَهُم قَول الإِمَام: «اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَة السُّفْلَىٰ مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ» وتُطلَق عَلَيْهِمْ كَلِمَة الجَمَاهِير لأنَّهم الغَالبِيَة العُظْمىٰ والأَكثَرِية فِي كُلّ الشّعُوب، أو جُلها، وهُم القُوَّة والعِدَة لِكُلِّ نَبِيّ، ومُصلح فِي حَل الأزمَات وتَقَدُّم ٱلحَيَاة، وَلَوْلاَهُم مَا كَان لِلعُلَمَاء والعُظَمَاء أسم، ولا أَثَر فِي مَدنِيَة وحضَارَة، أو شَيء يَنْفَع النَّاس، ولاَكَان للإِنْسَانِيَة هَذَا التّرَاث الضَّخم مِن الصّروحِ، والسّدُودِ، والتُّرعِ، والقِلاَع، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ مِمَّا نَرَاه فِي متَاحف الآثَار وغَيرها.

وَمَع هَذَا فَهُم الطَّبَقَة المُستَغَلة المُضْطَهَدَة مِن بَيْنَ طَبَقَات المُجْتَمع، فَالبُوليس يُطَاردهُم، ويُحرر بِهِمْ المُخَالفَات، فِي حِين لاَ يَجرَأ عَلىٰ غَيْرِهِمْ، والأَغنِيَاء لاَ يَعطُونَهُم مِن ثَمن الخَدمَات إلاّ دُونَ الكَفَاف، وهُم يُحرَمُون مَن إِعانَات الإِغَاثَة ـ إِنْ كَانَتْ ـ لِتَذهَب إِلىٰ جيُوب المُشرفِين عَلَيْهَا والمُوَظْفِين، وبَعد هَذَا كُلّه يَتحَملُون القِسطَ الأَوفَر مِن كُلّ نَكبَة، وآفَة سمَاوِية كَانَتْ كَالجَدب، أَمْ أَرْضِية كَالحَرْب.

وَقَد ذَكَرهُم سُبْحَانَهُ فِي العَدِيد مِن آيَاته، مِنْهَا تُوجِب لَهُم الشّركَة فِي أَمْوَال الأَغْنِيَاء: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾(١).

وَمِنْهَا الإِحْسَان إِلَيْهِمْ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾(٢).

ومِنْهَا تُوجِب الجِهَاد والثَّورَة مِن أَجْلِهم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ

(١) ٱلمَعَارِج: ٢٤ ـ ٢٥.
(٢) ٱلنِّسَاء: ٣٦.

ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[1]. ولَكن المُسْتَضْعَفِين لَمْ يَنْتَظِرُوا أَحَداً يَثُور عَنْهُم، ويُقَاتل مِن أَجْلِهم فَثَارُوا عَلىٰ الظُّلم بأنفسِهم، وخَاضُوا المعَارك فِي كُلِّ طَرَف مِن أَطْرَاف المَعمُورَة، وٱنْتَصرُوا فِي كَثِير مِن الثَّورَات، وبَعْضهَا الآخر فِي طَرِيق النَّصر، وإنْ طَال، وأَين المَفَرّ مِن التَّيَار الوَاثب الغَاضِب؟.

أَمَّا فَلْسَفَة المَسَاكِين الَّتي تَقول: الْعَدْل لِلجَمِيع، وحَيَاة أَسْعَد وأَفْضَل لِكُلِّ فَرد دُونَ ٱسْتِثنَاء، أَمَّا هَذِه الفَلْسَفَة فَهِيَ رِسَالَة السَّمَاء إِلىٰ الأَرْض، وَمَبدَأ الشَّرَائِع والقَوَانِين، وأُمْنِيَّة كُلّ شَعب فِي شَرق الأَرْض وَغَرْبِهَا، والإِمَام لاَ يَنْطق بِلسَانه، ولاَ يُعْبر عَن شعُوره فَقط، وإِنَّمَا يُعْلن إِرَادَة الله والطَّيِّبِين مِن عِبَاده حِين يَقول: «اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلىٰ مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ، مِنَ المَسَاكِينِ وَالمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ البُؤْسَىٰ وَالزَّمْنَىٰ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً، وَٱحْفَظِ للهِ مَا ٱسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ». فإِنَّ هَؤُلاَء مِن بَيْنَ الرَّعِيَّة أَحوَج إِلىٰ الإِنْصَاف مِن غَيْرِهِمْ» لأَنَّهُم أَيْتَام وبِلا عَمّ وخَال.

(وَٱجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكِ). مشَارِيع الدَّوْلَة كَثِيرَة، وَكُل مَشرُوع يَحتَاج إِلىٰ تَصْمِيم ومَبْلَغ كَافٍ مِن مِيزَانِيَة الدَّوْلَة. وقَد أَمَر الإِمَام أَنْ تَكُون النَّفقَة عَلىٰ المُحْتَاجِين، ومشَارِيع الدَّوْلَة، وأَنْ يُخصص الوَالِي لَهُم قِسْماً مِن المِيزَانِيَة لِيكُون حَقّاً مَضمُوناً تَماماً كَروَاتب الجُنُود، والقُضَاة، وسَائِر المُوظَفِين... وقَد يَكُون هَذَا قَانُوناً فِي دَولة أَو أَكْثَر مِن دول القَرْن العِشرِين، أَمَّا فِي عَهْد الإِمَام أي مُنذ أَلف وثَلاَثمِئة

[1] النِّسَاء: ٧٥.

سَنَة أو تَزِيد ـ أمَّا فِي ذَلِكَ العَهْد فَلم تَعْرف هَذَا دَولة ولاَ فِئَة أو فَرد ـ فِيما نَظن ـ وَالَّذي عَرفنَاه وقَرأنَاه أنَّ الوِلاَيَات المُتحدة تَضْطَهد الهُنُود الحُمْر وغَيْرهِمْ مِن الْفُقَرَاء والمُلوَنين، وتُعَاملهُم مُعَامَلَة الحَشرَات والحَيَوانَات!... وهِي أرْقىٰ وأَغْنىٰ دَولة فِي هَذَا الْعَصْر، ولكنَّ غِنَاها مُسخّر لِلشَّرِّ، والدَّمار.

(وَ قِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الإسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ). الْمُرَاد بِصَوَافِي الإِسْلاَم هُنا الأَمْوَال المُشَاع بَيْنَ الْمُسْلِمِين كَافة، ولاَ تَخْتَص بِسَهمِ النَّبيّ ﷺ كَما فَهَم ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد، وكَلِمَة صَوَافِي مَأخُوذة مِن ٱستَصفىٰ الْمَال إذَا أَخذه كُلّه، أو مِن صَوَافِي الْمُلُوك أي مَا يَخْتَارُون لأنْفُسهُم، والْمَعْنىٰ أنَّ سَهم الْفُقَرَاء فِي مِيزَانِية الدَّوْلَة لاَ يحْرَمهم مِن الأَمْوَال الّتي هِي مُشاع بَيْنَ الْمُسْلِمِين، وإنَّ ٱحتيَاجَاتهم تُسد مِن هَذِه وتِلك (فَإنَّ لِلأَقْصَىٰ مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَىٰ، وَكُلٌّ قَدِ ٱسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ... إلخ). كُلّ المَحَاوِيج سوَاء فِي مَال الله، ولاَ فَرق بَيْنَ أَسْوَد وأَبْيَض، وبَيْنَ نَسِيب وَغَرِيب، وبَدَوِيّ وحَضْرِيّ، وصحَابِيّ وتَابعِيّ.

(وَ لاُ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ) وٱغْترَار بِجَاهٍ، أو مَالٍ (فَإِنَّكَ لاُ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ لإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ). أَنْتَ مُطالَب ومَسْئُول عَن كُلِّ كَبِيرَة وَصَغِيرَة فِي الرَّعِيَّة حَتَّىٰ ولَو كَانَتْ مِثْقَال ذَرَّة، وعَلَيْكَ أنْ تُصلِح وتَهْتَم بِالجَمِيع، ولاَ تُشْغِلَك كِبَار الأُمُور عَن صِغَارها، وتَقول: أَدَّيْت الأَهم ومَا عَدَاه لاَ يَهم؛ فَإنَّ هَذَا مَنْطق الكَسُول العَاجِز... وَقَد أَكَد الإِمَام هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي الْكَثِير مِن وَصَايَاه وأَقوَاله، والهَدَف الأَوَّل والأَخِير هُو الاِهْتِمَام بِحَاجَة كُلِّ مُحْتَاج، وإنْ تَكُن مِن التَّوَافِه، فَرُبَّ تَافِه فِي نَظَر النَّاس هُو مَسْأَلة حَيَاة أو مَوت عِند مَن يَحتَاج إِلَيْهِ، فَلُقْمَة العَيش أو جُرْعَة الْمَاء فِيها حَيَاة نَفْس فِي كَثِير مِن الأَحْيَان. ومِن أَقْوَال الإِمَام وحِكْمَه:

ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[1]. ولَكن المُسْتَضْعَفِين لَمْ يَنْتَظِرُوا أَحداً يَثُور عَنْهُم، ويُقَاتل مِن أَجْلِهم فَثَارُوا عَلىٰ الظُّلم بأنفسهِم، وخَاضُوا المعَارك فِي كُلِّ طَرَف مِن أَطْرَاف المَعمُورَة، وٱنْتَصرُوا فِي كَثِير مِن الثَّورَات، وبَعْضهَا الآخر فِي طَرِيق النَّصر، وإنْ طَال، وأَين المَفَرّ مِن التَّيَار الوَاثب الغَاضِب؟.

أَمَّا فَلْسَفَة المَسَاكِين الَّتي تَقول: العَدْل لِلجَميع، وحَيَاة أَسْعَد وأَفْضَل لِكُلِّ فَرد دُونَ ٱسْتثنَاء. أمَّا هَذِه الفَلْسَفَة فَهِيَ رِسَالَة السَّماء إِلىٰ الأَرْض، وَمَبدَأ الشَّرَائِع والقَوَانِين، وأُمْنِيَّة كُلّ شَعب فِي شَرق الأَرْض وَغَرْبِهَا، والإِمَام لاَ يَنْطق بِلسَانه، ولاَ يُعْبر عَن شعُوره فَقط، وإِنَّما يُعْلن إِرَادَة الله والطَّيِّبين مِن عِبَاده حِين يَقول: «اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَىٰ مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ، مِنَ المَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَىٰ وَالزَّمْنَىٰ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً، وَٱحْفَظِ للهِ مَا ٱسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ». فإنَّ هَؤُلاَء مِن بَيْنَ الرَّعِيَّة أَحوَج إِلىٰ الإنْصَاف مِن غَيْرِهِمْ» لأَنَّهُم أَيْتَام وبِلا عَمّ وخَال.

(وَٱجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكِ). مشَارِيع الدَّوْلَة كَثِيرَة، وَكُل مَشرُوع يَحتَاج إِلىٰ تَصْمِيم ومَبْلَغ كَافٍ مِن مِيزَانِيَة الدَّوْلَة. وقَد أَمَر الإِمَام أنْ تَكُون النَّفَقَة عَلىٰ المُحْتَاجِين، ومشَارِيع الدَّوْلَة، وأنْ يُخْصص الوَالِي لَهُم قِسماً مِن الميزَانِيَة لِيَكُون حَقّاً مَضمُوناً تَماماً كرَوَاتب الجُنُود، والقُضَاة، وسَائِر المُوظَفِين... وقَد يَكُون هَذَا قَانُوناً فِي دَولة أو أَكْثَر مِن دول القَرْن العِشرِين، أَمَّا فِي عَهْد الإِمَام أي مُنذ أَلف وثَلاَثمِئة

(١) ٱلنِّسَاء: ٧٥.

سَنَة أو تَزِيد ـ أَمَّا فِي ذَلِكَ العَهْد فَلم تَعْرف هَذَا دَولة ولاَ فِئَة أو فَرد ـ فِيما نَظن ـ وَالَّذي عَرفنَاه وقَرأنَاه أنَّ الْوِلاَيَات المُتحدة تَضْطَهد الهُنُود الحُمْر وغَيْرهمْ مِن الْفُقَرَاء والمُلوّنِين، وتُعَاملهُم مُعَامَلَة الحَشرَات والحَيَوَانَات!... وهِي أرْقىٰ وأَغْنىٰ دَولة فِي هَذَا الْعَصْر، ولكنَّ غِنَاها مُسخَّر لِلشَّرِّ، والدَّمَار.

(وَ قِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي الإِسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ). الْمُرَاد بِصَوَافِي الإِسْلاَم هُنا الأَمْوَال المُشَاع بَيْنَ الْمُسْلِمِين كَافة، ولاَ تَخْتَص بِسَهمِ النَّبيّ ﷺ كَما فَهَم ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، وكَلِمَة صَوَافِي مَأخُوذة مِن ٱسْتَصفىٰ الْمَال إذَا أَخذه كُلّه، أو مِن صَوَافِي الْمُلُوك أي مَا يَخْتَارُون لأَنْفسهُم، والْمَعْنىٰ أنَّ سَهم الْفُقَرَاء فِي مِيزَانِية الدَّوْلَة لاَ يَحْرِمهم مِن الأَمْوَال الّتي هِي مُشاع بَيْنَ الْمُسْلِمِين، وإنَّ ٱحتِيَاجَاتهم تُسد مِن هَذِه وتِلك (فَإِنَّ لِلأَقْصىٰ مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنىٰ، وَكُلٌّ قَدِ ٱسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ... إلخ). كُلّ المَحَاوِيج سوَاء فِي مَال الله، ولاَ فَرق بَيْنَ أَسْوَد وأَبْيَض، وبَيْنَ نَسِيب وَغَرِيب، وبَدَوِيّ وحَضَرِيّ، وصحَابِيّ وتَابِعيّ.

(وَ لاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ) وٱغْتِرَار بِجَاهٍ، أو مَالٍ (فَإِنَّكَ لاَ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ لإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ). أَنْتَ مُطالَب ومَسْئُول عَن كُلِّ كَبِيرَة وَصَغِيرَة فِي الرَّعِيَّة حَتَّىٰ ولَو كَانَتْ مِثْقَال ذَرَّة، وعَلَيْكَ أنْ تُصلح وتَهْتَم بِالجَمِيع، ولاَ تُشْغِلَك كِبَار الأُمُور عَن صِغَارها، وتَقول: أَدَّيْت الأَهم ومَا عَداه لاَ يَهِم؛ فإنَّ هَذَا مَنْطق الكَسُول العَاجز... وَقَد أَكّد الإِمَام هَذَا الْمَعْنىٰ فِي الْكَثِير مِن وَصَايَاه وأقوَاله، والهَدَف الأَوّل والأَخِير هُو الاهْتِمَام بِحَاجَة كُلِّ مُحْتَاج، وإنْ تَكُن مِن التَّوَافِه، فَرُبَّ تَافِه فِي نَظر النَّاس هُو مَسْأَلة حَيَاة أو مَوت عِند مَن يَحتَاج إِلَيْهِ، فَلُقْمَة العَيش أو جُرْعَة المَاء فِيها حَيَاة نَفْس فِي كَثِير مِن الأَحْيَان. ومِن أَقْوَال الإِمَام وحِكَمه:

«ٱفْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ، وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلَىٰ بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي، فَيَكُونَ وَاللهِ كَذَلِكَ. إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلًا، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ»[1] أي مِن حَيْث الأثَر والمَنْفَعَة، فإنَّ الأُمُورَ تُقَاس بِنتَائِجِهَا وآثَارها.

(فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ). لاَ تَتَرَفع عَن خِدْمَه البَائِسِين، ولاَ تَبخَل بِسَعيك لِحَل مشَاكِلهم، ويَجب أنْ يَتم مِنْك ذَلِكَ كوَاجب عَلَيْكَ لاَ كَمُحسن ومُتَفَضل (وَ تَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ). مَا أَكْثَر الضُّعَفَاء مِن ذَوِي الْحَاجَات الَّذِين لاَ يَجِدُون عَمّاً ولاَ خَالاً يَشْكُون إِلَيْهِ، ولاَ كَرِيماً يُزِيح العَقبَات مِن طَرِيق وصُولهم إِلىٰ الْحُكَّام وذَوِي الشَّأن!... أَبداً لاَ يَرُون إِلّا أَعيُناً تَزْدَرِيهم، ولاَ يَسْمعُون إِلّا أَلسُناً تَهْزَأ بِهِمْ... والإِمَام يُنْذ، ويُحَذر الْوُلاَة، والْحُكَّام مِن إِهْمَال هَذِه الْفِئَةُ، وإِنَّه يَجْرِ عَلَيْهِمْ أَسوَأ العوَاقب... إِنَّ عَدد البَائِسِين لاَ يُحْصىٰ كَثْرَة، ويَسْتَحِيل أنْ يَصبِرُوا عَلىٰ الظُّلم... ولاَ بُدَّ يَوماً أَنْ يُحَطِمُوا القيُود، ويَرفعُوا صَيحَات الغَضْب فِي وجُوه الْحُكَّام الطُّغَاة وأعوَانهم... ثُمَّ نَصح الإِمَام عَامِله أنْ يُعين أَشْخَاصاً مِن الأَبرَار المُؤتَمنِين عَلىٰ مصَاير الخَلق، يَتْفَرغُون لِلبَحث عَن أَحوَال النَّاس مِن ذَوِي الْحَاجَات، ويَصغُون لِمَطَالِبهم، ويَرفعُونَها إِلَيْهِ، لِيَعمل عَلىٰ ٱنجَازها بِالْمَعْرُوفِ.

وهَكذَا عَاش عَليّ بن أَبِي طَالب عليه السلام الْعُمْر كُلّه مَع الْمَسَاكِين، يَشعر بِآلاَمِهم ويُوصِي بِهِمْ، ويُشَاركهم فِي مكَاره الدَّهر، وبِهَذا كَان ومَا زَال مَعْبُود الجَمَاهِير،

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٢٢).

وإلى آخر يَوْم... وقد أثنى النَّبيّ ﷺ على الإمَام لِصفته هَذِه، وبَشره بِعلو المَنزلة عِند الله، وَقَالَ لهُ: «يَا عَلِيّ إنّ الله عزّوجلّ قَد زيّنك بزِينَة لَم يَتزيّن الْعِبَاد بـزِينَة أَحبّ إِلَيْهِ مِنْهَا، الزُّهْد فِي الدُّنْيا... ووَهَب لَكَ حُبّ الْمَسَاكِين، فَجعَلك تَرضىٰ بِهِمْ أَتْبَاعاً، ويَرضُون بِكَ إمَاماً»[1]. وَقَالَ الأُستَاذ أَحمد عَبَّاس صَالح: «كَان عَليّ أَوسَع شَعْبِيَة، وإِنّ الجَمَاهِير كَانَتْ مِن ورَائه»[2].

(وَ تَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَ ذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِـمَّنْ لاَ حِـيلَةَ لَـهُ... إلخ). أوْصىٰ الإِمَام أَوّلاً بِكُلِّ ذِي حَاجَة، ثُمَّ خَـصَّ الأَيْـتَام، والشّـيوخ الْـعَجْز، لأَنَّهُـم أَوْلَىٰ بِالرِّعَايَة، وبِالخصُوص مَن لاَ يَتصدىٰ مِنْهُم لِلنَّاسِ بِالطَّلبِ والتَّسول (وَ ذَلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ) قَد يَهُون عَلىٰ الْوَالِي أنْ يَعفُو ويَتحمَل الكَلِمَة المُوجِعَة، ويَخْتَار وزرَاءه وموَظفِية مِن الثُّقَات الأُمنَاء، أمَّا أنْ يَتْفقد الأَرْمَـلَة وَيَـتِيمهَا، والْمَـغْمُورِين مِـن أمْثَالها، أمَّا هَذَا فَثَقِيل وصَعب مِستَصعَب عَلىٰ قَلبَه إلّا إذَا كَان قَوياً فِي إِيمَانه تَهون عَلَيْهِ الصِّعَاب طَلباً لمَرضَاة الله، وحُسن الثَّوَاب، كمَا قَالَ الإِمَام: «مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ

(١) أنظر، مَجْمَع الزّوَائـد: ٩/١٢١، فـرَائِـد السِّمطين: ١/١٣٦ ح ١٠٠، شَرح ٱلنَّهج لِلعلاّمَة الخُـوئي: ٢/٤٠٨، وكفَايَة الطَّالب: ٦٦ و ١٩٩، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لاِبْـن أَبِي ٱلحَـدِيد: ٩/١٦٦ و: ١١/٢٣٢، المُعْجَم الأوسَط: ٢/٣٣٧، كَنز العُمَّال: ٦/١٥٨ الطَّبعة الأولىٰ و: ١١/٦٢٦، شوَاهد التَّـنزِيل: ١/٤٥٩، تَأرِيخ دِمشق: ٢/٢١٢ الطَّبعة الأولىٰ، و: ٤٢/٢٨٢، المعيَار والموَازنة: ٢٢٧، المنَاقب للخوَارزمي: ١١٦، نُظم دُرر السِّمطين: ١٠٢، الرِّياض النَّضرة: ٢/٢٢٨، حلية الأوليَاء: ١/٧١، الفِرْدَوْس بمأثور الخطَاب: ٥/٤٠٩ ح ٨٣١٧، بِشَارة المُصطفىٰ: ١٥٩، ذَخَائِر العُقبَىٰ: ١٠٠، منَاقب آل أبِي طالب: ١/٣٦٤، أمَالي الطُّوسي: ١٨١، شَرح الأَخبَار: ١/١٥١، روضَة الوَاعظِين: ٤٣٧، المَحَاسِن: ١/٢٩١، أُسد الغَابَة: ٤/٢٣.

(٢) أُنظر، كتَابه «اليَمِين واليَسَار»: ١٢٨ طَبْعَة سَنَة ١٩٧٢م. (مِنْهُ ﷺ).

جَادَ بِالْعَطِيَّةِ »[1].

(وَ ٱجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ). خَصص مِن وَقْتك سَاعَات لِلمَحَاوِيج، فإنَّ ذَلِكَ رَحْمَة مِن الله سَاقهَا إِلَيْك، وذِخْرٌ لَكَ فِي يَوْم الحِسَاب والجَزَاء (وَ تُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَ أَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَ شُرَطِكَ... إلخ). ٱفْتَح جَمِيع أبوَابك لِلَّذِين لاَ حَوْلَ لَهُم ولاَ قُوة إلّا بِالحَقّ والْعَدْل، ولاَ تَجْعَل بَيْنَكَ وبَيْنَهمْ حُجَاباً وحُرَاساً، لأنَّهُم أَقاع ذِئَاب عَلىٰ الْفُقَرَاءِ، والْمَسَاكِين (لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ). أي لاَ تَطْهَر مِن القَبَائِح والرَّذَائِل إلّا إذَا كَان الْقَوِيّ فِيها ضَعِيفاً حَتَّىٰ يُؤخذ الحَقّ مِنْهُ، والضَّعِيف قَوِياً حَتَّىٰ يُؤخذ الحَقّ لهُ. وبِكَلِمة ثَانِيَة لاَ خَير فِي أُمّة يَخَاف فِيها البَرِيئُون، ويأمن المُجرمُون.

(ثُمَّ ٱحْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَ الْعِيَّ... إلخ). لاَ تَسْتَوحِش مِن كَلِمَة قَاسِية تَسْمَعها مِن غَلِيظ جَاف، أو حَرَكة نَابِية تَرَاها مِن جَاهلٍ أرْعَن، فإنَّك فِي مَركز القُوَّة، وهُو فِي مَركَز الضَّعْف... هَذَا، إلىٰ أنَّ الخُلق الكَرِيم يُزِيد صَاحبه عِزّاً عِند الله والنَّاس (وَ أَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً) بِلا مَنٍّ وأذىٰ (وَ ٱمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَ إِعْذَارٍ) إذَا مَنَعت حَاجَة عَن سَائِلها لِسَببٍ، أو لآخرٍ فكُن لَطِيفاً، كَما تَكُون كَرِيماً فِي الْعَطَاء، وٱعْتَذر بِحُجَّة تُخَفف مِن وَطأَة المَنع.

حَاجَات النَّاس وَفَرَائِض الله... فِقْرَة ٢٢ ـ ٢٣:

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا: مِنْهَا إجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٣٨).

كُتَّابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ .

وَ أَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ . وَ آجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَ أَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ ، وَ إِنْ كَانَتْ كُلُّهَا للهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَ سَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَ لْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ للهِ دِينَكَ : إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً ، فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَ نَهَارِكَ ، وَ وَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ ذَٰلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَ لاٰ مَنْقُوصٍ ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ . وَ إِذَا قُمْتَ فِي صَلاٰتِكَ لِلنَّاسِ ، فَلاٰ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَ لاٰ مُضَيِّعاً فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَ لَهُ الْحَاجَةُ . وَ قَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَىٰ الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ ؟ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلاٰةِ أَضْعَفِهِمْ ، وَ كُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً »(٢٢) .

وَ أَمَّا بَعْدُ ، فَلاٰ تُطَوِّلَنَّ آحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ آحْتِجَابَ الْوُلاٰةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَ قِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ ، وَ الْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا آحْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ ، وَ يَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَ يَقْبُحُ الْحَسَنُ ، وَ يَحْسُنُ الْقَبِيحُ ، وَ يُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ . وَ إِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاٰ يَعْرِفُ مَا تَوَارَىٰ عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَ لَيْسَتْ عَلَىٰ الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ ، وَ إِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا آمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ ، فَفِيمَ آحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ ! أَوْ مُبْتَلىً بِالْمَنْعِ ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لاٰ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ(٢٣) .

اللُّغَة:

يَعْيَا: يَعْجَز. وصَدَرَ عَن الشَّيء: رَجَع، وإِلىٰ الشَّيء صَارَ، وصَدَرَ مِنْهُ الشَّيء: حَصَل وَحَدَث. وتَحَرَّجُ: مِن الحَرَج، وهُو الضِّيق. وأَجْزَلَ: أَعْظَم أو أَكْثَر. والشُّعْبَة: الطَّائِفَة. والسِّمَات: العَلاَمَات.

الإِعْرَاب:

أُمُورٌ مُبْتَدَأ، والْخَبَر مَحْذُوف أي هُنَاك أُمُورٌ، ومَا فِيهِ «مَا» مَوْصُول اسم إِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ وَ«فِيهِ» صِلَة المَوْصُول، وكَامِلاً حَال، وغَيْرَ مَثْلُومٍ صِفَة لِكَامِلٍ، وبَالِغاً حَال، وَمَا بَلَغَ مَفْعُول لِبَالِغ، وكَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ الكَاف بِمَعْنَىٰ مِثل صِفَة لِمَفْعُول مُطلق مَحذُوف أي صَلِّ صَلاَةً مِثل صَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ.

الْمَعْنَىٰ:

(ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا... صُدُورُ أَعْوَانِكَ). عَلَىٰ الْوَالِي مَسْؤُولِيَات وأَعْمَال هَامَة لاَ يُسوغ التَّهاون بِهَا، والرَّوغَان عَنْهَا، وَيَحتَاج إِنْجَازهَا إِلىٰ عَقلٍ وصَبرٍ، فَقَد يَكُون الْوَالِي فِي شُغلٍ بِأَمْرٍ مُهمّ، وقَبل إِنْجَازه يَأْتِيه مَا هُو أَهَم، وقَبل النَّظر فِيهِ يَرد عَلَيْهِ مِثله أو أَعْظَم، فَمَاذَا يَصْنَع؟ وهَل مِن سَبِيل إِلّا الصَّبر والرَّوية؟ ومِن الأُمُور الهَامَة الرَّسَائِل تَرد عَلىٰ الوَالِي مِن عُمَّالِهِ ونُوَابه فِي الأَقْطَار، وَلَوْ أُوكل أَمْرهَا إِلىٰ غَيْره كَالوُزَرَاءِ، والمُدِيرين لضَّاعت الحُقُوق، لأَنَّ بَعْضَهُم يَتَضَايق، وآخرهَا يَعْجَز، وثَالِث يَأْنَف وَيَتَأَفف، ورَابِع يُمَاطل ويُسَاوم... ولاَ سَبِيل إِلّا أَنْ يُبَاشر الْوَالِي بِنَفْسِه أو يَتْعَهد ويُشرِف بِيَقظَة واَهْتِمَام.

(وَ أَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ). لاَ تُرجِىء الْأُمُور، وَتَتوَانَ عَنْهَا وإلّا أفْدحَتك وترَاكَمت عَلَيْكَ، وَلْن تَجد زَمَاناً لِمُبَاشَرتها وإنْجَازها، وإنْ جَاءَتك مُجْتَمعة فأبدَأ بِالْأَهَم (فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ) مِن الأَعْمَالِ الّتِي تَفُوت بِفوَاته... وَقَد جَرْبتُ فَما وَجَدتُ حَلاً لِمشْكِلة الوَقت مِن التَّرتِيب والتَّنظِيم بِتوزِيع الأَعْمَال عَلىٰ السَّاعَات بِلا تَدَاخُل وتزَاحُم، وسَمْعتُ الْكَثِير يَعْتَذرُون عَن الإِهْمَال بِضِيق الوَقت، ويَلقُون عَلَيْهِ بِالمَسْئُولِيَة... والصَّحِيح أَنَّهُم يُسْيئُون ٱسْتعمَاله، ولاَ يُشعِرُون بِأَنَّـه يَـعْمل فِيهِمْ، ولاَ يَعْملُون فِيهِ.

(وَ أجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَ أَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ). والْمُرَاد بِالْأَقْسَام والْأَوْقَات الّتِي يَكُون الْعَمَل أَكْثَر ثوَاباً مِنْهُ فِي غَيْرِها، والْمَعْنَىٰ أَنَّ لِكُلِّ يَوْم من الأَيَّام أَعْمَاله الْخَاصَّة بِهِ، بَل لِكُلّ جُزء مِن اليَوْم عَمْل لاَ يَجُوز تَأْخِيره عَنْهُ كَالصَّلوَات الخَمْس، فإنَّ لِكُلِّ فَرِيضَة مِنْهَا وَقْتاً مُعيناً، وهَذَا الوَقت مِنْهُ مُوسَع ومِنْهُ مُضيق عَلىٰ التَّفصِيل المَذكُور فِي كُتب الفِقْه، وتَقدَّمَت الْإِشَارَة إِلىٰ أَوْقَات الصَّلاة[1]، والإِمَام يُوصِي بِأَدَاء الْفَرِيضَة فِي أَوَّل الوَقت، لأَنَّه أَفْضَل وأَكْثَر ثوَاباً، وفِي الحَدِيث: «لِكُلِّ صَلاَة وَقْتَان، وَأَولهُما أَفْضَلهُما، وأَحْبهُما إِلىٰ الله»[2].

(وَ إِنْ كَانَتْ كُلُّهَا للهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ، وَ سَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ). الصَّلاة،

---

(١) أنظر، ٱلرِّسَالَة: (٥٢)، أوْقَات الصَّلاة. (مِنْهُ).

(٢) أنظر، مَن لاَ يَحضرَه الْفَقِيه: ١/١٤٠ ح ٦٥١، ورُوي مُوداه فِي الكَافِي: ٣/٢٧٣ ح ١ و ٥، التَّهذِيب: ٢/٤٠ ح ١٢٥، فِقْه الرِّضا: ٧١، النّهَاية للطُّوسي: ٥٨، الْمُعْتَبر: ٢/٢٩، الإِسْتبصَار: ١/٢٤٤ ح ٨٧١، وَسَائِل الشّيعة: ٣/٣٧٣ ح ٢ و: ٤/١١٩ ح ٤.

وَالصِّيَام للهِ... وَأَيضاً إِغَاثَة الْمَلْهُوف للهِ، وكُلّ عَمَل يَنْفَع ولاَ يَضُرّ أَحداً فهُو للهِ... حَتَّىٰ السَّلْبُ بِكفّ الأَذَىٰ تَنَزُّهاً لاَ عَجزاً فهُو للهِ. وفِي الحَدِيث: «كُفَّ أذَاكَ عن النّاس، فإِنَّه صَدَقَة تَتصدَق بِها عَلىٰ نَفْسَكَ»[1]... «كَفُّ الأَذَىٰ عن النَّاس صَدَقَة»[2] ... «واللهِ لِرَسُول اللهِ ﷺ أَسرّ بِقَضَاء حَاجَة الْمُؤمِن إِذَا وَصَلت إِلَيْهِ مِن صَاحب الحَاجَة»[3].... وبِالنِّيَات يَدخُل أَهْل الجَنَّة إِلىٰ الجَنَّة، وأَهْل النَّار إِلىٰ النَّار، وبِهَا يُخَلَّدُون»[4].

مِنْ أَقْسَام الْحَقّ:

(وَ لْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ للهِ دِينَكَ... إلخ). لِلحَقِّ أَقْسَام تَخْتَلف تَبعاً لاِخْتِلاف الْمَعْنَىٰ الَّذي يَدُور عَلَيْهِ تَقْسِيم، فَالحَقّ بِاَعْتبَار إِضَافته إِلىٰ الله والعَبد ـ يَنْقَسم إِلىٰ ثَلاَثَة أَقْسَام:

الأَوَّل: مُتَمَحِّض للهِ وَحدَه كالْعِبَادَة، وإِلَيْهَا أشَار إِلَيْهَا الإِمَام بِقَوْله: (إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ ـ تَعَالَىٰ ـ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً).

---

(١) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ١٥٠/٥، كَنز العُمَّال: ٩٥٠/١٥ ح ٤٣٦٥١، سُبل الْهُدَىٰ والرّشَاد: ٢٨٨/٩، نوَادر الرّاوندي: ٣.

(٢) قَرِيب مِنْهُ فِي الكَافِي: ٤٨٨/٣، الْفَقِيه: ٤٧٢/١ ح ١٣٦٠، الوَسَائِل: ٢٦٩/٥ ح ٣.

(٣) أُنظر، الكَافِي: ١٩٥/٢ ح ١٠، وَسَائِل الشِّيعة: ٣٥٩/١٦ ح (٢١٧٥٨)، بِحَار الأَنْوَار: ٢٨/٧١ ح ٣٩٩، شَرح أُصول الكَافِي: ٨٠/٩ ح ١٠.

(٤) أُنظر، إِعَانة الطَّالبين: ١٥٩/٤، مَجْمَع الزَّوائد: ٣٩٨/١٠، كَنز العُمَّال: ٢٢٩/٢، فَتح البَاري: ٣٦٠/١١، كتَاب السُّنَّة لِابْن أَبِي عَاصم: ٣٩١، صَحِيح اَبن حبَّان: ٤١٠/١، التَّخويف مِن النَّار لِابْن رَجب الحَنْبَلي: ١٨٨، كَنز العُمَّال: ٥٠٥/١٤، تَفْسِير اَبن كَثِير: ٢٢٩/٢.

الثَّانِي: مُتَمَحِّض لِلعَبد كَحَقِّ الخَيَار فِي الرُّجُوع عَن عَقد البَيع ونَحوه لِسَببٍ مِن الأَسْبَاب المُوجِبَة.

الثَّالِث: فِيهِ الحَقَّان مَعاً كَسَرِقَة المَال، فإِنَّهَا تُوجب الحَد، وهُو مِن حَقِّ الله، وتُوجِب رَدّ المَسْرُوق إِلىٰ أَهْله عَيناً أو بَدلاً، وهُو حَقّ العَبد... ومِن هَذَا البَاب حَقّ الرَّعِيَّة عَلىٰ الرَّاعِيَ، فإِنَّه يُنْسَب إِلىٰ الله لأَنَّه هُو الَّذي أَوجَبه وأَمرَ بِه، ويُنْسَب إِلىٰ عِبَاده لأَنَّ فِيهِ خَيرهِم وصَلاَحهِم.

وبَعْد أَنْ أَوصىٰ الإِمَام عَامِله بِالْحِرْص عَلىٰ مَا اَفْتَرَضَه الله عَلَيْهِ لِعبَاده ـ أَمرَه أَنْ يُؤدي مَا عَلَيْهِ مِن الْحَقّ الَّذي هُو للهِ خَاصَّة، وَقَالَ:

(فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَ نَهَارِكَ... بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ). الوَاجِب مِن العِبَادَات عَلىٰ أَنوَاع:

مِنْهَا: بَدَنِي مَحّض كَالصَّلاَة والصِّيَام، وإِلَيْهَا أَشَار الإِمَام بِكَلِمَة «مِنْ بَدَنِكَ».

ومِنْهَا: مَالِي مَحّض كَالأَخْمَاس والزَّكوَات.

ومِنْهَا: مَا يَجْمَع بَيْنَ الأَمْرين كَالْحَجِّ، لأَنَّه أَعْمَال وبَذْل أَمْوَال، وَعَلىٰ المُكَلف أَنْ يُؤدي كُلّ وَاجب مِن هَذِه الثَّلاَثَة عَلىٰ وَجْهه، وبِكَامِل أَجزَائه وشُرُوطه مَهمَا بَلغَت، لأَنَّ الإِخْلاَل بِشيء مِنْهَا يَجْعَلها كَأَنْ لَمْ تَكُن، بَدَنِيَة كَانَتْ أَمْ مَالِيَة. وإِنَّمَا خَصَّ الإِمَام البَدَنِيَة بِالذِّكر لأَنَّ حَدِيثَه عَن الوُلاَةِ، والحُكَّام، وهُمْ فِي الغَالِب يَتكَاسَلُون عَن الصَّلاَة، أو يُسْرعُون بِهَا بِحُجَّة أَنَّ أَوقَاتهُم أَضْيَق مِن أَنْ تَتسع لهَا.. فَحَذَرهُم الإِمَام مِن ذَلِكَ.

وتَجدُر الإِشَارَة إِلىٰ أَنَّ كَثِير الأَشغَال يُفْكر بِهَا، وهُو فِي صَلاَته، ويَكثر لِذَلِكَ شَكّه وسَهوَة مَهمَا تَحفّظ واَحتَرس، ومَن ذَاق عَرف، ومَن عَرف وَصَف.

(وَ إِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ، فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً) بِتطويلها، وفِي الحَدِيث: «إِنَّ هَذَا الدِّين مَتِين، فَأوغِلوا فِيهِ بِرفق، فإِنَّ المُنْبَتّ لاَ أَرْضاً قَطَع، ولاَ ظَهْراً أَبْقىٰ»[1]. والمُنْبَتّ المُنْقَطع فِي سَفَرة (وَ لاَ مُضَيِّعاً) بِالخَلل والتَّقْصِير (فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ) المَرَض أو الشَّيخُوخَة (وَ لَهُ الْحَاجَةُ) الَّتي لاَ تَتَحمل التَّوانِي والتَّأجِيل (صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً)[2]. تَقَدَّم بِالحَرف الوَاحد سَابقاً[3].

(وَ أَمَّا بَعْدُ، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ... وَ يُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ). لَك أنْ تَحْتَجب عَن الرَّعِيَّة بَعْض الوَقت، لِرَاحتك أو إِنْجَاز مَا أَهْمَك. أَمَّا أنْ تَحْتَجب كُلّ الوَقت فهَذا كبرٌ مِنْك، وَسُوء خُلق، ودَاعِية لِلجَهل بِأحوَال الرَّعِيَّة، والاِعْتمَاد فِي أَخْبَارها عَلىٰ أَصْحَاب المَآرب والأَغْرَاض... وأيضاً الاِحْتِجَاب تَحقِير وتَنْفِير لأَهْل الرَّأي، والْفَضْل، والمرُوءَة، وتَعْظِيم لِخَدَمك وحجَابَك الَّذِين يَدْخلُون عَلَيْك سَاعَة يشَاؤون... ولَيْس مِن شَكّ أنَّ تَحقِير الْكَبِير وتَعْظِيم الصَّغِير هُو صَغَار واحتقَار لَكَ بِالذَات، بَل جَرِيمَة لاَ تُغْتَفر، لأنَّك عَاقَبت مَن لَمْ يُسيء إِلَيْك،

(١) أنظر، مُسْنَد أحمد: ١٩٨/٣ ح ١٣٠٧٤، مُسْنَد الشّهاب: ١٨٤/٢ ح ١١٤٦ و ١١٤٧، الأَحَادِيث المُخْتَارة: ١٢٠/٦ ح ٢١١٥، مَجْمَع الزَّوائِد: ٦٢/١، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبرىٰ: ١٨/٣ ح ٤٥٢٠ و ٤٥٢١، الزُّهد لاِبْن المُبارك: ٤٦٩/١ ح ١٣٣٤، الفِرْدَوْس بمأثُور الخِطَاب: ٢٣٥/١ ح ٩٠٠، فَتح البَاري: ٢٩٧/١١، التَّمهيد لاِبْن عبد البر: ١٩٥/١، صَفوة الصَّفوة: ٢٠٨/١، فَيض القَدير: ٥٤٤/٢، شُعب الأِيمان: ٤٠٢/٣ ح ٣٨٨٥ و ٣٨٨٦.

(٢) أُنظر، المَبسوط لِمُحَمَّد بن الحَسَن بن فَرقد الشَّيباني: ١٦١/١، طَبعة إِدَارة دَار القُرْآن والعلُوم الإِسْلاَمِيَّة، كرَاتشي، المُعْجَم الكَبير: ٥٦/٩ ح ٨٣٧٧ و ٨٣٨٠، البَيَان والتَّعرِيف: ٥٨/١ و: ٨٣/٢، حلية الأَولياء: ١٣٤/٨، الطَّبقات الكُبرىٰ: ٤٠/٧، الدّرَاية فِي تَخرِيج أحَادِيث الهِدَايَة: ١٦٩/١ ح ٢٠٤ و: ١٨٩/٢ ح ٨٦٧، نَصب الرَّاية: ٢٩/٢ و: ١٣٩/٤، مُسْنَد أَبِي عوَانة: ٤٢٠/١ ح ١٥٥٦.

(٣) أُنظر، الرِّسَالَة: (٥٢). (مِنْهُ ﷺ).

وأَغْضَبت مَن يُريد لَك الرِّضا ، وحُلت بَيْنَه وبَيْنَ حَاجَته ، وهُو يَتْلَهف عَلىٰ قَضَائها ... وهَل مِن شَيء أَكْثَر قُبْحَاً مِن ذَلِكَ ؟.

(وَ إِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاٰ يَعْرِفُ مَا تَوَارَىٰ عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ... إلخ). قَد يَكُون الْوَالِي مُحقاً فِي ٱحتجَابه ، ولَو بَعْض الْحَقّ ، ولَكنَّه فِي نَظر النَّاس بَشَرٌ ، ولَيْس بِإله حَتَّىٰ يَقولوا : سُبْحَانَهُ مَا ٱحتَجَب عَنا عَبَثاً ... بَل يَظنُون (وَ لَيْسَتْ عَلَىٰ الْحَقِّ سِمَاتٌ) ودَلاَئل ظَاهرة تُشِير إِلىٰ السَّبب المُوجب والمُبرر للاِحْتجَاب (تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ) فِي العُذر عَن الغِياب وَسَدّ البَاب.

(وَ إِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا ٱمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ ... إلخ). إنَّ الرَّجُل الطَّيِّب يَتْمَنىٰ أنْ يَكُون لهُ مكَان مِن الخَيْر عِند الله والنَّاس ، وَيَرىٰ خِدْمَة أي مَخلُوق نِعْمَة أَنْعمهَا الله عَلَيْهِ ... علىٰ العَكس مِن الرَّجُل القَلق المُتبرم بِذَوِي الحَاجَات ، ومِن البداهة أنَّ النَّاس يقبلُون عَلىٰ الأَوَّل ، لأنَّ المُورد العَذب كَثِير الزُّحَام ، ويَنفرُون مِن الثَّانِي تِلقَائياً لِغلظَته وجَفَائه . وعَلَيْهِ فَلا مُوجب لأنْ يَحتَجب الْوَالِي عَن الرَّعِيَّة سوَاء أَكَانَ سَخِياً ، أَمْ مُبْتَلىً بِالمَنْع.

(مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لاٰ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ... إلخ). أَصحَاب يَطلبُون مِنْك الحَقّ والعَدْل ، وأَنْت تَملك القُوَّة الكَافِيَة لإحقَاق الحَق وإنْصَاف المَظلُوم ، ولاَ حَرج عَلَيْكَ مِن وقُوف النَّاس بَيْنَ يَدِيك ، تَسْمَع لِلمَهُوف فَتُغِيثَه ، أو مَظْلُوم فَتَنْصِفه ... وهَذَا فَضل مِن الله سَاقه إِلَيْك ، فَٱشْكره بِخدمَه عِبَاده وعِيَاله ، وكُنْ لَهُم عَوناً ونَاصراً.

بِطَانَة الْوَالِي وَحَوَاشِيه...فِقْرَة ٢٤ ـ ٢٥:

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَ بِطَانَةً ، فِيهِمُ ٱسْتِئْثَارٌ وَ تَطَاوُلٌ ، وَ قِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ ،

فَٱحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ. وَ لاَ تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَ حَامَّتِكَ قَطِيعَةً، وَ لاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي ٱعْتِقَادِ عُقْدَةٍ، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ، فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَئُونَتَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَ عَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ.

وَ أَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَ الْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَ خَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَ ٱبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وَ إِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَ ٱعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَ رِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَ إِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ(٢٤).

وَ لاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَ للهِ فِيهِ رِضىً، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، وَ رَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وَ أَمْناً لِبِلاَدِكَ، وَ لَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ. فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَ ٱتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ. وَ إِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَ ٱرْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ، وَ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ. فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ ٱجْتِمَاعاً، مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَ تَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ. وَ قَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا ٱسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ؛ فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَ لاَ تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَ لاَ تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ. فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ. وَ قَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَ ذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَ حَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَىٰ مَنَعَتِهِ، وَ يَسْتَفِيضُونَ إِلَىٰ جِوَارِهِ؛

فَلاَ إِدْغَالَ وَ لاَ مُدَالَسَةَ وَ لاَ خِدَاعَ فِيهِ(٢٥).

اللُّغَة:

خَاصَّة الرَّجُل وبِطَانَته بِمَعْنَىٰ وَاحد. والتَّطَاوُل: التَّعدِي. وٱحْسِمْ: ٱقْطَع. والقَطِيعَة: مَا يُقطَع مِن أَرْض الْخَرَاج، والقُطْعَة ـ بضَم القَاف ـ البُقْعَة مِن الأَرْض، وبِكَسرها الحِصَة مِن الشَّيء. وَٱعْتِقَادِ عُـقْدَةٍ: ٱمْتلاَك ضَـيعَة أي الأَرْض ذَات الغَلَة. والمَغَبَّة: الْعَاقِبَة. والدَّعَة ـ بِفتح الدَّال ـ الرَّاحَة. والذِّمَّة: العَهْد. والجُنَّة: الوقَايَة. وٱسْتَوْبَلُوا: وَجَدُوه وَبِيلاً. وَلاَ تَخِيسَنَّ: لاَ تَنْكِثَنَّ. وَلاَ تَخْتِلَنَّ: لاَ تَغْدِرَنَّ. وأَفْضَاهُ: نَشَرَهُ وَأَفْشَاهُ. وَيَسْتَفِيضُونَ: يَلْجَأُون. والإِدْغَالَ: الإِفْسَاد.

الإِعْرَاب:

الْحَذَرَ نُصب عَلَىٰ الْمَصْدَر أي ٱحْذَر كُلّ الْحَذَر، وشَيْءٌ ٱسم لَيْسَ، وَمِنْ فَرَائِضِ اللهِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف حَالاً مُقَدماً مِن شَيْء، والنَّاس مُبْتَدَأ، وأَشَدُّ خَبَر، والجُملَة خَبَرَ لَيْسَ، وٱجْتِمَاعاً تَمْييز، ودُونَ ظَرف مُتَعَلِّق بِمَحذُوف حَالاً مِن ٱلْمُشْرِكِين.

الْمَعْنَىٰ:

(ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَ بِطَانَةً، فِيهِمُ ٱسْتِئْثَارٌ وَ تَطَاوُلٌ، وَ قِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ). لِلْحَاكِم أَذْنَاب وأَتْبَاع يَرون سُلطَانه سُلطَاناً لَهُم، فَيَشمَخُون وَيَتَغطرَسُون زَاعمِين بِأَنَّ لَهُم أَنْ يَصدرُوا الأَوَامر، وأَنَّ عَلَىٰ النَّاس أَنْ تَسْمَع وتُطِيع!... وإِذَا كَان لِلْحَاكِم شَخْصِية ضَعِيفَة تَغلبُوا عَلَىٰ أَمرِه، «وَلَكِنِّي آسَىٰ أَنْ

يَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ ٱلأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا، وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً»(١)، كما قَالَ الإِمَام، وملأوا قُلوب الرَّعِيَّة عَلَيْهِ حِقداً وكرَاهِيَة، وحَدَث لهُ ولَهُم مَا حَدث لعُثْمَانَ وبِطَانَته! والإِمَام يُحذِّر عَامِله مِن الَّذين يمتُّون إِلَيْهِ بِسَبب مِن الأَسْبَاب، ويُبَيِّنَ لهُ كَيف يَنْبَغي أنْ يُعامِلهُم ويُروضَهُم عَلىٰ الْعَدْل.

(فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ... إلخ). ٱقلَع أَسْبَاب الظُّلم والغَطْرَسَة فِي خَاصَّتك وبِطَانَتك، ٱقْلعهَا مِن الجذُور، وذَلِكَ بِأنْ تَتخذ مِنْهُم مُسْتشَاراً لَك، ولاَ تَسْند إِلَيْهِ أو أَحد أَنْصَاره أي مَنْصَب، ولاَ تَمْنَحه ضَيعَة، أو قَطِعَة أرْض يُسيء ٱستعمالها بِمَا يَضُرّ الآخرِين مِن المُزَارعِين والمُجَاورِين (فِي شِرْبٍ) أي فِي مَاء يَتْغَلب عَلَيْهِ ويَحتكِره لأرْضِه (أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ) كَشق طَرِيق زرَاعِية أو قَنَاة أو بِنَاء حَائِط يَدفَع عَن أَرْض المَنْطَقة.

(يَحْمِلُونَ مَئُونَتَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ). الضَّمِير فِي يَحْمِلُون، وفِي غَيْرِهِمْ يَعُود إِلىٰ الْمَزَارعِين الْمجَاورِين، وضَمِير مَئُونَته يَعُود إِلىٰ الْعَمَل الْمُشْتَرَك، والْمُرَاد بِالغَيْرِ الدَّوْلَة أو أي مُحْسِن، والْمَعْنَىٰ أنَّ الطَّرِيق الزِّراعِية أو غَيْرها مِن الْمَنَافِع الْمُشْتَرَكَة ـ قَامت الدَّوْلَة بِنفقَاتها عَلىٰ أنْ يَكُون النَّفع عَامَّاً لِلجَمِيع، وإذَا وَهبتَ أَيُّها الْوَالِي قِطعَة أرْض لخَاصّتك وبِطَانتك، وٱحتكَرُوا الْمَنَافِع الْعَامَّة لِمَصلَحتهم دُونَ الآخرِين (فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ) أي لِخَاصَّة الْوَالِي (دُونَكَ) أي دُونَ الْوَالِي الَّذي وَهَب الْأَرْض لِخَاصَّته وبِطَانَته.

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتَاب لهُ عليه السلام إِلىٰ أَهْل مِصْر مَع مَالِك الأَشْتَر لمَا وَلاَّهُ إِمَارتها رَقم« ٦٢».

الدِّيمُقْرَاطِيَّة عِنْدَ الإمَام:

(وَ أَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَ الْبَعِيدِ، وَ كُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً... إلخ). خُذ الحَقّ مِمَّنْ ثبت عَلَيْهِ كَائِناً مَن كَان، ولاَ تَأخذك بِهِ لَومَة لاَئِم، وإذَا أُوذِيت وَتَضَرَرت فِي سَبِيل الْحَقّ وَنُصرته فاْصْبر واْحتَسب عِند الله، فإنَّ للصَّابر المُحتَسب حُسن الْعَاقِبَة دُنياً وآخِرة (وَ إِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَ اَعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ). صَارح الرَّعِيَّة بِكُلِّ شَيء، ولاَ تخف عَنْهُم شَيْئاً، وإذَا اْتهمُوك وَظَنُوا بِكَ الظّنُون فَقَدِّم لَهُم الدَّلِيل عَلىٰ بَرَاءتك، والحُجَّة القَاطِعَة عَلىٰ أمَانتك... وبِهَذه الصَّرَاحَة المُخْلِصة تَطْمَئِنُّ اْلْقُلُوبُ إِلَيْك وتَثق بِك، وبِهَا أيضاً تُروض نَفْسك بِالتَّوَاضع لِلحَقّ والْعَدْل.

هَذَا هُو رَأي الإمَام فِي الحَاكِم، أنَّه أَجِير مُؤتَمن، وعَلَيْهِ أنْ يُخْلِص ويُتْقِن الْعَمَل، وإذَا اْتهَمه المُستَأجر بِالتَّقصِير ـ والمُسْتَأجر هُنا هُو الرَّعِيَّة ـ وَجَب عَلىٰ الرَّاعِي الأَجِير أنْ يُبرىء نَفْسه بِالحُجَّة والدَّلِيل. وفِي خُطْبَة لَهُ ﷺ، طَلَب الإِمَام مِن رَعِيَّته أنْ يُجابِهُوه بِقول الحَقّ، وَقَالَ لَهُم بصَرَاحة: «وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي اَسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا اَلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي. فَإِنَّهُ مَنِ اَسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ»[1]. أَبداً لاَ سُلطَان إلّا

(١) أُنظر، اَلْخُطْبَة: (٢١٦). (مِنهُ ﷺ).

لِلحَقِّ وَحده يَفرضه عَلىٰ الْكَبِيرِ، والْصَّغِيرِ، والْحَاكِمِ، والْمَحْكُوم.

هَذِه هِي سِيَاسَة عَلِيّ كَحَاكِم، يَتحمل كُلّ التَّبعَات الثِّقَال وغَيْر الثِّقَال، ولِلرَّعِيَّة أنْ تُحَاسب وتُعَارض، لأنَّ الْحَقّ لهَا تمَارسه وتَعْتَصم بِهِ سَاعة تَشَاء... ولاَ صُورة لِلدِّيمُقْرَاطِيَّة الّتي تحلم بِها الإِنْسَانِيَّة ـ إلاّ هَذِه الصُّورَة المُشرِقة، أمَّا الشِّعَارَات الزَّائِفة، والانْقلاَبَات يُدبرهَا عَدو الدِّين والوَطن، والانْتخَابَات تُنفق عَلَيْهَا الشِّركَات وحَمَلَة الأَسهُم، أمَّا هَذه فنَازِيَّة، وفَاشِيَّة لاَ حُرِّيَّة ودِيمُقْرَاطِيَّة.

الشَّرط الأَسَاسِي فِي الصُّلح:

(وَ لاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إلَيْه عَدُوُّك وَ لله فِيه رِضىً، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ). هَذَا القَيد: «لله فِيه رِضىً» هُو الشَّرط الأَسَاسِي فِي الصُّلح، لأنَّ السَّارِق، والقَاتِل كُلّيهمَا يُطالب بِالصُّلح والسَّلام عَلىٰ شَرطَه ومَنْطقه، وهُو أنْ يمَارس مِهنَته بِدعَة وأَمَان بِلا بَأس ووَجع رَأس... ومِثل هَذَا الشَّرط ـ فِي وضُوحَه وبَسَاطَته ـ شُرُوط الاِسْتعمَار الجَدِيد، وتَتَلخَص بوجُود حكُومة عَملِية، واقتصَاد مُوجَه لِمَصْلَحَته، وجِهَاز آدَاري وعَسْكَري تَابع لإرَادَاته... ويَكتَفِي الاِسْتعمَار الجَدِيد بِذَلِكَ، وَيَتنَازل عَن كُلّ شَيء سوَاه!. وَأَعْتَرف بِأنَّه لَوْلا مَعْرفَتي بِالاِسْتعمَار وَشُرُوطه مَا فَطنتُ، ولاَ فَهمتُ الهَدف الَّذي رَمىٰ إِلَيْهِ الإمَام بقَوْله: «لله فِيه رِضىً».

ومِن البَدَاهَة أنَّ الصُّلح الَّذي فِيهِ لله رِضىً هُو بِالذَّات الصُّلح الَّذي فِيهِ خَير لِلنَّاس وصَلاح، مِن ضمَان الأَمْن، والْحُرِّيَّة، وصِيَانَة الحُقُوق الّتي تَقطع مَادَّة النِّزَاع والْقِتَال، وتُرِيح الجُنُود مِن الْحَرْب، والشَّعب مِن الهَم والكُرب، كمَا أشَار الإِمَام:

(فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ ، وَ رَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَ أَمْناً لِبِلاَدِكَ) . ويَسْتَحِيل أنْ يَتَحَقق شَيء مِن ذَلِكَ إلّا كَان الصُّلح والسَّلاَم عَلىٰ أَسَاس مَرضَاة الله أي الحَقّ والْعَدْل .

(وَ لَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ .... إلخ) . لاَ تَثق وتَغْتَر بِعَدُوّك لِمُجَرد حصُول الوِفَاق بَيْنَكَ وبَيْنَه ، وإنْ كَانَتْ الشُّرُوط صَالِحَة ومَرضِية ، فإنَّ الظَّالِمْ يَتْقَرب الفُرص للثّوَاب والنَّكث بِالعَهد . فَٱجعَل عَينك عَلَيْهِ ، وٱحترَز مِمَّا يَجُوز وقُوعَه مِنْهُ ، وعَامِله بِالتَّحفظ شَأن الحَازم الحَكِيم .

(وَ إِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ... إلخ) . إذَا سَبق أنْ قَطعتَ عَلىٰ نَفْسك عَهداً فَقَد صَار وِثَاقه فِي عُنْقَك ، ولاَ مَنَاص لَكَ مِنْهُ إلّا بِالوَفَاء (وَ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ) . قَالَ رَسُول الله ﷺ : «مَن كَان يُؤْمِن بِالله واليَوْم الآخِر فَلْيَف إذَا وَعد»[١] . ومَعْنىٰ هَذَا أنَّ مَن ٱرتَبط مَع عَبد مِن عِبَاد الله ـ بِوَعد أو عَهْد فَقَد ٱرتَبط مَع الله بِالذَّات ، وكَمَا يَجب الجِهَاد بِالنَّفس مِن أجْل الوفَاء مَعْهُ تَعَالىٰ كذَلِكَ يَجب هَذَا الجِهَاد مِن أَجْل الوَفَاء مَع عِبَاد الله .

(فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ ٱجْتِمَاعاً ... إلخ) . الوَاجِبَات الإلٰهِيَة كَثِيرة ، وقَد تَهَاون النَّاس فِيها ، أو فِي أَكْثَرها إلّا الوَفَاء بِالْوَعْد ، فَقَد ٱتفقَت الْعُقُول قَدِيمها جَدِيدهَا عَلىٰ أنَّه مَحبُوب ومَطلُوب ، وأنَّ مَن يخلف بِهِ مَكرُوه ومَذمُوم ... ٱتفقَت الْعُقُول عَلىٰ ذَلِكَ مَع ٱختلاَفها وتَفاوتها فِي الاِستعدَاد والاِتجاه (وَ قَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ... إلخ) . أي أنَّ ٱلْمُشْرِكِين ،

(١) أنظر ، الكَافِي : ٢/٣٦٤ ح ٢ ، شَرح أُصول الكَافِي : ١٠/٢٤ ح ١ و ٢ ، وَسَائِل الشِّيعة : ١٢/٦٥ ح ١٢ ، تُحف العقُول : ٤٥ ، بِحَار الأنْوَار : ٧٤/١٤٩ ح ٧٧ .

وهُم دُونَ الْمُسْلِمِين لأنَّهم بِلا كتَاب وَدِين ـكَانُوا يَلتزمُون الوَفَاء بِالْوَعْد، ويرُون الخُلف بِهِ قَبِيحاً وَوبِيلاً، فكَيف بِالمُسْلِم الَّذي لهُ نَبِي وشَرِيعة؟ ثُمَّ أَكد الْإمَام عَلىٰ ٱلتزَام الصِّدْق والصَّرَاحة والوَفَاء حَتَّىٰ مَع الْأَعـدَاء، والإبْـتِعَاد عَـن الْكَـذِبِ، والْخِيَانَة، والْغَدْر، والخِدَاع لأنَّ كُلّ ذَلِكَ سَيء، وقَبِيح عَقلاً، وشَرعَاً، وإجْمَاعاً.

لاَ مُجْتَمع بِلا نِظَام:

لاَبُدَّ لِكُلِّ مُجْتَمع ـبَالِغَاً مَا بَلغ ـأنْ يَسِير عِلىٰ نِظَام يُقر بِهِ، ويُدَافع عَنْهُ، ويَخْضَع لِمَبَادِئِه بِمَحض إرَادته... وهَذَا النِّظَام هُو البَاعث عَلىٰ التَّقَارب والتَّعاون بَيْنَ أفرَاد الْمُجتَمع، والدِّرع الوَاقي مِن الْبَغْي، وهُو الَّذي أَنْشَأَ لِـلْإِنْسَان مَـدَنِيَته وعُـمرَانـه، ولَوْلاَه لسَادَت الفُوضىٰ، وعَاش الإِنْسَان فِي خُوف مُستَمر، وبِالخصُوص الضَّعِيف حَيْث يَصْبَح غذَاء لِلْقَوِيّ بِلا رَادع أو مُسْتَنكر... إذَا عَرفت هَذَا اتضَح لَك مَا أرَادَه الإِمَام بقَوْله:

(وَ قَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَ ذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَ حَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَىٰ مَنَعَتِهِ، وَ يَسْتَفِيضُونَ إِلَىٰ جِوَارِهِ؛ فَلاَ إِدْغَالَ وَ لاَ مُدَالَسَةَ وَ لاَ خِدَاعَ فِيهِ) إنَّ هَـذِه الْقِيَم الْإِنْسَانِيَّة قَد جَعْلها الله سُبْحَانَهُ أَمْنَاً، وأَمَـانَاً لِحَـيَاة النَّـاس، وكَـهْفَاً وضَمَانَاً لِحُقُوقهم وحُرِّيَّاتهم، فَهِيَ الرَّادِع لِلمُعْتَدي، والمَلجَأ لِلمُعْتَدىٰ عَلَيْهِ، وقَـد أَوجَب سُبْحَانَهُ صِيَانَة هَذِه المَبَادىء عَلىٰ كُلِّ قَادر وجُوباً كِفَائِياً، وهِي الْمُرَاد مِن الصِّرَاط فِي قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[1].

---

(١) ٱلْأَنعَام: ١٢٦.

إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ...فِقْرَة ٢٦:

وَ لاٰ تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ، وَ لاٰ تُعَوِّلَنَّ عَلَىٰ لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَ التَّوْثِقَةِ. وَ لاٰ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ، لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ، إِلَىٰ طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَىٰ ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَ فَضْلَ عَاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَ أَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ، لاٰ تَسْتَقْبِلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَ لاٰ آخِرَتَكَ.

إِيَّاكَ وَ الدِّمَاءَ وَ سَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ لِنِقْمَةٍ، وَ لاٰ أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَ لاٰ أَحْرَىٰ بِزَوَالِ نِعْمَةٍ، وَ انْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا. وَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلاٰ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَ يُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَ يَنْقُلُهُ. وَ لاٰ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَ لاٰ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ. وَ إِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَ أَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ؛ فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلاٰ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَىٰ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ(٢٦).

اللُّغَة:

الْمُرَاد بِالْعِلَل هُنا الأَسْبَاب المُوجِبَة الَّتِي يَتَشَبث بِهَا مُجرِي العَقْد لِلخَلاص مِنْهُ. ولَحْنِ الْقَوْل: مَا يقبَل التَّوجِيه. والتَّبِعَة: المَسْئُولِية. والطِّلْبَة ـ بِكَسر الطَّاء وَسكُون اللاَّم ـ المُطَالبَة. والقَوَدَ ـ بِفَتح الوَاو ـ القِصَاص. وأَفْرَطَ: جَاوز الحَد مِن جَانِب الزِّيَادَة.

الإِعْرَاب:

إِيَّاكَ مَفْعُول لِفعل مَحذُوف لاَ يَجُوز إِظهَاره، والتَّقدِير أُحَذِّرُكَ، ولمَّا حُذف الفِعْل

ٱنفصَل الضَّمِير، وقَدّر ٱبن هُشام فِي «أوضَح المسَالِك» ـ المَحذُوف بمَا هُـو أَطـوَل وأشْكَل[1].

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لاٰ تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ) إذَا أَجْرِيت عَقْداً مِن أي نَوْع كَـان، فٱخْـتَر لِلْإِيجَاب والْقَبُول أَلفَاظاً وَاضِحَة فِي مَعْنَاها، صَرِيحَة فِي دَلاَلَتِهَا، يُفْهَم مِـنْهَا أَهْـل الْعُرْف إنَّك قَصَدت الظَّاهِر، وأَلْزَمتَ بِهِ نَفْسك، وغَرَضُ الْإِمَام مِن هَذِه الوَصِـيَّة الاِبْتِعَاد عَن أَسْبَاب النِّزَاع والجِدَال (وَ لاٰ تُعَوِّلَنَّ عَلَىٰ لَحْنِ قَوْلٍ بَـعْدَ التَّـأْكِـيدِ وَ التَّوْثِقَةِ) إذَا أَكْدَت قَوْلك بِيَمِين ومَا أَشْبَه ـ فَلاَ تَعْدل عَنْهُ مُتَذَرعاً بِالتَّورِية وإِضْمَار غَيْر مَا أَظْهَرت، فإِنَّ هَذَا رِيَاء ونِفَاق، ومَن ٱدعَاه فِي الْمُعَاملاَت تُرد عَلَيْهِ دَعوَاه، لأَنَّ الظّوَاهر العُرفِية حُجَّة شَرعِيَة، تُلغِي ٱحتَمَال الخِـلاَف، أو تُـلغي أَثـرَه إلّا فِي الْحُدُود، لِأَنَّهَا تَسْقَط بِالشُّبهَات، لِـقول الرَّسُـول الْأَعْـظم ﷺ: «ٱدْرَأوا الْحُـدُود بِالشُّبهَات مَا ٱستَطَعتُم... فإنَّ الْإِمَام يُخْـطىء فِي الْـعَفْو خَـير مِـن أنْ يُخْـطىء فِي الْعُقُوبَة»[2].

---

(١) أنظر، أوضَح المسَالِك، (مِنْهُ ﷺ). تَفسِير مَجْمَع الْبَيَان: ١/٦٢، مَعَانِي الْقُرْآن: ١/١٦٣، تَـفْسِير جـوَامـع الجَـامِع: ١/٥٥، الإِنْـصَاف فِي مسَـائل الخِلاَف لِلْأَنْبَاري: ٢/٦٩٥، شَرح ٱبـن عَـقيل: ١/٤٨٥.

(٢) أنظر، المبسوط للسَّرخسي: ٧/٩٨، مسالك الأَفْهَام: ١٤/٣٩١، الخِلاَف: ٢/١٤٦، الْفَقِيه: ٤/٧٤، سُنَن ٱبن مَاجه: ٢/٨٥٠ ح ٢٥٤٥، سُنَن التِّرمِذي: ٢/٤٣٩ ح ١٧٤٧ و: ٤/٢٥ ح ١٤٢٤، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٧/٣٦٠ و: ٨/٢٣٨ و: ١٠/٢٥٠، الْمُستَدرَك لِلحَاكِم: ٤/٣٨٤، كَـنز الْـعُمَّال: ٥/٣٠٥ ح ١٢٩٧١، الْمَجْمُوع: ٢٠/٦٩، مَجْمَع الزَّوائد: ١٠/٢٩٥، شَرح الزَّرقاني: ٤/٢٣٦ ح ١٥، الْمُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبة: ⇔

(وَ لاَ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ ، لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ ، إِلَىٰ طَلَبِ ٱنْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) . ٱصْدَع بِالْحَقّ ولاَ تنْفر مِنْهُ ، وإنْ كَان مُرّاً ، فإنَّ الاِسْتِهَانة بِهِ أَسوأ مَغَبَّة ، وأَشَد تَنْكِيلاً (وَ أَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ) . ضَمِير «فِيهِ» يَعود إِلىٰ ضِيق الأَمْر ، والْمَعْنَىٰ لاَ مَفرّ لَك مِن العقَاب إنْ ٱستَهنت بِالْحَقِّ سوَاء ضَاق عَلَيْكَ أَمْ ٱتسع ، كَيف ؟ وإِلىٰ أَين المَفرّ وَالإله الطَّالب !.

(لاَ تَسْتَقْبِلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَ لاَ آخِرَتَكَ) ضَمِير «فِيهَا» يَعود إِلىٰ طِلْبَةٌ ، أي أَنَّ الله سُبْحَانَهُ يَسألك عَن الْحَقّ ، ويَأخذك بِهِ ، ولاَ يَقِيلك مِن العَذَاب عَلىٰ مُخَالفة الْحَقّ وإهْمَاله لاَ فِي الدُّنْيَا ولاَ فِي الآخِرَةِ ، فَالأَوْلَىٰ بِكَ ـ إِذَنْ ـ أَنْ تَصدَع بِالْحَقِّ ، وتَصبر بِشجَاعَة عَلىٰ طَاعتَه مَهما كَانَتْ الظّرُوف والنَّتائج ، وفِي بَعْض النُّسخ فَلا تَستَقبل بِالبَاء لاَ بِاليَاء ، وهُو خَطأ .

(إِيَّاكَ وَ الدِّمَاءَ وَ سَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ لِنِقْمَةٍ ... إلخ) . لَيْسَ هَذَا مُجرد نَهي وبيَان لِحُكْم الْقَتْل عَن عمدٍ لأَنَّ تَحرِيمه ثَابت ومَعْرُوف بِمَنطق ٱلْحيَاة

⇐ ٥١١/٥ ح ٢٨٤٩٣، فَتح البَاري: ٢٦٢/١٢، عَون المعبُود: ٦٥/١٢، تُحفَة الأَحوَذي: ٥٧٣/٤ و ٥٧٤، فَيض القَدِير: ٢٢٧/١ و: ٤٥٣/٦، حلية الأَولياء: ١٠/٩، سير أَعلام النُّبلاء: ٤٠/٨، تَلخِيص الحَبِير: ٥٦/٤ ح ١٧٥٥، كَشف الخفَاء: ٧٣/١ ح ١٦٦، الدّرَاية في تَخرِيج أحَادِيث الهِدَايَة: ٩٤/٢ ح ٦٤٠ و ٦٦٥، التَّحقِيق فِي أحَادِيث الخِلاَف: ٣٠٩/٢، نَصب الرَّاية: ٣٣٣/٣ ح ١، سُبل السَّلاَم: ١٥/٤، المُحلىٰ: ٢٥٣/٨ و: ٤٢٨/٩ و: ١١٨/١١ و١٥٣، كتَاب الأُمّ: ٢٥٢/٦، المُدونَة الكُبْرَىٰ: ٢٣٦/١٦، بدَاية المُجْتَهِد: ٢٩٧/٢ و ٣٢٤، نَيل الأَوطَار: ٢٦٨/٧، الإحكَام لإبن حَزم: ٤٥٤/٧، تَفسِير القُرطُبي: ٢٩٨/١٣، تَيسِير الوصُول: ٢٠/٢، جَامع مسَانِيد أبِي حَنيفة: ٢١٤/٢، شَرح مُسْنَد أبِي حَنِيفة: ١٨٦، الجَامِع الصَّغِير: ٥٢/١ ح ٣١٣، مشكَاة المَصَابِيح: ٣٠٣، تَأرِيخ دِمشق: ١٩٤/٦٥، فِقه السُّنَّة: ٣٦٠/٢، سُنن الدَّار قُطني: ٦٨/٣.

والْفِطْرَة، ويَسْتَوي فِي مَعْرِفَته العَالِم والجَاهِل، المُؤْمِن والْكَافِر، ولاَ يَحتَاج بَعد هَذَا إلىٰ تَوضِيح وبيَان... أمَّا النّصُوص علَىٰ تَحرِيمَه مِن السَّماء وأهْل الأَرْض فَهِيَ ٱنعكَاس وتَعبِير عمَّا هُو كَائِن بِالفِعْل، لاَ تَوجِيهاً إلىٰ مَا يَنْبَغي أنْ يَكُون.

وَيَجوز الْقَتْل لِحِمَايَة أرْوَاح النَّاس ومَصَالحهم أي أنَّ مَنطق ٱلْحَيَاة الَّذي حَرّم الْقَتْل هُو بِالذَات يُسوّغ قَتْل مَن ٱعتدىٰ عَلَىٰ ٱلْحَيَاة، صَوناً لَهَا وحِرصاً عَلَيْهَا: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]. وبِكَلام آخر لاَ يَجوز قَتْل أَحد مِن النَّاس إلّا بِحَقٍّ وعَدل، وذَلِكَ بِأنْ يُبَاشر الجَاني بِمِلء أرَادَته السَّبب المُوجب لِقَتله بِحَيث يَصدق عَلَيْهِ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

وَلاَ شَيء أَبْغَض إلىٰ الإِمَام مِن سَفك الدِّمَاء إلّا لِضَرُورَة قصوىٰ، وهِي ٱسْتعمَال الْعُنْف لِلْقَضَاء عَلىٰ الْعُنْف، ومِن هُنا حَذَر الإِمَام عَامِله أنْ يَأخذ الجَانِي بِعُقُوبَة القَتْل إلّا بَعد تَقدِير الجنَايَة بِمِيزَان الْعَدْل، وإِنَّهَا تَستُوجب الْقَتْل حَقناً لِلدِّمَاء، وصِيَانَة لِلْأَموَال، وتَحقِيقاً لِلأمن والاِسْتقرَار، وقَوْله: «بِغَيْرِ حِلِّهَا» يَحمل كُلّ الشُّرُوط الّتي تُبَرر الْقَتْل وَتوجِبه.

(وَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). لَيْسَ فِي حِكْمَة الله غَداً قَضَاء مُعَجل، وآخر مُؤجل ولاَ مُضَيقاً ومُوَسعاً... كَلا، إِنّه تَعَالىٰ يَكشف الخَلائِق وأَعْمَالهم ويَحكُم عَلَيْهَا كَلَمح الْبَصَر:

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٧٩.

(٢) ٱلنَّحْلِ: ٣٣.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1]، والحُكْم أيضاً، وعَلَيْهِ يَكُون مُرَاد الإِمَام بِقَوْله: «وَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ» مُجَرد الإِشَارَة إِلىٰ الاهْتِمَام بِالدِّمَاء واحترَامها، وإنَّ سَفْكَها مِن أَكْبَر الكَبَائِر، ومِثله الحَدِيث القَائِل: «أَوَّل مَا ينْظر (يُحَاسِب الله فِيهِ) مِن عَمل العَبد يَوْم الْقِيَامَة الصَّلاَة؛ فإنْ صَلُحَت صَلُح سَائِر عَمَله، وإنْ فَسَدت فَسد سَائِر عَمَله»[2].

لِلحَقِّ سِلاحٌ لاَ تَرَاهُ الْعُيُون:

(فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ). لِلوصُول إِلىٰ الحُكْم أَسْبَاب كَثِيرَة:

مِنْهَا: الورَاثَة أو النَّص بوِلاَيَة الْعَهْد.

وَمِنْهَا: الاِنْتخَاب.

وَمِنْهَا: الثَّورَة وقُوَّة السِّلاح.

وَمِنْهَا: الضّغوط والمُغريَات والتَّأثِير عَلىٰ الآرَاء والأفْكَار بِأسَالِيب تَعرفها وتُمارسها ٱلْأَحْزَاب، والشّركَات، والمُنظمَات الإِقْتصَادية.

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ٤.

(٢) أنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٢/٢٦٩ ح ٤١٣، المُسْتَدرَك لِلحَاكِم: ١/٣٩٤، الأَحَادِيث المُختَارة: ٧/١٤٥ ح ٢٥٧٨، مَجْمَع الزَّوائد: ١/٢٩٢، سُنَن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ: ٢/٣٨٧ ح ٣٨١٦، صَحِيح أبن مَاجه: ١/٤٥٨ ح ١٤٢٥، المُصَنَّف لِابْن أبي شَيبة: ٧/٢٦٢ ح ٣٥٩٠٤ و ٣٥٩٦٨، المُعْجَم الأوسَط: ٢/٢٤٠ ح ١٨٥٩، مُسْنَد أَحمد: ٤/١٠٣، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ١/٣٢٣ ح ٢٤٦٨، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٧/٥٦ ح ٣٩٧٦، الزُّهد لِابْن المُبارك: ١/٣٢٠ ح ٩١٥، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ١/١٥٠ ح ٥٥٢، تَعظِيم قَدر الصَّلاَة: ١/٢٠٨ ح ١٧٨ و ١٨٣، شَرح الزَّرقاني: ١/٥٠١، تُحفَة الأَحْوَذي: ٢/٣٨٣، تَنوِير الحوَالك: ١/١٤٤ ح ٤١٨، فَيض القَدِير: ٣/٨٧.

أمَّا رِسُوخ الْحُكْم وٱستمرَاره، وهَنَاؤه، وٱزْدهَاره فَلَه سَبَب وَاحد فَقط لاَ غَيْر، وهُو رِضىٰ الرَّعِيَّة عَن الرَّاعِيّ، والمَحْكُومِين عَن الْحَاكِم، ومِن البَداهة أنَّهُم لاَ يَرضَخُون عَن رِضىٰ وَطِّيب نَفْس إلاّ لِمَن يَشعر بِآلامِهم، ويَجتَهد فِي حَلِّ مشَاكِلهم، ويَحرص عَلىٰ سعَادتهم، وحُرِّيَّتهم... وأرَاد هِتْلَر أنْ يُسيطر بِالذَّبحِ، والنَّحرِ، فٱنْتَحر، وهَذَا مَصير كُلّ حَاكِم يُرتب حسَابَاته عَلىٰ النَّارِ، وٱلْحَدِيدِ، والسِّجنِ، والتَّشرِيد. كُلّ هَذِه الْمَعَانِي يَنْطَوي عَلَيْهَا قَول الإِمَام: (فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ ـ أي يُضْعِف السُّلْطَانُ ـ وَ يُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَ يَنْقُلُهُ).

وَقَد يَتصَرف الطَّاغِية بمَا يَهوىٰ وَاثِقاً، مُستَصغِراً قوّة الْحَقّ وشَأنه... ولكنَّ الْحَقّ يَملك سِلاحاً لاَ تَرَاهُ الْعُيُون، والشُّعُوب المَغْلُوبَة تُجدّل مِن قِيُودهَا مَا تُقَاتِل بِهِ ـكَمَا قِيل ـبَل تُحقق ذَلِكَ بِالفِعْل، ورَآه كُلّ النَّاس فِي فِيتْنَام الّتِي رَفَضَت أنْ تَنْحَنِي لأعْنَف وأشْرَس وَحشِية عَرفها التَّأرِيخ كُلّه، وتَضِيق لُغَات الإِنْسَانِيَّة مُجْتَمِعة أنْ تُتَرجِم عَن بَشَاعتهَا وَفَظَاعتهَا... ألاّ يَدل صمُود فِيتْنَام عَلىٰ أنَّ القُوَّة لِلحَقِّ لاَ لطَائِرَات «ب ٥٢» الأمرِيكِية، وإنَّ الإِيمَان بِالْحَقّ والاِعْتصَام بِهِ حَتَّىٰ النَّفس الأخِير ـيَتفَوق عَلىٰ التَّفجيرَات النَّوويَة، والصَّوَارِيخ العَابِرة للقَارَات؟.

(وَ لاَ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَ لاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ). الْقَتْل مِنْهُ عَمْد، ومِنْهُ خَطأ مَحْض، ومِنْهُ شُبه عَمْد أو شُبه خَطأ، عَبّر بمَا شِئت، وحَدَد الْفُقَهَاء العَمْد بِقَصد الْقَتْل مُنذ البدَايَة، ويُعَبَّر عَنْهُ بِالتَّصمِيم عَلىٰ الْقَتْل، أو قَصْد الفِعْل المُؤدي عَادَةً إلىٰ القَتْل، وإنْ لَمْ يَكُن مَقصُوداً بِالذَات. وهَذَا النَّوْع مِن الْقَتْل يوجب ٱلقِصَاص إلّا أنْ يَعفو أَوْلِيَاء الْمَقْتُول. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ

قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(١).

(وَ إِنِ ٱبْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَ أَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ). بَعْد الْإِشَارَة إِلىٰ قَتْل العَمْد المُوجب لِلقِصَاص أشَار إِلىٰ قَتْل المُوجب لِلدِّية، قَسّمه الْفُقَهَاء إِلىٰ قِسمين: خَطأ مَحْض، وهُو مَا كَان فِيهِ الفَاعِل مُخطِئاً فِي قَصده وفِعله، كَمَا إذَا رَمىٰ حَيوَاناً فَأصَاب إنْسَاناً، وشُبه الخَطَأ كَمَا لَو ضَرَبه بمَا لاَ يوجِب الْقَتْل عَادَة، وبِلا قَصد الْقَتْل فَمَات ـ كِلا هَذِين يوجِب الدِّية دُونَ ٱلْقِصَاص، وإِلىٰ هَـذَا أشَار الْإِمَام بقَوْله: (أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَىٰ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ) وهُو الدِّيَة. التَّفصِيل فِي كُتب الفِقْه(٢).

وتُحسن الْإِشَارَة إِلىٰ أَنَّ الحُقُوقِين يَبْحثُون فِي قَتْل الخَطَأ عَن السَّبب المُوجِب لِلمَوْت، وهَل كَان فِعل الجَانِي سَبباً تَاماً لهُ أو أنَّه جُزء مِن السَّبب ومُتَمم لهُ؟ وهَل كَان المَجني عَلَيْهِ مُشرفاً عَلىٰ الْمَوْت لِدَاءٍ مُميت، والجَانِي عَجّل وأَجْهَز؟ وفُقْهَاء الْمُسْلِمِين يَهملُون ذَلِكَ تَبِعاً لِلنَّص الَّذي أَطلَق الدِّية مِن هَذِه القِيُود.

مِن شُرُوط الْقِيَادَة.. فِقْرَة ٢٧:

وَ إِيَّاكَ وَ الْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَ الثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَ حُبَّ الْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ٤٥.

(٢) أنظر، عَلىٰ سَبِيل المِثال، فِقْه الرِّضا: ٢٦٣، الأُمّ: ٦/٢٤، المُقنع للصَّدوق: ٤٠٣، المَجمُوع: ١٨/٣٩٧، المُقْنعة للمفيد: ٧٣٧، مُغني المُحتاج: ٤/٥٤، النّهاية: ٧٥٣، حواشي الشَّرواني: ٨/٣٨٨، الخِلاَف: ٦/٢٨٩، المُدونَة الكُبرىٰ: ٦/٣٣٦، المُهذب: ٢/١٦٣، الثَّمر الدَّاني: ٥٨٣، شَرائع الإِسْلام: ٣/٦٣٤، المَبسوط للسَّرخسي: ٣٠/٤٩، قوَاعد الأَحْكَام: ٣/٦٤٨، البَحر الرَّائق: ٩/١٢٤، مُختلف الشِّيعة: ٩/٢٧٨، المُحلىٰ: ١١/٢، نَيل الأوطَار: ٦/١٩٤.

مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وَ إِيَّاكَ وَ الْمَنَّ عَلَىٰ رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ. فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَ التَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَ الْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَ النَّاسِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

وَ إِيَّاكَ وَ الْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا ٱسْتَوْضَحَتْ. فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَ أَوْقِعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْقِعَهُ.

وَ إِيَّاكَ وَ الْإِسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَ التَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَىٰ بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ. وَ عَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَ يُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ. اَمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَ سَوْرَةَ حَدِّكَ، وَ سَطْوَةَ يَدِكَ، وَ غَرْبَ لِسَانِكَ، وَ ٱحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَ تَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّىٰ يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الْإِخْتِيَارَ: وَ لَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّىٰ تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَىٰ رَبِّكَ[٢٧].

اللُّغَة:

التَّزَيُّدَ: الزِّيَادَة عَلَىٰ الْحَقِيقَة. ومَنَّ عَلَيْهِ: عَدَّد مَا فَعلهُ لَهُ. والتَّسَقُّطَ: التَّهاون. واللَّجَاجَةَ: التَّمادِي فِي عِنَاد. والإِسْتِئْثَار: الاِسْتِبْدَاد. والتَّغَابِيَ: التَّجَاهل. والحَمِيَّةَ:

(١) ٱلصَّفّ: ٣.

الأْنَفِة . والسَّوْرَةَ : الحِدَة . وَغَرْبَ اللِّسَان : حَدَّه . وَبَادِرَةِ اللِّسَان : فَلتَاتَه .

الإِعْرَاب:

مَقْتاً تَمْيِيز ، والمَصْدَر مِن أَن تَقُولُواْ فَاعِل كَبُرَ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ «مَا» زَائِدَة .

الْمَعْنَىٰ:

كُلّ مَا فِي مَقْطَع تَقَدَّم أَكْثَر مِن مَرَّة ، ولِذَا نُوجز مَا أَمْكَن (وَ إِيَّاكَ وَ الإِعْجَاب بِنَفْسِكَ ، وَ الثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَ حُبَّ الإِطْرَاءِ... إلخ). تَعوّذ مِن نَفسِك كَمَا تَتعوّذ مِن الشَّيْطَان ، ومَتىٰ أَعْجَبك شَيء مِنْهَا فٱعْلم إنَّكَ وَقَعتَ فِي حَبائِله... ومَن أَظْهَر فَضله لِلنَّاس مَقَتُوه وذَمُّوه ، كَان لهُ أَهلاً (وَ إِيَّاكَ وَ الْمَنَّ عَلَىٰ رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ... إلخ). إذَا فَعلت شَيْئاً مِن الخَيْرَ عَلِم بِهِ الجَمِيع ، وعَادت إِلَيْك ثِمَاره... وإذَنْ فَعَلاَم الإعلاَن والتَّبَجُح ، والمَنّ ؟ . إنَّ المَنَّ سَيِّئَة لاَ تَنْفَع مَعْهُ حَسَنَة ، وإنْ ٱضطَرَرت ودَعَتك الحَاجَة إِلىٰ التَّنوِيه بِمَا فَعلت فَقُل الحَقّ ولاَ تَزد عَلَيْهِ شَيْئاً ، لأَنَّ الزِّيَادَة الكَاذِبَة تُفسد مَا أَصْلَحت ، وتَهْدم مَا بَنِيت .

(وَ إِيَّاكَ وَ الْعَجَلَةَ بِالأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوِ التَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا... إلخ). لاَ تَعْجَل فِيمَا لاَ تَخَاف عَلَيْهِ الفَوت ، ولاَ تَتوَان فِيمَا يَفُوتك أَخْذَه إنْ تَوَانِيت (أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنكَّرَتْ) ضَمِير «فِيهَا» يَعود إِلىٰ الأُمُور ، وكَذَلِكَ الضَّمِير المُستَتر فِي تَنكَّرَتْ ، والمُرَاد بِتَنكَّرَتْ خَفِيتْ بِدَلِيل قَوْله بِلا فَاصل (أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا ٱسْتَوْضَحَتْ) والمَعْنَىٰ لاَ تَتَمَاد فِي طَلَب مَا تَجْهَل عَاقِبَته ، ولاَ تَتوَان عَمَّا تَعلَم مَنْفَعتَه (وَإِيَّاكَ وَ الإِسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ) . أي سَواء... عَلىٰ الحَاكِم أَنْ لاَ يَرىٰ نَفْسَه

سَيِّداً، والنَّاس عَبِيداً، وأنْ يُوفر لَهُم مَا يَحتَاجُون إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهم، ويُسَاوي نَفْسَه وأهْلَه بِأضْعَفهم، كَمَا قَالَ الإِمَام: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[1]. فإنْ اتخذ لِنفسه شَيْئاً دُونَ الرَّعِيَّة فَهُوَ طَاغِيَة، وعَدوّ للهِ ولِلإِنْسَانِيَّة.

(وَ التَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَىٰ بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ.... لِلْمَظْلُومِ) الْمُرَاد بـ«عَمَّا تُعْنَىٰ بِهِ» عَمَّا أَنْتَ مَسْئُول عَنْهُ أَمَام الله والنَّاس، والْمَعْنَىٰ إنْ حَدَثت أيَّة مَظْلَمَة مِن موظف أو غَيْره مِن الرَّعِيَّة، وعَلِمتَ بِهَا وتَجاهَلت فَأَنْتَ المَسْئُول عَنْهَا، والمَأْخُوذ بِها، والمُفْتَضح مِن أَجْلها دُنيا وآخِرة (أَمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ) دَع الشّمُوخ والتَّعالِي عَلَىٰ النَّاس لاَ لِشَيء إلّا لأنَّك وَالِي (وَ سَوْرَةَ حَدِّكَ) أملك نَفْسك عِند الغَضَب (وَ سَطْوَةَ يَدِكَ) كُفهَا عَن الأَذَىٰ (وَ غَرْبَ لِسَانِكَ) لاَ تُطلِقَه يَميناً وَشِمَالاً عَلَىٰ غَيْر هُدىٰ (حَتَّىٰ يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الإِخْتِيَارَ... إلخ). اهدأ بِلا حرَاك عِند الغَضب... ولَو انْدفعت مَعْهُ لِتَغلَّب الهَوَىٰ والجَهْل عَلىٰ عَقْلك، وعَاقَبتَ مَن لاَ ذَنب لهُ، وتَكَلمتَ بمَا يُشِين، وتَجاوزتَ الحُدُود، وأَمْكَنت عَدُوّك مِن نَفسِك، وتَذكّر وقُوفك بَيْنَ يَدي الله لِلْحِسَابِ والجَزَاء.

الْقُدْوَة الصَّالِحَة...فِقْرَة ٢٨:

وَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَىٰ لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا ـ ﷺ ـ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطْبَة (٢٠٩). (مِنْهُ ﵀).

عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَ تَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي ٱتِّبَاعِ مَا عَـهِدْتُ إِلَـيْكَ فِـي عَـهْدِي هَـذَا، وَ ٱسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَىٰ هَوَاهَا. وَ أَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ إِعْـطَاءِ كُـلِّ رَغْـبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَ إِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَ إِلَىٰ خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ، وَ جَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ، وَ تَمَامِ النِّعْمَةِ، وَ تَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ، وَ أَنْ يَخْتِمَ لِي وَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ وَ الشَّهَادَةِ، ﴿فَإِنَّا لِلهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. وَ السَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ـ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَ سَلَّمَ تَسْـلِيماً كَثِيراً، وَ السَّلَامُ(٢٨).

اللُّغَة:

يُطْلَق الْأَثَر عَلىٰ الحَدِيثِ، والْعَادَةِ وبقَايَا السَّلف. وَٱسْتَوْثَقْتُ عَـلَيْهِ: أَخَـذتَ الحُجَّة عَلَيْهِ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ: مِن المُضَاعَفَة لاَ مِن الضَّعْف.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ تَتَذَكَّرَ خَبَر الْوَاجِبُ، والْمَصْدَر مِن أَنْ يُوَفِّقَنِي مَفْعُول أَسْأَلُ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَىٰ لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ... إلخ). بَعْد أَنْ كَتَب الْإِمَام لِعَامِله هَذِه العَهْد الَّذي يَصلُح دِستُوراً لِكُلِّ حَاكِم فِي كُلِّ عَـصر ـ أَمَره أَنْ يحرص عَلىٰ الْعَمَل بِهِ، وبِكِتَاب الله وسُنَّة نَبِيِّه، وبِكُـلِّ خَـبَر وأثَـر يَـنْفَع

النَّاس، وأنْ يَسلِك نَهج الصَّالحِين مِمَّنْ مَضىٰ وبَقي، فإنَّ الاقْتداء بِالحَقّ والخَيْر مَطلُوب ومَرغُوب، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].(وَ ٱسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَىٰ هَوَاهَا). كَتبتُ لَكَ هَذَا العَهْد، وأَوضَحتُ لَكَ فِيهِ مَا يُطْلَب مِنْك عَمله، لِيكُون حُجّة عَلَيْكَ، وعُذراً لِي عِند الله تَعالىٰ.

(وَ أَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ... إلخ).

خَتَمَ الإِمَام كَلَامه بِالابْتهَال إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وسَأَلهُ بِرَحْمَتِه الّتي وَسِعَت كُلّ شَيء، وقُدرَته عَلىٰ كُلّ خَير أنْ يوفقَه لِلقيَام بِحُقُوقه تَعَالىٰ وحُقُوق عِبَاده، ويَكُون مَحْمُوداً عِندَه وعِندهُم، وأنْ يَخْتم حَيَاته بِالشَّهادَة فِي سَبِيل الله ومَرضَاته، وَقَد ٱستجَاب سُبْحَانَهُ لِدُّعَاء الإِمَام حَيْث ٱسْتُشْهِدَ بسَيْف الْغَدْر، وهُو فِي مِحرَابه[2]. أَمّا جَمِيل الذِّكر فَلا تَمرّ ثَانِيَة مِن الدَّهر إلّا ويَتَردد فِيها ٱسم عَليّ بن أَبِي طَالب بِالتَّعظِيم

---

(١) ٱلنَّحْلِ: ٤٣.

(٢) أُنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥/١٤٣، مقاتل الطّالبيين: ٢٩ و٤٧، طَبقَات ٱبْن سعد: ٣/٣٥، أنْسَاب الأَشْرَاف: ٢/٤٨٩ و٤٩٩ و٥٢٤، مروج الذّهب: ٢/٤١١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/١٥٩، الكَامِل فِي التَّأريخ: ٣/٣٨٩، مناقب الخوارزمي: ٣٨٠ ـ ٤١٠، مناقب ٱبْن شهرآشوب: ٣/٣١١، تَأريخ ٱبْن عساكر: ٣/٣٦٧ ح ١٤٢٤ وأضاف قول الإِمَام عليّ عليه السلام عند ما ضربه ٱبن مُلْجَم «فُزتُ وربّ ٱلْكَعْبَة»، وذكر ذَلِكَ البلاذري فِي الأنساب: ١/٤٨٨ و٤٩٠، تَأريخ دمشق: ٣٨/٩٧، و: ٣/٣٠٣ ح ١٤٠٢ وما بعدها، كنز الْعُمَّال: ١٣/٦٩٧، ٱلْفَتح الرَّبّاني: ٢٣/١٦٣، والحَاكِم فِي الْمُسْتَدرك: ٣/١٤٤، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١١٠ فَضَائِل عليّ عليه السلام، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ١٣٣ بَاب ٩ فصل ٥ مع تقديم وتأخير بِمَا يناسب السّياق، ويحفظ ٱسترسال الْمَعْنَىٰ واللفظ. الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢/٢٧٦، الاِسْتِيعَاب: ٣/٥٩ بإضافة «... لا يفوتنكم الكلب»، أُسد الغَابَة: ٤/٣٨، يَنَابِيع الْمَوَدَّة: ١٦٤، أرجح المطالب: ٦٥١.

والتَّقدِيس نُطقاً وكتَابةً مُنذ كَان، وإلىٰ آخر يَوْم.

وفَوق ذَلِكَ كُلّه أنَّ الملاَيين مِن شِيعَته فِي كُلِّ عَصر وجِيل يَتقَرّبُون إلىٰ الله بِالوَلاَء لهُ، وبِالثَّناء عَلَيْهِ لقَوْل الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «حُبُّ عَليٍّ بَرَاءَة مِن النَّار»(١).

وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «حُبّ عَليٍّ يَأْكُل الذّنُوب كمَا تأكل النَّار الحَطب»(٢).

ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنَّ المُرَاد بِالحُبّ هُنا مَا يَشمل المُتَابعة بِالْعَمَل، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحًا﴾(٣). وَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْشاً

(١) نَقل هَذَا الحَديث صَاحب «فَضَائِل الخَمْسَة» عَن كنُوز الحقَائق لِلمنَاوي: ٦٢، طَبعة آستَامبول سَنَة ١٢٨٥ هـ، وأيضاً نَقل عَن كتَاب «الرّيَاض النَّضرة» لِلمُحب الطَّبَري: ٢/ ٢١٥، الطَّبعة الأُولىٰ بمطبعة الإتِّحاد بِمصْر. (مِنْهُ ﵀). وأُنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١٤٢/٢ ح ٢٥٤٥ و٢٧٢٣، مِئة مَنقبة لِمُحَمَّد بن أَحمد: ٦٦، مَناقب آل أَبِي طالب: ٤/٣، الصّراط المُسْتَقِيم: ٥٠/٢، كتَاب الأَربعِين: ٤٦٣، بحَار الأَنْوار: ٢٢٢/٧ ح ١٣٣ و: ٣٠٥/٣٩ ح ١١٨، مَوَدَّة القُربىٰ: ٦٠ ح ٢، كنُوز الحقَائق: ٢٦، بشَارة المُصْطفىٰ: ٧١ و١٩٦، نَهج الإِيمان لِابْن جَبر: ٢٧، تأوِيل الآيَات: ٨٦٤/٢، ينَابِيع المَوَدَّة: ٧٥/٢ ح ٥٥ وص: ٢٩١ ح ٨٣٦، كَنز العُمَّال: ٦٢١/١١ ح ٣٣٠٢١، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٢٤١/٢، كَشف اليَقِين: ٣٠٤، نَهج الحَقّ: ٢٦١، عِلل الشّرائع: ٥٦٤، رَوضة الوَاعظِين: ١٢٨، تَفضِيل أَمِير المُؤْمنين للشَّيخ المُفِيد: ٣٠، الرّيَاض النّضرة: ٢٣٢/٣، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٧١، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٦، المَناقب لِابْن المغَازلي: ١١٩، المنَاقب للخوَارزمي: ٣١، مَقتل الحُسين للخوَارزمي: ٣٩، فَرائد السِّمطِين: ٢٩٢/١، إرشَاد القلوب للدَّيلمي: ٢٥٧/٢.

(٢) ذَكَر هَذَا الحَديث الخَطِيب البَغدَادي: ١٩٤/٢ طَبعة ١٣٤٩ هـ بِمصْر. (مِنْهُ ﵀). وأُنظر، لِسَان المِيزَان: ١٨٥/١ ح ٥٨٩، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١٤٢/٢ ح ٢٧٢٢، مناقب آل أَبِي طَالب: ٣/٣، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٩١ و٩٢، كَنز العُمَّال: ٦٢١/١١ ح ٣٣٠٢١، تَأرِيخ دِمشق: ٥٢/١٣ و: ٢٤٤/٤٢، تَأرِيخ حَلب لقَاضي القُضَاة عَبدالرَّحمن بن عُمر بن أَحمَد بن العَدِيم الحِلي، ثُمَّ الدِّمَشقِي الحَنَفي المتوفَّىٰ (٦٧٧ هـ): ٢٣١٣/٥، جوَاهر المطالب: ٢٥٢/١، يَنابِيع المَوَدَّة: ٢/ ٧٥ ح ٥٦ وص: ١٨٠ ح ٥١٩ وص: ٢٤١ ح ٦٧٦ وص: ٢٩١ ح ٨٣٥، كفَاية الطَّالب: ٣٢٥، مَقصد الرَّاغب: ٣١ (مَخطوط)، مَوَدَّة القُربىٰ: ٢٠.

(٣) ٱلْكَهْفِ: ١١٠.

فَٱجْتَمعُوا فَعَمَّ، وخَصَّ فقَالَ: (يَا بَنِي كَعْبِ بن لُؤَيّ أَنْقذُوا أَنْفُسكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبد مُناف أَنْقذُوا أَنْفُسكُمْ مِنَ النَّار، يَا بَنِي هَاشم أَنْقذُوا أَنْفُسكُمْ مِنَ النّار، يَا بَنِي عَبد المُطّلب أَنْقذُوا أَنْفُسكُمْ مِنَ النّار، يَا فَاطِمَة أَنْقِذِي نَفْسِكِ مِنَ النّار، فَإِنِّي لا أَمْلكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً غَيرَ أَنَّ لكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبَلاَلِها)[1].

وَقَالَ الْإِمَامُ عليه السلام، لَا تَكُنْ مِمَّنْ: «يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيُبْغِضُ الْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ»[2].

(١) أُنظر، السُّنَن الكُبرىٰ: ١٠٧/٤ و: ٦/ ٢٨٠ و ٤٢٣، سُنَن النَّسائي: ١٠٨/٤ ح ٦٤٧٣ و ٦٤٧٤ و: ٢٤٨/٦، فَتح البَاري: ٤٤٠/٢ و: ٣٨٥/٨ و: ٤٢٣/١٠، شَرح مَعَاني الآثَار: ٢٨٦/٣ و: ٣٨٨/٤، مُسْنَد إسحَاق بن رَاهويه: ٢٦١/١، الإِيمَان لِابْن مُنده: ٨٧٦/٢، شَرح النَّووي عَلىٰ صَحِيح مُسْلِم: ٨٠/٣، الدِّيبَاج: ٢٧٠/١ و: ٨٠/٣، شَرح السّيوطي: ٢٧٠/٦، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٨، جَامع الْبَيَان لِابْن جَرير الطَّبَري: ١٤٤/١٩، عِلل الدَّار قُطني: ٣٧٠/٩ ح ١٨٠٧، سُبل الْهُدَىٰ والرَّشَاد: ٣٢٣/٢، حَاشية السِّندي: ٢٤٨/٦، نَيل الأوطَار: ١٣٤/٦، أَخْبَار مَكَّة: ٢١٥/٢، صَحِيح البُخَاريّ: ١٩١/٣ و: و: ١٧/٦ و: ٨/ ٧، مَجْمَع الزَّوائد: ٥٠/١، الطَّبقات الكُبرىٰ: ٢٥٦/٢، مُسْنَد أَحمد: ٢/ ٣٥٠ و ٣٩٠ و ٥١٩، نُظم دُرر السِّمطِين: ٢٣٧، الدُّر المَنثور: ٩٦/٥، كَنز العُمَّال: ٦/ ٢٢٩ و: ٩/١٦ ح ٤٣٧٠١ و ٤٣٧٥٣، أسنىٰ المطَالب: ٢٦، مِن تَأْريخ آبن عسَاكر برِوَاية عَمرُو بن العَاص، تَفسِير القُرطُبي: ١٤٣/١٣، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ١١٩/١٩، تَفْسِير آبن كَثِير: ٣٥١/٣، صَحِيح آبن حبَّان: ٤١٢/٢ و: ٤٨٦/١٤، مُسْنَد الشَّامِيين: ١٦٩/٤ ح ٣٠٢٤، الأحَادِيث المُختارة: ١١٤/٧، مُسْنَد أَبِي عوَانه: ٨٩/١ و: ٩٣/٢، سُنَن التِّرمِذي: ٣٣٨/٨، سُنَن الدَّارمي: ٣٠٥/٢.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٥٠).

الرسالة
-٥٤-

إلىٰ طَلْحَة وَالزُّبَيْر:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا، وَ إِنْ كَتَمْتُمَا، أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّىٰ أَرَادُونِي، وَ لَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّىٰ بَايَعُونِي. وَ إِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَ بَايَعَنِي، وَ إِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ، وَ لا لِعَرَضٍ حَاضِرٍ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ، فَارْجِعَا وَ تُوبَا إِلَىٰ اللهِ مِنْ قَرِيبٍ؛ وَ إِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ، وَ إِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ. وَ لَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَ الْكِتْمَانِ، وَ إِنَّ دَفْعَكُمَا هٰذَا الْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ، كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ، بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ.

وَ قَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ، فَبَيْنِي وَ بَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَ عَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ. فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا، فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَجَمَّعَ الْعَارُ وَ النَّارُ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

السُّلْطَانُ الغَالِب: الرَّهْبَة. والْعَرْض الْحَاضِر: الرَّغْبَة.

الْإِعْرَاب:

طَائِعَيْنِ حَال، وَكَذَا كَارِهَيْنِ، وبِأَحَقِّ البَاء الزَّائِدَة.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: «ذَكَر أبُو جَعْفَر الإِسْكَافِي فِي كِتَاب «المقَامَات» أنَّ الإِمَام أَرْسَل هَذِه ٱلْرِّسَالَة إِلىٰ طَلْحَة، والزُّبَيْرَ مَع عُمرَان بن الحُصين الخُزَاعِي».

والإِسْكَافِي المَذكُور مِن شيُوخ الْمُعْتَزِلَة، وَلهُ سَبعُون كِتَاباً، مِنْهَا كتَاب: المقَامَات فِي مَنَاقب أَمِير الْمُؤْمِنِين عَليّ بن أَبِي طَالب، وكَان مُعَاصِراً لِلجَاحظ، والإِسْكَافِي نِسْبَة إِلىٰ بَلدَه إِسْكَاف بَيْنَ النَّهْرَوَان، والْبَصْرَة[1]. أَمَّا عُمرَان بن الحُصين فهُو مِن فُقَهَاء الْصَّحَابَة، أَسْلَم عَام خَيبر، وتوفِّي بِعَهْد مُعَاوِيَة[2].

---

(١) هُو مُحَمَّد بن عَبدالله، أبُو جَعْفر المَعْرُوف بِالإِسْكَافِي، أحد المُتَكلمِين مِن مُعتزلة البَغدَادِيين، تُنسب إِليهِ الطَّائِفَة (الإِسْكَافِية)، وهُو بَغدَادِي أَصله مِن سَمرقَند (ت ٢٤٠ هـ). لهُ مُنَاظرَات مَع الحُسين بن عَليّ صَاحب الشَّافعي الكرَابِيسي وغَيْره، قَالَ ٱبن النَّدِيم: كَان المُعتصم يُعظمه جِداً. لهُ كُتب مِنْهَا (نَقض العُثمَانِية) وهِي لِلجَاحظ، وفِي (رَسَائل الجَاحظ) طَبعة السَّندُوبي، خُلاَصة نَقض العُثمَانِية. وَقَالَ عَنْه ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد فِي شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٦٣/٤ طَبع الحَدِيث بِمصر: (كَان شَيخنا أبُو جَعفر الإِسْكَافِي رَحمهُ الله تَعَالىٰ مِن المُتحقِقِين بِموَالاَة عَليّ بن أَبِي طَالب والمُبَالغِين فِي تَفْضِيله: وإنْ كَان القَول بِالتَّفضِيل عَامّاً شَائِعاً فِي البَغدَادِين مِن أَصحَابنا كَافة، إلاّ أنّ أبَا جَعفر أَشدهُم فِي ذَلِكَ قَولاً وأَخلَصهُم فِيهِ ٱعتقَاداً). وٱنظر، خُطط المَقرِيزي: ٣٤٦/٢، لِسَان المِيزان: ٢٢١/٥، النّزاع والتّخاصم: ٢٥، ومُقدِّمة المِعيار والمُوَازنَة بِتحقِيق الشَّيخ مُحَمَّد بَاقر المَحمُودي، الأَنسَاب: ١٥١/١، لُب اللُّبَاب فِي تَحرِير الأَنْسَاب لجَلال الدِّين السَّيوطي: ١٤، تَأرِيخ بَغدَاد: ٤١٦/٥، جوَاهر المطالب: ٢٨١/١، تَأرِيخ ٱبن عسَاكر: ٨٢.

(٢) هُو عُمران بن حُصين بن عُبيد بن خَلف، أبُو نَجيد الخُزاعِي الكَعبي، صَاحب رَسُول الله ﷺ أسْلَم عَام خَيبر، وهُو مِمَّن ٱعتَزل حَرب الجَمَل، ومَات فِي الْبَصْرَة سَنَة (٥٢ أو ٥٣ هـ). لهُ أحَادِيث عَدِيدة، وكَان

وَتَقَدَّم مَعنا أنَّ النَّاس ضَاقوا بِسِيرَة عُثْمَانَ حَتَّىٰ الْأَغْنِيَاء مِنْهُم بِرَغم مَا أَغْـدَق عَلَيْهِمْ مِن بَيْت الْمَال، وإنَّ طَلْحَة والزُّبَيْرَ حَرَضا عَلَيْهِ، وإنَّهما بَايعَا الْإِمَام مَع مَـن بَايَعَ[1]، ثُمَّ ٱنْقَلبا عَلَيْهِ فُجْأَة، فَأرسَل إِلَيْهِمْ فِيَما أَرْسَل يَقول: (أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا، وَ إِنْ كَتَمْتُمَا، أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّىٰ أَرَادُونِي). طَلَب الْصَّحَابَة وغَيْرهمْ مِن الْإِمَام أنْ يَتَوَلَّىٰ الْخِلَافَة بَعْد مَقْتَل عُثْمَانَ فَرَفَض، وَقَالَ لَهُم: «دَعُونِي وَ ٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ، وَ أَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَ لاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَ إِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَ الْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَ ٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَ لَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ الْقَائِلِ، وَ عَتْبِ الْعَاتِبِ، وَ إِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَ لَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ، وَ أَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَـيْرٌ لَكُـمْ مِـنِّي أَمِيراً»[2]! ولمَّا أَلَحُّوا قَبِل الْإِمَام بِشَرطٍ وَاحد، وهُو أنْ لاَ يَسْتَأثر دُونَ أَحد بِدرهَم

⇐ مِمَّن بَعثَه عُمر الخَطَّاب إِلىٰ أَهْل الْبَصْرَة لِيفقههم، وكَان مِمَّـن رَجع إِلىٰ عَليّ بن أَبِي طالب عليه السلام. أُنظر، تَذكرة الحفاظ: ٢٩، الإِصَابَة: ٣/ ٢٧، الاِسْتِيعَاب: ٣/ ٢٢، أُسد الغَابَة: ٤/ ١٣٧، الثّقات لِابْـن حبَّان: ٣/ ٣٨٩، طَبقات أَبن سَعد: ٧/ ٩.

(١) وَرَوىٰ الطَّبَرِي فِي تَأرِيخه: ٥/ ١٥٣، والبَلاذُري فِي أَنْساب الأَشْرَاف: ٢/ ٢٠٥ ح ٢٥٠ و ٢٧٢ و ٢٧٥ طَبْعَة بيروت و: ٥/ ٧٠، والحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ٣/ ١١٤: وكَان أَوَّل مَن بَايعه طَلْحَة بن عُبيدالله بِيده، وكَانَتْ إِصْبع طَلْحَة شلَّاء فَتطيَّر مِنْهَا عَلِيّ وَقَالَ: مَا أَخْلَقه أَنْ يَنْكث. وأُنظر المعيَار والموَازنة للإِسْكَافي: ٢٢ و ٥١، تَذكرة الخواصّ: ٥٧، الطَّبقات الكُبرىٰ لِابن سَعد: ٣/ ٣١، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٣/ ٩٨ طَبْعَة دَار الكتَاب العَربِي، مروج الذَّهب للمَسعُودي: ٢/ ٣٦٤ طَبْعَة بيروت. كلّهم يَذكرُون أنَّه لمَّا قُتل عُثْمان، وبَايَعَ النَّاس عَلِيّاً كَان طَلْحَة والزُّبَيْر أَوَّل مَن بَايَعَ، تَأرِيخ أَبن أَعْثَم: ١٧٠، العِقد الفَرِيد: ٤/ ٣١٣، تَأرِيخ اليَعقوبِي: ٢/ ١٥٧، كَنز العُمَّال: ١/ ١٦٣ ح ٢٤٧١.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٩٢). (مِنْهُ رحمه الله).

كمَا قَالَ الطَّبَرِي فِي تَأرِيخه عَلىٰ ما نُقل عَنْه[1].

وَقَد يَبدو هَذَا الشَّرط غَرِيباً لِلوَهلة الأُولَىٰ... ولكنْ أرَاد بِهِ أنْ يُفهِم الزُّبَيْرَ وَطَلْحَة أنَّهما إذَا بَايعَاه فَلَن يُؤثرهُما عَلىٰ أحدٍ مِن الْمُسْلِمِين، لأنَّه هُو لَمْ يُؤثِر نَفْسَه، فَغَيرهُ بِطَرِيق أَوْلَىٰ (وَ إِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَ بَايَعَنِي) عَلىٰ شَرط المُسَاوَاة بَيْنَ جَمِيع الْمُسْلِمِين فِي الحُقُوق والوَاجبَات «فَمَا عدَا مِمَّا بَدَا؟» كمَا قَالَ الإِمَامعليه السلام[2]. (وَ إِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ، وَ لاٰ لِعَرَضٍ حَاضِرٍ). كُلّ النَّاس بَايعُوا الإِمَام عَن ثِقَة وإِيمَان لاَ رَهبَةً مِن قوّةٍ، ولاَ رَغبَةً فِي عَطِيَّةٍ. ثُمَّ ٱحتَج الإِمَام عَلىٰ طَلْحَة والزُّبَيْرَ بِمَا يلي:

(فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ... بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ). لمَاذَا أَعْطِيتُمَا العَهْد لِي، والْبَيْعَة بِالخِلاَفَة؟ هَل كَان ذَلِكَ طَوْعاً مِنْكُمَا أو كَرْهاً، ولاَ فَرض ثَالث، فإنْ كَان طَوْعاً فَلا مُبرر لِلنكْث ولاَ دَافع إلّا مَعْصِيَة الله، ودَوَاؤهَا سَهل وهُو ٱلتَّوْبَة، وطَلب العَفْو (فَٱرْجِعَا وَ تُوبَا إِلَىٰ اللهِ مِنْ قَرِيبٍ). وإنْ كَانَتْ الْبَيْعَة كَرْهاً - بِزَعْمَكُمَا - فَمَن الَّذي أَكْرَه وضَغط؟ وبِأي شَيء كَان الضَّغط؟ وإنْ ٱدْعيتُمَا التَّقِية فِي الْبَيْعَة، وإنَّكُمَا أَسرَرتُمَا غَيْر مَا أَظْهرتُمَا فمَا هُو المُوجب لِذَلِكَ؟ وكَيف ٱنفردتُمَا دُونَ الْمُسْلِمِين جَمِيعَاً بِهَذا الْخَوْف والاِتِّقَاء، وأَنْتُمَا فِي مكَان ٱلْعِزَّة، والقُوَّة؟ ومَا كَان أَغْنَاكُمَا عَن الحَالِين: الْبَيْعَة والنَّكث؟ أمَا كَان الأجْدَر بِكُمَا أنْ تَحجمَا عَن الْبَيْعَة مُنذ البدَايَة؟.

وبَعْد فإنَّ بَيعَتِي فِي عنقكُمَا بِظَاهر الْقَوْل والفِعْل، ولاَ مُقَاوم لِهَذا الظَّاهِر، وهُو إمَارَة شَرعِية وعُرفِية، وحُجَّة بَالِغة دَامِغة لِي عَلَيْكُمَا.

---

(١) أُنظر، تَأرِيخ الطّبريّ: ٥/١٥٦. (مِنْهُ).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٣١). (مِنْهُ).

وبِالمُنَاسبة أنَّ نَفَراً تخلفُوا عَن بَيْعَة الإمَام كَعبدالله بن عُمر، وٱبن أبِي وَقَّاص، وحَسَّان بن ثَابت، ومَا تَعرض لَهُم أَحد بِسُوء(١).

---

(١) بَايعت الأَنْصَار والمُهَاجرين الإِمَام عَليّ عليه السلام غَيْر نفر يَسِير فإنَّهُم قَعدوا عَن بَيْعَته عليه السلام لأنَّهم كَانوا عُثْمَانِية وذَكر أَصْحَاب كُتب السِّير والتَّأريخ أسمَاءهم كَالدِّينوري فِي الأَخْبَار الطِّوال: ١٤٠، وصَاحِب وَقْعَة صِفِّين: ٦٥، وصَاحِب فَتح البَاري: ١٩/٥ و: ١٦٥/١٣، وتَأريخ ٱبن خلدُون: ٢١٤/١، وذَكروا مِنْهُم: مُحَمَّد بن مَسْلَمة، والنُّعمان بن بَشير، ونَافع ـ وقِيل: رَافع ـ بن خَدِيج، وأُسَامة بن زِيد. ذكر ذَلِكَ الشَّيخ المُفيد رحمه الله فِي الإِرْشَاد: ٢٤٤/١ طَبْعَة مُؤسَّسة آل البَيْت عليهم السلام، وشَرح النَّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ٢٦/١، و:١٩٢/٣، بِحَار الأَنْوار: ٣٩٧/٨، وذَكر ٱبن أَعْثَمْ فِي كتَاب الفُتُوح: ١٦٣/٢ أنَّه تَخلّف عَن البَيْعَة عَبدالله بن عُمر، ومُحَمَّد بن مَسْلَمة، وأُسامة بن زِيد، وحَسَّان بن ثَابت، وسَعد بن أبِي وقَّاص. وذَكر اليَعقوبِي فِي تَأرِيخه: ١٧٨/٢ بِأنَّه فَقد تَخلّف مِن بَني أُمَيَّة مَروان بن الحَكم، وسَعيد بن العَاص والوَليد بن عُقْبَة.

وذَكر الشَّيخ المُفيد أيضاً فِي الإِرْشَاد: ٣٣٢ الفَصل ١٥ من البَاب ٣ بِالإضَافة إِلىٰ هَؤُلَاء قُدَامة بن مَظعون، وعَبدالله بن سَلَّام، وأَبُو سَعيد الخدري، وزِيد بن ثَابت. وذَكر الطَّبَري فِي: ٤٥٠/٣ المُحاورة الَّتي جَرت بَيْن الإِمَام عَليّ عليه السلام، وسَعد بن أبِي وَقَّاص، وعَبدالله بن عُمر.

أمَّا تَرجَمَة مُحَمَّد بن مَسْلَمَة بن سَلمة بن (مخلد) كمَا جَاء فِي وَقْعَة صِفِّين: ٤٤٨ خَالد بن عَدِيّ بن مَجدعَة بن حَارثة بن الحَارث بن الخَزرج بن عَمرو بن مَالِك بن الأوس، شَهد بَدراً ومَا بَعدها. وكَان مِمَّن لَمْ يُبَايع عَلِيّاً عليه السلام، ولَم يَشهد مَعَه حُرُوبه. وتوفِّي سَنَة (٤٣، ٤٦، ٤٧ هـ). أُنظر، تَرجمته فِي الإِسْتِيعَاب: ٣١٥/٣، الإِصَابَة: ٣٦٣/٣ وجَمهرة ٱبن حَزم: ٣٤١.

فَالنّعمان بن بَشِير الأَنْصَاري الخَزرجي وِلد قَبل وفَاة النَّبيّ صلى الله عليه وآله بِثمانِي سنِين وسَبعة أشهر، وقِيل: بِست سنِين، وكَان هَوَاه مَع عُثْمَان ثُمّ مَع مُعَاوِية ثُمّ يَزِيد فِي أَيَّام الفِتن خِلافاً لقَومه، وهُو الَّذي حَمل قَمِيص عُثْمَان وأَصَابع نَائلة مِن المَدِينَة إِلىٰ الشَّام، فَرفعهُما مُعَاوِية عَلىٰ مِنبر المَدِينَة يَهيّج بِهِ أَهْل الشَّام، ووَلَّاه مُعَاوِية الكُوفَة ثُمّ حِمص. وفِي زَمن مُعَاوِية بن يَزيد دَعا إِلىٰ بيعة عَبدالله بن الزُّبَير فَقتله شِيعة بَني أُمَيَّة بِمرج رَاهط فِي ذِي الحِجَّة سَنَة (٦٤ هـ) كمَا جَاء ذَلِكَ فِي تَرجَمَته فِي أُسد الغَابَة: ٢٢/٥، والإِصَابَة: ٥٢٩/٣ تَحت رَقم ٨٧٣٠، والطَّبَري فِي تَأرِيخه: ٧٧/٦، وٱبن الأَثِير: ١٥٠/٣، وشَرح النَّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ٢١٢/١، وٱبن كَثِير فِي تَأرِيخه: ٣١٩/٧.

أمَّا رَافع بن خَديج فهُو أيضاً من الأَنْصَار، وقيل: مِن الأوس، ويُكنىٰ أبَا عبدالله، وشَهد أُحداً

وَقَالَ عَمَّار بن يَاسر لِلإِمَام: «لَو دَعوتَهُم إِلىٰ بَيعتك.
فقَال لهُ الإِمَام: لاَ حَاجَة لنَا فِيمَن لاَ يَرغب فِينا.
وَقَالَ الأَشْتَر: لاَ حَقّ لَهُم فِي التَّخلف.
فقَال لهُ الإِمَام: دَعْهُم يَعْملُون بِرَأيهم»[1].
وأَذِنَ الإِمَام لطَلْحَة والزُّبَيْر بِالخرُوج مِن الْمَدِينَة إِلىٰ مَكَّة حِين سَألاَه الإِذْن، وهُو عَلىٰ رِيبَة بمَا نَويَاه، وَقَالَ لَهُما: «مَا الْعُمْرَة تُرِيدَان، وإِنَّما تُرِيدَان الْغَدْرَة»[2].

⇐ والخَنْدَق، ومَات مِن جُرحٍ كَان بِهِ مِن عَهْد رَسُول الله ﷺ فانْتقض عليهِ سَنَة (٧٣ هـ) وهُو أبن سِت وثمَانِين سَنَة. (أنظر المعَارف لِإبن قُتيبَة: ٣٠٧).
أمّا فُضَالة بن عُبيدة فَقد ذَكره الطَّبَري فِي تَأرِيخه: ٣ / ٤٥٢ مِمَّن لَمْ يُبَايع الإِمَام عَليّ ﷺ وأضَاف: حسَّان بن ثَابت، وكَعب بن مَالك، ومَسْلَمة بن مخلد، وأبُو سَعيد الخُدري، ومُحَمَّد بن مَسْلَمة والنُّعمان بن بَشير، وزِيد بن ثَابت، ورَافع بن خُديج، وفضَالة بن عُبيد.
أمّا كَعب بن عَجرة فَقد ذَكره الطَّبَري أيضاً فِي تَأرِيخه: ٣ / ٤٥٢ مِمَّن لَمْ يُبَايع، وأضَاف الطَّبَرِي: فقَال رَجُل لعبدالله بن حَسن: كَيف أبىٰ هَؤلاَء بيعة عَليّ... قَالَ: أمّا حسَّان فكَان شَاعراً لاَ يُبالي مَا يَصنع، وأمّا زيد بن ثَابت فَولاَه عُثْمَان الدِّيوان وبَيت الْمَال....
أمّا صُهيب بن سنَان الرَّبعي النَّمري فقَد كَان أبُوه عَامِلاً لِكسرىٰ عَلىٰ الابلة. فغَارت الرُّوم عَليهِم، وأسرت صُهيباً فَنشأ فِيهِمْ، ثُمّ بَاعته إلىٰ كَلب فجَاءت بِهِ إِلىٰ مَكَّة، فبَاعته مِن عَبدالله بن جَدعان فَأعتَقه، وكَان مِن السَّابقِين إلىٰ الإِسْلاَم الّذين عُذّبوا فِي مَكَّة وكَنّاه الرَّسُول أبَا يَحيىٰ. وكَان فِي لِسَانه لُكنَة، توفِّي بِالمَدِينة (٣٨ أو ٣٩ هـ) ودُفن بها. (أنظر، أُسد الغَابَة: ٣ / ٣١ ـ ٣٣).
أمّا أُسَامة بن زيد مولىٰ رَسُول الله ﷺ، وأبن مَوْلاَه زيد بن حَارثة وأبن مَولاته وحَاضنته أُمّ أيمن، وكَان يُسمّىٰ حُبّ رَسُول الله ﷺ أمَّره ﷺ فِي مَرض مَوته عَلىٰ جَيش لغزو الشَّام. توفِّي سَنَة (٥٤ أو ٥٨ أو ٥٩ هـ). رَاجع تَرجمته فِي الاِسْتيعَاب رَقم ١٢، وأُسد الغَابَة: ١/ ٦٥ ـ ٦٦، وصَحِيح مُسْلِم: ٥ / ١١٤.
(١) أنظر، الْفُتُوح لِإبن أعْثَم: ١٦٣، الطَّبعة القَدِيمَة.
(٢) ذَكر الطَّبَري فِي تَأرِيخه: ١/ ٣٦٩، و: ٥ / ١٥٣ و١٥٨، وأبن كَثِير فِي البدَاية والنِّهَاية: ٧ / ٢٢٧، وشَرح ⇐

ولَوْ شَاء لِحَبَسَهُما، ولكنّه لَمْ يَفعل. وإذَنْ فَأين الضَّغط والإِكـرَاه، والمُـوجِب لِلتَّقِية ؟.

(وَ قَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ). دَافَع الإِمَام عَن عُثْمَانَ، فِيمَا حَرّض عَلَيْهِ طَلْحَة والزُّبَيْرَ، ولمَّا قُتِل بَايعَا الإِمَام. وقَالا لَهُ:

«أعْطِنا ثَمَن الْبَيْعَة، وِلاَيَة الْبَصْرَة، والْكُوفَة.

فَقَالَ: أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ، وَ اللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَ مَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ. فَكَيْفَ، وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ»[1]؟ لاَ أُدَاهِن فِي دِينِي، ولاَ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ، فَخَرَجَا ثَائِرِين بِدَمٍ هُما سَفَكَاه كَمَا قَالَ الإِمَام فِي آلْخُطْبَة (١٣٧). وتَكَلمنَا عَـن ذَلِكَ فِي آلْخُـطْبَة المَذكُورة، وآلْخُطْبَة (١٧٤) وآلرِّسَالَة (١) (فَبَيْنِي وَ بَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَ عَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ... إلخ). خَيَّرَ الإِمَام الزُّبَيْرَ وطَلْحَة لاِلْقَاء الحُجَّة عَلَيْهِمْ، خَيَّرهُما بَيْنَ أمرِين:

↩ آلنَّهج لِابن أَبِي آلحَدِيد: ٢ / ١٧٠ ـ ٧٣، وآبن أَعْثَمْ فِي الْفُتُوح: ٢ / ٢٤٨، والـيعقوبِي فِي تَأرِيخه: ٢ / ١٨٠، أنّه بَقِيَ طَلْحَة والزُّبَير فِي المَدِينَة أَربَعَة أَشهر يُرَاقبَان عَلِيّاً مِن قَرِيب حَتّىٰ إذَا أَيسا مِنه وبَلغَهما مَوقف أُمّ الْمُؤمِنِين بِمَكَّة عَزَما عَلى الخرُوج مِن المَدِينَة فَأَتيا عَلِيّاً فَقَالا: إنّا نُرِيد العُمْرَة فَأْذَن لَنا فِي الخرُوج، فقَال عَلِيّ لِبَعض أَصْحَابه: والله مَا أَرَادا العُمْرَة؛ ولكنَّهما أرَادا الغَدْرَة... والتَحقا بِركب أُمّ الْمُؤمِنِين عَائِشَة... وقَالَ آبن الأثِير فِي الكَامِل: ٣ / ١٩١ مِا نَصّه: وهَرَبا إِلىٰ مَكَّة بَعد قَتل عُثمَان بِأَربَعَة أَشهر.... وأنظر، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١ / ٧١، الثِّقات لِابن حبَّان: ٢ / ٢٧٨، مَناقب أَهْل الْبَيْت: ٢١٠، المِعيَار والموَازنَة: ٢٦، إعْلاَم الوَرىٰ: ١٧٣، الجمَل لضَامر بن شَدقم المَدني: ٩٥، الخَرَائج والجَرَائح: ١ / ١٨٧.

(١) أنظر، نَهج آلبَلاَغَة: آلخُطبَة (١٢٦). وَالإِمَـامَة وَالسِّـيَاسَة: ١٥٣ طَـبعة عَـام ١٩٥٧م. (مِنهُ ﷺ). و: ١ / ١٣٢، أَنسَاب الأَشْرَاف لِلبَلاذُري: ٢٧٠، أَمَالي الشَّيخ الطّوسي: ١٩٤، تُحف الْعُقُول: ١٨٥، الغَارات: ٢ / ٨٢٧، أمَالي الشَّيخ المُفِيد: ١٧٥، حَيَاة الإِمَام الحُسَين عليه السلام لِلقُرشي: ٢ / ٢٥.

إمَّا الْقَضَاء، والمُحَاكمَة عِند مَن تخلّف عَنْهُ وعَنْهُما، ولاَ هَوىٰ لهُ مَعْهُ ولاَ مَعْهُما.

وَإمَّا ٱلتَّوْبَة، والرُّجُوع عَن الخَطَأ. وإذَاكَان فِي الرُّجُوع عَن الخَطَأ عَار وشَنَار فِي الدُّنْيا فَإنَّ عَذَاب الآخِرَة أَشَد وأَخْزىٰ.

الرسالة ٥٥

أيضاً إلىٰ مُعاوية:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَ ٱبْتَلَىٰ فِيهَا أَهْلَهَا، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَ لَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا، وَ لاٰ بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَ إِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَي بِهَا، وَ قَدِ ٱبْتَلَانِي اللهُ بِكَ وَ ٱبْتَلَاكَ بِي: فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَىٰ الْآخَرِ، فَعَدَوْتَ عَلَىٰ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَ لاٰ لِسَانِي، وَ عَصَيْتَهُ أَنْتَ وَ أَهْلُ الشَّامِ بِي، وَ أَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَ قَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ؛ فَٱتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ، وَ نَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، وَ ٱصْرِفْ إِلَىٰ الْآخِرَةِ وَجْهَكَ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَ طَرِيقُكَ. وَ ٱحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ، وَ تَقْطَعُ الدَّابِرَ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَ إِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لاٰ أَزَالُ بِبَاحَتِكَ: ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾[1].

---

(١) ٱلأَعْرَاف: ٨٧.

اللُّغَة:

لِنُبْتَلَي: لِنُخْتَبَر. وعَدَوْتَ: وَثَبْتَ وَتَهَالَكْتَ. وبِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ: بِتَحْرِيفه لِتَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً. وَعَصَبْتَهُ: رَبَطْتَهُ. وَأَلَّبَ: حَرَّض. والقِيَادَ: الزِّمَام. والقَارِعَة: الدَّاهِيَة. والدَّابِرَ: الفَرْع التَّابع لِلأَصْل. والأَلِيَّة: اليَمِين. والبَاحَة: السَّاحَة.

الإِعْرَاب:

لِمَا بَعْدَهَا مُتَعَلِّق بِمحذُوف مَفْعُولاً ثَانِياً لجَعَلَ، وَغَيْرَ فَاجِرَةٍ صِفَة لأَلِيَّةً مِثل «اَقْسَمَ قَسَماً بَارَاً».

الْمَعْنَى:

كَتَب الإِمَام العَدِيد مِن الرَّسَائل إِلىٰ مُعَاوِيَة، والزُّبَيْرَ، وطَلْحَة ومُوضُوعها وَاحد، والغَايَة وحدَة الْمُسْلِمِين وجَمع كَلمَتهم، ولاَ تَختَلف تِلكَ الرَّسَائِل إِلّا بِالأُسلُوب، أو بِإِشَارَة إِلىٰ مَثْلَبة تَدعُو الحَاجَة إِلىٰ ذِكْرِهَا، وتَقَدَّم طَرف مِن الرَّسَائِل إِلىٰ مُعَاوِيَة، ويَأْتِي بَعْضهَا. الّتي نَحْنُ الآنْ بِصَددهَا أَرْسَلها الإِمَام إِلىٰ مُعَاوِيَة وَاَفْتَتحها بِقَوْله: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا.... خُلِقْنَا). خَلق سُبْحَانَهُ الإِنْسَان لِلبَقَاء والخُلود فِي دَار الآخِرَة، أَمَّا الدُّنْيَا فَهِيَ مَمَرّ وَاَخْتِبَار لِتَظهر النَّوَايا والأَفْعَال الّتي يُسْتَحق بِها الثَّوَاب والعِقَاب. وتَقَدَّم الكَلاَم عَن ذَلِكَ ؟[1].

(وَلاَ بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَي بِهَا). أي مَا أُمرنَا بِالسَّعْي فِي

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٣١) وَصِيَّة لِلإِمَام الحَسَن عليه السلام، لِمَاذَا خُلِق الإِنْسَان؟

الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا وَحدَها، بَل لهَا ولِلآخِرَة. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَـٰكَ ٱللَّـهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَاتَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَاتَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَايُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]، وَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجَّل يُبْغَض العَبد النَّوَام الفَارغ[2]....، ويُحبّ المُؤْمِن المحتَرف[3]... وَمَا أَكْلَ أَحد طَعَاماً قَطّ، خَيراً مِن أنْ يَأْكُل مِن عَمل يَدَه»[4]. وَقَالَ الإِمَـام: «آعْـمل لدُنْـيَاكَ كَأنّك تَعيش أَبَداً ـ أي مَع الأَجْيَال إِلىٰ يَوْم يُبعثُون ـ وآعْمل لآخِرتك كأنّك تَمُوت غداً» أي آتقِ الله فِي عَمَلك لدُنْيَاكَ[5].

(وَ قَدِ آبْتَلَانِي اللهُ بِكَ) أي بِجِهَادِك ورَدعِك عَن غيِّك، ولَو أَهْمَـلتُ وقَـصَّرْتُ لَكُنْتُ مَسؤولاً أَمَام الله (وَ آبْتَلَاكَ بِي) حَيْث أَمَرك بِطَاعتي والاِسْتجَابة لِـدَعوتِي لَك، فإِنَّهَا دَعْوَة الحَقّ والْعَدْل، فإنْ أَعرَضتَ ونَأيتَ كُنتَ مِن الهَالِكِين (فَـعَدَوْتَ

(١) ٱلْقَصَص: ٧٧.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٨٤/٥ ح ٢، وَسَائِل الشِّيعة: ٥٨/١٧ ح ٣ و ٤، الْفقِيه: ٦١/٣ ح ٥، عـوَالي اللّـئالي: ٢٢/٤ ح ٦٦.

(٣) أُنظر، لِسَان الميزان: ١١٧/٤ ح ٢٤٠، مِيزان الإعْتدَال: ٢٦٣/١ ح ٩٩٥ و: ١٨/٣ ح ٥٤١١، الكَامِل: ٣٧٨/١، فَتح القَدِير: ٢٦٣/٥، الدُّر المَنثور: ٣٦٢/١ و: ٢٤٩/٦، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٢١/١١، كَشـف الخَفاء: ٢٥٠/١ ح ٧٦٣، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغير: ٣٦٨/٢ ح ١٨٧٣ و ٥٤٧٧.

(٤) أُنظر، المجموع: ٥٩/٩ و: ٤٠٦/١٦، إعَانة الطَّالبين: ٤٠٤/٢، كَشف القِـنَاع: ٢٧١/٦، سُـبل السَّـلام: ٥/٣ ح ١، الجَامِع الصَّغِير: ٤٨٦/٢ ح ٧٨٣٣، العهُود المُحَمَّدِية: ٢٩٢، كَنز العُمَّال: ٨/٤ ح ٩٢٢٣، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغير: ٥٤٣/٥ ح ٧٨٣٣، التَّأريخ الكَبِير: ٤٢٩/٧ ح ١٨٨٢، سَير أعْلَام النُّبلاء: ٥٧٠/٢.

(٥) أُنظر، تَحرِير الأَحْكَام لِلعلاَّمة الحِلي: ٢٤٩/٢، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٥/٤، مَن لاَ يَحضُره الفَقِيه: ٩٤/٣ ح ٣٥٦، مَعَانِي الأَخْبَار للنَّحاس: ٣٠٥/٦، وَسَائِل الشِّيعة: ٧٦/١٧ ح ٢، فَـيض القَـدِير شَرح الجَـامِع الصَّغِير: ١٦/٢، كَنز العُمَّال: ٥٨١/٥، تنبِيه الخَوَاطِر: ٢٣٤/٢.

عَلَىٰ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ). طَلب مُعَاوِيَة السُّلْطَان تَحتَ رَايَة قَمِيص عُثْمَان وَٱتخَذ مِن كِتَاب الله ذَرِيعَة لِغَرضه، وَقَالَ: جَاء فِي الْقُرْآن ﴿وَلَاتَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[1] وأَنَا وَلِيّ دَم عُثْمَانَ، وإِذَنْ فأَنَا سُلطَان. ولَمَّا حَكَم مُعَاوِيَة وسَيطَر لَمْ يَأخذ وَاحِداً مِن قَتَلَة عُثْمَانَ بِجَرِيرَته، بَل كَان يُقرب بَعْضَهُم ويُجِيزه بِالمَال، كَمَا أَشَرنَا فِي شَرح ٱلرِّسَالَة (٣٧). ورَفَع مُعَاوِيَة الْمَصَاحِف بِصِفِّين حِيلَةً، وَغِيلَةً، لمَّا أَيقَن بِالهَلَاك، وكَان مِن ثمَار هَذِه الحِيلَة ٱنْشقَاق الْمُسْلِمِين، ووجُود الْخَوَارِج فِي كُلِّ عَصر وجِيل.

وهَكَذا كَان تَلاعُب مُعَاوِيَة بِآيَات الْقُرْآن هُو الوَسِيلة لوصُوله إِلَىٰ الْحُكْم وَٱستمرَاره فِيهِ... وكَان مِن نَتِيجَة أَطْمَاعه توزِيع الْمُسْلِمِين إِلَىٰ شِيع وأحزَاب!. قَالَ الْعَقَّاد فِي كتَاب «مُعَاوِيَة»: «... فَلَوْ أَنَّه ـ مُعَاوِيَة ـ ٱسْتطَاع أَنْ يَجْعَل مِن كُلِّ رَجُل فِي دَوْلَتِهِ حِزباً مُنَابذاً لِغَيره مِن رِجَال الدَّولَة كَافة لفَعل، وَلَوْ حَاسبه التَّأرِيخ ـ مُعَاوِيَة ـ حِسَابه الصَّحِيحَ لمَا وصَفَه بِغَير مُفرق الجَمَاعَات»[2].

(فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَ لاَ لِسَانِي.... إلخ). مِن دَم عُثْمَانَ، وتَقَدَّم فِي ٱلرِّسَالَة السَّابِقَة ٱحتِجَاج الإِمَام عَلَىٰ مُعَاوِيَة بقَوْله: «فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الحِجَاجَ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ»[3]. (وَ أَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَ قَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ) يُشِير الإِمَام بِهَذا إِلَىٰ

---

(١) ٱلإِسْرَاء: ٣٣.

(٢) أُنظر، كِتَابه الْمُوسُوم بـ(مُعَاوِيَة ٱبن أَبِي سُفْيَانَ: ٤٢ طُبع بمطَابع مؤسّسة دَار الهِلَال.

(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٣٧). (مِنْهُ).

الْعُلَمَاء والخُطبَاء الَّذِين بَاعوا دِينَهُم لِمُعَاوِيَة كِي يُكَيِّفوا لهُ الدِّين، والْقُرْآن وِفقاً لِشَّهوَاته، وأَغْرَاضه.

وفِي كتَاب «الصِّرَاع بَيْنَ الأُمَوِيين ومَبَادىء الإِسْلاَم»[1]: «ذَكَر الطَّبَرِي أَنَّ مُعَاوِيَة بَذَل لِسَمُرَة بن جُنْدُب[2] مِئة أَلف لِيَروي نُزول هَذِه الآيَة فِي عَلِيّ بن أَبِي

(١) أنظر، الكتَاب المَذكُور للدّكتُور نوري جَعْفر: ٦٥، طَبعة سَنَة ١٩٦٥م. (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) هُو سَمُرَة بن جُنْدُب بن هِلال بن جَرِيج الفزَاري، أستَعمله أبن زِياد عَلَىٰ شَرطَته فِي البَصْرَة والكُوفَة، وأستَعمَله مُعَاوِيَة عَلَىٰ وِلاَيَة البَصْرَة ثُمَّ عَزله، فقَال: لَعَن الله مُعَاوِيَة والله لَوْ أَطْعَت الله كمَا أَطْعَته مَا عَذبني أَبداً. مَات سَنَة (٥٨ أو ٥٩ هـ). أُنظر، الإِصَابَة: ٧٨/٢، أسد الغَابَة: ٣٥٤/٢، الجَرح والتَّعدِيل: ١٥٤/٤، شَذرات الذَّهب: ٦٥/١، تَهذِيب التَّهذِيب: ٢٣٦/٤.

وروي عَن حمّاد بن سَلمَة عَن عَليّ بن زيد بن خَالد، قَالَ: كُنت إذَا أَتِيت أبَا هُريرة سَألني عَن سَمرة بن جُنْدُب، وإِذَا أَتِيت سَمُرَة بن جُنْدُب سَألنِي عَن أَبِي هُريرة. فَقلت: يَا أَبَا هُريرة مَا أَرَاك تَسألني إلاَّ عَن سَمُرَة، وأرىٰ سَمُرَة يَسألني عَنْك؟ فقَال: إذاً والله أُخبرك ولاَ أَكتمك، سَمعت رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أخركُم مَوتاً فِي النَّار». أُنظر، منَاقب آل أَبِي طَالب: ٩٦/١.

وعَن مُحَمَّد بن قَيس الأسدِي، قَالَ: سَمعت الشّعبي يقول: سَمعت أبَا عمر يَقول: قَالَ، قَالَ عُمر بن الخَطَّاب، وهُو يَخطُب عَلىٰ المِنبر: «لَعَن الله سَمُرَة بن جُنْدُب كَان أَوَّل مَن أتجَر فِي الخَمر فِي الإِسْلام ولاَ يَحلّ مِن البَيع إلاَّ مَا يَحل أَكله» أُنظر، الغَارات: ٩٤١/٢، تَأريخ الطَّبَرِي: حوَادث سَنَة ٥٣، طَبعة مِصر سَنَة ١٣٢٦ هـ، أو ص: ١٦٢، وأبن الأثِير حوَادث سَنَة ٥٣ أو ص: ١٨٣ وحوَادث سَنَة ٥٤ ص: ١٩٦ و: ١٩٥/٣، الإِصَابَة: ١٥٠/٣، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٩٠/٨، جُزء أَشيب لأَبِي عَليّ الحَسن بن مُوسىٰ الأَشيب (شَيخ الإِمَام أَحمد بن حَنبل): ٥٨، طَبعة دَار علوم الحَدِيث، الإِمَارات العَربِية المُتحدة، الطَّبعة الأُولىٰ سَنَة ١٤١٠ هـ.

وعَن أبن عَدي، قَالَ قَدِمت المَدِينة، فَجَلست إلىٰ أَبِي هُريرة، فقَال: مِمَّن أَنْت؟ قُلت: مِن أَهْل البَصْرَة، قَالَ: مَا فَعل سَمُرَة بن جُنْدُب؟ قُلت: هُو حَيّ، قَالَ: مَا أحد أَحبّ إلَيَّ طُول حيَاة مِنْه، قُلت: وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: إنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ لِيّ، ولَهُ، ولِحُذِيفة بن اليَمَان: آخركُم مَوتاً فِي النَّار». أُنظر، المَعْرِفَة والتَّأرِيخ: ٣٥٦/٣.

طَالب، وهِي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾(١). وأيضاً يَروي نُزُول الآيَة بِٱبن مُلْجَم، وهِي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٢). فَرَفَض سَمُرَة فضَاعَف لهُ مُعَاوِيَة الرِّشوَة إِلىٰ أَرْبَعمئة أَلف فَقَبضَها، وَرَوىٰ مَا أَوحىٰ بِهِ مُعَاوِيَة»(٣).

⇐ وعَن أَبِي النَّضرة عَن أَبِي هُريرة: أنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ لِعَشرة مِن أَصْحَابه: آخركُم مَوتاً فِي النَّار، فِيهِمْ سَمُرَة بن جُنْدُب، قَالَ أَبُو النَّضرة، فكَان سَمُرَة بن جُنْدُب آخرهُم مَوتاً. والخُلاَصة سَمُرَة بن جُنْدُب بَاع دِينَه بِدُنْيَاه وآثَر العَاجِلة عَلىٰ الآخرة إِذْ آرْتَكب الْكَذِب والبُهتان.

أُنظر، الْمُعْجَم الأوسَط: ٦/٢٠٨ و: ٧/١٧٧، شَرح نَهْج الْبَلاَغَة لِٱبن أَبِي الْحَدِيد: ٤/٧٨، التَّأريخ الصَّغير: ١/١٣٣، تَهذِيب الكَمَال: ١٢/١٣٣ و: ٣٤/٢٥٧، سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ٣/١٨٤، تَهذِيب التَّهذِيب: ٤/٢٠٧ و: ١٢/٢٠٠، البدَاية والنِّهاية: ٦/٢٥٣، البَيْهَقِيّ فِي الدَّلائل: ٦/٤٥٩، الشّفا بِتعريف حُقُوق المُصْطَفىٰ: ١/٣٣٩.

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ٢٠٧.

(٣) لا نُريد التَّعليق عَلىٰ هَذَا الكَلاَم مَرَّة ثَانِيَة، مِن خِلال الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٢٠٧. والَّتي أَطبق المُؤرّخُون عَلىٰ أَنَّهَا نَزلت فِي عَلِيّ عليه السلام، وسَبق وأنْ دَللنا عَلىٰ ذَلِكَ بِالمصادر الَّتِي ذَكرنَاها سَابقاً، كالطَّبري: ١٢٢/ و ٦١٦٤، شوَاهد التَّنزِيل لِلْحَاكِم الحَسكَاني: ١/١٢٣ ح ١٣٣ ومَا بَعْده، والثّعلبي فِي الكَشف والْبَيَان: ١/١١٧، والرَّازي فِي تَفْسِيره: ٢/١٥٢، وغَيْرهم كَثِير.

ومَا روي أنّ مُعَاوِيَةَ بَذل لِسَمُرَة بن جُنْدُب مِئة أَلف دِرهم حَتَّىٰ يَروي أنّ هَذِه الآيَة نَزلت فِي عَلِيّ بن أَبِي طَالب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥. وأنّ الآيَة الثَّانِيَة هِي فِي ٱبن مُلْجَم وَهِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
⇐

بِهَذا الاِفْتِرَاء وَكَثِير مِن مِثله عَلىٰ الله ورَسُوله ـ أُزْلِفت الدُّنْيا وزِينَتُها لِمُعَاوِيَة، ومِن هُنا قَالَ أَبْنَاؤها: مُعَاوِيَة سِيَّاسِي ودَاهِية، وعَلي لاَ يَعْرِف السِّيَّاسَة، ونَحنُ نَقول مَعْهُم: إنَّ عَلِيّاً أَبْعد النَّاس عِن سِيَّاسَة الشَّيْطَان وَأَعْدَاء الرَّحمن... أرَاد مُعَاوِيَة الدُّنْيا وضَحّىٰ بِالدِّين مِن أَجْلِها، وأرَاد الإِمَام الآخِرَة ومَرضَاة الله وضَحّىٰ بِالدُّنْيا وبِنَفْسه، ونَال كُلٌّ مَا أَرَاد: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1].

(فَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ، وَ نَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ.... الدَّابِرَ) قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ لإِبْلِيس وحِزْبَه: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] فَقَال لهُ إِبْلِيس: وأنَا أيضاً ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

⇐ يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فَلم يَقبل، فَبذل لهُ مِئتي أَلف دِرهم فَلم يَقبل، فَبذل لهُ ثَلاثمئة أَلف فَلم يَقبل، فَبذل أربعمئة أَلف فَقَبل وروىٰ ذَلِكَ. فلاَحظ بَعْض مَخازي سَمُرَة فِي آبن أَبي ٱلْحَدِيد فِي شَرحه عَلىٰ نَهج ٱلبَلاَغَة: ٧٨٩/١ طَبعة الحَديثه بِبيروت، والشَّرح المُخْتَار المَذكور: ٧٩٢. فإذَا كَانَتْ المُقَارنة مِن هَذَا البَاب فَلا عَتَب، ولاَ ٱستدلاَل.

أُنظر، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٥٨/٢، المُستَرشد فِي إِمَامَة أَمِير المُؤْمِنِينَ: ٤٣٣، الخَصَائص لِابْـن البطريق: ٩٨، كَشف اليَقِين: ٩٠، بِحَار الأَنْـوَار: ٢٨٩/٣٨، و: ٤٨/٣٦ و ٤٩، إعْـلاَم الوَرىٰ: ١٩١، الطَّرائِف: ٣٣، العُمدة: ٣٤٠، دَلاَئل الصِّدْق: ٥٣٨/٢، الشَّافي للسَّيِّد المُرتضىٰ: ٢٥/٤، الغَدِير: ٤٨/٢، تَذكرة الخَواصّ لسِبط آبن الجوزي: ٤٠، تَأريخ اليَعقوبِي: ٣٣/٢، الطَّرائِف لِابْن طَاووس: ٤٠٧، ٱختيَار مَعْرِفَة الرِّجال: ١٣٠/١، كفَاية الطَّالب: ١١٥ ينَابِيع المَوَدَّة: ١٠٥.

(١) ٱلشُّورَىٰ: ٢٠.

(٢) ٱلأَعْرَافِ: ١٨.

خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّـهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[١].

وَالْإِمَام يُخوف «الشَّيْطَان» مِن نَار جَهَنم فِي الْآخِرَة، ومِن سُوء الْعَاقِبَة فِي الدُّنْيَا بقَطع الْأَصْل والنَّسل... ثُمَّ مَاذا؟. (فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَ إِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لاٰ أَزَالُ بِبَاحَتِكَ...) يُقْسم الإِمَام لَو أَمْكَنَته الْفُرْصَة مِن ٱبن أَبِي سُفْيَانَ لَجاهَدَه بِكُلِّ مَا يَملك مِن طَاقة، أَمَّا النَّصر فِي الدُّنْيَا فَبيَد الله وَحده. وَقَالَ الْإِمَام مُخَاطِباً ٱبن العَاص: «فَإِنْ يُمَكِّنِّي اللهُ مِنْكَ وَ مِنِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَ إِنْ تُعْجِزَا وَ تَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا»[٢].

---

(١) ٱلنِّسَاء: ١١٧ ـ ١١٩.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٣٩). (مِنهُ ﷺ).

الرسالة
-٥٦-

إِلىٰ شُرَيْح بن هَانِىء:

اتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَ مَسَاءٍ، وَ خَفْ عَلَىٰ نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ، وَ لاْ تَأْمَنْهَا عَلَىٰ حَالٍ، وَ اعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ، مَخَافَةَ مَكْرُوهٍ؛ سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ. فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَ لِنَزْوَتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً.

اللُّغَة:

النَّزْوَة: السُّرعَة. والحَفِيظَة: الغَضَب. والمُرَاد بِالقَامِع والوَاقِم الرَّادِع القَاهِر.

الإِعْرَاب:

مَخَافَةَ مَفْعُول مِن أَجْلِه لِتَرْدَعْ، وَسَمَتْ جوَاب إِنْ لَمْ تَرْدَعْ.

الْمَعْنَىٰ:

شُرَيْح هَذَا مِن الْصَّحَابَة. قَالَ ٱبن عَبد البر فِي «الاِسْتِيعَاب»[1]: «شُرَيْح جَاهِلِي إِسْلاَمِي، ويُكنىٰ أبَا المُقدَاد، وهُو مِن جُلَّة أَصْحَاب عَليّ». وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: كَان شُرَيْح مِن جُلَّة أَصْحَاب الإِمَام عليه السلام شَهد مَعَه المشَاهد كُلّها، وعَاش حَتَّىٰ قُتْل بِسِجْستَان فِي زَمن الحَجَّاج[2]. وَقَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: أَرْسَل الإِمَام شُرَيْحاً هَـذَا عَلىٰ مُقَدَّمته إِلىٰ أَهْل الشَّام، وأَوْصَاه بِقَوْله:

(ٱتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَ مَسَاءٍ، وَ خَفْ عَلَىٰ نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ... إلخ). الْأَمْر بِتَقوىٰ الله، والتَّحْذِير مِن الدُّنْيَا غَرُورَها هُو المَادَّة الْأُولَىٰ فِي كُلّ مَرسُوم يُـعيِّن بِـهِ الإِمَام عَامِلاً مِن عُمَّالِهِ، أو قَائِداً مِن قَادَة الْجُنْد (وَ ٱعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ... إلخ). عَـالِجْها بِـالكَبح عَـن الْمُحَـرَّمَات، ورَوِّضهَـا بِحَـلال الله وشَرِيعَته، ولاَ تَرْكَب الشَّهوَات فَتَجْمَح بِكَ إِلىٰ المُهْلكَات.

---

(١) تَقَدَّمَت تَرجَمَته، وأُنظر، الإِسْتِيعَاب: ١٤٩/٢.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١٣٨/١٧.

الرسالة ـ ٥٧ ـ

إلىٰ أَهْل الْكُوفَة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هَذَا. إِمَّا ظَالِماً، وَ إِمَّا مَظْلُوماً؛ وَ إِمَّا بَاغِياً، وَ إِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ. وَ إِنِّي أُذَكِّرُ اللهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي، وَ إِنْ كُنْتُ مُسِيئاً آسْتَعْتَبَنِي.

اللُّغَة:

نَفَرَ مِن الشَّيء: جَزَع وآبْتَعَد، وإِلَيَّ الشَّيء: أَسْرَع إِلَيْهِ. وآسْتَعْتَبَنِي: طَلِبَ مِنِّي أنْ أَرْضِيه بِمَا يُرِيد.

الْإِعْرَاب:

هَذَا عَطف بَيان لِحَيِّي، وَظَالِماً حَال، وَاللهَ مَفْعُول ثَانٍ لأُذَكِّرُ، ومَنْ بَلَغَهُ مَفْعُول أَوَّل، وَلَمَّا بِالتَّشدِيد بِمَعْنَىٰ يَد «إلّا».

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: أَرْسَل الإِمَام هَذِهِ آلرِّسَالَة إِلىٰ أَهْل الْكُوفَة حِين خَرَج

مِن الْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة مُتَوَجِهاً إِلىٰ الْبَصْرَة لِقتَال أَصْحَاب الْجَمَل، والْمَعْنَىٰ وَاضح، ويَتَلَخص بِأنَّ الْإِمَام رَغِب إِلَيْهِمْ أنْ يُسْرِعُوا إِلَيْهِ ظَالِماً كَان أَمْ مَظْلُوماً، فإنْ كَان ظَالِماً كَفوّه عَن الظُّلم، وإنْ كَان مَظْلُوماً أَنْصفُوه مِن الظَّالم.

وَلَيْسَ هَذَا شَكاً مِن الإِمَام فِي أَمْره... كَلا، وألف كَلا، وإِنَّما هُو إِلقَاء لِلحُجَّة عَلىٰ الجَمِيع حَتَّىٰ عَلىٰ مَن يَرَاه ظَالِماً، وتَذكِير بِقَول الرَّسُول الأَعْظم ﷺ: «أنْصر أَخَاك ظَالِماً أَو مَظلُوماً، ولَمَّا قِيل لهُ: كَيف نَنصُره ظَالِماً؟. قَالَ: تَردوّه عَن ظُلمه، فَذَلِك نَصرُك إِيَّاه»[1]. ويَدُلنا هَذَا أنَّ الْمُجْتَمع لَنْ يَكُون إِسْلاَمِياً بِحَقٍّ إلاّ إذا كَان إِنْسَانِياً مُتَماسِكاً ومُتعَاوناً عَلىٰ حَيَاة يَسودَها الحُبّ والإِخْاء، ويَغمُرها الأَمْن والصَّفَاء.

ومِن هُنا صَحَّ الْقَوْل: لاَ مُجْتَمع إِسْلاَمي بِحَقٍّ اليَوْم فِي شَرق الأَرْض ولاَ فِي غَرْبِهَا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَـٰسِقُونَ﴾[2].

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٣٦٩/١٠، صَحِيح ابن حبَّان: ٥٧١/١١، الْمُعْجَم الأوسَط: ١ /٢٠٣، الْمُعْجَم الصَّغِير: ٢٠٨/١، مُسْنَد الشُّهاب: ٣٧٥/١، رِيَاض الصَّالِحين لشَرف الدِّين النَّووي: ١٧٠، مَوَارد الظَّمْآن: ٤٥٧، تَأريخ دِمشق: ٨٣/٥، الجَامِع الصَّغِير لِلسُّيوطي: ٤٢٠/١، فَتح الوَهاب: ٢٩١/٢، المَجموع: ١٠٣/١٣، الإِقنَاع: ١٩٩/٢، مُغني المُحتاج: ١٩٤/٤، البَحر الرَّائق: ١٦٧/٧، تكملة حَاشِية رَدّ المحتار: ٥٩٢/١، كَشف القنَاع: ١٩٨/٦، المُحلىٰ: ١٠٩/١١، سُبل السَّلام: ٦٩/٣، مُسْنَد أَحمد: ٩٩/٣، سُنن التِّرمِذي: ٣٥٦/٣، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٦٤/٧، فَتح البَاري: ٧١/٥، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٤٣٩/٦، الْمُصَنَّف لعبدالرَّزاق الصنْعَاني: ١٦٩/١١، المُغني: ٣٥٣/١٠.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١١٠.

الرسالة
ـ٥٨ـ

إلىٰ أَهْلِ الأَمْصَار:

وَ كَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا ٱلْتَقَيْنَا وَ الْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ، وَ نَبِيَّنَا وَاحِدٌ، وَ دَعْوَتَنَا فِي الْإِسْلاٰمِ وَاحِدَةٌ، وَ لاٰ نَسْتَزِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ وَ التَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ وَ لاٰ يَسْتَزِيدُونَنَا: الْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلاَّ مَا ٱخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ؛ وَ نَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ! فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِ مَا لاٰ يُدْرَكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَ تَسْكِينِ الْعَامَّةِ، حَتَّىٰ يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَ يَسْتَجْمِعَ، فَنَقْوَىٰ عَلَىٰ وَضْعِ الْحَقِّ مَوَاضِعَهُ، فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ! فَأَبَوْا حَتَّىٰ جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَ رَكَدَتْ، وَ وَقَدَتْ نِيرَانُهَا وَ حَمِشَتْ. فَلَمَّا ضَرَّسَتْنَا وَ إِيَّاهُمْ، وَ وَضَعَتْ مَخَالِبَهَا فِينَا وَ فِيهِمْ، أَجَابُوا عِنْدَ ذٰلِكَ إِلَىٰ الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَىٰ مَا دَعَوْا، وَ سَارَعْنَاهُمْ إِلَىٰ مَا طَلَبُوا، حَتَّىٰ ٱسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَ ٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمُ الْمَعْذِرَةُ. فَمَنْ تَمَّ عَلَىٰ ذٰلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَ مَنْ لَجَّ وَ تَمَادَىٰ فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَانَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَ صَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَىٰ رَأْسِهِ.

اللُّغَة:

النَّائِرَةِ: الْعَدَاوَة والشَّحْنَاء، والثَّائِرَة: الضَّجَة والشَّغب، ورُوِيت بِهِما، والْمَعْنَىٰ مُتقَارِب. وَرَكَدَتْ: تَمَكَنْت. وَوَقَدَتْ: ٱلتَهَبَت. وَحَمِشَتْ: ٱشْتَدَت. وَضَرَّسَتْنَا: عَضتنَا بِأضْرَاسِها. والرَّاكِسُ: الرَّاسِبُ أو الْمُنْقَلب. ورَانَ: غَطَىٰ. ودَائِرَةُ السَّوْءِ: تُرِي الْإِنْسَان مَا يَسُوءَه.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِنْ أَنَّا ٱلْتَقَيْنَا خَبَر كَانَ، والْقَوْمُ عَطف عَلَىٰ «نَا» فِي ٱلْتَقَيْنَا، أَمَّا الْقَوْل: لاَ يَجُوز العَطف عَلىٰ الضَّمِير المُتصل إلّا مَع تَأكِيده بِضَمِير مُنْفَصل، أَمَّا هَذَا الْقَوْل فَيرِدَه قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

وبِإِطْفَاءِ الثَّائِرَةِ مُتعَلّق بِنُدَاوِ.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: أَرْسَل الْإِمَام كِتَابَاً إِلىٰ الْأَمْصَار مِن أَهْل دَوْلَته يُخْبِرهُم بِمَا حَدَث فِي صِفِّين جَاء فِيه: (وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا ٱلْتَقَيْنَا وَ الْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.... بَرَاءٌ) فِي السَّاعَة الَّتِي ٱلْتَقىٰ الْجَمْعَان كَانَ ظَاهِر الحَال مِن أَهْل الشَّام أَنَّهم مُسْلمُون، وإِنَّ الْإِخْتِلاَف بَيْنَهمْ وبَيْنَ الإِمَام وَأَصْحَابه ـ يَنْحَصر فِي دَم عُثْمَانَ لاَ فِي شَيء مِن الدِّين وأُصُوله... وَلَيْسَ مِن شَكٍّ أَنَّ الْإِمَام بَرِيء مِن دَمِ عُثْمَانَ، وإِنَّ مُعَاوِيَة يَعْلَم

(١) ٱلعَنكَبُوتِ: ١٥.

ذَلِكَ، ولكنَّه يُكَابر لِحَاجَة فِي نَفسهِ. قَالَ ابن أَبِي الحَدِيد: قَول الإِمَام «وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ»، كَلاَم مَنْ لَمْ يَحْكُم لأَهْل صِفِّين مِن جَانب مُعَاوِيَة حُكْماً قَاطِعاً بِالإِسْلاَم، بَل قَالَ: ظَاهِرهُم الإِسْلاَم، ولاَ خُلف بَيْننا وبَيْنَهُم فِيهِ، بَل الخُلف فِي دَمِ عُثْمَان»[1]. وَهَذَا يُومِيء إِلىٰ أَنّه ﷺ لَمْ يَحْكُم حُكْماً قَاطِعاً بِإِسْلاَم مُعَاوِيَة وَأَصْحَابه، وإِنَّمَا حَكَم عَليهِ بِالإِسْلاَم ظَاهِراً لاَ وَاقِعاً.

الإِمَام وَالْقِصَاص مِنْ قَتَلَة عُثْمَانَ:

(فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِ مَا لاَ يُدْرَكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ... مَوَاضِعَهُ). قَالَ مُعَاوِيَة لِلإِمَام: نُرِيدُك أَنْ تَقْتَص مِن قَتَلَة عُثْمَانَ. فقَال لهُ الإِمَام: إنَّ إِقَامَة الحَد والقِصَاص إِنَّمَا تُطلب مِن الإِمَام المُعْتَرَف لهُ، وأَنْتَ تُنْكِر بَيْعَتي وإِمَامَتي، فَكَيف تَطْلُب مِني مَا يُطلب مِن الإِمَام!.

فإِنْ كُنْتَ صَادِقاً فِي طَلَبك هَذَا ومُخْلِصاً لِعُثْمَان ودَم عُثْمَانَ «فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ ـ أي الخِلاَفَة ـ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ»[2]. هَذَا أَوَّلاً.

وَثَانِياً: أَنَّ القِصَاصْ مِنْ قَتَلَة عُثْمَانَ لاَ يُدْرَك الآنْ ويُسْتَجَاب مَا دَامَت الفِتْنَة قَائِمَة، فَهَلُّم ـ يَا مُعَاوِيَة ـ نَعْمَل يَداً وَاحِدَة عَلىٰ الأَمْن والاِسْتقرَار، وجَمع كَلِمَة المُسْلِمِين، وبِذَلِكَ يَكُون الإِمَام فِي مَركَز القُوَّة فَيَقْتَص مِن الجَانِي، ويُقِيم الحَد عَلىٰ مَن يَسْتَحق، إِمَّا أَنْ تَعْمَل أَنْتَ، وابن العَاص عَلىٰ الشِّقَاق وإِيْقَاظ الفِتْنَة، ثُمَّ تُطَالِب

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ١٤٢/١٧.

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغَة: مِن كتَابٍ لهُ ﷺ جوَاباً إِلىٰ مُعَاوِيَة الرِّسَالَة (٦٤).

بِٱلْقِصَاص والْقَود ـ فإنَّك بِهذا تُريد لِلْمُسْلِمِين السُّوء والشَّرّ.

وصَادَف أنَّ الإِمَام تحدَث فِي ذَات يَوْم عَن أَمْر ٱلْقِصَاص مِن قَتَلَة عُثْمَانَ، فَشَهَر عَشْرَة آلاَف فَارس رِمَاحِهم، وقَالُوا: كُلّنَا قَتَلَة عُثْمَانَ، ومَن شَاء ٱلْقِصَاص مِنَا فَلِيَأت... وإِلىٰ ذَلِكَ أشَار بِقَوْله: «كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَ الْقَوْمُ ـ أي قَتَلَة عُثْمَان ـ الْمُجْلِبُونَ عَلَىٰ حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَ لاَ نَمْلِكُهُمْ! وَ هَا هُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَٱلْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ... إلخ»[1]. وَأَحسَن مَن تَكَلَّم فِي هَذَا المَوْضُوع، وٱعْتَذَر عَن الإِمَام بِالمَنْطق الْقَوِيم والحُجَّة البَالِغَة الدَّامِغة هُو الْعَقَّاد فِي كِتَابِهِ «عَبْقَرِية الْإِمَام» بِعنوَان «سِيَّاسَته».

(فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ! فَأَبَوْا حَتَّىٰ جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَ رَكَدَتْ... إلخ). دَعونَاهُم إِلىٰ الوِفَاق والتَّعَاون عَلىٰ الْحَقّ، فَأبَوا إلّا الحَرْب، وأرْغَمونَا عَلىٰ خَوضِهَا كَارِهِين، ولمَّا بَلْغَت مِنْهُم الغَايَة وأنْهكتهُم وأَنْهكتنَا مَعْهُم (أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَىٰ مَا دَعَوْا... إلخ). أي تَرَاجَعُوا عَن المُطَالَبَة بِدَمِ عُثْمَانَ، ورَفَعُوا المَصَاحِف طَالِبِين الْعَدْل والْإِنْصَاف. وَمِن البَدَاهَة أَنَّه لاَ مَعْنىٰ لِلعَدْل هُنا إلّا أنْ يَدخل مُعَاوِيَة فِيما دَخل فِيهِ الْمُسْلِمُون، ثُمَّ يُحَاكَم الْمُتَهمِين بِدَمِ عُثْمَانَ إِلىٰ الإِمَام وهَذِه هِي دَعْوَة الإِمَام بِالذَات، وَلِذَا أَجَابَهُم إِلىٰ طَلَبِهم، وَلَمْ يَبق لَهُم مِن عُذرٍ يَتْعَللون بِهِ.

(فَمَنْ تَمَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْهُمْ) أي رَضِي بِالْحَقّ، وأَخْلَص لهُ، ولَمْ يَكذِب ويُخَادِع كَمَا فَعل مُعَاوِيَة، وٱبن العَاص (فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللهُ مِنَ الْهَلَكَةِ). يُخطِىء كُلّ مَن يُطلِق

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٦٨). (مِنْهُ ﷺ).

الْحُكْم بِالْغَدْر، والْخِيَانَة عَلىٰ أُمَّة بِأسرِهَا، أو عَلىٰ حِزْب أو جَيش بِكَامله، فـإنَّ الْكَثِير مِن الأَتْبَاع يُضللهُم القَادَة والمَتْبُوعُون، ويَخْفُون عَنْهُم الحقَائِق.

ومِن هُنا تَرَك جَمَاعَةٌ الحِزْب الَّذي آمَنُوا بِهِ مِـن قَـبل، وتَـعَصْبُوا لهُ، وتَـركُوه وقَاومُوه حِين ظَهَرَت لَهُم خِيَانَة القَادة وعَمَالَتهم وسُوء مَقاصدهُم تَمَاماً كَمَا يَـتْرك الصَّدِيق صَدِيقَه حِين لاَ يَجد عِنْدَه الوَفَاء، والمَرِيض طَبِيبه حِين لاَ عِنْدَه الشِّـفَاء. وعِندمَا رَفَع مُعَاوِيَة الْمَصَاحِف وجَرىٰ التَّحْكِيم آتَضْحَت لِكُلِّ وَاعٍ مُخلِص نـوَايـا مُعَاوِيَة، وآبن العَاص، وبِخَاصَّة بَعد أنْ آشتَهرَت الصَّفْقَة عَلىٰ مِصْر بَيْنَ الاثْـنَيْن، وَالّتي قَالَ الإِمَام عَنْهَا: «فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ»[1]. آتَضْحَت نِيَّة السُّوء والْغَدْر عِند الاثْنَيْن، وَعَلِم بِهَا الوَاعي الْمُخْلِص فتَبرَّأ مِنْهُما «وَأَنْقَذَهُ اللهُ مِنَ الْهَلَكَةِ» كَمَا قَالَ الإِمَام.

(وَ مَنْ لَجَّ وَ تَمَادَىٰ) فِي مُتَابَعة مُعَاوِيَة، وآبن العَاص كأَكْثَر أَهْل الشَّام، أو فِي الإِلحَاح عَلىٰ الْمُضي فِي الْحَرْب ونَبْذ التَّحْكِيم إلىٰ كِتَاب الله كَالْخَوَارِج (فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَانَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ... إلخ). فِي الْغَيِّ، والضَّلاَلَةِ، وعَلَيْهِ تَدُور دَائِرة السُّوء فِي النِّهَايَة.

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٢٦). (مِنْهُ ﷺ).

الرسالة

-٥٩-

إلىٰ الأسود بن قُطْبَة:

أَمَّا بعْدُ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ، فَٱجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَ ٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا ٱفْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوَابَهُ، وَ مُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ.

وَ ٱعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلاَّ كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً؛ وَ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَ الإِحْتِسَابُ عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ. فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ، وَ السَّلامُ.

اللُّغَة:

ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ: لَمْ يَثبُت عَلىٰ حَال. مَا تُنكر أَمْثاله: لاَ تَستَحسن أَمْثاله مِن غَيرِك. يَفْرُغْ صَاحِبُهَا: بَطَّال بِلا عَمَل. والْمُرَاد بِيَصِلُ إِلَيْكَ الثَّوَاب عَلىٰ عَمَل الْخَيْر، والْمُرَاد بِيَصِلُ بِكَ نَفس الْعَمَل الْمُثَاب عَلَيْهِ.

الإِعْرَاب:

كَثِيراً صِفَة لِمَفْعُول مُطلق مَحْذُوف أي مَنْعاً كَثِيراً، ورَاجِياً حَال، وثَوَابَهُ مَفْعُول «رَاجِياً» وَقَطُّ هُنا ظَرف زَمَان لاِسْتِغرَاق مَا مَضىٰ، وَتَخْتَص بِالنَّفي.

الْعَدْل، وَالمُسَاوَاة، وَالْعَمَل:

وَجَه الإِمَام هَذِه ٱلرِّسَالَة إِلىٰ عَامِله بِحُلْوَان، وهُو الأَسوَد بن قُطْبَة[1]، وَقَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «حُلْوَان إِيَالَة مِن إِيَالاَت فَارس»[2]. والإِيَالة قِطْعَة مِن البِلاد يَحْكمُها وَالٍ. وَقَالَ الشَّيخ الطُّرِيحي فِي مَجْمَع البَحرِين: «حُلْوَان بَلَد مَشْهُور، وهُو آخر مُدن الْعِرَاق مِن طَرَف الْمَشرق والقَادِسيَة»[3]. وعَلىٰ أَيَّة حَال فَإِنَّ المُهم مَا فِي ٱلرِّساله، وقَد حَدَد الإِمَام فِيها مُهِمَّة الحَاكِم بِإقَامة الْعَدْل، والمُسَاوَاة، والإِجْتِهَاد فِي العَمَل لِحَيَاة أَكْمَل. وفِيمَا يَلي الْبَيَان:

١ ـ الْعَدْل، وإِلَيْهِ الإِشَارَة بِهَذه ٱلْحِكْمَة: (فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ

---

(١) قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد فِي شَرح ٱلنَّهج: ١٤٥/١٧، لَم أَقف عَلىٰ نَسَب الأَسوَد بن قُطْبَة. وقَرَأتُ فِي كَثِير مِن النُّسخ أَنَّه حَارثِي مِن بَني الحَارِث بن كَعْب، ولَمْ أَتحقق ذَلِكَ، والَّذي يَغلب عَلىٰ ظَني أَنَّه الأَسوَد بن زَيد بن قُطْبَة بن غَنْم الأَنْصَاري مِن بَني عُبيد بن عَدي. ذَكره أَبُو عَمر بن عبدالبَر فِي كتَابه الاِسْتِيعَاب، وَقَالَ: إِنَّ مُوسىٰ بن عَقَبَه عَده فِيمن شَهد بَدراً.

(٢) أُنظر، شَرح ٱلنَّهج: ١١٥/٣.

(٣) أُنظر، مَجْمَع البَحرِين: ٥٦٧/١. وَتَبعُد عَن بَغدَاد خَمس مرَاحل، وهِي مِن طَرف العرَاق مِن المَشرق، والقَادسِية مِن طَرفه المَغرب، وقِيل سُمِّيت بِأسم بَانِيها وهو حُلْوَان بن عُمْرَان بن الحَاف بن قُضَاع. وهِي مَشهُورة بِالرُّمان والتِّين فَتحها المُسْلِمُون سَنَة (١٩ هـ). أُنظر، مُعجم البُلدان: ٢٩١/٢، مرَاصد الإِطِّلاع: ٤١٨/١، لِسَان العَرب: ١٩٤/١٤.

كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ) إذَا تَقَلَّبَت أَخْلاَق الْوَالِي مِن حَالٍ إِلىٰ حَال تَبعاً لأهوَائِه وأَطْمَاعه ـ ضَاعت الحُقُوق، وسَادَت الْفَوضىٰ، والْبَغْي، والْفَسَاد، وٱسْتحَالت ٱلحَيَاة.

٢ ـ المُسَاوَاة، وإِلَيْهَا الإشَارَة بِهذا الأَمْر الَّذي وَجهه الإِمَام إِلىٰ عَامِله: (فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً... إلخ). سَاوِ بَيْنَ الجَمِيع فِي الحُقُوق والوَاجِبَات بِلا تَفَاضُل وٱمتِياز بَيْنَ لَون وجُنس، وغَنِيٰ وفَقْر إلّا بمَا يُقَدم المَرْء مِن عَمل نَافع لِلفَرد أو لِلمُجْتَمع.

٣ ـ الْعَمَل لِخِدْمَة ٱلحَيَاة، وهُو المُرَاد بقَوْله: (وَ ٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا ٱفْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ... إلخ). ٱعْمَل لِمَنْفَعة النَّاس بِلا غُرُور وتَبْجُح، بَل تَوقع النَّقص والخَلل فِي عَملَك، ورَجَاء التَّمام والكَمَال فِيهِ. وٱعْلَم أنَّ البَطالَة والإِهْمَال حَسرَة ونَدَامة وٱنْحِطَاط وجَهَالة، وإِيَّاكَ أنْ تَقنَع مِن الْعَمَل النَّافع عِند حَدّ. ولَولاَ الْعَمَل المُتَواصل مَا بَلَغ الإنْسَان غَايَة مِن أَهدَافه، وهَل مِن شَيء أَحْلىٰ مَغبَّة مِن الْعَمَل فِي سَبِيل الخَيْر؟ وهَل مِن أَحد بَلَغ مِن العُلىٰ فِي الدُّنْيا والآخِرَة إلّا بِالكفَاح والْعَمَل؟.

(وَ الْإِحْتِسَابُ عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ) أي ٱعْمَل لِمَصْلَحَة النَّاس بِكُلِّ مَا تَملك مِن طَاقة. وقِيلَ لِمَلك زَال مُلكه: مَا الَّذي أَزَال مُلكك؟ قَالَ: ٱعْجَابِي بِقوّتي، وإهْمَالي لرَّعِيتي (فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ). إذَا عَملت لِحَيَاة النَّاس ومَصَالِحهم فإنَّك تَأخذ مِن الله ومِنْهُم ثَوَاباً أَعْظَم وأَجْزَل مِمَّا تُعْطِيهم أَضْعَافاً مُضَاعفة... إذَا زَرْعَت الخَيْر أَكَلت مِن زَرْعَك بِلا رَيب، ولكنْ مِن يَزْرَع حَبَّة وَاحدة فِي أرْض الله سُبْحَانَهُ تَعُود عَلَيْهِ بِسَبْعمِئة كمَا نَطقَت الآيَة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ

وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]. وَكُلّ مَن عَمِل لوَجه الله وَعِيَاله فَقد زَرْع فِي أَرْضَه.

وَبَعد، فإنَّ لِكُلِّ شَيء غَايَة، والغَايَة مِن الْحُكْم عِند الإِمَام لاَ تَـنْحَصر بِحِـفظ الأَمْن، وإقَامَة الْعَدْل بوفَاء الكَيل والمِيزَان وفَصل الخُصُومَات بِالْحَقّ، وإنْـصَاف الظَّالِم مِن المَظْلُوم، ومَا أَشْبَه. بَل لاَ بُدَّ لهُ مَع هَذَا أنْ يَعْمَل جَـاهِداً لِحَـيَاة أَفْـضَل وأَسْعد، وأنْ يَنْطَلق الْحَاكِم بِرَعِيته مِن جَدِيدٍ إِلىٰ جَدِيد أَصْلَح وأَنْفَع، ومِن قوّةٍ إِلىٰ قوّة أَعَزّ وأَمْنَع.

(١) ٱلبَقَرَة: ٢٦١.

الرسالة ٦٠

الْجَيْش وَالْمُواطنُون:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلاٰدِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُوداً هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَ قَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى، وَ صَرْفِ الشَّذَىٰ، وَ أَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَ إِلَىٰ ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ، إِلاّٰ مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ، لاٰ يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَباً إِلَىٰ شِبَعِهِ. فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ شَيْئاً ظُلْماً، عَنْ ظُلْمِهِمْ وَ كُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَارَّتِهِمْ، وَ التَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا ٱسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ. وَ أَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ، فَٱرْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ، وَ مَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَ مَا لاٰ تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلاّٰ بِاللهِ وَ بِي، فَأَنَا أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ اللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللُّغَة:

الشَّذَىٰ: والْأَذَىٰ. والمَعَرَّة: الْمَسَاءَة. والجَوْعَة: مَصْدَر جَاع.

الإِعْرَاب:

مِنْ عَبْدِ اللهِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً لِمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هَذَا كِتَاب مُرْسَل مِنْ عَبْدِ اللهِ، وظُلْماً صِفَة لِمَفْعُول مُطلَق مَحْذُوف مُبين التَّناول أي تَنَاوَلَ ظُلْماً، لأَنَّ التَّنَاوَل والأخذ يَكُون بِالْعَدْل وبِالظُّلْم، ولَيْسَ عَطف بَيَان كَمَا تَوهَم بَعْض الشَّارِحِين.

الْمَعْنَىٰ:

كَان مِعْظم الجَيْش ـ فِيمَا مَضىٰ ـ يَسِير عَلىٰ الأَقْدَام فِي ٱنْتِقَاله مِن مَكَان لآخر حَيْث لاَ شَاحِنَات وقَاطِرَات، والَّذِين يَركَبُون الخَيْل مِن المُحَارِبين أَقْلاَء... وكَان المُحَارِب يَحْمل سِلاَحه، ومَا يَضْطَر إِلَيْهِ عَلىٰ ظَهْرِه أو عَاتِقه، وبِطَبِيعَة الحَال كَان يَمر الجَيْش فِي طَرِيقه بِالمُوَاطِنِين. وخَشِي الإِمَام أَنْ يُفْسد فِي الأَرْض بَعْض الأَفرَاد مِن الجَيْش الزَّاحِف لِحَرْب أَصْحَاب الجَمَل، أو أَهْل الشَّام، ويُسيء التَّصرف مَع وَاحد مِن النَّاس ـ كَمَا هُو المُعْتَاد ـ فَأَوصىٰ جُنُودَه بِالْعَدْل وحُسن السِّيرَة، لأَنَّهم القُوَّة الرَّادعَة لِلمُعْتَدِين، فَكَيف يَبْغُون ويَعْتَدُون؟ ومِن البَدَاهة أَنَّ الاِعْتدَاء، أو التَّقصِير مِن أي موظَف أو جُندِي ـ تَقع مَسْئُولِيَة عَلىٰ الحَاكِم أَمَام الله، والنَّاس إِلّا إِذَا أَخذ المُعْتَدي بِجَرِيرَته، وضَرَب يَده بِقوَّةِ الْحَقّ، والْعَدْل.

وأَيضاً كَتَب الإِمَام إِلىٰ عُمَّالِهِ يَأمرهُم أَنْ يُرَاقبُوا أَفرَاد الجُنْد ويَردَعُوا ويُؤدبُوا كُلّ سَفِيه يُحَاول أَنْ يُخِيف ويُسيء إِلىٰ إِنْسَان حَتَّىٰ ولَو كَان يَهُودِياً أو نُصرَانِياً، وإِنْ عَجْزُوا عَن كَبح الجَانِي وتَأدِيبه أَعْلمُوه بِأمره، لِيأخذه بِما يَسْتَحق... وبِهَذا الحَزْم والْعَدْل سَاغ لِلإِمَام أَنْ يَتبَرَأ مِن كُلّ ظُلاَمة تَحدث مِن أَحدِ جُنُوده إِلّا من ٱضْطُرَّ إِلىٰ لُقمَة عَيش، أو جُرعَة مَاء، غَيْرَ بَاغٍ ولاَ عَادٍ، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٧٣.

الرسالة
-٦١-

إلى كُمَيْل بن زِيَاد:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ، وَ تَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ، وَ رَأْيٌ مُتَبَّرٌ. وَ إِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسِيَا، وَ تَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ - لَيْسَ بِهَا مَنْ يَمْنَعُهَا، وَ لاَ يَرُدُّ الْجَيْشَ - عَنْهَا لَرَأْيٌ شَعَاعٌ. فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ، وَ لاَ مَهِيبِ الْجَانِبِ، وَ لاَ سَادٍّ ثُغْرَةً، وَ لاَ كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً، وَ لاَ مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ، وَ لاَ مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ.

اللُّغَة:

مُتَبَّرٌ: مُهْلِك. وقِرْقِيسِيَا: اسم بَلد. ومَسَالِح: أَمَاكِن السِّلاَح. والرَأْي الشَّعَاع: المُتَفَرق الضَّعِيف. والشَّوْكَة: القُوَّة.

الإعْرَاب:

لَعجْزٌ خَبَر أنْ تَضْيِيع، ولِرَأْيٌ خَبَر إنَّ تَعَاطِيَك، وغَيْرَ شَدِيدِ صِفَة لِجِسْرٍ، أو

حَال مِن كَاف الخِطَاب.

المَعْنَىٰ:

كَان كُمَيْل بن زِيَاد[1] مِن خَاصَّة الإِمَام، والصَّفوَة مِن شِيعتَه، ولمَّا وَلِّي الحَجَّاجُ

(١) هُو كُمَيْل بن زِيَاد بن سُهيل بن هيثم بن سَعد بن مَالِك بن الحَارث بن صَهبَان بن سَعد بن مَالِك ٱبن النَّخع بن عَمرو بن وَعلَة بن خَالد بن مَالِك بن أدد، كَان من أَصْحَاب الإِمَام عَليّ عليه السلام وشِيعته خَاصَّة، شَهد صِفِّين مَع الإِمَام عَليّ عليه السلام، وكَان شَرِيفاً، ثِقةً، عَابِداً، مُطَاعاً، ولدَ سَنَة (١٢ هـ)، وهُو المَنْسُوب إليهِ الدُّعَاء المشهُور لَيلَة الجُمُعَة، والمَشرُوح بِعدَة شرُوح، قَتَله الحَجَّاج عَلىٰ المَذْهَب فِيمن قَتل مِن الشِّيعَة سَنَة (٨٢ أو ٨٣ هـ)، وإنَّمَا نَقَم مِنهُ الحَجَّاج لأنَّه طَلب ٱلقِصَاص مِن عُثْمَان بن عَفَّان مِن لَطمَة لَطمهَا أيَّاه، فلمَّا أمكنَه عُثْمَان مِن نَفْسه عفَا عَنه. فقَال لهُ الحَجَّاج: أومِثلُك يَسْأله مِن أَميرِ المُؤْمِنِين ٱلقِصَاص؟ أُنظر، البدَايـة والنِّهـاية: ٤٩/٩، الفصُول الفَخْرِية فِي أُصول البَرِية لِجمَال الدِّين أحمَد بن عِنَبَة: ٥٦، الإشتِقَاق لِابْن دُريد: ٤٠٤، جَامع الرّوَاة: ٣١/٢، رِجَال ٱبن دَاود: ٢٨١، رِجَال الشَّيخ: ٥٦ و ٦٩، خُلاصَة الرِّجَال: ٩٤، الإِرْشَاد للشَّيخ المُفيد: ١٥٤، تَهذِيب التَّهذِيب: ٤٤٧/٨، تَأريخ دِمشق: ١٥٨٨/٤٦.

وجه إليهِ مُعَاوِيَة سُفْيَان بن عَوف فِي سِتة آلاَف وأَمرَه أنْ يَقطع هِيت، ويَأْتِي الأَنْبَار والمَدَائِن فَيوقع بِأهلها. فَأتىٰ سُفْيَان هِيت فَلم يَجد بِها أَحداً، ثُمَّ أتىٰ الأَنْبَار، وفِيها مَسلَحة لِعَليّ تَكُون خَمسِمئة رَجُل، وقَد تَفرقُوا، ولَم يَبق مِنْهُم إلا مِئتَان لأنَّه كَان عَليهم كُمَيْل، فَبلغه أنَّ قَوماً بِقِرْقِيسِيَا يُرِيدُون الغَارة عَلىٰ هِيت فَسار إِلَيْهِمْ بِغَير أَمر عَليّ عليه السلام فَأتىٰ أَصْحَاب سُفْيَان، وكُمَيْل غَائب عَنْهَا، وخَـلِيفَته أَشرس بـن حَسَّـان البَكري، فَطَمع سُفْيَان فِي أَصْحَاب عَليّ لِقلتهُم، فقَاتَلهُم فَصَبرُوا لهُ، وقَـتل صَـاحبهُم أَشرَس وثَـلاثُون رَجُلاً، وأحْتَملوا مَا فِي الأَنْبَار مِن أَمْوَال أَهْلَها ورَجعُوا إِلىٰ مُعَاوِية. وبَلغ الخَبَر عَليّاً، فَغَضِب عَلىٰ كُمَيْل، وكَتَب إِليهِ يُنكر عَلَيْهِ فِعله. أَنظر، الكَامِل فِي التَّأريخ: ١٨٩/٣.

وقَبر كُمَيْل عَلىٰ يَمِين الطَّرِيق مِن الكُوفَة إِلىٰ النَّجف الأشرَف، وكَان كُمَيْل بن زِيَاد عَامِل الإِمَام عَليّ عَلىٰ هِيت، وكَان ضَعِيفاً يَمرّ عِليه سَرَايا مُعَاوِيَة تَنْهب أطرَاف العرَاق ولاَ يَردهَا. ويُحَاول أنْ يَجبر مَا عِنده مِن الضَّعف بِأنْ يُغِير عَلىٰ أطرَاف أعْمَال مُعَاوِيَة مِثل قِرْقِيسِيَا ومَا يَجرِي مَجرَاها مِن القُرىٰ عَلىٰ الفُـرَات، فَأنْكَر عليه السلام ذَلِكَ مِن فِعلِه، ولذَا قَال لهُ إنَّ مِن: «العَجْزُ حَاضِرٌ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ...». أُنظر، شَرح ٱلنَّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٤٩/١٧.

طَلبَه لِلقَتل فَهرَب مِنْهُ وآخْتَفىٰ، فَمَّا كَان مِن الحَجَّاج إلّا أنْ مَنع الْعطَاء عَن قَوْمَه... ولمَّا عَلِم كُمَيْل بِذَلِكَ قَالَ: أنَا شَيخ كَبِير، وقَد نَفَد عُمرِي، ولاَ يَنْبَغي أنْ أَكُون سَبباً لِحرمَان قَوْمِي مِن أَقوَاتِهم، وسَلَّم نَفْسَه لِلحَجَّاج، فَلمَّا رَآه قَالَ لهُ: كُنْتَ أَحب أنْ أَجد عَلَيْكَ سَبِيلا، فقَال كُمَيْل: لاَ تَصرِف عَلىٰ أَنْيَابك كَالبَعِير، فَآقض مَا أَنْت قَاض، فَالمُوعد الله، وبَعْد الْقَتْل حِسَاب وجَزَاء. فقَال الحَجَّاج لِجلاوِزَته: آضْرِبُوا عُنْقه، وفَضُرِبت.

وَقَد وَلَّاهُ الإِمَام عَلىٰ هِيت[1]، فَآسْتَضعَفه مُعَاوِيَة وَأرْسَل إِلَيْهِ المُرتَزقَة يَقْتلُون ويَنْهبُون، كَمَا هُو شَأنه، قَالَ آبن أَبِي آلحَدِيد: «حَاول كُمَيْل أنْ يَجْبر ضَعْفَه بِالغَارة عَلىٰ أَطْرَاف مُعَاوِيَة مِثل قِرْقِيسِيَا[2] وغَيْرها، فَأنْكَر الإِمَام عَلَيْهِ ذَلِكَ»[3].

وبَعْد، فَإنَّ الإِنْسَان آبن الظُّرُوف الّتي تُحِيط بِهِ، وكُمَيْل إنْسَان لهُ عَوَاطفه وآنْفعَالاَته، وأيضاً لهُ حُرِّيَّته وقُدرَته تَمَاماً كَأبِيه آدمَ الَّذي أَخْرَجه الله مِن الجَنَّة جَزَاء عَلىٰ فِعْلته... ولَيْسَ المُهم أنْ لاَ يُخطىء الإِنْسَان، وإنَّمَا المُهم أنْ لاَ يَصرّ عَلىٰ الخَطَأ متىٰ ظَهر وبَان، وأنْ يَلُوم نَفْسَه ولاَ يَعود... وقَد لاَمَ كُمَيْل نَفْسَه ونَدِم تَمَاماً كَمَا نَدِم آدمَ مِن قَبل، وتَاب كَمَا تَاب... وخَتَم بِالشَّهادَة بِسَيْف الْبَغْي، والضَّلاَل، فَصَبَر وآحْتَسب حِرصَاً عَلىٰ دِينهِ، وإِيمَانه.

---

(١) هِي بَلد عَلىٰ شَاطىء الفُرات، وسُمِّيت هِيت لِأنَّهَا فِي هُوَّة مِن الأَرْض. أنظر، لِسَان العَرب: ٢/١٠٧، الغَرِيب لِابْن قُتَيبَة: ١/٤٧٧ و: ٢/٦٣.

(٢) وَقِرْقِيسِيَا: هِي بَلد عَلىٰ نَهر الخَابُور، قُرب رُحبَة مَالِك بن طَوق، عَلىٰ سِتَة فَرَاسخ، وعِند مَصب الخَابُور فِي الفُرَات، فَهيَ فِي مُثَلث بَيْن الخَابُور والفُرَات. أنظر، مُعْجَم البُلدان: ٤/٣٢٨، مرَاصد الإِطْلَاع: ٣/١٠٨٠.

(٣) أنظر، شَرح آلنَّهج: ١٧/١٤٩.

الرسالة ٦٢

إلىٰ أَهْل مِصْر:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ صلى الله عليه وآله ـ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَ مُهَيْمِناً عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ. فَلَمَّا مَضَىٰ عليه السلام تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ. فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَىٰ فِي رُوعِي، وَ لَا يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَ لَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ! فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَىٰ فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّىٰ رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَىٰ مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وآله ـ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَىٰ فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ؛ فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّىٰ زَاحَ الْبَاطِلُ وَ زَهَقَ، وَ اطْمَأَنَّ الدِّينُ وَ تَنَهْنَهَ.

إِنِّي وَ اللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَ هُمْ طِلَاعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَ لَا اسْتَوْحَشْتُ، وَ إِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَ الْهُدَىٰ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَعَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَ يَقِينٍ مِنْ رَبِّي. وَ إِنِّي إِلَىٰ لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ، وَ حُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ؛ وَ لَكِنَّنِي آسَىٰ أَنْ

يَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَ فُجَّارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلًا ، وَ عِبَادَهُ خَوَلًا ، وَ الصَّالِحِينَ حَرْباً ، وَ الْفَاسِقِينَ حِزْباً ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ ، وَ جُلِدَ حَدّاً فِي الْإِسْلَامِ ، وَ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّىٰ رُضِخَتْ لَهُ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ الرَّضَائِخُ . فَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَ تَأْنِيبَكُمْ ، وَ جَمْعَكُمْ وَ تَحْرِيضَكُمْ ، وَ لَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَ وَنَيْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ ، وَ إِلَىٰ أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ ، وَ إِلَىٰ مَمَالِكِكُمْ تُزْوَىٰ ، وَ إِلَىٰ بِلَادِكُمْ تُغْزَىٰ ! انْفِرُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ إِلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَ لَا تَثَّاقَلُوا إِلَىٰ الْأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِالْخَسْفِ ، وَ تَبُوءُوا بِالذُّلِّ ، وَ يَكُونَ نَصِيبُكُمُ الْأَخَسَّ ، وَ إِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُ ، وَ مَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ ، وَ السَّلَامُ .

اللُّغَة:

مُهَيْمِناً : شَاهِداً . والرَّوْع : الْقَلْب ، والْعَقْل . والبَالِ : الخَاطِر والتَّصور .
ورَاعَنِي : فَاجَأَنِي أو أَفْزَعِني . ورَاجِعَةَ النَّاسِ : المُنْقَلبُون مِنْهُم والمُرتَدُون . وثَلْماً : خَرْقاً ، وتَنَهْنَهَ : كَفّ البَاطِل عَنْهُ بقُوَّته ومَنَاعَته . وطِلَاعُ الشَّيء : مِلؤهُ . وآسَىٰ : أَحْزَن . ودُوَلًا : يَسْتَأثرُون بِهِ ، وَيَتَدَاولُونَه فِيمَا بَيْنَهمْ دُونَ غَيْرِهِمْ . وخَوَلًا : عَبِيداً . والرَّضَائِخُ : العَطَايَا . وَتَأْلِيبَكُمْ : تَحْرِيضَكُم . وتُزْوَىٰ : تُقْبَض . والخَسْفِ : الضَّيم . والأَرِقُ : السَّاهِر .

الإِعْرَاب:

نَذِيراً حَال مِن مُحَمَّد ﷺ ، والمَصْدَر مِن أَنَّ الْعَرَبَ فَاعِل يَخْطُرُ ، ووَاحِداً حَال ،

وَمَا بَالَيْتُ جوَاب القَسَم، ولَمُنْتَظِرٌ خَبَرَ إنِّي، وإلَىٰ لِقَاءِ اللهِ مُتَعَلِّق بِمُنْتَظِرٌ، وذٰلِكَ مُبْتَدَأ، والْخَبَرَ مَحْذُوف وجوُبَاً أي لَوْ لَا ذٰلِكَ كَائِن.

الْمَعْنَىٰ:

حِين أَسْنَد الإِمَام وِلاَيَة مِصْر إلَىٰ مَالِك الأَشْتَر أَرْسَل إلَىٰ أَهْلهَا رِسَالَة مَع غَيْر الأَشْتَر حَيْث أثنىٰ عَلَيْهِ أَحْسَن الثَّناء، وَقَالَ مِن جُمْلَة مَا قَالَ: «فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللهِ، لاَ يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَ لَا يَنْكُلُ عَنِ الأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ»[1]. وتَقَدَّمَت آلرِّسَالَة مَع الشَّرح، وفِي آلرِّسَالَة الَّتي أَرْسَلها الإِمَام لِمُحَمَّد بن أَبِي بَكْر ذَكَر الأَشْتَر وتَرَحَّم عَلَيْهِ، وَقَالَ فِي وَصْفه: «كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَىٰ عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً»[2] أَمَّا آلرِّسَالَة الَّتي نَحنُ بِصَددها فَقَد كَتَبها الإِمَام لأَهْل مِصْر، وأَعْطَاهَا لِلأَشْتَر نَفْسَه، كَمَا ذَكر الشَّرِيف الرَّضِي الَّذي قَالَ: «ومِنْ كِتَابٍ لَهُ عليه السلام إلَىٰ أَهْل مِصْر مَع مَالِك الأَشْتَر لَمَّا وَلَّاهُ إمَارتهَا». وآبتَدَأها الإِمَام بِقَوْله:

لَوْلاَ عُمَرَ مَا حَكَمْ أَبُو بَكْر:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ صلى الله عليه وآله ـ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ... فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ). أَرْسَل سُبْحَانَهُ نَبِيّه الكَرِيم مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله مُبَشِراً مَن أَطَاع الله بِالثَّوَابِ، ومُنْذِراً مَن عَصَاه بِالعَذَابِ، وشَاهِداً بِرِسَالَة مَن سَبَقَه مِن الْمُرْسَلِين: ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ

(١) أُنظر، نَهج آلبَلاَغَة: آلرِّسَالَة (٣٨).
(٢) أُنظر، نَهج آلبَلاَغَة: آلرِّسَالَة (٣٤). (مِنْهُ رحمه الله).

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1]. وبَعْد أنْ انْتقل النَّبيّ ﷺ إِلىٰ الرَّفِيق الأَعْلىٰ حَدَث مَا حَدَث مِن الصَّحَابَة حَوْلَ الخِلاَفَة، ومَا كَان الإِمَام يَظن أنَّ أَحَداً مِن الصَّحَابَة يَخْتَار سِوَاه لِخِلاَفَة الرَّسُول ﷺ، ولكنَّه فُوجِىء بِنَبأ حُمِل إِلَيْهِ: أنَّ عُمَرَ انْدَفع بِأَبِي بَكْر إِلىٰ السَّقِيفَة، وبَايَعه عَلىٰ رَغم أُنوف الأَنْصَار، وغَيْرِهِمْ. والمُـرَاد بِفُلاَنٍ أبو بَكْر، وبِالنَّاس عُمَرَ ومَن تَابَعه فِي عَقد هَذِه البَيْعَة عَلىٰ أنَّ القُرْآن أَطْلَق كَلِمَة النَّاس عَلىٰ الرَّجُل الوَاحِد، وهُو نَعِيم بن مَسعُود كَمَا فِي بَعْض التَّفاسِير لِهَذه الآيَة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2]. وَعَلىٰ أَيَّة حَال لَوْلاَ

---

(١) ٱلأَحْزَاب: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) آلِ عِمْرَان: ١٧٣.

إنَّ نَعِيم بن مَسعُود أتىٰ رَسُول الله ﷺ فقَال: يَا رَسُول الله! إنِّي قَد أَسْلَمت وإنَّ قَومي لَمْ يَعْلمُوا بِإِسْلاَمي، فَمُرني بِمَا شِئت، فقَال رَسُول الله ﷺ: إنَّمَا أَنْتَ فِينا رَجُلٌ وَاحِد فَخَذِّل عَنَّا إِنْ اسْتَطعت، فإنَّ الحَرْب خُدْعَة.

فَخَرج نَعِيم بن مَسعُود حتَّىٰ أتىٰ بَني قُريظة، وكَان لَهُم نَديماً فِي الجَاهِلِيَّة. فقَال: يَا بَني قُريظة! قَد عَرَفتُم ودِي إِيَّاكم، وخاصَّة مَا بَيْني وبَيْنكُم، قَالُوا: صَدَقتَ، لَست عِندنَا مُتهم، فقَال لَهُم: إنَّ قُرَيْشاً وغَطفَان لَيْسُوا كَأَنْتُم، البَلد بَلدكُم فِيه أَمْوَالكُم، وأَبنَاؤكُم، ونساؤكُم، لاَ تَقدرُون عَلىٰ أنْ تَحولوا مِنه إِلىٰ غَيْره، وإنَّ قُرَيْشاً وغَطْفَان قَد جَاءوا لِحَرب مُحَمَّد وأَصْحَابه، وقَد ظَاهرتُمُوهم عَلَيْهِ، وبَلدهُم، وأَمْوَالهُم، ونِسَاؤهُم بِغَيره، فَلَيْسُوا كَأَنْتُم، فإنْ رَأوا نُهزَة أَصَابُوها، وإنْ كَان غَيْر ذَلِكَ لَحقُوا بِبلادهِم وخَلَوا بَيْنكُم وبَيْن الرَّجُل بِبَلدكُم، ولاَ طَاقَة لَكُم بِهِ إنْ خَلا بِكُم، فَلا تُقاتلُوا مَع القَوم حتَّىٰ تَأخُذوا مِنْهُم رَهناً مِن أَشْرَافِهم، ويَكُونُون بِأَيدِيكُم ثِقَة لَكُم عَلىٰ أنْ تُقَاتلوا مَعْهُم مُحَمَّداً، حتَّىٰ تُنَاجزُوه، فقَالُوا لَهُ: لَقَد أَشرتَ بِالرَّأْي.

ثُمَّ خَرج حتَّىٰ أتىٰ قُرَيْشاً، فقَال لأَبِي سُفيَانَ بن حَرب، ومَن مَعه مِن رِجَال قُرَيْش: قَد عَرفتُم ودِي لَكُم وفِرَاقِي مُحَمَّداً، وإنَّه قَد بَلغنِي أَمْر قَد رَأَيْت عَلَيَّ حقاً أنْ أُبلغكُموه نُصحاً لَكُم، فَاكتمُوا عَني، فقَالُوا:

↔

﴿ نَفعل، قَالَ: تعْلمُوا أنَّ مَعشر اليَهُود قَد نَدمُوا عَلىٰ مَا صَنعُوا فِيا بَينهُم وبَيْن مُحَمَّد، وقَد أَرسلُوا إِلَيْه، إنَا قَد نَدمنا عَلىٰ مَا فَعْلنا، فَهل يُرضِيك أنْ نَأخذ لَك مِن القَبِيلتِين ـ قُرَيْش وغَطْفَان ـ رِجَالاً مِن أشرَافهم فنعْطِيكَم ـ فَتَضرب أعْنَاقهم، ثُمَّ نَكُون مَعك عَلىٰ مَن بَقِي مِنْهُم حتَّىٰ نَسْتأْصلهم؟ فأرسَل إِلَيْهِمْ: أنْ نَعم، فإنْ بَعث إِليكُم يَهُود يَلتَمسُون مِنكُم رَهناً مِن رِجَالكُم فَلا تَدفعُوا إِلَيْهِمْ مِنكُم رَجُلاً وَاحِداً.

ثُمَّ خَرج حتَّىٰ غَطْفَان، فقَال: يَامعشَر غَطْفَان: إنَّكم أَصلِي وعَشِيرتي، وأحبّ النَّاس إليَّ، ولاَ أرَاكُم تتهمُوني، فقَالُوا: صَدَقت، مَا أَنْتَ عِندنا بِمُتَّهم، قَالَ: فأكتمُوا عَني، قَالُوا: نَفْعَل، فَمَا أمرك؟ ثُمَّ قَالَ لَهُم مِثل مَا قَالَ لِقُرَيْش، وحَذَّرهُم مَا حَذَّرهُم.

فَلمَّا كَانَتْ لَيلَة السَّبت مِن شوَال سَنَة خَمس، وكَان مِن صنع الله لِرَسُوله ﷺ أنْ أرسلَ أَبُو سُفْيَانَ بن حَرب رؤوس غَطْفَان إِلىٰ بَنِي قُرِيظَة عِكْرِمَة بن أَبِي جَهل فِي نَفر مِن قُرَيْش وغَطْفَان، فقَالُوا لَهُم: إنَّا لَسْنَا بِدَار مقَام قَد هَلك الخُف والحَافر، فَاغدُوا لِلقتَال حتَّىٰ نُنَاجز مُحَمَّداً... فأرسلُوا إِلَيْهِمْ: إنَّ اليَوم يَوم السَّبت، وهُو يَوم لاَ نَعمل فيهِ شَيْئاً. ولَسْنَا مَع ذَلِكَ بِالَّذِين نُقَاتل مَعَكُمْ مُحَمَّداً حتَّىٰ تعطونَا رَهناً مِن رِجَالكُم، يَكُونُون بِأيْدِينَا ثِقَة لنَا حتَّىٰ نُنَاجز مُحَمَّداً.

فَلمَّا رَجعت إِلَيْهِمْ الرُّسل بِمَا قَالت بَنُو قُرِيظَة، قَالت قُرَيْش وغَطْفَان: والله إنّ الَّذي حَدثكُم نَعِيم بن مَسعُود لَحَق، فَأرسلوا إِلىٰ بَني قُرِيظَة، إنَّا والله لاَ نَدفع إِليكُم رَجُلاً وَاحِداً مِن رِجَالنا.

فقَالت بنُو قُرِيظَة حين آنتهت الرُّسل إِلَيْهِمْ بهَذا: إنَّ الَّذي ذَكر لَكُم نَعِيم بن مَسعُود لَحَق: فَأرسلوا إِلىٰ قُرَيْش وغَطْفَان: إنَّا والله لاَ نُقَاتل مَعَكُمْ حتَّىٰ تَعطُونا رَهناً فَأبوا عَليهم وخَذَل الله بَيْنَهُم.

أُنظر، السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن هُشَام: ٣/٢٤٠، تَفْسِير الكَشَاف للزَّمخشري: ١/٤٤١ طَبعة دَار الكُتب، تَفْسِير الفَخر الرَّازي: ٣/١٤٥، تَفْسِير أَبِي السّعود بهَامش تَفْسِير الرَّازي: ٣/١٤٥، فَتح البَيَان فِي مقَاصد القُرْآن: ٢/١٦٧، زَاد المَسِير فِي عِلم التَّفْسِير لِابْن الجوزي الحنبَلي: ١/٥٠٤، التَّسهِيل لِعلوم التَّنزِيل لِلكلبي: ١/١٢٤، التَّفْسِير المُنِير لِمَعَالم التَّنزِيل للجَاوي: ١/١٣٠، تَفْسِير الجَلالين: ٥٧ طَبعة عَبدالحَمِيد حَنفي، فَتح القَدِير للشَّوكَاني: ١/٤٠٠ الطَّبعة الثَّانِيَة، تَفْسِير القُرطُبي: ٤/٢٧٩.

والمُرَاد مِن النَّاس الأَوَّل هُو نَعِيم بن مَسعُود الأَشْجَعي، قَالَ النَّسفي فِي تَفْسِيره: هُو جَمع أُرِيد بِهِ الوَاحِد، أو كَان لهُ أتبَاع يُثبطُون مِثل تَثبِيطه.

وَقَالَ الخَازن: فَيكُون اللَّفظ عَاماً أُرِيد بِهِ الخَاص.

﴾

بَيْعَة عُمَرَ مَا انْعَقدت الخِلَافَة لأَبِي بَكْر.

فَقَد جَاء بِكتَاب المَوَاقِف وشَرحَه، بَاب الإِمَامَة: «الوَاحد والاِثْنَان مِن أَهْل الحَل والعَقد كَافٍ فِي ثبُوت الإِمَامَة، ووجُوب اتّبَاع الإِمَام عَلىٰ أَهْل الإِسْلاَم، لأَنَّ الصَّحَابَة اكتَفُوا فِي عَقد الإِمَامَة بِعَقد عُمَرَ لأَبِي بَكْر، وعَقد عَبد الرَّحمن ابن عُوف لعُثْمَانَ»[1]. ومَعْنىٰ هَذَا أَنَّ بَيْعَة عُمَر هِي السَّبب المُوجب لِخِلاَفَة أَبِي بَكْر، وبَيْعَة ابن عُوف لِخِلاَفَة عُثْمَانَ.

(فَأَمْسَكْتُ يَدِي) أي اعْتَزَلتُ فِي بَيْتِي مُعْرِضاً عَن كُلِّ شَيء (حَتَّىٰ رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلَامِ... إلخ). يُشِير بهَذا إِلىٰ طُلِيحَة بن خوِيلد الأَسدِي[2]، واجْتِمَاع المُرتَدين لِغزو المَدِينَة بِقيَادَته، كَمَا جَاء فِي تَارِيخ الطَّبَرِي،

⇐ وأخرج ابن مَردويه بِإسنَاده عَن أبِي رَافع أنَّ النَّبيّ ﷺ وجه عَليّاً فِي نَفرٍ مَعه فِي طَلب أبِي سُفيَانَ فَلَقِيهُم أعرَابِي مِن خُزَاعة، فقَال: إنَّ القَوم قَد جمَعُوا لَكُم، فقَالُوا: حَسبُنَا الله ونِعْمَ الوَكِيل فَنزلت هَذِه الآيَة. أنظر، تفسِير الخَازن: ١/٣١٨، تفسِير القُرطُبي: ٤/٢٧٩، تَفسِير ابن كَثِير: ١/٤٣٠.

(١) أنظر، شَرح المَواقف: ٣/٢٦٥، المَواقف فِي عِلم الكَلاَم: ٨/٥٣١ ـ ٥٣٣ طَبعَة مِصْر سَنَة ١٣٣٥ هـ، الإِرْشَاد للجُويني: ٤٢٤، ابن العَربي المَالِكي فِي شَرحه لصَحِيح البُخَاريّ: ١٣/٢٢٩، تَفسِير القُرطُبي: ١/٢٣٠.

(٢) طُلَيحَة الكَذَاب: هُو طُلَيحَة بن خوِيلد بن نَوفل بن نَضلة بن الأَشتَر بن حَجوَان بن فَقْعَس بن طَرِيف بن عَمرو بن قَعِين بن ثَعلبَة بن الحَارث بن دودَان بن أَسد بن خُزيمَة الأَسَدي الفَقْعَسي، قَدِم هُو وقَبِيلته سَنَة تِسع مِن الهِجرَة المَدِينَة، فَلمَّا رَجعُوا ارْتَد طُلَيحَة وادّعَىٰ النُّبوَة، فوجَه النَّبيّ ﷺ إليه ضِرار بن الأَزْوَر فَضَربَه ضِرار بِالسَّيف يُريد قَتله فَنَبا السَّيف فشَاع بَيْنَ النَّاس إنَّ السّلاح لاَ يُؤثر فيه، ومَات النَّبيّ ﷺ فَكثر أتبَاع طُلَيحَة مِن قَبائل أَسد وغَطفَان وطَيّ، وكَان يَقول: إنَّ جبرائِيل يَأْتِيه، وتَلا عَلىٰ النَّاس أسْجَاعاً أَمرهُم فِيهَا بِترك السّجود فِي الصَّلاة، فهَاجَم المَدِينَة، ومَات فِي عَهد عُمر بن الخَطَّاب.

⇐

وآبن الأَثِير[1].

وتَتَلخَص حِكَايَة طُلَيحَة أَنَّه آدْعىٰ النُّبُوَّة فِي حيَاة رَسُول اللهﷺ فوجَه إِلىٰ حَرْبه ضِرَار بن الأَزْوَر، فَأفلَت مِنْهُ، ولكنْ ضَعُف أمره... ثُمَّ قَوِّي بَعد وفَاة النَّبيّﷺ لِكَثْرَة المُرتَدِين، وَعزَم أنْ يَغزو بِهِمْ الْمَدِينَة ويَحتَلها. قَالَ آبن الأَثِير فِي حوَادث سَنَة ١١ هـ «آرْتَدت الْعَرَب، وتَضَرَّمت الأَرْض نَاراً بَعد وَفَاة رَسُول اللهﷺ وآرْتَدت كُلّ قَبِيلة عَامَّة أو خَاصَّة إِلّا قُرَيْشَاً وثَقِيفَاً، وآسْتَغلَظَ أَمر مُسِيلَمة، وطُلَيحَة»[2].

وَلمَّا عَلِم الْمُسْلِمُون بِغَزو طُلَيحَة الْمَدِينَة تَمَاسكُوا وآتَفق الْصَّحَابَة كَلِمَة وَاحِدة عَلىٰ حَرْبه، وخَرَج الإِمَام مِن عُزْلَته، ورَابَط بِنَفْسه فِي مكَان قَرِيب مِن الْمَدِينَة، وآقْتَدىٰ بِهِ آخرون، وأغَار طُلَيحَة عَلىٰ الْمَدِينَة لِيلاً، وكَان الْمُسْلِمُون لهُ بِالمرصَاد، فَهَزمُوه وفَرقُوا جَمْعَه وقَتَلوا العَدِيد مِن عَسْكَره، ولَم يُصب أَحد من الْمُسْلِمِين، ثُمَّ لَحِقت جِيوش الإِسْلاَم بِطُلَيحَة الفَار، فآنصَرف عزنْه أَصْحَابه بَعد إِيقَانهم بِكذبه، وهَرَب هُو إِلىٰ الشَّام، ونَزَل بِبَني كَلب، وأَظْهَر آلتَّوْبَة والإِسْلاَم لِيَسلم مِن الْقَتْل

⇐ أنظر، تَرجمته فِي سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ٣١٦/١، الوَافي بِالوفِيات: ٤٩٥/١٦، جَمهرة آبن حَزم: ١٩٦، الإِصَابَة: ٢٣٤/٢، أُسد الغَابَة: ٤٧٧/٢، الاسْتِيعَاب: ٢٣٧/٢، تَارِيخ دِمشق: ١٤٩/٢٥، إكمَال الكَمَال: ٨١/١، الثقات لِابْن حبَّان: ١٦٨/٢، كَنز العُمَّال: ٥٥١/١٤ ح ٣٩٥٨١، الْمُعْجَم الكَبِير: ٢١٤/٤، تُحفَة الأَحْوَذي: ٣٩٦/٦، السُّنَن الكُبرىٰ لِلبَيهقي: ١٧٥/٨، مَجْمَع الزَّوائد: ٢٢٢/٦، تَارِيخ الطَّبَري: ٤٣٣/٢ و: ٥٠/٣، شَرح نَهج آلبَلاَغَة لِابْن أَبِي آلحَدِيد: ١٥٣/١٧.

(١) أنظر، تَارِيخ الطبري: ٤٣١/٢ و: ٤٩/٣، وآبن الأَثِير: ١٤٢/٢.

(٢) أنظر، آبن الأَثِير: ١٤٤/٢، تَارِيخ آبن خَلدُون: ق٢/٢/٦٥.

ولمَّا مَات أبُو بَكْر وبُويع عُمَرَ أتَاه وبَايَعَه.

(فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ وَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَىٰ فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمْ... إلخ). الخِطَاب لِلمُسْلِمِين لاَ للمِصْرِيين فَقط، والْمَعْنَىٰ أنَّ الإِمَام خَاف عَلىٰ دِين مُحَمَّدﷺ لَو بَقِي مُعتَزِلاً فِي بَيْتِهِ. لذَا شَارَك فِي حَرْب الرِّدَّة[1]، ودَافع عَن الْمَدِينَة كعَاصِمَة لِلمُسْلِمِين، وعَن الخِلاَفة كَنِيَابة عَن الرَّسُولﷺ، وَسَكَت عَن حَقِّهِ حِرصاً عَلىٰ الدِّين ومَصلَحته، وتَعَاون مَع أَبِي بَكْر لِلغَاية نَفْسها، لأنَّ الدِّين فَوق الجَمِيع، وفِي سَبِيله ضَحىٰ الأَنْبِيَاء بِأنفسِهم، وإِذَنْ فَبالأَوْلَىٰ أنْ يُضَحي الإِمَام بالوِلاَيَة والرِّيَاسَة مِن أَجْل الدِّين.

وقُلنَا فِيما سَبق: إنَّ الإِمَام لاَ يُقيس الخَيْرَ بِالمَنَاصب وكَثْرَة النَّاس مِن حَوله، وبِالغِنَىٰ أو غَيْره مِن حُطَام الدُّنْيا، وإِنَّما يُقيس الخَيْرَ بِمرضَاة الله وثَوَاب الآخِرَة. ومِن أَقْوَاله فِي ذَلِكَ: «كُلّ نَعِيمٍ دُونَ ٱلْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ»[2].... «الْغِنَىٰ وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ»[3]. وعَلىٰ هَذَا الأَسَاس صَغَّر الدُّنْيَا وحقَّرها، وشَبَّهها كَمَا قَالَ بِعَفْطَةِ عَنْزٍ: «وَ لأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[4]، وبِوَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ: «إِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ

---

(١) يُرِيد الشَّيخ ﷺ مِن حَرْب الرِّدَّة، حَرْب مُسيلَمة الكَذَّاب، وسِجَاح، والأَسود العَنسي، وطُلَيحة ابن خويلد وغَيْرهم، ولاَ يُرِيد المَعنىٰ الأَعَم مِن ذَلِكَ بِحَيث يَشمل الَّذِين آمْتنعُوا مِن تَسلِيم الزَّكَاة لأَبِي بَكْر، وأَرَادوا تَسْلِيمها لصَاحبهَا الشَّرعي.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٨٧).

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٥٢).

(٤) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٣).

جَرَادَةٍ»[١]، وبِالسَّرَابُ فِي ٱلرِّسَالَة الّتِي نَحنُ بِصَدَدها.

(فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ) وهِي الرِّدَّة وغَيْرهَا مِن الْفِتَن الّتِي كَانَتْ تَهْدف إِلىٰ الْقَضَاء عَلىٰ دَولة الْإِسْلاَم وبَيْضَته (حَتَّىٰ زَاحَ الْبَاطِلُ وَ زَهَقَ، وَ ٱطْمَأَنَّ الدِّينُ وَ تَنَهْنَهَ) بِٱنْتشَارِه فِي شَرق الْأَرْض وغَربِهَا (إِنِّي وَ اللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَ هُمْ طِلَاعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَ لَا ٱسْتَوْحَشْتُ... إلخ). ضَمِير هُمْ يَعُود إِلىٰ مُثِيرِي الْفِتَن والْقَلاقِل ضِدّ الْإِسْلاَم كَأَهل الرِّدَّة، وأَهْل الشَّام، وأَصْحَاب الْجَمَل، والْمَعْنَىٰ: أَنَا حَرْب لِمَن يَضْمر السُّوء لِلْإِسْلاَم حَتَّىٰ ولَو مَلأوا عَلِيَّ الْأَرْض رِجَالاً وسِلاَحاً، وأَنَا سِلم مَا سَلم الْإِسْلاَم، ولَمْ يَكُن مِن حَيْفٍ وجَوْر إِلّا عَلِيَّ خَاصَّة، كَمَا قَالَ: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، ٱلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ، وَزِبْرِجِهِ»[٢].

وَكَانَ الْإِمَام يُعْلِن فِي الْعَدِيد مِن المَوَاقِف أَنَّه أَوْلىٰ مِن أَبِي بَكْر بالْخِلاَفَة، وصَارَحَه بِذَلِكَ أَكْثَر مِن مَرَّة... ومَع هَذَا تَعَاون مَعْه عَلىٰ مَصْلَحة الْإِسْلاَم، والْمُسْلِمِين، أَمَا كَان الْأَجْدَر بِمُعَاوِيَة، وطَلْحَة، والزُّبَيْر أَنْ يَتَعَاونُوا مَع الْإِمَام لِهَذه الغَايَة بَعْدَ أَنْ بَايَعه الْصَّحَابَة، والْمُسْلِمُون، أو يَسْكتُوا عَلىٰ الْأَقَل حَقناً لِلدِّمَاءِ، وتَجَنُّباً لِلفِتَن وٱمتِثَالاً لِقَول الرَّسول ﷺ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُم

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (٢٢٤).
(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (٧٤).

رِقَاب بَعْضٍ»[1].

(وَ إِنِّي إِلَىٰ لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ، وَ حُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ... إلخ). لَو ٱجْتَمع أَهْل الْأَرْض عَلَىٰ حَرْب الإِمَام مَا بَالَىٰ، وَلَا ٱسْتَوْحَشْ، كَمَا قَالَ، ولِمَاذَا؟ لأَمْرِين:

الْأَوَّل: إِنَّه عَلَىٰ بَصِيرَة مِن نَفْسه، وَيَقِين مِن رَبِّه.

الثَّانِي: إِنَّه يَعْشق الشَّهَادة ويَتمنَاها... أَجَل، هُنَاك شَيء وَاحد يَحْذَر مِنْهُ ويَحْزَن لهُ، وهُو أَنْ يَحْدَث بَعد مَوتهِ مَا أَشَار إِلَيْهِ بقَوْله: (وَ لَكِنَّنِي آسَىٰ أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَ فُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلًا، وَ عِبَادَهُ خَوَلًا... إلخ). كَمَا فَعَل الْأُمَوِيُون بَعد أَمِير الْمُؤْمِنِين... هَذَا هُو بِالذَّات الَّذي يَخْشَاه ويَأْبَاه. أَمَّا الشَّهَادة فِي نَفْسها فَهِيَ أُمنِيَته.

وَفَسّر بَعْض الشَّارِحِين قَوْل الإِمَام: «وَ لَكِنَّنِي آسَىٰ أَنْ يَلِيَ» فَسّره بِأَنَّ الْإِمَام أَحْجَم عَن حَرْب الخُلَفَاء السَّابقِين خَوْفَاً أَنْ يتَوَلَّىٰ الخِلَافَة بَنو أُمَيَّةَ مَكَان أَبِي بَكْر وعُمَرَ!.. وهَذَا بَعِيد عِن السِّياق، لأَنَّ الْإِمَام قَالَ بِصرَاحة: أَنَّه تَعَاون مَع مَن سَبْقَه

---

(١) أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ١/ ٥٦ ح ١٢١، و: ٢/٦١٩ ح ١٦٥٢، و ١٦٥٤، و: ٤/١٥٩٨ ح ٤١٤١، و: ٨/١٩٨، صَحِيح مُسْلِم: ١/٨١ح ٦٥ و ٦٦، شوَاهد التَنزِيل: ١/ ٥٢٨، المُنتَقىٰ لِابْن الجَارُود: ١/٢١٢ ح ٨٣٣، المُعْجَم الأوسَط: ١/ ٢٩٣، السُّنن الكُبرىٰ: ٢/ ٣١٩، مُسْنَد أَبِي يَعلىٰ: ٣/ ٣٩، صَحِيح ٱبن حبّان: ١/ ٤١٦ ح ١٨٧ و: ١٣/٢٦٨ ح ٥٩٤٠، المُعْجَم الكَبِير: ٢/ ٣٠٧، كَنز العُمَّال: ٥/ ١٢٩، و:١١/١٣٤ ح ٣٠٩٢٨، المجمُوع: ١٥/١٥٥ نِيل الأوطَار: ١/٣٧٧، دَعائِم الإِسْلام: ٢/٤٠٢، مجمَع الزَّوائد: ١/١٥٦ و: ٦/٢٨٣، سُنن النَسائي: ٧/١٢٧، المحلىٰ: ١١/٣٩٩، سُبل السَّلَام: ٢/٢١٤، المُسترشد فِي الإِمَامة: ٢٢٩، مُسْنَد أحمَد: ٤/٣٦٣، مناقب آل أَبِي طَالب: ٣/٢٠، تَفسِير الطَّبَري: ٧/٢٥٥، تفْسِير ٱبن كَثِير: ٢/١٤٤، سُنن التِّرمِذي: ٤/٤٨٦ ح ٢١٩٣، سُنن الدَّارمي: ٢/٩٥ ح ١٩٢١، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ١/١٧١ ح ٣١٨.

إِلىٰ الخِلَافَة حِرصاً عَلىٰ وحدَة الكَلِمَة ضِدّ أَعْداء الإِسْلَام. ثُمَّ أَشَار إِلىٰ حُبّهِ الشَّهَادَة، وَقَالَ بِلا فَاصل: «وَلَكِنَّنِي آسَىٰ أَنْ يَلِيَ». أي عَلىٰ رُغم حُبّي لِلشَّهادَة فَإِنِّي أَخَاف عَلىٰ الإِسْلَامَ والْمُسْلِمِين مِن بَعْدي أَنْ يَتحَكم بِهِمْ الأَشرَار، فَيسفكُوا الدِّمَاء، ويَنْهَبُوا الأَمْوَال.

(فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ، وَ جُلِدَ حَدّاً فِي الإِسْلَامِ... إلخ). ضَمِير مِنْهُمُ إِلىٰ بَنِي أُمَيَّة، والْمُرَاد بِالحَرَام الْخَمْر، وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «يُشِير الإِمَام إِلىٰ الوَلِيد بِن عُقْبَة[1]، وهُو أَخُو عُثْمَانَ لأُمّه، وَقَد وَلَّاهُ الْكُوفَة، وَكَان زَانياً سكِيراً، شَرَب الْخَمْر، وصَلَّىٰ بِالنَّاس جَمَاعَة صَلَاة الصُّبح أَرْبَع رُكْعَات، وقَاء الْخَمْرَ فِي محْرَاب المَسجِد، وتَلىٰ فِي الصَّلَاة بَدَلاً من الْقُرْآن:

عَلَق الْقَلْب الرَّبَابَا بَعدمَا شَابَت وشَاباً[2]

---

(١) تَقَدَّمَت تَرجَمَته.

(٢) وَالوَلِيد هَذَا هُو الَّذي قَالَ فيهِ الحُطَيئَة بن جَرول بن أوس بن مَالِك الْعَبْسِي:

شَهِد الحُطَيئَة يَوم يَلقىٰ رَبّه ... إِنَّ الوَلِيد أَحق بِالْغَدْرِ
نَادىٰ وقَد نَفِدَت (تَمَّت) صَلَاتهم ... أَأَزيكُم؟ ثَمِلاً ومَا يَدرِي؟
لِيَزِيدهُم خَيراً وَلَو قَبِلُوا ... مِنهُ لزَادهُم عَلىٰ العَشرِ
فَأَبَوا أَبَا وَهبٍ! وَلَو فَعلُوا ... لَقرنْتَ بَيْنَ الشَّفع والوَترِ
حَبَسُوا عِنَانَك إِذْ جَريت وَلَو ... خَلُوا عِنَانَك لَمْ تَزل تَجرِي
تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاة وزَاد فِيها ... عَلَانِيَة وجَاهر بِالنِّفَاقِ
ومَجَّ الخَمْر فِي سُنن المُصَلي ... ونَادىٰ والجَمِيع إِلىٰ افتِرَاقِ
أَزيدكُم؟ عَلىٰ أَنْ تَمدَحُوني ... فَمَالكُم ومَالي مِن خَلاقِ

أُنظر. قِصَّة الوَليد وشُربه لِلخَمر فِي الصَّلَاة، وقَوله أأزيدكُم، وقول الحُطَيئَة فيه هَذِه الأَبيَات... إلخ، مُلحَق ديوَان الحُطَيئَة: ١١٩، وفي الديوان: ١٧٩ طَبْعَة بيروت دَار صَادر: شَرح نَهج الْبَلاغَة لِابن أَبِي

(وَ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّىٰ رُضِخَتْ لَهُ عَلَىٰ الإِسْلَامِ الرَّضَائِخُ) . أي العَطَايَا، قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «يُشِير الإِمَام إِلىٰ المُؤتلفة قُلُوبهمْ الَّذِين رَغبُوا فِي الإِسْلَام بَعد أَنْ أَعطوا الجِمَال والشَّاء، وهُم مَعْرُوفُون، ومِنْهُم مُعَاوِيَة وأَخُوه يزِيد وأَبُوهُما أَبُو سُفْيَانَ، وصَفوَان بن أُمَيَّة[1]، وحَكِيم بن حِزام[2]، وسُهِيل بن عَمرو[3]، والحَارث

⇐ ٱلْحَدِيد، تَحت عُنوَان «أَخْبَار الوَلِيد بن عُقْبَة»: ٣٢٧/١٧ ومَا بَعْدها، مُسْنَد أَحمَد: ١٤٤/١ و: ٣٤٧/٥، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٣١٨/٨، تَأرِيخ اليَعقوبي: ١٤٢/٢، الأَغَانِي: ١٧٨/٤ و: ٣٢٤/٨، الإِصَابَة: ٦٣٨/٣، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ١٠٤، السِّيرَة الحَلبِية: ٣١٤/٢، العقد الفَرِيد: ٢٧٣/٢، مروج الذَّهب: ٣٣٥/٢ طَبْعَة دَار الأُندلس، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٣٣/٥، الدُّر المَنثور: ١٧٧/٥، البدَاية والنِّهاية: ١٧٣/٧، الكَامِل لِابن الأَثِير: ٤٢/٢ و: ٧/١٠، أسد الغَابَة: ٩١/٥ و ٩٢، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٩٠/٥، الإِسْتِيعَاب المَطبُوع بِهامش الإِصَابَة: ٢١٨/١، الجَرح والتَّعدِيل: ١٢/٩، تَهذِيب الكَمَال: ١٦/٣١، فَتح البَاري: ٤٦/٧، زَاد المَسِير لِابن الجوزي: ٩٩/١، جَامع البَيَان لِابن جُرِير الطَّبَرِي: ٥٩١/١، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٠/٢، تَأرِيخ دِمشق: ٢٢٠/٦٣، نَسب قُرِيش: ١٣٨، تَأرِيخ المَدِينَة: ٩٧٥/٣، جواهر المطَالب فِي مَنَاقب الإِمَام عَليّ لِابن الدِّمَشقِي: ١٧٨/٢، الطَّبقات الكُبرىٰ: ٢٤/٦.

(١) تَقَدَّمَت تَرجَمَتهم.

(٢) هُو حَكِيم بن حِزَام بن أَسد بن عَبدالعِزىٰ القَرشي الأَسدِي، وكَان مولده قَبل عَام الفِيل بِثلاث عشَرة سَنَة عَلىٰ ٱختلاف فِي ذَلِكَ، وعَاش مِئة وعشرِين سَنَة، وتوفِّي سَنَة أَربع وخَمسِين أَيَّام مُعَاوِيَة، وشَهد بَدراً مَع الكُفَّار، ونَجَا مُنْهَزِماً. أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢٦٥/٣، أُسد الغَابَة: ٤٠/٢، المَجمُوع: ٦٦/٢، تَهذِيب الكَمَال: ١٧٢/٧ و: ٢٢٥/٢٩، سِير أَعْلَام النُّبلاء: ٤٤/٣، نَسب قُرِيش: ٢٣١، حلية الأَبرَار: ٢٩٣/١.

(٣) هُو سُهيل بن عَمرو بن عَبد شَمس بن عَبدود بن نَصر بن مَالِك بن حَسل بن عَامر القَرسي العَامري، يُكنىٰ أَبَا يَزِيد، أُسِرَ يَوم بَدر كَافراً، وقصَته مَشهُورة فِي يَوم صُلح الحُدَيْبِيَة مَع الرَّسُول ﷺ. أُنظر، المَبسوط للطُّوسي: ٢٢٦/٧، مغَازي الوَاقدي: ٦١١/٢، السِّيرَة النَّبوِيَّة لِابن هُشَام: ٣٣٢/٣، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٢٠٤/٢، دَلائل النُّبوَّة للبيهقي: ١٤٥/٤، سُنَن أَبِي دَاود: ١٦/٣ ح ٢٧٦٦، المَجمُوع: ١٩٥/١٩، تَلخِيص الحَبِير: ٥١٣/٧، الكَافِي: ٢٧٩/٨، صفوَة الصَّفوة: ٧٣١/١، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٦٢٠/٢.

بن هُشام بن الْمُغِيرَة[1]، وحُوِيطب بن عَبد العُزىٰ[2]، والأَخْـنَس بـن شُرِيـق[3]، وصَفوَان بن أُمَيَّة[4]، وعُمِير بن وَهَب الجَمْحِي[5]، وعُيينَة بن حُصين[6]، والأَقرَع

(١) هُو الحَارث بن هُشام بن الْمُغِيرَة بن عَبدالله بن عُمر بن مَخزُوم وأُمّه أَسمَاء بِنت مَخرمة بن جَندل بن أَبِير بن نَهشل بن دَارم، أنتَقل إِلىٰ الشَّام، ومَات بطَاعون عموَاس سَنَة (١٨ هـ) وقِيل قُتل يوم اليَرمُـوك. أُنـظر، رِجَال أبن دَاود: ٦٩، المُعْجَم الكَـبِير: ٢٥٨/٢، الطَّـبقات الكُـبرىٰ: ٤٤٤/٥، أُسـد الغَـابَة: ٣٢٧/٣، الإِصَابَة: ٦٦/٣، التَّأرِيخ الكَبِير: ٢٧٢/٥، تَهذِيب الكَمَال: ١٤٦/١١، تَهذِيب التَّهذِيب: ٣٥٠/٣، تَأرِيخ دِمشق: ٤٩١/١١، نَسب قُرَيْش: ٣٠٣، مِيزَان الإِعْتدَال: ٥٥٤/٢، العِقد الثَّمِين: ٣٤٥/٥، سِـير أَعْـلاَم النُّبلاء: ٤٨٤/٣.

(٢) هُو حُوِيطب بن عَبدالعزىٰ القَرشي العَامري، أَسْلم يَوم فَتح مَكَّة، ومَات سَنَة (٥٤ هـ) فِي خِلاَفة مُعَاوِية، وكَان لهُ مِن الْعُمُر يَوم مَات مِئة وعشرِين سَنَة. أُنظر، السِّيرَة النَّبوِيَّة: ٤٤٣/٣، عُيون الأثر لِابْن سَـيِّد النَّاس: ٢٢٠/٢، مَجمَع الزَّوائد: ٣/١٠، الطَّبقات الكُبرىٰ: ١٥٣/٢، تَهذِيب الكَمَال: ٤٤٦/٧.

(٣) هو الأَخْنَس بن شُرِيق بن عَمرو بن وَهب الثَّقفِي، كَان حَلِيفاً لِبَنِي زُهرة، وهُم بِالجُحفَة ـ كَانَ مِن أَكْبَر الْمُنَافقِين ـ وكَان يُظهر الجَمِيل لرَسُول الله ﷺ وآله، والْمَحَبَّة والرَّغبَة فِي دِينه، ويُبطن خِلاَف ذَلِك، وهُـو الَّذي أَعْطَاه الرَّسول ﷺ، مِئة مِن الإِبل مِن غنَائِم حُنين يَتألف بِها قَلبه. أُنظر، شَرح نَهج الْبَلاَغَة لِابْن أَبِي الْحَدِيد: ٣٠١/٨ و: ١٠٨/١٤، تَفسِير القُرطُبي: ١٤/٣، تَفسِير أبن كَثِير: ٣٢٧/٢، لُبَاب النُّقول: ٢٩، الدُّر المَنثور: ٢٥١/٦، بحَار الأَنْوَار: ١٠٣/٩، التِّبيان: ١٧٨/٢، جَامع الْبيَان: ٤٢٥/٢، أسبَاب النُّزول للنِّيسابوري: ٣٩، زَاد المَسِير: ١٩٩، تَفسِير الثَّعالبي: ٤٢٥/١، الطَّبقات الكُبرىٰ: ١٤/٢.

(٤) تَقدَّمَت تَرجَمَته، وهُو الَّذي لَعَنه رَسُول الله ﷺ بِقَوْله: «أَللَّهُمَّ ٱلْعَن صَفوَان بن أُمَيَّة، كَما جاءَ فِي الفِردَوْس بمأثـور الخِطَاب: ٣٠٥/١، الإِصَـابَة: ٩٣/٢، المَجمُوع: ١٩٨/٦، المُـوطأ: ٥٤٣/٢، الشَّرح الكَـبِير: ٣٨٠/١٠، فِقه السُّنَّة: ٣٨٩/١، سُبل السَّـلام: ٦٩/٣، المَـبسوط للـطُّوسي: ٢٤٩/١، التَّأرِيخ الكَـبِير: ٣٠٤/٤.

(٥) هُو عُمِير بن خَلف بن حذَافة بن جَمح القَرشي الجَمحي، يُكنىٰ أَبَا أُمَيَّة، وكَان مِن شَياطين قُرَيْش، وكَان يُؤذي الرَّسول ﷺ وأصحَابه، ويَلقُون من العَنَاء الشَّدِيد، والأَذىٰ بِمَكَّة، وقُصته مَشهُورة مَع صَفوَان بـن أُمَيَّة بن خَلف بَعد مصَاب أَهْل بَدر مِن قُرَيْش، حَيْث قَالَ لهُ صَفوَان: لاَ خَير فِي العَيش بَعدهُم، فـقَال عُمِير: صَدَقت والله! ولَولا دَين عَلَيَّ، ولَيْس عِنْدِي قضَاؤه، وعِيَال أَخشىٰ عَليهم الضَّيعة بَعدي، لرَكبت

ٱبن حَابس(١)، وعَبَّاس ٱبن مـرداس(٢)، وغـيْرهم... وكَـان إسْـلاَمهم لِـلطَمع

⇐ إلىٰ مُحَمَّد(ﷺ) حتَّىٰ أقتله...إلخ). أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغة لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٩٩/١٤، مغَازي الوَاقدي: ٦١/١، تَهذِيب التَّهذِيب: ١٤٩/٨، نَصب الرَّاية: ٢٦٢/٤، كَنز العُمَّال: ٥٠٤/١٠، تَفسِير مَجْمَع البَيَان: ٤٤٠/٤، الإِصَابَة: ٦٠٣/١ الرَّقم «٦٠٧٣»، الطَّبقات الكُبرىٰ: ١٦/٢ و: ١٤٦/٤، الجَرح والتَّعدِيل: ٣٧٨/٦. تَأريخ دِمشق: ٢٥٣/٣٨.

(٦) تَقدَّمَت تَرجَمَته، وقَد أسلَم بَعد فَتح مَكَّة، وكَان يَقول: مَا آمنتُ باللهِ طَرفة عَين، وقَد تَزوج عُـثْمان بـن عفَّان ٱبنَته، وهُو ٱلَّذي قَالَ فيهِ رَسُول اللهﷺ: «هَذَا أَحْمق مُطاع»، فِي قِصَّة مَشهُورة عِندما دَخل عَـلىٰ النَّبيﷺ، وكَانَتْ بِجَنبِهِ السَّيِّدة عَائِشَة. أُنظر، فَتح البَاري: ٤٢٦/١٠، بِحَار الأَنْوَار: ٣٩٨/١١، المُصَنَّف لِابن أَبِي شَيبة: ٤٦٠/٥، المُعْجَم الكَبِير: ٩٨/٢٠، نَصب الرَّاية: ٤٧٦/٢، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٢٦/٤، التِّبيَان للطُّوسي: ١٤٤/٤، سُبل الهُدىٰ والرَّشَاد: ٥٣٢/٤.

(١) هُو الأَقْرَع بن حَابس بن عقَال الحَنْظلي، ثُمَّ المُجَاشِعي، الدَّارمـي مِـن جُـملة المُـؤلفة قـلُوبهم وقـد قُـتل بِالجوزجَان سَنَة (٣١ هـ) وقَد أَعطَاه الرَّسولﷺ، مِئة من إبْل غنَائِم حُنين. وهُو صَاحب القِصَّة المَشهورة عِندما رَأىٰ النَّبيّﷺ يُقبل الحَسن بن عَليّ عليه السلام فقَال الأَقْرَع: يَارَسُول الله: إنَّ لِيَ عَشرة من الوِلد مَا قَبلت أحداً مِنْهم، فقَال النَّبيّﷺ: «مَن لاَيَرحَم لاَ يُرحم». أُنظر، مَنَاقب آل أَبِي طَالب: ١٨٩/٣، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٢٥، صَحِيح البُخَاريّ: ٦١/٤، الإِسْتِيعَاب المَطبوع بهَامش الإِصَابَة: ٩٦/١، صَحِيح مُسْلِم: ١٠٩/٣، سُنَن أَبِي دَاود: ٥٢٢/٢، مَجْمَع الزَّوائد: ١٥٦/٨.

(٢) هُو عَبَّاس بن مَرداس بن عَامر بن حَارثة، ويُكنىٰ أَبَا الهَيثم، وأَسلم قُبيل فَتح مَكَّة بِيَسير، ثُمَّ شَهد فَتح مَكَّة، وهُو من المُؤلفة قُلُوبهم، وٱشتهر أَمرَه يُوم أَعْطىٰ رَسُول اللهﷺ عُيينة، والأَقْرَع فِي حُنين أَكْثَر مِمَّا أَعْطَاه مِن الغنَائِم، فقَال خَاطباً لِلنَّبيّﷺ:

أَتَجْعَل نَهـبي ونَهْب العُـبـ ... يــد مَــرداس فِي مَجْـمَع
وَمَا كُنت دون ٱمرىء مِنْهُما ... ومَــن تَـضع اليَـوم لاَ يُـرفع

فقَال رَسُول اللهﷺ: «أذهَبوا فَٱقْطعوا عَنّي لِسَانه»، فَأَعطُوه مِن غَنَائم حُنين حـتَّىٰ يَـرضىٰ، وكَـان شَاعراً مُحسناً، وشُجاعاً مَشهوراً، وكَان مِمَّن حَرّم الخَمْر عَلىٰ نَفْسه فِي الجَـاهِلِيَّة. أُنـظر، مَـنَاقب آل أَبِي طالب: ٢٢١/٣، صَحِيح مُسْلِم: ١٠٨/٣، الأَغَاني: ٢٩٠/١٤، جَمـهَرة أَنْسَـاب العَـرب: ٢٦٣، نِهَـاية الإِرَب: ٣١٨، الإِشْتِقَاق لِابْن دُرِيد: ٣١٠، أُسد الغَابَة: ١١٢/٣، تَأرِيخ الطَّبَري: ٨٧/٣، الكَامِل لِابْـن ⇐

وأَغرَاض الدُّنْيَا، ولَمْ يَكُن عَن أَصلٍ ولاَ عَن عِلمٍ ويَقِين»[١].

(فَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَ تَأْنِيبَكُمْ، وَ جَمْعَكُمْ وَ تَحْرِيضَكُمْ... إلخ). أي تَحْرِيضكُم عَلىٰ قِتَال أَعْدَاء الله، ودِينه كِيلا يَذْلُوكُم مِن بَعْدِي ويَتَحكَمُوا بِدمَائكُم وأَمْوَالكُم، ولكنْ تَثَاقَلتُم، والآنْ أُعيد الْقَوْل مُؤكد ومُردِداً: (وَ مَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ)[٢] وتَقَدَّم ذَلِكَ فِي العَدِيد مِن الخُطَب[٣].

← الأَثِير: ٢/٢٦٩، السِّيرَة لِابْن هُشام: ٥١، الإِصَابَة: ٢/٢٧٢، الطَّبقات الكُبرىٰ: ١/٤٩، أُسد الغَابَة: ٣/١١٢، بِحَار الأَنْوَار: ٤٤/١٩٠.

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١٧/٢٢٥، الغَارات: ١/٣١٨.

(٢) قَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد، ومِثل قَوْله هَذَاﷺ قَول الشَّاعر:

لله دَرُّكَ مَا أَردتَ بِثَائرٍ ... حرَّان لَيْسَ عَن التِّرَاثِ بِرَاقِدِ
أَسْهَرتَهُ ثُمَّ ٱضْطَجَعت ولَم يَنَم ... حُنقاً عَلِيك وكَيفَ نَوم الحَاقِدِ

أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١٧/٢٢٦.

(٣) أنظر، مِنْهَا ٱلخُطْبَة: (٢٧ و ٩٣ و ١٠٢). (مِنْهُ ﷺ).

الرسالة
-٦٣-

إِلىٰ أَبِي مُوسىٰ الْأَشْعَرِيّ:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَ عَلَيْكَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولِي عَلَيْكَ فَارْفَعْ ذَيْلَكَ، وَ اشْدُدْ مِئْزَرَكَ، وَ اخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ، وَ انْدُبْ مَنْ مَعَكَ؛ فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ، وَ إِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ! وَ ايْمُ اللهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ، وَ لَا تُتْرَكُ حَتَّىٰ يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ، وَ ذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَ حَتَّىٰ تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ، وَ تَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَ مَا هِيَ بِالْهُوَيْنَىٰ الَّتِي تَرْجُو، وَ لَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَىٰ، يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَ يُذَلَّلُ صَعْبُهَا، وَ يُسَهَّلُ جَبَلُهَا. فَاعْقِلْ عَقْلَكَ، وَ امْلِكْ أَمْرَكَ، وَ خُذْ نَصِيبَكَ وَ حَظَّكَ. فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَىٰ غَيْرِ رَحْبٍ وَ لَا فِي نَجَاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَ أَنْتَ نَائِمٌ، حَتَّىٰ لَا يُقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ وَ اللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ، وَ مَا أُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

جُحْرِكَ: مَكَانك. وَانْدُبْ: أُدْعُ. وحَقَّقْتَ: عَزَمْتَ. وتَفَشَّلْتَ: جَبُنْتَ

وتَقَاعَسْتَ. والخَاثِر: اللَّبَن، والزُّبْدُ خُلاَصته. والقِعْدَة ـ بِكَسر القَاف ـ هَيئة القُعود. والهُوَيْنَىٰ: تَصْغِير الهَوْنىٰ أي مُؤنث الأَهْوَن. وٱعْقِلْ عَقْلَكَ: ٱجْعَله ثَقِيلاً وكَبِيراً.

الإِعْرَاب:

وَٱيْمُ اللهِ مُبْتَدَأ، والخَبَر مَحْذُوف وجُوباً أي وَٱيْمُ اللهِ قَسَمي، وأَنْتَ مُبْتَدَأ، والخَبَر مَحذُوف أي مِنْ حَيْثُ أَنْتَ فِي مكَانك، وبِالْهُوَيْنَىٰ البَاء زَائِدَة، والْهُوَيْنَىٰ خَبَر هِيَ، مَا صَنَعَ المُلحِدُونَ «مَا» مَصْدَرِيَة، والمَصْدَر المُنْسَبك مَجرُور بِبَاء مَحذُوف أي مَا أُبَالِي بِصنْعِهم.

المَعْنَىٰ:

كَان أَبُو مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ وَالِيَاً عَلىٰ الْكُوفَة حِين خَرج أَصْحَاب الْجَمَل عَلىٰ الإمَام، وٱستَنْفَر الإِمَام أَهْل الْكُوفَة لِلجِهَاد، كَمَا جَاء فِي ٱلرِّسَالَة الأُولىٰ مِن رَسَائل ٱلنَّهج، فَثَبطَهُم هَذَا الأَشْعَرِيّ، فَكَتب إِلَيْهِ الإِمَام ٱلرِّسَالَة التَّالِية:

(**أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَ عَلَيْكَ**). ذَكر الشَّارِحُون فِي تَفْسِير «هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ» مَا لاَ تَرْكَن إِلَيْهِ النَّفس... والَّذي نَرَاه إنَّ الإِمَام يَرد بِقَوْله هَذَا عَلىٰ خُطْبَة الأَشْعَرِيّ فِي أَهْل الْكُوفَة مُثبطاً عِن الْجِهَاد مَع الإِمَام بِقَوْله: «أَيُّها النَّاس أَنَّ أَصْحَاب رَسُول اللهِ ﷺ الَّذِين صَحبُوه فِي المَوَاطن، أَعْلم بِالله ورَسُوله مِمَّنْ لَمْ يَصْحَبه... وإِنَّ هَذِه الْفِتْنَة النَّائِم فِيهَا خَيرٌ مِن اليَقظَان، والقَاعِد خَير مِن القَائِم... فَأَغْمدُوا سيُوفكُم»[1]. فقَال لهُ الإِمَام: إِنَّ قَولِك هَذَا «هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ» أي فِيهِ حَقٌّ

(١) نَقل هَذَا الكَلاَم الَّذي صَاغه الأَشْعَرِيّ، وجَعَله مِن أَحَادِيث رَسُول الله ﷺ بَعد أَنْ ثَبط أَهْل الكُوفَة فِي ←

﴾ وَاقعَة الجَـمَل كُلّ من مرُوج الذَّهب: ٢ / ٣٦٧، والكَامِل لِابن الأثِير: ٣ / ٢٢١، و: ٢ / ٣٢٧ طَبْعَة أُخرىٰ، وتَأريخ الطَّبَري: ٣ / ٣٩٣ و ٤٩٨، و: ٥ / ١٨٧ طَبْعَة أُخرىٰ. وأبن قُتيبة فِي الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١ / ٨٥ أورَدها هٰكذا: إنّ هَذِه الفِتْنَة النَّائِم فِيهَا خَيرٌ مِن اليقظان، والقَاعد خَير مِن القَائِم، والقَائِم خَير مِن السَّاعِي، والسَّاعِي خَيرٌ من الرَّاكب، فأغمدُوا سِيُوفكُم حَتَّىٰ تَتجلّىٰ هَذِه الفِتْنَة... دون أنْ يَذكر أنّه قَالَ: سَمِعت رَسُول الله ﷺ وهَذَا يَدلّنا عَلىٰ أنّها لَيْسَت حَدِيثاً لرَسُول الله ﷺ.

أمّا أبن أَعْثَمْ فَقد ذَكر ذٰلِكَ فِي الفُتُوح: ١ / ٤٦٢ دون إسْنَاد المقَولة إلىٰ أحَادِيث رَسُول الله ﷺ بَل قَالَ: وثَب أبُو مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ وهُو يَوْمَئِذٍ عَامِل عَليها ـ الْكُوفَة ـ فقَال: يَا أَهْل الْكُوفَة أتقوا الله ﴿وَلَاتَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ...﴾، وَقَالَ أيضاً: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ...﴾ قَالَ: فَغَضِب عَمَّار بن يَاسر، ثُمَّ وَثَب أبُو مُوسىٰ فَأسْكَته.

ثُمَّ جَاءت المُفَاجَأة الثَّانِيَة مِن عَمَّار مُنَاشِداً أبَا مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ قَائِلاً: يَا أبَا مُوسىٰ أنشدك الله، أَلَمْ تَسمع رَسُول الله ﷺ يَقول: مَنْ كَذب عَليَّ مُتعمداً فَليَتبوّأ مَقْعَده مِن النَّار، وأنَا مُسَائلك عَن حَدِيث. فَإنْ صَدقت وإلّا بَعثت عَلَيك مِن أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ مَن يُقرّرك بِهِ، أنشدك الله، أَلَيس إنّما عنَاك رَسُول الله أَنْتَ نَفْسك، فقَال: إنّها سَتكُون فِتْنَة بَيْن أُمّتي أَنْت ـ يَا أبا مُوسىٰ ـ فِيها نَائِماً خَير مِنْك قَاعِداً، وقَاعِداً خَير مِنْك قَائِماً، وقَائِماً خَير مِنْك مَاشِياً، فَخصّك رَسُول الله ولَمْ يَعمّ النَّاس. فخَرج أبُو مُوسىٰ ولَمْ يَرد عَلَيْهِ شَيْئاً. رواه أبن عسَاكر، وأبو يَعلىٰ (أنظر أيضاً كَنز العُمَّال: ٧ / ٢٤٦، و: ١١ / ٢٧٤).

وحَدِيث الْفِتْنَة الّتِي يَكُون فِيها القَاعد خَيرٌ مِن القَائِم روَاه أبُو دَاود ح ٤٢٦٢ ولكنّه لَم يَخصّ فِيهِ أبَا مُوسىٰ. وهُنالك حوَار آخر نَقله أبن عسَاكر كمَا فِي الكَنز: ١٣ / ٦٠٨ عن أبِي نجَاء قَالَ: كُنت جَالِساً مَع عَمَّار، فجَاء أبُو موسىٰ، قَالَ: مَالي ومَالك، أَلَست أخَاك؟ فقَال عَمَّار: مَا أدري ولكنّي سَمِعت رَسُول الله ﷺ يَلعنك لَيْلَة الجَبَل؟ قَالَ أبُو مُوسىٰ: قَد أستغفر لِي، فقَال عَمَّار: قَد شَهدتُ اللّعن ولَمْ أشهد الإستِغفَار.

ولهَذا وغَيْره نَجد الإِمَام عَليّ عليه السلام يَكتُب رِسَالَة إلىٰ أبِي مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ، وهُو عَامِله عَلىٰ الْكُوفَة، وقَد بَلغَه عَنْه تَثْبِيطه النَّاس عَن الخرُوج إليهِ لمَّا نَدبَهُم لِحَرْب أصْحَاب الجَمَل.

أمّا الحَدِيث الّذي روَاه الأَشْعَرِيّ فهُو مَروي عَن أبِي هُريرة كمَا جَاء فِي صَحِيح البُخَارِيّ: ٩ / ٦٤ دَار إحيَاء التُّراث العَربي: قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ سَتكُون فِتَن! القَاعِدُ فِيها خَيرٌ مِن القَائِم، والقَائِم فِيها خَيرٌ ﴿

وبَاطِل، أمَّا الْحَقّ فَهُو أنَّ أَصْحَاب الرَّسُول أَعْلَم مِن غَيْرِهِمْ بِالدِّين، وأمَّا البَاطِل فهُو إنَّ القَاعد فِي هَذِه الْفِتْنَة خَيرٌ مِن القَائِم، لأنَّ الله سُبْحَانَهُ قَد أوجَب قِتَال مُثِيري الْفِتَن بقَوْله: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] وَقَالَ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ

⇐ مِن المَاشي، والمَاشي فِيها خَير مِن السَّاعي، مَن تَشرَّف لهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَن وَجد فِيها مَلجأً أو مَعاذاً فَليعُذ بِهِ. ولاَ نُريد التَّعليق عَلىٰ الرَّاوي اليَماني الَّذي آختُلف فِي آسمه، فقِيل: إنَّه عَبدالرَّحمن، وقِيل: عَامر، وقِيل: غَيْر ذَلِكَ. كَان مِن أَصْحَاب الصُّفَة يَتصدّق عَلَيْهِ الْمُسْلِمُون وَقَد صَحب النَّبيّ ﷺ ثَلاث سِنين، وقَد ذَكره آبن كَثِير فِي البدَاية والنّهاية: ٨/١٠٣ ـ ١١٥ بقَوله قَالَ: يزيد بن هَارون: سَمعت شُعْبَة يَقول: أبُو هُريرة كَان يُدلّس. ذَكره آبن عسَاكر....وروىٰ الأَعْمَش عن إبْرَاهِيم قَالَ: مَا كَانوا يَأخذون بِكلّ حَدِيث أَبِي هُريرة.

آستعمله عُمر بن الخَطَّاب فِي أيَّام إمَارته عَلىٰ البَحرين. وذَكره الذَّهبي فِي سير أَعْلام النُّبلاء: ٢/٥٧٨ عَن هَمام بن يحيىٰ....أنَّ عُمر قَالَ لأبِي هُريرة: كَيف وجَدت الإمَارة؟ قَالَ: بَعْثتَني وأنَا كَاره ونَزعتني وقَد أحبَبتها. وأتَاه بِأربعمئة ألف مِن البَحرين، فقَال: مَاجِئت بِهِ لِنَفسك؟ قَالَ: عشرِين ألفاً، قَالَ: مِن أين أَصبتَها؟ قَالَ: كُنت آتجر، قَالَ: أنظر رَأس مَالِك ورِزقك فَخذه وآجعَل الآخر فِي بَيت المَال. ورَاجع أيضاً الإصَابَة: ١٢/٦٣، وتَهذِيب التَّهذِيب: ١٢/٢٦٢.

وذَكر الطَّبَري فِي تَأرِيخه: ٤/٦٠، أنّ الخَوَارج دَخلوا قَرية فخرج عَبدالله بن خَبَّاب صَاحب رَسُول الله ﷺ ذَعِراً يجرّ رِدَاءه، فقَالُوا: لَم ترعْ؟ فقَال: والله لَقَد ذَعرتُموني، قَالُوا: أأنْت عبدالله بن خَبَّاب صَاحب رَسُول الله ﷺ؟ قَالَ: نعم، قَالُوا: فَهَل سَمعت مِن أبِيك حَدِيثاً يُحدِّث بِهِ عَن رَسُول الله ﷺ أنّه ذَكر فِتْنَة القَاعد فِيها خَيرٌ مِن القَائِم، والقَائِم فِيها خَيرٌ من المَاشي، والمَاشي فِيها خَيرٌ من السَّاعي؟ قَالَ: فإنْ أدركتم ذَلِكَ فَكن يَا عبدالله المَقتول...قَالَ فقدّموه عَلىٰ ضِفَة النَّهر فَضرَبُوا عُنُقه فَسَال دَمه كَأنَّه شرَاك نَعْل، وبقروا بَطن أُم وَلده عَمّا فِي بَطنها....

ولكنّ الطَّبَري فِي نَفْس الصَّفحَة يَنْقل عَن حَمِيد بن هِلال أنّه ـ عَبدالله ـ قَالَ: عِندما سَألوه، قَالَ: حَدّثني أبِي عَن رَسُول الله ﷺ أنّ فِتْنَة تَكُون يَموت فِيها قَلب الرَّجُل كمَا يَموت فِيها بَدنَه يُمسي فِيها مُؤمناً، ويُصبح كَافراً، ويُصبح فِيها كَافراً، ويُمسي فِيها مُؤمناً....

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٩٣.

حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[1]. فَكَيف تَنهىٰ يَا أَشعَرِيّ عمّا أَمَر الله بِهِ؟ وَهَل قَولك هَذَا إلّا رِضا بِالْفِتْنَة وتَشْجِيع لهَا؟ وهَل نَسِيت قَول رَسُول الله ﷺ: «مَن رَأىٰ مِنْكُم مُنْكَراً فليُغيره بِيدَه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِيع فَبِلسَانه، فإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبِقَلبه، وذَلِكَ أَضْعَف الإِيمَان؟»[2].

(فَٱرْفَعْ ذَيْلَكَ، وَ ٱشْدُدْ مِئْزَرَكَ). أَسْرِع إليَّ أَنْتَ وَمَن مَعْكَ بِلا تَأخِير (فَإِنْ حَقَّقْتَ فَٱنْفُذْ) إنْ عَزَمْتَ عَلىٰ الطَّاعَة فتَوكَل عَلىٰ الله (وَ إِنْ تَفَشَّلْتَ فَٱبْعُدْ) إنْ فتَرت وتَرَاخِيتَ فَٱذهب إِلىٰ بَيْتك وشَأنَك (وَ لَا تُتْرَكُ حَتَّىٰ يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ... إلخ). أَتظُن إنَّك بِمَنْجَاة؟ كَلا، سَتُؤخذ مِن مَكَانك، ولاَ تُترَك إلّا وأَنْتَ تَائِهٌ، حَائِرٌ لاَ تَهْتَدِي إِلىٰ خَيرٍ (وَ حَتَّىٰ تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ). الْمُرَاد بِالقِعْدَة هُنا الوَظِيفَة، والْوِلاَيَة أي تُطْرَد مِنْهَا (وَ تَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ) هَذَا كِنَايَة عَن الإِحَاطَة بِهِ بِلا مَنَاص لهُ وخَلاَص.

(وَ مَا هِيَ بِالْهُوَيْنَىٰ الَّتِي تَرْجُو، وَ لَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَىٰ، يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَ يُذَلَّلُ صَعْبُهَا، وَ يُسَهَّلُ جَبَلُهَا) إنَّ مَوقِفك ـ أيُّها الأَشْعَرِيّ ـ لَيْسَ بِالأَمْر الهَيِّن كَمَا

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٩١.

(٢) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ١/ ٦٩ ح ٤٨، صَحِيح اَبن حبَّان: ١/ ٥٤٠ ح ٣٠٦، تَفسِير القُرطُبي: ٤/ ٤٩، تَفسِير اَبن كَثِير: ١/ ٣٩١ و: ٢/ ٨٤، مُسْنَد أَبِي عوَانة: ١/ ٤٣ ح ٩٧، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبرىٰ: ٦/ ٩٤ ح ١١٢٩٣، سُنَن أَبِي دَاود: ١/ ٢٩٦ ح ١١٤٠ و: ٤/ ١٢٣ ح ٤٣٤٠، السُّنَن الكُبرىٰ: ٦/ ٥٣٢ ح ١١٧٣٩، سُنَن النَّسائي: ٨/ ١١١ ح ٥٠٠٨، سُنَن اَبن مَاجه: ١/ ٤٠٦ ح ١٢٧٥، مُسْنَد أَحمد: ٣/ ١٠ ح ١١٠٨٨ و ١١١٦٦ و ١١٤٧٨، مُسْنَد أَبِي يَعلىٰ: ٣/ ٢٨٩ ح ١٠٠٩، الفِردَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣/ ٥٤٤ ح ٥٦٩٨، التَّمهيد لِابْن عَبدالبر: ١٠/ ٢٥٩، كَشف الخَفاء: ٢/ ٣٢٨ ح ٢٤٨٥، المُحلىٰ: ١/ ٢٧ ح ٤٨، نَيل الأَوطَار: ٦/ ٣٣١.

تَظن ... إنَّه صَعْبٌ ، وعَسِير عَلَيْكَ وعَلَيْنا ، ولكنَّا نَحنُ نَقْتَحِم هَذَا الصَّعب ونُـذَلِله حَتَّىٰ يُسَهَّلُ بِإذن الله ، وتَبقىٰ أَنْتَ في الشِّدَّة والحَيرَة (فَاعْقِلْ عَقْلَكَ) تَغَلَّب بِهِ عَـلىٰ هوَاك (وَ آمْلِكْ أَمْرَكَ) وأعْصَابك ، ولاَ تَتحَرك بِآنْفعَالٍ ، وعَصَبِية وإلّا كَـان مَآلك الفَشَل والخُذلاَن (وَ خُذْ نَصِيبَكَ وَ حَظَّكَ) آحمِل نَفْسك علىٰ عَمل الخَيْر ، وخُذ مِنْهُ أوْفَر نَصِيب (فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَىٰ غَيْرِ رَحْبٍ وَ لَا فِي نَجَاةٍ) . عَمل الخَيْر فَآعْـتَزل عَمَلُنا ، وأَذهَب إلىٰ الشَّيْطَان .

(فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ) إنَّك لَجَدِير بِالإِهْمَال ، والنِّسيَان ، لأَنَّك لاَ تُغنِي شَـيْئاً ، ولذَا نُكفِيك ونُعْفِيك (وَ أَنْتَ نَائِمٌ ، حَتَّىٰ لَا يُقَالَ : أَيْنَ فُلَانٌ ؟) مَتىٰ أَهْملنَاك تُصبح نَكرة لاَ تُعد عِند الحضُور ، ولاَ تُفقَد لدىٰ الغِياب (وَ اللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ ، وَ مَا أُبَـالِي مَـا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ) . أَبَداً لاَ أَكترَث بِما قَالَ ، ويَقول الجَاحِدُون والمُثبطُون مَـا دُمتَ عَلىٰ الحَقِّ ، وهُو يَدُور مَعي كَيف آتجَهت بِشهَادة مَن أَنْطَقه الله بِبيَانه ، وقُرآنه[1] .

(١) بِناءً عَلىٰ الحَدِيث المَروي عَنْه ﷺ : «عَليٌّ مَع ٱلحَق ، وٱلحَق مَع عَليّ» ، وَقَد تَقَدَّم.

وَهكذا روي الحَدِيث : «الحَقّ مَع عليّ ، وعليٌّ مَع الحَقّ لَنْ يَفتَرقا حَتّىٰ يَردَا عَـليَّ الحَـوض». أنـظر ، صَحِيح التِّرمِذي : ٢٩٧/٥ ح ٣٧٩٨ و : ١٢٦/١٢ ، وجَامع التِّرمِذي : ٢١٣/٢ ، التَّفسِير الكَبِير لـلفخر الرَّازي : ٢٠٥/١ ، فَيض القَدِير : ٣٥٦/٦ ، مَجمَع الزَّوائد : ٢٣٥/٧ و : ١٣٤/٩ ، تَأريخ بَغداد : ٣٢١/١٤ ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ٧٨/١ ، شَرح الأَخبَار للقَاضي النُّعمان المَغربِي : ٦٠/٢ ، رَبِيع الأبـرار للـزَّمخشري : ٨٢٨/١ ، فَرائد السِّمطِين : ١٧٧/١ ح ١٣٨ ، المَنَاقِب لِابْن المَغازلي : ١١٧ و ٢٤٤ ، والمُستَدرَك : ١٩/٣ و ١٢٤ ، العقد الفَرِيد : ١٠٨/٣ الطَّبعة الثَّالثة ، تَأريخ آبن عسَاكر تَرجَمَة الإِمَام عَليّ : ١١٩/٣ ح ١١٦٢ و : ٤٤٩/٤٢ ، كَنز العُمَّال : ٦٠٣/١١ ح ٣٢٩١٢ ، أَنسَاب الأَشرَاف : ٢٨١/٢ الطَّبعة الأُولىٰ ، فضل آل ٱلبَيت للمَقرِيزي : ٦٠ ، جوَاهر المطالب فِي مناقب الإِمَام عَليّ لِابْن الدِّمَشقِي : ٣٤٣/١ ، المِلل والنّحل : ١٠٣/١ .

وَأَنظر ، مَجمَع الزّوائد : ٢٣٥/٧ ، تَأريخ بَغداد : ٣٢٠/١٤ ح ٧٦٤٢ ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ٧٨/١ ، فرائد

⇔

↩ السّمطين: ١ / ١٧٧، المَناقب لِابْن المـغازلي: ١١٧ و ٢٤٤، والمُسْتَدرَك عـلىٰ الصَّحِيحين: ٣ / ١٩ و ١٢٤، التَّفسِير الْكَبِير للرّازي: ٢٠٥/١، شَرح الأَخْبار للمَغربي: ٥٢٥/٢، سُنن التِّرمِذي: بَاب مَناقب عَليّ: ح ٣٧١٤، جَامع التِّرمِذي: ٢١٣/٢، كَنز الْعُمَّال: ١٥٧/٦، الصَّواعِق الْمُحْرِقَة: ١٢٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٩٠، المطالِب العَالية: ٦٦/٤، المَحصول للرَّازي: ١٣٤/٦، وفِي بَعْض المَصادر بِلفظ: «رَحِمَ الله عَـلِيّاً أَدِر الحَقّ مَعَهُ حَيثُ دَار». أُنظر أيضاً، المُعْجَم الأوسط: ٩٥/٦ ح ٥٩٠٦، تُحْفَة الأَحْوذي: ١٤٩/١٠، فَيض القَدِير: ١٩/٤، تَهذِيب الكَمَال: ٤٠٢/١٠ ح ٢٢٥٦، الرّياض النَّضرة: ٢٤٣/١ ح ٨٧.

الرسالة ٦٤

أيضاً إلىٰ مُعَاوِيَة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَ الْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَ كَفَرْتُمْ، وَ الْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَ فُتِنْتُمْ، وَ مَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرْهاً، وَ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حِزْباً.

وَ ذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَ الزُّبَيْرَ، وَ شَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ، وَ نَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ! وَ ذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ فَلَا عَلَيْكَ، وَ لَا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ.

وَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ، وَ قَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ! وَ إِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ:

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ ... بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَ جُلْمُودِ

وَ عِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ، وَ خَالِكَ، وَ أَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ. وَ إِنَّكَ وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ؛ وَ الْأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ لَكَ: إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ، وَ رَعَيْتَ غَيْرَ

سَائِمَتِكَ ، وَ طَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَ لاَ فِي مَعْدِنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ !! وَ قَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ ، وَ أَخْوَالٍ ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ ، وَ تَمَنِّي الْـبَاطِلِ ، عَـلَىٰ الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً ، وَ لَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً ، بِوَقْعِ سُيُوفٍ مَا خَلاَ مِنْهَا الْوَغَىٰ ، وَ لَمْ تُمَاشِهَا الْهُوَيْنَىٰ .

وَ قَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ ، فَٱدْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ ، أَحْمِلْكَ وَ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ ؛ وَ أَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ ، وَ السَّلاَمُ لِأَهْلِهِ .

اللُّغَة:

أَنْفُ الشَّيء : أَوَّله ، والْمُرَاد بِأَنْفُ الإِسْلاَمِ هُنا الصَّحَابَة السَّابقُون الأَوْلُون . والْمِصْرَانِ : الْكُوفَة ، والْبَصْرَة . وٱسْتَرْفِهْ : تَنعَمْ . والحَاصِب : رِيَاح تَحْمل الْحَصىٰ . وأَغْوَارٍ : جَمْع غَوْر أي مَا ٱنْحَدر وٱطمَأن مِن الأَرْض . والجُلْمُودِ : الصَّخر . والأَغْلَفُ : لاَ يَعي ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾(١) . والضَّالَة : الْمَفقُودَة الْمَنْشُودَة . والسَّائِمَةُ : الْمَاشِيَة الرَّاعِيَة . والْوَغَىٰ : الْحَرْب . والْهُوَيْنَىٰ : مُؤَنث الهَيِّن .

الإِعْرَاب:

أَمْسِ ظَرَف زَمَان مَبني عَلىٰ الكَسر إذَا أُرِيد بِهِ اليَوْم قَبل يَومك بِلَيلَة ، وإذَا أُرِيد

(١) ٱلْبَقَرَة : ٨٨.

بِهِ يَوْم مِن الْأَيَّام المَاضِية أو دَخَلْت عَلَيْهِ الْأَلف واللاَّم، أو أُضِيف فهُو مُعرّب بِالْإِجمَاع. والْمَصْدَر من أَنَّا آمَنَّا فَاعِل فَرَّقَ، وَكَرْهاً فِي مَوضع الحَال أي مُكْرَهاً، وبِجَدِّكَ البَاء زَائِدَة، وَجَدِّكَ مَفْعُول أَعْضَضْتُهُ، وَمَا عَلِمْتُ «مَا» اسم مَوْصُول خبَرَ إِنَّكَ أي الَّذي عَرَفتَه، والأَغْلَفُ والْمُقَارِبُ عَطف بَيَان وتَفْسِير لِاسم المَوْصُول الَّذِي هُو خبَرَ إِنَّكَ، فكَأَنَّه قَالَ: إِنَّكَ الأَغْلَفُ الْقَلْبِ الَّذي عَرَفتَه، وقَرِيبٌ خَبَر مُقَدَم، والْمَصْدَر مِنْ مَا أَشْبَهْتَ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر أي شَبهَك قَرِيب مِن أَعْمَامِك، وَ أَخْوَالِك.

الْمَعْنَىٰ:

تَقَدَّم مَعْنَا حَتَّىٰ الآنْ إحدىٰ عَشرَة رِسَالَة مِن الإِمَام إِلىٰ مُعَاوِيَة، وهَذِه الثَّانِيَة عَشرَة، وتَأتي ثَلاَث، فَالمَجمُوع (١٥)، وهِي مُتْشَابِهة، لوحدَة المَوْضُوع والهَدَف، كَمَا قُلنا فِي شَرح آلرِّسَالَة (٥٥)... وقد دَأب مُعَاوِيَة عَلىٰ تَلفِيق الاتِّهَامَات ضِدّ الْإِمَام بِحَسد الشَّيخِين تَارةً، وبِدَم عُثْمَانَ تَارَات وَمَرَّات... لاَ لِشَيء إلّا لأَنَّ الإِمَام مَا أَعطَاه الشَّام طُعْمَة كَمَا جَاء فِي آلرِّسَالَة (١٧)، والإِمَام يَردّ عَلىٰ اتِّهَامَاته ومَزَاعمه خَوْفاً مِن تَضلِيل بَعْض السُّذج مِن أَهْل الشَّام، ولاَ جَدِيد فِي آلرِّسَالَة الّتي نَحنُ بِصَددها، ولذَا نُحِيل عَلىٰ مَا سَبق، ونُوجز مَا أَمْكَن.

(فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَ الْجَمَاعَةِ... إلخ). كَان بَيْنَ بَنِي هَاشم وأُمَيَّة تَبَايُن فِي الطَّبَائع والأَخْلاَق، وتَنَافُس عَلىٰ الزَّعَامة والصَّدَارَة فِي الجَاهِلِيَّة مَا فِي ذَلِكَ رَيب... وَنَافر أُمَيَّة هَاشِماً عِند الكَاهن الخُزاعِي عَلىٰ خَمْسِين نَاقَة، والجَلاَء عَن مَكَّة عَشر سَنوَات، فَحَكَم الكَاهن لهَاشِم عَلىٰ أُمَيَّة، وانْتَهت

الْخُصُومَة عِند هَذَا الحَد بِلا حَرْب وضَرْب[1]. وتَقَدَّم قَول الإِمَام لِمُعَاوِيَة: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةَ كَهَاشِمٍ، وَلاَ حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلاَ أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلاَ الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلاَ الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلاَ الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلاَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَبِئْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[2]. (فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَ كَفَرْتُمْ... إلخ). الإِسْلاَم حَيْث كُنْتُم عَلَيْهِ حَرْباً وأَعداءً، وكُنَّا لهُ جُنُوداً ولُوَاءً، وتَقَدَّم مِثله فِي ٱلرِّسَالَة (٢٨) (وَ مَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرْهاً) أَسْلَمتُم خَوْفَاً مِن السَّيْف، وتَقَدَّم فِي ٱلرِّسَالَة (١٧). قَالَ الشَّيخ عَبْدَه: «إِنَّمَا أَسْلَم أَبُو سُفْيَانَ قَبل فَتح مَكَّة بِلَيلَةٍ خَوف الْقَتْل»[3]. (وَ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حِزْباً). أَسْلَمتُم حِين أَظْهَر الله نَبِيّه الكَرِيم عَلىٰ الشِّرك كُلّه، وكُنْتُم لذَلِكَ كَارِهِين.

(وَ ذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَ الزُّبَيْرَ، وَ شَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ). تَقَدَّم فِي ٱلرِّسَالَة (٢٨) أَنَّ مُعَاوِيَة قَالَ لِلإِمَام: حَسَدْتَ الْخُلَفَاء، وإِنَّ الإِمَام أَجَابَه بِقَوْله: «فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ»[4]. والجَوَاب هُنَاكَ هُو بِالذَّات هُنَا. قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «أَجَابَه الإِمَام بِكَلام مُخْتَصر أَعْرَض فِيهِ عَنْهُ هَوَاناً بِهِ، فَقَالَ هَذَا أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ، فَلَيْس عَلَيْكَ كَان الْعُدْوَان الَّذي تَزعَم، وَلاَ الْعُذْرُ فِيهِ

(١) أُنظر، القِصَّة كَامِلة فِي النّزاع والتَّخاصم للمَقْرِيزي: ٤٩، تَأريخ الطَّبَرِي: ٢/‏١٣، البدَاية والنّهاية: ٨/‏٥٢، كتَاب المُنمق لمُحَمَّد بن حَبيب البَغدادي: ٩٩ و ٢٠٠، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ١/‏٢٧١، الطَّبقات الكُبرىٰ: ١/‏٧٦، شَيخ المُضِيرة أَبو هُريرة للشَّيخ مَحمُود أَبو رِية: ١٥٩.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (١٧). (مِنْهُ).

(٣) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٣/‏١٢٢.

(٤) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٢٨). (مِنْهُ).

إِلَيْكَ. أمَّا الجَوَاب المُفَصل: فهُو أنَّ طَلْحَة والزُّبَيْرَ قَتْلاَ نَفْسِيهما بِبَغيهِما ونَكْثِهما، ولَو ٱستقَاما عَلىٰ الطَّرِيقة لِسَلِما، وَمَن قَتَلهُ ٱلْحَقّ فَدمهُ هَدر، وأَمَّا كونَهُما شَيخَين مِن شِيوخ الإِسْلاَم فَغير مَدفُوع، ولكنَّ العَيب يَحدث»[1]. هَذَا مَع العِلم بِأَنَّ طَلْحَة قَتَله مَرْوَان بن الحُكْم أَخذاً بِثأر عُثْمَانَ، والزُّبَيْرَ قَتَله عَمْرُو بن جَرْمُوز[2].

(وَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ) مُعَاوِيَة يُهدد عَلِيّاً بِالْحَرْب!. وَيَتَوعدَه بِالْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَار، ولَيْسَ مَعهُ مِن الأَنْصَار إِلَّا ٱثْنَان فَقَط:

النُّعمَان ٱبن بَشِير، ومَسْلَمة بن مَخلد تَبْعَاه طَمَعاً فِي دُنيَاه، كٱبن العَاص[3]. وكَان مَع الإِمَام تِسْعِمِئة مِن الأَنْصَار، ولاَ نَعْرِف أَحداً مِن المُهَاجِرِينَ كَان مَع مُعَاوِيَة، وكَان مِنْهُم مَع الإِمَام ثَمانِيمِئَة. وكَان فِي جَيش مُعَاوِيَة الأُمُويُون والمُنَافِقُون الَّذِين حَارَبُوا رَسُول الله مَع أَبِي سُفْيَانَ[4]... وهَذَا شَيء بَدِيهِي، وطَبِيعي يَفرضَه وَاقِع

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٢٥٣/١٧.

(٢) تَقدَّم الحَدِيث عَنهُما.

(٣) بَايَعت الأَنْصَار والمُهَاجرين الإِمَام عَليّ عليه السلام غَيْر نَفر يَسِير فإِنَّهُم قَعدُوا عَن بَيْعَته عليه السلام لأنَّهم كَانوا عُثْمَانِية وذَكر أَصْحَاب كُتب السِّيَر والتَّأرِيخ أَسمَاءهم كَالدِّينوري فِي الأَخْبَار الطّوَال: ١٤٠، وصَاحِب وَقْعَة صِفِّين: ٦٥، وصَاحِب فَتح البَاري: ١٩/٥ و: ١٦٥/١٣، وتَأرِيخ أَبن خلدُون: ٢١٤/١، وذَكروا مِنْهُم: مُحَمَّد بن مَسْلَمة، والنُّعمان بن بَشِير، ونَافع ـ وقِيل: رَافع ـ بن خَدِيج، وأُسَامة بن زِيد. ذَكر ذَٰلِكَ الشَّيخ المُفِيد رحمه الله فِي الإِرْشَاد: ٢٤٤/١ طَبْعَة مُؤسَّسة آل البَيْت عليهم السلام، وشَرح ٱلنَّهج لابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢٦/١، و: ١٩٢/٣، بِحَار الأَنْوَار: ٣٩٧/٨. وذَكر أَبن أَعْثَمْ فِي كِتَاب الفُتُوح: ١٦٣/٢ أَنّه تَخلَّف عَن البَيْعَة عَبدالله بن عُمر، ومُحَمَّد بن مَسْلَمة، وأُسَامة بن زِيد، وحَسَّان بن ثَابت، وسَعد بن أَبِي وقَّاص. وذَكر اليَعقوبِي فِي تَأْرِيخه: ١٧٨/٢ بِأَنّه فَقد تَخلّف مِن بَنِي أُمَيَّة مَروان بن الحَكم، وسَعيد بن العَاص والوَليد بن عُقْبَة.

(٤) كَان مَع الإِمَام فِي صِفِّين (٢٨٠٠) من الصَّحَابَة، مِنهم (٨٧) من البَدْرِيين و(٩٠٠) مِمَّنْ شَهد بَيْعَة الرِّضْوَان الَّتِي أَشَارت إِلَيْهَا الآيَة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ

الحَال، لأنَّ الإِمَام اَمتدَاد لِرَسُول الله ﷺ، ومُعَاوِيَة اَمتدَاد لأبِيه أَبِي سُفْيَان.

(وَ قَدِ اَنْقطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ). قَالَ اَبن أَبِي اَلحَدِيد فِي شَرحه: «هَذَا تَكذِيب لِمُعَاوِيَة، لأنَّ أَكْثَر مَن كَان مَعَهُ مِمَّنْ رَأىٰ رَسُول الله هُم أَبْنَاء الطُّلَقَاء، ومَن أَسْلَم بَعد الفَتح، وَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «لاَ هُجرَة بَعْدَ اَلْفَتح ـ وإِذَنْ فَأين الْهِجْرَة ـ وقَول الْإِمَام يَوْم الفَتح إشَارة إِلىٰ تَقرِيع مُعَاوِيَة، وأَهْله بِالكُفر وأَنَّهم لَيْسُوا مِن أَهْل السَّوَابِق، وقَد أُسِرَ يَزِيد بن أَبِي سُفْيَانَ أَخُو مُعَاوِيَة فِي يَوْم الفَتح»[1]. وكَان قَد خَرَج

⟸ اَلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ اَلْفَتح: ١٨.. وكَان الصَّحَابَة قَد تعَاهدُوا عَلىٰ المَوْت مَع الإِمَام، وقُتل منهم غَيْر قَلِيل، وأرسلت رُؤُوسِهم مع البَرِيد إِلىٰ الأشرَار، والفُجار. أُنظر، وَقْعَة صِفِّين: مَا بَيْنَ أَعَالِي العِرَاق، وبلاد الشَام، تِلك البَلدة الّتِي خلّدها التَّارِيخ، وتِلك الحَرْب الّتي اَستنفدت من الدّم المهراق مِئة يَوم وعَشرة أَيّام، بَلغت فِيها الوقَائعُ تِسعين وَقْعَةً. كَانَتْ حَرباً ضَروساً، أَوشَكت أَنْ تُفني اَلْمُسْلِمِينَ، وتَذهب بِمَجدِهم، وتَمحو آثَارهم. فَمَا كَاد المُسْلِمُون يَنزلون عن خِيلهم بَعد وَقْعَة الجَمَل سَنَة ٣٦ هـ، حَتَّىٰ اَعتلَوْها مَرَّةً أُخرىٰ فِي حَرْب صِفِّين، لخَمس مَضِين من شوّال يَوم الأَرْبعَاء مِن تِلك السَّنَة، وكَان البَاعث عَلَيْهَا كالبَاعث عَلىٰ حَرْب الجَمَل وهُو حُبّ الدُّنْيا، والعَدَاوة لِلرَّسُول، وأَهْل بَيْتِه ﷺ، ولو كَانَتْ هَذِه الحَرْب فِي نُصرة الإِسْلاَم لجَرَت عَلىٰ الإِسْلاَم خَيْراً كَثِيراً بَقدر مَا جرَت عَلَيْه من الضّرر أو أَكثَر. (أُنظر، أعيَان الشِّيعة: ١/ ٤٦٥، مُعجم البُلدان (صِفِّين)، وَقْعَة صِفِّين لنَصر بن مُزَاحم تَحقِيق وشَرح عَبدالسّلام مُحَمَّد هَارُون الطَّبعة الثَّانِيَة مَنشورَات مَكتبَة آية الله العُظمىٰ المَرعشي النَّجفي /المُؤسّسة العَرَبية الحَدِيثة: ١٣١، والفَهرست لاِبْن النَّدِيم: ١٣٧ و ١٤٤. وأُنظر اَبن خلّكان: ١/ ٥٠٦. الطَّبَرِيّ فِي تَأْرِيخه: ٥/ ٢٣٥، و: ٦/ ٢ ـ ٤٠. المَعَارف: ٣٦. الاِشتقَاق: ١٥٢، وشَرح النَّهج لاِبْن أَبِي اَلحَدِيد: ١/ ٢٨٧، وغَيْرهم كَثِير.

(١) أُنظر، هُو يَزِيد بن أَبِي سُفْيَان، يُكنىٰ أبَا خَالد، وأُمّه أُم الحكم، واَسمها زَينب بِنت نوفل بن خَلف بن قوَالة مِن بَني فِرَاس مِن كنَانة. توفّي سَنَة (١٨ أو ١٩ هـ) بدِمشق ودُفن فِيها. وَقَالَ فِيهِ ﷺ عِندما نَظر إِلىٰ أَبِي سُفْيَان وهُو رَاكب، ومُعَاوِيَة وأَخُوه أَحَدهُما قَائد، والآخر سَائِق: أَللَّهُمَّ اَلعن القَائِد، والسَّائِق، والرَّاكب. ذَكر ذَلِكَ الطَّبَرِيّ فِي تَأْرِيخه: ١١/ ٣٥٧، وسِبط اَبن الجوزي فِي التّذكرة: ١١٥، ووَقْعَة صِفِّين: ٢٤٧، والزُّبَير بن بَكَّار فِي المُفَاخرَات بروَاية اَبن أَبِي اَلحَدِيد عَنْهُ فِي شَرح اَلنَّهج: ٢/ ١٠٣. وتَأْرِيخ ⟸

فِي نَفَرٍ من قُرَيْش يُحَارِبُون رَسُول الله، ويَمنعُونه مِن دخُول مَكَّة: فَقُتل مِنْهُم قَوم، وأُسِرَ يَزِيد»[(١)].

ومُعَاوِيَة ومَن مَعه يَعلمُون أَنَّهم كَانوا حَرْباً عَلىٰ الإِسْلاَم، وإِنَّ عَلِيّاً وأَصْحَابه هُم أَنْصَار الدِّين والْقُرْآن مِن قَبل ومِن بَعد، ولكنْ مُعَاوِيَة يَعْلَم أيضاً أنَّه لَنْ يَبلغ مَا يُرِيد إلّا بِالتَّموِيه، والتَّزِيف، ولذَا مَوَّه، وزَيَّف تَمَاماً كَالصُّحف المَأجورة وغَيْرها مِن وَسَائِل الإِعْلاَم فِي عَصرنا وفِي كُلِّ عَصر.

(فَإِنْ كَانَ فِيهِ عَجَلٌ فَآسْتَرْفِهْ) إنْ كُنْتَ تَتعجل زِيَارتِي حقّاً فتَزَود مِن الدُّنْيا ونَعِيمُهَا مُودِعاً، لأَنَّك مُفَارقها عَن قَرِيب (فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ). إنْ أَتيتُك فقَد آنتَهىٰ أَجَلُك، وإنْ أَتيتني آستَقبلتَك السُّيوف والرِّمَاح تَماماً كَمَا تَستقبل رِيَاح الصِّيف مَن يوَاجِهها بِحصبَائِها (وَ عِنْدِي

↩ الطَّبَري: ٤/ ٢٠٢، وسِير أَعْلاَم النُّبلاء: ١/ ٢٣٧، ومُسْنَد أحمَد: ٤/ ٤٢١، ووَقْعَة صِفِّين لنَصر بن مُزَاحم: ٢٤٦، والْمُعْجَم الكَبِير للطَّبراني: ١/ ٤٢٧، والعقد الفَرِيد: ٤/ ٣٤٥، والاِسْتِيعَاب: ٤١٢، وأُسد الغَابَة: ٣/ ١٠٦، وتَهذِيب أَبن عسَاكر: ٧/ ٢٠٦، والإِصَابَة: ٢/ ٢٦٠، والأَغَاني: ٩/ ٥٣، مروج الذَّهب بهَامش أَبن الأثِير: ٥/ ١٦٥ ـ ١٦٦، والنِّزاع والتّخاصم للمَقْرِيزي: ٢٠ طَبعة النَّجف. أَنسَاب الأَشْرَاف: ١/ ٥٣٢، وصَحِيح مُسْلِم: ٤/ ١٩٥، وشَرح النّهج: ١/ ٣٦٥، ومُسْنَد الطَّيَّالسِي: ح ٢٧٤٦، وآبن كَثِير: ٨/ ١١٩، :٤/ ١٩٥، وسُنَن آبن مَاجه: ح ١٨٦٩.

أُنظر، الآحَاد والمثَاني: ١/٣٧١ و: ٦/٩٨ ح ٣٣١٣، المُعْجَم الأوسَط: ٧/٤٨، المُعْجَم الكَبِير: ٢٥/٣٣، مُسْنَد الشَّامِيين: ١/٢٥٧ ح ٤٤٤ و ٤٤٥، الجَامِع الصَغِير: ١/٤٣١ ح ٨١١، كَنز العُمَّال: ٤/٣٠١ ح ١٠٥٩٨ وص: ٤٥٥ ح ١١٣٥٧ و: ١١/١٢٤ ح ٣٠٨٧٩، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَغِير: ٣/١٠٩ ح ٢٨١١، تَارِيخ دِمشق: ١٠/٩٣ و: ٧٠/٢١٠، تَهذِيب الكَمَال: ٣٥/٣٤٢، صَحِيح البُخَاري: ٣/٢٣٢ و: ٤/٥١ ، البِدَاية والنِّهاية: ٦/٢٤٨.

(١) أُنظر، شَرح نَهج آلبَلاَغَة: ١٧/٢٥٧، الكَامِل في التَّارِيخ: ٢/٢٠، سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ٢/٣٢٩، أُسد الغَابَة: ٥/١١٢، تَارِيخ الطَّبَري: ٢/٤٤٩.

السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ) عُتْبَة ٱبن رَبِيعَة (وَ خَالِكَ) الوَلِيد بن عُتْبَة (وَ أَخِيكَ) حَنْظَلَة (فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ) وهُو يَوْم بَدْر حَيْث سَاقَهُم الإِمَام بِسَيْفِهِ إِلىٰ حَتْفِهِم زُمرَّة وَاحِدة. وتَقَدَّم مِثله مَع الشَّرح فِي ٱلرِّسَالَة (١٠ و ٢٨).

(وَ إِنَّكَ وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ الأَغْلَفُ الْقَلْبِ ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ) . أنَـا أَعْـلَم بِأَنَّك مِـن الَّذِين رَان الله عَلىٰ قُلُوبِهِمْ بِمَا كَسبُوا مِن الحرَام والآثَام (وَ الْأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ لَكَ : إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لاَ لَكَ) . تَجَاوزتَ حَدَك ، وَعَدوتَ طُورَك (وَ طَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَ لاَ فِي مَعْدِنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِـنْ فِـعْلِكَ) . سَـيطَرت عَلَيْكَ لَذَّة الحُكْم وشَهوَة السُّلْطَان ، ومِن أَجْـلِها تُـثِير الْـفِتَن ، وتَسْـتَهِين بِـدمَاء المُسْلِمِين ، وكُلّ الْقِيَّم ! . وَقَد ٱعتَرف مُعَاوِيَة نُفسه بِذَلِكَ ، ونَـطَق بِـهِ بِكُـلِّ جُـرأة وصَلاَفة . قَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد فِي شَرحه : «قَالَ المَدَائني : أنّ مُعَاوِيَة بَـعد الصُّـلح خَطب أَهْل الْكُوفَة ، وَقَالَ لَهُم فِيما قَالَ : أَتَرُونِ أَنِّي قَاتَلتكُم عَلىٰ الصَّلاٰة ، والزَّكَاة ، والحَجِّ ، وقَد عَلِمتُ أَنَّكم تُصلُّون ، وَتُزَكُّون ، وَتحجُون ، ولَكنّي قَـاتلتكُم لأَتـمر عَلَيْكُم ، وعَلىٰ رِقَابكُم ... أَلاَ أنّ كلّ شَرط أشترَطَه فَتحت قَدَمي هَاتِين» (١) .

هَذَا هُو مُعَاوِيَة ، وهَذِه هِي حَقِيقَته !.. قَتلٌ ، وسَفك دِمَاء ، وتَخرِيب ، وتَدمِير ، وسُخرِية مِن الصَّلاٰة والزَّكَاةِ لاَ لِشَيء إلّا لِلسَّيطرة والتَّحكم بِالرِّقَاب !... ومِن هُنا شَبَه الإِمَام بِعَمَّته أُمّ جَمِيل حَمّالة ٱلحَطب ، وخَاله الوَلِيد وغَـيْرهما مِـن أَرْحَـامه

(١) أُنظر ، شَرح ٱلنَّهج : ٤٦/١٦ و ٤٧ ، مُقاتل الطَّالِبِيين : ٤٦ ، المَعْرِفَة والرِّجـال للـبسوي : ٣١٨/٣ ، شَرح الأَخْبَار : ١٥٧/٢ ، الإِرْشَاد للشّيخ المُفيد : ١٤/٢ ، مناقب آل أبي طَالب : ١٩٦/٣ ، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبة الكُوفي : ٣٥١/٧ ح ٢٣ ، تَأرِيخ دِمشق : ٣٨٠/٥٢ و: ١٥٠/٥٩ ، البدَاية والنِّهاية : ١٤٠/٨ ، كَشف الغُمة : ١٦٤/٢.

أَعْـدَاء الله ورَسُـوله ... ومَـع هَـذَا يَـطلب خِـلاَفة الرَّسُـول ﷺ بآسم الله ورَسُوله ... وأي عَجب أَلسْنَا فِي عَصر النُّور والْفَضَاء، والدِّمَاء تَجري فِي فَلسطِين وفِيتنَام أَنْهُراً بآسم الْعَدْل، والسَّلاَم !.

(وَ قَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ، فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ ... إلخ). تَقَدَّم الكَلاَم عَن ذَلِكَ مُفصلاً أَكْثَر مِن مَرَّة، وآخرها فِي آلرِّسَالَة (٥٨) فِقْرَة «الإِمَام وآلقِصَاص مِنْ قَتَلَة عُثْمَانَ» ونَقلنَا كَلاَم الإِمَـام مِـن هُـنا إِلىٰ هُـنَاك وشَرحنَاه بوضُوح.

الرسالة
-٦٥-

أيضاً إلى معاوية:

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ، فَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَ اقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَ الْأَكَاذِيبِ ، وَ بِانْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَ ابْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ اخْتُزِنَ دُونَكَ ، فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ ، وَ جُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَ دَمِكَ ؛ مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَ مُلِئَ بِهِ صَدْرُكَ . فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ الْمُبِينُ ، وَ بَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ ؟ فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَ اشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا ، وَ أَغْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا .

وَ قَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ ، وَ أَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا مِنْكَ عِلْمٌ وَ لَا حِلْمٌ ؛ أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ ، وَ الْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ ، وَ تَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ ، نَازِحَةِ الْأَعْلَامِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنُوقُ وَ يُحَاذَى بِهَا الْعَيُّوقُ .

وَ حَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدِي صَدْراً أَوْ وِرْداً ، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْداً أَوْ عَهْداً !! فَمِنَ الْآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ ، وَ انْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ

إِلَيْكَ عِبَادُ اللهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ، وَ مُنِعْتَ أَمْراً هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ، وَ السَّلَامُ.

اللّغَة:

بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ: كِنَايَة عَن الوضُوح والظُّهور. والمَدَارِجَ: المَسَالِك. وَالْإِقْحَام: الْإِدْخَال بِسُرْعَة. والمَيْنِ: الْكَذِب. والْانْتِحَال: ٱدعَاء مَا لَيْسَ فِيك مِن صِفَة أو مَا هُو لِغَيْرِك مِن قَولٍ أو فِعلٍ. والابْتِزَاز: ٱنْتهَاب وٱستلاَب. وٱخْتُزِنَ: مُنِع. واللَّبْسُ واللَّبْسَة والْالِتبَاس بِمَعْنىٰ وَاحد، وهُو الْإِبْهَام والغمُوض والْإِشْكَال والْإِخْتِلاَط. وأَغْدَفَتْ: أَرْسَلت. والجَلَابِيب: نَوْع مِن الثِّيَاب. وَأَسَاطِيرَ: خُرَافَات. والدَّهَاسِ: الْأَرْض اللَّينَة. والدِّيمَاسِ: المَكَان المُظلِم. والمَرْقَبَة: المَكَان السَّامِي الرَّفِيع. والنَّازِحَةِ: البَعِيدَة. والْأَنُوقُ: مِن الطُّيُور. والْعَيُّوقُ: نَجْمٌ. ويَنْهَدَ: يَنْهَض. وأُرْتِجتْ أُغْلِقَت.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ تَنْتَفِعَ فَاعِل آنَ، وفِرَاراً مَفْعُول مِن أَجْلِه لابْتِزَازِكَ. فَمَاذَا هُنا بِمَعْنىٰ أي شَيء، ومَحلها الرَّفع بِالابْتِدَاء، وبَعد مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً، والضَّلال بَدل، وَطَالَمَا فِعل مَاض كَفَته «مَا» الزَّائِدَة عَن الْعَمَل، وَأَسَاطِيرَ عَطف عَلىٰ أَفَانِينَ، وَكِلاَهُما مَجرُور بِالفَتحَة لِعَدم الصَّرف.

الْمَعْنىٰ:

هَذِه ٱلرِّسَالَة الثَّالِثَة عَشرة مِن الْإِمَام إِلىٰ مُعَاوِيَة، وتَأتي رِسَالتَان... والنِّقَاش

والحوَار مَطلُوب، بَل ضَرُورَة، ولَكنْ كَعِلاج ووَسِيلَة لِحَلِّ المِشكلاَت، وبِخَاصَّة الخَطِير مِنْهَا، والحوَار الَّذي دَار بَيْنَ الإِمَام ومُعَاوِيَة بَعِيد عَن هَذِه الغَايَة، لأَنَّ مُعَاوِيَة كَان يُسَاوم ويُحَرّف بِقَصد البقَاء فِي الحُكْمِ، والسِّيطَرة، والإِمَام يَعْرِف ذَلِكَ مِنْهُ، ومَا أجَابَه إلّا لِيُلقِي عَلَيْهِ الحُجَّة، ويَفضَح شِعَارَاته الكَاذِبة، ومقَاصِده الغَادِرة، ويُنِير ٱلسَّبِيل لطَالب الحَقّ والهِدَايَة، وفِي الوَقت نَفْسَه يُحدد مُهِمَّة الحَاكِم ومَسْئُولِيَة عَن الرَّعِيَّة... ومِن هُنا كَانَتْ تِلك ٱلرِّسَالَة بَالِغة الأَهمِية، وأَتَمنىٰ لَو جُمْعت فِي كتَابٍ وَاحد، وشُرحَت بِعلمٍ وإِنْصَاف بِلا شوَائِبٍ، ونَزَعَاتٍ.

(فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ). لِمَاذَا تَجْحَد الحَقّ وتُعَانِده، وأَنْتَ تحسهُ وتَرَاه كَوضح النَّهَار؟ وإِلىٰ مَتىٰ الخِدَاع والرِّيَاء؟ ويُحدثنَا التَّأرِيخ أَنَّ مُعَاوِيَة كَان يَعْلَم أَنَّ الخِلاَفَة حَقّ الإِمَام، ولكنَّه يُكَابر ويُسَاوم. فَقَد جَاء فِي كتَابٍ لِابْن قُتيبَة: «أَنَّ مُعَاوِيَة كَتَب إِلىٰ الإِمَام أَنْ يُبَايِعَه، شَرِيطَة أَنْ تَكُون الشَّام، ومِصْر جِبَايَةً لَهُ»[1]. وفِي صَفْحَة أُخرىٰ أَنَّ مُعَاوِيَة كَتَب إِلىٰ الإِمَام يَقول: «لَوْ بَايَعت الْقَوْم الَّذِين بَايعُوك، وأَنْتَ بَرِيء مِن دَم عُثْمَان لكُنْتُ كَأَبِي بَكْر، وعُمَرَ»[2]. وكُلّ النَّاس يَعْلمُون أَنَّ علِيّاً بَرِيء مِن دَم عُثْمَانَ حَتَّىٰ مُعَاوِيَة يَعْلم ذَلِكَ، ولكنَّه يَتَجنىٰ، كَما قَالَ لهُ الإِمَام فِي ٱلرِّسَالَة الّتِي ختَمها بِقَوْله: «فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ»[3].

---

(١) أنظر، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١٠١ طَبعَة سَنَة ١٩٥٧م. (مِنهُ). وفِي تَحقِيق الشِّيري: ١/١١٥، وفِي تَحقِيق الزّيني: ١/٨٦، وَقعَة صِفّين: ٥٢، شَرح نَهج ٱلبَلاغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ٣/٨٤، عَن الجُرجَاني.

(٢) أنظر، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١٠١ طَبعَة سَنَة ١٩٥٧م. (مِنهُ). وفِي تَحقِيق الشِّيري: ١/١٢١، وفِي تَحقِيق الزّيني: ١/٩١، وَقعَة صِفّين: ٥٦، شَرح نَهج ٱلبَلاغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ٣/٨٨، العقد الفَرِيد: ٤/٣٣٣، الفُتوح لِابن أَعثَم: ٢/٤٣٠، الكَامِل للمُبرد: ١/٤٢٤، المَناقب للخوارزمي: ٢٠٣.

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسالة (٦). (مِنهُ).

(فَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلاَفِكَ بِادِّعَائِكَ الأَبَاطِيلَ). إنَّك تُمَارِي وتُخَادع الحَقّ وتُنَاصر البَاطِل... ولاَ بِدع فَهَذه سُنَّة آبائك وأجْدَادك (وَ بِآنْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلاَ عَنْكَ) تطْمَح إِلىٰ مَا هُو أَعلىٰ مِنْك وأَرْفع. وأَبْلَغ مِن هَذَا قَول الإِمَام لِمُعَاوِيَة فِي ٱلرِّسَالَة: «أَلاَ تَرْبَعُ أَيُّهَا الإِنْسَانُ عَلَىٰ ظَلْعِك، وَ تَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِك، وَ تَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ»[1]. (وَ آبْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ آخْتُزِنَ دُونَكَ، فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ). يُشِير الإِمَام بِهَذا إِلىٰ جُرأة مُعَاوِيَة وإِقدَامه عَلىٰ أَخْذ الْبَيْعَة بِالخِلاَفَة لِنَفْسَه مِن أَهْل الشَّام، وهُو يَعْلَم عِلم الْيَقِين أَنَّهَا حَقّ لِلإِمَام لأنَّ الصَّحَابَة، وجمهُور الْمُسْلِمِين بَايعُوا عَلِيّاً طَائِعَيْن لا مُكْرَهِين... وأيضاً يَعلم مُعَاوِيَة أنَّ أَخذ الْبَيْعَة لِنَفْسه مِن أَهْل الشَّام هِي ٱلسَّبِيل لِتَفرُّق الْمُسْلِمِين وشَتَاتهُم وَسَفك دِمَائهم... ولاَ بَأس فِي أَكْثَر مِن ذَلِكَ عِند مُعَاوِيَة مَا دَامت الغَايَة تُبرر الوَاسِطَة.

(وَ جُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَ دَمِكَ) قَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «الَّذي هُو أَلْزَمُ لَهُ ـ لِمُعَاوِيَة ـ مِن لَحْمِه ودَمِه الْبَيْعَة بِالخِلاَفَة لأَمِير الْمُؤْمِنِين»[2]. وَقَالَ آبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «كَان مُعَاوِيَة حَاضِراً يَوْم الغَدِير ـ أي حِين قَالَ النَّبِيّ ﷺ فِي حَقّ عَلِيّ: «مَن كُنْت مَوْلاَه فَعلِيٌّ مَوْلاَه»[3] ـ وأيضاً كَان حَاضِراً يَوْم تَبُوك حِين قَالَ النَّبِيّ لِعَلِيّ: «أَنْت مِنِي بِمَنزِلَة هَارون مِن مُوسىٰ»[4]... ومُعَاوِيَة يَعْلَم أَنَّ النَّبِيّ قَالَ لِعَلِيّ: «حَرْبك حَرْبِي وَسِلمَك سِلمِي»[5]....، أَللَّهُمَّ عَادِ مَن عَادَاه»[6]. وَلَيْس هَذَا بِشَيء

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٢٨). (مِنْهُ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٢٥/٣.

(٣) تَقدَّم إستِخرَاج ذَلِكَ.

(٤) تَقدَّم إستِخرَاج ذَلِكَ.

(٥) أنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٦٩٩/٥ ح ٣٨٧٠، سُنَن آبن مَاجه: ٤٥/١ ح ١٥٢، مُسْنَد أَحمد: ٤٤٢/٢، مُستَدرَك الحَاكِم: ١٤٩/٣، شوَاهد التَّنزِيل: ٤١٦/١، بشَارة المُصطفىٰ: ٢٤٦، مَنَاقب آل أَبِي طَالب: ⇔

وإنْ سَمِعَته الأُذن ورَأته الْعَيْن مَا دَام القَلْب تَائِهاً عَنْه، وَعَن الْحَقّ وَأهْله[٧].

(فَٱحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَ ٱشْتِمَالَهَا عَلَىٰ لُبْسَتِهَا). الْمُرَاد بِالشُّبْهَة هُنا إِلصَاق دَم عُـثْمَانَ بِالْإِمَام كِذبَاً وَٱفتِرَاءً. وبِٱشْتِمَالها أَنَّ مُعَاوِيَة تَبنىٰ هَذِه الشُّبْهَة الكَاذِبة وجَعلهَا دِينه ودَيدَنه، أمَّا «عَلَىٰ لُبْسَتِهَا» فَمعنَاهَا أنَّ مُـعَاوِيَة تَـبنىٰ هَـذِه الشُّـبْهَة عَـلىٰ عِـلاَتها وآفَاتها... وهَكذا يَسْلِك مُعَاوِيَة مدَارِج أَسْلاَفه ٱلْمُشْرِكِين الَّذِين تَصدُوا لِرَسُول الله وحَارَبُوه أَوَّل مَا حِاربوه بِالْإِعْلاَم الخَادَاع والدّعَاية الكَاذِبة، وقَالُوا: مَجْنُون.. وطَالِب مُلك... ثُمَّ عَبأوا الْجُيُوش لِحَرْبه... وَفَتح مُعَاوِيَة أكَاذِيبه وأضَالِيله ضِدّ الْإِمَام، ثُمَّ حَشَّد الشَّام لِحَرْب الْمُسْلِمِين والْإِسْلاَم.

(فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا) لَبَسَت ثَوب النِّفَاق والرِّيَاء، وظَهَرت بِغَير وَاقعهَا وحَقِيقتهَا، والجِلبَاب فِي هَذِه الْفِتْنَة هُو قَمِيص عُثْمَانَ سَتَر بِهِ مُعَاوِيَة مَا يَهدف إِلَيْه مِن شَتَات الْمُسْلِمِين وسَفْك دِمَائهم، وتَعدد آرَائِهم وأحزَابِهِـمْ لِـيَتَسلل مِـن خِلاَل ذَلِكَ إِلىٰ الْحُكْم والسَّيطَرة... وكُلّنا يَعْلم أنَّ اللُّـصوص وقُـطّاع الطُّـرق لاَ يَصلُون إِلىٰ المنَاصب إلّا إذَا تَفَاقَم الإِنْشقَاق، وعَمَّت الفَوضىٰ، وسَـاد الْـفَسَاد (وَ أَغْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا) كَمَا أنَّ الْفِتْنَة تَتَخذ مِن الرِّيَاء حِجَاباً فَهِيَ أيضاً تَضع عَلىٰ الْعُيُون مِنْظَاراً أَسْوَد يَحْجبهَا عَن رُؤية الحقَائِق والوَقَائع.

← ١٨/٣، مناقب الخوارزمي: ١٢٩، نَهج الإيمَان لِابن جَبر: ٥١٠، مِيزان الإِعْـتدَال: ٧٥/٢، لِسَـان الميزَان: ٤٨٣/٢، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبي ٱلحَدِيد: ٢٤/١٨، يَنابِيع المَوَدَّة: ١٧٢/١، المُسترشد فِي الإِمَامة: ٦٢١، شَرح الأَخْبار: ٢١٦/١ ح ١٩٣، مناقب أَمِير الْمُؤمِنِين لِمُحَمَّد بن سُليمان الكُـوفي: ٢٥٠، الغَارات: ٦٢/١.

(٦) تَقدَّم إِسْتِخرَاج ذَلِكَ.

(٧) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٢٤/١٨.

(وَ قَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ) مِن ٱلزُّخْرُفِ والتَّزوِيق، والغُرُور والأضَالِيل (ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ). والهَاء فِي قُوَاهَا يَعُود إِلىٰ أَفَانِين الْقَوْل، والْمَعْنَىٰ أَنَّ كِتابك كُلّه شَرٌّ وَجَهلٌ، وَحُمق وغَطرَسَة، ومَع هَذَا تُرِيد الْوِلاَيَة عَلىٰ النَّاس!.

وَهَل يَصلُح الجَاهِل الْمُخَادِع لِلحُكم والسُّلْطَان، وكَيف تَطْمَح إِلَيْهِ، وأَنْتَ (كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ) أي فِي أَرْضٍ مَن وَطأَهَا غَارت رِجْلاَه وخَارت قِوَاه (وَ الْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ) أي فِي الظُّلُمَات، يُقَال: لِيْلٌ دَامَس أي مُظْلِم.

(وَ تَرَقَّيْتَ إِلَىٰ مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ، نَازِحَةِ الْأَعْلَامِ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنُوقُ وَ يُحَاذَىٰ بِهَا الْعَيُّوقُ). طَلب مُعَاوِيَة مِن الإِمَام أَنْ يَنص عَلَيْهِ بوِلاَيَة العَهْد مِن بَعده، كَمَا نَص عَلىٰ وَلَده يَزِيد، فَوبَخَه الإِمَام وَقَالَ لهُ: لَسْتَ هُنَاك، فإِنَّ الَّذي تُرِيد هُو مِنْك بِمَكَان النَّجم فِي السَّمَاء، والطَّير فِي الفَضَاء... إِنَّك أَصْغَر وأَحْقَر أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ (صَدْراً أَوْ وِرْداً) أي إِبْرَاماً أو حَلاً (أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْداً أَوْ عَهْداً). أَبَداً لاَ أَدَع لَك سَبِيلاً عَلىٰ وَاحد مِن الْمُسْلِمِين كَائِناً مَن كَان... الغَرِيب أَنَّ بَعْض الشَّارِحِين فَسَّر العَقْد هُنا بعَقْد البَيع والزَّواج والإِجَارة، وفَسَّر العَهْد بِالْبَيْعَةِ واليَمِين والذِّمَّة!.. والصَّواب ـ عَلىٰ فَهمنَا وعِهدتنَا ـ أَنَّ الْمُرَاد بِالعَهْد والعَقْد مَعاً ٱلسَّبِيل الَّذي عَنَاه الله سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

سَبِيلاً﴾[١].

(فَمِنَ ٱلْآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ، وَ ٱنْظُرْ لَهَا، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّىٰ يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ). آرجَع إِلىٰ رُشدك، وتُب إِلىٰ الله وإلّا حَارَبك الْمُسْلِمُون، وأصَابَك مِنْهُم مَا أَصَاب الْخَوَارِج، وأَصْحَاب الْجَمَل (وَ مُنِعْتَ أَمْراً هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ) إذَا رَجَعْتَ إلىٰ الْحَقّ يَقبَل الله مِنْك ويَعفُو عمَّا سَلف وإنْ عَانَدت وصَمَمت عَلىٰ البَاطِل نَدَمت حَيْث لاَ يَنْفَع النَّدم.

(١) ٱلنِّسَاء: ١٤١.

الرسالة
-٦٦-

إِلىٰ عَبد الله بن عَبَّاس:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَ يَحْزَنُ عَلَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ، وَ لَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ. وَ لْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ، وَ أَسَفُكَ عَلَىٰ مَا خَلَّفْتَ، وَ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

الْمَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: تَقَدَّم ذِكرَه ـ أي ذِكر هَذَا الكِتَاب ـ بِخلَاف هَذِه الرِّوَايَة أي بِروَايَة ثَانِيَة، والرِّوَايَة الأُولَىٰ هِي ٱلرِّسَالَة رَقم (٢٢) الّتي قَالَ عَنْهَا عَبد الله بن عَبَّاس: مَا ٱنْتَفَعتُ بِكَلَامٍ بَعد كَلَام رَسُول الله ﷺ كَٱنْتفَاعِي بِهَذا الكَلَام[1]. ولَا

---

(١) أنظر، خَصائِص الأَئِمَّة لِلشَّرِيف الرَّضي: ٩٦، شَرح نَهج ٱلبَلَاغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ١٢٧/٣، أَدَب الدِّين وَٱلدُّنيَا للمَاوردِي: ١٩٥/١: مَعَالِم الحُكم: ٩٧، مطَالب السُّؤول: ١١٧، أَنسَاب الأَشرَاف: ٣١٨، الأَمَالي ⇔

فَرق بَيْنَ الرِّسَالتِين إلاّ فِي بَعْض الأَلْفَاظ ، أمَّا الْمَعْنَىٰ فوَاحد ، قَالَ الإِمَام هُنا : (فَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ) . وَقَالَ هُـناك أي فِي ٱلـرِّسَالَة (٢٢) : «فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ» . وَقَالَ هُنا : (وَ يَحْزَنُ عَلَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ) . وَقَالَ هُناك : «وَ يَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُـنْ لِـيُدْرِكَهُ» . إِلىٰ آخـر الكَلاَم هُنَاك وهُنا . وتَقَدَّم الشَّرح فرَاجع .

← للقَالي: ٢/٩٦، مَناقب الخوَارزمي: ٢٧٠، تَأريخ اَبن عسَاكر: ٣٨/٨٠، تَذكرة الخوَاص: ١٥٩، نُزهَة النَّاظر وتَنبِيه الخَاطر: ٤٣، شَرح نَهْج اَلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي اَلْحَدِيد: ١٨/١٤٠، جوَاهر المطَالب فِي مـنَاقب الإِمَام عَليّ: ١/٣١٦، نَهْج السَّعادة: ٥/٣٣٦.

الرسالة

-٦٧-

إلىٰ قُثَم بن الْعَبَّاس:

أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ، وَ اجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ، فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ، وَ عَلِّمِ الْجَاهِلَ، وَ ذَاكِرِ الْعَالِمَ. وَ لَا يَكُنْ لَكَ إِلَىٰ النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ، وَ لَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ. وَ لَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَىٰ قَضَائِهَا.

وَ انْظُرْ إِلَىٰ مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ فَاصْرِفْهُ إِلَىٰ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَ الْمَجَاعَةِ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْفَاقَةِ وَ الْخَلَّاتِ، وَ مَا فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا.

وَ مُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَ ٱلْبَادِ ﴾[1]. فَالْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ بِهِ، وَ الْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ. وَفَّقَنَا اللهُ وَ إِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ، وَ السَّلَامُ.

---

(١) ٱلْحَجّ: ٢٥.

اللُّغَة:

الْعَصْر: آخر النَّهار، والْعَصْرَانِ: الغَدَاة والعَشي، أي اللَّيْل وَالنَّهار، وفِي مَجْمَع البَحرين للشَّيخ الطُّرِيحي: «جَاء فِي الْحَدِيث حَافظ عَلىٰ الْعَصْرَيْنِ، يُرِيد صَلاَة الْفَجْر، وصَلاَة الْعَصْر، لأنَّ الأُولىٰ تَقع فِي طَرَف النَّهار، والثَّانِيَة فِي طَرَف اللَّيْل»[1] أي القَرِيبَة مِنْهُ، وَذَاكِرِ الْعَالِمَ: خَضْ مَعَه فِي حَدِيث العِلم ومَسَائِله. وقِبَلَكَ ـ بِكَسر القَاف ـ عِنْدَكَ وجِهَتك. والْفَاقَةِ: الْفَقْر. وَالْخَلَّاتِ: الْحَاجَات. ومَحَابِّهِ: مَا يُحِبّ.

الْإعْرَاب:

سَفِيرٌ اسم يَكُنْ، وإِلَىٰ النَّاسِ خَبَر، ولِسَانُكَ بَدل مِن سَفِيرٌ، ومُصِيباً حَال مِن فَاعِل اصْرِفْهُ، ومَوَاضِعَ مَفْعُول «مُصِيباً».

الْمَعْنَىٰ:

كَان قُثَم بن الْعَبَّاس وَالِياً لِلإِمَام عَلىٰ مَكَّة، كَمَا أَشرنَا فِي أَوَّل ٱلرِّسَالَة (٣٣) الّتي أَرْسَلها إِلَيْهِ الْإمَام، وهَذِه ٱلرِّسَالَة إِلىٰ قُثَم، ولكنَّ مَوضُوعها غَيْر مَوْضُوع الْأُولىٰ. (فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ) حِجَّ بِهِمْ عَلىٰ كِتَاب الله وسُنَّة نَبِيّه، وعَلمهُم الْمَنَاسك ومَا يَجب

---

(١) أُنظر، مَجْمَع البَحرين: ٣/ ١٩١. وأنظر، الإخْتلاَف فِي تَفسِير الْحَدِيث الشَّرِيف: سُنن أَبِي دَاود: ١/ ١٠٥ ح ٤٢٨، السُّنَن الكُبرىٰ للبَيهقي: ١/ ٤٦٦، مُستدرَك الحَاكِم: ١/ ٢٠ و: ٣/ ٦٢٨، المُعجم الكَبِير: ١٨/ ٣٢٠، عَون المَعبود: ٢/ ٦٨، الآحَاد والمثَاني: ٢/ ١٩٤ ح ٩٣٩، الفَائِق فِي غَرِيب الحَدِيث: ٢/ ٣٦٨، الجَامع الصَّغير: ١/ ٥٦٦ ح ٣٦٥٧، كَنز العُمَّال: ٧/ ٣٦٧ ح ١٩٣٠١، الدُّر المَنثور: ١/ ٢٩٤ و: ٤/ ٣١٢، أُسد الغَابة: ٤/ ١٨٢، تَهذِيب الكمَال: ١٥/ ٤٣٢، غَرِيب الحَدِيث لابن قُتَيبة: ١/ ٢٢، النّهاية فِي غَرِيب الحَدِيث لابن الأَثِير: ٣/ ٢٤٦، لِسَان العَرب: ٤/ ٥٧٦، تَاج العَروس: ٣/ ٤٠٤.

فِعْله وتَركه (وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) الّتي عَاقَب فِيها الْأُمَم المَاضِية عَلىٰ الْبَغْي، والْفَسَاد: وخَوِّفْهُم بِذَلِكَ لَعَلهُم يَتقُون (وَ ٱجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ) صَبَاحَاً وَمَسَاءً لَتَستَمع إِلىٰ مشكلاَتهِم، وتَسْعىٰ فِي حَلهَا جُهدَك وَمَقدرتُك (فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ) أَجْب عمَّا تُسْأل عَنْه مِن حَلال الله وحَرَامه.

(وَ عَلِّمِ الْجَاهِلَ) ٱقْعد لِلتَّدرِيس في حَلَقَه مِن التَّلامِيذ، تُعْلمهُم الدِّين أُصولاً وفُروعاً (وَ ذَاكِرِ الْعَالِمَ) تَدَارَس مَعْهُ مَسَائِل الدِّين، وشُؤُون البِلاد ومصَالِحها (وَ لَا يَكُنْ لَكَ إِلَىٰ النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ... إلخ). ٱختَلط بِهِمْ، قَابلهُم وَجهَاً لوَجه، وٱسمَع مِنْهُم، وٱسْمعهُم مُبَاشرة وبِلا وَاسطة تَمَاماً كمَا فَعل الْأَنْبِيَاء. ولِماذَا الحِجَاب وغَلق الأَبوَاب؟. وتَقَدَّم مَع الشَّرح قَول الْإمَام لِلْأَشْتَر فِي رِسالَتهِ الْمَشْهُورة: «فَإِنَّ ٱحْتِجَابَ الْوُلاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَ قِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ»[1].

(فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَىٰ قَضَائِهَا) الْحَاجَة وَمُنْعَت أَوّلاً، ثُمَّ رَاجَعت نَفْسك وقَضِيتها فإِنَّ صَاحبهَا لاَ يحمدُك، ولاَ يَرىٰ لَك فَضلاً، فَالأَوْلَىٰ أَنْ تُبَادر إِلىٰ قضَائِها بِمُجرد عَرضها عَلَيْكَ، فإِنَّ الله يُضَاعف لَك الْأَجر، وصَاحبها يُضَاعف لَك الشُّكْر، لأَنَّ تَعجِيل الْخَيْر مِن الْخَيْرِ ومُضَاعفَاته (وَ ٱنْظُرْ إِلَىٰ مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ فَٱصْرِفْهُ إِلَىٰ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ). فَأنفقْهُ عَلىٰ المصَالح الْعَامَّة والمحَاوِيج مِن أَهْل البِلاد الّتي جُمَع مِنْهَا الْمَال، فَإِنَّهَا أَوْلَىٰ مِن غَيْرها، فإِنْ تَبقَ مِنْهُ شَيء فَأَرْسِله إِلينَا لنُوَجهه إِلىٰ وِجْهَته.

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَه (٥٣). (مِنْهُ).

بُيُوت مَكَّة وَبَيْعها وَإيجَارها:

اَتفقت الْمَذاهِبُ قَولاً وَاحِداً أَنَّ موَاضع النُّسك فِي مَكَّـة الْمُكَـرَّمَة لاَ تُـبَاع ولاَ تُؤجر كَمَحل السَّعي والرَّمي، واَخْتَلفوا فِي بُيُوتِ مَكَّة: هَل تُبَاع وتُؤجر؟.

فَعَن مَالِك، وأَبِي حَنِيفَة المَنْع[١]، وعَن الشَّافِعِي الجوَاز[٢]، وعَن أَحْمَد رِوَايتَان. قِيل: أَصَحهُما المَنع[٣]. وكَما اَخْتَلف فُقْهَاء السُّنَّة فِيما بَيْنَهمْ اَخْـتَلف كـذَلِكَ فُـقْهَاء الشِّيعة.

قَالَ الشَّيخ الطُّوسي: «لاَ يَجُوز البَيع ولاَ الإِيجَار تَمَـاماً كَـمَا قَـالَ مَـالِك، وأبُـو حَنِيفَة»[٤]. وَقَالَ الشَّهِيد الثَّانِي فِي «المَسَالك» مَا نَصَّه بِالحَرف الوَاحِد: «المَشْهُور الجَواز، وعَلَيْهِ الْعَمَل، وتَسمِّية مَكَّة مَسْجِداً مجَاز لِلحُرمَة والشَّرف والمُجَاورة»[٥].

وَقَالَ صَاحب «الجوَاهر». أيضَاً بِالنَّص الحَرفي: «ومِن هُنا كَان المُتَجه الجَـواز كَما هُو خِيرة جمَاعَة»[٦]. قَالَ هَذَا بَعد أنْ مَهد لهُ بِأَنَّه لَم يَقف عَلىٰ شَيء مِن طُـرق الشِّيعَة يَدل عَلىٰ المَنع[٧]. ورِوَايَة المَنع عَن النَّبيّ ﷺ سَندها عَبد الله بن عَمْرو اَبن

---

(١) أُنظر، الوَسيط: ٤٢/٧، سُنَن الدَّار قُطني: ٥٧/٣ ح ٢٢٣، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّـحِيحِين: ٥٣/٢، المُغني: ٣٣٠/٤، الشَّرح الكَبِير: ٢٢/٤، فِقه السُّنَّة: ٨٨/٣، فَتح البَاري: ٣٥٩/٣، المُصَنَّف لعبدالرَّزاق الصَّنعاني: ١٤٨/٥.

(٢) أُنظر، بَدَائِع الصَّنائع: ١٤٦/٥، العَزيز شرح الوَجِيز: ٤٥٥/١١، المَجمُوع: ٢٤٨/٩.

(٣) أُنظر، الحَاوي الكَبِير: ٣٨٥/٥، المُغني لاِبن قُدامة: ٣٣٥/٤، فَتح البَاري: ٢٩١/٣، أَحْكَام الْقُرآن لِلجَصاص: ٢٩٩/٣.

(٤) أُنظر، الخِلاَف: ٨٣/٢ و: ١٩٠/٣.

(٥) أُنظر، مسَالِك الأَفهَام: ١٦٨/٣ و ٣١٦.

(٦) أُنظر، جوَاهر الكَلاَم: ٣٥٢/٢٢.

(٧) أُنظر، كِتَاب الخِلاَف: ١٩٠/٣، وشَرَائع الإِسْلاَم: ٢٧٠/٢، قوَاعـد الأَحْكَـام: ٢٣/٢، تَـذكرة الْـفُقْهَاء:

العَاص.

ونَحنُ مَع الَّذِين ذَهبُوا إِلىٰ الجَواز، وإِنْ سَألنا سَائل: ومَاذا تَصْنَع بِقَول الإِمَام هُنا لعَامِله: (وَ مُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً) فإِنَّه ظَاهر فِي المَنْع وَعَدم الجَواز؟.

قُلْنَا فِي جوَابه: لَوْ أنَّ الإِمَام قَالَ هَذَا وسَكت دُونَ أنْ يَستَدل بِقَوْله تَعَالىٰ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[1] ـ لكَان هَذَا حُجَّة مُتبعَة يَجب الأَخْذ بِها. أمَّا وقَد ٱستَدل بِالآيَة فَلا بُدَّ مِن صَرف الظَّاهِر عَن الْحَقِيقَة إِلىٰ المجَاز، وحَمل الأَمْر عَلىٰ الضِّيَافة المُسْتَحبَة، لأَنَّ مَوْضُوع الكَلاَم مُخْتَص بِالمَسجِد الحَرَام، والآيَة نَصّ فيهِ، ورَدٌّ عَلىٰ ٱلْمُشْرِكِين الَّذِين صَدُوا النَّاس عَنْه، والتَّعبُد فيهِ، وهَذِه هِي الآيَة كَامِلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

والمَسْجِد الحَرَام شَيء وبُيُوت مَكَّة الَّتي هُو مَوْضُوع الكَلاَم شَيء آخر، ولاَ صِلَة بَيْنَ الاْثنَيْن مِن مَوْضُوعاً ولاَ حُكماً، ولاَ أي شَيء سِوىٰ عِلاَقة الجِوَار، وهِي تَصلُح للاِسْتِحبَاب لاَ للوجُوب، أي لِصَرف الظُّهور عَن الْحَقِيقَة، وهِي الإِلزَام، إِلىٰ المجَاز، وهُو الرُّجحَان.

⇔ ٤٦٥/١، جَامع المقَاصد: ٩٧/٤.

(١) ٱلْحَجّ: ٢٥.

(٢) ٱلْحَجّ: ٢٥.

الرسالة
-٦٨-

إِلىٰ سَلْمَان الْفَارِسي:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ: لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سَمُّهَا؛ فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا؛ وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا؛ وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا، أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَىٰ سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَىٰ مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَىٰ إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَىٰ إِيحَاشٍ! وَالسَّلَامُ.

اللُّغَة:

أَشْخَصَتْهُ: صَرَفَتْهُ.

الإِعْرَاب:

مَسُّهَا مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، ولَيِّنٌ خَبَر مُقَدم، واسم كُنْ ضَمِير مُستَتر، وآنَسَ حَال مِنْهُ، وأَحْذَرَ خَبَر كُنْ.

هَذِه ٱلرِّسَالَة:

بَعَث الإِمَام بِهَا إِلىٰ سَلْمَان قَبل أَيَّام خِلاَفَته، كَمَا قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي، ولاَ شَيء فِيهَا سِوىٰ التَّحْذِير مِن الدُّنْيا، وأَنَّهَا كَالحَيَّة لَيِّنَة الْمَسّ قَاتِلة السَّمّ... وخُطب النَّهج ـ كَمَا رَأَيْت ـ مُتْخَمة بِذَم الدُّنْيَا وغَدْرِها، والتَّحْذِير مِن شرِّها وضَرّها بِلا حدُود... وتَقَدَّم ذَلِكَ عَشرَات المَرَّات بِأَسَالِيب شَتىٰ، وشوَاهد كَثِيرة، وكُلّ مَا فِي هَذِه ٱلرِّسَالَة تِكرَار وتُوكِيد خَوف الذّهُول والإِهمَال... لذَا نَصرِف الكَلاَم عَن الشَّرح إِلىٰ إِشَارة مُوجَزة وسَرِيعة عَن سَلْمَان، عَلَيْهِ أَفْضَل التَّحيات، وأَكْمَل الصَّلوَات.

نَسَبهُ:

هُو مِن نَسْل الْمُلُوك، وجَدّ آبَائِه «منُوجهر»[1] مُؤسس الْدَّوْلَة الثَّانِيَة مِن دوْل الفُرس القَدِيمَة، ولكنَّ سَلْمَان يَرفض الاِنْتسَاب لِغَير الإِسْلاَم، وكَان يَقول: أَنَا آبن الإِسْلاَم، أَعْتَقَنِي الله بِمُحَمَّد، ورَفَعنِي بِمُحَمَّد، وأَغْنَانِي بمُحَمَّد، وصلّىٰ الله عَلىٰ مُحَمَّد وآل مُحَمَّد، فهَذا حَسْبِي ونَسَبي. وأَقَره مُحَمَّد عَلىٰ هَـذَا الحَسْب والنَّسب، وَقَـالَ:

---

(١) هُو منُوجهر بن مُحَمَّد بن تَركَانشاه، أَبُو الْفَضْل بن أَبِي الوَفاء. أُنظر مُختصر آبـن الدُّبـيثي: ٣٥٠، العِبر: ٢٢٦/٤، بُغية الوعَاة: ٣٩٩، ويَظهر مِن بَعْض الْمُؤرخِين هُو زَرَادَاشت، كَمَا يَظهر مِن سؤالاَت حَمزة للدَّار قُطني: ٥٠، فَهرست مُنْتَخَب الدِّين: ١٥٢ و ٣٥١، ذِيل تَأرِيخ بَغدَاد: ٥١/٢، تَذكرة الحـفَاظ: ٧٦٥/٢، سَير أَعْلاَم النُّبلاء: ٥٥٥/١، ويَظهر مِن تَرجمته أنَّه كَان أَدِيباً فَاضلاً صَادقاً. حَسن الطَّرِيقة صَدوقاً. أُنظر المُستفاد مِن ذَيل تَأرِيخ بَغدَاد لِاِبْن الدّمياطي: ١٧٥/١، تَأرِيخ آبن خَـلدون: ٤٩٨/٤، مُـعجم الأُدبـاء: ١٩٦/١٩.

«سَلْمَان مِنَّا أَهْل الْبَيْت»(١). وكَان يُقَال لهُ: سُلَيْمَان المُحَمَّدي، وسَلْمَان الخَيْر، وسَلْمَان الحِكْمَة والعِلم، وسَلْمَان بَاك أي النَّظِيف فِي لُغَة الفُرس، والطَّيِّب، والطَّاهِر، وصَاحِب الكِتَابِين: الْقُرْآن، والإِنْجِيل(٢).

مَكَانَتهُ:

(١) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ١٤/١٢٩، تَفْسِير الطَّبَرِي: ٢١/١٣٣، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣/٦٩١ ح ٦٥٤١، مَجمَع الزَّوائد: ٦/١٣٠ بَاب غَزْوَة الخَندق، المُعْجَم الكَبِير: ٦/٢١٢ ح ٦٠٤٠، الفِرْدَوْس بمأثور الخطَاب: ٢/٣٣٧ ح ٣٥٢٢، الْبَيَان والتَّعريف: ٢/٧٠، فَيض القَدِير: ٤/١٠٦ و١٠٧ و١٤٠ ح ٤٩٩٦، و: ٦/ ٦٢ و٨١ ح ٨٤٣٨، سير أَعْلَام النُّبلاء: ١/٥٤٠، تَهذِيب الكَمَال: ١١/٢٥١ و: ١٥/٢٠٥، تَهذِيب التَّهذِيب: ٤/١٢١ ح ٢٣٣، تَقريب التَّهذِيب: ١/٣٧٥، النَّاصِريات: ٣٢٩، سُبل السَّلام: ١/٧٧، طَبقات المُحدثِين بِأصبهان: ١/٢٠٣ ـ ٢٠٥، صَفوة الصَّفوة: ١/٥٣٥، الطَّبقَات الكُبرىٰ: ٤/٨٣ و: ٧/٣١٨، كَشف الخفَاء: ١/٥٥٨ ح ١٥٠٥، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٢/٩١ و٩٢ و٢٣٥، السِّيرَة النَّبَويَّة: ٤/١٨٤، أُسد الغَابَة: ٢/٣٢٨، الغَارات: ٢/٨٢٣، مَنَاقب أَمِير المُؤمِنِين للكُوفي: ١/٢٢١ و: ٢/٣٨٤، شَرح الأَخْبَار: ٣/١٤، شَرح مُختصر صَحِيح البُخَاريّ لأَبِي مُحَمَّد الأَزدِي: ٢/٤٦، تَأرِيخ دِمشق: ٤/٦٢٦ و: ٦/١٩٨ و: ٢١/٤٠٠٨ و: ٢٦/٤ و: ٥١/١٥٤، الإِصَابَة: ٢/٥٦، المُصَنَّف لِمُحَمَّد بن سُليمان الكُوفي: ٧/٦١٦، الجَامِع الصَّغير: ٢/٥٢ ح ٤٦٩٦، كَنز العُمَّال: ١١/٦٩٠ ح ٣٣٣٤٠، كَشف الخفَاء: ١/٤٥٩ ح ١٥٠٥، جَامع الْبَيَان: ٢١/١٦٢، البداية والنّهاية: ٢/٢٢٧ و: ٤/١١٤ و: ٥/٣٣٨، السِّيرَة لِابْن هُشَام: ١/٤٦ و: ٣/٧٠٨، مُسْنَد أَبِي يَعلىٰ: ٦/١٧٧ ح ٦٧٣٩، الجَرح والتَّعدِيل: ٤/٢٩٦ ح ١٢٨٩، إكمَال الكَمَال: ٢/٣٨١ و: ٧/٣٦٢، مُسْنَد أَحمد: ٢/٣٢١ و: ٥/٤٣٨، صَحِيح مُسْلِم: ٦/٥١، سُنَن النَّسائي: ٦/٣٩، السُّنَن الكُبرىٰ: ٣/٢٤٣، تُحْفَة الأَحْوَذِي: ١/٦٦ و: ٥/٢٤٩ و: ١٠/٢١٣، المُصَنَّف لعبدالرَّزاق الصَّنعاني: ٣/٤١٥، صَحِيح ابن حبَّان: ٢/٤٨١، مَوَارد الظَّمْآن: ٦١٤، بِشَارة المُصْطَفىٰ: ٢٧٥، النِّزَاع والتَّخاصم: ٢٧، غَرِيب الحَدِيث: ٤/١٣٠.

(٢) أُنظر، المصَادر السَّابقة، وخَاصّه سُنَن التِّرمِذي: ٥/٣٣٩ ح ٣٨٩٩ وص: ٦٣٣ ح ٣٨١١، المُستَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٣/٣٩٢، فَتح البَاري: ٧/٧٣، تُحْفَة الأَحْوَذِي: ١٠/٢١٣، شَرح نَهج البَلاغَة لِابْن أَبِي الحَدِيد: ١٨/٣٦، تَأرِيخ دِمشق: ١٢/٢٧٤، سِير أَعْلَام النُّبلاء: ١/٤١٨.

كَان مِن رُؤُوس الصَّحَابَة، وأَقْطَابهُم عِلماً، وتُقىً، وجِهاداً، وكَان عِند رَسُول الله ﷺ الخَلِيل الأَثِير. قَالَ ٱبن عَبد البر فِي «الاِسْتِيعَاب»: ٢ / ٥٦ طَبعَة سَنَة ١٩٣٩ م: «قَالت عَائِشَةَ: كَان لِسَلْمَان مَجْلس مِن رَسُول الله ﷺ يَنْفَرد بِهِ فِي اللَّيْل حَتَّىٰ كَادَ يَغْلبنا عَلَيْهِ»[1]. وروىٰ أَبُو بُردة عَن أَبِيه عَن النَّبِيّ أنّه قَالَ: «أَمَرَنِي رَبِّي بِحُبِّ أَرْبَعَة، وأَخْبَرَنِي أَنّه يُحبّهم، وهُم عَليّ، وسَلْمَان، وأَبُو ذرّ، وَالمُقداد»[2]. وعَن الإِمَام أَمِير المُؤْمِنِين أنّه قَالَ: «أَنَا سَابق الْعَرَب، وسَلْمَان سَابق الفُرس، وَصُهيب سَابق ٱلرُّوم، وبِلاَل سَابق الحَبش، وخَبَّاب سَابق النَّبط»[3].

---

(١) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٣/٣٦٢، أسد الغَابَة: ٢/٣٣١، الاِسْتِيعَاب: ١/٣٦٢ و: ٢/٥٧٢، سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ١/٢٧١ و٤٨٧ و٤٨٨، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٨/٣٦، شَيخ المُضِيرة أبو هُرِيرة: ١٣١، الدَّرجَات الرَّفِيعة: ٢٠٩، بِحَار الأَنْوَار: ٢٢/٣٩١.

(٢) أُنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٥/٢٩٩ ح ٣٨٠٢، طَبعة دَار الفِكر، أُسد الغَابَة: ٥/٢٥١ ح ٥٠٦٩، مُسْنَد أحمد: ٥/٣٥١، تَأرِيخ الإِسْلام للذَّهبي: ٢/٤٠٩، جَامع الأُصول لِابن الأَثِير: ٨/٥٧٩ ح ٦٣٩٣، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٢، تَأرِيخ ٱبن عسَاكر: ٦/١٩٨ و: ٢١/٤٠٩ و: ٦٠/١٧٥ و: ٦٦/١٨٩، سُنَن ٱبن مَاجه: ١/٥٣ ح ١٤٩، مَجْمَع الزَّوائِد: ٩/١٥٥، المُعْجَم الأَوسَط: ٧/١٥٦، كَنز العُمَّال: ١١/٦٣٩ ح ٣٣١١١، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٢/٢٧١ ح ١٦٩٢، تَهذِيب التَّهذِيب: ١/٢٨٦ طَبع حَيدر آبَاد الدِّكن، تَهذِيب الأَسْماء واللُّغَات: ٢/١١٢ طَبع المُنِيرية بِمِصر، كُنىٰ البُخَارِيّ: ٣١ الرَّقم «٢٧١»، تَهذِيب الكَمَال: ١١/٢٥١ و: ٢٨/٤٥٦ و: ٣٣/٣٠٦، سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ٢/٦١، الإِصَابَة: ٦/١٦٦، مَنَاقب الخوَارزمي: ٧٥، مُستَدرَك الحَاكِم: ٣/١٣٠، حلية الأَولِيَاء: ١/١٩٠، فَضَائِل الصَّحَابَة لأَحْمَد بن حَنبل: ٢/٦٨٩، سُبل السَّلام: ١١/٢٩١، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١/٣٧٥ و: ٢/٨٩ و: ٣/١٤٢.

(٣) أنظر، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٣/٢٨٥، مَجْمَع الزَّوائِد: ٩/٣٠٥، المُصَنَّف لِعَبدالرَّزاق الصَّنعاني: ١١/٢٤٢ ح ٢٠٤٣٢، المُعْجَم الصَّغِير: ١/١٠٤، المُعْجَم الأَوسَط: ٣/٢٤١، المُعْجَم الكَبِير: ٨/٢٩ و: ٢٤/٤٣٥، تَأرِيخ المَدِينة: ٢/٤٧٩، سُبل السَّلام: ١/٤٦٨، تَقرِيب التَّهذِيب: ٢/٥٨٧، الإِصَابَة: ٣/٣٦٥، أُسد الغَابَة: ٣/٣١، سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ١/٣٤٩ و: ٨/٥٣٠، مِيزَان الإِعتدال: ١/٣٣٦، الكَامِل لِابن

⇔

زُهْدهُ:

كَان رَاتبَهُ مِن بَيْت المَال فِي العَام خَمْسَة آلاَف، يَتَصدَق بِكَامله، ويَأْكُل مِن كَدّ اليَمِين، ويَقول: لاَ أُحبّ أنْ آكل إلّا مِن عَمل يَدي[1] عَملاً بِقَول نَبي الرَّحْمَة: «مَا أَكَل أَحدكُم طعَاماً قَطّ خَيراً مِن عَمل يَده، ومَا أَكَل أَحدكُم طعَاماً قَطّ خَيراً مِن عَمل يَده»[2]، وكَانَتْ لهُ عبَاءة، يَجعَل بَعْضهَا غِطَاءً، وبَعْضهَا الآخر وطَاء»[3].

زَوْجَتهُ وَأَوْلاَدهُ:

تَزَوَّج عَرَبية تُوفِيت فِي حَيَاته، فَتَزَوَّج عَجْمِية ومَات عَنْهَا[4]، ولَهُ سِتَة أَوْلاَد:

⇐ عَدي: ٢/٧٥ و: ٧/١٦٧، تَأريخ دِمشق: ١٠/٤٤٨ و: ٢٤/٢٢٠، الدُّر المنثُور: ٦/١٥٤، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغير: ٣/٥٧ ح ٢٦٩٥ و: ٤/١٧٧ ح ٤٧٩٣، كَنز العُمَّال: ١١/٤٠٨ ح ٣١٩٠٩ و ٣٣١٣٣ و ٣٣٦٧٦، مُسْنَد الشَّامِيين: ٢/١١، الجَامِع الصَّغير: ١/٤١٣ ح ٢٦٩٥ و: ٢/٦٦ ح ٤٧٩٣.

(١) أُنظر، المُعْجَم الكَبِير: ٦/٢٤٤، الأَحَادِيث الطّوال: ٢٩، سير أَعْلاَم النُّبلاء: ١/٥٣٦، الفوَائد الرِّجَالية: ٣/١٩، تَأرِيخ بغداد: ٩/١٩٩، المُصَنَّف لعبدالرَّزاق الصَّنعاني: ٨/٤١٨ ح ١٥٧٦٨، بِحَار الأَنْوَار: ٢٢/٣٩٠، الدَّرجَات الرَّفيعة: ٢١٦، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٣/٥٩ ح ١، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغة لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٨/٣٥.

(٢) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٣/٩، فَتح البَاري: ٤/٢٥٩، المَجْمُوع: ٩/٥٩، إعَانة الطَّالِبِين: ٢/٤٠٤، كَشف القِنَاع: ٦/٢٧١، سُبل السَّلام: ٣/٥، مُسْنَد الشَّامِيين: ٣/١٦٠ ح ١٩٩٢، رِيَاض الصَّالِحِين: ٢٩٢ ح ٥٤٣، الجَامِع الصَّغير: ٢/٤٨٦ ح ٧٨٣٣، العهُود المُحمدية: ٢٩٢، كَنز العُمَّال: ٤/٨ ح ٩٢٢٣، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغير: ٥/٥٤٣ ح ٧٨٣٣، التَّأريخ الكَبِير: ٧/٤٢٩ ح ١٨٨٢، سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ٢/٥٧٠.

(٣) أُنظر، حَيَاة سَلْمَان الفَارِسي وزُهدَه في الطَّبقات الكُبرىٰ: ٧/٣١٨، أُسد الغَابَة: ٢/٣٢٨، تَهذِيب التَّهذِيب: ٤/١٢١٤ ح ٢٣٣، مُعجم رِجَال الحَدِيث: ٨/١٨٦، مصبَاح المُتهجد: ٨١٨، الإِصَابَة: ٣/١٤١ الرَّقم «٣٣٥٩»، بِحَار الأَنْوَار: ١٥/٢٣٣.

(٤) ذُكِر أنّه تَزَوّج مَوْلاَة لهُ يُقَال لهَا بقيرة، كُوفِية ثِقَة. أُنظر، مُسْنَد أحمَد: ٥/٤٣٩، مَجْمَع الزَّوائِد: ٩/٣٤٤،

ثَلاَثَة ذكُور عَبد الله وَقَد أَعْقَب، ومُحَمَّداً أيضاً أَعْقَب، ومِن نَسْلَه عُلَمَاء وشُعرَاء، وكَثِير، ولاَ يُعْرَف لَهُ عقب. وثلاَث بَنَات: وَاحدة كَانَتْ بِأصفهَان، ولهَا عـقب، وٱثنتَان كَانتَا بِمِصْر[1].

وَفاتهُ:

ٱنتقَل إلِىٰ رَبِّه سَنَة (٣٥ هـ)، ودُفِن في ٱلْبَلَدِة الْمَعْرُوفَة بِسَلْمَان بَاك عَلىٰ ضِفَاف دِجلَة الشَّرقِي، وتَبعُد ثَلاَثَة فرَاسخ مِن بَغْدَاد، ويَؤُم قَبْرَهُ الشَّرِيف أُلوف الزَّائرِين مِن كُلّ فَجّ، وكُنْتُ مِنْهُم سَنَة ١٩٦٤م.

وَكَتَبتُ عَنْهُ مُطولاً فِي كتَابي «مَع عُلَمَاء النَّـجف» وأَشرتُ إلَـيْهِ وإلىٰ تَكـوِينَه

⇐ سِير أعْلام النُّبلاء: ٤٠٢/١، المُصَنَّف لعبدالرَّزاق الصَّنعاني: ١٨٢/٨ ح ٢٥، الأدَب المُفرد: ٥٩ ح ٢٣٤، المُعْجَم الكَبِير: ٢١٥/٦، الطَّبقَات الكُبرىٰ: ٩٢/٤ و ٩٤، التَّأريخ الصَّغِير: ٩٧/١، مَعْرِفَة الثّـقات للعِجلي: ٤٤٩/٢ ح ٢٣٢٥، إكمَال الكَمَـال: ٣٦٢/٧، تَأريخ دِمشـق: ٤٥٧/٢١، سِـير أعـلاَم النُّـبلاء: ٥٥٣/١، حلية الأَوليَاء: ٢٠٨/١.

(١) روي أنّ سَلْمَان خَطب إلىٰ عُمر بن الخَطَّاب، فكَرِه عَبدالله بن عُمر ذَلِكَ، فقَال لهُ عَمرو بن العَاص: أنَـا أكْفِيك، فَلَقىٰ عَمرو بن العَاص سَلْمَان الفَارِسْي، فقَال: لِيهنئك يَاسَلْمَان، فقَال: ومَا هُو؟ فقَال: توَاضَع لَكَ أَمِير المُؤمِنِين، فقَال سَلْمَان: لِمثلي يُقَال هَذَا؟ والله لاَ نَكَحتها أبدَاً.

أُنظر، المَبسوط للسَّرخسي: ٢٣/٥، البَحر الزَّخَّار: ٨٠/٤، الخِـلاَف للـطُّوسي: ٢٧٦/٤، فَـهرست الشَّيخ الطُّوسي: ٨٠، سَلْمَان المُحَمَّدي للشَّيخ عَبدالوَاحد المُظفر الطَّـبعة الحَـيدرية سَـنَة ١٣٧١ هـ، سُـبل السَّلام: ١٣٠/٣، كمَال الدِّين وتمَام النِّعْمَة: ١٦٣، الدَّرجَات الرَّفِـيعة: ٢١٥، تَأريخ الخَـمِيس: ٣٥١/١، الصَّحِيح من السِّيرَة للسَّيد جَعفر مُـرتضىٰ العَـاملي: ١٢٩/٩، نَـفس الرَّحـمن فِي فَـضَائِل سَـلْمَان: ٢٩، الإِخْتِصَاص: ٣٤١، وَسَائِل الشِّيعة: ٥٧٢/١٤، رِجال الكَشي: ١١، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٨٥/١٤ ح ٦، بحَار الأَنْوار: ٣٨٣/٢٢، السُّنَن الكُـبرىٰ: ٢٧٣/٧، مُـعجم رِجـال الحَـدِيث: ٢٠٢/٩، التَّأرِيخ الصَّـغِير للبُخاري: ٩٧/١.

النّقَابَة الْعُمَّالِية فِي شَرح ٱلْخُطْبَة (١٦٢) فِقْرَة: «سَلْمَان الْفَارِسْي والنَّقابَات». أمَّـا المصَادر الّتي ٱعـتمَدتُ عَـلَيْهَا فِي إشَـارتِي هَـذِه فَـهِيَ شَرح ٱبـن أَبِي ٱلْحَـدِيد، والاِسْتِيعَاب لِابْن عَبد البر، وسَلْمَان المُحَمَّدي للشَّيخ عَبد الوَاحد المُظفر[1].

(١) تَقَدَّمَت تَرجَمَة سَلْمَان، أبُو عَبدالله، إصْبَهاني، أو رَامهرمُزي والَّذي كَـان مُـعَمَّراً صَـحِب بَـعْض أوْصِـياء عِيسَىٰ بن مَرْيَمَ، وأسترِق، وبِيع بالمَدِينَة من إمْرَأة من اليَهُـود فكَـاتبها، وأعـتَق نـفسه، شَهِـد الخَـندق ومَابعدها، ولِي المَدَائن لِعُمَرَ، ومَات فِي أُخريَّات خِلاَفَته، أو فِي أوَائِل خِلاَفَة عُثْمَانَ. أُنظر، الاِسْتِيعَاب: ٢ / ٥٣ ـ ٥٩، الإِصَابَة: ٢ / ٦٠، الطَّبَرِيّ: ٢ / ٤٤٣، أبن هُشَام: ٤ / ٣٣٥، مُسْنَد أحمد: ١ / ٥٥، الرِّيَاض النَّضِرة: ١ / ١٦٧، تَأْرِيخ الخَمِيس: ١ / ١٨٨، أبن الأثِير: ٢ / ١٢٦، أبن كَثِير: ٥ / ٢٤٥، تَأْرِيخ اليَعقوبِي: ٢ / ١٠٣، أُسد الغَابَة: ٣ / ٢٢٢.

الرسالة

-٦٩-

إلىٰ الحَارِث الهَمَذاني...فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ تَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَ ٱسْتَنْصِحْهُ، وَ أَحِلَّ حَلَالَهُ، وَ حَرِّمْ حَرَامَهُ، وَ صَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَ ٱعْتَبِرْ بِمَا مَضَىٰ مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً، وَ آخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا! وَ كُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ. وَ عَظِّمِ ٱسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَىٰ حَقٍّ، وَ أَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَ لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ. وَ ٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، وَ يُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ[1]. وَ ٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَ يُسْتَحَىٰ مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ، وَ ٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوْ ٱعْتَذَرَ مِنْهُ. وَ لَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ الْقَوْلِ، وَ لَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَىٰ بِذَلِكَ كَذِباً. وَ لَا تَرُدَّ عَلَىٰ النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ، فَكَفَىٰ بِذَلِكَ جَهْلًا. وَ ٱكْظِمِ الْغَيْظَ، وَ تَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ، وَ ٱحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَ ٱصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ، تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ. وَ ٱسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ، وَ لَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ عِنْدَكَ، وَ لْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ[2].

اللُّغَة:

ٱسْتَنْصِحْهُ: عَدَّهُ نَاصِحاً. وحَائِلٌ: مُتَغيرٌ. والْعِرْض ـ بِكَسر الْعَيْن ـ مَا يَصُونه الْإِنْسَان مِن نَفْسه. والْمُرَاد بِالْدَّوْلَة هُنا السُّلطَة والمَقْدَرَة.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ تَذْكُرَهُ مَجْرُور بِبَاء مَحْذُوفة أي عَظِّمِ الله، وٱسْمَ اللهِ بِذِكْرك لهُ عَلىٰ الْحَقِّ، وَكَفَىٰ فِعْل مَاضٍ، وَالبَاء زَائِدَة، وذَلِكَ فَاعِل، وكَذِباً تَمْييز، وتَكُنْ مُضَارِع مَجْزُوم بِجَوَاب الطَّلب.

الْمَعْنَىٰ:

الْحَارِث الهَمَذَانيّ مِن أَصْحَاب الإِمَام المُقَربِين، والصَّفوَة مِن شِيعتَه، ومِن ذَوِي الأَقوَال والإِجْتِهَاد فِي الفِقْه والفُتيَا.

قَالَ لهُ الإِمَام: «أُبشّرك ـ يَا حَارِث ـ، لِتَعرفَني عِند المَمَات، وعِند الصِّراط، وعِند الْحَوض، وعِند المُقَاسَمَة.

قَالَ الْحَارِث: ومَا المُقَاسَمَة؟

قَالَ: مُقَاسَمَة النَّار، أُقَاسِمهَا قِسْمَة صَحِيحَة، أَقول. هَذَا وَليي فأتركِيه، وهَذَا عَدوّي فَخُذِيه[1]. وهَذَا مَعْنىٰ قَوْله بِمُنَاسَبة ثَانِيَة: يَا حَارِ هَمَذَان، مَن يَمُت يَرَني[2].

(١) أُنظر، خَاتِمة المُسْتَدرَك: ٢/٢٢٠، أَمَالي الشَّيخ المُفِيد: ٦، الفصُول المُهمَة فِي أُصول الأَئِمَّة: ١/٣١٤، بحَار الأَنْوَار: ٦/١٧٩ و: ١٠٨/٨٥، نَهج السَّعادة: ٢/٦٧٠، تَأريخ دِمشق: ٣٨/٣١ ح ٧٥٣، غَاية المرَام: ٦٨٢، كفَاية الطَّالب: ٦٨، بِشَارة المُصطفىٰ: ٢٢.

وعَن الشَّيخ البَهائِي أنَّه قَالَ: هُو جَدُّنا[1].

(وَ تَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَ ٱسْتَنْصِحْهُ، وَ أَحِلَّ حَلَالَهُ، وَ حَرِّمْ حَرَامَهُ... إلخ). ٱعمَل بِأحْكَامه، وٱعْتَبِرْ بِمَوَاعِظه، وٱنْتَفع بِأخْبَاره عَن الأُمَم المَاضِية والقرُون الخَالِية، فِنْهَا تَقْشعِر الجلُود، وبهَا تُلّين الْقُلُوب.

وتَقدَّم الحَدِيث عَن الْقُرْآن مَرَّات، مِنْهَا فِي ٱلْخُطْبَة (١٨٣) وٱلرِّسَالَة (٤٧) (وَ ٱعْتَبِرْ بِمَا مَضَىٰ مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا... إلخ). المَاضِي مِن الدُّنْيَا مَوت ودَمَار، والآتِي كَالحَاضِر، والحَاضِر كَالدَّابر (وَ عَظِّمِ ٱسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَىٰ حَقٍّ... إلخ). بِذكرِهِ كَشَاهِد ودَلِيل عَلىٰ حَلاله وحَرَامه، وفِي يَمِين صَادِقة، وعِبَادة مُخلِصة، وحَسَنة لوَجهه الكَرِيم، عَظّمه طَاعة لأمرِه، وتَقدِيساً لجَلاله، وٱبْتَعد بِذكره عَن الْكَذِب والشَّرّ إلّا أنْ تعوذ بِهِ مِن كُلِّ سُوء تَمَاماً كَمَا تَلجأ إِلَيْهِ عِند الْخَوْف والقَلق.

(وَ لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ) وهُو الْإِسْلاَم، والْعَمَل بهِ، والْإِخْلاَص لهُ وللمُسْلِمِين. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

---

(٢) نَظم هَذَا الحَدِيث السَّيِّد إسمَاعِيل بن مُحَمَّد الحِميري فِي أبيَات مِنْهَا:

يَا حَار هَمدَان مِن يَمت يَرَنِي ... مِن مُؤمن أو مُنَافق قِبلا

أُنظر، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٥٩/٢٠، رَسَائِل المُرتضىٰ: ١٣٣/٣، الحَبل المَتِين للشَّيخ البَهائي: ٥٩، خَاتِمة المُسْتَدرَك: ٢١٨/٢، أمَالي الشَّيخ المُفيد: ٧، الغَارات: ٧٢٠/٢، شَرح الأَخبَار: ٤٥١/٣، أوَائِل المَقَالات: ٧٤، أمَالي الطُّوسي: ٦٢٧، مَناقب آل أبِي طَالب: ٣٤/٣، المُحتَضر: ٣، الفصُول المُهمّة فِي أصول الأَئِمَّة: ٣١٤/١، بِشَارة المُصطفىٰ: ٢٣، تَأوِيل الأَيَات: ٥٣٩/٢، مَجْمَع البَحرين: ٤٣٤/٤.

(١) أُنظر، أَمَالي الشَّيخ المُفِيد: ٤، سَفِينَة البِحار: ٢٤٠/١.

(٢) ٱلبَقَرَة: ١٣٢.

(وَ ٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، وَ يُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْـمُسْلِمِينَ). لاِ تَـقِس الْخَيْرَ مِن أَفْعَالك بِمَا ٱشْتَهيت وأَحْبَبت، بَل مَا فيهِ خِدْمَة لِلدِّين وٱلْحَيَاة، ويَتَفق مَع الصَّالح العَام، ولاَ يَضُرّ بِإِنْسَان (وَ ٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَ يُسْتَحَىٰ مِنْهُ فِي الْعَلاَنِيَةِ). يَكُون سُبَّة عَلَيْكَ وَلَعْنَة دُنياً وآخرِة (وَ لاَ تُحَدِّثِ النَّـاسَ بِكُـلِّ مَـا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَىٰ بِذَلِكَ كَذِباً). أَكثَرُ مَا تَرَىٰ غَيْرُ نَافع، وجُل مَا تَسْمَع كَذِب، فَإِنْ حَدَثت بِكُلِّ مَا رَأَيْت وَقَعت فِي اللَّغو والعَبَث، أو بِكُلّ مَا سَمِعْتَ كُنتَ مِن الكَاذبِين إلّا إذَا أَسْنَدت الْقَوْل إِلىٰ قَائِلِه.

(وَ لاَ تَرُدَّ عَلَىٰ النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ... إلخ). ٱصْبر نَفْسك عَلَىٰ كَلاَم النَّاس جَيداً كَان أو رَدِيئاً، ولاَ تَمتَعض مِنْهُ، وإنْ كُنت عَلَىٰ عِلم بِهِ، وإِذَا أَحْسَست بِثقلِه وكرَاهِيته فَتمَاسك، وإنْ ٱستطَعت أنْ لاِ يَظهر الكلُوح والقطُوب عَلَىٰ وَجهَك فَٱفْعَل (وَ تَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ... إلخ). عَمَّن أَسَاء، فَإِنَّ الْـعَفْو زَكَـاة الظَّـفر، وأَقْـرَب لِـلتَّقْوَىٰ، وأَدْعـىٰ لِـلصَّفَاء ورَاحَـة البَـال (وَ ٱسْـتَصْلِحْ كُـلَّ نِـعْمَةٍ أَنْـعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ... إلخ). بِالشُّكرِ، والتَّوَاضع، والبَذلِ، والإِخْلاَص، فإنَّ الله سُـبْحَانَهُ يُحبّ مِن عَـبْدِه أنْ يحـدَث لهُ شُكـراً إذَا أَحـدَث لهُ نِـعْمَة: ﴿ثُـمَّ لَـتُسْئَلُنَّ يَـوْمَـئِذٍ عَـنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

وَ ٱعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَ أَهْلِهِ، وَ مَالِهِ فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ

(١) ٱلتَّكَاثر: ٨.

مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ، وَ مَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ. وَ اَحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ، وَ يُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ. وَ اَسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَ اَحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَ الْجَفَاءِ وَ قِلَّةَ الْأَعْوَانِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ. وَ اَقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَىٰ مَا يَعْنِيكَ. وَ إِيَّاكَ وَ مَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ، فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ، وَ مَعَارِيضُ الْفِتَنِ[٣]. وَ أَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ، وَ لَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّىٰ تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ. وَ أَطِعِ اللهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَىٰ مَا سِوَاهَا. وَ خَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ، وَ اَرْفُقْ بِهَا وَ لَا تَقْهَرْهَا، وَ خُذْ عَفْوَهَا وَ نَشَاطَهَا، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَ تَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا. وَ إِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَ أَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا. وَ إِيَّاكَ وَ مُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ. وَ وَقِّرِ اللهَ، وَ أَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ. وَ اَحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَ السَّلَامُ[٤].

اللُّغَة:

التَّقْدِمَة: البَذْل والفِدَاء. ويَفِيلُ: يَخْطَىء ويَضْعَف.. ومَعَارِيضُ: جَمْع مِعْرَاض نَوْع مِن السِّلاح، والمُرَاد بِهِ هُنا مُجَرد الضَّرر. وعَفْوَهَا: فرَاغَهَا: وآبِقٌ: هَارِبٌ.

الإِعْرَاب:

تَقْدِمَةً تَمْيِيز، ومَا تُقَدِّمْ «مَا» شَرطِيَة تَجزم فِعْلين، وتُقَدِّمْ فِعل الشَّرط، ويَبْقَ جوَابه، وإِيَّاكَ مَفْعُول لفِعل مَحْذُوف، والأَصل أُحَذِّرُكَ.

مِقْيَاس العِظَمَة عِند الإِمَام:

(وَ ٱعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَ أَهْـلِهِ ... إلخ). النَّـاس دَرَجَات مُتَفَاضِلات، ومَنَازِل مُتَفَاوِتَات دُنياً وآخرة، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، ولكنْ عَلىٰ أَسَاس الْعَمَل الصَّالِح النَّافِع لِلفَرد والمُجْتَمع ... وأيـضَاً الطَّـيِّبُون الصَّـالحُون عَـلىٰ دَرجَات مُتَفاوتَات عَالِية وأَعلىٰ، والعِبْرَة هُنا بِمِقدَار البَذل، والْعَطَاء مِـن النَّـفس والأَهْل والْمَال، كَمَا قَالَ الإِمَام، وصَرَح بِقَوْله: «مِنْ نَفْسِهِ، وَأَهْلِهِ، وَمَالِهِ». ويَدُلنا هَـذَا أَنَّ العَـظَمة عِـند الإِمَـام لاَ تُـقَاس بِمُـجَرد الإِيمَـان، والْـعِبَادَة، أو بِـالعُلُوم والفَلْسفَات، أو بِمُجَرد حُبّ الْخَيْر، ولاَ بِالبطُولاَتِ، والخَارِقَات، ولاَ بِكَثْرة المَال والرِّجَال، بَل بِالإِيمَان مَع التَّضحِية بِالنَّفسِ، والمَالِ، والأَهْلِ من أَجل الإِنْسَـان، وخِدْمَة الإِنْسَانِ، وحَيَاته، وسَعَادته، وإِنَّ لِكُلٍّ عِند الله والنَّاس بِمقدَار مَا أَعـطىٰ مِن جَلِيلٍ، وجَمِيلٍ.

(وَ ٱحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ، وَ يُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ). الفَضِيلَة ضِدّ الرَّذِيلة، وعَدوّها الأَلد، فإِذَا أَنْت صَحِبت الخَبِيث المُنْحَط فِي أَخْلاَقه، وٱرتَاحت إِلَيْهِ نَفْسك كَان مَعْنىٰ هَذَا إِنَّك عَدوّ الْخَيْر والفَضِيلة، وإِنَّ نَفْسك لاَ تَرتَاح أَبداً إِلّا لِلخبَائِث والرَّذَائِل تَمَاماً كَحَشرَة القَذَرَات ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْـخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ مُـبَرَّءُونَ مِـمَّا يَـقُولُونَ لَـهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

(وَ ٱسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ .... إلخ). إِذَا سَكَـنْت المُـدن

(١) ٱلنُّور: ٢٦.

الْكُبْرَىٰ رَأيتَ مُنْجزَات الحَضَارة، ومَقدَرة الإنْسَان عَلىٰ الاِخْترَاع، ورَأيتَ التَّفَاوت بَيْنَ النَّاس فِي عَيشِهم وحَيَاتهم مِن ثَرَاء فَاحش إلىٰ فـزقْرٍ قَاتِل، ومِن موَاخِير للدّعَارة إلىٰ صرُوح لِـلْعِبَادَةِ... إلىٰ كَثِير مِن صـور آلْحَيَاة المُتنَافِرَة المُتنَاقِضة... فتَأخذ دَرسَاً نَافِعاً مِمَّا تَرىٰ ـ عَلىٰ الأقَل ـ وتَعْلَم أنَّ وَرَاء دُنْيَاكَ دُنْيا أَعرَض وأَعْمَق... وَقَرَأت لِصُحَفِيّ زَار جَزِيرة هُونع كونْغ، ومِن جُملَة مَا قَـالَ فِي وَصْفَها: فِيهَا أَفْخَم السَّيَّارَات، وفِيهَا العَرَبَات يَجرها الإِنْسَان بَدَلاً عَن آلْحَيَوَان، وفِيهَا الذَّهب الأَصْفَر، وفِيهَا نَاس وجُوهَهُم كَالذَّهب الأَصْفَر مِن البُؤس، وفِيهَا نَاطحَات لِلسَّحَاب، والنَّاطِحُون لِلْأَرْض.

(وَ آقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَىٰ مَا يَعْنِيك) دَع الفُضُول والتَّطَفُل، وآنْصَرف لشَأنّك (وَ إِيَّاكَ وَ مَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ... إلخ). لأنَّ فِيها سَمْسرَات ومُسَاومَات، وغُشّاً ورِبَا، وبَذَاءَات وخصُومَات عَلىٰ الحقِير واليَسِير مِن متَاع الدُّنْيَا (وَ أَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْه، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ). مَن هُو دُونَك لِتَرىٰ نِعْمَة الله عَلَيْكَ، فَتشكُر وتَتوَاضع... ولكنَّ كَثِيراً مِن الأَغْنِياء إذَا رَأوا مِن دُونَهُم مَالاً أَخَذَتْهُم آلعِزَّةُ بِالإِثْمِ!.

التَّعْطِيل يَوْم آلْجُمُعَة:

(وَ لَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّىٰ تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللهِ). لاَ يَجب التَّعطِيل فِي يَوْم آلْجُمُعَة، بَل ولاَ يُسْتَحب أيضاً إلّا عِند الصَّلاٰة فَقط... وبَعدَها يُسْتَحب الْعَمَل وطَلَب آلرِّزْق، وهُو تَمَاماً كَالصَّلاٰة، وسَائِر العبَادَات مِن حَيْث الأجر، والثَّوَاب، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ

ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] أَمَر سُبْحَانَهُ بِتَرك الْعَمَل عِند النّدَاء لَلصَّلاة والسَّعي إِلىٰ ذِكْر الله... وبَعد أَداء الصَّلاَة عَلىٰ وَجْهِها أَمر بِالسَّعي وتَحصِيل ٱلرِّزْق وسُؤال الله مِن فَضلَه عَن طَرِيق الْعَمَل، ومَعْنىٰ هَذَا أَنَّ السَّعي يَوْم ٱلْجُمُعَة مِن أَجل ٱلْحيَاة مَأمُور بِهِ تَماماً كَسَائر الأَيَّام، بَل هُو عِبَادة تَماماً كَالسَّعي إِلىٰ الصَّلاَة، لأَنَّ الأَمْرين مَعاً جَاءَا جَنْباً إِلىٰ جَنب فِي سِياقٍ وَاحد، وكُلّ مِنْهُمَا نُسِب إِلىٰ الله: ﴿فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ...وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. وهُنا تَكمُن عَظَمة الإِسْلاَم وحَقِيقَة الإِسْلاَم حَيْث أَمَر بِالْعَمَل لِلمَادَّة والرّوح، لأَنَّ الإِنْسَان بِهما لاَ بِإِحَداهمَا: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[2].

بَنُون، ومَال، وَعِبَادة، وسَعي لِلحَيَاة، ولِلمَعْبَد، والكُلّ مِن اللهِ ولله، ولاَ شَيء لِقَيصَر.

(وَ خَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ) ٱصْرفهَا أَو شَكّكهَا فِيما تَهوىٰ وتَمِيل إِلَيْهِ، وأَغرهَا بِالْعَمَل الصَّالِح، وقُل لهَا: هُو خَيرٌ لكِ وأَبْقىٰ (وَ ٱرْفُقْ بِهَا وَ لاَ تَقْهَرْهَا... إلخ). إِلّا عَلىٰ الْفَرَائِض، كَالصَّلَوات الخَمْس، والصِّيَام، وَٱلْحَجّ، والزّكَاة، وأَتْرك لهَا الخَيَار فِيما عَدا ذَلِكَ، وتَقدَّم مِثله فِي شَرح ٱلْرِّسَالَة (٥١ و ٥٢) (وَ إِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَ أَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيا). إِلّا بِشَرط وَثِيق، كَمَا قَالَ الإِمَام فِي هَذِه ٱلْرِّسَالَة بِالذَّات (وَ إِيَّاكَ وَ مُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ... إلخ). فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ

(١) ٱلْجُمُعَة: ٩ ـ ١٠.

(٢) ٱلْكَهْف: ٤٦.

بِصَاحِبِهِ، أيضاً كما قالَ فِي هَذِهِ آلرِّسَالَة نَفْسها (وَ آحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدُ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ). جَمْرَة الشَّيْطَان يُوقِدهَا فِي الْقُلُوب، لِيُخرِج النَّاس عَن دِينِهِم وَعُقُوْلِهِم. وفِي الْحَدِيث: «مَنْ كَفَّ غَضَبَه كَفَّ الله عَنْهُ عَذَابَه، وَسَتَرَ الله عَوْرَتَه»(١) لأنَّ الْعُيُوب تَظْهَر سَاعَةَ الغَضَب.

(١) أنظر، مِيزَان الإعْتِدَال: ٣/٢٩٣ ح ٣٤٦٣، لِسَان الميزَان: ٣/٩١ ح ٣٠٦، فَيض القَدِير شَرح الجَامع الصَّغِير: ٦/٢٨١ ح ٨٩٩٨، كَنز العُمَّال: ٣/١٣١ ح ٥٨٢٥، الجَامع الصَّغِير: ٢/٦٤٢ ح ٨٩٩٨، إحيَاء علُوم الدِّين: ٣/١٤٣، ثوَاب الأَعمَال: ١٣٣، الكَافِي: ٢/٣٠٣ ح ٦ و ١٥، سُبل السَّلام: ٤/١٩٩ ح ٢٦، الزُّهد لابن حَنبَل: ١/٣٥ ح ٤٧، الأَحَادِيث المُختارة: ٦/٨١ ح ٢٠٦٦ و ٢٠٦٧ و: ٧/٢٩٦ ح ٢٧٥١، نوَادر الأُصول فِي أحَادِيث الرَّسول: ٢/٢٦٨، فَيض القَدِير: ٦/٢١٧.

الرسالة ٧٠

إِلىٰ سَهْل بِن حُنَيْف:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَىٰ مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَ يَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَىٰ لَهُمْ غَيّاً، وَ لَكَ مِنْهُمْ شَافِياً، فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَىٰ وَ الْحَقِّ، وَ إِيضَاعُهُمْ إِلَىٰ الْعَمَىٰ وَ الْجَهْلِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَ مُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، وَ قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَ رَأَوْهُ، وَ سَمِعُوهُ وَ وَعَوْهُ، وَ عَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَىٰ الْأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَ سُحْقاً!!

إِنَّهُمْ ـ وَ اللهِ ـ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَ لَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَ إِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَ يُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

قِبَلَكَ: عِنْدَكَ. ويَتَسَلَّلُونَ: يَهْرُبُون. والمَدَد: الْعَون. وإِيضَاعُهُمْ: إِسْرَاعُهُم. ومُهْطِعُونَ: مُسْرِعُون. والأَثَرَة: الاِخْتِيَار، والاِخْتِصَاص. والبُعْد وَالسُّحْق: بِمَعنَىٰ وهُو الهَلَاك. والحَزْنَ ـ بِفَتح الحَاء وسكُون الزَّاي ـ مَا غَلُظ مِن الأَرْض.

الإعْرَاب:

غَيّاً، وَشَافِياً نُصب عَلىٰ التَّمْيِيز، وَبُعْداً وَسُحْقاً نُصب عَلىٰ الْمَصْدَرِيَة، والْمَصْدَر مِن أَنْ يُذَلِّلَ مجْرُور بِفي مِحْذُوفة.

الْمَعْنَىٰ:

سَهْل بن الحُنَيْف الأَنْصَاري هُو أَخُو عُثْمَان بن حُنَيْف الَّذي كَان وَالِياً لِلْإِمَام عَلىٰ الْبَصْرَة حِين غَزَاهَا أَصْحَاب الْجَمَل، ونَكَّلوا بِـهِ، ومَـثَّلوا، وسَبَق الكَـلاَم عَـن ذَلِكَ[1]، وكَانَ سَهل مِن أَجلّ الصَّحَابَة المقَربِين، قَالَ ٱبن حَجر العَسْقلاَني فِي كتَاب

(١) سَهْل بن حُنَيْف الأَنْصاري، أَبُو ثَابت، وَأَنَّه مِمَّن ثَبتَ يَوم أُحد مَع رَسُول اللهﷺ لمَّا ٱنْهزم النَّاس، وبَايعه عَلىٰ المْوْت، وجَعَل يَنضح يَوْمَئِذٍ بِالنَّبل مَع رَسُول اللهﷺ، فقَال عَنْه رَسُول اللهﷺ: «نَبلُوا سَهلاً، فإِنَّه سَهل»، أُنظر، المُسْتدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٣/٤٠٩، شَرح الأَخْبَار: ٢/٥٣، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِٱبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٤/٢٥٢، الطَّبقات الكُبرىٰ: ٣/٤٧١، سِير أَعْلاَم النُّبلاء: ٢/٣٢٨، الإِصَابَة: ٣/١٦٦، تَأْرِيخ المَدِينَة: ٢/٤٩٠، المُنْتخَب من ذَيل المُذيل: ١٧، وكَان بَدرياً، وشَهِد المشَاهد كلّها مَع رَسُول اللهﷺ، وكَان مِن نُقَبَاء لِيْلَة العَقَبَة، ثُمَّ صَحِب عَليّ بن أَبِي طَالبؑ، حِين بُويع بِالخِلاَفَة، وقَد ٱستَخلَفَهُ عَلىٰ المَدِينَة لمَّا سَار إِلىٰ الْبصرَة، وشَهد مَعه صِفِّين، ووَلاَّه بِلاد فَارس. وكَان فِي بدء الإِسْلاَم عَام الأَوَّل مِن الهِجرَة يُكسر أَصْنَام قَومه لِيلاً فَيحملهَا إِلىٰ ٱمرَأَة مُسْلِمة مِن الأَنْصَار لاَ زَوج لهَا يَقول لهَا: خُذي فَٱحتَطبي بِهَذا، وكَان أَمِير الْمُؤمِنينؑ يَذكر ذَلِك عَنْه بَعد مَوته مُتعجباً، وَقَالَ عِـنْدَما تُـوُفِّيَ ـ سَهْـلُ بْـنُ حُـنَيْفٍ الأَنْصَارِيُّ ـ بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مَرْجِعِهِ مَعَهُ مِنْ صِفِّينَ، وَكَانَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ: «لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ». أُنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١١١)، تُحف العقُول: ٣٤٤، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِٱبْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٨/٢٧٥، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لمُحَمَّد عَبْدَه: ٤/٢٦.

ولمَّا مَات سَنَة (٣٨ هـ) بِالكُوفَة كَبَّر عَليهِ عَليّ بن أَبي طَالبؑ خَمس تكبِيرات، ثُمَّ مَشىٰ سَاعة فَوضعه، ثُم كَبَّر عَلَيهِ خَمسَاً أُخرىٰ، فصَنع ذَلِك حَتَّىٰ كَبَّر عَلَيْهِ خَمسَاً وعشرِين تكبِيرة، ثُمَّ كَفَّنه فِي بُرد أَحمر

⇔

«الْإِصَابَة» «كَان سَهل مِن السَّابقِين، شَهِد بَدْراً، وثَبَت يَوْم أُحد حِين ٱنْكَشف النَّاس ـ أي ٱنْهَزمُوا عَن رَسُول الله ـ وبَايَعَ يَوْمَئِذٍ عَلىٰ الْمَوْت، ومَات بِالْكُوفَة، وصَلَّىٰ عَلَيْهِ عَليّ بن أبِي طَالب»[(١)]. وفِي سَفِينَة البِحَار: «كَان سَهْل أَحَبّ النَّاس إِلىٰ الْإِمَام، ولمَّا مَات خَرَج فِي جَنَازَته، وجَزَع عَلَيْهِ جَزَعَاً شَدِيداً»[(٢)].

وكَان قَد بَلَغ الْإِمَام أنَّ جمَاعَة مِن أَهْل الْمَدِينَة لحقُوا بمُعَاوِيَة طَمعَاً فِي دُنيَاه، وكَان سَهْل وَالِياً عَلىٰ المَدِينَة، فَأسَف وتَألَم، فَكَتَب إِلَيْهِ إمَامَه: (فَلَا تَأْسَفْ عَلَىٰ مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَ يَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ... إلخ). كَان الْأَنْبِيَاء يَدْعُون دَعْوَة الْحَقّ، وَيُقِيمُون الْأَدِلة والبَرَاهِين عَلىٰ صِدقهَا، ويَدعُون النَّاس إِلىٰ الْإِيمَان بها عَن عِلمٍ وَقَنَاعة بِلا جَبْرٍ، وإكرَاه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ

⇐ حِبرَة. أنظر، تَذكرة الفُقهَاء: ١/ ٤٣، الكَافِي: ٣/ ١٤٩ ح ٩، التَّهذِيب: ١/ ٢٩٦، وَسَائِل الشِّيعة: ٢/ ٧٢٦ ح ٣.

أنظر، تَهذِيب التَّهذِيب: ٤/ ٢٢٠ ح ٤٣٩، تُحف العقُول: ٣٤٤، سُبل السَّلام: ٢/ ١٠٣، كشَف القِناع: ٢/ ١٣٩، المُحلىٰ: ٥/ ١٢٦، كتَاب الأُمّ: ١/ ٣٢٣ و: ٧/ ١٧٨، المُغني: ٢/ ٣٩٣، الشَّرح الكَبير: ٢/ ٣٤٩، تَهذِيب الأَحْكَام: ٣/ ٣١٥ ح ٩٧٧، المُعتبر للعلاَّمة الحُلي: ٢/ ٣٥٧، أُسد الغَابَة: ٢/ ٣٦٤، سير أَعْلَام النُّبلاء: ٢/ ٣٢٥، الكَافِي: ٣/ ١٨٦ ح ٢، التَّهذِيب: ٣/ ٣٢٥ ح ١٠١١، فِقه الرِّضا: ١٨٨، الإِسْتبصَار: ١/ ٤٨٤ ح ١٨٧٦، المُقنعة للشَّيخ المُفيد: ٢٣.

(١) أنظر، الإِصَابَة: ٢/ ٨٦ و: ٣/ ١٦٦ رَقم «٣٥٤٠»، الإِسْتِيعَاب: ٢/ ٩١ و ٦٦٢، أُسد الغَابَة: ٢/ ٣٦٥، تَهذِيب الكَمَال: ١٢/ ١٨٥، الطَّبقات الكُبرىٰ: ٣/ ٤٧١ و: ٦/ ١٥، طَبقَات خَلِيفَة: ٨٥ و ١٣٥، صَحِيح ٱبن حبَّان: ١/ ١٨٠، تَأريخ المَدِينة: ٢/ ٤٩٠، سُبل الهُدىٰ والرَّشاد: ٤/ ١٩٨.

(٢) أنظر، بِحَار الأَنْوَار: ٧٨/ ٣٤٩ و ٣٥٦ و ٣٧٩.

سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. وَهَذَا أَمر طَبِيعي، لأنَّ الْعَقِيدَة ومُمَارسَة الدِّين لاَ تكُون، ولَنْ تَكُون إلاّ في ظِلِّ الْحُرِّيَّة التَّامة، وهِي الْحَقّ لِكُلِّ إنْسَان فإذَا ٱعْتَدىٰ وأَسَاء ٱسْتعمَالها تَحمّل وَحدَه التَّبعَات، والمَسْئُولِيَة.

هَذَا هُو مَبدأ الْقُرآن، والرَّسُول، والإِمَام، ولِذَا لَمْ يُكرِه أحداً علىٰ بَيْعَته، ولاَ صَدَّ أحداً مِمَّنْ بَايَعة عَن النَّكثِ، والذِّهَاب إِلىٰ حَيْث يَشَاء تَمَاماً كَما لَمْ يُكرِه النَّبيّ الكَرِيم ﷺ أحَداً علىٰ الإِعْتِرَاف بِنُبُوّته.

(فَكَفَىٰ لَهُمْ غَيّاً) لَقَد ٱخْتَاروا لأنْفُسِهم طَرِيق ٱلْغَيّ، والضَّلال، وآثَرُوه عَلىٰ الْحَقّ والْهُدَىٰ، وسَيَجزِي الله الَّذِين أَسَاءوا بِمَا كَانوا يَعْلمُون (وَ لَكَ مِنْهُمْ شَافِياً) أي كَفىٰ شَفاءً مِنْهُم أنَّهُم مِن الهَالِكِين، وعَبّرَ الإِمَام عَن الهَلاَك بِقَوْله: (فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَىٰ وَ الْحَقِّ، وَ إِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَىٰ وَ الْجَهْلِ) لأنَّ الفِرَار مِن الْحَقّ إِلىٰ البَاطِل مِن أَقوىٰ أَسْبَاب العَذَاب.

(فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَ مُهْطِعُونَ إِلَيْهَا). تَركُونَا لأنَّا فِي الرَّعِيَّة، وَنَقْسِم بِالسَّوِية، وذَهَبُوا إِلىٰ الدُّنْيَا، والجَوْر... ومَا يَضُرّون إلاّ أنْفُسهم... فَعَلاَمَ تَذهَب نَفْسك عَلَيْهِمْ حَسَرَات؟ (وَ إِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَ يُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ). أي الخِلاَفَة، وهِي بِيَد الله تَعَالىٰ، ونَحنُ لاَ نَيأَس مِن رَحْمَتِه تَعَالىٰ، وفِي الوَقت نَفْسه نَرضىٰ بِقَضَائه، ونَصْبر عَلىٰ بَلاَئه.

(١) ٱلبَقَرَة: ٢٥٦.

الرسالة
-٧١-

إلى الْمُنْذِرِ بن الْجَارُود:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَ تَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً، وَ لَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً. تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ، وَ تَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَ لَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَ شِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَ مَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا، إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللُّغَة:

هَدْيَهُ: سِيرَتَهُ. ورُقِّيَ: رُفع. والعَتَاد: الذَّخِيرَةُ. وشِسْعُ النَّعْلِ: مَا يَدْخُل بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن النَّعْلِ الْعَرَبِي.

الإِعْرَاب:

إذَا فُجَائِيَة، وأَنْتَ مُبْتَدأ، وجُمْلَة لَا تَدَعُ خَبَر، وفِيمَا رُقِّيَ مُتَعَلِّق بتَدَع، ولَئِنْ اللَّام

لِلتوطِئَة، ولِحَمَلُ اللاَّم فِي جوَاب القَسَم الَّذي دلَّت عَلَيْهِ الوَاو، وٱسم لَيْسَ ضَمِير مُستَتِر يَعُود إِلىٰ مَنْ كَانَ بِأَهْلٍ خَبَر لَيْسَ، والبَاء زَائِدَة، والْمَصْدَر مِن أَنْ يُسَدَّ مَجرُور بِلا مَحْذُوفه، ويُؤْمَنَ عَلَىٰ جِبَايَةٍ عَلَىٰ حَذف مُضَاف أي عَلىٰ دَفع خِيَانَه.

الْمَعْنَىٰ:

تَحَدَث التَّأرِيخ عَن عَدْل الْإِمَام، وشِدَّتِهِ فِي الحِفَاظ عَلىٰ أَمْوَال الْدَّوْلَة.. وأيضاً تَحَدَث هُو نَفْسه حَيْث دَعَت الْحَاجَة حِين حَاسَب عَامِله عُثْمَانَ بن حُنَيْف عَلىٰ حضُور وَلِيمَة، وَقَالَ، وهُو يَعَظُه وَيُخَوّفه: «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَ يَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ ٱكْتَفَىٰ مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَٱجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَ سَدَادٍ.... وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ»[1].

وأقَام الدُّنْيَا ولَمْ يَقْعُدها عَلىٰ رَأس ٱبْنَته السَّيِّدة أُمّ كُلْثُوم، لِأَنَّهَا تَحَملَّت بِعقد مِن بَيْت الْمَال كعَارِية مَضمُونة مَردُودَة بَعد ثَلاثَة أَيَّام، وَقَالَ لِلخَازن أَبِي رَافع[2] الَّذي

---

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٤٥). (مِنْهُ).

(٢) أَبُو رَافع: هو مَوْلىٰ رَسُول الله ﷺ. ٱخْتُلف فِي ٱسمه، فقِيل: ٱسمه إِبرَاهِيم، وقِيل: أسْلَم، وقِيل: ثَابت، وقِيل: هُرمز، وصَالح.

يُعدُّ فِي الطَّبقة الأُولىٰ مِن الشِّيعة، كَان قِبطيّاً عِند العبَّاس بن عَبدالمُطَّلب، فَوهبَه لرَسُول الله ﷺ، فَلمَّا بُشّر ﷺ بإِسْلاِم العبَّاس أعْتَقه.

هَاجر مِن مكَّة إِلىٰ الْمَدِينَة، وشَارك مَع الْمُسْلِمِين فِي غَزوَات رَسُول الله ﷺ.

لَزِم أَمِير الْمُؤْمِنِين عَليّ بن أَبي طَالب ﷺ، وشَهد مَعهُ حُرُوبَه، وبَعد ٱسْتشهَاد الْإِمَام ﷺ رَجع إِلىٰ ⟷

أعْارَهَا العِقد: «أَتَخُون الْمُسْلِمِين»[1]؟.

وإذَا كَان هَذَا دَأبه مَع نَفْسه فَهْل يَتسَامَح مَع عُمَّالِهِ؟. بَلَغَه عَن عَامِله عَلىٰ آذربِيجَان بَعْض الشَّيء فَأرسَل يُهدِدَه كَمَا فِي ٱلرِّسَالَة (٥)، ومِثلها ٱلرِّسَالَة (٤٠ و ٤٣ و ٤٥)، وٱلرِّسَالَة الّتي نَحنُ بِصَددها، والّتي أَرْسَلها لِلمُنْذِر بن الجَارُود، وكَان وَالِياً لِلإِمَام عَلىٰ بَعْض الأَعْمَال، وَقَالَ لهُ:

(فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ) كَان أَبُو الْمُنْذِر، وهُو الجَارُود بن خُنَيْس[2]،

↔ الْمَدِينَة مَع الإِمَام الحَسَن عليه السلام، حَيْث أَعْطَاه قِسماً مِن بَيت عَليّ عليه السلام، لأَنَّه بَاع دَاره عِند خرُوجَه مَع الإِمَام عَليّ عليه السلام إلىٰ الكُوفَة.

أُنظر، تَرجَمته فِي: طَبقَات اَبن سَعد: ٤/٧٣ ق ٤، وأُسد الغَابَة: ١/٥٢، وتهذِيب التَّهذِيب: ١٢/١٠٠، وتَذهِيب التَّهذِيب: ٤/٢١٢/٢، والإِصَابَة: ١١/١٢٨، رِجَال النَّجَاشي: ٤/١، والكُنىٰ والأَلقَاب: ١/١٧٤، وتنقِيح المَقَال: ٣/١٦ (بَاب الكُنىٰ)، وتَأسِيس الشِّيعة: ٣١٩ و ٣٤١، وأعيَان الشِّيعة: ٢/٣٥٠، وسِير أَعلام النُّبلاء: ٢/١٦/٣، والجَرح والتَّعدِيل: ٢/١٤٩، وتَأرِيخ اَبن مُعِين: ٧٠٤.

والرَّاوي لِهَذه القِصَّة هُو عَليّ بن أَبِي رَافع، والَّذي عَدَه الشَّيخ مِن أَصحَاب أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام، وكَان كَاتِباً لهُ، ومِن خوَاص أَصْحَابه، ولهُ كتَاب فِي قضَايا أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام، وكتَاب فِي مَنْ شَهد مَع أَمِير الْمُؤْمِنِين عليه السلام، الجَمَل، وصِفِّين، والنَّهْرَوَان مِن الصَّحَابَة. أُنظر، رِجَال النَّجَاشي: ٣، رِجَال البَرقِي: ٤، رِجَال الطُّوسي: ٤٧، أُسد الغَابَة: ٢/١٥٥، الإِصَابَة: ١/٤٨٥.

(١) أُنظر، تَهذِيب الأَحْكَام: ١٠/١٥١، وَسَائِل الشِّيعة: ٢٨/٢٩٢ ح ١، مناقب آل أَبي طَالب: ١/٣٧٥، حلية الأَبرَار: ٢/٢٨٦، بحَار الأَنْوَار: ٤٠/٣٣٨ ح ٢٢.

(٢) الجَارُود أَبُو المُنْذِر العَبدِي نِسبَةً إلىٰ عَبد القَيس، وهِي قَبِيلة بَصرِية مَعرُوفة، وقَد شَاركت فِي فَتح فَارس، كَمَا جَاء فِي فتُوح البَلاذُري: ٣٧٨، والغَارات: ٢/٥٢٢ و: ٨٩٧، والمُعلىٰ هُو الحَارث بن زَيد بن حَارثه بن مُعَاوِيَة بن ثَعلبَة بن جُذيمة بن عَوف بن أَنْمَار بن عَمرو بن وَدِيعة، وهُو صحَابِي جَلِيل ورَاوي مقَالات قس بن سَاعِدة لرَسُول الله صلى الله عليه وآله، وذَكر أَسَامي الأَئِمَّة عليهم السلام، وخَبَر المعرَاج، وَولّىٰ عَلي بن أَبِي طَالب عليه السلام، المُنْذِر عَلىٰ اَصْطَخر، ثُمَّ عَزلَه بَعْد أَنْ أَغرَمَه ثَلاثِين أَلفاً، ثُمَّ تَركَها لِصَعْصَعَه بن صوحَان العَبدِي بَعد أَنْ أَحلَفه ↔

⇐ عَليهَا فحَلف، وقِيل: كَان المَال أَرْبعمِئة أَلف دِرهم، فَحبَسه الإِمَام عليّ، فَشَفع فيهِ صَعصعَة بن صوحَان، وقَام بِأَمرهِ وخَلَّصه. فقَال الأَعور الشَّني ـ بِشر بن مُنقِذ مِن عَبد القَيس ـ يَذكر بَلاَء صَعصعَة فِي أَمرهِ:

سَائِل سُرَاة بَنِي الجَارُود أي فَتىً — عِند الشَّفَاعَة والبَاب آبن صوحَانا
مَا كَان إلاَّ كَأُمّ أَرْضَعت وَلداً — عَقّت فَلم تُجز بِالإِحْسَان إِحْسَانا
لاَ تَأمِنن آمرءاً خَان آمرءاً (آمرَاً) أَبداً — إنَّ مِن النَّاس ذَا وَجهين خوَانا

أنظر، الشّعر والشُّعراء لِابن قُتيبة: ٥٣٤، طَبْعة بَيروت، تَأريخ ابن عسَاكر: ٤٢٦/٦، بحَار الأَنْوَار: ٣٧٤/٨.

والمُنْذِر بن الجَارود هُو الَّذي سَلَّم كتَاب الإِمَام الحُسينِ الَّذي آرْسَله إِلىٰ أشرَاف النَّاس مِن أَهل البَصرَة، إِلىٰ عُبيدالله بن زِياد، فإِنَّه خَشي ـ بِزَعمه أنْ يَكُون دَسِيساً مِن قِبل عُبيدالله، فجَاءه بِالرَّسُول مِن العَشِية الَّتي يُريد صَبِيحتها أنْ يَسبق إِلىٰ الكُوفَة، وأَقرَأه كتَابه، فَقدَّم عُبيدالله الرَّسُول فَضَرب عُنقه، كمَا جَاء فِي تَأريخ الطَّبَري: ٣٥٧/٥، الأَخبَار الطّوال: ٢٣١.

والمُنْذِر هُو الَّذي مَرَّ عَلىٰ عَليّ بن الحُسين فقَال:

كَيف أَصبَحت جَعْلني الله فدَاك يَاآبن رَسُول الله؟

قَال: أَصْبَحنَا وأَصبَحت العَرب تَفتَخر عَلىٰ العَجم بِأنَّ مُحَمّداً مِنْهَا، وأَصبَحت العَجم مُقرة لهَا بِذَلك، وأَصبَحنا وأَصبَحت قُريْش يَعرفُون فَضلنا، ولاَ يَرون ذَلِكَ لنَا، ومِن البَلاء عَلىٰ هَذِه الأُمَّة إنَّا إذَا دَعونَاهُم لَم يُجِيبُونا، وإِذَا تَركنَاهُم لَم يَهتدُوا بِغيرنا. أنظر، نُزهة النَّاظر وتَنبِيه الخَاطر: ٨٥، الأَخْبَار الطَّوال: ٢٣١، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٥٤/١٨.

وكَان شَهد الجَمل مَع عَليّ بن أَبي طَالب، ووَلاَّه عُبيدالله بن زِياد فِي إمرَة يَزيد بن مُعَاوِيَة الهِند، وقِيل: السِّند، فمَات هُناك فِي آخر سَنَة (٦١ هـ أو ٦٢هـ)، وقَد عَاش (٦٠ سَنَة)، كمَا جَاء فِي الطَّبقات الكُبرىٰ: ٥٦١/٥ و: ٨٧/٧، المَعَارف لِابْن قُتَيْبَة: ٣٣٩ الطَّبعة الثَّانِيَة مِصر سَنَة ١٣٨٨ هـ، وإِنَّمَا سُمي بِالجَارُود لِبَيت قَاله بَعْض الشُّعرَاء فيهِ، وجَاء فِي آخره:

وَدسنَاهُم (وجَردنَاهُم) بِالخَيْل (بِالبِيض) مِن كُلّ جَانب
كَمَا جَرَّد الجَارُود بَكر بن وَائل

⇐

نَصْرَانِياً، فَأَسلَم عَلىٰ يَد رَسُول الله ﷺ، ولمَّا قُبض الرَّسُول، وٱرتَد كَثِير مِن الْعَرَب حَذَّر الْجَارُود قَوْمَه مِن الارتدَاد، وَقَالَ لَهُم: ٱستَمْسكُوا بِدِينكُم، وكَان فِيهِمْ مُطَاعَاً، فاستَمعُوا لهُ، وَعَملوا بِنُصحهِ. ومِن هُنا قَالَ الإِمَام لوَلَده المُنْذِر: «إنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ» (وَ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَ تَسْلُكُ سَبِيلَهُ... إلخ). فَخَاب الظَّن، وٱنْقَطع الأَمل بَعد أنْ سَمِعتُ أَنَّك لاَ تَملك هوَاك، وإنَّك تَبِيع دِينَكَ بدُنْيَاكَ (وَ لَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَ شِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ). إنْ صَحَّ مَا قِيل عَنْكَ فَقد أَفْسَدت دِينَكَ ونَفْسك، وٱختَرت لَهَا الذُّلَّ والْهَوَان، ولاَ يُجدِيك نَفْعَاً كَرَم الأَجدَّاد ومُروءَة الآبَاء.

(وَ مَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ... إلخ). مِن الْخِيَانَة، فَمَا هُو بِأَهل لأَيْسَر الأُمُور وأَحْقَرها (فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا) لِلتَّحقِيق ونقَاش الْحِسَاب. وَقَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: والمُنْذِر هَذَا هُو الَّذي قَالَ فيهِ أَمِير الْمُؤْمِنِين ؑ «إنَّه لَنَظَّارٌ فِي عِطْفَيْهِ، مُخْتَال فِي بُرْدَيْه»[1] أي يَنْظر جَنْبَيْه يَمِيناً وشِمَالاً إِعْجَاباً بِنَفْسه وثِيَابه كَالطَّاووس يَتَصَفح ذَنَبَه وجَنَاحَيْه «تَفَّالٌ فِي شِرَاكَيْهِ» يَغْسل حِذَاءه بِبُصَاقِه لِيَعْتَز بِهِ كَمَا ٱعْتَز بِبُرْدَيْه!... وهَكذا كُلّ سَخِيف مُجَوَّف يَسُدُّ مَا فِي نَفْسه مِن فَرَاغ بِحِذَاء يَلْمَع، أو ثَوب يَخْدَع.

⇐ أنظر، تَرجَمته فِي: تَهذِيب الكَمَال: ٤/٤٧٨، تَأرِيخ دِمشق: ٦٠/٢٨٤، الاِسْتِيعَاب: ٢٦٢ طَبعة نَهضة مِصر، شوَاهد التَّنزِيل: ٢/٢١١، تفسِير القُرطُبي: ٦/٣٦٢، الطَّبقات الكُبرىٰ: ٥/٥٦١ و: ٧/٨٧، تَأرِيخ دِمشق: ٥٦/٥٠٠ و: ٦٠/٢٨١ الرَّقم «٧٦٤٢» و: ٦٥/١٧٩، الإِصَابَة: ١/٥٥٢ و: ٦/٢٠٩ الرَّقم «٨٣٥٣»، التَّأرِيخ الكَبِير للبُخاري: ١/٢ ح ٢٣٦، التَّأرِيخ الصَّغير للبُخاري: ٢٨، المُعْجَم الكَبِير: ٢/٢٩٥، الاِسْتِيعَاب: ١/٢٦٢، أُسد الغَابَة: ١/٢٦٠.

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٧١)، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٣/١٣٣، خَاتِمَة المُسْتَدرَك: ٥/٤٢٠، بِحَار الأَنْوَار: ٣٣/٥٠٦، نَهج السَّعادة: ٥/٢٢، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلحَدِيد: ١٨/٥٤.

الرسالة

-٧٢-

أيضاً ٱبن عبَّاس:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَ لَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ؛ وَ ٱعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَ يَوْمٌ عَلَيْكَ، وَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَىٰ ضَعْفِكَ، وَ مَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ.

الْمَعْنَىٰ:

(فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ... إلخ). لِكُلِّ أَجَلٌ كِتَاب، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، ومَع ذَلِكَ عَلينا أَنْ نَحْتَرس ولاَ نُلقِي بِأَيْدِينَا إِلىٰ التَّهلكة... وأيضاً ٱلرِّزْق مَكْتُوب، ولكنْ عَن طَرِيق الْعَمَل، والتَّدبِير، وسَبق الكَلاَم عَن ذَلِكَ مَرَّات وَمَرَّات... وآمَنُ النَّاس عَلىٰ نَفْسه أَكْثَرهم مُسَالمَة للنَّاس، وأَبْعَدهُم عَن الشَّرِّ وَالأَذىٰ، وأَوْسَعهُم غِنىٰ أَقْنَعَهُم بمَا أُوتِي. وتَقَدَّم الكَلاَم عِن مِثله فِي ٱلخُطْبَة (١١٤) وٱلرِّسَالَة (٢٢)، وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: «تَقَدَّم شَرح مِثل هَذَا الكَلاَم، وَهَذَا مَعْنىٰ مَطرُوق، وَقَد قَالَ

النَّاس فِيهِ فَأَكثَرُوا»(١). أَجْل، ولكنْ ذَم الدُّنْيَا والتَّحْذِير مِنْهَا عِند الإِمَـام عِـبَادة تَمَاماً كَالصَّلاة.

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبلاَغَة: ١٨/٦٠. وزَاد ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، قَول الشَّاعر ٱبن عَبْدَل الأَسدي:

قَد يُـرزَق العَـاجِز الضَّـعِيف ومَـا ... شَـدَّ بَكُـورُ رَحْـلاً ولاَ قَـتَبَا

نَسَبهَا صَاحب الأَغَاني: ١٥/٢١ طَبْعَة سَاسي، إِلَىٰ حَكَم بن عَبْدَل الأَسدي، وهُو مِن شُعرَاء الْدَّوْلَة الأُمويَة. أُنظر، تَرجَمته وأَخْبَاره فِي الأَغاني أيضاً: ٢/١٤٤، مُعجم الأُدباء: ١٠/٢٢٨.

الرسالة ٧٣

أيضاً إلىٰ مُعَاوِيَة:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي عَلَىٰ التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ ، وَ الِاسْتِمَاعِ إِلَىٰ كِتَابِكَ ، لَمُوَهِّنٌ رَأْيِي ، وَ مُخَطِّئٌ فِرَاسَتِي . وَ إِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ وَ تُرَاجِعُنِي السُّطُورَ ، كَالْمُسْتَثْقِلِ النَّائِمِ تَكْذِبُهُ أَحْلَامُهُ ، وَ الْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ ، لَا يَدْرِي أَ لَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ ، وَ لَسْتَ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ . وَ أُقْسِمُ بِاللهِ إِنَّهُ لَوْ لَا بَعْضُ الِاسْتِبْقَاءِ ، لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعَظْمَ ، وَ تَهْلِسُ اللَّحْمَ ! وَ اعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ ، وَ تَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ ، وَ السَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

اللُّغَة:

التَّرَدُّدِ: التَّرْدَاد . وتُحَاوِلُنِي : تُطَالِبَنِي أو تُحَاول أنْ أُلَبيك . ويَبْهَظُهُ : يَثْقُله . والقَوَارِعُ : الشَّدَائِد . وتَهْلِسُ : تَضْعَف . وثَبَّطَكَ : أَخَّرَك أو مَنْعَك .

الإِعْرَاب:

رَأْيِي مَفْعُول مُوَهِّنٌ ، وفِرَاسَتِي مَفْعُول مُخَطِّئٌ ، والسُّطُورَ مَنْصُوبة بِنَزْعِ الخَافِض

أي بِالسُّطُور، وكَالْمُسْتَثْقِلِ خَبَرَ إِنَّكَ، وأَلَهُ مَا يَأْتِي، «لَهُ» خَبَر مُقَدم و«مَا» مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وغَيْرَ نُصب عَلىٰ الإِسْتِثنَاء.

الْمَعْنَىٰ:

عِدنَا إِلىٰ أَجوبَة الإِمَام عَن رَسَائِل مُعَاوِيَة «وَعَادَتْ حَالَهُ الرَّاكِدَة» وهَذِه ٱلْرِّسَالَة الرَّابعَة عَشرَة، ولكنْ لاَ حَيَاة لِمَن تُنَادِي[1]، ولِذَا كَتَب إِلَيْهِ جَوَاباً عَن بَعْض مَا سَطَّر: (فَإِنِّي عَلَىٰ التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ، وَ الاِسْتِمَاعِ إِلَىٰ كِتَابِكَ). لَقَد أَكْثَرتُ مِن قِرَاءَة الكَلاَم فِي جوَاب رَسَائِلك، وأَرَانِي مُشْتَبِهاً فِي ذَلِكَ، لأَنِّي أُخَاطب جِدَاراً بِلا قَلْب وسَمع. وبِتَعبِير آبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «أَنَا لاَئِمٌ نَفْسي عَلىٰ أَنِّي أُكَرر تَارَةً بَعد تَارَة أَجوبَتك عَمَّا تَكْتُبه... كَيف وإِنَّ الطَّلِيق المَعدُود مِن المُؤَلَفه قُلُوبهمْ، المُكذب بِقَلْبه وإِنْ أَقرَّ بِلسَانه، النَّاقص المَنزِلة عِند المُسْلِمين، القَاعِد فِي أُخريَات الصَّف، إِذَا دَخَل إِلىٰ مَجْلس فِيهِ أَهْل السَّوَابق مِن الْمُهَاجِرين، كَيف يَخْطُر بِبَال أَحد أَنَّهَا ـ أي الْخِلاَفَة ـ تَصِير فيه...، ويَكُون لِلمُؤمِنِين أَمِيراً، ويَصِير هُو الْحَاكِم فِي رِقَاب أُولَئِكَ العُظَمَاء مِن أَهْل الدِّين والْفَضْل! وهَذَا أَعْجَب مِن العَجَب، أَنْ يُجَاهِد النَّبِيّ ﷺ قَوماً بِسَيفه ولِسَانه ثَلاَثاً وعشرِين سَنَة، ويَلْعَنهُم ويُبْعِدهُم عَنْه، ويَنزل

(١) وفِي هَذَا الْمَعنىٰ قَالَ الشَّاعر حَمِيد بن ثُور الهِلالي، كَمَا جَاء فِي مُعجم البُلدان: ٤٢٧/٥، وقِيل: لِخَدَاش بن زُهير بن رَبِيعَة بن عَمرو بن عَامر بن صَعْصَعة، كَمَا جَاء فِي التَّأرِيخ الكَبِير: ٢٧١، وأَخْبَار الدَّوْلَة العَبَاسِّية: ٣٢١، والشِّعر والشُّعراء: ٢/٥٤٠، خزَانة الأَدب: ٣/٢٣٠.

لَقَد أَسْمعتَ لَو نَاديت حَيَّاً ... وَلَكِنْ لاَ حَيَاة لِمَن تُنَادِي
ونَارٌ لَو نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءت ... وَلَكِنْ أَنْتَ تَنفُخ فِي رَمَادِ

الْقُرْآن بِذَمِهِم ولَعْنِهِم، والبَرَاءة مِنْهم، فلمَّا تَمَهدَت لهُ الدَّوْلَة.... فَتسلَّمها مِنْهُم أُولَئِكَ الأَعْدَاء الَّذِين جَاهدَهُم النَّبيّ ﷺ فَملكُوها وحَكَموا فِيهَا، وقَتَلُوا الصُّلحَاء والأَبرَار... فَلَيتَهُ كَان يُبْعث فَيَرىٰ مُعَاوِيَة الطَّلِيق وابنَه، ومَروان وابنَه خُلَفَاء فِي مَقَامه، يَحْكمُون عَلىٰ المُسْلِمِين، فَوَضح أنَّ مُعَاوِيَة فِيما يُرَاجِعَه ويُكَاتبه بِهِ، كصَاحِب الأَحْلاَم»[1].

(وَ إِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ وَ تُرَاجِعُنِي السُّطُورَ... غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ). المُرَاد بِالأُمُور هُنا وِلاَيَة الشَّام، والنَّص عَلَيْهِ بِوِلاَيَة العَهد، والمَعْنَىٰ إنَّك يَا مُعَاوِيَة تَلف وتَدُور، وتَكتُب السُّطُورَ لَعَلَّكَ تَجد عِنْدِي أُمْنِيّتك، وقد زَجَرتُك وحَذرتُك فَلَم تيأَس... وإِنْ دَلَّ هَذَا عَلىٰ شَيء فإنَّما يَدل عَلىٰ أنَّ شَهوة السِّيطَرَة والحُكم قَد أَعْمَت قَلبَك، وحَطْمَت أَعْصَابك حَتَّىٰ صِرتَ كَالنَّائِم نوماً عَمِيقاً، وقَد رَأىٰ فِي مَنامَه أنَّه نَال مَا تَمنَي... حَتَّىٰ إذَا اسْتيقَظ لَمْ يَجد شَيْئاً فَطار صوَابه، وفَقَد رُشده، أو كَالقَلق التَّائِه المَضْرُوب عَلىٰ رَأسه يَقول ويَفعل، ولاَ يَدري: هَل الَّذي حَدَث مِنْهُ خَيرٌ أو شَرٌ، لَعْنَة عَلَيْهِ أو رَحْمَة لهُ؟ (وَ لَسْتَ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ) أي مَا أَنْتَ كَذَلِكَ حَقِيقَة، ولَكنَّك شَبِيهٌ بِالنَّائِم والمُتَحَيِّر.

(وَ أُقْسِمُ بِاللهِ إِنَّهُ لَوْ لَا بَعْضُ الِاسْتِبْقَاءِ... إلخ). لَو أَردتُ القَضَاء عَلَيْك لفَعَلتُ، ولَدَي أَكْثَر مِن وَسِيلة لهَذه الغَايَة، ولكنْ أَدْع الأُمُور تَأخذ مَجرَاها (وَ اعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ... إلخ). تَقَمَّص رُوحَك وجِسْمك، ولَمْ يَبق فِيك أي أَمل لِلْخَيْر والهِدَايَة. ولاَ تَضر بِذَلِكَ أَحداً سِوَاك.

---

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: ١٨/٦٤.

الرسالة ـ٧٤ـ

بَيْنَ رَبِيعَةُ والْيَمَن:

هَذَا مَا ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَ بَادِيهَا، وَ رَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَ بَادِيهَا، أَنَّهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَ يَأْمُرُونَ بِهِ، وَ يُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَ أَمَرَ بِهِ، لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً، وَ لَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلًا، وَ أَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَ تَرَكَهُ، أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ، وَ لَا لِغَضَبِ غَاضِبٍ، وَ لَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْماً، وَ لَا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً، عَلَىٰ ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَ غَائِبُهُمْ، وَ سَفِيهُهُمْ وَ عَالِمُهُمْ، وَ حَلِيمُهُمْ وَ جَاهِلُهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللهِ وَ مِيثَاقَهُ: ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾[1].

وَ كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

اللُّغَة:

الْحَاضِر: سَاكِن الْحَضَر. والْبَادِي: سَاكِن الْبَادِيَة. والمَعْتَبَةِ: الْمَلَامَة.

---

(١) ٱلأَحْزَاب: ١٥.

الإِعْرَاب:

هَذَا مُبْتَدَأ، ومَا اجْتَمَعَ خَبَر، والْمَصْدَر مِن أَنَّهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ بَدَل مِن «مَا» وعَلَىٰ كِتَابِ اللهِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً لأَنَّهُمْ، وبَعْضُهُمْ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وأَنْصَارٌ خَبَر مُقدَم، ولِبَعْضٍ مُتَعَلِّق بِأَنْصَار، وَأَصْل الكَلاَم بَعْضُهُمْ أَنْصَار لِبَعْضٍ.

الْمَعْنَىٰ:

(هَذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَ بَادِيهَا... إلخ). كُلّ البطُون الّتي تَنْتَهِي إلىٰ قَحْطَان بن عَامِر تُسمّىٰ الْيَمَن، والّتي تَنْتَسب إلىٰ رَبيعَة بن نزار رَبيعَة، وكَان بَيْنَهُمَا حُرُوب وأَضْغَان فِي الْجَاهِلِيَّة، فَأَلَّف بَيْنَهُما الإِسْلاَم، وتَأكدَت هَذِه الأُلفَة عَلىٰ يَد الإِمَام، وكَتَب بَيْنَهمْ هَذَا الْعَهْد، ومَضمُونه أنْ يَكُونوا يَداً وَاحِدة فِي نُصرَة الإِسْلاَم، والدَّعْوَة إِلَيْهِ، والْعَمَل بهِ، وأَنْ يَقفُوا صَفّاً وَاحِداً بِقُلُوبِهِمْ وَسُيُوفِهِم مَع مَن يَدعُو إلىٰ الإِسْلاَمِ، والْحَقِّ ويَأمر بِهِ، ويُدَافع عَنْه كمَا قَالَ: (وَ يُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَ أَمَرَ بِهِ) وكَأنَّه يَعْنِي بِهَذا نَفْسه الشَّرِيفَة، لِأَنَّهَا أَظْهَر، وأَكْمَل مَن يَنْطَبق عَلَيْهِ هَذَا الوَصف بَعْد رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله.

(لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً، وَ لَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلًا... إلخ). قَلِيلاً ولاَ كَثِيراً، وَيتْعَاونُون عَلىٰ الوَفَاء بِهَذا العَهْد، ويُقَدسُونه قَولاً وعَملاً حَتَّىٰ ولَو عَتَب وَاحِد مِنْهُم عَلىٰ الآخر، أو غَضِبَ عَلَيْهِ، أو ظَلَمَهُ، لأنَّ هَذِه الأُمُور تَحدَث بَيْنَ الأَرْحَام والأَصْدِقَاء، وَيَتعَذَر الاِجتنَاب عَنْهَا ـ فِي الغَالِب ـ ويُمكن تَسْوِيتها بِالحُبّ والسِّلم بِلا حَرْبٍ وضَرب (عَلَىٰ ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَ غَائِبُهُمْ، وَ سَفِيهُهُمْ وَ عَالِمُهُمْ، وَ حَلِيمُهُمْ وَ جَاهِلُهُمْ). هَذَا الْعَهْد يَعم ويَشمل الْجَمِيع بِلا اسْتِثنَاء... وَلَيْس لِلغَائِب أَنْ يَرد،

وللجاهِل أنْ يَختَار، ولِلعَالم أنْ يَتأوَّل، ولِلحَلِيم أنْ يَتجَاهل (ثُمَّ إِنَّ عَـلَيْهِمْ بِـذَلِكَ عَهْدَ اللهِ وَ مِيثَاقَهُ) هَذَا الْعَهْد فِي عُنُقِهِم، وهُم وَحدَهُم المَسْئُولُون عَن الوَفَاء بِهِ أمَام الله، والنَّاس، ولاَ يَسمَع عُذر مِن مُتعَلل.

الرسالة الخامسة والسبعون

-٧٥-

أيضاً إلىٰ مُعَاوِيَة:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ، وَ إِعْرَاضِي عَنْكُمْ، حَتَّىٰ كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَ لَا دَفْعَ لَهُ؛ وَ الْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَ الْكَلَامُ كَثِيرٌ، وَ قَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ، وَ أَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ. فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ، وَ أَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ. وَ السَّلَامُ.

الْمَعْنَىٰ:

هَذِه هِيَ ٱلرِّسَالَة الخَامِسَة عَشرَة والأَخِيرَة بِالنِسبَة إِلىٰ تَرتِيبهَا وتَدوِينهَا فِي «نَهْج ٱلبَلاَغَة. وقَد كَتَبهَا الإِمَام يَوْم بُويع بِالخِلاَفَه، وٱبتَدأها بِقَوْله: (مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ) أَيَّامَ عُثْمَانَ بِالنُّصح لهُ أَنْ يَرجَع عَن أَخْطَائِه، وبِالدِّفَاع عَنْه حِين حُوصر بِنَفْسِي وَبِولَديّ الْحَسَن، والحُسَيْن (وَ إِعْرَاضِي عَنْكُمْ) أي عَن إِسَاءَاتكُم المُتَكَرِّرة إِليَّ وإِلىٰ غَيْرِي.

(حَتَّىٰ كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ) مِن قَتْل عُثْمَانَ (وَ لَا دَفْعَ لَهُ) مِن إِجْمَاع الْصَّحَابَة عَلىٰ مُبَايعتِي بِالْخِلَافَة ومَعَهُم جُمْهُور الْمُسْلِمِين إلّا مَن شَذَّ، وأَنْتَ وكُلّ النَّاس يَعْلَمُون أَنِّي رَفَضْت ومَانَعت، وَقُلت لَهُم فِيما قُلت: «دَعُونِي وَ ٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ، وَ أَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَ لاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَ إِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَ الْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَ ٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَ لَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ الْقَائِلِ، وَ عَتْبِ الْعَاتِبِ، وَ إِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَ لَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ، وَ أَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[١]. (وَ الْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَ الْكَلَامُ كَثِيرٌ) فِيكُم وفِي عُثْمَانَ يَا بَني أُمَيَّة (وَ قَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ) ولاَ جَدوىٰ مِن الكَلاَم عمّا أَصْبَح فِي خَبَر كَان، فَلْنَدع حِساب لله وَحدَه (وَ أَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ) الْمُهم الْحَاضِر، والْمُسْتَقْبَل، وإِصْلاَح الْمُسْلِمِين، والْقَضَاء عَلىٰ الْفِتَن بِاجْتِمَاع الشَّمل وتَوحِيد الكَلِمَة.

وذَلِكَ بِأَنْ تُبَايِعْنِي، وتَأْخُذ لِي الْبَيْعَة مِن أَهْل الشَّام كَما فَعل الْصَّحَابَة، وجُمْهُور الْمُسْلِمِين حَتَّىٰ نَعْمَل يَداً وَاحدة بِمَا للهِ فيهِ رِضىٰ، وهٰذه الأُمَّة خَيرٌ وصَلاح (وَ أَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ) بِرُوح صَادقة لاَ غُش فِيها ولاَ طَمع، ونِيَّة خَالِصَة لله وعِبَاده. قَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «... وَكَيْف يُبَايع ـ مُعَاوِيَة ـ وَعَيْنُه طَامِحَة إِلىٰ الْمُلك والرِّيَاسَة مُنذ أَمّرَه عُمَرَ عَلىٰ الشَّام؟»[٢].

وَلَيْسَ مِن شَكٍّ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ لَو كَان مَكَان عَليّ، ومُعَاوِيَة فِي وَضْعه مِن أَهْل الشَّام الَّذِين هُمْ أَطوَع إِلَيْهِ مِن نَعْله عَلىٰ حَد تَعْبِير ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد ـ لِفعل نَفس

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٩٢). (مِنهُ ﷺ).

(٢) أنظر، شَرح ٱلنَّهج: ٦٨/١٨.

الشَّيء الَّذي فَعْله مَع عَليّ بن أبي طَالب... بَل سَبق أنْ فَعلهَا هُو وأبُوه مَع الرَّسُول ﷺ فِي بَدْرٍ، وأُحدٍ، والأَحْزَاب(١).

١)أنظر، شَرح ٱلنَّهج: ١٨/٦٩. وزَاد ٱبن أبِي ٱلْحَدَيد: «وكَيف يُطِيع ـ مُعَاوِيَة ـ عَلِيّاً والمُحرضُون لهُ عَلىٰ حَرْبه عَدَد الحَصا! ولَو لَمْ يَكُن إلاَّ الوَليد بن عقْبَه لِكَفىٰ، وكَيف يَسْمَع ويُبَايع لهُ، ويَقدِم عَليهِ، ويُسلّم نَفْسه إليهِ وهُو نَازل بِالشَّام فِي وَسَط قَحطَان، ودُونه مِنْهم حرّة لاَ تُرَام، وهُم أَطوَع لهُ مِن نَعْله، والأَمر قَد أمْكَنه الشُّروع فيهِ، وتَالله لَو سَمِع هَذَا التَّحريض أجْبَن النَّاس، وأضْعَفهم نَفْساً، وأنْقَصهُم هِمّة لِحَركهُ وشَحَذ مِن عَزمه، فَكيفَ مُعَاوِيَة وعُتْبَة، وقَد أيَقَظ الوَليد بِشعرِه مَن لاَ يَنَام.

أَعُتْبَة حَـرّك مِـن أخِـيك ولاَ تَكُـن ... فَـــول الهُـــوَيْنَا إنْ أرَاد مُـــؤاتِـــيا
وإنَّك قَد آشْبَهت صَخْراً ومَـن يَكُـن ... شَبِيهـاً لهُ يُصبح عَـلىٰ النَّـاس عَـالِيا

وَقَالَ فِي قَصِيدة أُخرىٰ:

فَـــوالله مَـا هِـند بِأُمّك إنْ مَـضىٰ الـ ... نَّهَـــار ولَمْ يَـــثأر بِـعُثْمَان ثَـائِر
أيُـقْتَل عَـبد القَـوم سَـيّد أهْـله ... ولَمْ تَـــقْتلُوه، لَـــيت أُمّك عَـاقِر
ومَن عَـجبٍ أنْ بُتَّ بِـالشَّام وَادِعـاً ... قَـريراً وقَـد دَارَت عَـليهِ الدَّوائِـر!

أُنظر، الإسْتِيعَاب بهَامش الإصَابَة: ٣/٣٦٣، الفُتُوح لإبْن أعْثَم: ٢/٣٩٥، البدَاية والنّهَايَة: ٨/١٣٧.

الرسالة ٧٦

أيضاً لِابْن عَبَّاس:

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ، وَ مَجْلِسِكَ، وَ حُكْمِكَ، وَ إِيَّاكَ وَ الْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَ اعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ، وَ مَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ.

الْمَعْنَىٰ:

حِين أَسْنَد الْإِمَام وِلاَيَة الْبَصْرَة إِلىٰ عَبد الله بن عَبَّاس أَوْصَاه بقَوْله: (سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ) أي اَبسِط لَهُم وَجْهاً رَحِباً لاَ عَبُوس فيهِ، ولاَ قَطُوب (وَ مَجْلِسِكَ) تَوَاضع فِي جِلُوسِك كما تَتوَاضع فِي مَشِيك، وجَمِيع حَركَاتك (وَ حُكْمِكَ) أي اَعْدِل فِي حُكْمِك (وَ إِيَّاكَ وَ الْغَضَبَ) إلّا للهِ، والْحَقّ (فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) والطِّيْرَة ـ بِكَسر الطَّاء ـ الخِفَة وعَدَم الثِّقل والوَزن، والْمَعْنَىٰ أَنَّ الْإِنْسَان عِند الغَضَب يَصِير أُلعُوبَة بِيَد الشَّيْطَان يَملكُه ويَتمكَن مِنْهُ، ولاَ يَدع لهُ قوَّةً، ولاَ عَقْلاً، ولاَ إِرَادةً (أَنَّ مَا

قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ) . وَهَذَا مِن البَدَاهة بِمكان تَمَاماً كَقَولِك : كُلَّمَا تَقَدَّمتَ فِي العِلم بَعُدت عَن الجَهْل ، ولاَ يَحتَاج إِثْبَاته إلىٰ قِيَاس مُؤَلف مِن صُغْرىٰ ، وكُبْرىٰ ، كمَا فَعَل بَعْض الشَّارحِين .

الرسالة ٧٧

لَا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ وَ يَقُولُونَ، وَ لَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً.

الْمَعْنَىٰ:

فِي شَرح ٱلْخُطْبَة (٤٠) فِقْرَة «مَوْقِف الْإِمَام مِن الْخَوَارِج» تَكَلمنَا عَنْهُم، وعَن أَهدَافهم، وأيضاً تَعْرضنَا لَهُم فِي شَرح ٱلْخُطْبَة (١٢٥) وغَيْرها. وَكَان الْإِمَام يَأبىٰ قِتَال الْخَوَارِج إلّا بَعْد ٱليَأس، وآثَر أنْ يَلقَاهُم مُجَادِلاً، لاَ مُجَالِداً، وَخَرج إلَيْهِمْ فِي ذَات يَوْم، وَقَالَ لَهُم: «ٱخْتَارُوا رَجُلاً يَسْأَلُني وأنَا أُجِيب، ومَن لَزِمَته الحُجَّة ٱعْتَرَف وتَاب. فٱخْتَارُوا إمَامهُم ٱبن الكوّاء[1]، فَكَوّاه، وأَلقمه حَجَراً، ولكنّهم

(١) هُو عَبدالله بن عَمرو مِن بَني يَشكر وكَان نَاسِباً، عَالِماً كَبِيراً، وفيهِ يَقول مَسْكِين الدَّارمي:

هُـلمّ إِلىٰ بَني الكَوّاء تَقضُوا ... بُحكمهُم بأَنْسَاب الرِّجالِ

وقِيل لأبِيه: الكَوّاء لأنّه كَوِّي فِي الجَاهِليّة، وهُو زَعِيم المُحَكّمَة الأُولىٰ أو المُحَكّمِية وهِي أَوّل فرقَه مِن الخَوَارِج وهُو زَعِيمَهُم، وكَان دِينهُم تَكفِير عليّ وعُثْمَان، وأَصْحَاب الجَمَل والمُحكّمِين، وأنّهم جَوّزوا أنْ تَكُون الإمَامة فِي غَيْر قُرَيْش. وقِيل: إنّ أَمِيرهُم لِلقتَال شِبث بن رَبعي، وأَمِير الصَّلاة عَبدالله بن الكَوّاء،

↔ والأمر شورىٰ، والبَيْعَة لله والأمر بالمَعْرُوف والنَّهي عن المُنْكر. (أنظر، المعَارف لابْن قُـتَيْبَة: ٥٣٤، مُعجم البُلدان: ٢١٤، المِلل والنِّحل: ١/١٠٦، تَأريخ الطَّبَري: ٦/٣٥، و: ٤/٤٦ طَبْعَة أُخرىٰ، الفُتُوح لابْن أعثَم: ٢/٢٥١، شَرح النَّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ٢/٣٠، الكَامِل للمُبرّد: ٥٩٥، الطَّبقات لِابْن سَعد: ٥/١٨٢ مروج الذَّهب: ٢/٤٠٥، الكَامِل لِابْن الأثِير: ٣/٣٢٦، المِعيَار والموَازنة: ١٨٧، كَشف اليَقِين: ١٦٢).

ووَرد فِي شَرح ٱلنَّهج لِلعلاَّمة الخُوئِي: ٤/١٢٣ عَن أنَس بن عيَّاض المَدنِي عَن جَعْفر بن مُحَمَّد عن أبيه عَن جَدّه عليه السلام أنَّ عَلِيّاً كَان يَوماً يَومَ النَّاس وهُو يَجْهَر بِالقِرَاءة فَجَهر ٱبن الكَوَّاء مِن خَلفَه ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ٱلزُّمر: ٦٥ فَلمَّا جَهر ٱبن الكَوَّاء مِن خَلفَه بِها سَكَت عَليّ عليه السلام فَلمَّا أنْهاها ٱبن الكَوَّاء أعَاد عَليّ عليه السلام فَأتَمّ قِرَاءته. فَلمَّا شَرع عَليّ عليه السلام فِي القِرَاءة أعَاد ٱبن الكَوَّاء الجَهر بِتِلك الآيَة فَسكت عَليّ عليه السلام فَلم يَزَالا كَذَلِك يَسْكت هَذَا ويَقرأ هَذَا مِراراً حَتَّىٰ قَرأ عَليّ عليه السلام ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ٱلرُّوم: ٦٠ فَسكَت ٱبن الكَوَّاء وعَاد عَليّ عليه السلام إلىٰ قِرَاءته. نَعُوذ بِالله مِن حمَاقة هَؤُلاَء القَوم، ومِن جُرأتهم عَلىٰ أمِير المُؤمِنِين وخَلِيفَة وَصيّ رَسُول الله وٱبن عَمّه وصِهره وحُجَّة الله عَلىٰ أرْضه. وذَكر فِي كَشف اليَقِين: ١٦٣ وغَيْره أنَّ ٱبن الكَوَّاء بَعد مُحَاججة الإِمَام عَليّ عليه السلام فِي قِصَّة أُخرىٰ رَجع هُو وأصْحَابه العَشرَة عَن دِين الخَوَارِج، وبَعد ذَلِكَ أمَّروا الخَوَارِج عَليهِم عَبدالله بن وَهب الرَّاسبي، وحَرقُوص بن زُهير البَجلي المَعْرُوف بِذي الثَّدية وعَسكَرُوا بِالنَّهرَوَان....وذَكر ذَلِكَ فصاحب الفُتُوح: ٢/٢٥٢ و٢٥٩، والإمَامة والسِّيَاسَة: ١/٩٨ و٩٩ و١٢٧ و١٤٩ و ١٥٠، وتَأريخ دِمشق: ٧/٢٩٧، والاشتِقاق لِابْن دُريد: ٣٤٠، وبحَار الأنْوار: ٨/٦٠٠.

ثُمّ خَرج عَليّ عليه السلام فِي أثَر عبدالله بن عَبَّاس فَانْتهىٰ إلَيْهِمْ وهُم يُخَاصِمُونه وهُو يُخَاصِمهم، فَقَال لَهُ عَليّ عليه السلام: ألَمْ أنْهك عَن كَلاَمِهم؟ أنظر، تَأرِيخ الطَّبَري: ٤/٤٧ بِلَفظ «ألَم أنْهك رَحمك الله». وقِيل: قَالَ لَهُ عليه السلام: ٱنْته عَن كَلاَمِهم.

ثُمّ قَالَ لَهُم عَليّ عليه السلام: مَن زَعِيمكُم؟ قَالُوا: عَبدالله بن الكَوَّاء. فقَال لَهُم: عَليَّ بِهِ، فَلمَّا حَضَر قَالَ لَهُ عَليّ عليه السلام: مَا أخرَجَكُم عَلينا هَذَا المَخرَج؟ قَالُوا: حكُومَتكُم يَوم صِفِّين، فقَال لَهُ عَليّ: أنشدكُم الله تَعَالىٰ ألَم أقُل لَكُم حِين رَفعُوا المصَاحف: أنَا أعْلَم بِالقَوم مِنكُم، إنَّهم ٱستَحر بِهِمُ القَتل، وإنَّمَا رَفعُوها خَدِيعَةً ومَكِيدَةً لَكُم لِيَفتنُوكُم ويُثَبِّطوكُم عَنْهُم ويَقطعُون الحزب ويَتَربَّصُون بِكُمُ الدَّوائِر (وَذكر لَهُم جَمِيع مَا كَان فِي ذَلِكَ ↔

(اليَوم) فَلم تَسمعُوا مِنّي، وآشتَرطتُ عَلىٰ الحَكمِين أنْ يُحيِيا مَا أَحيا القُرآن ويُمِيتا مَا أمَات القُرآن، فإنْ حَكمَا بِحُكم القُرآن فَلَيْس لنَا أنْ نُخالفه، وإنْ أبيا فَنحن مِن حُكمهِما بُرَاء.

أُنظر، تَأريخ الطَّبَري: ٤/ ٤٨، وَالمحاورة الَّتي دَارت بَيْن الإِمَام عَليّ عليه السلام وعَبدالله بن الكَوّاء فِي كَشف اليَقِين فِي فَضَائِل أَمِير المُؤمِنِين لِابْن المُطهّر الحِلّي: ١٦٢ و١٦٣ وقَارن بَيْنَهَا وبَيْن مَا مَوجُود فِي الطَّبَرِي وغَيْره، مِثل تَذكرة الخوَاصّ: ٩٢، شَرح النَّهج لِابن أبِي الحَدِيد: ٢/ ٢٧٤، وشَرح النَّهج لِلعلاَّمة الخُوئي: ٤/ ١٢٧. ونَظراً لِكثرَة المصَادر وكَثرة الإختِلاَف فِي بَعض الأَلفَاظ نَنقُل مُناظرة الإمَام عَليّ عليه السلام مَع الخوَارِج وخَاصّة آبن الكَوّاء جَمعَاً بَيْن المصَادر ولكنْ بِتصرف مِنّا.

لمّا خَرج عَليّ عليه السلام بَعد مُناظرَة آبن عبَّاس لَهُم وَقف عليه السلام بِإزَائِهم وَقَالَ: مَن زَعِيمكُم؟ قَالُوا: آبن الكَوّاء. فقَال عَليّ عليه السلام: فَمَا الَّذي أَخرَجكُم عَلينا؟ قَالُوا: حكُومَتكُم يَوم صِفّين. فقَال لهُم: نَاشَدتكُم بِالله، أمَا قُلتُ لَكُم يَوم رَفعُوا المصَاحف: لاَ تُخالفُوني فِيهِمْ؟ قُلتُم: نُجِيبهُم إلىٰ كتَاب الله. فَقلتُ: إنّما رَفعُوها مَكِيدة وخَدِيعة، فَقُلتُم: إنْ لَمْ نُجب إلىٰ كتَاب الله قَتلنَاك أو سَلّمنَاك إليهم. فَلمّا أَبيتُم إلاّ الكتَاب آشتَرطتُ عَلىٰ الحَكمِين أنْ يَحكمَا بكتَاب الله، فإنْ حَكمَا بِغَير حُكم الله، والقرآن فَنحن بُرَاءُ مِنْهُم. فقَالُوا: فَكِيف حَكّمت الرِّجَال؟ فقَال: والله مَا حَكّمت مَخلُوقاً، وإنّمَا حَكّمت القُرآن، لأنّ القُرآن هُو خَطّ بَين الدَّفّتِين لاَ يَنطق، وإنّمَا يَنطق بِهِ الرِّجَال. فقَالُوا: صَدَقت وكَفرنَا لمّا فَعلنا ذَلِكَ، وقَد تُبْنَا مِنْهُ إلىٰ الله فَتُب كَمَا تُبْنَا نُبَايعك وإلاّ قَتلْنَاك...

وَقَالَ الشَّارح المُعتَزلي: قَالَ لَهُم: أَلاَ تَعلمُون أنَّ هَؤُلآء القَوم لمّا رَفعُوا المصَاحف قُلت لَكُم: إنّ هَـذِه مَكِيدة ووَهن وإنّهُم لَو قَصدُوا إلىٰ حُكم المصَاحف لأتُوني وسَألوني فِي التَّحكِيم، أفَتعلمُون أنّ أحداً كَان أكرَه للتَّحكِيم مِنّي؟ قَالُوا: صَدَقت. قَالَ: فَهل تَعلمُون أنّكُم آستَكرَهتمُوني عَلىٰ ذَلِكَ حَتّىٰ أَجبتكُم إلِيه فَآشتَرطتُ أنّ حُكمهُما نَافذ مَا حَكمَا بِحُكم الله فَمَتىٰ خَالفَاه فَأنَا وأَنتُم مِن ذَلِكَ بُرَاء، وأَنتُم تَعلمُون أنّ حُكم الله لاَ يَعدُوني؟ قَالُوا: أَللّهُمَّ نَعَم. فقَالُوا لهُ: حَكّمت فِي دِين الله بِرأينا وعَنْه مقرّون بِأنّا كُنّا كفرنا، ولكنّا الآنْ تَائبُون، فَأقرّ بِمِثل مَا أَقررنَا بِهِ وَتُب نَنهَض مَعك إلىٰ الشّام. فقَال: أمَا تزعَلمُون أنّ الله تَعَالىٰ قَد أَمَر بِالتَّحكِيم فِي شقَاق بَيْن الرَّجُل وأمرَأته فقَال سُبحَانه وَتعَالىٰ ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ ٱلنِّسَاء: ٣٥، وفِي صَيد أُصيب أرنب يُسَاوي نِصف دِرهم فقَال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؟ ٱلْمَائِدَة: ٩٥.

↔ فَقَالُوا لهُ: فإنَّ عمراً لمَّا أبىٰ عليك أنْ تقول في كتابك «هَذَا مَا كتبه عبدالله عليّ أمِير الْمُؤمِنِين» محوت أسمك مِن الخِلاَفَة وكتبت «عليّ بن أبي طالب» فَقد خلعتَ نفسك. فقَال: لِي فِي رَسُول الله ﷺ أُسوة حِين أبىٰ عَليْهِ سُهيل بن عمرو أنْ يَكتب: هَذَا كتَاب مُحَمَّد رَسُول الله ﷺ وسُهيل بن عـمرو، وقَـالَ لهُ: لَـو أقررت بِأنَك رَسُول الله مَا خَالفتُك، ولكنْ أُقدمك لِفَضلك، فاكتُب: مُحَمَّد بن عَبدالله. فقَال لِي: يَا عَليّ، امْحُ رَسُول الله. فَقلتُ: يَا رَسُول الله: لاَ تُشجعني نَفسي عَلىٰ مَحو أسمك مِن النُّبوّة. قَالَ: فَقضىٰ عَلَيْهِ فمحاه بِيده، ثُمَّ قَالَ: أكتب مُحَمَّد بن عَبدالله، ثُمَّ تبسّم إليّ وقَالَ: يَا عليّ، أمَا إنَّك ستُسام مِثلها فتُعطىٰ. فَرجع مِنْهُم ألفان مِن حروراء، وقَد كَانوا قَد تجمّعوا بِها، فقَال لهُم عَليّ عليه السلام مَا نُسمّيكم؟ ثُمَّ قَالَ: أنْتم الحَرُورِيّة لاجتماعكم بحروراء.

أنظر، المصَادر السَّابقة وتَذكرة الخـوَاصّ: ٩٦، وشَرح ٱلنَّهج لابْـن أبِي ٱلْحَـدِيد: ٢ / ٢٧٤ و ٢٨٠ و٢٨٢، وشَرح ٱلنَّهج للعلاّمَة الخُوئي: ٤ /١٢٧ و ١٢٨، المُصَنَّف لعَبد الرَّزاق: ١٠ /١٥٧، وجَامع بَيان العِلم وفَضله: ٢ /١٠٣، والحَاكِم فِي المُستَدرَك: ٢ / ١٥٠، ومنَاقب آبن المغَازلي: ٤٠٦، والمُسترشد فِي إمَامَة أمِير المُؤمِنِين عليه السلام: ٣٩٠، والهَامش رَقم «١»، والفُتوح لاِبْن أعْثَم: ٢ /٢٥٢.

فقَالُوا: «أُخبرنا عَن عَمرو أتَراه عَدْلاً حَتَّىٰ تُحكِّمه فِي الدِّماء؟ أنظر، تَارِيخ الطَّبَري: ٤ /٤٨، الإرْشَاد: ١ /٢٧١.

قَالَ: إنَّما حَكّمت القُرآن، وهَذَا القُرآن إنّما هُو خطّ مَسطُور بَيْنَ دَفتين لاَ يَنطق إنّما يَتكلّم بِهِ الرِّجَال. فقَالُوا فأخبرنا عَن الأجل لِمَ جَعلته فِيما بَيْنك وَبَيْنهُم؟ قَالَ: لِيَعلم الجَاهِل ويَتثبّت العَالم ولَعلّ الله عزّ وجلّ أنْ يُصلح الأُمّة فِي هَذِه الهُدنَة هَذِه المُدة ويُلهمها رُشدها.

قَالُوا: فَأخبرنَا عَن يَوم كَتبتَ الصَّحِيفة إذْ كَتَبَ الكَاتب: هَذَا مَا تقَاضىٰ عَلَيْهِ أمِير الْمُؤمِنِين عَليّ بن أبي طالب ومُعَاوِيَة بن أبي سُفيَان، فأبىٰ عَمرو أنْ يَقبل مِنك أنّك أمِير المُـؤمِنِين، فَمحوت أسمك مِـن إمـرَة الْمُؤمِنِين فَقلتَ للكَاتِب: أكتب هَذَا مَا تَقاضىٰ عَلَيْهِ عَليّ بن أبي طالب ومُعَاوِيَة بن أبي سُفيَان. فإنْ لَم تَكُن أنْتَ أمِير الْمُؤمِنِين ونَحنُ المُؤمِنُون فَلست بِأمِير، فقَال عَليّ عليه السلام: يَا هَؤلاَء أنَا كُنت كَاتب رَسُول الله ﷺ يَوم الحُدَيبيَة، فقَال النَّبي ﷺ: أكتُب: هَذَا مَا اصْطَلح عَلَيْهِ مُحَمَّد رَسُول الله وسُهيل بن عَمرو، فقَال سُهيل: لَو عَلمنا أنّك رَسُول الله مَا صَددنَاك ولاَ قَاتلنَاك، فَأمرني رَسُول الله فَمحوت أسمه مِن الكتَاب وكَتبت: هَذَا مَا اصطَلح عَلَيْهِ مُحَمَّد بن عبدالله. وإنّما مَحوت أسمي مِن إمرَة الْمُؤمِنِين كَمَا مَحا رَسُول الله اسمه مِن الرِّسَـالة، ↔

أَصرُوا عَلَىٰ العِنَاد، وأيضاً بَعث إِلَيْهِمْ آبن عَبَّاس لِيُنَاظِرَهُم، ويَأخذ عَلَيْهِمْ بِالحُجَّة وَقَالَ لهُ:

(لَا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ) «ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاٰ تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، وَلاٰ تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ، وَلاٰ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إلاَّ بِهِ» كما وَصَفه الإِمَام فِي آلْخُطْبَة (١٨)، وقَد رَأينا جَمَاعَة مِن شيوخ الفِقْه ومذاهِبه يَسْتَدلون بِآيَة مِن آي الذِّكر الحَكِيم عَلىٰ وجُوب فِعل مِن الأَفعَال، وآخرين بِالآيَة نَفْسها عَلىٰ عَدَم الوجُوب، كَالآيَة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، الوَارِدة فِي الوضُوء، والآيَة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

← فكَان لِي بِهِ أُسوة فَهل عِندكم شَيء غَيْر هَذَا تَحتجّون عَلَيَّ بهِ؟ فَسكَتوا. اُنظر، تَأريخ الطَّبَرِي: ٤ / ٤٨ بإختلاف يَسير فِي اللَّفظ، وكَشف اليَقِين: ١٦٤، تَذكرة الخَوَاصّ: ٩٥، مروج الذَّهب: ٢ / ٤٠٤، شَرح النَّهج للعلّامة الخُوئي: ٤ / ١٢٦، الكَامِل لإبن الأثِير: ٣ / ٣٣٤، خَصَائِص أَمِير المُؤْمِنِين للنّسائي: ١٥٠، دَلائل النُّبوّة للبَيهقي: ٤ / ١٤٧، المَنَاقب للخوارزمي: ١٩٢، الكَامِل فِي التَّأريخ: ٢ / ٢٠٤، شَرح آلنَّهج لإبْن أَبِي آلحَدِيد: ٢ / ٢٣٢، و: ١٠ / ١٤٧، الإِرْشَاد للشَّيخ المُفيد: ٦٣، مَجْمَع البَيَان: ٥ / ١١٩، البِدَاية والنّهاية: ٧ / ٢٨٧، الأَغَاني: ٥ / ٩، ينَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ٢٠ ـ ٢١، وَقْعَة صِفِّين: ٥١٧ قَرِيب مِن هَذَا اللَّفظ.

فقَال هُم: قومُوا فَآدخلُوا مِصركم يَرحَمكُم الله. قَالُوا: نَدخُل ولكنْ نُريد أنْ نَمكث مُدّة الأَجل الَّذي بَيْنك وبَيْن الحَكَمِين هَاهُنا لِيُجبىٰ المَال، ويُسمن الكرَاع ثُمَّ نَدخُل. فَآنصَرف عَنْهُم عَليّ عليه السلام وهُم كَاذبُون فِيمَا زَعمُوه قَاتلهُم الله.

(١) آلْمَائِدَة: ٦.

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّـهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَاجُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّـهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1]، الوَارِدة فِي تَحرِيم الزَّواج بِالنَّسبِ، والمُصَاهَرةِ، والرِّضَـاعة، إِلىٰ غَيْرِ هَاتِين مِن الآيَات.

(وَ لَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً) أي مَهْرَباً. قَالَ ٱبـن أَبِي ٱلْحَدِيد: «أَشَار بِهَذَا لِيَحتج عَلَيْهِمْ بِحَدِيث: يَدُور الْحَقّ مَع عَليّ كَيْفَما دَار»[2]. وحَدِيث: «أَللَّهُمَّ والِ من وَالاَه، وعَادِ مَن عَادَاه، وٱنصُر مَن نَصره، وٱخذُل من خَذلهُ»[3]. ونَحو ذَلِكَ مِن الأَخْبَار الّتِي سَمِعهَا الصَّحَابَة مِن فَمِ رَسُول الله ﷺ، وقَد

---

(١) ٱلنِّسَاء: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٧١/١٨، صَحِيح التِّرمِذي: ٢ /٢٩٨، طَبعَة بُولاق سَنَة ١٢٩٨ هـ. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) تَـقَدَّمَت ٱستخرَاجَاته، وأنظر، مُسْنَد أحمَد: ١١٨/١ و ١١٩، و: ٤ /٢٨١، سُنَن ٱبن مَاجه: ١١٦/٤٣/١، تَأريخ ٱبن كَثِير: ٢٠٩ و ٢١٠، تَأريخ ٱبن عساكر: ٢/ ٥٠٨/١٣ و ٥١٣ ـ ٥١٦ و ٥٢٣ و ٥٤٤ و ٥٦٢ و ٥٦٩ الطَبعة الأولىٰ بَيروت، يَنَابيع المَوَدَّة: ٢٤٩ طَبعة ٱسلامبول: ٢٩٧ طَبعة الحَيدرِية، كِفَاية الطَّالب: ٦٣ طَبعة الحَيدرِية: ١٧ طَبعة الغَري، المناقب للخوَارزمي: ٨٠ و ٩٤ و ١٣٠، نُظم دُرر السِّمطِين: ١١٢، كَنز العُمَّال: ٦/ ٤٠٣ الطَّبعة الأولىٰ، و: ١٥/ ١١٥/ ٣٣٢ و ٤٠٢ الطَّبعة الثَّانِيَة، أَنسَاب
⇔

بَقي مِنْهُم جَمَاعَة تَثبت بِهِمْ الحُجَّة»[(١)].

↔ الأَشْرَاف لِلبَلاذُري: ٢ / ١١٢، شوَاهد التّنزِيل: ١ /١٥٧/ ٢١١ و ١٩٢ / ٢٥٠.بشَارة المُصْطَفىٰ: ٣٢٨، شوَاهد التّنزِيل: ١/ ٢٠٣، تَذكرة الخواصّ لسبط أبن الجَوزي: ٣٠، السِّيرَة الحلبية: ٣/ ٢٥٧، السِّيرَة النَّبويّة لزين دَحلان بهَامش السِّيرَة الحَلبية: ٣/ ٣، الطّبقات الكُبرىٰ: ٣ / ٢٢٥، إمتَاع المقريزي: ٥١٠، إرشَاد السّاري: ٦ / ٤٢٩، تَأريخ الخُلَفَاء لِابْن الجَوزي: ٤/ ١٨، دَائرة المعَارف لفريد وجدي: ٣ / ٥٤٢، مجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٥٦، ثمَار القلُوب: ٥١١، أسْبَاب النّزول للوَاحدي: ١٣٥ الدُّر المَنثور: ٢ / ٢٩٨، فَتح القَدِير: ٢ / ٥٧، تَفسِير النَّيسابوري: ٦ / ١٩٤، مجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٠٥ و١٦٣ ـ ١٦٥، البدَاية والنّهاية لِابْن كَثير: ٢٠٩ ـ ٢١٣، رَبِيع الأبرَار للزَّمخشري: ١ / ٨٤ طَبعة بَغداد).

شَرح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١ / ٢٠٩ و ٢٨٩ الطّبعة الأولىٰ بِمصر، و: ٢ / ٢٨٩، و: ٣ / ٢٠٨ طَبعة مِصر تَحقِيق مُحَمَّد أبُو الفَضْل، إسعَاف الرّاغبِين المَطبوع بهَامش نُور الأَبصَار: ١٥١ طَبعة السّعيدية: ١٣٧ طَبعة العُثمَانِية، خصَائص أَمِير المُؤمِنِين للنّسائي: ٩٦ طَبعة الحَيدرِية: ٢٦ و ٢٧ طَبعة مِصر، المِلل والنّحل للشّهرستاني: ١ / ١٦٣، بَيروت.

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٨/ ٧١. (مِنْهُ ﷺ).

لَقَد بَعث إِلَيْهِمْ عَبدالله بن عَبّاس وَقَالَ لهُ:

لا تَعجل فِي جوَابِهم وخصُومتهِم حَتَّىٰ آتِيك فإنِّي فِي أَثرك. فَلمّا أَتَاهُم عَبدالله بن عَبّاس رَحّبوا بِهِ وأكرمُوه.

وقَالُوا: مَا الَّذي جَاء بِكَ يا أبن عَبّاس؟

قَالَ: جِئتكُم مِن عِند خَلِيفَة رَسُول الله ﷺ، وأبن عَمّه، وأَعلمنا بِربّه، وسُنَّة نَبِيّه مُحَمّد ﷺ.

فقَالُوا: يَا آبن عَبّاس إنّا أذنبنا ذَنباً عَظِيماً حِين حَكّمنا الرِّجَال فِي دِين الله تَعَالىٰ، فإنْ تَاب كمَا تُبنَا ونَهض لمجَاهدة عَدوّنا رَجعنا إليه. فَلم يَصبر آبن عَبّاس عَلىٰ مُحَاورتهم.

وَقَالَ: أنشدكُم الله إلّا ماصَدقتُم، أمَا قَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ ٱلنّسَاء: ٣٥، فِي حَقِّ المَرْأة وزَوْجهَا؟

قَالُوا: أَللّهُمَّ، نَعم.

قَالَ: فَكيف بِأُمّة مُحَمّد ﷺ؟

فقَالت الخَوَارِج: أمّا مَا جَعل الله تَعَالىٰ حُكمه إلىٰ النَّاس وأَمَّرهُم بِالنّظر فيهِ، والإصْلاَح لهُ فهُو إِلَيْهِمْ، ↔

⇐ وأمّا مَا حَكَم بِهِ وأَمْضَاه فَلَيس لِلعبَاد أنْ يَنظرُوا فيهِ، حَكَم فِي الزَّاني مِئة جَلدة، وفِي السَّارق بِقَطع يَده، فَلَيس لِلعبَاد أنْ يَنظرُوا فِي هَذَا.

فقَال آبن عبَّاس: وَقَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيَام بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ المائدة: ٩٥. فتأمّل فِي أرْنَب يُساوي رُبع دِرهم يُصاد فِي الحَرَم.

فقَالُوا: أتَجْعل الحُكم فِي الصَّيد وشِقَاق الرَّجُل وزَوجته كَالحُكم فِي دِماء المُسْلمِين؟ أنظر تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٤٧/٤ بإختلاف يَسِير مَع زِيادة: أوَ تَجعَل الحُكم فِي الصَّيد والحَدَث يَكُون بَيْن المَرْأة وزَوْجَها كالحُكم فِي دِمَاء المُسلمِين؟

وقَالت الخَوَارِج: قُلنا لهُ: فهَذه الآيَة بَيْننا وبَيْنك.

ثُمّ قَالُوا لهُ: أعَدل عِندك عَمرو بن العَاص وهُو بالأمس يُقاتلنا ويَسفك دِماءنا؟ فإنْ كَان عَدلاً فَلسنا بِعدُول ونَحْنُ أَهْل حَرْبه. وقَد حَكمتُم بِأمر الله تَعَالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إشَارة إلىٰ الآيَة الكريمة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ٱلنِّسَاء: ٣٤. وَقَد أمضىٰ الله تَعَالىٰ حُكمه فِي مُعَاوِيَة وأصْحَابه أنْ يُقتلوا أو يَرجعُوا، وقَد كَتَبتُم بَيْنكُم وَبَيْنهُم كتَاباً وقَد جَعلتُم بَيْنكُم المُوَادَعة، وقَد قَطع الله المُوَادَعة بَيْن المُسْلمِين وأَهْل الحَرْب مُنذ نَزلت بَرَاءة إلّا مَن أقَرّ بالجِزيَة.

أنظر، الفُتُوح لِإبْن أعثَم: ٢/٢٥١ مع إختلاف فِي اللَّفظ، وتَأريخ الطَّبَرِي: ٤/٤٧ أيضاً.

وَرَدَت مُنَاظرة آبن عَبَّاس عليه السلام مَع الحَرُورِيَّة بِألفاظ مُختلفة وفِي مصَادر مُتعدّدة، ولكنْ لِكثْرة المصَادر وإختلاَف الألْفَاظ الّتي تُؤدّي نَفْس المَعنىٰ فَنحنُ نَذكر المصَادر أوّلاً بِشَكل إجمَالي ثُمّ بَعد ذَلِكَ نُشير إلىٰ الفِقرَات الّتي وَرَدت.

أُنظر، تَذكرة الخَواصّ لِإبْن الجَوزي الحنَفي: ٩٥، مروج الذَّهب: ٢/٤٠٤، شَرح ٱلنَّهج للعلاَّمة الخوئي: ٤/١٢٦، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٤/٥٢ ومَا بَعدها، الكَامِل لِإبْن الأثِير: ٣/٣٣٤، خصَائص أمِير المُؤمِنِين للنّسائي: ١٥٠ ـ ١٥٢ ح ١٨٥، دَلائل النُّبوّة: ٤/١٤٧، المنَاقب للخوارزمي: ١٩٢ ح ٢٣١، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٢/٢٠٤، شَرح ٱلنَّهج لِإبْن أبِي ٱلحَدِيد: ٢/٢٣٢، و: ١٠/٢٥٨.

وأُنظر، الإرْشَاد للشَّيخ المُفيد: ٦٣، مَجمَع البَيَان: ٥/١١٩، المُصَنَّف لعبد الرّزاق: ١٠/١٥٧ ـ ١٦٠ ح ١٨٦٧٨، جَامع بيَان العِلم وفَضله لِإبْن عبد البرّ: ٢/١٠٣، الحَاكِم فِي المُستَدرَك: ٢/١٥٠، مَناقب آبن المغازلي: ٤٠٦ ح ٤٦٠، البدَاية والنّهاية: ٧/٢٨٧، الأغَاني: ٥/٩، كتَاب السُّنَّة: ٢/٥٩٩.

⇔

↩ وأنظر تَرجَمة الصَّحَابَة الّذين شَهدوا النَّهْرَوَان مَع عَليّ عليه السلام: أُسد الغَابَة: ١/ ٣٨٥، و: ٢/ ٣٥١ و٣٧١ و٣٧٥، و: ٣/ ١٥٠ و٣٥٤، و: ٤/ ١٠٠ و٢١٥، و: ٥/ ١٢٢ و١٤٣ و٢٧٤، أنْسَـــاب الأَشْرَاف: ٢/ ٣٦٢ و٣٦٨ و٣٧١ و٣٧٥.

ورَاجع تَأريخ اليَعقوبي: ٢/ ١٦٧ طَبْعَة الغَري، تَلبِيس إبْلِيس لاِبْن الجوزي: ٩١ مع اختلاف فِي اللَّفظ، وذَكره اليَافعي فِي مرآة الجنَان: ١/ ١١٤، المَعْرِفَة والتَّأرِيخ لأبِي يُوسف البسوي: ١/ ٥٢٢، البِدء والتَّأرِيخ للمَقدسي: ٥/ ٢٢٣.

وهُنا نَذكر مَا جَاء بِهِ الحَافظ عبد الرَّزاق الصَّنعاني فِي مُصنّفه: ١/ ١٥٧ ح ١٨٦٧٨:

عَن عِكرِمَة بن عَمّار قَالَ: حدّثنا أَبُو زَمِيل الحَنفي قَال: حَدّثنا عَبدالله بن عَبّاس رضي الله عنه قَال: لمّا إعْتزَلت الحروراء فكَانوا فِي دَارٍ عَلىٰ حِدتهم، فقُلت لِعليّ: يَا أَمِير المُؤْمِنِين أبرد عَن الصَّلاة لِعلّي آتِي هَؤُلاَء القَوم فأُكلمهُم، قَالَ: إنِّي أتخوّفهُم عَليك، قُلت: كَلّا إنْ شَاء الله تَعالىٰ، قَالَ: فَلبَستُ أَحسن مَا أَقدر عليهِ من هَذِه اليَمانِية. قَالَ: ثُمّ دَخلْت عَليهم وهُم قَائِلون فِي نَحر الظَّهِيرة.

قَالَ: فَدَخَلْت عَلىٰ قَوم لَمْ أر قَوماً قَطّ أشدّ إجْتهَاداً مِنهم، أيْدِيهم كأنّها ثُفن الإبِل، ووجُوههم مُعلّمة مِن آثار السّجود. قَالَ: فَدخَلْت، فقَالُوا: مَرحباً بِك يا ابن عَبّاس مَا جَاء بِك؟ قُلت: جِئت أُحدّثكُم عَن أصْحَاب رَسُول الله صلى الله عليه وآله عَليهم نَزل الوَحي، وهُم أَعلم بِتأوِيله.

فقَال بَعضهُم: لاَ تُحدّثوه،

وَقَالَ بَعضهُم: والله لنُحدّثنّه.

قَالَ: قُلت: أخبرُوني مَا تَنقمُون عَلىٰ ابن عَمّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله وخَتنه وأوّل مَن آمن بِهِ وأصْحَاب رَسُول الله مَعه؟

قَالُوا: نَنقم عَلَيْهِ ثَلاَثاً.

قَالَ: قُلت: ومَا هُنّ؟

قَالُوا: أوّلهُنَّ أنّه حَكّم الرِّجَال فِي دِين الله، وقَد قَالَ الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

قَالَ: قُلت: ومَاذا؟

قَالُوا: وقَاتل ولَم يَسْبِ ولَم يَغنم، لَئِن كَانوا كفّاراً لقَد حَلّت لهُ أَموالهم، ولئِن كَانوا مُؤمِنِين لقَد حَرمت عَلَيْهِ دِماؤهم.

⇐ قَالَ: قُلت: ومَاذَا؟

قَالُوا: مَحا نَفْسه مِن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِين، فإنْ لَمْ يَكُن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِين فهُو أَمِير الْكَافِرين.

قُلت: أَرَأيتُم إنْ قَرَأتُ عَليكُم مِن كتَاب الله المُحكم وحَدّثتكُم مِن سُنَّة نَبِيِّه ﷺ مَا لاَ تُنكرُون أترجعُون؟

قَالُوا: نَعم.

قَالَ: قُلت: أمّا قَولكُم: حَكّم الرِّجَال فِي دِين الله، فإنَّ الله تَعَالَىٰ يَقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ـ إلىٰ قَوْله: ـ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾. وَقَالَ فِي المَرأَة وزَوْجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، أنشدكُم الله أحكم الرِّجَال فِي حَقن دِمَائِهم وأنفسهم وإصْلاَح ذَات بَيْنهُم أَحقّ أَمْ فِي أَرْنَب ثَمَنُهَا رُبع دِرهم؟

قَالُوا: أَللّهُمّ بَل فِي حَقن دِمَائِهم وإصْلاَح ذَات بَيْنِهم.

قَالَ: أَخَرَجتُ مِن هَذِه؟

قَالُوا: أَللّهُمّ نَعم.

قَالَ: وأمّا قَولكُم: إنّه قَاتل ولَم يسْبِ ولَم يَغنم، أتسبُون أُمّكُم عَائِشَة؟ أَمْ تَسْتحلّون مِنْهَا مَا تَسْتَحلّون مِن غَيْرها؟ فَقَد كَفرتُم، وإنْ زَعمتُم أنّها لَيست أُمّ المُؤمِنِين فَقَد كَفرتُم وخَرجتُم مِن الإِسْلام، إنّ الله يَقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ فَأنتُم مُتردّدون بَيْن ضَلالتِين، فَأختَاروا أيّتها شِئتُم، أَخَرَجتُ مِن هَذِه؟

قَالُوا: أَللّهُمّ نَعم.

قَالَ: وأمّا قَولكُم: مَحا نَفْسه مِن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِين، فَإنَّ رَسُول الله ﷺ دَعا قُريشاً يَوم الحُدَيْبِيَة عَلىٰ أنْ يَكتب بَيْنهُ وبَيْنهُم كتَاباً فقَال: أُكتب هَذَا مَا قَاضىٰ عَلَيْهِ مُحَمّد رَسُول الله. فقَالُوا: والله لَو كنّا نَعلم أنّك رَسُول الله مَا صَددنَاك عَن البَيت ولاَ قَاتلنَاك، ولكنْ أُكتب مُحَمّد بن عبدالله، فقَال: والله إنّي لرَسُول الله حقّاً وإنْ كذّبتمُوني، أُكتب يَا عَليّ مُحَمّد بن عبدالله. فرَسُول الله ﷺ كَان أفضَل مِن عَليّ، أَخَرَجتُ مِن هَذِه؟

قَالُوا: أَللّهُمّ نَعم. فَرَجع مِنْهم عشرُون أَلفاً وبَقِي مِنْهُم أَرْبَعَة آلاف فَقُتلوا.

أُنظر المحَاورة أيضاً فِي الفُتوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢ / ٢٤٩ لتَجد فِيها الإختِلاَف فِي اللّفظ واضح جِدّاً، تَأريخ الطَّبَرِي: ٤ / ٤٧، وشَرح النَّهج لِابْن أَبِي الحَدِيد: ٢ / ٢٩ وفِيهِ: قَالَ لَه: يَا ٱبن عَبّاس أمض إلىٰ هَؤلاَء ⇐

وَحَدِيث عَلي مَع الْحَقّ رَوَاه التّرمِذي فِي صَحِيحه: ٢ / ٢٩٨ طَبعَة بولاَق سَنَة ١٢٩٢ هكمَا فِي كتَاب «فَضَائِل الْخَمْسَة» وعَبد الرَّحمن بن الجَوزي فِي «صَيد الخَاطر»: ٣٨٥، طَبعَة السَّعادَة دَار الكُتب الحَدِيثة بمِصْر. أمَّا حَدِيث: «مَن كُنتُ مَوْلاَه... فَهُو مِن المُتوَاترَات عِند الشِّيعة، والسُّنَّة، ومِنْهُم التِّرمِذي، وٱبن ماجه، وٱبن حِنْبل، والنِّسائي وغَيْرهمْ. أُنظر، كتَاب «الغَدِير» للأَمِيني.

⇐ القَوم فأنظر مَا هُم عَلَيْهِ ولمَاذا أجتمعُوا، الكَامِل في التَّأرِيخ: ٣٢٦/٣ مثل لَفظ الطَّبَرِي، المُسترشد فِي الإِمَامة للحَافظ آبن رُستم الطَّبَرِي الإِمَامي: ٣٨٩، وأُنظر مُناشدته، ومُحاججاته مَع الْخَوَارج في كَشف اليَقين: ١٦٢، الرِّياض النَّضرة: ٢ / ٢٤٠ الطَّبعة الأُولىٰ، الخصَائص للنَسائي: ٤٨ طَبْعَة مِصر.

وفِي شَرح النَّهج لابي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٣٣ و٢٣٨ و٢٤٠ أنّ أصل هٰذَا الكَلاَم قَالته الْحَرُورِيَّة للإِمَام عليّ عليه السلام، وليس لِابْن عَبَّاس بِلفظ: يَا عليّ قَد كُنَا زَللنا وأَخْطَأنا حِين رَضِينا بِالحَكمين، وقَد بَان لنَا أنّا زَللنا وأَخْطأنا فرَجعنا إِلىٰ الله تَعالىٰ وتُبْنَا، فَأرجع أنْتَ يَا عَليّ كمَا رَجعنا وتُب إِلىٰ الله كمَا تُبْنَا وإلاّ بَرئنا مِنك... (وأُنظر، ينَابيع المَوَدَّة: ٢ / ٢٠ ـ ٢١، شَرح النَّهج لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢٣٨/٢ تَحقِيق مُحَمَّد أبُو الْفَضْل، وَقعة صِفِّين: ٥١٧، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ١٦٨/١، الكَامِل لِابْن الأثِير: ٢ / ٤٠٤).

الرسالة
-٧٨-

إلىٰ أَبِي مُوسىٰ الأَشْعَرِيِّ:

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا، وَ نَطَقُوا بِالْهَوَىٰ. وَ إِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنْزِلًا مُعْجِباً، اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، وَ أَنَا أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَلَقاً. وَ لَيْسَ رَجُلٌ - فَاعْلَمْ - أَحْرَصَ عَلَىٰ جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَ أُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ. وَ سَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَ إِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ، وَ التَّجْرِبَةِ، وَ إِنِّي لَأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ، وَ أَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ اللهُ. فَدَعْ مَا لَا تَعْرِفُ، فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ، وَ السَّلَامُ.

اللُّغَة:

مُعْجِباً: يَدْعُو لِلتَّعَجُّب. وقَرْحاً: جُرْحاً. وعَلَقاً: دَماً غَلِيظاً وفَاسِداً. والْمَآبِ: الْمَرْجِع. ووَأَيتُ: وَعَدْت وتَعَهَدت. وأَعْبَدُ: آنَفُ.

الإِعْرَاب:

أَحْرَصَ خَبَرَ لَيْسَ، وٱعْلَمْ جُمْلَة مُعْتَرِضَة، ومِنِّي مُتَعَلِّق بِأَحْرَص.

الْمَعْنَىٰ:

رَشَّح الْإِمَام لِلتَّحْكِيم عَبد الله بن عَبَّاس، فقَال مُعَاوِيَة: كَلا، إِنَّ لهُ قَرَابَة قَرِيبَة مِن عَليّ... هَذَا مَع العِلم أَنَّ ٱبن العَاص شَرِيك فِي الغَنِيمَة مَع مُعَاوِيَة، ذَهَب إِلىٰ التَّحكِيم وفِي جَيبِه صَكّ بِمِصْر مِن مُعَاوِيَة... ولاَ أَدرِي كَيف سَكَت أَصْحَاب الْإِمَام عَن ذَلِكَ؟... أَللَّهُمَّ إِلّا أَنْ يَكُون بَعْض الرُؤُوس مُتَآمِرين مَع مُعَاوِيَة... ومَهْمَا يَكُن فَقَد رَفَض أَصْحَاب الْإِمَام ٱبن عَبَّاس، وأَكرهُوا إِمَامَهُم عَلىٰ تَرشِيح الْأَشْعَرِيّ الَّذي يُرِيدَه مُعَاوِيَة، ولاَ يَرضىٰ بِغَيرِه[1].

ويُقَال: إِنَّ البَعض ذَكر ٱسم أَبِي الأَسوَد الدُّؤلِي لِلتَّحكِيم كَبَدل عَن ٱبن عَبَّاس والْأَشْعَرِيّ، ولكنْ تَمَّ الاِتْفَاق عَلىٰ أَبِي مُوسىٰ.

ورُوِي عَن الشَّعبِي أَنَّه قَالَ: «قاتل الله أبا الأَسود مَا كَان أَعَفّ أَطْرَافه، وأَحْضَر جوَابه!. دَخَل عَلىٰ مُعَاوِيَة بِالنُّخَيْلَة ـ بَعد أَنْ ٱستقَام لهُ الْأَمْر ـ. فقَال لهُ: أَكُنتَ ذُكِرتَ لِلحكُومَة؟.

قَالَ: نَعم.

قَالَ: مَا كُنْتَ صَانِعاً؟

قَالَ: كُنْتُ أَجْمَع أَلفاً مِن الْمُهَاجِرِينَ وأَبْنَائهم، وأَلفاً مِن الْأَنْصَار وأَبْنَائهم، ثُمَّ

(١) تَقَدَّم ٱستخرَاج ذَلِكَ.

أَقول: يَا مَعْشَر مَن حَضَر أَرَجُلٌ مِن الْمُهَاجِرِينَ أَحَق أَمْ رَجُل مِن الطُّلقاء؟. فلعنه مُعَاوِية. وَقَالَ: الحَمْد لله الَّذي كفَانَاك[1].

وبَعد إجتَمَاع الأَشْعَرِيّ، وأبن العَاص، وقَبل إعلاَن الحُكْم كَتَب الإمَام لأَبِي مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ يَقول: (فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ) أي مِن دِينهم، والمُرَاد بِالنَّاس هُنا الصَّحَابَة، ومِنْهُم الأَشْعَرِيّ، وقَول الإِمَام: «قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ» يُشِير إِلىٰ مَا رَواه البُخَارِيّ فِي الجُزْء التَّاسع مِن صَحِيحه كتَاب الْفِتَن: «إنَّ الرَّسولﷺ يقول يَوْم الْقِيَامَة: أي رَبِّي أَصحَابِي. فَيَقُول لهُ، لاَ تَدري مَا بَدلُوا بَعْدك. فَيَقول النَّبِيﷺ: سُحْقاً سُحْقاً لِمَن بَدَل بَعْدِي»[2].

(وَ إِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنْزِلًا مُعْجِباً) المُرَاد بِهَذا الأَمْر الخِلاَفَة، ومُعْجِباً أي يَدعُو لِلتَّعَجُب، وذَلِكَ لأَنَّه قَد (اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ) أي كَان

---

(١) أُنظر، الأَمَالي لِلسَّيِّد المُرتضىٰ: ٢١٢/١.

(٢) أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢٤٠٦/٥ ح ٦٢١٢ و: ٢٥٨٧/٦ ح ٦٦٤٣، صَحِيح مُسْلِم: ٢١٨/١ ح ٢٤٨ و: ١٧٩٦/٤ ح ٢٢٩٠، مُسنَد أَحمد: ٣٠٠/٢ ح ٧٨٩٠ و ٩٢٨١ و ١١٢٣٦ و ٢٢٨٧٣ و ٢٢٩٢٤ و: ١٤٠/٣ و: ٢٩٧/٦، سُنن أبن مَاجه: ١٤٣٩/٢ ح ٤٣٠٦، مصَابِيح السُّنَّة: ٥٣٧/٣، تَفْسِير القُرطُبي: ١٦٨/٤، صَحِيح أبن خُزيمة: ٦/١ ح ٦، مُسْنَد أبي عوَانة: ١٢٢/١ ح ٣٦٢، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبرىٰ: ٧٨/٤ ح ٧٠٠١، مُسْنَد عُمر بن الخَطَّاب: ٨٧/١، المُعْجَم الأَوسط: ٣٠٧/٨ ح ٨٧١٤، مُسْنَد الرّوياني: ١٩٢/٢ ح ١٠٢٢ و ١٠٥٤، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٣٨٨/١ ح ٦٥٠٢، المُعْجَم الكَبِير: ٤١٣/٢٣ ح ٩٩٧، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٢٠٦/٤ ح ٥٤١٩، البَيَان والتَّعريف: ٢٩٦/١، فَتح البَاري: ٣٨٥/١١، شَرح النَّووي عَلىٰ صَحِيح الإِمَام مُسْلِم: ١٩/٣ و ١٣٦ و ١٣٩ و ١٤٠ و: ٥٤/١٥، الدِّيباج: ٣١٠/٥ ح ٢٢٩١، فَيض القَدير: ٤٥/٣ و: ٣٥٣/٥، السُّنن الأَبْيَن والمُورد الأَمْعَن فِي المُحَاكمة بَيْن الإمَامِين فِي السَّند المُعَنْعَن: ١٧٦/١.

المَفرُوض، وأنَا خَلِيفَة المُسْلِمِين، إنِّي أَبْرَمت أَمـرَاً أنْ يُـطِيعُونِي فـيهِ. ولكـنَّ الله سُبْحَانَهُ قَد ٱبتلاَنِي بِأصْحَاب مَغرُورِين لاَ تُعْجبهُم إلاّ آرَاؤهُم، فَـيَعتَرِضُون كُـلَّما رَأَيْت رَأياً، كَما حَدَث حِين ٱخْتَرت ٱبن عَبَّاس لِلتَّحكِيم، فَأَبـوا إلاّ أَبـا مُـوسىٰ الأَشْعَرِيّ.

(وَ أَنَا أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَلَقاً) أنَا حَائِرٌ فِي أَمر هَؤُلَاءِ الأَصْحَاب لا أَدرِي كَيف أُعَالِجهُم مِن غرُورهُم؟ فَـالحُسنىٰ لاَ تُجـدي مَـعْهم نَـفْعَاً، والقُـوَّة تَزِيدهُم فَسَاداً وعِنَاداً، وَتَشَتُت جَمْعَهم... إنَّ حَالِي مَعْهُم تَماماً كَحَال الطَّبِيب الَّذي يُحَاول أنْ يُعَالج جُرحَاً، وفِي الوَقت يَخشىٰ إذَا حَرّك مِنْهُ سَاكِناً أنْ يَتحَول إلىٰ عَلَقٌ يُسَمِم البَدن بِكَامله.

(وَ لَيْسَ رَجُـلٌ ـ فَٱعْـلَمْ ـ أَحْـرَصَ عَـلَىٰ جَـمَاعَةِ أُمَّـةِ مُـحَمَّدٍ ﷺ وَ أُلْـفَتِهَا مِنِّي... ٱلْمَآبِ) لاَ ٱستَعمل القُوَّة مَع أصْحَابِي خَوْفاً مِن الْفِتْنَة وٱختلاَف الكَلِمَة بَيْنَ المُسْلِمِين، وأنَا حَرِيص عَلىٰ الأُلْفَة والتَّعَاون عَلىٰ الصَّالح العَام طَلَباً لِمَرضَاة الله وثَوَابه.

(وَ سَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَىٰ نَفْسِي) رَضِيت بِكَ مُكْرِهاً ـ يَا أبَا مُوسىٰ ـ ومَع ذَلِكَ سَأَفِي لَكَ، ولاَ أُغيرّ وأُبدّل إلاّ إذَا غَيّرت أَنْتَ وٱنْحَرفت (وَ إِنْ تَـغَيَّرْتَ عَـنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ) مِن يَقْظَتِك وحِذْرَكَ مِن كَيد ٱبن العَاص ومَكْرَه، ووقُوفَك إلىٰ جَانب الحَقّ وأَهْله (فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِـنَ الْـعَقْلِ... إلخ). إنْ خَدَعك ٱبن العَاص فَأنتَ أَشقىٰ مَن عَلَيْها لأنّك، وهَذِه هِي حَالك، تَكُون بِلا عَقل وعِلم، وأُضحُوكَة وأُلعُوبَة لِابْن العَاص... وقَد حَدَث مَا قَاله الإِمَام، وأَصْبَح أبُو مُوسىٰ مَثلاً للبَلاَهة والجَهَالة مَدىٰ الدَّهر.

(وَ إِنِّي لَأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ) أَنَا أَكرَه البَاطِل مِن غَيْرِي، فَكَيف أرفعَله ولاَ أَنْكرهُ مِن نَفْسِي ؟ (وَ أَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ اللهُ) إِذَا أَنْتَ أَخْلَصتَ لله، وتَوخَيت صَلاح المُسْلِمين ـ يَا أَبَا مُوسىٰ ـ فَأَنا أَوَّل المُقرين لِعملكَ والشَّاكرين لِفَضلك، وكَيف أَرْفُض الصُّلح، والصَّلاح لِلْمُسْلِمِين، وفِيهِ رِضىً لله ورَسُوله (فَدَعْ مَا لَا تَعْرِفُ) إِلىٰ مَا تَعْرِف أي لاَ تَتَفَوَّه بِكَلمة، أو تَأْتِي بِحَرَكة إِلَّا وَأَنتَ عَلىٰ يَقِين مِن صوَابها ورِضىٰ الله بِها، ومِثله قَوْله ﷺ: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ»[1] (فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ) المُرَاد شِرَارَ النَّاسِ هُنا ٱبن العَاص، وأَضْرَابه، والمَعْنَىٰ أَنَّ هَؤُلَاءِ يُوَسوسُون فِي صَدرك بِالأَكَاذِيب، والأَضَالِيل فَٱحْذَرهُم.

(١) أُنظر، مُسْنَد أَحمد: ١٥٣/٣، الجَمُوع: ١٥٠/٩ و: ٢٤٥/١٧، الإِقْنَاع: ٢١٩/١، مُغني المحتاج: ٢٠/١، حوَاشي الشَّرواني: ٤١١/٣ و: ٦٩/٨، إعَانة الطَّالِبين: ٢٦٥/٢ و: ٢٤/٤، موَاهب الجَليل: ١٥٩/١، شَرح الأَزهَار: ٦١/٤، مُسْنَد زَيد بن عَليّ: ٧٤ و ١١٠.

الرسالة
-٧٩-

إلىٰ أُمَرَاء الْجُنْد:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ.

الْمَعْنَىٰ:

يَقول الإِمَام لِلقَادَة مُخَوِّفاً ومُحَذِّراً: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ أَخَذ القَادَة الأَقْوِيَاء مِن الأُمَم المَاضِية، أَخَذهُم بَغْتَة بِالنَّكَال لأَمرِين:

الأَوَّل: أَنَّهُم كَانوا يَحُولُون بَيْنَ الحَقّ وصَاحِبه، ولاَ يُمكّنونَه مِنْهُ إلّا إذَا دَفَع رِشوَة... حَتّىٰ كَأنّ الحَقّ لَهُم، وهُو يَشتَرِيه بمَا يَفرضُون عَلَيْهِ مِن الثَّمَن.

الثَّاني: أَنَّ القَادة يَفعَلُون المُنكَر ويَأمرُون النَّاس، بِفِعلِهِ فَيستَجِيبُون ويَستَسلمُون، وكَان عَلَيْهِمْ أنْ يرفضُوا ويَثورُوا. لِذَلِكَ يَضع سُبْحَانَهُ غَداً التَّابع فِي مُستوىٰ وَاحِد: ﴿وَقَالُواْ ـ أي التَّابعُون ـ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا

ٱلسَّبِيلَا رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1]. فقَال سُبْحَانَهُ فِي آيَة ثَانِيَة: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[2].

أي كَان عَلىٰ المُسْتَضْعَفِين أنْ يَثُورُوا ولاَ يَسْتَسلمُوا... ولمَّا رَضوا بِالقُعُود أذَاقَهُم سُبْحَانَهُ مَا كَانوا يَكْسِبُون.

وهُو، جَلَّت كَلِمَته، المَسْئُول أنْ يهدِينَا سوَاء الصِّرَاط بِمُحَمَّد وآلِهِ صَلوَات الله عَلَيْهِمْ أَجْمَعِين.

(١) ٱلْأَحْزَابِ: ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) ٱلْأَعْرَافِ: ٣٨.